الحركة الصليبية

صفحة مشرفة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى

الجزء الأول



دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور



مكتبة الأنجلو المصرية

الحركة الصليبية

صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الاسلامى
فى العصور الوسطى

الجزء الأول

تأليف

دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور

أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية.

عاشور، سعيد عبد الفتاح

الحركة الصليبية ج١ - تأليف: سعيد عبد الفتاح عاشور . - ط١ . -

القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠ .

٥٥٣ ص، ١٧ × ٢٤ سم

١- تاريخ الجهاد الإسلامى

أ- العنوان

رقم الإيداع : ١٤٩٠٠

ردمك: ٠- ١٦٥٧ - ٠٥ - ٩٧٧

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

تصميم الغلاف: ماستر جرافيك

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

الإهداء

إلى

المؤمنين بقوله تعالى

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد
الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله
لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

«لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية»

(الحاقة ، ١٢)

(١)

ترجع أهمية الحركة الصليبية بالنسبة لأمتنا إلى أنها تشكل تجربة فى تاريخ العروبة والإسلام جميعاً، سواء فى المشرق أو فى المغرب. وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج، وإنما هى تجربة كبري، خطيرة المغزى عميقة الأثر، مليئة بالدروس والعظات، مما يتطلب منا أن نستيقنها ونتدارسها فى كل وقت - الآن وفى المستقبل - لنستفيد من أخطاء الماضى ونتجنبها، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، وبذلك نحفظ لأمة الإسلام حقوقها، وللعروبة كيانها، ونحقق لأبنائنا حياة حرة كريمة على أرض الآباء والأجداد.

ثم إن ذيول الحركة الصليبية أوشكت على الإنتهاء فى القرن الخامس عشر للميلاد تقريباً لتتمخض عن نتائج غريبة متناقضة بالنسبة للوطن العربى الإسلامى من ناحية والغرب الأوربى المسيحى من ناحية أخري. فإذا كانت هذه الحركة تعبر فى مضمونها عن صفحة مثيرة فى تاريخ العلاقات بين العالمين الإسلامى والمسيحى فى العصور الوسطي، فما السر فى أنها إنتهت بتدهور وركود وانحلال فى العالم الإسلامى فى حين أنها جاءت مصحوبة، بنهضة عامة شاملة فى الغرب المسيحي، هى أساس نهضته الحديثة ؟؟

الواقع إن هذه ظاهرة تسترعى الانتباه وتستحق منا وقفة للتفكير والتعليل. قد تكون الحروب الصليبية فى حد ذاتها مسئولة عن الإنهيار الذى تعرضت له معظم البلدان العربية الاسلاميه، فى أواخر العصور الوسطي، بعد أن إستنفدت الحرب جهود هذه البلدان وإمكاناتها البشرية والمادية. ذلك أنه من الواضح أن الأخطبوط الصليبى الغربى ثبت أقدامه ونشر أذرعه فى بقعة هى بمثابة القلب من عالم الإسلام والعروبة ؛ ومن ذلك المركز المتوسط أخذ يسعى لتهديد الشام ومصر والعراق والحجاز. هذا فى الوقت الذى كانت تتعرض بلاد المسلمين فى الأندلس والمغرب وجزر البحر المتوسط لعدوان صليبى هو فى حقيقة أمره جزء من الحركة الصليبية التى استهدفت تطويق عالم الإسلام فى المغرب والمشرق جميعاً، وضرب المسلمين براً وبحراً أينما وجدوا. ومن الواضح أنه كان يصعب على المسلمين أن يواصلوا مسيرتهم الحضارية وسط تلك الأخطار الجسيمة الشاملة، فاضطروا إلى الإنصراف عن الإنشاء والتعمير والنشاط الحضارى بأوسع معانيه، والتفرغ للحرب والدفاع عن الأرض والتراث، مما أدى بهم إلى التخلف.

على أننا نجد لزاماً علينا من باب الأمانة التاريخية أن نشير إلى أن مظاهر الضعف والإنحلال السياسى والركود الحضارى بدت فعلاً فى بعض أجزاء الوطن الإسلامى قبل بداية حركة الإسترداد المسيحية فى أسبانيا بكثير، وقبل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق بكثير أيضاً. وإن من يتأمل أحوال عالم الإسلام منذ القرنين التاسع والعاشر للميلاد، ليسترعى نظره كثرة الثورات السياسية والصراعات الفكرية والخلافات المذهبية والحزازات العنصرية ... التى قامت فى جوف الأمة ؛ مما أدى إلى قيام ثلاث خلافات بدلاً من خلافة واحدة، وعديد من الدول المستقلة المتنابذة بدلاً من دولة واحدة متماسكة.

وبعبارة أخرى، فإن جذور الضعف فى دولة الإسلام إمتدت إلى ما قبل الحروب الصليبية. وليس حقيقاً ما يظنه البعض من أن تلك الحروب وحدها هى المسئولة عن حالة الذبول التى تعرض لها عالم الإسلام فى أواخر العصور الوسطي. وربما كان أقرب إلى الحقيقة التاريخية أن نقول أنه لولا ما أصاب عالم الإسلام من تفكك وضعف ما جرؤ الغرب الأوربى المسيحى على التفكير فى شن تلك الهجمات الواسعة على بلاد المسلمين. واذا كان الضعف قد إستشرى فى جسد الدولة الاسلامية قبل أن تبدأ الحركة الصليبية فإن هذه الحركة جاءت لتستنفد ما بقى لتلك الدولة من طاقة وجهد، مما أوقعها فى نهاية العصور الوسطى فريسة للتخلف والخور. هذا وإن كان ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث فى تلك المرحلة قد أفلح فى إقامة درع واق، أدى بصفة مؤقته – قرابة قرون ثلاثة – إلى حماية أجزاء واسعة من العالم الإسلامى من هجمات الغرب الأوربى المسيحي.

ومن جهة أخرى، فإنه من المعروف أن هناك معابر أساسية إنتقلت عليها حضارة المسلمين إلى الغرب الأوربي. ولكن الثابت أن حركة ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية نشطت بالذات على عصر الحروب الصليبية، وأن المركز الأول لتلك الحركة كان أسبانيا حيث أخذ المسيحيون يحاربون المسلمين فى شراسة وعنف. وكلما إستولى المسيحيون على بلد إسلامي،وجدوا أنفسهم أمام ثروة ضخمة، من مئات المخطوطات العربية فى العلوم والفنون والآداب وغيرها من الدراسات، فأقبلوا على هذا التراث فى نهم وشغف، يدرسونه ويتعلمون فيه وينهلون منه. وهذا هو التفسير الصحيح لحقيقة أصول النهضة الحضارية التى شهدها الغرب الأوربى إبان عصر الحركة الصليبية، وهى النهضة التى تعتبر أساساً لنهضته الحديثة. هذا كله بالاضافة إلى أن الحركة الصليبية ألهمت الغرب الأوربى نظرة واسعة إلى الحياة. وكان هذا الإتساع فى الأفق، والخروج بغرب أوربا من

نطاق العزلة الواضحة التى عاش فيها المجتمع الأوربى في الشطر الأول من العصور الوسطى – المعروف باسم العصور المظلمة – كان ذلك هو أهم ما أفادته أوربا من الحركة الصليبية، وهو الأمر الذى جاء مصحوباً بنمو روح الكشف والمغامرة عند الأوربيين.

(٢)

وسواء كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد، فمن الواضح أن الأوضاع التى تحيط بالعالم الاسلامى اليوم تجعلنا نشعر بأننا فى وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذى عاش فيه إجدادنا منذ تسعة قرون تقريبا ؛ الأمر الذى يتطلب منا دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية أمينة.

فإذا كنا نقف اليوم وجها لوجه أمام خطر إسرائيل التى قامت على أرض فلسطين المباركة، والتى تحرص بعض قوى الغرب المسيحى على مساندتها وإمدادها بالمال والسلاح لتمكينها من الثبات والبقاء ... فإن أجدادنا فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد وجدوا أنفسهم أمام دولة غريبة قامت على نفس البقعة من بلاد الشام، وحرص الغرب المسيحى أيضاً على زرعها ورعايتها وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من مساعدات بشرية ومادية ليضمن لها البقاء والإستمرار.

وإذا كانت دولة إسرائيل تستهدف اليوم – تحت ستار إقامة وطن قومى لليهود – السيطرة على البلاد العربية الاسلامية، الممتدة من الفرات إلى النيل، فإن الصليبيين فى العصور الوسطى ما كادوا يثبتون أقدامهم فى فلسطين حتى شرعوا يتوسعون شرقًا فى إقليم الجزيرة، وجنوباً فى إتجاه مصر ودلتا نهر النيل، بل لقد ركبوا البحر الأحمر ووصلوا إلى شواطيء الحجاز فى محاولة لهدم مقدسات المسلمين فى تلك البلاد.

وإذا كان التاريخ لا يبرىءحكام الدول العربية الاسلامية فى منطقة الشرق الأدنى بسبب موقفهم المتخاذل حتى تمكنت إسرائيل من الوقوف على قدميها، فإن التاريخ أيضاً لم ينس لحكام المسلمين في الشام والعراق ومصر «عدم اكتراثهم بالفرنج» عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام قبيل نهاية القرن الحادى عشر للميلاد، حتى أن المؤرخ المعروف أبا المحاسن يوسف بن تغرى بردى يتعجب من عدم خروج بعض هؤلاء الحكام لدفع الصليبيين «مع قدرتهم فى المال والرجال» !!

وإذا كانت بعض البلدان العربية الإسلامية، قد إبتليت اليوم بحكام دفعتهم شهوة التسلط وبريق الحكم وجنون الزعامة إلى التنكر للإسلام تحت ستار العروبة، والسقوط تحت أقدام كتلة الالحاد فى الشرق أو الإرتماء بين أحضان الإستعمار الجديد فى الغرب، والتخلص من معارضيهم بالإرهاب والإغتيال ... فإننا نسمع فى عصر الحروب الصليبية عن معين الدين أنر حاكم دمشق الذى دفعته شهوة الحكم والخوف على سلطانه من تيار الوحدة، إلى محالفة الصليبيين فى بيت المقدس، والتردد على حصونهم وقلاعهم ليبارك جرائمهم ضد أبناء وطنه ودينه. وما يقال عن معين الدين أنر فى دمشق، يقال أيضا عن ضرغام وشاور – من وزراء الخلافة الفاطمية المتداعية فى مصر – وعن الصالح إسماعيل الأيوبى صاحب دمشق، وكلهم حالفوا الصليبيين، وطلبوا معونتهم ضد منافسيهم. وإن المشتغل بتاريخ الحركة الصليبية ليتملكه العجب والأسف عندما يجد بعض أبطال الجهاد الاسلامى مثل مودود وجناح الدولة وصلاح الدين الأيوبى يتعرضون لطعنات بخناجر مسمومة، نقشت على مقابضها عبارة «لا إله إلا الله» وإدعى أصحابها أنهم مسلمون. بل إن بعض هؤلاء الأبطال سقطوا صرعى فريسة الإغتيال داخل المساجد وبيوت الله، مثل الجامع الأموى بدمشق، وجامع حمص !!

وإذا كان أشد ما تخشاه إسرائيل اليوم هو قيام وحدة عربية أو إسلامية، تحيط بها وتخنقها، فإن الصليبيين فى العصور الوسطى إستماتوا لعدم تحقيق وحدة من هذا النوع فى منطقة الشرق الأدني، فقاوموا أى اتجاه وحدوى بين مدن بلاد الشام الاسلامية بعضها وبعض، وقاوموا أية حركة وحدوية بين المسلمين فى الشام والمسلمين فى مصر وإقليم الجزيرة والعراق، أو بين المسلمين فى الشام وإخوانهم فى آسيا الصغري. وعندما رأوا أن نور الدين محمود نجح فى إقامة وحدة إمتدت من الفرات إلى دمشق – مروراً بحلب – خشوا أن تكتمل تلك الدائرة بإستقطاب مصر، فحاولوا بشتى الطرق منع الوحدة بين مصر والشام والعراق، لأنه إذا تم هذا الأمر «فلن يبق لهم (أى للصليبيين) فى بلادهم مقام» على قول أحد المؤرخين المعاصرين.

وإذا كان الإستعمار العالمى قد مهّد لقيام إسرائيل، فحرص فى ختام الحرب العالمية الأولى على أن يمد نفوذه إلى إقليم الأردن ليستغل تلك المنطقة ذات الموقع الاستراتيجى الحسّاس فى الفصل بين العراق والجزيرة العربية والشام ومصر،

وبذلك يحول دون قيام أية وحدة عربية إسلامية فى الشرق الأدني، فإن الصليبيين ماكادوا يقيمون لأنفسهم دولة فى بيت المقدس، حتى قاموا بالمحاولة نفسها، فسعى أول ملوكهم بلدوين الأول إلى السيطرة على الأردن ووادى عربة، وشيد حصن الشوبك جنوبى البحر الميت، ومن ذلك المركز الحساس سعى الصليبيون الى قطع طرق الإتصال بين مصر والجزيرة العربية والشام والعراق.

وهكذا يبدو أن التجارب التى تمر بها الأمة الإسلامية اليوم، من أفغانستان إلى فلسطين وأرض الشام، ومن الفليبين إلى شبه القارة الهندية، ومن الحبشة وشرق افريقية إلى قلبها وغربها ومن شيشان إلى البلقان وأقاليم البوسنة والهرسك ... هذه التجارب تبدو فى ضوء دراسة التاريخ غير جديدة، إذ سبق أن تعرضت هذه الأمة – من الداخل والخارج – لنفس الأساليب من العدوان والخيانة والألاعيب والدسائس فى عصر الحركة الصليبية. وبقى علينا اليوم أن نتعلم ونستفيد من دروس التاريخ لنجتاز حاضراً مليئاً بالصعاب والمخاطر، إلى مانرجوه من مستقبل مشرق يفيض بالخير والعزة.

(٣)

والواقع إن عالم الإسلام شهد فى عصر الحركة الصليبية مؤامرات عدة من الخارج والداخل : مؤامرات من الغرب المسيحى لسلب المسلمين أرضهم وديارهم ؛ ومؤامرات من الصليبيين بالشام لتمزيق وحدة الصف الإسلامى والتنكيل بأبناء الأمة الاسلامية، ثم مؤامرات من بعض حكام المسلمين أنفسهم وبعض الجماعات والفرق والنحل التى إدعت الانتساب إلى الاسلام ، ضد إخوانهم فى الوطن والأصول.

ولكن هل نجحت تلك المؤامرات ؟ وإلى أى حد كان نجاحها أو فشلها ؟ إن العبرة فى تحديد النجاح أو الفشل تكون دائماً بالنتائج. وهنا نجد الحركة الصليبية وقد إنتهت – بعد قرون عدة، من الجهود التى إستنفدت الكثير من الأرواح والأموال – بطرد الصليبيين تماماً من الشام، وتطهير الأرض الطيبة من الدخلاء الغاصبين. وإذا كانت تلك الحركة قد إنتهت فى الأندلس على وجه آخر مخالف، فإن السبب فى ذلك يرجع أساساً لتطرف بلاد الاندلس فى الموقع، وبعدها عن قلب عالم الإسلام، فى الوقت الذى كانت تلك البلاد على مقربة شديدة من قلب العالم المسيحي، مصدر الحركة الصليبية ومنطلقها.

أما بالنسبة لقلب الدولة الإسلامية، فى الشرق الأدني، فإن المسلمين ظلوا مؤمنين بالله وبأنفسهم وبحقهم، فلم يستكينوا لحاكم خائن، ولم يأمنوا لشر ذمة هدامة متطرفة تتمسح بالإسلام، والإسلام برىء من أهلها، ولم يخافوا عدواً طاغياً نفذ إلى عقر بلادهم فى حين غفلة.

وهكذا يحكى التاريخ أن أهل دمشق لم يرضوا عن حاكمهم الخائن معين الدين أنر الذى حالف عدو الله وعدوهم، فثاروا ضده، وإتصلوا سراً بنور الدين محمود لتسليمه بلدهم تحقيقاً لوحدة إسلامية شاملة تستهدف الجهاد فى سبيل الله.

وعندما حاول الصالح إسماعيل صاحب دمشق أن يتآمر مع الصليبيين لغزو مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٤)، وجمع جيشاً من أهل الشام سار به جنباً إلى جنب مع الجيش الصليبى فى اتجاه أرض النيل، حدثت المفاجأة النابعة من ضمير هذه الأمة، إذ ما كاد الجيش الشامى يصل قرب غزة ويرى أمامه الجيش المصري، حتى إنفض أهل الشام عن حاكمهم الخائن، ورفضوا أن يشتركوا مع العدو الدخيل ضد إخوانهم فى الدين، «فساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعا على الفرنج فهزموهم» !! ؛ على قول بعض المؤرخين المعاصرين.

وبفضل هذا الايمان بالله، وبوحدة الهدف، والتمسك بوحدة الصف أمكن للمسلمين فى الشرق الأدنى أن ينتصروا فى معركة الحروب الصليبية فى العصور الوسطي. وقد أثبت التاريخ دائماً أن هذه الوحدة المنبثقة من صميم الواقع الاسلامي؛ المعبرة عن روح الإسلام وتعاليمه ومثله، لابد وأن تنتصر فى تحقيق أهدافها رغم ما يصادفها من عقاب يضعها فى طريقها أعداء الله فى الداخل والخارج.

والواقع إن أهم ما يسترعى إنتباهنا فى دراسة تاريخ الحركة الصليبية هو ذلك التوافق الشديد بين عناصر الأمة - عرب وأتراك واكراد وبربر وغيرهم - ؛ وتلك الإستجابة السريعة التى ربطت كل عضو من أعضاء ذلك الجسد الكبير ببقية الأعضاء : فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش من العراق لمنازلة الغزاه المعتدين، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرع جيوش الشام للذود عنها ؛ ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه فى مصر حتى يسخر جميع مواردها وطاقاتها البشرية والمادية لطرد الصليبيين من الشام، ولا يكاد أرناط صاحب حصن الكرك الصليبى يخرج فى البحر الأحمر على رأس حملة لضرب مقدسات المسلمين فى الحجاز حتى تخرج السفن والرجال من مصر

لمطاردته وإفساد خطته ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل على رأس حملة لغزو تونس سنة ١٢٧٠م حتى تتحرك الجيوش من مصر للدفاع عن المغرب ودفع الغزاة عنه ....

وهكذا ظل التجاوب سريعاً وتاماً بين كافة أجزاء الأمة الاسلامية فى المشرق والمغرب، الكل جسد واحد يحس بإحساس واحد، بحيث لا يشكو عضو إلا إستجابت له بقية الأعضاء فى سرعة وإيمان.

(٤)

وفى هذا الكتاب حاولت أن أقدم دراسة علمية أمينة للحركة الصليبية بمختلف أدوارها ومراحلها، وهى دراسة استنفدت من الجهد والوقت ما لا يعلمه إلا الله تعالي. وسيلمس القاريء أننى أعتمد فى هذه الدراسة على عدد ضخم من المصادر المعاصرة – عربية وغير عربية – فضلاً عن بعض المراجع الحديثة.

وقد ظلت المكتبة العربية شبه خالية من مؤلف واحد يعالج الحركة الصليبية من بدايتها حتى نهايتها علاجاً علمياً، مع ما لهذه الحركة من أهمية بالغة فى تاريخ أمتنا العربية والإسلامية وعلاقاتها بالغرب الأوربى فى العصور الوسطي. وبعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ أكثر من ربع قرن، بدأت تظهر بعض الدراسات الطيبة بالعربية فى جوانب من تاريخ الحركة الصليبية. ونحن نبارك هذا النوع من الدراسات الجديدة التى تتصف بالجهد والأمانة، وتستهدف خدمة العلم والكشف عن صفحات مستترة من التاريخ.

ولكن ما ينبغى أن نشير إليه هو أن البعض لم يلتزم بأصول الأمانة العلمية، وربما إستغل التشابه بين إسمه وإسم المؤلف ليسطو على ما فى هذا الكتاب من مادة علمية محاولا أن يخفى سوء عمله بشيء من الحذف والتقديم والتأخير. حتى الأخطاء المطبعية نقلها كما هى دون وعى أو ادراك، لأن لصوص الفكر والكتب – شأنهم شأن بقية أصناف اللصوص – يتصفون عادة بصفات مشتركة، منها أنهم فى عجلة من أمرهم، وأنهم أثناء مباشرة نشاطهم فى السطو على ما للغير لا يميزون بين نوعيات ما يسطون عليه وإنما يختطفون بسرعة ما يصادفهم دون تمييز، وهم فى الغالب لا يقدرون القيمة الحقيقية لما يستولون عليه بغير جهد، فضلا عن أنهم يحاولون إخفاء جرائمهم بتغيير بعض معالم ما يسرقونه. ولكن هذا

السلوك لا يؤدى فى النهاية إلا إلى انتاج سيىء غير أصيل، مشوه الخلق، مصطنع الصورة، مهلهل غير مترابط الأجزاء، وصدق الله العظيم حين يقول «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض».

وإننى إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة المنقحة الجديدة من كتاب الحركة الصليبية، أحمد الله على ما حققه هذا الكتاب من نجاح كبير منذ أن صدرت طبعته الأولى فى الستينات. وفي تلك السنوات أعيد طبع الكتاب اكثر من مرة، ولكن ظروفى الخاصة حالت بينى وبين مراجعة أصول تلك الطبعات بنفسي، الأمر الذى ترتب عليه حدوث تحريفات مطبعية عديدة وبخاصة فى الحواشى والهوامش. وأحمد الله الذى مكننى أخيراً من مراجعة مادة الكتاب فى هذه الطبعة مراجعة دقيقة، ومطابقة النصوص على أرقام الصفحات بالرجوع إلى المصادر الأصلية التى أعتمدنا عليها ؛ مما يجعل هذه الطبعة فى صورتها المنقحة المزيدة مرجعاً يستطيع أن يعتمد عليه الباحثون فى موضوع الحركة الصليبية.

ولا أدعى أننى وفيت هذا الموضوع حقه من البحث، وإنما هى محاولة أولى لدراسة تاريخ حلقة من أخطر حلقات الحقبة الوسيطة واكثرها ازدحاما بالأحداث. ومرة أخرى نكرر أننا نرجو أن تتبع هذه المحاولة محاولات جديدة لإستكمال جوانب الموضوع على أيدى الباحثين الجادين الشرفاء الامناء، وما اكثرهم فى أمتنا والحمد لله.

وقد دفعتنى رغبتى فى تسهيل مهمة من يرغب فى متابعة البحث فى موضوع الحروب الصليبية على أساس الخوض فى أعماق المصادر الأولي، لاالسطو على المؤلفات الحديثة وإغتصاب ما للغير، إلى تذييل هذا الكتاب بقائمة كاملة للمصادر التى أعتمدنا عليها فى تأليف الكتاب، فضلاً عن عدد من الجداول المفيدة والخرائط والملاحق.

وما زال بعض الكتاب الذين يتعرضون لموضوع الحروب الصليبية، يقعون فى كثير من الأخطاء عند تدوين أسماء بعض المدن والمواضع الجغرافية، وهى أخطاء تسبب فيها ترجمة تلك الاسماء من الكتب والمراجع الأوربية دون التحقق من الصيغ السليمة التى وردت فى المصادر العربية المعاصرة. لذلك وضعنا فى نهاية الكتاب كشافاً أبجدى الترتيب، بأسماء أهم المدن والمواضع الجغرافية كما وردت فى الحوليات والمصادر غير العربية وأمام كل إسم الصيغة العربية، الصحيحة له.

نسأل الله أن يوفقنا إلى العمل النافع الأصيل لخدمة هذه الأمة التى أراد لها الله عز وجل أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

والله ولي التوفيق

سعيد عبد الفتاح عاشور

الباب الأول

فلسفة الحركة الصليبية

"لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون"

(الأنعام، ٦٧)

الفصل الأول

ماهية الحركة الصليبية

أحوال الغرب الأوربى عند بداية الحركة الصليبية :

إعتاد المؤرخون أن يبدءوا الكلام عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى أحوال الشرق الأدنى فى القرنين الرابع والخامس للهجرة، أى العاشر والحادى عشر للميلاد، فيتعرضون للدولة العباسية أيام ضعفها حتى كان ظهور السلاجقة، ثم ينتقلون إلى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين أو الروم فى آسيا الصغرى وكيف أدت إستغاثة البيزنطيين بالغرب الأوربى وبالبابوية عقب موقعة مانزكرت إلى إثارة الحروب الصليبية.

ومع إعترافنا بوجاهة إتخاذ أحوال الشرق الأدنى مدخلاً للحروب الصليبية، إلا أننا نرى أن المدخل الطبيعي للموضوع يأتى من ناحية الغرب لا الشرق. حقيقة أن الإستغاثة ضد المسلمين أتت من الشرق، ولكن البواعث التى دفعت الغرب الأوربى إلى تلبية تلك الإستغاثة، والإسراع بالإستجابة لها والرد عليها رداً عملياً، هذه البواعث كلها غربية ولا يمكن فهمها إلا بالوقوف على أوضاع الغرب الأوربى وقت قيام الحروب الصليبية. ولا أقل من إلقاء نظرة سريعة على غرب أوربا في العصور الوسطى لنستطيع فهم البواعث التى حركت الحركة الصليبية.

أعقب سقوط الأمبراطورية الرومانية فى غرب أوربا على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦م فترة قاتمة إمتدت حتى القرن الحادى عشر، وأطلق بعض المؤرخين على تلك الفترة فى التاريخ الأوربى إسم «العصور المظلمة». ولم تقتصر مظاهر التأخر والإنحلال التى أصابت المجتمع الأوربى فى تلك الفترة على الإنحلال السياسي، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الإجتماعية والثقافية والإقتصادية. وإذا كان غرب أوربا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام شارلمان فى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر. ولم تلبث جموع الفايكنج أن أخذت تنزح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة وتدمرها فى غرب أوربا، فى الوقت الذى أوغل الهنغاريون فى وسط القارة حتى شرق ألمانيا، يخربون ويفسدون. وفى وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوربى بالنظام الإقطاعى

للحصول على قدر من الأمان والحماية، فإنحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع، وإضطر الأباطرة والملوك إلى التنازل عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع. ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعين قد نجحوا في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالياً فى ظل نظام إعتمد فى فلاحة الأرض علي الأقنان رقيق الأرض، وقام على أساس تحكم القوى فى الضعيف.

ولم يكن فى إستطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأى جهد لتعديل تلك الأوضاع، لأن الكنيسة نفسها - التى ظلت منذ سقوط الامبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس تمثل أكبر قوة في المجتمع الغربى - تعرضت هى الأخرى لموجة جارفة من الإنحلال والذبول فى القرنين التاسع والعاشر، فجرف التيار الاقطاعى رجال الدين وتصدع سلطان البابوية، وإنحط المستوى الخلقى لرجال الكنيسة (١).

على أن تلك الغمة لم تلبث أن أخذت تنكشف فى القرن الحادى عشر. ويميل بعض الباحثين إلى إعطاء سنة ١٠٠٠ للميلاد أهمية خاصة فى تاريخ أوربا، على أساس أن هذه السنة تمثل نقطة تحول كبرى فى تاريخ الغرب الأوربى (٢). ومع أننا لا نؤيد مبدأ إختيار سنة بعينها لتحديد بداية حركة حضارية فى التاريخ، إلا أنه لا يمكننا أن نتجاهل الصحوة الكبرى التى تعرض لها غرب أوربا منذ القرن الحادى عشر، وهي الصحوة التى بلغت ذروها فى القرن الثانى عشر وإستمرت بعد ذلك حتى نبعت منها النهضة الأوربية فى القرن الخامس عشر (٣).

ويطلق المؤرخون على هذه الصحوة التي تعرض لها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر إسم «النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر». وليس هذا مجال الخوض فى تفاصيل هذه النهضة، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها مست جميع أركان الحياة فى غرب أوربا. ففى المجال السياسى بدأت أوربا تشعر بنوع من الإستقرار بعد أن إنتهت إغارات الفايكنج، فأخذ ملوك الغرب يسعون سعياً حثيثاً لدعم سلطانهم فى بلادهم. وفي المجال الثقافى أخذ الأوربيون يعملون فى نهم لتحصيل

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٣٣٤ - ٣٣٩ (القاهرة، ١٩٦٦)

(2) Archer : The Crusades, p. 14 & Pognon (E) : L'An Mille.

(٣) سعيد عاشور : النهضات الأوربية ١١١ - ١١٢.

أكبر قدر من العلوم والمعارف التى إستقوها وترجموها عن الكتب العربية، وبالتالى فقد بدأ التطور الذى نبتت منه الجامعات لأول مرة فى غرب أوربا. وفى المجالين الاجتماعى والاقتصادى ظهرت صحوة المدن ونشاطها وبخاصة فى شمال إيطاليا. وصحب هذا النشاط هجرة كثيرين من أقنان الأرض إلى المدن للعمل فيها، مما أدى إلى تطور إجتماعى وإقتصادى خطير [1].

ثم إن هذه الصحوة الكبرى التى تعرض لها المجتمع الأوربى الغربى منذ القرن الحادى عشر كان لها أيضاً مظهرها الواضح فى مجال الدين. ذلك أن الكنيسة تعرضت عندئذ لحركة إصلاح شاملة تعرف باسم الحركة الكلونية. وقد بدأت هذه الحركة فى القرن العاشر بقصد إصلاح الحياة الديرية، ولكن لم يلبث أن أتسع نطاقها فى القرن الحادى عشر حتى صار هدفها الرئيسى إصلاح الكنيسة بوجه عام وعلاج الأمراض الخطيرة التى شكت منها الكنيسة عندئذ، وأهمها السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى [2] وإذا كانت الكنيسة قد أفلحت فى علاج السيمونية وزواج رجال الدين داخلياً عن طريق عدة مجامع عقدت فى القرن الحادى عشر، فان السعى لحل مشكلة التقليد العلمانى أوقع الكنيسة فى صراع عنيف مع السلطة العلمانية، وهو الصراع الذى نطلق عليه «النزاع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطي» [3] وقد إتخذ هذا الصراع شكلا عنيفاً منذ سنة ١٠٧٦ أى قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عاماً – وإستمر بعد ذلك سنوات طويلة. وفيه حشدت كل من البابوية والامبراطورية جميع قواها وإمكاناتها للتغلب على الطرف الآخر.

وخلاصة القول أن النهضة التى بدأت مظاهرها فى غرب أوربا فى ا لقرن الحادى عشر أمدت الغربيين بطاقة هائلة، وأمدت الكنيسة بقوة جبارة كان لابد من إستنفادها ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن النزاع بين البابوية والامبراطورية إنما جاء وسيلة لإستنفاد الطاقة التي تزود بها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر. على أنه كان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة كلها محليا وفى صراع داخلي، وصار لابد من البحث عن منفس خارجى لتوجيه قدر من تلك الطاقة إليه. وعندئذ ظهرت فكرة الحرب الصليبية لتهيء للغرب الأوربى ميداناً واسعاً يستغل فيه نشاطه المكبوت وحماسته المنطلقة.

(1) Thompson : The Middle Ages, vol 1 pp. 427 - 428.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ، ص ٣٤١ وما بعدها (١٩٦٦).

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٣٥٠ وما بعدها (طبعة القاهرة، ١٩٦٦)

ماهية الحركة الصليبية :

ولعل السؤال الذى يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟ الواقع أن الاجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التى أطل منها المؤرخون علي الموضوع، فهناك من المؤرخين من نظر إلي الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب، وهو الصراع التقليدى القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والروم. ومن الواضح أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأي عامل ديني، حيث أنه دار فى عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين. وربما بدا من الأرجح ربطه بالعامل الحضارى بوصفه صراعاً بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبين فى الحياة متباعدين. ويرى أنصار هذا الرأى أن الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور أحياناً، حتى كانت نهاية القرن الحادى عشر فاشتد غليانه وثورانه، وعندئذ وجد منفساً فى الحرب الصليبية. وزاد من حدة ثوران البركان فى تلك المرة أنه وجد سبباً جديداً قوياً للخلاف بين الشرق والغرب، هو الخلاف الدينى بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية.

وهناك فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بها من محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن الإسلامى - وبخاصة فى الشرق الأدنى - ليست فى حقيقة أمرها إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات الكبرى التى صحبت سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية (1). وذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية سنة ٤٧٦م صحبته موجات من الهجرات التى قام بها أهالى بلاد الإمبراطورية الغربية. وقد تفاوتت هذه الهجرات فى مداها الزمنى وفى إتجاهاتها وأثرها، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفزع والقلق الذى نجم عن سقوط الامبراطورية، ودخول عناصر جديدة من البرابرة داخل أراضيها. وكان الناس فى غرب أوربا فى العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية فى صورة دعامة كبرى لابد للعالم منها، ولا حياة لهم بدونها، لأنها تعنى الإستقرار والنظام والأمن والحضارة. وفى ضوء هذا التصور يمكننا أن نفسر شعور الفزع والرعب والقلق الذى إنتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية فى الغرب، إذ رأوا فى ذلك نذيرا بنهاية العالم وفنائه، وظنوا أن الساعة لابد وأن إقتربت. وبالإضافة إلى ذلك فانه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء مصحوباً بتدفق جموع البرابرة

(1) King : The knights Hospitallers in the Holy Land p. 15.

وبخاصة من الجرمان وقبائلهم داخل أراضى الإمبراطورية، الأمر الذى ترتبت عليه زعزعة أركان المجتمع الرومانى القديم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان. ولم يلبث الجرمان أن إعتنقوا المسيحية تدريجيا فأمدوا العالم الرومانى بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها فى كثير من الهجرات التى إتجهت إلى شمال إفريقية، وإنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا. وينادى بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية فى حد ذاتها ليست إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس.

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا إنطلاقة كبرى decumanus fluctus نتجت عن عملية الإحياء الدينى التى بدأت فى غرب أوربا فى القرن العاشر والتى بلغت أشدها فى القرن الحادى عشر، كما سبق أن أشرنا. ذلك أن حركة الإصلاح الكلونية كانت فى حقيقة أمرها حركة إحياء دينى بكل معانى الكلمة، ترتبت عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة وتحقيق نوع من الإشراف المركزى الدقيق على كافة الكنائس الغربية، وتقوية الجهاز الكنسى ودعمه، وربط أطرافه بالمركز الرئيسى فى روما، ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام فى الغرب الأوربي. ومهما يكن من أسباب الحرب بين البابوية والإمبراطورية، وعنف تلك الحرب ، فإن الاتجاه المتزن نادى دائما بألا يحارب الأخ أخاه. ولذلك ظهر شعور قوى فى القرن الحادى عشر بالرغبة فى العثور على منفس خارجي تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التى نجمت عن حركة الإحياء الدينى فى غرب أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر، وإذا كان الغربيون عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس للميلاد، إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية، وإذا خرجت جماعة من غرب أوربا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة (١). أما القرن الحادى عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة "en masse"، فكان يخرج للحج بضع مئات تحت زعامة أسقف أو نبيل، ويتجهون سويا من غرب أوربا فى صورة مظاهرة دينية سليمة قاصدين الأراضى المقدسة بالشام (٢). ومن أبرز هذه الجماعات الكبري، تلك التى خرجت من نورمنديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز، ثم تلك التى خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩(٣).

(1) Lorga : Hist des Croisades, pp. 3 - 11.

(2) Setton : A Hist of the Crusades, vol. 1, p. 76.

(3) Cam Med. Hist. vol 5, p. 269.

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التى بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلا استمرارا لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس، مع حدوث تطور فى الأسلوب، وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً. ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه اذا كان عدد الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم بعض الأسلحة للدفاع عن أرواحهم فى الطريق، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى فى الأسلوب الذى اتبعه كل فريق فى بلاد الشام ؟ أما ذلك التطور فى الأسلوب فمرجعه تلك الأخبار التى أخذت تصل إلى الغرب الأوربى عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد إستيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١ ثم إستيلائهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرد البيزنطيين المسيحيين منها، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لابد من إستخدام القوة لتأمين عملية الحج إلي الشام(١).

وأخيراً، فإن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين، ورأى فى الحروب الصليبية الوسيلة التى تحايل بها الغرب الأوربى للفكاك من قيود العصور الوسطى والإنطلاق إلى حياة أوسع أفقاً. ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفقها الكنيسة تحديداً ضيقاً. وكان كل من يحاول الخروج عن هذا الدائرة يتعرض لغضب الكنيسة وطرده من رحمتها، وبئس المصير. على أن الإتصالات التى تمت بين الغرب الأوربى والمسلمين – سواء المسلمين فى الاندلس أو فى المشرق – أظهرت للأوربيين أن الحياة أوسع أفقاً مما يظنون، فأخذت نسبة كبيرة من الناس فى غرب أوربا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها. وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوربية الوسيطة فى القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس فى التخلص من القيود المفروضة عليهم وتطلعهم إلى حياة أفضل. وكان من المتعذر فى الظروف التى أحاطت بالناس فى غرب أوربا فى ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة فى حركة ضخمة – مثل الحركة الصليبية – تدعو لها البابوية وتؤيدها الكنيسة، وفى الوقت نفسه تمكنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دنيوية أفضل. وبعبارة أخرى فقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتيحت للغربيين للجمع بين الخلاص فى الدنيا والثواب فى الآخرة.

(1) Setton : op . cit., vol, I, P. 78.

هذه هى أهم النوافذ التى أطل منها الباحثون على الحروب الصليبية. ونستطيع نحن فى ضوء الآراء السابقة وغيرها أن نعرف الحركة الصليبية بأنها :

«حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربى المسيحى فى العصور الوسطي، وإتخذت شكل هجوم حربى إستيطانى على بلاد المسلمين وبخاصة فى الشرق الأدنى بقصد إمتلاكها. وقد إنبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والإقتصادية والدينية التى سادت غرب أوربا فى القرن الحادى عشر، وإتخذت من إستغاثة المسيحيين فى الشرق ضد المسلمين ستاراً دينيا للتعبير عن نفسها تعبيراً عمليا واسع النطاق».

أدوار الحركة الصليبية ومداها الزمني :

جرى الوضع فى كتب التاريخ على تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتى ١٠٩٥ ، ١٢٩١ . ولكن هذا التحديد فى الواقع لا يعنى سوى الدور الحاسم التقليدى النشط فى تلك الحركة، وهو الدور الواقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام. وسنرى أن الحركة الصليبية بمعناها الواسع لها جذور ومقدمات سبقت سنة ١٠٩٥ زمنياً، كما أن التيار الصليبى إستمر بعد إسترداد عكا سنة ١٢٩١ ، الأمر الذى ترتب عليه عدم توقف الحرب الصليبية طوال القرن الرابع عشر وشطر من القرن الخامس عشر. ومن هذا يبدو أن تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتى ١٠٩٥ ، ١٢٩١ إنما هو تحديد خاطيء لا يقوم على أساس سليم، ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة، وإنما يكتفى بعلاج مبتور بشمل جزء من تلك الحركة، لا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخري.

ومن جهة أخرى يلاحظ عدم صحة ما جرى العرف عليه من تحديد عدد الحملات الصليبية التى خرجت من الغرب إلى الشرق فى المدة الواقعة بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر، بثمان حملات. والواقع أنه غير معروف بالضبط لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددى فى التاريخ دون البعض الآخر. فمنذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧ ، لم يمر عام واحد دون مجيء جموع صليبية جديدة، وبعض هذه الجموع فاقت فى كثرة أعدادها وفى أهمية ما حققته من نجاح الحملات الصليبية المألوفة التى فازت بأرقام فى التاريخ، ومع ذلك فان معظم هذه الجموع أو الحملات لم تمنح أرقاما

تضفى عليها قسطا من الأهمية فى التاريخ [1].

أما الحملات الثمان التى فازت بأرقام عددية ميزتها فى التاريخ، فقد إتجهت أربع منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) وإثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) وأخرى نزلت بشمال إفريقية (الثامنة). ولا يعرف على وجه التحديد السبب فى تميز هذه الحملات بإعطائها أرقاماً عددية دون غيرها من الحملات، وإن كان يبدو أن السر فى هذا التمييز إنما يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حققته من نجاح فى الأراضى المقدسة (مثل الحملة الأولي) أو ما منيت به من فشل ذريع إسترعى الإنتباه (الثانية) ؛ أو ما كان لها من إتجاه خاص جديد غير مألوف فى غيرها من الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة) أو لخروجها تحت زعامة بعض كبار ملوك الغرب (الثالثة والسادسة والسابعة والثامنة).

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, P. 3.

الفصل الثانى

بواعث الحركة الصليبية

يتضح من تعريفنا للحركة الصليبية أن هذه الحركة دفعتها بواعث حقيقية وأسباب قوية، إنبعثت من صميم المجتمع الأوروبى الغربي. حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين عندما تعرضوا لضغط من السلاجقة وغزوهم لأراضى الإمبراطورية إستعانوا بالبابوية، وطلبوا النجدة من الغرب الأوربي. ولكن لو لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك، لما لبى نداء الإستغاثة ولما إستجاب لدعوة الإمبراطورية البيزنطية فى تلك السرعة والقوة.

وسنحاول فى هذا الفصل أن نلقى نظرة سريعة على البواعث التى أدت بغرب أوربا إلى القيام بحركة من أهم الحركات فى تاريخ البشرية بوجه عام وفى تاريخ العصور الوسطى على وجه التحديد.

الباعث الديني :

إعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحده هى زاوية الدين، وأن يعالجوها علاجاً مبتوراً فى ضوء العامل الدينى وحدة، متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية وإقتصادية وإجتماعية وحضارية. من ذلك أن ريان Riant عرف الحروب الصليبية بأنها «حروب دينية إستهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام» [١].

حقيقة إن الحركة الصليبية لها فى إسمها وطريقة الدعوة لها والروح التى كيفت كثيراً من أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها. ولكن ليس معنى هذا أن التيار الدينى هو المسئول الوحيد عن إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة الموجهة لها. وإن المدقق فى تاريخ الحروب الصليبية ليسترعى نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت فى بعض حلقاتها، وأن الباعث الدينى كثيراً ما ذاب وسط التيارات السياسية والإقتصادية بوجه خاص [٢].

---

(1) Archives de L' Orient Latin 1. ps. 2 - 22.
(2) Iorga : Breve Hist des Croisades. pp. 1 - 2.

وللوقوف على قيمة الباعث الدينى فى الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل أوضاع الحياة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطي، وما إعترى تلك الأوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادى عشر، وذلك حتى لا ننزلق فى الطريق نفسه الذى إنزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين، وهم الذين إعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة فى سوء أحوال المسيحيين فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى وما تعرضوا له من إضطهادات وحشية، وكيف أن كنائسهم خربت، وأديرتهم أغلقت وطقوسهم عطلت ... فضلا عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات، وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الإسلامية التى مروا بها.

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن الحقيقة والتاريخ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا أساس له من الصحة، بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية من هذا الباب الوهمى كفيل بأن يصرف الباحث عن رؤية المدخل الحقيقى للموضوع. فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للإضطهاد الذى تعرض له المسيحيون - الشرقيون والغربيون - فى البلدان الإسلامية، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط به القرآن الكريم أهل الكتاب من رعاية وعناية، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة «وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ء أسلمتم فان أسلموا فقد إهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد»[1].

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائما فى كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة، تشهد عليها الرسالة التى بعث بها ثيودسيوس بطرق بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطرق القسطنطينية، والتى إمتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل فى شئونهم الخاصة. وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد فى رسالته : « إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت»[2] حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً فى بعض البلدان

(١) آل عمران، ٢٠. وكذلك قوله تعالي وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم : الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير. (سورة الشوري ١٤ ، ١٥).

(2) Thompson : Economic and Social Hist., vol. I, p. 385.

الإسلامية لنوع من الضغط والإضطهاد، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التى حرص الإسلام دائماً عليها، وهى التسامح المطلق مع أهل الكتاب. واذا كان بعض المؤلفين الأوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلا علي تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية، فلعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صحب إنتشار المسيحية ذاتها من إضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد وإستمرت حتى نهاية العصور الوسطي. وحسبنا ما قام به خلفاء الأمبراطور قسطنطين الأول من إضطهادات لإرغام غير المسيحيين علي إعتناق المسيحية، وما قام به شارلمان فى القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والآفار بحد السيف حتى أنه قتل من السكسون وحدهم فى مذبحة فردن الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة، وما إرتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة فى محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطيء البحر البلطى [١]. وهذا كله فضلا عما أتاه المبشرون الجزويت فى القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية فى الهند [٢].

ويضيف أحد كبار المورخين الأوربيين إن حالات الإضطهاد الفردية التى تعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأى حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فى ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا فى مكتباتها كتباً دينية متنوعة فى اللاهوت[٣]. ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التى عومل بها المسيحيون فى البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقا ما قام به رجل عرف بشذوذه – مثل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى – من تصرفات تجاه أهل الذمة. ولم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون فى مصر والشام يحظون بما ألفوه دائما من رحابة صدر الإسلام والمسلمين، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة فى بيت المقدس، ثم

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٣٩ ، ١٩٤ ، ٦٤٣ ، ٦٤٩.
(٢) توماس أرنولد : الدعوة إلي الإسلام ص ٣١.
(3) Vasiliev : Byzantine Empire, p. 393.

وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة فى أمن وسلام (١).

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم فى غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين فى آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحى منصف قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين فى الشرق، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وأن ما إعترى المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين (٢).

ولكن هل يعنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر فى تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من كلامنا السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماماً عند معالجة القوة التى وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر ؟ الواقع أننا لم نقصد ذلك مطلقاً وإنما أردنا أن نصحح إعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية، أما الإعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقاً القول بأن هناك أضطهاداً فريداً فى نوعه حل بالمسيحيين فى البلدان الاسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لإستثارة الغرب الأوروبي. وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى – وعلي رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه – قد إستغلوا فكرة الإضطهاد هذه للاستهلاك المحلى فى الدعاية لمشروعهم فى غرب أوربا، فإن عامة الناس فى مختلف بلدان الغرب الأوربى لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الإسلامية. والإعتبار الثانى هو أنه لا صحة اطلاقاً للفكرة الخيالية التى ظلت سائدة أمداً طويلا والتى صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوربا الى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر فى صورة المسيحيين المخلصين، الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجرة الوطن والأهل والأحباب فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والإستشهاد فى سبيله.

(1) Setton, op. cit., vol I, p. 74.

(2) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, vol I, p. 391.

حقيقة إن العصور الوسطى فى الغرب الأوربى عرفت فى التاريخ باسم «عصور الايمان»، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس فى غرب أوربا فى تلك العصور، وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هى التى دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥ ، وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجا فى شكل حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى الشرق الأدني. ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين وإستخلاص الأراضى المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذى دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة، ودفع جموع الناس - من أمراء وعامة - إلى تلبية نداء البابا فى سهولة ويسر، والخروج أفواجاً من غرب أوربا قاصدين الشرق الأدني.

أما عن البابوية فكانت قد بلغت فى القرن الحادى عشر درجة خطيرة من القوة وإتساع النفوذ، مما فتح أمامها آفاقاً واسعة لتجعل سلطاتها عالمية، بمعنى أن يكون البابا - بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس - الزعيم الروحى لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب (١). والمعروف أن البابوية ظلت دائما ترغب فى إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها، ولكن النزاع الذى استحكمت حلقاته بين الاباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخري، جعل من المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وإزالة ما بينهما من شقاق (٢). وأخيراً جاء إستنجاد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربى ضد السلاجقة فى القرن الحادى عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور فى صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحى كافة فى صراعة ضد المسلمين، ولمحاولة إدماج الكنيسة الشرقية فى الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين (٣).

هذا عن البابوية، أما عن جمهرة الصليبيين الذين إستجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدني، فلم يكن الهدف الدينى هو الباعث الرئيسى الذى دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة فى الحركة الصليبية. وقد اعترف كثير

(1) Vasiliev. op. cit. II, p. 397.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص١٦٣ وما بعدها، ص٤٠٧ وما بعدها (١٩٦٦)

(3) Ostrogorsky : Hist. of Byzantine State, p. 320.

من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية، وإما للخلاص من حياة الفقر التى كانوا يحيونها فى بلادهم فى ظل النظام الاقطاعي، وإما للتهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها، وإما فراراً من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى بلاد الشرق [1]. وأى وازع دينى كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الرابعة، والذين إتجهوا نحو القسطنطينية – وهو البلد المسيحى الآمن – لينهبوا كنائسها، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب، وهم جميعاً إخوانهم فى الدين ؟؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية، فعلينا بالبحث فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر.

الباعث الاقتصادي :

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادى وأهميته فى تحريك كثير من الهجرات والثورات والحروب الهامة فى التاريخ. ونحن مع إعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية، نميل إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادى بالذات فى تلك الحركة.

ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى غرب أوربا – وبخاصة فرنسا – فى أواخر القرن الحادى عشر. فالمؤرخ المعاصر جيوبرت نوجنت Guibert Nogent يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعانى من مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولي، فندر وجود الغلال وإرتفعت اثمانها إرتفاعاً فاحشاً مما ترتب عليه حدوث أزمة فى الخبز. وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نرى لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى تفوق نسبة الوافدين من أى بلد آخر من بلدان غرب أوربا.

ومهما يقال من أن هذه الأزمة كانت مفتعلة، إفتعلها التجار المستغلون – وجلهم من اليهود – فالذى يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلا فى الغرب الأوربى عند الدعوة للحملة الصليبية الأولي، وأن هذه الأزمة كانت طاحنة، بلغ من قسوتها أنها الجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش [2] وزاد

(1) Thompson : op. cit., vol. I, p. 302.
(2) Thompson : op. cit., vol. I, p. 392.

من سوء الأحوال الاقتصادية فى الغرب الأوربى فى ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الاقطاعيين، وهى الحروب التى لم تنجح الكنيسة أو الملوك فى وقفها، مما أضر بالتجارة وطرقها، والزراعة وحقولها، أبلغ الضرر. وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى فى غرب أوربا باباً جديداً للهجرة والحياة، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عاشوا فيها داخل أوطانهم.

ولم يكن عجباً أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعاً غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون. وجميعهم كانوا يفكرون بدافع من بطونهم لا بوحى من دينهم، بدليل ما أتوه طوال طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التى مروا بأراضيها، مما يتعارض مع أى وازع ديني.

ثم إن الباحث فى تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منقطعة النظير من جانب أهالى المدن التجارية – فى إيطاليا وغير إيطاليا من بلاد الغرب الأوربى – للمساهمة فى تلك الحركة، سواء بعرض خدماتهم لنقل الصليبيين عن طريق البحر الى الشرق، أو فى نقل المؤن والأسلحة وكافة الامدادات الى الصليبيين بالشام، أو مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانى البحرية ببلاد الشام وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانى ضد هجمات الأساطيل الإسلامية. وهنا أيضا نستطيع أن نقرر أن جمهوريات إيطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع ديني، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة، ورأت فى الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعا (١). وسنرى فى صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى فوجهتها نحو غزو القسطنطينية قلعة الكنيسة الشرقية بدلاً من أن تتركها تسير فى طريقها الطبيعى المرسوم لها ضد المسلمين. وكان ذلك عندما رأت البندقية أن مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر.

والواقع إن الصليبيين بالشام كانوا لا يمكنهم الإستغناء عن مساعدة أساطيل «الثلاثة الكبار» – البندقية وجنوة وبيزة – حيث أن الأساطيل قامت بدور فعال فى

(1) Heyd : Hist du Commerce I, 132 - 133

ربط الصليبيين فى بلاد الشام بالغرب الأوربي. واذا كانت هذه الجمهوريات الايطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين، فإنها لم تفعل ذلك إكراما للكنيسة وإبتغاء لمرضاة الرب، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية بالشام وحصلت بمقتضاها على إمتيازات إقتصادية هامة. ففى معظم موانى الشام ومدنه الكبرى التى إستولى عليها الصليبيون، تمتعت المدن الايطالية التجارية بإعفاءات خاصة، فضلا عن شارع وسوق وفندق به حمام ومخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التى أسهمت فى الاستيلاء على ذلك الميناء او تلك المدنية. ولم تلبث مرسليا بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الايطالية، فحصلت على إمتيازات كبيرة لتجارها فى عديد من المدن الصليبية بالشام، إذ منح الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس تجار مرسليا حياً خاصا بهم فى مدينة القدس ذاتها سنة ١١١٧، ثم إعفاهم الملك من الضرائب بعد ذلك، حتى لجأ الملك بلدوين الثالث سنة ١١٥٢ الى منحهم إمتيازات وإعفاءات من الضرائب فى كافة الموانى التابعة لمملكة بيت المقدس فى فلسطين.

وهكذا إصطبغت الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة إقتصادية إستغلالية واضحة فكثير من المدن والجماعات والأفراد اللذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب ومحاربة المسلمين، وإنما جريا وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستوطنات ومراكز ثابته لهم فى قلب الوطن الإسلامي، بغية إستغلال موارده والمتاجرة فيها، والحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة. حقيقة أن الإستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الإنقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الإستعمار في صورة أو أخرى منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدامي. وفى العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية «أول تجربة فى تاريخ الإستعمار الغربى قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادهم لتحقيق مكاسب إقتصادية واسعة النطاق»، وذلك على حد قول أحد المؤرخين المحدثين (١).

وليس أدل على سيطرة النزعة الإستعمارية الإستغلالية على عقول كثير ممن أسهموا فى الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات - بل حروب أهلية - بين الصليبيين بعضهم وبعض فى بلاد الشام. وقد إستمرت هذه الحروب وبخاصة بين الثلاثة الكبار - البندقية وجنوة وبيزة - فى أشد الأوقات حرجا

(1) Thompson : Economic and Social History, I, p, 397

بالنسبة للصليبيين، أى فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما أخذت البقايا الصليبية بالشام تتساقط فى أيدى المسلمين واحدة بعد أخرى.

وعبثاً ذهبت صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذى يوشك أن يعصف بهم جميعاً، فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الإستعماريين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً وأكثر نفعاً من شعور الولاء للدين والكنيسة.

الباعث الاجتماعي :

تألف المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين – من الكنسيين والديريين – ، وطبقة المحاربين – من النبلاء والفرسان – ، وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض. وكانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل فى مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الإجتماعية، فى حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية المغلوبة على أمرها، والتى كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين (١).

والواقع إن آلاف الفلاحين عاشوا فى غرب أوربا عيشة منحطة فى ظل نظام الضيعة. حيث شيدوا لأنفسهم أكواخا من جذوع الأشجار وفروعها ، غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث، عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية. وكان معظم أولئك الفلاحين من الرقيق والاقنان الذين إرتبطوا إرتباطاً وراثياً بالأرض التى يعملون عليها، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مباديء الحرية الشخصية، فكل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الاقطاعى لأن القن محروم، حتى من الملكية الشخصية (٢).

ثم إن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الإلتزامات والخدمات، فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الإقطاعى مثل فلاحة أرضه الخاصة، فضلاً عن تسخيرهم فى أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر. كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة

(١) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطي ج٢ ص ٢٧٦ (١٩٨٦).
(2) Boissonade : Life and Work in Med Europe, p. 85.

الرأس التى يتعين على كل قن دفعها سنويا رمزاً لتبعيته. هذا عدا الضرائب المفروضة على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضروات (١). فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التى ألزم الفلاحون بقبولها، أدركنا مدى الهوان والذلة التى عاشت فيها غالبية المجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر. فالسيد الإقطاعى صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرناً ومعصرة بل أحياناً البئر الوحيد فى الضيعة. وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزماً باحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها (٢). .. كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأقنان والفلاحون لسيدهم الإقطاعي، وهم صاغرون. فإذا إمتلك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الاقطاعى وحده أن يحتكرها، صار ذلك جرماً خطيراً يحاكم عليه (٣).

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس فى غرب أوربا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان. وكان ذلك فى الوقت الذى علت الدعوة للحرب الصليبية، فوجدت تلك الألوف من البؤساء فى الغرب الأوربى فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا. ومهما يكن فى الدعوة الجديدة من أخطار، فإن أخطارها هانت أمام الفاقه والهوان والذلة التى كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها فى غرب أوربا دون أمل فى الخلاص. فإذا ماتوا فى تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية. وإن وصلوا إلى الأراضى المقدسة سالمين فان حياتهم الجديدة لن تكون بأى حال أسوأ من حياتهم التى يحيونها فعلا فى بلادهم الأصلية.

ومن هذا يبدو جليا أنه إذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوربا قد أسهموا فى الحركة الصليبية، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل إجتماعية وإقتصادية هامة، فوجدوا فى تلك الحركة أملاً فى حياة أفضل. ونستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع فى بلادهم الأصلية حياة حرة وقدر مناسب من كرامة العيش، لما غامروا بترك أوطانهم جريا وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة فى تقديمها.

(١) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطي ج٢ ص ٢٨٩ (١٩٨٦).
(2) Heaton : Economic Hist. of Europe, p. 95.
(3) Painter : Med. Society, p. 51.

الباعث السياسى :

ولكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هى التى دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة فى الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل، فمَا الدافع الذى دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوربا وأمرائها وفرسانها إلى المشاركة فى تلك الحركة ؟

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا فى الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثاني، فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لمحاربة المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها، بل تهديدها. وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة في حالة واحدة هي حالة لويس التاسع ملك فرنسا، الذى إشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى أنه لقب بالقديس، والذى أراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيراً عملياً بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعالة. أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوربا وتاريخ الحركة الصليبية نفسها يشهد على السفارات العديدة التى دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوربا يلحون عليهم فى الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين. وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوربى فى تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية وعظم سلطانها، وأن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمراً أو يرد لها طلباً، وإلا تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها، فلا يستطيع الإحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه. وأبرز مثل لدينا الإمبراطور فردريك الثانى الذى أخذ البابوات واحداً بعد آخر يلحون عليه فى الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين. ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان . وعندئذ خرج الإمبراطور – مكرها لا بطل – على رأس فئة قليلة من رجاله قاصداً الشام، وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبى ليشرح له موقفه وأنه «ماله غرض فى القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج»[1].

هذا عن الملوك، أما الأمراء الذين أسهموا فى الحركة الصليبية، فمعظمهم كان يجرى وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد إستقرارهم فيه. والمعروف أن النظام الإقطاعى إرتبط دائماً بالأرض، وبقدر ما

---

(١) المقريزي : السلوك ج١ ص. ٢٣.

يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية فى المجتمع. وفى ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التى يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هى عدم وجود إقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ. وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعى فى الغرب الأوربى إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأنه من القواعد الأساسية فى هذا النظام أن الإبن الأكبر وحده هو الذى يرث الإقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع إنتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه (١) ومن الواضح أن هذا المبدأ يعنى بقاء بقية الأبناء بدون أرض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي، الأمر الذى جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الإلتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع. وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح بابا جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض فى غرب أوربا، فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة فى تلك الحركة لعلهم ينجحون فى تأسيس إمارات لأنفسهم فى الشرق تعوضهم عما فاتهم فى الغرب. حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم فى بلادهم الأصلية، وجدوا فى المشاركة فى الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم.

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية من الخلافات التى كثيراً مادبت بينهم وبين بعض، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي. وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقسمون الغنيمة وهم فى طريقهم إلى الشام، أى قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً، وكيف إستحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم فى الفوز بها، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلى من مواصلة المسيرة ومشاركة إخوانه فى الزحف على بيت المقدس، وهو الهدف الأساسى للحملة. كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن إستقروا فى بلاد الشام كثيراً مادب الخلاف فيما بينهم وبين بعض حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة. وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمراء الصليبيين بالشام بأن المسلمين يحيطون بهم، وأن الواجب يستدعى تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم. ولكن تلك الصيحات

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج٢ ص ٢٦٣ (١٩٨٦).

ذهبت مع الريح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسيا، ولم يكن يهمهم كثيراً رضاء البابا أو سخطه. بل أن بعض الأمراء الصليبيين بالشام لم يحجموا - كما سنرى - عن محالفة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين، مما يدل على أن الوازع الدينى كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية.

يضاف إلى ذلك كله عامل آخر شجع كثيراً من فرسان الغرب الأوربى على المشاركة فى الحركة الصليبية. ذلك أنه من المعروف أن النظام الإقطاعى ارتبط إرتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب وإظهار الشجاعة، وأن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا القتال والحرب. وعندما كثرت الحروب الإقطاعية، وهددت المجتمع الغربى تهديداً خطيراً، تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم «هدنة الله» وهى أوقات معلومة يحرم فيها القتال. وعندئذ بحث الفرسان الغربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم، فابتكروا المبارزة. ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية إستعراضية إستهدفت إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات وإراقة الدماء [1] لذلك لم يقنع الفرسان بتلك الوسيلة، حتى إذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت أمامهم باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية، فضلا عما فى المشاركة فى تلك الحركة الجديدة من سعى مشكور وذنب مغفور.

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج٢ ص ٢٨١ (١٩٨٦).

الباب الثاني

المسلمون والمسيحيون حتى نهاية القرن الحادى عشر

"لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون"

(المائدة ، ٨٢)

الفصل الأول

الإسلام والمسيحية

التوسع الإسلامى وأثره فى العالم المسيحى :

شهد القرن السادس للميلاد حدثاً خطيراً فى تاريخ البشرية، هو مولد خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، ثم بعثه للتبشير بديانة جديدة شعارها (لا إله الا الله - محمد رسول الله) . ولم تلبث هذه الدعوة أن نجحت فى وضع حد للفوضى الإجتماعية والسياسية التى عاش فيها عرب شبه الجزيرة قروناً عديدة، فصاروا يخضعون جميعاً لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد فى جو من الوئام والألفة.

ولكن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً شاهداً ومبشراً ونذيراً ليهدى الناس كافة إلى الإسلام[1] . ولذلك غدت مهمة الرسول بعد أن إستقرت له الأمور فى شبه الجزيرة العربية أن يدعو بقية الأمم لإعتناق الإسلام والإيمان برسالته. ويبدو أن بعض السفراء الذين أوفدهم النبى عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضاً وأذى مما جعل النبى يعد العدة لجهادهم وإن كانت موجة الفتوح الاسلامية لم تشتد وتتسع إلا بعد وفاة النبى نفسه ٦٣٢م[2] .

وكان أن أخذ العرب المسلمون يهاجمون الفرس والروم فى وقت واحد، وهم أصحاب أكبر إمبراطوريتين شهدهما التاريخ فى ذلك الوقت. وإذا كان الإحتكاك بين المسلمين والروم قد بدأ فعلا فى بادية الشام سنة ٦٢٩، إلا أن الحرب بين الطرفين لم تتخذ طابعاً جدياً إلا فى عهد الخليفة أبى بكر الذى عهد إلى أبى عبيدة الجراح بمحاربة الروم وغزو الشام سنة ٦٣٢ . وقد حاول هرقل إمبراطور الروم إرسال قوة بقيادة أخيه تيودور لإنقاذ موقف الإمبراطورية المتداعى فى فلسطين، ولكن القائد العربى خالد بن الوليد - الذى كان يعمل ضد الفرس فى

---

(١) وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا (سبأ، ٢٨)

(٢) حسن إبراهيم حسن : الإسلام السياسي ج١ ص ٢١٢ وما بعدها (١٩٦٤).

العراق - أتى مسرعاً مما أدى إلى إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية فى موقعة أجنادين سنة ٦٣٤ (١). وعندما توفى أبو بكر السنة السابقة خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذى إتسعت الفتوح الإسلامية في عهده، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل. وهنا أدرك هرقل خطر تلك الحركة الجديدة، فحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب. ولكن خالداً أنزل هزيمة جديدة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ (٢). وقد خيل لهرقل فى تلك المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطى بنفسه ضد المسلمين، ولكنه سرعان ما أحس بعجزه عن النهوض بذلك الحمل الشاق بعد أن جاوز الخمسين من عمره ودب الخور فى جسده. وإذا كان هرقل قد قضى سنتى ٦٣٥، ٦٣٦ فى جبهة الشام، إلا أنه أيقن صعوبة مقاومة العرب المسلمين فترك بيت المقدس تقع في أيدهم (٦٣٧ - ٦٣٨). ولم تلبث المدن والمعاقل الهامة الموجودة فى أطراف العراق والشام - مثل ماردين والرها وميافارقين أن سقطت فى قبضة المسلمين (٦٣٨ - ٦٣٩) ثم استولوا على قيصرية سنة ٦٤٠، وبذلك فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى جبال طوروس (٣).

وبعد ذلك جا دور مصر ففتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١. ويعتبر فتح مصر بالذات دليلاً واضحاً على مدى نجاح تلك القوة الجديدة، كما يتخذ برهانا قوياً على مدى ضعف الإمبراطورية البيزنطية وانحلالها السياسى (٤) وبعد أن فتح المسلمون برقة سنه ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح الاسلامية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدولة الاسلامية الناشئة من فتنة إنتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠، ومن ثم إستأنف المسلمون فتوحاتهم بنفس القوة والنشاط. ثم أخذ المسلمون فى فتح إفريقية سنة ٦٦٤ حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة البلاد ،فدخل كثير من البربر فى الإسلام وإتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود، بمدينة القيروان، (٥) وكانت حروب المسلمين فى إفريقية طويلة وشاقة، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٣٦، ١٦٢ (تحقيق المنجد) وكذلك ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ١٣ هـ.

(٢) الواقدي : فتوح الشام ج١ ص ١٦٥.

(3) Vasiliev : op. cit. I, p. 211.

(4) Butler : The Arab Conquest of Egypt, p. 205.

(٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠ هـ

البيزنطية فحسب، بل كان عليهم أيضاً إخضاع البربر المعروفين بقوة المراس. ومهما يكن من أمر فان قرطاجة سقطت أخيراً فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧، وإن كان نفوذ الخلافة الإسلامية لم يستقر تماما فى شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير.

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي، وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا سنة ٧١١، كما عبر طارق بن زياد المضيق الذى عرف باسمه وإستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتى ٧١١، ٧١٣ (١). وبفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية، إذ فقدت بلاداً ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر، فضلا عن بلاد أخرى كانت بمثابة أعضاء أساسية فى العالم المسيحى مثل شمال إفريقية وأسبانيا. وفى جميع البلاد التى فتحها المسلمون أقبلت نسبة كبيرة من الأهالى على إعتناق الإسلام عن إختيار وإرداة حرة كما يقول أحد المستشرقين (٢).

والمعروف أن الإسلام إحترم المسيحية إحتراما بالغا، وكرم نبيها عيسى بن مريم عليه السلام تكريما لم يحظ به أحد غيره من الأنبياء السابقين، فنادى القرآن بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويم يبعث حيا، ووصفه بأنه وجيه فى الدنيا والآخرة. ولكن المسيحيين المعاصرين لم يفهموا طبيعة الديانة الجديدة التى بشر بها محمد عليه الصلاة والسلام، وكل ما أدركوه هو أن أتباع محمد خرجوا من شبه الجزيرة العربية ليبتلعوا بلداً بعد آخر من البلدان التى كانت المسيحية قد سبقت إليها، وإنتشرت فيها، وصارت تعتز ببقائها فى حوزتها. وبعبارة أخرى فان الكنيسة ورجالها لم يروا فى الإسلام والمسلمين إلا خطراً جاثما هددهم وهدد كيانهم، فراحت الكنيسة تدعى أن الإسلام إنما إنتشر بحد السيف، وأن الغزوات الإسلامية إنما إستهدفت إجبار الناس على إعتناق الديانة الجديدة. وهكذا خلطت الكنيسة ورجالها بين إنتشار الديانة الإسلامية وانتشار نفوذ العرب السياسي، وتجاهلت حقيقة كبرى إعترف بها جمهرة المستشرقين اليوم، هى أن نفوذ العرب السياسى هو الذى إنتشر بحد السيف، أما الديانة الإسلامية نفسها فلها من سلامة المنطق وقوة الحجة ما جعل غالبية أهالى البلاد المفتوحة يدخلون فى دين الله أفواجا (٣).

(1) Dozy : Moslems in Spain, p. 233

(٢) أرنولد : الدعوة إلي الأسلام ص ٥١ .

(3) Cam Med Hist. vol. 4, p. 330.

ولو حاول رجال الكنيسة المعاصرون أن يتفهموا طبيعة الديانة الإسلامية وروحها لوجدوا أكثر من آية في القرآن الكريم - وهو دستور الإسلام والمسلمين - تأمر الرسول بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن «فإن أسلموا فقد إهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد [1]».

ومهما يكن من أمر، فإن رجال الكنيسة لم يستطيعوا حتى نهاية العصور الوسطى أن ينسوا الخسارة التى لحقت بهم وبكنيستهم نتيجة لإنتشار الإسلام ؛ مما جعلهم يشعرون دائما بالرغبة فى الانتقام من الاسلام والمسلمين.

الصراع بين المسلمين والبيزنطيين حتى القرن العاشر للميلاد:

ولما كانت الدولة البيزنطية - أو دولة الروم - أقرب القوى المسيحية الى قلب الدولة الاسلامية فقد ربطتها بالدولة الاسلامية الناشئة علاقات مباشرة وفصلت بينهما حدود مباشرة أيضاً، مما جعل الإحتكاك لا ينقطع بين القوتين. وعندما وجد المسلمون أن خصومهم يمتلكون قوة بحرية كبيرة هددت شواطيء دولتهم الجديدة سارعوا بممارسة ركوب البحر والإهتمام بأمر الأساطيل البحرية. ولم يلبث أن أصبح المسلمون قوة بحرية لها حسابها فى البحر المتوسط، فغزوا جزيرة قبرص سنة ٦٤٨ وأغاروا على الشواطيء الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات، حتى تمكنوا من إنزال هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات الصوارى سنة ٦٥٥ [2].

وإذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الإسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام المسلمين بمهاجمة القسطنطينية نفسها عقب موقعة ذات الصوارى مباشرة، فإن الأمويين لم يلبثوا أن إستأنفوا مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً على نطاق واسع، حتى وصلت إغارتهم إلى بحر إيجه سنة ٦٦٥. ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا عندئذ خبرة كافية بفنون البحر، جعلتهم يعبرون إلى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها .كذلك أفاد المسلمون من إستيلائهم على قبرص ورودس وغيرهما من المواقع البحرية الحصينة فى بحر إيجه، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات

---

(١) آل عمران ، ٢٠ . ويقول عز وجلّ « ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » العنكبوت ٤٦

(2) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 104.

(٦٧٣ - ٦٧٨)، ولم ينقذ عاصمة الإمبراطورية البيزنطية عندئذ من السقوط في أيدى المسلمين سوى إختراع النار الإغريقية التى أنزلت بالسفن الإسلامية ضررا جسيماً (١).

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً حتى كان أوائل القرن الثامن، وعندئذ إعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت حان للقيام بحملة كبرى تمكن المسلمين من الإستيلاء على القسطنطينية والإحاطة بالإمبراطورية البيزنطية. وقد إختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على رأس تلك الحملة التى شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته إلى الشاطيء الأوربى سنة ٧١٧ وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر، أحكم الاسطول الإسلامى حصاره علي المدنية من ناحية البحر، حتى كادت القسطنطينية تقع فى أيدى المسلمين لولا صمود الإمبراطور ليو الأيسورى وإستعانته بالنار الإغريقية التى لعبت دورها مرة أخرى فى تشتيت سفن المسلمين. وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف القوات الإسلامية ، أرسل إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول بمن معه من المسلمين ، فانسحب المسلمون سنة ٧١٨، بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (٢).

ويبدو أن فشل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن شجع البيزنطيين على دفع خطر المسلمين تدريجباً عن آسيا الصغري، حتى غامر الإمبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم علي الشام سنة ٧٤٥ منتهزاً فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى خريف عمرها. وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصراً بحرياً على المسلمين وإستردوا منهم جزيرة قبرص (٣). ثم لم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية في بغداد. وهنا نلاحظ أن إتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزاً لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية، بحيث كان الخطر الإسلامى على الدولة البيزنطية شديداً وملموساً فى العصر الأموي. ولكن إتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل الدولة البيزنطية وأراضيها أكثر بعداً عن قلب الدولة الاسلامية

(1) Vasiliev : op. cit, vol. I, p. 214.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة ٩٩ هـ، وكذلك ابن الأثير الكامل، سنة ٩٩هـ.

(3) Cam. Med Hist. vol. p. 12.

ومن ثم قل تهديد المسلمين لحدود الدولة البيزنطية نسبياً وبصورة واضحة فى العصر العباسي.

وليس معنى هذا أن العداء توقف بين المسلمين والبيزنطيين بعد سنة ٧٥٠، إذ نسمع أن الامبراطور البيزنطى ليو الرابع هاجم المسلمين شرقي الأناضول سنة ٧٧٨، فرد علية الخليفة المهدى العباسى بمهاجمة أراضى البيزنطيين فى العام التالي[١]ثم إشتدت إغارات المسلمين على أراضى الدولة البيزنطية فى عهد الخليفة هارون الرشيد، فاجتاحت الجيوش العباسية آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى بلغت البسفور، دون أن تستطيع الإمبراطورة إيرين التغلب على ذلك الخطر، مما دفعها إلى شراء الصلح من المسلمين مرة بعد أخرى مقابل تعدها بدفع جزية سنوية ضخمة من المال.

وقد رفض الإمبراطور البيزنطى نقفور الأول (٨٠٢ – ٨١١) الإستمرار فى دفع الجزية التى تعهدت بها إيرين، مما جعل العباسيين يجددون هجامتهم على الدولة البيزنطية[٢]. وفى ذلك الوقت إستطاع مسلمو الأندلس الاستيلاء على جزيرة كريت (٨٢٣ – ٨٢٥)، فظلت الجزيرة بأيدى المسلمين مدة تربو عن قرن وربع دون أن يستطيع الأباطرة البيزنطيون إسترداد الجزيرة. ومن الواضح أن ضياع جزيرة كريت جاء ضربة قاسية للتجارة الامبراطورية فى بحر إيجة، لا سيما وأن المسلمين فى شمال أفريقية غزوا جزيرة صقلية سنة ٨٢٧، مما مكنهم من السيطرة على طرق الملاحة فى البحر المتوسط[٣]هذا إلى أن المسلمين الذين سيطروا على كريت إستغلوا موقع تلك الجزيرة فى تهديد قلب الامبراطورية البيزنطية كما حدث سنة ٩٠٤ عندما خرجت السفن الإسلامية من كريت لغزو مدينة سالونيقا فى البلقان، ونجح المسلمون فعلا فى السيطرة على هذه المدينة بعض الوقت فى أوائل القرن العاشر[٤].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، وابن الاثير : الكامل، حوادث ١٦٣ هـ، ١٦٥ هـ

(٢) يروي ابن الاثير أن نقفور بعد أن استتبت له الأمور كتب إلي الرشيد يقول من نقفور ملك الروم إلي هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي إقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافة إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فإردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

(3) Ostrogorosky ; op cit., p. 182 - 185.

(4) Schlumberger : Recits de Byzance et des Croisades I, pp. 13 - 23.

وعندما ظن الأمبراطور البيزنطى تيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢م) أن العباسيين أمسوا بعد وفاة الرشيد فى حالة من الضعف لا تمكنهم من الدفاع عن دولتهم أخذ يهاجم الدولة العباسية، وإستفز الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) بايواء بعض الهاربين من وجه الخليفة، مما أثار حرباً متقطعة بين الطرفين إستمرت أكثر من ثلاثين سنة. وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات القريبة من الدولة البيزنطية حتى وصلت جيوشه هرقلة سنة ٨٣١، فى الوقت الذى أغارت الأساطيل العباسية على الجزر القريبة من الشاطيء الغربى لآسيا الصغري[١]ويبدو أن حماسة الخليفة المأمون لمحاربة البيزنطيين دفعته إلى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات فى آسيا الصغري، فاستولى على ممرات طوروس ثم على مدينة الطوانة (Tyana) العظيمة التى اتخذها قاعدة لعملياته الحربية فى تلك الجهات[٢]. على أن حسن حظ الامبراطور شاء أن يموت المأمون فى تلك المرحلة بعد أن أرسل إليه ثيوفيل رسلا يطلبون الصلح، فانسحبت الجيوش الإسلامية إلى طرسوس بعد أن أخلت البلاد التى فتحتها وراء جبال طوروس [٣].

وكان أن ظهر ضعف الخلافة العباسية واضحاً فى عصر الخليفة المعتصم، وعندئذ إستطاع ثيوفيل أن يتحول من الدفاع إلى الهجوم، فهاجم أعالى الشام وما بين النهرين حتى بلغ زبطرة وقتل من فيها من المسلمين، وأغار على ملطية وغيرها من المدن والحصون المجاورة (وسبى المسلمات ومثل بمن صار فى يده من المسلمين، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم). ولم تلبث جرأة البيزنطيين فى مهاجمة أراضى الدولة الإسلامية وإغاراتهم على مدنية زبطرة - مسقط رأس الخليفة المعتصم - أن إستثارت الخليفة، فنزل بنفسه إلى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف، بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية - مسقط رأس الإمبراطور وأسرته - (وهى أشرف عندهم من القسطنطينية). وقد أسرع ثيوفيل لانقاذ بلدته، ولكن الهزيمة حلت بجيوشة وإستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها، فضلا عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم إلى سامرا [٤].

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنتي ٢١٥ هـ، ٢١٦ هـ.
(2) Cam Med Hist., vol 4 pp. 707 - 710 (1966).
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨ هـ.
(4) Diehl, Marcais, Le Monde Oriental, pp. 312 - §
ابن الاثير : الكامل : حوادث سنة ٢٢٣ هـ

على أن وصول الجيوش الإسلامية إلى جوف آسيا الصغرى فى النصف الأول من القرن التاسع لم تعقبه مضاعفات خطيرة على الإمبراطورية، لأن المعتصم اكتفى بالانتقام لمدينة زبطرة ثم قفل راجعاً من حيث أتي، وبذلك عادت الإمبراطورية وإستردت أراضيها فى آسيا الصغرى حتى جبال طوروس. ولم يلبث أن ساعدت مشاغل كل من الخليفة المعتصم والإمبراطور ثيوفيل علي عقد هدنة بين الطرفين إستمرت حتى وفاة الإثنين سنة ٨٤٢ (١).

ضعف الدولة الاسلامية وإنقسامها :

على أن الموقف بين البيزنطيين والعباسيين فى الشرق الأدنى لم يلبث أن تبدل فى نهاية القرن التاسع للميلاد، عندما فقدت الخلافة العباسية هيبتها وإنحلت قوتها. ذلك أن الخليفة المعتصم العباسي، أفرط فى الاعتماد على الترك، الأمر الذى جعله يهجر بغداد وينقل عاصمته إلى سامرا سنة ٨٣٦ ولم يلبث أن أصبح الخلفاء العباسيون أداة سهلة فى أيدى أمراء الأتراك، حتى غدت السلطة الفعلية فى القرن العاشر فى يد كبير أولئك الأمراء الذى اتخذ لقب « أمير الأمراء» (٢) وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والخلافات الدينية مثل الحركة الخرمية التى تزعمها بابك الخرمى (٨١٦ - ٨٣٧) وحركة المعتزلة، فضلا عن نشاط الشيعة فى جوف الدولة. فإذا أضفنا إلى ثورة الزنج فى جنوب العراق (٨٧٧ - ٨٨٣) وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق سنة ٨٩٠، إستطعنا أن نكون فكرة عامة من عوامل، إنحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال (٣).

وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وتفككها فى تلك الفترة من الحركات الانفصالية التى قامت فى جسم الدولة، والتى أدت إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة، مثل الدولة السامانية (٩٧١ - ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٩- ١٠٠٣) والدولة الغزنوية (٩٦٢ - ١١٨٦) والدولة الحمدانية، (٩٢٩ - ١٠١٥) والدولة البويهية (٩٣٢ - ١٠٥٥). ويهمنا من هذه البيوت فى المشرق السامانيون والبويهيون. أما السامانيون فقد غدت لهم السيطرة على الجزء الشرقى من بلاد فارس، أعنى خراسان وبلخ وما وراء النهر فضلا عن فرغانة وخوارزم. وقد إتخذ السامانيون بخارى وسمرقند مركزين لحكمهم، وإستمروا

(1) Cam Med. Hist. vol. i.p. 711 (1966).

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، حوادث ٢٢٠ هـ،

Diehl, Marcais : op. cit., pp. 378 - 381.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 276

يحكمون تلك المنطقة الفسيحة حكماً مستقلاً معظم القرن العاشر. وأما البويهيون - وهم من أصل فارسى أيضاً - فقد سيطروا على الجزء الغربى من بلاد فارس - أعنى عراق العجم وكرمان وخوزستان - كما سيطروا على العراق العربى بما فيه بغداد بين سنتى ٩٤٥ ، ١٠٥٥ وفى تلك الفترة إتخذ أمراء بنى بويه لقب إمرة الأمراء، وسلبوا لأنفسهم كل ما للخلفاء العباسيين من سلطان ونفوذ، حتى صار أمير الأمراء من بنى بويه هو الحاكم الفعلى فى الدولة [١].

على أنه يلاحظ أن كلا من هذين البيتين - السامانيون والبويهيون - كانوا من أصل فارسي، ومن ثم وجهوا جل عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية ولم يهتموا بالأقاليم العربية كالجزيرة وبلاد الشام ومصر. والواقع أن بلاد الشام ومصر لم تكونا أقل تعرضاً للفوضى والإنقسام من بقية أجزاء الخلافة. ذلك أن الإخشيديين إستقلوا بمصر والجزء الأكبر من بلاد الشام - حتى طرابلس وبيروت شمالا - (٩٣٥ - ٩٦٩) أما شمال الشام - وإقليم الموصل فقد إستقل بهما الحمدانيون (٩٢٩ - ١٠٠٣) الذين ظلوا فى منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والإخشيديين من ناحية أخرى [٢]وزاد من الفوضى التى تعرضت لها بلاد الشام فى تلك الفترة انتفاضة القبائل العربية، فسيطر العرب الجنوبيون أو اليمانيون على جنوب الشام ووسطه حيث صارت الغلبة فى فلسطين لبنى طى وفى وسط الشام لبنى كلب. أما عرب الشمال أو القيسيون فقد سيطروا على الشام والجزيرة حيث ظهر من قبائلهم بنو كلاب وبنو نمير وبنو عقيل. وجميع هذه القبائل العربية ربطتها علاقات بالقرامطة، بل إن بنى طى وبنى كلب شاركوا فى ثورة القرامطة التى حدثت فى مستهل القرن العاشر للميلاد [٣].

أما الخلافة العباسية نفسها، فاستمرت تنتقل فى القرن التاسع من سيء إلى أسوأ، حتى تولى منصب الخلافة في مدى ثمان سنوات (٨٦١ - ٨٦٩) أربع خلفاء مات منهم إثنان مقتولين، هما أبو عبد الله محمد المعتز بالله، وابو إسحق محمد المهتدى بالله.

صحوة الدولة البيزنطية فى القرن العاشر :

ولعل ذلك الانحلال الذى أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذى إعترى وحدة الدولة الإسلامية هو الذى مكن الأباطرة البيزنطيين منذ منتصف القرن

(١) ابن الأثير، الكامل سنة ٣٢١ هـ.

(2) Cam Med Hist, vol, 4, p. 245.

(3) Setton : A Hist of the Crusades, p. 87.

التاسع من الوقوف موقفاً أكثر حزماً وصلابة من جيرانهم المسلمين. ولم يلبث أن تحول موقف الإمبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر من الدفاع إلى الهجوم، وذلك عندما أدرك البيزنطيون أنهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية دولة إسلامية موحدة مثلما كان الحال أيام الأمويين والعباسيين الأوائل، وإنما صاروا لا يرون إلا دولة مفككة أضعفتها الإنقاسامات السياسية والمذهبية. وكان ذلك فى الوقت الذى إستولت على العرش فى القسطنطينية أسرة من أقوى الأسر فى التاريخ البيزنطي، هى الأسرة المقدونية التى نفخت فى الدولة روحاً جديدة بفضل ما وفرته لها من إستقرار داخلى وقيادة رشيدة [١].

وهنا نلاحظ أن البلقان لم يعد فى ذلك العصر مركز الروح الهللينية فى العالم البيزنطي، بعد أن إجتاح أراضى البلقان كثير من الشعوب السلافية، فضلا عن البلغار. وكان أن ظهرت الأقاليم الآسيوية لتخلف البلقان وتصبح مركزاً للروح الهللينية منذ القرن التاسع. ففى آسيا الصغرى بالذات ظلت التقاليد اليونانية قائمة خالصة، ومن آسيا الصغرى إستمدت الإمبراطورية البيزنطية مواردها المالية والبشرية. ثم إن آسيا الصغرى هى التى أمدت الامبراطورية بخبرة البيوت الحاكمة والقادة الأقوياء مثل آل فوقاس وآل شمشقيق (تزيمستكيس) وآل كومنين[٢].

وكان أن بدأت جهود الدولة البيزنطية للتوسع على حساب المسلمين فى أطراف آسيا الصغرى والشام فى عهد قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) ثالث أباطرة الأسرة المقدونية. من ذلك أن الجيوش البيزنطية إستطاعت تحت قيادة قائد أرمنى الأصل - إسمه حنا كوراكوس Henna Coracous - الاستيلاء على أرضروم من المسلمين، كما أجبرت حكام ملطية وديار بكر وميافارقين على دفع إتاوة للبيزنطيين[٣]. وعندما ثارت ملطية على ذلك الوضع دمرها كوراكوس سنة ٩٣٤ وإستولى على الجهات المحيطة بها [٤]. وفى سنة ٩٤١ - ٩٤٢ إستولى البيزنطيون على ميافارقين، وعندئذ أسرع حاكم الرها المسلم إلى شراء مسالمة حنا كوراكوس. ولم يلبث البيزنطيون أن إستولوا على مرعش (٩٤٨ - ٩٤٩)، كما استطاع القائد البيزنطى الجديد ليوفوقاس الإستيلاء على طرسوس عاصمة إقليم

(١) سعيد عاشور : أوربا للعصور الوسطي، ج١ ، ص ٤١٧، وما بعدها.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, pp. 179 - 180.
(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٣١٥ هـ.
(4) Vasiliev : op. cit., I, p. 306.

قيليقية، ثم على ديار بكر وسميساط سنة ٩٥٨. وهكذا لم تحل سنة ٩٥٩ إلا وكانت الجيوش البيزنطية قد سيطرت علي العديد من مدن إقليم الجزيرة (١).

على أن تلك الحروب لم تكن سوى مقدمة لحركة شاملة أزمعت الدولة البيزنطية القيام بها للإنتقام من المسلمين مما حل بها على أيديهم طوال القرون الثلاثة السابقة. وكان أن نجح القائد نقفور فوقاس فى طرد المسلمين من جزيرة كريت سنة ٩٦١، ثم قام بغزو إقليم قيليقية الذى كان تابعاً لسيف الدولة الحمداني، وإستولى سنة ٩٦٢ على مركزين من أهم مراكز ذلك الإقليم هما عين زربة وسيس، ومن هناك إتجه إلى أطراف بلاد الشام لينتزع من سيف الدولة عين تاب ومنبج (٢). ثم إختار نقفور فوقاس ألا يعطى خصومه فرصة للإستعداد، فزحف مباشرة - وبصحبته القائد حنا شمشقيق - على حلب، وإستولى عليها فى أواخر ديسمبر سنة ٩٦٢. وعندما عجز نفقور فوقاس عن الاستيلاء على قلعة حلب، إكتفى بتدمير المدينة وأحرق المساجد، ثم قفل راجعاً إلى قيليقية ومعه عدد كبير من أسرى المسلمين (٣).

وبعد أن عاد نقفور إلى القسطنطينية حيث توج إمبراطوراً، رجع إلى الشام مرة أخرى ليغزو الحمدانيين سنة ٩٦٤. وفى ذلك الوقت بالذات تعرض الحمدانيون لطعنة من الخلف من جانب بنى بويه، إذ قام الأمير معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه بإنتزاع الموصل ونصيبين من الحمدانيين، ولم يرد الموصل إليهم إلا بعد أن تسلم مبلغاً طائلاً من المال (٤). وهكذا ظهر جليا أن الظروف فى العالم الإسلامى صارت مواتية لأن يقوم الإمبراطور البيزنطى بهجوم جديد، فأرسل إنذاراً إلى الخليفة العباسى فى بغداد يهدده بالويل والثبور وينذره بأن الجيوش البيزنطية لن تلبث أن تستولى على بلاد العراق والشام ومصر، وأنه من الخير للخليفة أن ينسحب إلى جوف شبه الجزيرة العربية ويترك تلك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين. ويهمنا فى هذا الإنذار أنه كان يفيض بالروح الصليبية، إذ ضمنه الإمبراطور عبارات دينية حماسية، وتهديداً صريحاً بهدم الكعبة ونشر المسيحية في الشرق والغرب جميعاً (٥).

---

(1) Ostrogorsky : op. cit., p. 250.

(٢) ابن الأثير : الكامل سنة ٣١٥ هـ.

(3) Schlumberger : Nicephore Phocas, pp. 232 - 251 - §

(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥١ هـ وما بعدها.

(5) Schlumberger : Nicephore Phocas, pp. 427 - 430.

وكان جديراً بالمسلمين فى تلك الظروف أن يفيقوا لأنفسهم وينتبهوا لحقيقة الروح الجديدة التى أخذ يعمل بها البيزنطيون، ولكن المسلمين ظلوا غارقين فى خلافاتهم الداخلية التى أنهكتهم وأضعفت قواهم. من ذلك أن السامانيين فى خراسان أرسلوا نجدة عاجلة إلى الحمدانيين لتساعدهم فى صد الخطر البيزنطي، ولكن بدلا من أن يستغل الحمدانيون تلك النجدة فى غرض الجهاد، أرادوا إستخدامها فى محاربة خصومهم أمراء بنى بويه، وعندئذ خمدت حماسة أولئك الخراسانيين وتفرقوا دون أن يشتركوا فى قتال. وهكذا ثبت أن الخلافات الداخلية بين أمراء المسلمين كانت أقوى من أن تؤلف بين قلوبهم فى مواجهة الخطر المسيحي. وفى ضوء تلك الإنقسامات يمكن أن تفسر الانتصارات التى أحرزها البيزنطيون فى القرن العاشر، ثم تلك التى أحرزها الصليبيون الغربيون بعد ذلك منذ نهاية القرن الحادى عشر .

أما نقفور فوقاس، فقد أرسل أحد قواده لإسترداد جزيرة قبرص من المسلمين (٩٦٤ - ٩٦٥)، حتى إذا ما تم له ذلك، عاد مرة أخرى إلى غزو قيليقية بغية القضاء على نفوذ الحمدانيين فيها، فاستولى على المصيصة وطرسوس . والواقع أن هاتين المدينتين لم تسقطا فى أيدى البيزنطيين إلا بعد حصار طويل (١٣ يولية ٩٦٥)، وعندئذ أرسل الإخشيديون نجدة لإنقاذ الموقف، ولكن النجدة وصلت بعد فوات الأوان [١]. وفى سنة ٩٦٦ عاد نقفور فوقاس إلى الإغارة على بلاد النهرين، فهاجم آمد «ولم يمكنهم فتحها»، فانصرف إلى دارا وقارب نصيبين حيث صادف البيزنطيون قافلة للمسلمين آتية من ميافارقين فنهبوها. ثم اتجه نقفور إلى أطراف الشام حيث «نازلوا أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها، فلم يمكنهم فتحها، فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس» [٢]. وفى تلك الأثناء توفى سيف الدولة الحمدانى فى يناير سنة ٩٦٧، وخلفه فى حكم حلب إبنه سعد الدولة أبو المعالى شريف (الأول) الذي عجز عن صد خطر البيزنطيين، فضلاً عن المنازعات التى دبت فى تلك الفترة بين أبناء البيت الحمدانى [٣].

وفى سنة ٩٦٨ عاد نقفور فوقاس إلى الشام «فلم يمنعه أحد ولا قاتله» فأغار على معرة النعمان وكفر طاب وشيزر التى أحرق مسجدها وحوله إلى رماد. ثم

---

(١) ابن الاثير : الكامل سنة ٣٥٤ هـ. ويروي ابن الاثير أن نقفور فتح المصيصة عنوة بالسيف، فقتل منهم مقتلة عظيمة، في حين إستولي علي طرطوس صلحاً فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. XIII.

(3) Cam Med. Hist. vol. 5, pp. 246 - 250.

إستولى على حماة وحمص وأحرقهما أيضا. وبعد أن عاث نقفور فوقاس فسادا في حوض نهر العاصي، عبر الجبال إلى ساحل الشام فإستولى على جبلة وعرقة وانطرطوس. أما اللاذقية فقد سارع واليها بإعلان خضوعه للامبراطور الذى لم يلبث أن عاد بعد قليل إلى القسطنطينية وصحبته خمسة آلاف أسير، بعد أن «أقام فى الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد» (١). وعند عودة نقفور ترك خلفه فى بلاد الشام قوة كبيرة قرب أنطاكية. ولم تلبث هذه القوة أن تمكنت من الاستيلاء على أنطاكية فى أول نوفمبر سنة ٩٦٩ فطرد البيزنطيون أهل أنطاكية المسلمين وأخرجوا المشايخ والعجايز والأطفال من البلد وقالوا لهم : «أذهبوا حيث شئتم» وأحلوا محلهم جموعاً غفيرة من المسيحيين (٢).

وكان لإستيلاء البيزنطيين على أنطاكية دوى هائل فى العالم المسيحى – الشرقى والغربى – نظرا لما لهذه المدينة من مكانة فى تاريخ المسيحية. وباستيلاء البيزنطيين على أنطاكية بلغوا قمة حركتهم التوسعية على حساب المسلمين فى القرن العاشر. وكان المفروض أن يأتى دور حلب بعد ذلك، ولا سيما أن النزاع الداخلى بين صاحب الحق الشرعى فى الحكم – سعد الدولة الحمدانى – ومغتصب السلطة فيها – قرغوية (مولى سيف الدولة) – أثر تأثيراً خطيراً فى أحوال حلب. ولكن يبدو أن أمر حلب إستعصى على البيزنطيين، فصالحوا قرغوية في يناير سنة ٩٧٠ على هدنة مؤبدة بشرط أن يدفع لهم مالا معيناً ويسهل لهم تموين جيوشهم فى حالة خروجهم لغزو الشام (٣). ثم أن نقفور استولى فى السنة نفسها على ملازكرد من أعمال أرمينية «فضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوه». وهكذا لم يمت نقفور فوقاس سنة ٩٦٩م إلا بعد أن دخل الجزء الشمالى من بلاد الشام بأكمله تحت سيطرة البيزنطيين الذين قويت هيبتهم «وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد» (٤).

وشاءت الظروف أن يشهد العالم الإسلامى فى ذلك الوقت تطوراً خطيراً، إذ نجح الفاطميون فى غزو مصر سنة ٩٦٩ والقضاء على حكم الإخشيديين فيها، وبذلك أصبحت مصر – وملحقاتها فى الشام حتى دمشق – مركزاً لخلافة شيعية

(١) ابن الأثير، الكامل حوادث سنة ٣٥٨ هـ.

(2) Schlumberger : Un Empereur Byzantin au Dixieme Siecle, Nice - phore phocas, p. 723 §

ابن الأثير الكامل حوادث سنة ٣٥٩ هـ .

(٣) يحيي بن سعيد الانطاكي : التاريخ ١٣٤ – ١٣٦، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٩.

(٤) ابن الأثير : الكامل. حوادث سنة ٣٥٩ هـ.

مناقسة لخلافة بغداد السنية. وهكذا قدر للعالم الاسلامى فى الشرق الأوسط أن يظل طوال قرنين (٩٦٩ - ١١٧١) منقسما على نفسه بين خلافتين ومذهبين مختلفين، الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة، مما ترك أثراً خطيراً فى قوة المسلمين فى الشرق الأدنى، ظهرت نتائجة فيما بعد على عصر الحروب الصليبية (١).

وقد أعقب نقفور فوقاس فى عرش القسطنطينية الإمبراطور حنا شمشقيق (تزمستكيس ٩٦٩ - ٩٧٦) الذى وجد فى حروب سلفه ضد المسلمين سابقة إستند إليها. وصادف حسن حظ ذلك الإمبراطور أن الفاطميين واجهوا عندئذ متاعب فى ممتلكاتهم بالشام، مما قلل من خطرهم على البيزنطيين فى ذلك الدور. هذا إلى أن دمشق وقعت سنة ٩٧٤ فى قبضة أحد المغامرين الأتراك اسمه إفتكين - الذى كان تابعاً للخليفة العباسى فى بغداد، ثم تظاهر بالدخول فى طاعة الفاطميين (٢)، حتى رأى أخيراً أن يستفيد من الخصومة بين العباسيين والفاطميين، فيعمل لحسابه الخاص ويستقل بدمشق لنفسه (٣). ومن الواضح أن تلك الأحداث وما نجم عنها من فرقة فى العالم الإسلامى أمدت الإمبراطور حنا الشمشقيق إمبراطور القسطنطينية الجديد (٩٦٩ - ٩٧٦) بفرصة مناسبة لتحقيق أطماعه.

وقد قام حنا بحملته الحربية الأولى فى آسيا الصغرى سنة ٩٧٤، فبلغ حدود أرمينية التى كانت تحكمها عندئذ أسرة ملكية إقطاعية. وعندما علم ملك أرمينية - آشوت الثالث - بنية الإمبراطور البيزنطى فى القيام بحرب صليبية ضد المسلمين، أظهر رغبته فى مشاركة الأمبراطور مشاريعه وجهوده، وقدم للامبراطور قوة حربية ضخمة تألفت من عشرة آلاف جندى لمساعدته فى حملته (٤). وكان أن إتجه الإمبراطور حنا على رأس تلك القوة المسيحية الضاربة إلى أطراف بلاد النهرين فى خريف سنة ٩٧٤، حيث إضطرت ميافارقين وديار بكر إلى دفع إتاوة، ثم دخل البيزنطيون نصيبين فى ١٢ أكتوبر

(1) Setton : A Hist of the Crusades, vol. I, pp. 85 - 86.

(٢) وكاتب المعز (الفاطمي) مكاتبة علي سبيل المداجاة والمغالطة والمدامجة والتمويه والانقياد له والطاعة لأوامره، (ابن القلانسي ص ١٢).

(٣) محمد جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ١٢٢.

(٤) ويثبت الخطاب الذي أرسله حنا الشمشقيق إلي حليفه ملك ارمينية عندئذ أن الإمبراطور البيزنطي كان بصدد القيام بحملة صليبية فعلاً ضد المسلمين، ليسترد البيت المقدس وكنيسة القيامة من المسلمين.

(Vaslliev : op. cit., I p 3 10)

بعد أن هجرها أهلها «فغنموا وسبوا وأحرقوا وأخربوا البلاد»[1]. هذا فى الوقت الذى إضطر أمير الموصل أيضاً الى دفع إتاوة للامبراطورية البيزنطية. وهكذا حقق الإمبراطور حنا الشمشيق كثيراً من المكاسب دون عناء، مما جعله يحلم حينئذ بالزحف على بغداد والاستيلاء عليها [2].

وفى ربيع سنة ٩٧٥ إتجه حنا الشمشيق نحو الشام، فغادر أنطاكية فى أبريل مخترقا وادى نهر العاصي، وعندئذ بادرت حمص إلى دفع الاتاوة دون مقاومة. أما بعلبك التى أبدت نوعاً من المقاومة فقد عاقبها الإمبراطور فى قسوة، ومنها إتجه صوب دمشق. وكانت دمشق - كما سبق أن أشرنا - تحت سيطرة الأمير أفتكين التركى الذى ظل يتأرجح بين إعلان ولائه للفاطميين حيناً وللعباسيين أحياناً، حتى إذا ما أحس باقتراب البيزنطيين من مدينته، رأى فى تلك القوة الجديدة مامكنه من التخلص من نفوذ الفاطميين والعباسيين جميعاً، فأعلن ولاءه للامبراطور البيزنطي، وتعهد بدفع الجزية له[3]. ولا شك فى أن هذه الخطوة من جانب افتكين ساعدته على الوقوف فى وجه أطماع الفاطميين بوجه خاص، فى حين غدت سيادة الإمبراطور البيزنطى على الأجزاء الداخلية من بلاد الشام شبه تامة بعد أن أعترفت له دمشق بالسيادة ودخلت أنطاكية تحت سيطرته الفعلية، كما أعلنت حلب تبعيتها للامبراطورية البيزنطية [4].

ومن دمشق إتجهت الجيوش البيزنطية صوب طبرية، حيث إتخذ الزحف البيزنطى طابعاً ليبياً واضحاً ظهر بجلاء فى الرسالة التى أرسلها الامبراطور حنا إلي ملك أرمينية آشوت الثالث، والتى ذكر له فى عبارات عاطفية كيف أن رجاله يزحفون نحو الأرض المقدسة التى شهدت مولد المسيح والتى دفن فيها، مما يثبت صدق الروح الصليبية فى تلك الحملة [5]. وكان أن شق حنا طريقه إلى بيت المقدس دون أن يصادف مقاومة تذكر، فتعهدت عكا بدفع الأموال للإمبراطور رمزاً للتبعية، وسقطت قيسارية فى قبضة القوات الإمبراطورية. وإذا كانت الحامية الفاطمية فى بيروت قد قاومت إلا أنه نجح فى إخضاعها وأسر جزءاً كبيراً منها. وبعد ذلك إتجه الإمبراطور صوب صيدا التى بادرت بالخضوع ودفع الأموال . ولم

(١) ابن الاثير، الكامل حوادث سنة ٣٦١ هـ.

(2) Ostrogorsky : lp. cit., p. 263.

(٣) يحيي بن سعيد الانطاكي التاريخ ص ١٤٦.

(٤) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ص ١٤١ - ١٤٤.

(5) Grousset : Hist, de l'Armenie, p. 484 f. & Cam. Med Vol. 4, p. 148.

يستعص على الإمبراطورسوى طرابلس بسبب حصانة موقعها، إذ أنزلت حامية المدينة بمعاونة الأسطول الفاطمى الهزيمة بالجيوش الإمبراطورية، فعبر حنا الشمشقيق عن غضبه بإتلاف الضياع المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون (١). على أن الإمبراطور حنا لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس، فاكتفى بإخضاع بعض القلاع والمراكز مثل بانياس، ثم عاد إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية حيث مات فى أوائل ٩٧٦ . وكانت أقصى نقطة وصل إليها فى بلاد الشام جنوباً هى مرج ابن عامر (٢).

ومن الواضح أن الحرب التي شنها البيزنطيون على المسلمين سنة ٩٧٥ لم تحقق هدفها الصليبى سوى تحقيقاً جزئياً. نعم إنها أدت إلى سيطرة الإمبراطورية البيزنطية علي أطراف حوض نهر العاصي، فضلا عن دمشق وطبرية والجزء الشمالى من ساحل بلاد الشام ؛ ولكن الإمبراطور البيزنطى حنا شمشقيق ارتد مسرعا قبل أن يؤمن هذه المكاسب ويصل إلى بيت المقدس، فضلا عن بقاء طرابلس – ذات الموقع الهام – فى أيدى الفاطميين. لذلك ظلت الفكرة السائدة طوال عصر الحروب الصليبية هى أن الصليبيين الغربيين وحدهم هم أصحاب الفضل فى إسترداد بيت المقدس من المسلمين، وليس للبيزنطيين أى فضل سابق فى ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الحملات المبتورة التى قام بها الأباطرة البيزنطيون ضد المسلمين فى القرن العاشر أدت الى إشكالات ومناقشات قانونية طويلة فيما بعد (١٠٩٨ – ١٠٩٩) عندما إشتد النزاع بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول ملكية المدن الكبرى ببلاد الشام. وإذا كان البيزنطيون قد إستطاعوا إثبات حقهم الشرعى فى ملكية أنطاكية بحكم فتحهم لها فى القرن العاشر، فإنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال تطبيق هذا المبدأ على طرابلس وبيت المقدس (٣).

أما عن الإمبراطورية البيزنطية، فإن الإمبراطور باسل الثانى – خليفة حنا الشمشقيق – قنع بالسيطرة المباشرة على أنطاكية، وسيادته غير المباشرة على حلب. وقد استطاع سعد الدولة الحمدانى أن يتغلب على منافسيه داخل حلب، ولكنه لم يستطع مقاومة النفوذ البيزنطي، فاعترف هو الآخر بالتبعية للدولة البيزنطية.

(١) يحيي بن سعيد الانطاكي : التاريخ ص ١٤٦.

Cam. Med. Hist., vol. 4, p. 148.
(2) Cam. Med. Hist vol. 4, p. 148 & vol. 5, p. 249.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. XV.

وربما رأى الحمدانيون عندئذ فى تلك التبعية ضماناً كافيا لحماية أنفسهم من مطامع الفاطميين (١).

وفى ذلك الدور أخذ الفاطميون يشددون هجماتهم على دمشق، الأمر الذى جعل افتكين يستنجد بالحسن بن أحمد زعيم القرامطة. ولكن الخليفة العزيز الفاطمى خرج بنفسه إلى الشام - ومعه القائد جوهر - واستطاع أن ينزل الهزيمة بقوات افتكين والقرامطة عند الرملة سنة ٩٧٨ ،وبذل سقط افتكين ونجح الفاطميون فى تثبيت نفوذهم فى دمشق. وبعد أن نجح الفاطميون فى بسط سيطرتهم على دمشق وجنوب الشام، شرعوا فى القيام بعدة هجمات ضد حلب، ولكن البيزنطيين قاموا بحماية أميرها سعد الدولة ثم ابنه وخليفته سعيد الدولة أبو الفضائل (٢).

وهكذا تطور النزاع بين الحمدانيين والفاطميين إلى نزاع بين البيزنطيين والفاطميين. ويبدو أن مشاغل باسل الثانى فى البلقان - وبخاصة من ناحية البلغار الذين هددوا الإمبراطورية عندئذ تهديداً خطيراً - جعلته يحرص على عدم الدخول فى حرب مكشوفة ضد الفاطميين، فسعى لعقد هدنة سنة ٩٨٧ لمدة سبع سنوات مع الخلافة الفاطمية، وتعهد بإطلاق سراح من لديه من أسرى المسلمين، فضلا عن الدعاء للخليفة العزيز الفاطمى فى جامع القسطنطينية (٣). على أن هذه الهدنة لم تستمر طويلا، اذ أمر الخليفة العزيز قائدة منجوتكين بالزحف على حلب بعد قليل، فتعرضت حلب لحصار الجيوش الفاطمية حتى إضطر صاحبها سعيد الدولة أبو الفضائل إلى الاستنجاد مرة أخرى بالإمبراطور البيزنطى باسل الثاني، فكتب إليه يستثيره ويقول : «متى أخذت انطاكية أخذت حلب، ومتى أخذت حلب، أخذت قسطنطينية» (٤) وكان باسل الثانى قد فرغ عندئذ من مشاكله فى البلقان واطمأن موقتاً إلى جانب البلغار، فحضر بنفسه إلي الشام سنة ٩٩٥ (٣٨٥ هـ) واستولى على شيزر من الفاطميين، كما استولى علي حمص ودمرها ، وكذلك

---

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 250.

(٢) قائمة الحمدانيين في حلب :

سيف الدولة أبو الحسن علي	٩٤٤ - ٩٦٧
سعد الدولة أبو المعالي شريف (الأول)	٩٦٧ - ٩٩١
سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد	٩٩١ - ١٠٠١

(أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠١)

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٥١ - ١٥٢.

(٤) المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٠.

أنطرطوس، فى حين صمدت طرابلس تلك المرة أيضا وإستطاعت حاميتها الفاطمية الدفاع عنها (١).

ولكن لم يكد الإمبراطور باسل الثانى يرجع إلى بلاده، حتى تمكنت الجيوش الفاطمية من إنزال هزيمة بحاكم أنطاكية البيزنطي، مما إستدعى عودة باسل الثانى الى الشام سنة ٩٩٩، فإسترد شيزر ووطن فيها جالية من الأرمن، وأحرق حمص وإستولى على بعلبك. ولم يصادف باسل الثانى توفيقاً فى الأعمال الحربية التى قام بها بعد ذلك ضد المدن الساحلية، كما فشل مرة أخرى أمام طرابلس (٢). وكان أن أرتد الإمبراطور البيزنطى إلى أرمينية، وفى تلك المرة آثر عقد الصلح مع الفاطميين ليتفرغ مرة زخرى لخطر البلغار. وقد تم الصلح بين الطرفين فعلاً، وإن ظلت العلاقة سيئة بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والخلافة الفاطمية من ناحية أخرى بسبب سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله تجاه أهل الذمة. وهكذا ظلت العلاقات بين البيزنطيين والفاطميين تصفو حيناً وتسوء أحياناً حتي قيام الحروب الصليبية (٣).

والواقع أن جهود باسل الثانى فى الشام تعتبر خاتمة للحرب التى قام بها البيزنطيون ضد المسلمين فى القرن العاشر، وهي الحرب التي حالت دون إمتداد النفوذ الفاطمى بالشام إلى ما وراء أنطاكية، مع إحتفاظ البيزنطيين بنوع غير واضح من السيادة على إقليم حلب. ويبدو أن سياسة التقاعس التى إتبعتها الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر أدت إلى تمكين الفاطميين من فرض سيادتهم على حلب سنة ١٠١٥، وظلّ النفوذ الفاطمى قائماً فيها حتى إستطاع أحد زعماء قبيلة بنى كلاب - وهو صالح بن مرداس - أن يطرد الفاطميين منها ويؤسس إمارة لبنى مرداس فيها سنة ١٠٢٣ (٤). وقد ظل بنو مرادس يسيطرون على حلب من سنة ١٠٢٣ حتى سنة ١٠٧٩، أى قرابة نصف قرن (٥)، لم تبطل فيه المنازعات بينهم وبين الفاطميين بسبب السيادة على حلب. أما البيزنطيون فقد فقدوا كل نفوذ لهم فى حلب. لا سيما بعد أن إستطاع شبل الدولة المرداسى أن ينزل

---

(1) Cam. Med Hist. vol. 4. p. 149 & Setton : op. cit., pp. 72 - 90.
(2) Cam. Med Hist. vol. 4. p. 149 & Setton : op. cit., pp. 72 - 90.
(3) Vasiliev, op. cit., I, p. 311.

(٤) محمد جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ١٢٥، زامباور : معجم الأسرات ص ٤٥ ، ٥١.

(٥) ابن الأثير : الكامل ج١٠ حوادث سنه ٤٧٢ هـ.

هزيمة بالجيوش البيزنطية سنة ١٠٣٠ «وغنم المسلمون جميع ما كان معهم» [١].

على أن أحد القادة البيزنطيين – وهو جورج مانياقس Georges Maniakes حاكم سميساط – نجح فى أن يحول دون إمتداد نفوذ بنى مرداس إلى أنطاكية [٢] ولم يلبث هذا القائد البيزنطى أن أستغل فرصة المنازعات الداخلية فى الرها – حيث تولى الحكم فرع آخر من بنى كلاب – ليستولى عليها من المسلمين سنة ١٠٣١، وعندئذ «قتل الروم المسلمين وخربوا المساجد» [٣] ولم تفلح النجدة السريعة التى أرسلها الفاطميون وبنو مرداس لإنقاذ الرها، اذ تمكن القائد البيزنطى من تحقيق نجاح سريع بفضل المعونة الفعالة التى قدمها له أهل الرها من المسيحيين، وهم خليط من السريان والنساطرة والأرمن. وهكذا ظلت الرها من الناحية العملية فى حوزة الإمبراطورية البيزنطية حتى وصول الصليبيين فى أواخر القرن الحادى عشر، مما أثار حول ملكيتها مشكلة قانونية بين البيزنطيين والصليبيين، لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن قوة الفاطميين لم تكن العامل الوحيد الذى صرف البيزنطيين منذ أوائل القرن الحادى عشر عن التركيز على بلاد الشام، وإنما كان هناك عامل آخر يتمثل فى إنشغال الإمبراطورية البيزنطية بشئون أرمينية. وكان ملوك أرمينية بحكم جوارهم للخلافة العباسية من ناحية وللدولة البيزنطية من ناحية أخرى يقسمون ولاءهم بين الطرفين [٤]. وعلى الرغم مما إنتاب أرمينية من ضعف وانحلال سياسي، إلا أن هذه المملكة بلغت فى أواخر القرن العاشر درجة من الرخاء لم تتحقق لدولة أخرى مجاورة فى الشرق. وقد ظهر أثر هذا الرخاء فى التقدم الحضارى الذى أحرزته أرمينية فى تلك الفترة، وبخاصة فى ميادين العمارة والأدب والشعر وتدوين التاريخ .... [٥]. ويبدو أن هذا الرخاء كان من العوامل التى أغرت الإمبراطور البيزنطى باسل الثانى على السعى فى ضم أرمينية إلى ممتلكاته. وقد ساعد باسل الثانى على تحقيق غرضه المنازعات والخلافات الداخلية فى أرمينية من ناحية، وتخوف الأرمن من الأتراك السلاجقة الذين أخذوا يهددون الحدود الشرقية لبلادهم من ناحية أخري، مما جعل أرمينية

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنه ٤٢١ هـ.

(2) Cam, Med. Hist., op. cit. 4, p. 150.

(3) Vasiliev : op. cit. I, p. 312 & ابن الأثير : الكامل، حوادث سنه ٤٢١ هـ.

(4) Vasiliev : op. cit., vol. I, p. 314.

(5) Grousset. Hist. de l'Armenie, p. 217 f.

تلقى بنفسها بين أحضان الإمبراطورية البيزنطية ١٠٢١ (١). وقد تبدو هذه الخطورة مصدر قوة للطرفين، وضمانا لحماية أرمينية من خطر السلاجقة، ولكن الحقيقة هى أن أرمينية ألقت عبئاً جديداً على الإمبراطورية البيزنطية، فى الوقت الذى ترتب على وضع أرمينية الجديد عدم إستطاعتها القيام بأى إجراء سريع لمواجهة الأخطار المهددة لها دون الرجوع إلى القسطنطينية، مما جعلها طريقاً سهلا مفتوحاً أمام الغزاة المسلمين الوافدين من الشرق إلى جوف آسيا الصغري.

الحروب الصليبية فى الأندلس :

لم تعبر الروح الصليبية عن نفسها تعبيراً عمليا فى الشرق الأدنى فحسب، بل ظهرت واضحة فى المغرب أيضاً، حيث دارت منذ القرن الحادى عشر حرب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين من شبه جزيرة أيبريا.

ومن الملاحظات التى إسترعت نظرنا أن المؤرخ ابن الأثير حرص على أن يفتتح كلامه عن الحروب الصليبية وإستيلاء الصليبيين على أنطاكية سنة ٤٩١ هـ بالإشارة أولا إلى الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس وصقلية، مما يوضح أن هذا المؤرخ الواسع الأفق ربط ربطاً قويا بين أطراف الحركة الصليبية فى أسبانيا وصقلية وشمال إفريقية والشام، وإتخذ الحروب الصليبية فى الأندلس مدخلاً للحروب الصليبية بالشام (٢).

والواقع إن استيلاء المسلمين على أسبانيا فى أوائل القرن الثامن للميلاد، وأقامة دولة إسلامية قوية فيها، كان أمراً لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية أو شعوب أوربا المسيحية. فأسبانيا كانت من أولى البلاد الأوربية التى وصلتها المسيحية، وغدت تحتل مكانة ظاهرة فى العالم المسيحى الغربى بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون إليها من مختلف أنحاء الغرب الأوربي. لذلك ظلت القوى المسيحية فى غرب أوربا تتحين الفرصة المناسبة

(1) Ostrogorsky : op cit., p. 278 & Vasiliev : op. cit. I, p. 315.

(٢) قال ابن الأثير الجزري في حوادث سنة ٤٩١ هـ وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج واستبداد أمرهم وخروجهم إلي الإسلام وبلادهم واستيلائهم علي بعضها - سنة ٤٧٨ هـ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس. وقد تقدم ذكر ذلك ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها - وقد ذكرته أيضا - وتطرقوا إلي أطراف أفريقية فملكوا منها شيئا وأخذ منهم، ثم ملكوا غيره علي ما تراه. فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلي بلاد الشام. (الكامل - حوادث سنة ٤٩١ هـ).

لإسترداد ذلك الجزء المفقود من الوطن المسيحي. وحسبنا ما قام به شارلمان من حرب ضد المسلــمين فى أسبانيا فى أواخر القرن الثامن للميلاد، وهى الحرب التى حرصت أغنية رولان فى القرن الحادى عشر على إكسابها طابعاً صليبياً واضحاً [١].

والملحوظ أن المسلمين فى الأندلس لم يستطيعوا مطلقا فى وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه جزيرة أيبريا، وأنما ظلت بعض الجهات - وبخاصة فى الشمال الغربى - خارجة عن نفوذ المسلمين فقامت بها أربع دويلات مسيحية هى : مملكة ليون ومملكة نافارى وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة [٢]. ومن هذه الوحدات المسيحية إنبعث الخطر الذى هدد المسلمين فى الأندلس، فى الوقت الذى تدهورت الخلافة الأموية فى قرطبة حتى سقطت فعلاً سنة ١٠٣١ [٣]. ولم يلبث أن بلغ التوسع المسيحى على حساب المسلمين بالأندلس درجة خطيرة فى عهد الفونس السادس (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة (١٠٦٥ - ١١٠٩)، وهو الذى أوغل فى وادى نهر تاجة حتى استولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥، وبذلك خسر المسلمون معقلاً من أهم معاقلهم فى الأندلس [٤].

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ دوى هائل فى جميع أرجاء العالم المسيحى الغربي، اذ إستثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كلية من الأندلس. أما فى الجانب الإسلامى فان ضياع تلك المدينة - التى هى «من أكبر البلاد وأحصنها» [٥] هز المسلمين جميعا فى المشرق والمغرب، وجعل مسلمى الأندلس يفكرون فى طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من ناحية وإسترداد ما فقدوه من أراض وبلاد من ناحية أخري. وهنا لم يتردد ملوك الطوائف فى الإستعانة بالمرابطين فى شمال إفريقية، وهم أقرب قوة إسلامية، يمكنها أن تدفع خطر المسيحيين عن مسلمى الأندلس [٦]. ولم يلبث أن عبر يوسف بن تاشفين - ملك المرابطين - مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس جيش كبير من البربر

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٢٠٢، ج٢ ص ٤٤٧.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 366.

(3) Dozy : Spanish Islam, pp. 589 - 592.

(4) Chapman : A Hist of Spain, p. 72.

(٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٧٨ هـ.

(6) Dozy : op. cit., pp. 694 - 695.

الأشداء ؛ حيث التقى مع الفونس السادس فى موقعة الزلاقة فى اكتوبر سنة ١٠٨٦ . وفى تلك الموقعة حلت الهزيمة بالقشتاليين ففر الفونس السادس مع فلول جيشه، تاركاً خلفه عدة آلاف من القتلى والأسري، فى حين قفل يوسف بن تاشفين راجعاً إلى شمال إفريقية (١).

وقد أدى تجدد الخطر المسيحى علي المسلمين بالأندلس من ناحية، وإتساع الخلاف بين ملوك الطوائف المسلمين من ناحية أخرى إلى عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة ١٠٩٠ ليشن حرباً على ملوك الطوائف المسلمين، فضلا عن المسيحيين. ولم يلبث المرابطون أن إستولوا على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة. وعندما دالت دولة المرابطين وحلت محلها دولة الموحدين فى شمال إفريقية، فكر الموحدون - بوصفهم ورثة المرابطين - فى ضم الأندلس إلى ملكهم، وإستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح فى ذلك سنة ١١٤٦ (٢).

وفى ذلك الوقت كان المسيحيون فى أسبانيا قد وجدوا بطلاً جديداً فى شخص الفونس الأول ملك أرغونة (١١٠٤ - ١١٣٤) . وقد إستطاع الفونس الأول هذا أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين فى الأندلس، حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤ (٣) . ولم تقتصر جهود المسيحيين فى تلك الفترة على ما قامت به أرغونة وملوكها، إذ إستطاع ريمون برنجار الرابع - كونت برشلونة - أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨ . أما فى الجبهة الغربية، فقد تمكن الفونس الأول ملك البرتغال (١١٣٩ - ١١٨٥) من التوغل داخل الأراضى الإسلامية وراء نهر تاجة (٤).

وثمة أهمية خاصة للجهود الصليبية التى قام بها ألفونس الأول ملك البرتغال ضد المسلمين بالأندلس، هى أنه إستعان سنة ١١٤٧ بأسطول صليبى يحمل جماعة من الانجليز والفلمنكيين والألمان - كانوا فى طريقهم إلى الشام للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية - فإستوقفهم ألفونس الأول، وتمكن بمساعدتهم من طرد

---

(1) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp. 398 - 399. & Watts : Spain, p. 67 &
حسن أحمد محمود. قيام دولة المرابطين ص ٢٧٦.

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 406.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 470.

(4) Stephenson : Portugal, pp. 18 - 19 & Chapman,op. cit. 76.

المسلمين من لشبونة التى غدت عاصمة مملكة البرتغال الناشئة [1]. وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية فى ذلك العصر على المشرق والأراضى المقدسة، بل شمل أيضاً المغرب وأسبانيا، فأسهم الصليبيون الوافدون من إنجلترا وألمانيا فى فتح لشبونة، كما إشترك الصليبيون الفرنسيون فى مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس. هذا فى الوقت الذى مد فرسان الداوية والإسبتارية نشاطهم إلى وادى نهر إبرو بأسبانيا، فضلا عن بلاد الشام [2]. ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان أن أقامت لنفسها مركزا فى أسبانيا سنة ١١٤٩، حيث أقاموا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم من ناحية ولحرب المسلمين من ناحية أخري. ثم تكاثرت بعد ذلك فى أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية، مثل هيئة القديس جوليان التى أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢، والتى إتخذت بعد ذلك - سنة ١٢١٨ - إسم منظمة القنطرة، وذلك عندما إستولى المسيحيون على بلدة القنطرة الواقعة على نهر تاجه وإتخذها أولئك الفرسان مركزاً لنشاطهم [3].

ولم تتردد البابوية فى تشجيع تلك المنظمات التى نهضت فى أسبانيا بالدور نفسه الذى قامت به الإسبتارية والداوية والتيتون فى بلاد الشام، بل إن الفضل يرجع إلى البابا إسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث فى قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا، وهي منظمة سنتياجو. وبفضل نشاط هذه الهيئات وجهودها إشتدت حماسة المسيحيين فى حرب المسلمين فى الأندلس، كما أخذ الطابع الدينى يغلب على هذه الحرب ليجعل منها حربا صليبية لا تقل أهمية فى نظر الأوربيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة عندئذ فى المشرق[4]. وهكذا دخل الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه مجرد حروب محلية متفرقة بين حكام الفريقين، وإنما أصبح صراعاً شاملاً بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين، ظلا يتقاسمان ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبى الغربى من أوربا طوال عدة قرون [5].

وفى هذه الحروب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونس التاسع ملك قشتالة فى موقعة الأرك سنة ١١٩٥[6]. على أن البابا

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 194.
(2) King : The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, p, 133.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 471.
(4) Chapman : op. cit, pp. 94 - 96.
(5) Tout : op. cit., p. 471.
(6) Com. Med. Hist. vol. 6, p. 409.

أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) - وهو صاحب الفضل فى إثارة الحماسة الصليبية فى أسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالى البلاد الغربية على المشاركة في الحرب الدينية ضد المسلمين - لم يستطع أن يسكت على هزيمة الأرك . ولم يلبث هذا البابا أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمى الأندلس، فاجتمع عدد كبير من فرسان أوربا للمشاركة فى تلك الحرب تحت زعامة رئيس أسقاقفة ناربون [١] . وكان أن تضافرت فى تلك الحرب جهود ملك أرغونة وملك نافارى وملك قشتالة، مما ساعد على أنزال هزيمة كبرى بالموحدين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢ [٢] .

ولم تقم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس، فأخذت المدن والمعاقل الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى فى قبضة المسيحيين، بحيث لم يتبق للمسلمين فى أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة. وفي تلك الرقعة الضيقة بين جبال نيفادا والبحر، قدر لبقايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان بلغت نحواً من قرنين ونصف [٣] .

---

(1) Painter : op. cit., p. 195.

(2) Cam. Med. vol. 6, p. 410 &

والعقاب بالضم الصخرة العظيمة في عرض الجبل.

(٣) لين بول : العرب في أسبانيا ص ١٨٤ - ١٨٥ .

الفصل الثاني

الأتراك وقوة المسلمين

ظهور السلاجقة - طغرل بك :

في الوقت الذى تنازعت السيادة على المسلمين في الشرق الأدنى خلافتان، إحداهما فاطمية شيعية والأخرى عباسية سنية، وفى الوقت الذى ساءت أحوال هاتين الدولتين الأولى بسبب سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله وسوء الأحوال الإقتصادية وإزدياد نفود الوزراء العظام، والثانية بسبب تفاقم سلطة بنى بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين سيطرة تامة، فى ذلك الوقت ظهرت قوة فتية على مسرح الشرق الأدنى - هى قوة الأتراك - لتبث فى العالم الإسلامى روحاً جديدة، مما أدى إلى تغيير ميزان القوى مرة أخرى بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق الأدنى [(١)].

والملحوظ أن بنى بويه اعتراهم الضعف منذ أواخر القرن العاشر للميلاد بسبب المنازعات بين أمرائهم. وكان ذلك عندما ظهرت قوة أخرى فى إيران - هى قوة الغزنويين الأتراك - الذين إستطاعوا أن يقضوا على آخر الأمراء السامانيين سنة ٩٩٩. ولم يلبث أن تمكن محمود الغزنوى (٩٩٨ - ١٠٣٠) من السيطرة علي إقليم خراسان بأكمله، كما إنتزع من البويهيين جزءاً من عراق العجم، مما يشير إلى إزدياد نفوذ العنصر التركى فى الجناح الشرقى من العالم الإسلامى [(٢)]. وبينما واصل الغزنويون فتوحاتهم فى شرق إيران والهند، إذا بقبيلة أخرى من الأتراك - هى قبيلة السلاجقة - تخرج من منطقة الإستبس المحيطة ببحر آرال لتتوغل فى إقليم خراسان.

والسلاجقة قوم من الأتراك الغز، نسبوا إلى جدهم سلجون بن دقاق، وعاشوا أول أمرهم فى إقليم تركستان، حتى نزحوا صوب بلاد الإسلام علي حدود نهر سيحون، وهناك إعتنقوا الديانة الإسلامية. وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة

---

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 302.
(2) Setton : A Hist. of the Crusades,vol. I, pp. 139 - 140.

إلى إقليم بخارى حيث ظلوا يتبعون الغزنويين تبعية غامضة، حتى ثاروا عليهم فى نهاية الأمر، وإستطاع زعيمهم طغرل بك الإستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة ١٠٣٧ (٤٢٨ هـ) فى الوقت الذى كان الغزنويون مشغولين عن تلك الأحداث بفتوحاتهم الجديدة فى الهند [١]. وأخيراً تنبه السلطان مسعود الغزنوى إلى خطر السلاجقة، فحاول أن يقضى على ذلك الخطر، ولكن بعد فوات الأوان إذ أنزل به طغرك بك الهزيمة فى مايو ١٠٤٠ وغنم السلاجقة «من العسكر المسعودى مالا يدخل تحت الإحصاء» وبذلك تمت سيطرة السلاجقة على خراسان، وإقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان [٢]. وعندما أدرك مسعود الغزنوى أنه من الصعب إخضاع السلاجقة عن طريق القوة، حاول إستمالتهم ودفع خطرهم بالحيلة والسياسة، فكتب إليهم «يعدهم بالمواعيد الجميلة والخلع النفيسة، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط - وهى مدينة على جيحون - ونهاهم عن الشر والفساد» ولكن السلاجقة إستخفوا بالرسول، ولم يطمئنوا إلى نوايا السلطان مسعود ووعوده، وقالوا «نحن لا نطيعه ولا نثق إليه» [٣].

وفى ذلك الوقت إختار بقية زعماء السلاجقة من أسرة طغرل بك أن يعمل كل منهم لحسابه الخاص. فأخذوا يتوسعون على حساب القوى الإسلامية والبيزنطيين جميعاً ونجحوا فعلاً فى بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق وأرمينية وآسيا الصغري. أما طغرل بك نفسه فقد نظم دولته الجديدة وأقر النظام فيها، كما استولى على الرى سنة ١٠٤٢ - ١٠٤٣، وعلى أصبهان سنة ١٠٥٠، وإتخذ الأخيرة حاضرة لدولته [٤]. ومن ذلك المركز الجديد، أخذ طغرل بك يتدخل فى شئون الخلافة العباسية.

والواقع إن الخلافة العباسية كانت تمر عندئذ بمحنة قاسية، بعد أن ظلت قرابة قرن - أى منذ سنة ٩٤٥ - ترزح تحت وصاية بنى بويه وسيطرتهم. ذلك أن بنى بويه عملوا علي الحد من نفوذ الخليفة العباسى فى بغداد، فضلاً عن البلاد الأخرى التابعة للدولة العباسية. ثم إن إعتناق بنى بويه للمذهب الشيعى وتعصبهم لذلك المذهب وإرغامهم السنيين على الإشتراك فى أعياد الشيعة، كل ذلك أدى

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٣٢ هـ.
(2) Cam. Med. Hist., vol. 4, pp. 303 - 304.
(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٣٢ هـ.
(٤) المصدر السابق ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ، سنة ٤٤١ هـ.

إلى إنتشار الفتن المذهبية فى العراق [١]. ويبدو الخلل واضحاً فى تلك المرحلة فى أن الخليفة العباسى وهو رأس جهاز أهل السنة كان يخضع لسيطرة الشيعة، مما أثار خللاً فى أوضاع المجتمع الإسلامي. وكان أمير الأمراء من بنى بويه فى أواسط القرن الحادى عشر هو الملك الرحيم أبو النصر خسرو فيروز (١٠٤٨ - ١٠٥٥)، الذى ترك مقاليد الأمور لفئة من أعوانه، ظهر منهم رجل مغامر إسمه المظفر أبو الحرث أرسلان المعروف بالبساسيري[٢]. ولم يحجم البساسيرى هذا عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية، بل أنه راسل فعلا الخليفة المستنصر الفاطمى في هذا الشأن[٣]. وإزاء ذلك الخطر لم يسع الخليفة القائم بأمر الله العباسى سوى أن يستنجد بالسلاجقة السنيين، لمساعدته فى إنقاذ الخلافة العباسية. وفى الوقت الذى قصد البساسيرى دار الخلافة فى بغداد «ونهبها وأحرقها ونقض أبنيتها واستولى على كل ما فيها» سار طغرل بك إلى بغداد سنة ١٠٥٥ ليقضى على البساسيرى ويقتله. وهكذا حل السلاجقة السنة محل البويهيين الشعية فى الوصاية علي الخلافة العباسية «وتقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرل بك بجوامع بغداد، فخطب له يوم الجمعة» [٤](رمضان سنة ٤٤٧ هـ).

ولا شك فى أن ما قام به طغرل بك من أنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السنى أضفى عليه مكانة خاصة فى العالم الإسلامي. هذا إلى إن طغرل بك إستطاع بتلك الخطوة أن يحقق للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة هم أحوج ما يكونوا إليها عندئذ، فصارت إيران والعراق تؤلفان وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسى وبالزعامة الدنيوية للسلطان السلجوقي[٥]. أما طغرل بك نفسه فقد خلع عليه الخليفة العباسى وأضفى عليه ألقاب التشريف كما زوجه الخليفة من ابنته [٦].

---

(١) يروي ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٥ هـ (في هذه السنة في المحرم زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة، كان ابتداؤها أواخر سنة أربع وأربعين فلما كان الآن عظم الشر وأطرحت المراقبة للسطان واختلط بالفريقين طوائف من الاتراك)

(٢) وصفه ابن القلانسي (ص ٨٧) بأنه واحد من الغلمان الأتراك عظم أمره واستحفل شأنه .. واستولي علي العباد والبلاد.

(٣) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٩٨ - ١٠٠.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٤٧ هـ.

(5) Cam. Med. Hist., vol. 4. p. 304.

(٦) يلاحظ أنه إذا كان السلاجقة قد ظلوا في ذلك الدور الأول من تاريخهم قوة واحدة كبري، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقسموا داخل هذا الإطار إلي خمسة بيوت : =

وهكذا تبدل الموقف فى العالم الإسلامى عند وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣، فبعد أن كانت الإمبراطورية البيزنطية تجد على حدودها الشرقية فى القرن العاشر دولة اسلامية منحلة سياسياً، ومنقسمة على نفسها مذهبياً وحربياً، إذا بالعنصر التركى الذى ظهر على مسرح الأحداث فى القرن الحادى عشر يبث فى الدولة الإسلامية بالمشرق، روحا جديدة وعزيمة قوية، ويهيء للمسلمين فى الشرق الأدنى قدراً من الوحدة مكنتهم من إستئناف التوسع من جديد، وبخاصة على حساب جيرانهم البيزنطيين (١). وكان ذلك فى الوقت الذى دخلت الدولة البيزنطية، دور ركود جديد بعد الصحوة التى مرت بها فى القرن العاشر، مما أتاح فرصة مواتية للسلاجقة للتوسع على حساب البيزنطيين فى آسيا الصغرى توسعاً آمناً مطرداً فى القرن الحادى عشر (٢).

على أنه ينبغى ألا نعتقد أن الغزو السلجوقى لأراضى الدولة البيزنطية إتخذ طابعاً اجماعياً مفاجئاً. فمنذ النصف الأول للقرن الحادى عشر إعتادت الدولة البيزنطية أن تتعرض بين حين وآخر لغزوات قام بها بعض المغامرين من الأتراك السلاجقة، أمثال إبراهيم بن إينال وقتلمش(٣)· من ذلك ما قام به إبراهيم بن إينال سنة ١٠٤٨ من غزو أرمينية – التى كان الأباطرة البيزنطيون قد ضموها إلى دولتهم كما سبق أن أوضحنا – فأوغل السلاجقة فى الأراضى البيزنطية حتى

= ١- بيت طغرل بك وتسمي دولته دولة السلاجقة الكبري، وقد ملكوا خراسان والري والعراق والجزيرة وفارس والأهواز، واستمرت دولتهم من سنة ١٠٣٨ (٤٢٩ هـ) حتي سنة ١١٢٨ (٥٢٢ هـ) عندما سقطت علي يد الخوارزمية.

٢- بيت سلاجقة كرمان، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وهو أخو ألب أرسلان واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ (٤٣٢ هـ) حتي سقطت علي يد الغز التركمان سنة ١١٨٧ (٥٨٣ هـ).

٣- سلاجقة عراق العجم وكردستان، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) حتي سقطت علي يد الخوارزمية سنة ١١٩٤ (٥٩٠ هـ).

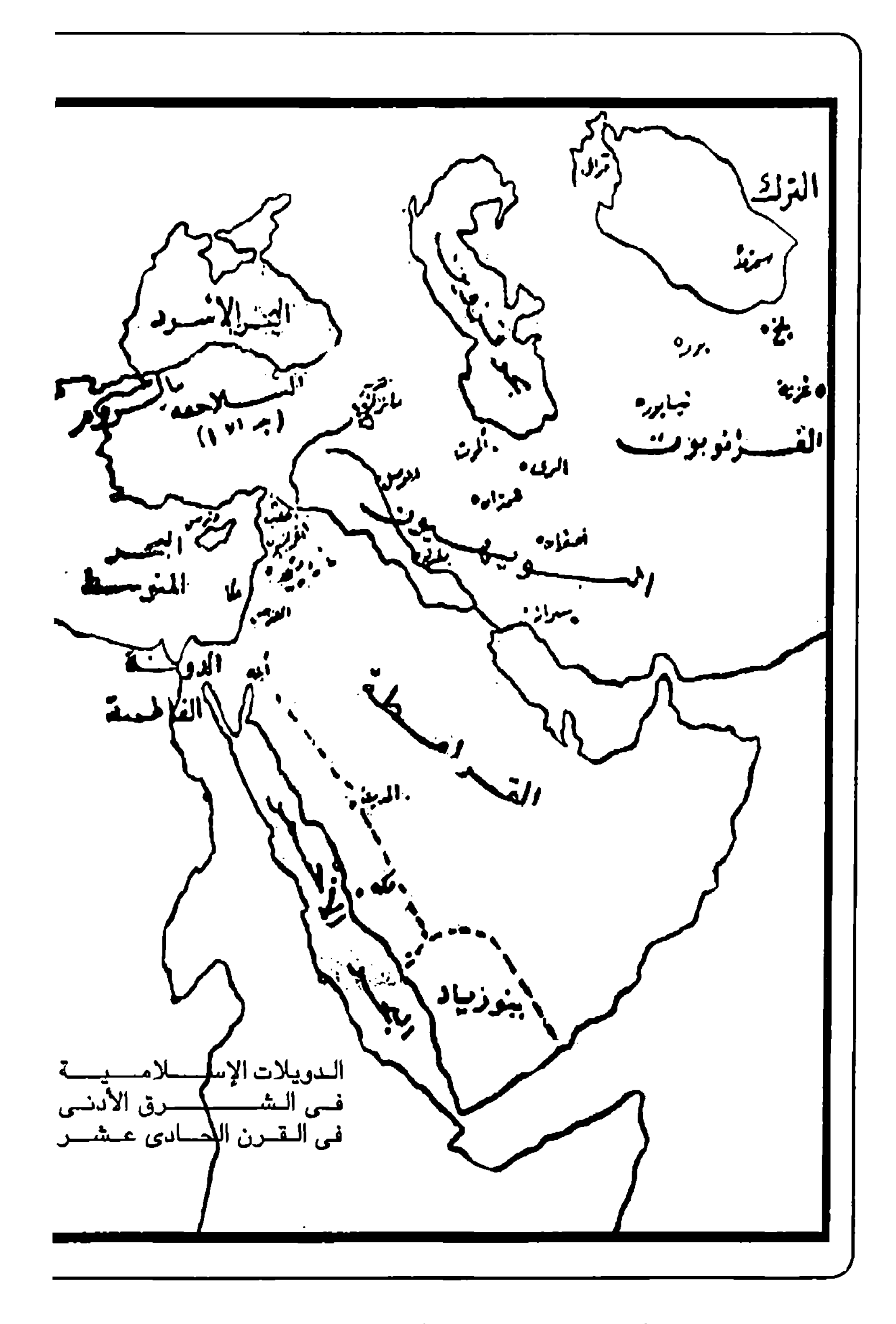
٤- سلاجقة الشام، وهم من بيت تتش بن ألب أرسلان، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٩٤ (٤٨٧ هـ) واستمرت حتي سنة ١١١٧ (٥١١ هـ)

٥- سلاجقة الروم بآسيا الصغري، وكانوا من بيت قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧ (٤٧٠ هـ) ولم تسقط إلا علي يد الأتراك العثمانيين سنة ١٣٠١ (٧٠٠ هـ) وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً.

(1) Cam. Med. Hist., vol. 4, p. 304.

(2) Vasiliev, op. cit., I, p. 355.

(3) Grousset : Hist. de I'Armenie,pp. 595 - 596.



الدويلات الأسلامية فى الشرق الأدنى في القرن الحادى عشر

وصلوا إلى ملازكرد وأرزن وبلغوا طرابيزون على شاطيء البحر الأسود، وعندئذ أكثر السلاجقة من «القتل فى الروم وهزموهـــم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم»(١).

ومع ذلك فإنه يبدو أن طغرل بك لم يكن راغباً فى فتح باب العداء عندئذ مع القسطنطينية، فأمر بإطلاق سراح القائـــد البيزنطى الذى أسره إبراهيم بن إينال (٢). وأرسل بعثة إلى القسطنطينية، لعقد الصلح (٣). وليس معنى ذلك أن الأمور هدأت بين السلاجقة والبيزنطيين، إذا استمر المغامرون من السلاجقة يشعلون نار الحرب مع البيزنطيين، فاجتاح السلاجقة إقليم قرس سنة ١٠٥٢، بل إن طغرل بك نفسه غزا أرمينية سنة ١٠٥٤ ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وجورجيا وأرزن (٤)، وإن كانت الجيوش البيزنطية لم تمكنه بأى حال من الإستيلاء على مانزكرت، فاكتفى بأن حاصرها وضيق على أهلها، ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها (٥).

ومع أن الأتراك السلاجقة إستطاعوا فى عهد الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع (١٠٤٢ – ١٠٥٤) مد إغاراتهم إلى جميع أنحاء أرمينية بغية السلب والنهب، إلا أنهم لم ينجحوا فى احتلال مركز قوى يثبتون فيه. على أن الموقف تغير عندما إشتدت هجمات السلاجقة على أراضى الدولة البيزنطية بين سنتى ١٠٥٧ ، ١٠٨١ فاجتاحوا كبادوكيا ونهبوا ملطية (أكتوبر ١٠٥٧) (٦). وفى سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة حتى سيواس وذبحوا فريقاً من أهلها ثم عادوا محملين بالأسلاب والغنائم. ومع ذلك فانه يمكن القول بأن إغارات السلاجقة إستمرت حتى وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ تستهدف غالباً السلب والنهب دون أن يحاولوا الإستقرار وإقامة دولة لهم داخل أراضى الدولة البيزنطية (٧).

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٤٠ هـ.

(٢) يذكر ابن الأثير أن ابراهيم بن إينال أسر قاريط ملك الأبخاز. فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجبه إلي ذلك (حوادث سنة ٤٤٠ هـ).

(٣) ويقول المقريزي أن ملك الروم هو الذي أرسل بطلب هدنة من طغرل بك وهاداه وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرك بك (السلوك ج١ ص ٣٢).

(4) Grousset : Hist. de l'Armenie,pp. 496 - 597.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٤٦ هـ.

(6) Setton. op. I, pp. 144 - 147.

(7) Grousset, Hist, des Croisades, I, p. XXX.

ألب أرسلان وموقعة مانزكرت :

وبوفاة طغرل بك وقيام خليفته ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) مكانه في الحكم [١]، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الدولة البيزنطية دوراً جديداً، إذ غدت هذه السياسة تستهدف الإستيلاء على أراضى تلك الدولة وإمتلاكها، بدلاً من مجرد القيام بإغارات محدودة للسلب والنهب ثم العودة. ففى سنة ١٠٦٥ إستولى ألب أرسلان على آنى ثم على قرس، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية، والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين ونفوذهم فى الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى[٢]. وبعد أن دمر السلطان ألب أرسلان مدينة آنى اضطر إلى العودة إلى فارس ليخضع بعض أقربائه الذين ثاروا ضده. ومنذ ذلك الوقت غدا الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة إلي داخل الأناضول، بعد أن استولوا على قلب أرمينية، فاستمروا منذئذ - دون أن يرتبطوا بخطة حربية معينة - يجتاحون القرى والضياع، متجنبين بقدر الإستطاعة المراكز القوية المحصنة، حتى دمروا إقليم كابادوكيا بأكمله ثم وصلوا إلى قيصرية فخربوها سنة ١٠٦٧، وإعتدوا على كنيسة القديس باسل [٣]. كل ذلك، والامبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧) جامد لا يتحرك، ولا يحاول إنقاذ البناء الكبير الذى شيده أسلافه فى القرن العاشر، وبخاصة باسل الثاني.

على إنه لم يلبث أن تولى عرش الإمبراطورية بعد ذلك رجل نشيط على جانب من الكفاية الحربية، هو رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١) فبدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية في الدولة، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطى الذى غدت الفرق الأساسية فيه تتألف من جند مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركمان الآسيويين فضلا عن الفرنجة الغربيين. وبذلك الجيش غير المتجانس شرع الإمبراطور رومانوس الرابع فى استرداد الأناضول حتى الفرات شرقاً من جموع السلاجقة. وعلى الرغم من الظروف القاسية التى أحاطت برومانوس ومهمته، إلاّ أنه نجح إلى حد كبير فى تحقيق غرضه. هذا وإن كانت خفة الأتراك السلاجقة وسرعة حركاتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ما كان يشتهى [٤].

---

(١) ألب أرسلان أبو شجاع محمد بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، ثاني سلاطين الدولة السلجوقية. ومعني ألب أرسلان (رجل أسد).

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٥٦ هـ.

(3) Vasiliev : op. cit., I, p. 355.

(4) Ostrogorsky : op. cit.,p. 304.

وقد سلك رومانوس الرابع طريق سيواس وقيصرية للوصول إلى مرعش علي الحدود بين الشام وقيليقية (سنة ١٠٦٨) . ولم تكد تمر تلك السنة حتى كان الإمبراطور قد وصل إلى منبج «فى عسكر كثيف» علي الضفة الغربية لنهر الفرات – وهناك ترك حامية في أرتاح شرقى أنطاكية[١] ولكن جموع السلاجقة لم توقف نشاطها فى تلك الأثناء، وإنما واصلوا إغاراتهم المدمرة حتى نهبوا عمورية فى قلب فريجيا، وبذلك لم تعد أرمينية تقف حاجزاً بين السلاجقة وقلب آسيا الصغري، وصارت مسالك البلاد مألوفة لهم[٢] . علي أنه إذا كان السلاجقة قد أوغلوا بهذه الصورة فى قلب آسيا الصغري، إلا أنهم حرصوا دائماً إلى عدم الإصطدام بالجيش الإمبراطوري، حتى أنهم كثيراً ما كانوا يتركون خلفهم ما جمعوه من مغانم ومكاسب. ثم كان أن إستطاع رومانوس الرابع – على الرغم من ثورة أحد زعماء النورمان المرتزقة فى قيليقية – أن يطارد السلاجقة حول قيصرية وأن يوغل فى غرب أرمينية، وإن كان قد قلل من شأن هذه الإنتصارات الهزيمة التى أنزلها السلاجقة بحاكم ملطية البيزنطي، ثم إستيلاء السلاجقة على تلك المدينة. وفى سنة ١٠٧٠ أنزل السلاجقة هزيمة أخرى بالقائد البيزنطى مانويل كومنين قرب سيواس وأسروا ذلك القائد. هذا مع ملاحظة أن الرها – فى بلاد النهرين – ظلت طول تلك الأثناء فى قبضة البيزنطيين، فصمدت لجميع الهجمات التى تعرضت لها من جانب السلاجقة[٣] .

أما ألب أرسلان فكان قد أنتهى فى ذلك الوقت من تصفية المشاكل الداخلية فى دولته، فعاد من أذربيجان وقد صمم على إتباع سياسة الجهاد الدينى العام ضد الروم. وكان أن إستولى ألب أرسلان على ملازكرد (مانزكرت) سنة ١٠٧٠ وهى تقع شمالى بحيرة فان، وكانت من البقايا الأخيرة التى تبقت للدولة البيزنطية فى أرمينية، ثم أتبع ذلك بإسترداد ملطية مرة أخرى من البيزنطيين. وأخيراً قصد الرها «فحصرها فلم يظفر منها بطائل» . وعندئذ إتجه ألب أرسلان علي رأس قواته ضد حلب – وأميرها وقتئذ رشيد الدولة محمود المرداسى – فخضعت حلب للسلاجقة، وأعلن بنو مرداس تبعيتهم لألب أرسلان الذى «خلع على محمود (المرداسي) وأعاده إلى بلده[٤]»

(1) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 626, &

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٦٢ هـ.

(2) Vasiliev : op. cit. I, p. 355.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. 165.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٦٣ هـ.

وفى تلك الأثناء شرع رومانوس الرابع فى القيام بمحاولة جديدة لإسترداد أرمينية - وكان ذلك فى ربيع سنة ١٠٧١ - فخرج علي رأس جيش ضخم يتألف من مائتى ألف مقاتل، وإن كان معظم هذا الجيش مؤلفاً من مرتزقة من النورمان والتركمان، مما جعله مفتقراً إلى التجانس وحسن التنظيم(١). وعند وصول رومانوس الرابع إلى أرزن إرتكب خطئاً كبيراً بتقسيم قواته، فأرسل جزءاً من جيشه لمهاجمة مدينة خلاط، فى حين سار هو على رأس بقية الجيش تجاه مانزكرت وإستولى عليها فعلا. ولم يكد ألب أرسلان يسمع تلك الأخبار حتي ترك حلب قاصداً أرمينية، حيث إتبع السياسة التقليدية للسلاجقة، وهى تجنب الإصطدام بالجيوش البيزنطية. وعندما أرسل ألب أرسلان إلى الإمبراطور رومانوس الرابع يطلب مهادنته، رد الإمبراطور قائلا «لا هدنة إلا بالرى» أى أنه ينوى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بالري، وعندئذ إنزعج السلطان ألب أرسلان، ولم يعد هناك مفر من القتال (٢).

وفى ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ إلتقى ألب أرسلان بخصمه رومانوس الرابع جنوبى ملازكرد (مانزكرت)، أو على وجه التحديد بين مانزكرت وخلاط. وفى الموقعة الحاسمة التى دارت بين الطرفين حلت الهزيمة بالبيزنطيين، ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع نفسه أسيراً «وقتل من الروم ما لا يحصى حتى إمتلأت الأرض بجثث القتلي»(٣). ويقال إن الإمبراطور البيزنطى أبلى بلاءاً حسناً وحارب بشجاعة وبسالة حتى سقط فرسه قتيلا من تحته. ولكن الخيانة لعبت دورها عندئذ فى أضعاف قوة البيزنطيين، إذ إنفض عنهم جنودهم المرتزقة من التركمان وإستجابوا لنداء رابطة الدم فانضموا إلى جانب السلاجقة. بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلوا عن إمبراطورهم فى تلك اللحظة الحرجة فأشاعوا خبر الهزيمة والمعركة مازالت دائرة، وعندئذ فر الجند تاركين الإمبراطور يقع فى قبضة أعدائه (٤).

ومهما يكن من أمر، فإن موقعة ملازكرد (مانزكرت) كانت أكبر كارثة حلت بالامبراطورية البيزنطية فى أواخر القرن الحادى عشر. وليس هذا مجال

(١) يذكر المؤرخ ابن الأثير أن رومانوس الرابع خرج في مائتي ألف من الروم والفرنج والروس والبجناك والكرج وغيرهم ويبدو أن الروس المرتزقة كانوا في مقدمة الجيش. (الكامل، حوادث سنة ٤٦٣ هـ).

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٦٣ هـ.

(٣) المصدر السابق والسنة نفسها.

(4) Vasiliev, op. cit I, p. 356.

الإفاضة فى أثر الموقعة في التاريخ البيزنطي، وإنما تكفى الإشارة إلي أنها جاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية فى حماية العالم المسيحى فى الشرق من ضغط المسلمين، وفي حراسة الباب الشرقى لأوربا من غزو الآسيويين، وبذلك صار على الغرب الأوربى أن يقوم بدوره فى هذا المضمار بدلاً من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية. وبعبارة أخرى فإن موقعة مانزكرت تبرر - فى نظر كثير من المؤرخين - ما حدث سنة ١٠٩٥ من دعوة للحرب الصليبية فى الغرب الأوربي، على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت رد فعل للكارثة التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ (١). على أنه ثمة حقيقة أخرى أكسبت موقعة ملازكرد (مانذكرت) أهميتها الخطيرة فى التاريخ، هى أن المجتمع البيزنطى كان قد بلغ عندئذ درجة من الانحلال جعلته لايقدر خطورة تلك الكارثة . حقيقة أن إنتصار السلاجقة فى ملازكرد كان لا يعنى - بالنسبة لأفقهم المحدود فى ذلك الوقت - أكثر من امتلاك المسلمين أرمينية ثم أنطاكية والرها. وقوى هذا الاعتقاد أن السلطان ألب أرسلان عامل أسيره الإمبراطور رومانوس الرابع معاملة طيبة، فأحسن وفادته ثم أطلق سراحه بعد ثمانية أيام من أسره، وأعاده الى بلاده معززاً، بعد أن جهزه بعشرة الاف دينار يستعين بها على السفر(٢) ويبدو أن كل ما كان يطمع فيه ألب أرسلان هو أن تقف الإمبراطورية البيزنطية موقف الحياد إزاء جهود السلاجقة لتوحيد الدولة الإسلامية فى الشرق الأدني، وأن يقوم الإمبراطور برد خصوم السلطان الفارين من وجهه إلى الأراضى البيزنطية(٣). وهكذا بدلاً من أن يستغل ألب أرسلان إنتصاره فى محاولة إحتلال بقية آسيا الصغري، إذا به يتجه سنة ١٠٧٢ إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر (جيحون)(٤) ولكن البيزنطيين - بإنشقاقهم وإنقسامهم على أنفسهم - هم الذين وسعوا الخرق وضاعفوا

---

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 305.

(٢) يروي ابن العبري أن ألب أرسلان عندما رأى الإمبراطور الأسير وبخه وقال له : ألم أرسل لك في المهادنة فأبيت ؟ فقال دعني من التوبيخ وافعل ما تريد فقال السطلان ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال القبيح قال له فما تظن أني أفعل بك ؟ قال إما أن تقتلني وإما أن تشهر بي في بلادك والأخري بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبا عنك. قال ما عزمت علي غير هذا. ففداه بالف ألف دينار وأن يطلق كل أسير عنده من المسلمين (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص ١٨٥).

(3) Setton : op. cit, I, pp. 149 - 193.

(٤) ابن الأثير : الكامل، سنة ٤٦٣ - ٤٦٥ هـ.

من خطر الهزيمة، فلم يكفهم ضياع أرمينية، وإنما تسببوا فى فتح أبواب آسيا الصغرى على مصاريعها أمام السلاجقة. ذلك أن أخبار كارثة ملازكرد لم تكد تصل إلى القسطنطينية حتى أعلن ميخائيل السابع إمبراطوراً (١٠٧١ – ١٠٧٨). وعند إطلاق سراح رومانوس الرابع ألقى القبض عليه وسملت عيناه، وعلى تلك الصورة توفى رومانوس بعدما أبداه من شجاعة فى مانزكرت(١).

أما ألب أرسلان فقد قتل سنة ١٠٧٢ أثناء حروبه فى بلاد ما وراء النهر (جيحون) فخلفه إبنه ملكشاه (١٠٧٢ – ١٠٩٢) الذى ثبت دعائم دولة السلاجقة حتى إتسعت فى عهده وإمتدت من حدود الصين شرقا حتى بحر مرمرة غربا (٢) ومع ذلك فإنه من الخطأ الإعتقاد فى أن إمتداد دولة السلاجقة غربا على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية، لأنه من الحقائق التى تسترعى إنتباهنا أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأناضول، وإنما قام بمواصلة الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلمش الذى تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريبا(٣) .وساعد سليمان بن قتلمش فى تحقيق سياسته الحالة التى أمست عليها آسيا الصغرى من إنحلال إجتماعى ونقص فى السكان، بعد أن هجر كثيرون أرضهم، وبخاصة في الجهات الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة، مما ترك الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة لإحتلال الضياع الخربة التي هجرها أصحابها من البيزنطيين فى آسيا الصغري.

توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى :

ثم كان أن قامت حرب أهلية جديدة داخل الدولة البيزنطية، مكنت السلاجقة من الإستيلاء على فريجيا وبيثنيا حتي بحر مرمرة، ومن الإستيلاء على ليديا وأيونيا حتى بحر إيجة. وحسبنا دليل علي إنحلال أوضاع الإمبراطورية البيزنطية في القرن الحادى عشر أنه تولى عرش الإمبراطورية فى مدى ست

(1) Vasiliev, op. cit., I, p. 356.

(٢) ابن الأثير : الكامل، سنة ٤٦٥ هـ. ، ابن العبري ص ١٨٦.

(٣) حدث في أواخر أيام السلطان طغرل بك أن إنشق عليه أحد أبناء عمومته وهو قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق ونزح إلي المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي بحر قزوين ومعه بعض التركمان. ولم يلبث قتلمش أن أعلن الثورة علي ألب أرسلان. واختار أبناء قتلمش – ومع كل منهم عصبية من التركمان – أن يحتموا بجبال آسيا الصغري وفيافيها .وقد ظهر من هؤلاء الأبناء سليمان بن قتلمش الذي أخذ يعمل علي التوسع في آسيا الصغري لحسابه الخاص ضد ملكشاه والبيزنطيين جميعاً، مما يعتبر البذور الاولي لدولة سلاجقة الروم بآسيا الصغري. "Setton, op. cit., I, 150"

وخمسين سنة (١٠٢٥ – ١٠٨١) ثلاثة عشر إمبراطورا منهم إمرأتان، بمعدل أربع سنوات تقريباً لكل إمبراطور، مما يشهد على حالة عدم الإستقرار التى كانت تعيش فيها الإمبراطورية فى ذلك العصر . ثم إن جميع أولئك الأباطرة – باستثناء واحد أو أثنين – كانوا على قدر ضئيل من المقدرة والكفاية، مما أتاح فرصة طيبة للطامعين من حكام المدن والولايات للثورة والإستقلال عن الحكومة المركزية فى القسطنطينية [1].

وقد حدث فى مستهل سنة ١٠٧٨ أن خرج نقفور الثالث (Nicephorus Botanciates) حاكم إقليم عمورية فى فريجيا – على الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس. ولم يتردد نقفور الثائر فى إعلان نفسه إمبراطوراً باسم نقفور الثالث، بل إنه استعان بالسلاجقة الذين تدفقوا على غرب آسيا الصغرى وإستولوا بإسم الحاكم الثائر على كثير من المدن مثل نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا والبسفور. وكانت هذه أول مرة يحتل فيها السلاجقة نيقية بوصفهم حماة الإمبراطورية، أى بإسم الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨)[2]. وإذا كانت تلك المدن قد ظلت من الناحية الشكلية تابعة للإمبراطورية البيزنطية، إلا أن الحاميات الجديدة التى قامت فيها جاءت من نوع غريب إذ تألفت من رجال يدينون بالاسلام ويغيرون على القرى والضياع المجاورة، فضلاً عن أنهم قطعوا الإتصال بين القسطنطينية وداخلية الأناضول. ولم تكد تمر سنة ١٠٧٨ إلا وكانت حامية نيقية السلجوقية قد رفعت رايه العصيان فى وجه نقفور الثالث الذى أقامها فى تلك المدينة [3]. وفى تلك المرة لم يعدم السلاجقة وسيلة للعثور على خائن بيزنطى جديد – إسمه نقفور أيضاً Nicephorus Melissenus عقد إتفاقية مع سليمان بن قتلمش، فتعهد الأخير بمساعدة الثائر فى الإستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف المدن والأقاليم التى سبق أن ساعدوا نقفور الثالث فى الإستيلاء عليها [4].

وكان أن أقلع نقفور الثائر من جزيرة قوس سنة ١٠٨١ ومعه جموع جديدة من السلاجقة، فاحتلوا نيقية وبيثينيا بأكملها، وكان إحتلال السلاجقة لتلك المراكز وغيرها نهائياً فى تلك المرة. ولكن إذا كان السلاجقة قد باشروا نشاطهم الحربى عندئذ بوصفهم حلفاء لنقفور الثائر، إلا أنه حدث فى السنة نفسها (سنة ١٠٨١) أن صفت الإمبراطورية مشاكلها الداخلية بإعلان الكسيوس كومنين إمبراطوراً أوحداً،

(1) Chalandon : Règne d' Alexis Comnene p. i, f.
(2) Vasiliev : ip. cit. I, pp. 357.
(3) Ostrogorsky : op. cit., pp. 308 - 309.
(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 308.

ودخول نقفور الثائر فى طاعة الإمبراطور الجديد. وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلمش الإعتراف بأى حق للامبراطورية البيزنطية فى المدن والأراضى التى احتلوها فى آسيا الصغري[1]وقد إختار سليمان بن قتلمش السلجوقى مدينة نيقية لتكون مركزاً له، وهى المدينة التى أصبحت أول عاصمة لسطلنة سلاجقة الروم فى الأناضول، حتى حلت محلها قونية فيما بعد (١٠٩٧ - ١٣٠٢) كذلك خسر البيزنطيون فى ذلك الوقت نيقوميديا التى لم يستطع الإمبراطور الكسيوس كومنين إستردادها إلا بعد أن توفى سليمان سنة ١٠٨٦ . ثم كان أن إحتل الأتراك السلاجقة مدينة أزمير علي بحر إيجه، فقام أميرها التركى زاخاس بانشاء أسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرةالقريبة من شاطيء آسيا الصغري، بل لقد هدد القسطنطينية ذاتها[2]وفى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة استطاعت أسرة دانشمند التركمانية تأسيس إمارة قوية حول قيصرية وسيواس وأماسيا، وكانت هذه الإمارة مستقلة عن سلطنة الروم وتابعة للسلطان ملكشاه مباشرة [3]ولا شك فى أن هذه الإمارات العديدة التى نشأت فى ظل حركة التوسع السلجوقي، والتى أخذت كل منها تعمل لحسابها الخاص تحت ستار سلجوقى عام، أقول إن هذه الإمارات جعلت مهمة إسترداد آسيا الصغرى صعبة وشاقة أمام المسيحيين [4].

وهكذا كان الأتراك - عند قيام الكسيوس كومنين امبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ - هم السادة الحقيقيون فى آسيا الصغرى من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غرباً [5]. على أنه من المهم أن نلاحظ أنه لم توجد وحدة تربط أولئك الأتراك بعضهم ببعض، وإنما ظل الأمراء المحليون - مثل زاخاس أمير أزمير ودانشمند فى كابادوكيا - لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن قتلمش. وبعبارة أخرى فقد ظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونية على يد قلج أرسلان الأول، ابن سليمان [6].

أما سواحل آسيا الصغرى - السواحل الشمالية المطلة على البحر الأسود بما فيها طرابيزون، والسواحل الجنوبية المطلة على البحر المتوسط حتى قيليقية - فقد ظلت فى قبضة البيزنطيين. ولعله مما يسترعى انتباهنا أنه بينما كانت نيقية على مشارف البسفور بيد الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٨١ ، فإن هناك مدناً أخرى

(1) Vasiliev : op. cit. I, p. 357.
(2) Ostrogorsky : op. cit., p. 319.
(3) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 170 - 173.
(4) Cam. Med, Hist., vol. 4, p. 331.
(5) Setton : op. cit., vol. I p. 213.
(6) Cam. Med. Hist. vol., 4 pp. 331 - 332.

متطرفة فى الشرق - فى الشام مثل انطاكية، وشرقى الفرات مثل الرها - بقيت تابعة للدولة البيزنطية، فقامت بها حاميات بيزنطية وزعماء من الأرمن يعترفون بالسيادة للقسطنطينية، وإستمرت أنطاكية على ذلك الوضع حتي سنة ١٠٨٥ والرها حتى سنة ١٠٨٧ (١).

ولم تلبث أن أخذت المدن الكبرى فى آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للأتراك بعد أن خربت الأراضى المحيطة بها بسبب كثرة ما تعرضت له من هجمات، مما جعل كثيراً من أهالى المدن والضياع البيزنطيين يهجرونها ويتركونها، قاعا صفصفا ليحتلها الأتراك. ويبدو أن سليمان بن قتلمش حرر كثيراً من رقيق الأرض الذين كانوا يفلحون ضياع كبار الملاك البيزنطيين فى آسيا الصغري، وبذلك إكتسب ولاء تلك الفئة التى طالما قاست الكثير من الإستعباد والظلم. ولعل هذه الحقائق كلها هى التى جعلت من الصعب على آل كومنين وعلى رجال الحملات الصليبية التى أخذت تفد من الغرب منذ أواخر القرن الحادى عشر إسترداد أراضى الأناضول من الأتراك، بعد أن إنتشرت فيها قبائل السلاجقة والتركمان وضربوا خيامهم بين ربوعها حتى غدت وكأنها قطعة من مراعى القرغيز (٢).

(1) Chalandon : Règne d' Alexis Comnene, p. 12.

(2) Grousset : l'Empire du Levant. p. 113.

الفصل الثالث

الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر

النورمان فى آسيا الصغرى :

إستعان الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع بجموع من النورمان المرتزقة ، الوافدين من صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان يرجو أن يتمكن بفضل هذه القوة من صد خطر السلاجقة فى آسيا الصغرى (١) . وقد برز من هؤلاء المغامرين النورمان رجل طموح اسمه رسل باليل Roussel de Bailleul أراد أن يستغل الصراع بين البيزنطيين والسلاجقة فى الشرق لتحقيق مكاسب خاصة لنفسه ، ففكر فى إنشاء دولة مستقلة فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعا . (٢) . ولم يلبث رسل باليل أن أعلن عصيانه سنة ١٠٧٣ فأخضع لحسابه الخاص الجهات المحيطة بقونية وأنقره ، وأخذ يوجه هجماته ضد البيزنطيين حيناً والسلاجقة أحياناً . وهكذا وجد القائد البيزنطى إسحق كومنين – الذى كان مكلفاً بمحاربة السلاجقة فى آسيا الصغرى – نفسه بين نارين مما أوقعه أسيراً فى قبضة السلاجقة (٣) .

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع السكوت عن خيانة رسل ، وهو المفروض أن يكون أجيراً للامبراطورية خاضعاً لها مطيعاً لأوامرها ، فأرسل الإمبراطور حملة جديدة ضد رسل بقيادة حنا دوقاس عم الإمبراطور . ولكن هذه الحملة منيت هى الأخرى بالهزيمة جنوبى عمورية ، وأسر القائد البيزنطى تلك المرة أيضا (٤) . ولم يلبث أن إزداد بأس رسل وبطشه بعد أن شعر بقوته وتفوقه على الإمبراطورية الهزيلة ، فشق طريقه الى البسفور فى مواجهة القسطنطينية حيث أحرق بعض القرى البيزنطية . ثم أن رسل لجأ إلى إعلان أسيره حنا دوقاس

(1) Setton : op. cit., I, p. 200
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance I, p. 283 .
(3) Schlumberger : Récits de Byzance et des Croisades, p. 82.
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 307

إمبراطوراً حتى يكسب حكمه صبغة شرعية (١) .

وهنا خشى الإمبراطور ميخائيل السابع أن يفعل النورمان بالأناضول مثلما فعلوا فى البلقان ، لذلك إستنجد بالسلاجقة ضد النورمان مما أنزل أبلغ الضرر بالنفوذ البيزنطى ، لما ترتب على ذلك من تثبيت أقدام الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغري(٢) . ذلك أن سليمان بن قتلمش عقد إتفاقية مع الإمبراطور البيزنطى سنة ١٠٧٤ تعهد فيها السلاجقة بتقديم المساعدة المطلوبة للإمبراطورية ، بشرط إستيلائهم على الأراضى التى يفتحونها . ولم يكن مع رسل دى باليل أكثر من ثلاثة آلاف من المغامرين النورمان ، فلم يستطع الصمود فى وجه السلاجقة وحلت به الهزيمة ، وإن كان قد إستطاع أن يحتفظ لنفسه برقعة ضيقة من الأرض قرب سيواس ، ومن هناك أخذ يحاول مرة أخرى ضرب البيزنطيين بالسلاجقة وتهديد موانى البحر الأسود . وصادف عندئذ وصول قائد سلجوقى جديد إلى الأناضول - تتش - الذى أخذ بدوره يساعد البيزنطيين ، فإستدرج رسل باليل حتى قبض عليه ثم سلمه للقائد البيزنطى الجديد فى آسيا الصغرى ، وهو الكسيوس كومنين الذى غدا إمبراطوراً فيما بعد (٣) .

وهكذا إستسلم أتباع رسل من النورمان فى آسيا الصغرى ، وفشلت تلك المحاولة التى قام بها النورمان لإقامة دولة لهم فى الأناضول ، وذلك قبل أن يقيم الصليبيون النورمان إمارة لهم فى أنطاكية بعشرين سنة . ومهما يكن من أمر ، فإن أهمية حركة رسل باليل ترجع إلى كونها أول محاولة قام بها بعض الغربيين لتثبيت أقدامهم فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية ، فضلا عما ترتب عليها من إزدياد نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى (٤) .

دولة الارمن الأولي في طوروس :

أما حركة إنتشار السلاجقة فى آسيا الصغرى فقد اتخذت إتجاهاً أفقياً من الشرق إلى الغرب ، عبر أرمينية وكابادوكيا وفريجيا وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . أما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى - حول طوروس وأنطاكية وملطية ثم الرها - فلم يتجه إليها

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 284.

(2) Schlumberger : Recits de Byzance, pp. 84- 85 .

(3) Brehier : op. cit., p. 284.

(4) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 168 - 169 .

السلاجقة فى أول الأمر ، مما أدى إلى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الإمبراطورية البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقى الرحى فى الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة فى آسيا الصغرى . ولم تلبث هذه الأقاليم أن أصبحت مركزاً لحركة إحياء أرمينية فريدة فى نوعها وذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تفسر لنا السهولة التى إستطاع بها الصليبيون بعد عشرين سنة الوصول إلى الجزيرة والشام والاستيلاء على الرها وأنطاكية (١) .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد منحت ملوك أرمينية وأمراءها ضياعاً واسعة فى إقليم كابادوكيا ، مما ترتب عليه هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم فى شرق آسيا الصغري(٢) . ولكن توسع الأتراك السلاجقة فى كابادوكيا وإستقرارهم فى ذلك الإقليم ، جعل أولئك الأرمن يبحثون عن مأوى جديد ، فإتجهوا نحو إقليم قيليقية الجبلى فى جنوب شرق آسيا الصغرى ، كما تركزوا فى الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية (٣) .

وليس هناك من شك فى أن تلك الهجرة الأرمينية ترتب عليها تغيير معالم المنطقة ، فضلاً عن أن الحكومة البيزنطية – رغم عدائها التقليدى للأرمن بسبب الخلاف المذهبى بين الكنيستين(٤) – إستطاعت أن تجد فى ذلك الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى جنوداً إعتمدت عليهم فى مواجهة الغزو السلجوقى . ويأتى فيلاريتوس براخاميوس Philaretos Brakhamios(٥)على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الإمبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها فى جنوب شرق آسيا الصغرى . وكان هذا القائد الأرمنى قد عمل تحت قيادة الإمبراطور رومانوس الرابع ، حتى إذا ما حلت هزيمة مانزكرت بذلك الامبراطور سنة ١٠٧١ ، رفض فيلاريتوس الإعتراف بالإمبراطور الجديد ميخائيل السابع(٦) .

وهنا يلاحظ أن الأرمن فى شرق آسيا الصغرى إستخفوا بالبيزنطيين بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وفى الوقت نفسه عمل الأرمن على إسترضاء

(1) Grousset : Hist. de l'Armenie, 554.
(2) Setton : op. cit., p. 179.
(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne, pp. 7-88.
(4) Idem, p. 89.
(٥) أطلق عليه ابن الأثير اسم الفلادروس (الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ)
(6) Brehier : op. cit., p. 284.

السلاجقة بقدر المستطاع ومهادنتهم[1] . ولم يلبث فيلاريتوس أن دعم مركزه حول مرعش ورعبان والإبلستين ، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومة البيزنطية، إزدادت منعة بعد أن نجح فى إسترداد ملطية التى كان السلاجقة قد إستولوا عليها سنة ١٠٦٩ . وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس وإتضحت أهميته ، دخل فى تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين ، الذين كانوا بدورهم قد إنتزعوا أجزاء متفرقة من قيليقية . ولم يلبث أن أصبح فيلاريتوس يسيطر على ثلاث مدن رئيسية فى قيليقية، هى طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفى سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحد رجاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين ، فحاصرها ستة أشهر، حتى إستسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن . أما أنطاكية فقد قتل آخر حاكم بيزنطى عليها سنة ١٠٧٨ ، فخشى أمراء المدينة وأهلها – ومعظمهم من الأرمن – أن يستولى السلاجقة المسلمون عليها ، ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس[2] .

والواقع أن المسيحيين فى أنطاكية والرها وغيرهما من المدن والأقاليم الشرقية التابعة للدولة البيزنطية ، وجدوا أنفسهم وسط محيط واسع من الأتراك السلاجقة ، الذين قطعوا الطريق بينهم وبين قلب الإمبراطورية البيزنطية ، مما تعذر معه وصول نجدات إليهم من القسطنطينية . لذلك لم يجدوا أمامهم مخرجاً سوى تكوين إمارات صغيرة مستقلة تحت زعامة الأرمن وقيادتهم ، وهم الفريق الوحيد بين المسيحيين الشرقيين فى تلك المنطقة الذين إحتفظوا بكيانهم وروحهم الحربية[3] .

وهكذا وضع فيلاريتوس أساس دولة أرمينية جديدة فى جنوب شرق آسيا الصغرى ، وهى الدولة التى اكتمل نموها فيما بعد – أى فى القرن الثالث عشر – على عصر روبان وهيثوم ملوك أرمينية الصغري[4] . حقيقية إن الأباطرة البيزنطيين – أو على وجه التحديد – الثلاثة الأوائل من آل كومنين (١٠٨١ – ١١٨٠) إستردوا جزء من تلك الدولة الأرمينية التى وضع أساسها فيلاريتوس ، ولكن ذلك لم يحل دون إستمرار دولة الأرمن فى طوروس [5] . ولم يلبث

(1) Cam. Med. Hist. vol. p. 260.
(2) Brehier : op. cit., p. 285 .
(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. 180 .
(4) Iorga : I'Armenie Cilicienne , p. 89.
(5) Vasiliev : op. cit., vol. 2, p. 415 .

الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨ - ١٠٨١) أن إتبع سياسة حكيمة إستهدفت دعم العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمنى ، فى الوقت الذى أظهر فيلاريتوس من جانبه إعتدالا وحكمة ، فإعترف بسيادة الإمبراطورية ، وإن كان قد ظل مستقلا من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف فى حكمه للجهات القريبة من الموصل بالتبعية لبنى عقيل ، وهم أمراء الموصل العرب (١) . ويذكر المؤرخ ميخائيل السريانى أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية السلطان ملكشاه أيضاً ، وأنه كان مستعداً - إذا دعى الأمر - لأن يعلن إعتناق الإسلام فى سبيل خدمة مصالحة الخاصة (٢) .

على أن سلاجقة الروم كانوا لايمكن أن يغضوا البصر تماماً عن تلك الإمارة الأرمينية التى اعترضت طريق توسعهم إلى الشام ، لذلك انتهز سليمان بن قتلمش السلجوقى فرصة الإضطراب الذى حدث فى دولة فيلاريتوس نتيجة لتآمر إبنه ضده ، وباغت أنطاكية «وملكها سرقة» سنة ١٠٨٥ . أى قبل إستيلاء رجال الحملة الصليبية عليها بثلاث عشرة سنة (٣) . وهنا نلاحظ أن قصر المدة بين استيلاء السلاجقة المسلمين على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ أمر له دلالته بالنسبة لدارس تاريخ الحروب الصليبية ، لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطى ، وإزالة بقايا الإدارة البيزنطية من المدينة مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقها الشرعى فى أنطاكية ، وتصر على ذلك الحق منذ اليوم الأول الذى قامت فيه إمارة أنطاكية الصليبية (٤) .

وثمة ملاحظة أخرى هى أن الإمارة الأرمينية التى أقامها فيلاريتوس لم تندثر تماماً من صفحة التاريخ فى عصر الحروب الصليبية لأنه فى الوقت الذى سقطت أنطاكية فى أيدى المسلمين ثم الصليبيين ، إحتفظ أحد الأرمن من رجال فيلاريتوس - وإسمه جبريل - بملطية وإن كان قد أعلن ولاءه للسلاجقة (٥) .

---

(١) سيطر العقيليون علي الموصل سنة ٩٩٦ علي يد الأمير حسام الدولة المقلد أو ظلوا يحكمون هذه المدينة حتي سنة ١٠٩٦ عندما انتزعها منهم كربغا (كربوقا) السلجوقي . وفي الفترة التي نتكلم عنها كان حاكم الموصل من بني عقيل وهو شرف الدولة ابو المكارم مسلم أمير الموصل من سنة ١٠٦١ حتي ١٠٨٥ .

(٢) يؤكد المؤرخ ابن الأثير ان فيلاريتوس (الفلادروس) أسلم علي يد السلطان ملكشاه ، وأن الأخير أمره علي الرها فلم يزل عليها حتي مات وأخذها الأمير نزار (بزان) بعده . (الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ) .

(٣) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق س ١١٧ .

(4) Grousset : Hist. de Croisades I,p. XL III .

(5) Setton, op cit I, p. 299.

ومثل ذلك حدث فى الرها أيضا ، فبإستثناء فترة قصيرة إحتل فيها الأمير التركى بزان (١٠٨٧ - ١٠٩٤) مدينة الرها ، إستطاع ثوروس - وهو قائد أرمنى آخر كان أبوه من رجال فيلاريتوس - أن يحكم المدينة حتى وصول الصليبيين [١] . حقيقة إن تتش - أخو السلطان ملكشاه - إستولى على الرها سنة ١٠٩٤ ، ولكنه أقر ثوروس فى حكم المدينة [٢] .

وهكذا مهد الحكم الأرمنى المسيحى فى شرق آسيا الصغرى وأطراف العراق والشام لحكم الصليبيين الغربيين ، كما سيتضح لنا عند دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارة الرها الصليبية سنة ١٠٩٧ . كذلك مهد ذلك الحكم الأرمنى لنشأة مملكة أرمينية الصغرى الصليبية فى القرن الثانى عشر ، وهى المملكة التى قامت فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، ونهضت بدور بارز فى تاريخ الحروب الصليبية ، بل فى تاريخ الشرق الأدنى فى تلك الحقبة ، كما سنشرح ذلك بالتفصيل فما بعد .

السلاجقة وبلاد الشام :

يلاحظ أن إستيلاء الأتراك على أنطاكية لم يتم دون إثارة عدة خلافات فى صفوف المسلمين فى الشرق الأدنى . ذلك أن فيلاريتوس كان قد رضى بأن يحكم أنطاكية بوصفة تابعاً لأمير الموصل شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ، وأن يدفع لهذا الأمير جزية ، إشارة لتلك التبعية . ويبدو أن شرف الدولة أراد أن يستفيد من حالة عدم الإستقرار السائدة فى المنطقة المحيطة به لإقامة دولة قوية تمتد من كردستان إلى شمال الشام ، ولذلك تحالف مع السلاجقة سنة ١٠٧٨ للإستيلاء على حلب من بنى مرداس ، وهم القبيلة العربية المنافسة الذين ظلوا يحكمون حلب منذ نصف قرن [٣] .

وفى ذلك الوقت حضر إلى الشام الأمير السلجوقى تاج الدولة أبو سعيد تتش إبن السلطان العادل ألب أرسلان ، وأخو ملكشاه[٤] . وكان سبب حضوره إلى الشام

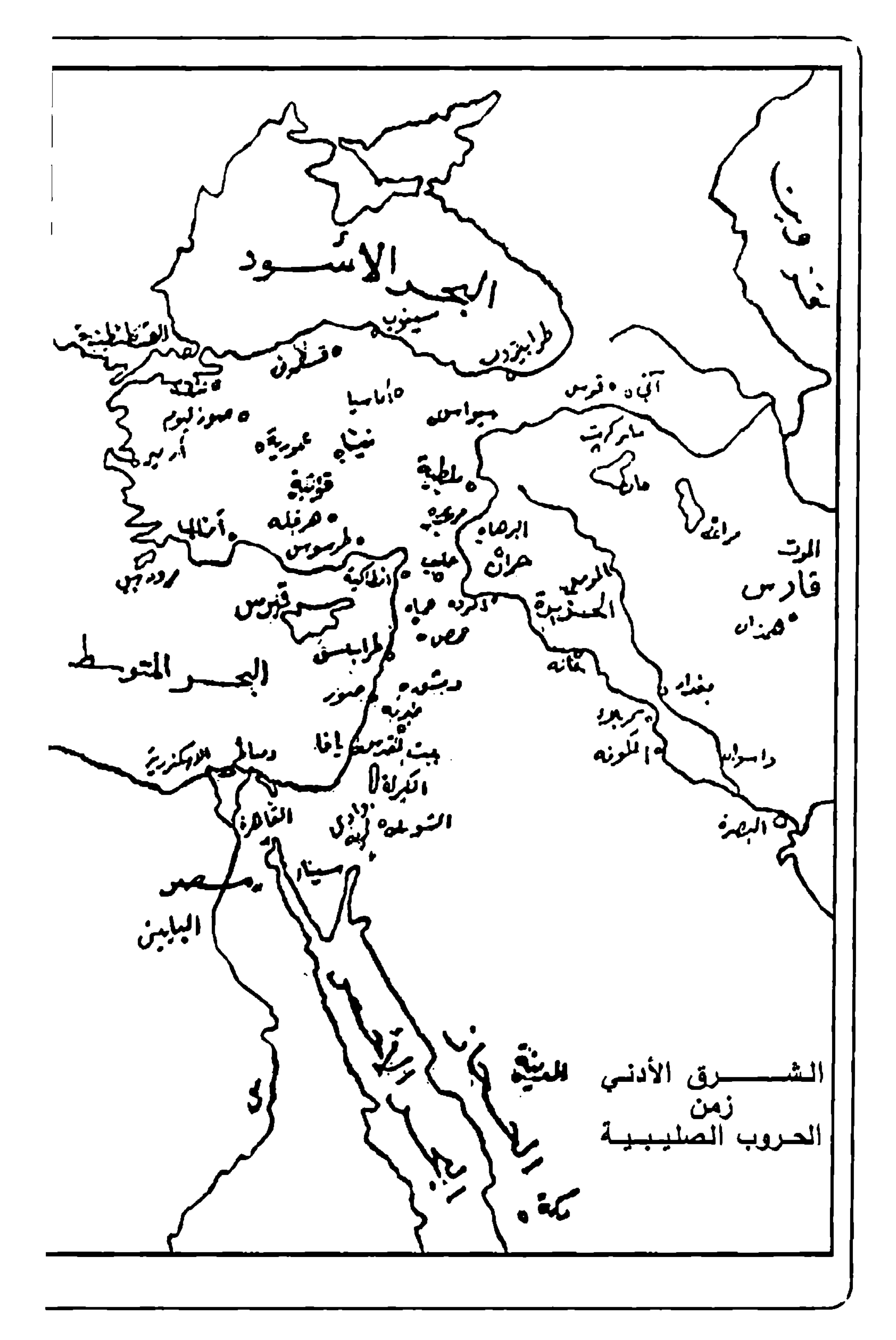
---

(1) Chalandon : Hist. de la Premiére Croisade, p. 175.
Runciman : A Hist. of the Crusades., I, p. 75.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ .

(٣) كان أمير بني مرداس في حكم حلب عندئذ هو أبو الفضائل سابق بن محمود وهو آخر أمراء تلك الأسرة (١٠٧٦ - ١٠٧٩) .
(أنظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٠٤) .

(٤) يلقب ابن القلانسي تاج الدولة تتش بلقب السلطان (ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢) .



الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية

أن أخاه ملكشاه « أقطعه الشام وما يفتحه فى تلك النواحي»[١]. وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حلب بمساعدة الأمير شرف الدولة مسلم ، ولكن مسلم لم يلبث أن أدرك خطورة سياسته لما يترب عليها من تثبيت أقدام السلاجقة فى بلاد الشام . لذلك أسرع مسلم العقيلى بالتخلى عن تتش الذى لم يستطع الاستيلاء على حلب بمفرده فرفع الحصار عنها وإتجه جنوبا صوب دمشق .

وكان أن أسرع مسلم بالاستفادة من الموقف فى شمال الشام عقب إنسحاب تتش ، فاستولى على حلب سنة ١٠٧٩ من صاحبها سابق المرداسى ، وبذلك أصبح مسلم العقيلى سيد حلب والموصل ، وإعتقد أن فى إستطاعته مقاومة السلاجقة والحد من نفوذهم . ثم إن الأمير مسلم لم يكتف بأن خدع تتش أخا السلطان ملكشاه وإستولى على حلب عن طريق تلك الخدعة ، وإنما دخل أيضا فى صراع مكشوف مع سليمان بن قتلمش الذى سبق أن رأينا جهوده فى فتح الأناضول . ذلك أن سليمان إستولى فى أوائل سنة ١٠٨٥ على أنطاكية من فيلاريتوس ، وهى المدينة التى أدعى بنو عقيل أحقيتهم فى ملكيتها ، وبذلك بدأ الصراع بين سليمان بن قتلمش من جهة والأمير شرف الدولة مسلم من جهة أخرى ، وهو الصراع الذى لم ينته إلا بإستيلاء السلاجقة على الشام[٢]. وقد دارت معركة ضخمة بين الطرفين المتنازعين قرب أنطاكية فى صيف سنة ١٠٨٥ أنتهت بهزيمة الأمير مسلم ومقتله، وعندئذ إتجه سليمان بن قتلمش لحصار حلب[٣]التى قاومت الحصار بقيادة الشريف حسن الحتيتي[٤].

أما تتش – أخو ملكشاه – فكان فى تلك الأثناء قد استولى على جزء كبير من بلاد الشام ، فإتجه بعد فشله فى الإستيلاء على حلب إلى دمشق سنة ١٠٧٩ حيث وجد أنصاراً للسلاجقة .

ذلك أن أحد القادة الأتراك من إتباع السلطان ألب أرسلان – وإسمه أتسز بن أوق (الأقسيس) – كان قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بغزو فلسطين ودمشق لحسابه الخاص[٥]. ولم تنته سنة ١٠٧١ إلا وكان أتسز قد استولى من الفاطميين

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٤ تحقيق سعيد عاشور – القاهرة ، ١٩٨٥ وكذلك ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(2) Setton : op. cit I, pp. 150 - 152 .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٩١ – ٩٢ (مطبوع) .

(٤) وهو الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف الحتيتي .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ – ٩٩ .

على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها ، عدا أرسوف . وفى سنة ١٠٧٥ - ١٠٧٦ إستولى أتسز أيضاً على دمشق والمنطقة المحيطة بها ، وعندما ثارت بيت المقدس ضده وأعلنت تبعيتها للخليفة الفاطمى ، أخضعها أتسز فى عنف وأحدث فيها مذبحة رهيبة سنة ١٠٧٦ - ١٠٧٧ .

على أن أتسز لم يلبث أن فشل في محاولته غزو مصر سنة ١٠٧٧ بعد أن تصدى له أمير الجيوش بدر الجمالي وأنزل به الهزيمة (١) . ويبدو أن هذا النصر الذى أحرزه بدر الجمالى شجعه على إرسال حملة لإسترداد دمشق ، فشرع الفاطميون فى حصارها فعلا ، فى الوقت الذى أخذ تتش يزحف من حلب إلى دمشق ، مما جعل الفاطميين يؤثرون الإنسحاب ، فى حين رحب أتسز بمقدم تتش، و«خدمه وبذل له الطاعة والمناصحة وسلم البلد اليه (٢)» . ومع ذلك ، فإن تتش لم يرض بأن يكون أتسز إلى جانبه فى دمشق ، ففكر فى التخلص منه ، وقتله فعلاً سنة ١٠٧٩ وبذلك لم يعد هناك من ينافس تتش فى دمشق ، فأحسن السيرة فى أهله وعدل فيهم(٤)وبذلك صار تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام ، وكان ذلك فى الوقت الذى إستنجد به أهل حلب سنة ١٠٨٦ ضد سليمان بن قتلمش الذى أخذ يحاصر مدينتهم فى شدة وعنف (٤) .

وهكذا أصبحت المعركة المقبلة فى شمال الشام محصورة بين إثنين من أمراء السلاجقة ، أحدهما سليمان بن قتلمش فاتح الأناضول(٥)، من نيقية إلى أنطاكية ، والثانى هو تتش أخو السلطان ملكشاه نفسه . وكان أن إصطحب تتش قائده ارتق بن اكسب - الذى أقطعه بيت المقدس - وإتجه نحو حلب لمنازعة سليمان تلك المدينة الهامة . وفى المعركة التى دارت بين الطرفين قرب حلب ، إنهزمت قوات سليمان الذى خر قتيلا فى المعركة سنة ١٠٨٦(٦) . ومن الواضح أن مقتل سليمان بن قتلمش ترتبت عليه نتائج خطيرة بعيدة الأثر . ذلك أنه لم يخلف

(1) Setton : op. cit., I, p. 94..

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٩ - ١١٢ . ويروي النويري أن أتسز صاحب دمشق أرسل إلي تتش (يستنجد ، علي العساكر المصرية لأنها قد حاصرته بدمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي) (نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٤) (تحقيق المؤلف) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥ (مطبوع) .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ (مطبوع) .

(٦) ويذكر النويري أنه عندما انهزم اصحاب سليمان بن قتلمش و عاين الهلكة ، قتل نفسه بسكين (نهاية الآرب ، ج ٢٧ ص ٩٣ - تحقيق المؤلف) .

سوى طفلاً صغيراً هو قلج أرسلان داود ، مما جعل الأناضول يبقى بين سنتى ١٠٨٦ ، ١٠٩٢ دون حاكم قوى من السلاجقة ، فأتيحت الفرصة لصغار الأمراء من التركمان للظهور . ثم إن عدم وجود رجل قوى من زعماء السلاجقة فى الأناضول فى تلك الفترة بالذات أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى ، لأنه مكن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من أن يشقوا طريقهم فى غير صعوبة كبيرة إلى الشام ، فإستولوا على نيقية ، وأحرزوا إنتصارهم على السلاجقة فى موقعة ضورليوم ، كما سيلى . هذا كله بالاضافة إلى أن مقتل سليمان بن قتلمش عند حلب أثار الفرقة فى صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لايغفرون لأقربائهم سلاجقة فارس والشام ذلك الجرم . ولذلك لم يقدر للسلاجقة مطلقا أن يتحدوا جميعا لمواجهة الخطر الصليبى ، ولم يحاول أبناء بيت ملكشاه وتتش أن يتعاونوا مع سلاجقة الروم – أعنى خلفاء سليمان ابن قتلمش– لإقامة جبهة قوية تحول دون وصول الصليبيين إلى الشام . وهكذا شاء حسن حظ الصليبيين أن يواجهوا كل فرع من بنى سلجوق على انفراد ، مما مكنهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة[1] .

أما عن تتش فيبدو أن إنتصاره أمام حلب جعله سيد الموقف فى بلاد الشام بأكملها هذا وإن كان أخوه الأكبر السلطان ملكشاه قد أخذ يتخوف من إتساع نفوذه ، ولذا لم يتركه ينعم بالشام منفرداً . وقد إستغل ملكشاه فرصة إصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه نفسه ، وإتجه من عاصمته أصبهان إلى حلب عن طريق الموصل ، وذلك ليقوم بتنظيم أوضاع بلاد الشام[2] . ولم يلبث أن إستولى على قلعة جعبر وعلى منبج[3] ، حتى إذا ما إقترب ملكشاه من حلب رأى تتش أنه من الحكمة أن يبتعد عنها [4] . وكان أن دخل السلطان ملكشاه حلب ليعيد توزيع الإمارات الشامية . فمنح حلب لحاجبه المخلص قسيم الدولة آقسنقر مؤسس البيت الزنكى (سنة ١٠٨٧) «فعمرها وأحسن السيرة فيها» [5] . ثم توجه ملكشاه

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. XLVI .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٩ – ١٠٠ (مطبوع) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

(٤) يروي ابن واصل أن الأمير أرتق أشار عندئذ علي تاج الدولة تتش (بأن يكبس السلطان) ولكن تتش رد قائلا : (لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظله ، فإنه يعود علي بالوهن أولا) .

(ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨ (مطبوع) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

بعد ذلك إلى أنطاكية فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش . ثمإتجه إلى السويدية – وهى ميناء أنطاكية القريب – فصلى على شاطئ البحر ، وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب (١) .

أما الرها فقد منحها ملكشاه لقائد آخر من الأتراك اسمه بوزان (بزان) ، فى حين صارت أنطاكية – التى ظلت دون حاكم منذ وفاة سليمان بن قتلمش – من نصيب قائد تركى آخر هو مؤيد الدولة ياغى سيان (٢). وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين ، كما ظلت بيت المقدس بيد الأمير أرتق ، الذى خلفه بعد وفاته سنة ١٠٩١ إبنه سكمان الأول .... وهكذا إستطاع ملكشاه أن يمنع أخاه تتش من إقامة دولة كبيرة موحدة بالشام (٣) . وكما أن ظهور تتش على مسرح الأحداث فى شمال الشام سنة ١٠٨٦ أدى إلى مقتل سليمان بن قلتمش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين المقبل ، فكذلك جاء تدخل ملكشاه بعد ذلك ضد تتش حائلاً دون قيام سلطنة للأتراك فى الشام ، مما جعل هذه البلاد تعانى الكثير من فوضى الإنقسامات . وفى كلتا الحالتين إستفاد الصليبيون من ذلك النزاع والإنقسام بين أمراء آسيا الصغرى والشام . هذا بالاضافة إلى أن السلطان ملكشاه اصطحب معه عند عودته إلى فارس الأمير الصغير قلج أرسلان بن سليمان ابن قتلمش (٤) .

على أن تلك الأوضاع لم ترض تتش، فلجأ إلى السياسة ، وتوجه إلى أخيه السلطان ملكشاه فى بغداد سنة ١٠٩١ وإسترضاه ، وإستأذنه فى التوسع ببلاد الشام على حساب الفاطميين . وعندئذ أذن له ملكشاه بالعودة «وأمر أقسنقر صاحب حلب وتوازن (بوزان) صاحب الرها أن يسيرا فى خدمة أخيه (تتش) بعساكرهما إلى أن يستولى على ما هو للمستنصر العلوى صاحب مصر بساحل الشام ، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها(٥)». وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حمص حتى إستولى عليها من صاحبها إبن ملاعب ،وكان الضرر به وبأولاده عظيماً

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠١ (مطبوع) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩ (مطبوع) .
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, pp. 263 - 264 .
(٤) استطاع قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش العودة بعد ذلك إلي ملكه الذي ورثه عن أبيه بآسيا الصغري ، وقد عرف قلج هذا في التاريخ باسم ابن سليمان كما اطلقت عليه الحوليات الصليبية المعاصرة اسم (سليمان) انظر . Setton : op. cit. I, p. 163.
(٥) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٥ (تحقيق المؤلف)

على المسلمين وأسر ابن ملاعب نفسه وولديه ، ثم إستولى تتش على عرْقة وأفامية وحاصر طرابلس ، ولكنه لم يلبث أن إنصرف عنها (١).

وهكذا غرقت بلاد الشام فى بحر من الفوضى بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين من ناحية والبيوت العربية التى كونت إمارات مستقلة ببلاد الشام من ناحية أخرى . وزاد من خطورة تلك الفوضى التى عمت بلاد الشام عندئذ ، أنها جاءت فى الوقت الذى أخذ الخطر الصليبى يلوح فى سماء الوطن الاسلامى فى الشرق الأدنى .

تفكك دولة السلاجقة :

يبدو أن ملكشاه كان يحلم وهو فى بلاد الشام سنة ١٠٨٧ بإقامة دولة إسلامية كبرى تركية – عربية ، على غرار الدولة العباسية بجناحيها العربى والفارسى – أيام إزدهارها ونضرتها . وكان أن عهد ملكشاه فعلاً بشئون الحكم فى دولته إلى أحد رجاله المؤمنين بهذه الفكرة ، وهو الوزير الشهير نظام الملك أبو على الحسن بن اسحق الطوسى . على أن هذا الوزير اعتمد على العنصر التركى فى تنفيذ سياسته ، وهؤلاء الأتراك كانوا سنيين متشددين ، مما أغضب العنصر الفارسى الشيعى فى الدولة . وهكذا لم يهدأ الشيعة إلا بعد مقتل نظام الملك فى خريف سنة ١٠٩٢ بيد رجل ديلمى من الباطنية ، مما أحدث فراغاً ضخماً ، بل هزةعنيفة ، بجسم دولة السلاجقة (٢) ، وذلك « لما كان عليه (الوزير نظام الملك) من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن والعلم ، وحب الخير وحميد السياسة »(٣) أما ملكشاه فكان قد زوج إبنته للخليفة العباسى المقتدى ، وأنجبت هذه الزيجة طفلاً صغيراً إسمه جعفر(٤)، مما أثار فى نفس ملكشاه رغبة قوية فى أن يتولى هذا الطفل الخلافة فيجمع بين ملكى العباسيين والسلاجقة. ولتحقيق هذه الأمنية اكتفى ملكشاه بأن جعل أصبهان مقره الصيفي، فى حين نقل مقره الشتوى إلى بغداد. ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسى إلى التنازل عن الخلافة لإبنة جعفر، ولم تمض على هذه الدعوة بضعة أيام حتى

(١) المصدر السابق ص ٦٥ – ٦٦ .
(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ١٩٢ .
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٠ هـ .

توفى ملكشاه فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ ، وقيل أن الخليفة العباسى دس له السم[١].

وقد جاءت وفاة السلطان ملكشاه نذيراً بتفكك إمبراطورية السلاجقة. ذلك أن السلطان ملكشاه كان له ثلاثة أبناء أشقاء. هم بركياروق (بركيارق) ومحمد وسنجر. على أن ملكشاه كان قد تزوج زوجة جديدة أنجبت له سنة ١٠٨٧ إبناً رابعاً هو محمود الذى كان فى الخامسة من عمره تقريباً عند وفاة أبية. وسرعان مادب النزاع بين محمود الصغير وأمه تركان خاتون من ناحية، وبركياروق (بركيارق) أكبر أبناء ملكشاه - وكان فى الخامسة عشر من عمره - من ناحية أخري[٢]وإنتهى النزاع بأن إحتفظ محمود بأصبهان وفارس على أن تكون بقية الدولة السلجوقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق. على أن محمود وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل - خلال سنة ١٠٩٤ - وعندئذ إتجه بركياروق «فى الحال إلى أصبهان فدخلها وملكها [٣]» .

ولكن الخطر الأكبر الذى هدد بركياروق جاء من ناحية عمه تتش، الذى لم يرض عن التنظيم الذى أجراه أخوه ملكشاه فى بلاد الشام سنة ١٠٨٦ - ١٠٨٧. ففي الوقت الذى كان تتش يؤمل أن تكون الشام كلها من نصيبه ؛ إذا بالسلطان ملكشاه - كما مر بنا - يعطى حلب لحاجبه اقسنقر، وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وأواسط الشام. لذلك لم يكد تتش يسمع بوفاة أخيه ملكشاه حتى أسرع إلى الاستفادة من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى أمست فيها الدولة السلجوقية لتحقيق مطامعه، فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة [٤] وبعد أن جمع تتش عساكره «وأخرج الأموال» إتجه نحو حلب حيث طلب من آقسنقر الاستسلام له. وعلى الرغم مما كان يضمره آقسنقر من عداء لتتش، إلا أنه لم يجرؤ على المعارضة، لأنه رأى «إختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم، فعلم أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه»، وأرسل إلى ياغى سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران، يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش

(١) اختلفت روايات المؤرخين في سبب وفاة ملكشاه، فذكر ابن الأثير مثلا (حوادث سنة ٤٨٥هـ) أنه خرج للصيد فعاد مريضا، وإن سبب مرضه أنه أكل من لحم الصيد دن أن يستوفي اللحم النضج (فثقل مرضه، وكانت حمي محرقة) . أنظر ايضا ابن العبري ص ١٩٤ .

(٢) عن أحداث هذا النزاع ، أنظر ابن الأثير : حوادث سنة ٤٨٥ هـ.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٨٦ ، ويذكر ابن الأثير أن تتش كان في طريقة إلي بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ، وبينما هو في هيت بلغته وفاة أخيه السلطان فعاد إلي دمشق. أنظر أيضا : النويري : نهاية الأرب ج٢٧ ص ٦٦ (تحقيق المؤلف).

حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه[1]. وهكذا خضع آقسنقر وياغى سيان وبوزان - أى حلب وأنطاكية والرها - للأمير تتش «وخطبوا له فى بلادهم»؛ فجمع تتش هذه القوى الثلاث وزحف بها على فارس يبغى الحصول على السلطنة. وفى الطريق إستولى تتش علي الرحبة «وخطب لنفسه بالسلطنة»، ثم صار إلى نصيبين «ففتحهما عنوة وقهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً» (فبراير ١٠٩٣) وكان إبراهيم بن قريش العقيلى قد عاد إلى بلاده وتسلم الموصل وأعمالها. ولكن تتش غافله بالهجوم «فانهزمت العرب وأخذهم السيف، وقتل الأمير ابراهيم بن قريش العقيلى. (ابريل ١٠٩٣) وبذلك أوشكت أسرة بنى عقيل فى الموصل[2] على الانتهاء. كذلك إستولى تتش على ميافارقين من حكامها بنى مروان والأكراد [3]. وبعد ذلك دخل فارس عن طريق أذربيجان لخلع بركياروق.

ولم يكد تتش يقترب من خصمه حتى حدثت المفاجأة، إذ تخلى عنه آقسنقر أمير حلب. وبوزان أمير الرها وسارا إلى بركياروق. وبذلك لم يبق مع تتش إلا ياغى سيان أمير أنطاكية. وكان إنسحاب اقسنقر وبوزان محطما لخطة تتش، الذى آثر أن يتراجع بسرعة عائداً إلى الشام فى حين انبسطت يد بركياروق وإستقامت أحواله ودخل بغداد دخول الظافر فى نهاية سنة ١٠٩٣ [4].

وكان أول ما فكر فيه تتش عند عودته إلى الشام هو الإنتقام من آقسنقر أمير حلب، وبوزان أمير الرها، بعد أن خاناه وتخليا عنه وقت الشدة. لذلك بدأ تتش بمهاجمة حلب فى صيف سنة ١٠٩٤، وعندئذ إتحد آقسنقر وبوزان، فى حين أرسل بركياروق إليهما نجدة قوية بقيادة الأمير كربغا (كربوقا) [5]. ولم تلبث أن دارت المعركة بين الطرفين قرب حلب، فانتصر تتش إنتصارا حاسماً ووقع آقسنقر في يده فقتله على الفور[6]، فى حين فرت فلول الجند المنهزمين إلي حلب حيث إعتصموا بها وأرسلوا إلى السلطان بركياروق يطلبون النجدة. على أن تتش أسرع

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٨٦ هـ.
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٠٨.
(٣) كان آخر حكام بني مروان في ميارفاقين هو أبو المظفر منصور، (١٠٧٩ - ١٠٩٣) - أنظر. امباور : معجم الأنساب ص ٢٠٧.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٠٩ - ١١٠ (مطبوع).
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٢٥ (مطبوع).
(٦) يروي ابن العديم انه عندما وقع آقسنقر في يد تتش، سأله الأخير لو ظفرت بي ما كنت صنعت ؟ قال : كنت أقتلك فقال له : فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم به علي فقتله.

إلى اللحقاق بهم فاستولى علي حلب، وعندئذ وقع فى يده كربغا وبوزان، فضربت عنق بوزان صاحب الرها وحمل كربغا أسيراً إلى حمص(١) .

وبعد أن قضى تتش فى حلب بضعة أيام زحف على الفرات، فإستولى على حران والرها، «ثم سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعاً، ثم ملك ديار بكر وخلاط» ؛ وبعد ذلك قصد فارس لمنازلة بركياروق فخضعت له أذربيجان واحتل همذان والري(٢) . وكان الموقف حاسماً بالنسبة لبركياروق، فإتجه من أصبهان إلى الرى لمواجهة خصمه، ودارت المعركة قرب الرى فى أوائل سنة ١٠٩٥ . وللمرة الثانية تعرض تتش لخيانة بعض أعوانه المقربين إليه «فانهزم عسكر تاج الدولة تتش وإستبيح ونهب، وقتل فى ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه فى الحرب»(٣) . وهنا نلاحظ أن أعوان تتش وأمراءه كانوا يتخلون عنه ساعة الشدة لقسوته وعنفه وبأسه، مما جعلهم يخشون على أنفسهم وعلى مطامعهم منه. وعلى العكس أدى ضعف بروكياروق ولين عريكته إلى إتجاه الأمراء نحوه، حيث أن شخصيته من الممكن أن تساعدهم فى تحقيق مطامعهم الشخصية. وهكذا جاء انتصار بركياروق إيذانا بانحلال قوة السلاجقة في الوقت الذى بدأت الإستعدادات للحرب الصليبية تجرى في الغرب الأوربي(٤) .

ثم إن بركياروق (بركيارق) إكتفى بحكم فارس وبغداد، دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه. وكان تتش قد ترك ولدين هما فخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق، فأخذ الأول ملك حلب وأخذ الثانى ملك دمشق(٥)، وذلك دون أى إعتراض أو تدخل من جانب بركياروق. وكان كل ما طلبه بركياروق من رضوان هو إطلاق سراح كربغا، الذى كان تتش قد سجنه بعد أسره. ولم يكد يفرج عنه حتى حصل كربغا علي إذن من بركياروق للإستيلاء على الموصل فحاصرها بضعة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٢٧ (مطبوع).
(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٦٨ – ٦٩ (تحقيق المؤلف).
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١١١ (مطبوع) .
ويروي ابن القلانسي أن رأس تتش قطع وطيف به في العسكر، ثم حمل إلي بغداد وطيف به فيها (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠) .
(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. Ll.
(٥) قتل رضوان أخوية أبا طالب وبهرام. أما أخوه الثالث دقاق فقد أرسله ساوتكين الخادم – نائب تتش في دمشق – ودعاه لتسليم المدينة. وكان أن غادر دقاق حلب سراً وهرب إلي دمشق من غير أن يعلم به أحد، وعندئذ أرسل رضوان قوة للحاق به ، ولكن تتش وصل سالماً وصارت دمشق وبلادها بحكمه ، (ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٢٠ – (مطبوع).

أشهر وإستولى عليها من آخر أمرائها العرب من بنى عقيل، وهو الذى كان تتش قد تركه بالموصل. أما فى القطاع الشرقى من دولة السلاجقة، فقد منح بركياروق أخاه سنجر ملك خراسان وما وراء النهر (١) .

وهكذا لم تحل سنة ١٠٩٦ إلا وكانت دولة السلاجقة قد إنقسمت إلى خمس ممالك متنافسة، هى : سلطنة فارس (أصبهان) وعلي رأسها السلطان بركياروق نفسه الذى كانت له السيطرة على بغداد، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو الحرث سنجر، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش، ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش، وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش. هذا مع ملاحظة أن بيت دانشمند التركمانى فى كابادوكيا أفاد من الفترة التى قضاها قلج أرسلان فى الأسر لتحقيق إستقلال ذاتي، مما زاد من حدة الانقسام فى آسيا الصغري. وخلاصة القول أنه إذا كان السلاجقة قد أثبتوا فى وقت من الأوقات أنهم سيوف الإسلام الزائدون عنه، فإن هذه القوة لم تلبث أن إنفلتت وتفتت عند فجر الحركة الصليبية، مما صار له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولي(٢) .

وليت الإنقسام والإنحلال الداخلى فى دولة السلاجقة قد وقف عن ذلك الحد بل لقد حدث سنة ١٠٩٩ أن ثار محمد تبر، وهو أخ ثالث لبركياروق(٣)، مما جعل بلاد فارس والعراق مسرحاً للحروب بين الأخوين، حتى إنتهى الأمر بالصلح بينهما فى أوائل سنة ١١٠٤، فإحتفظ بركياروق بأصبهان وفارس وعراق العجم على أن تكون السلطنة له، وأخذ محمد تبر أذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل (٤) ، فى حين ظل الأخ الثالث - هو أبو الحرث سنجر - يحكم خراسان وما وراء النهر(٥). ولا شك فى أن تلك الحروب الطويلة بين الإخوة أدت إلى تحطيم البيت السلجوقى من ناحية، وبقاء سلطنة فارس مقسمة بين ملكيات ثلاث مستقلة من الناحية العملية من ناحية أخري . أما الخليفة العباسى فى بغداد فقد

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٠ هـ.

(2) Gibb : The Damascus Chronicle, p. 14.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

(٤) ذكر ابن العبري أن ممتلكات محمد تبرهي ديار بكر والجزيرة والموصل والشام ومن الواضح أن ذكر الشام هنا غير صحيح حيث كانت دمشق وحلب في حوزة ابني تتش. (تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧).

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧، ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

إنتهز فرصة الصراع بين بركياروق وأخوته، وما نجم عن ذلك الصراع من إضعاف قوة الطرفين وعمل على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة جميعاً ، وقطع دعوة الترك من بغداد، [١] .

ومن جهة أخرى فإن قبيلة بنى مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات إستغلت الظروف التى أحاطت بالسلطان بركياروق وإستقلت عن سلطانه .وقد بنى شيخ هذه القبيلة – وهو صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى – منزلة الحلة ١١٠١ وإتخذها مقراً له. وبذلك قامت إمارة عربية إمتدت من هيت إلى الكوفة وواسط، وصارت خطراً هدد الأتراك وحال دون إستمرار سيطرتهم على العروبة وأرضها[٢] ولم يتردد أمراء الحلة فى سبيل تحقيق هذه الغاية فى محالفة الصليبيين كما سيلى فيما بعد.

أما فى بلاد الشام، فإن السيادة السلجوقية أخذت تنحسر سريعاً. ذلك أن ابنى تتش – وهما رضوان صاحب حلب (١٠٩٥ – ١١١٣) ودقاق صاحب دمشق (١٠٩٥ – ١١٠٤) لم يتمتعا بالقدرة السياسية التى تمكنهم من مواجهة الأوضاع القلقة التى عاشت فيها بلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثاني عشر. ولعل أكبر مظهر لإنحلال سلطان السلاجقة فى بلاد الشام والعراق وغيرهما عندئذ هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الإتصال بالبيت السلجوقي. ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها إسم الأتابكيات وعلى أصحابها إسم الأتابكة، وبعض هذه الوحدات صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة. وأتابك لفظ تركى معناه مربى الملك فكان آل سلجوق إذا إمتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعاناً فى تكريمه[٣]ومن أظهر تلك الأتابكيات أتابكية دمشق، ومؤسسها ظهير الدين طغتكين الذى كان مملوكاً ثم قائداً للملك تتش، وأتابكا لابنه دقاق أى مربياً له. وقد إستمرت هذه الأتابكية من سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٥٤ أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكى ابن آقسنقر، وقد إستمرت من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١٢٦٢[٤]. وعدا ذلك وجد عدد كبير من الأتابكيات التى أخذت تظهر تباعاً على أنقاض دولة السلاجقة فى الشام وسنجار والجزيرة وأربل وأذربيجان وفارس وغيرها[٥].

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق ص ٤١ – ٤٢.

(3) Setton : op cit., vol. I. p. 162.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٦٤ وما بعدها.

(5) Gibb : op. cit., p. 23, f.

أما فلسطين، فقد سبق أن أشرنا إلى أن تتش كان قد أقطعها قائده التركمانى أرتق، الذى خلفه سنة ١٠٩١ ولداه سقمان (سكمان) وإيلغازى (إيل غازي). ولكن حدث سنة ١٠٩٨ أن أفاد الفاطميون من تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين، فخرج من مصر جيش فاطمى تحت قيادة الوزير الأفضل لمحاصرة بيت المقدس ونصب عليه المناجيق، حتى إضطر الأراتقة إلى الإنسحاب من المدينة فى أغسطس من العام نفسه، ولم تلبث بقية فلسطين أن سقطت بعد ذلك فى أيدى الفاطميين[١]. هذا إلى أن الوزير الأفضل أرسل من مصر إلى رضوان ملك حلب يدعوه إلى طاعة الخليفة المستعلى بالله الفاطمى وإقامة الدعوة له، ووعد الأفضل رضوان أن يمده بالمساعدة ضد خصومه، فإستجاب رضوان لذلك ،وتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التى بيده .. للمستعلى ثم للأفضل ثم لرضوان ... ، هذا وإن كان رضوان لم يستمر على ذلك الوضع سوى بضعة أسابيع أعاد بعدها الدعوة للامام المستظهر (العباسي) ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه [٢].

ومن جهة أخرى فإن الفاطميين إستغلوا تفوقهم البحرى على السلاجقة وظلوا يسيطرون على موانى الشام[٣]. هذا وإن كان الفاطميون قد خسروا طرابلس قرب منتصف القرن الحادى عشر عندما إستقل بها أحد أتباعهم، وهو القاضى الشيعى ابن عمار أبو طالب. وقد إستطاع ابن عمار هذا وخليفتاه جلال الملك أبو الحسن على (ت ١٠٩٨) ثم فخر الملك أبو على عمار (١٠٩٨ - ١١٠٨) أن يجعلوا من طرابلس إمارة غنية إشتهرت بمدرستها التى حوت مكتبة ضمت عشرة آلاف مجلد. على أن قيام هذه الإمارة العربية الصغيرة لا يخفى الحقيقة الواقعة، وهى زيادة تفتت بلاد الشام سياسياً. ولا شك فى أن عملية التجزئة التى تعرضت لها بلاد الشام علي ذلك الوجه، فى الوقت الذى شق الصليبيون طريقهم إلى بلاد الشام، كانت من العوامل الرئيسية التى ساعدت الصليبيين فى تحقيق أطماعهم وقد أدرك هذه الحقيقة وذكرها المؤرخ الصليبى وليم الصورى[٤].

ولم يكن ملك السلاجقة فى الأناضول أقل تفتتاً عندئذ من بقية دول السلاجقة في الشرقين الأدنى والأوسط. ذلك أن مملكة السلاجقة فى آسيا الصغرى

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ.
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٢٩ (مطبوع). والمقصود بالمصريين هنا الفاطميين.
(٣) يذكر ابن الأثير (الكامل، حوادث سنة ٤٨٢ هـ) أن الجيش الفاطمي الذي خرج من مصر في تلك السنة استولي علي صور وصيدا وعكا وجبيل واستعمل أمير الجيوش علي هذه البلاد الأمراء والعمال.

(4) Giullaume de Tyr (Rec. Hist. cr. Occid. II) 1015 - 1016.

لم تلبث أن تدهور بها الحال عقب الخاتمة المؤلمة لحياة مؤسسها سليمان بن قتلمش، وهو الذى قتله تتش - كما سبق أن ذكرنا - سنة ١٠٨٦[١]. ومنذ تلك السنة حتى سنة ١٠٩٢ ظل إبن سليمان الصغير، وهو قلج أرسلان، شبه أسير فى فارس، تحت رقابةملكشاه. وفى تلك الفترة التى قضتها آسيا الصغري دون سلطان، عمل الأمراء المحليون - مثل أبى القاسم أمير نيقية، وزاخاس أمير أزمير، والملك غازى بن دانشمند أمير كابادوكيا - علي الإستقلال عملياً[٢]. وكانت نيقية عاصمة السلاجقة فى الأناضول، ومن ثم فقد أخذ أميرها أبو القاسم يحلم بأن يحل محل بيت سليمان بن قتلمش فى حكم آسيا الصغري. ولم تقف أحلام أبى القاسم عند هذا الحد، بل بات يحلم أيضا بالاستيلاء على القسطنطينية، وشيد أسطولاً لهذا الغرض ولكن البيزنطيين حطموا أسطوله[٣]..

وعندما إسترعت أطماع أبى القاسم نظر السلطان ملكشاه، أرسل ضده حملة حاصرته فى نيقية سنه ١٠٨٦، مما جعل أبا القاسم يستنجد بالإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين. وبعد ذلك بقليل عاد ملكشاه وأرسل إلى الأناضول حملة كبيرة على رأسها بوزان أمير الرها، للقضاء على أبى القاسم والاستيلاء على نيقية[٤]. وقد حاول بوزان أن يقنع الكسيوس كومنين بالتخلى عن مساعدة أبى القاسم مقابل التعهد برد بعض الأراضى التى فى حوزة السلاجقة للبيزنطيين[٥]. ولكن الكسيوس أدرك أنه من الخير أن يجاوره أمير صغير مثل أبى القاسم بدلا من السلطان ملكشاه. وفعلا قدم الامبراطور البيزنطى مساعدته لأبى القاسم، وبفضل هذه المساعدة تمكن الأخير من الدفاع عن نيقية، ورفع حصار بوزان عنها. ولم يلبث أبو القاسم أن طلب عفو ملكشاه ودخل فى طاعته، فقتله الأخير سنة ١٠٩٢[٦].

وعند وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ (٤٨٥ هـ) أطلق خليفته بركياروق سراح قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، الذى غدا حاكم نيقية وزعيم سلاجقة الروم[٧]. وإذا

---

(١) النويري : نهاية الأب ، ج ٢٧ ص ٩٣ وما بعدها (تحقيق المؤلف).
(2) Cam. Med. Hist. vol. 4 p. 331.
(3) Setton : op. cit., vol. I, 215 - 216.
(4) Chalandon, Alexis Comnene p. 102.
(5) Idem., p. 125.
(6) Cam. Med. Hist., vol. 4, p. 331.
(٧) حكم قلج أرسلان (الأول) داود بن سليمان من سنة ٤٨٥ هـ حتي سنة ٥٠٠ هـ (١٠٩٢ - ١١٠٧ م) أنظر زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمه في الاسلام ص ٢١٥.

كان الإمبراطور الكسيوس كومنين قد نجح فى تلك الفترة فى انزاع بعض مراكز من السلاجقة فى آسيا الصغري، فإن زاخاس أمير أزمير كان أكثر خطورة على الإمبراطورية البيزنطية، إذ شيد أسطولاً وإستولى به على عدة جزر هامة مثل لسبوس وخيوس وساموس ورودس. ولم يلبث أن ازداد الخطر على الدولة البيزنطية عندما تزوج قلج أرسلان من إبنة زاخاس أمير أزمير. على أن إسحق كومنين إستطاع بسياسته الماكرة أن يفرق بين الطرفين أى بين قلج أرسلان وحميه، وأن يجعل قلج أرسلان ينقلب ضد حميه، فى الوقت الذى كان زاخاس يحاصر أبيدوس، وهى مفتاح الدردنيل. ولم يلبث أن إستدرج قلج أرسلان زاخاس وقتله. وبعد ذلك تم الوصول إلى تسوية بين قلج أرسلان من ناحية والأمبراطور الكسيوس كومنين من ناحية أخري[1].

أما الركن الشمالى الشرقى من آسيا الصغرى فلم يكن فيه لقلج أرسلان أى نفوذ، إذ قامت هناك إمارة الدانشمند (١٠٦٣ - ١١٧٤) التى أسسها الأمير التركمانى أحمد غازي، والتى قامت على حساب الممتلكات البيزنطية فى كابادوكيا وأماسيا وجانجرا ونكسار (قيصرية الجديدة)[2]. وكان الدانشمند يعترف بالتبعية للسلطان ملكشاه سلطان السلاجقة فى فارس، وبالتالي لم يعترف مطلقاً بسيادة سليمان بن قتلمش. وقد قام ابن الدانشمند وخليفته الملك غازى كمشتكين (١٠٨٤ - ١١٢٠) بالاستيلاء على قسطمونى من البيزنطيين. وكان التنافس وسوء العلاقات مستحكماً دائماً بين السلاجقة في الأناضول من ناحية، وإمارة الدانشمند التركمانية من ناحية أخري، بحيث لم تتحد القوتان إلا عندما أحستا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما جميعا[3].

وهكذا نخرج مما سبق بأن توسع السلاجقة جهة الغرب توقف حوالى سنة ١٠٩٥ م (٤٩٠ هـ)، مما جعل الظروف مناسبة لأن تسترد الدولة البيزنطية سيادتها على الأقل على الجهات الساحلية فى بيثنيا وأيونيا. وكان البيزنطيون والأتراك متعادلين فى القوة فى ذلك الوقت علي الرغم من إنقسام الأتراك على أنفسهم. ولكن بوصول الحملة الصليبية الأولي إلى الشرق لمساعدة البيزنطيين بدأت كفة المسيحيين ترجح على كفة الأتراك المسلمين.

(1) Vasiliev : op. cit. I, p. 385 & Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 304.
(2) Setton : op. cit. vol I, pp. 163 - 164.
(3) Grousset : Hist. des Croisades I, LVII - LIII.

الشقاق بين المسيحيين الشرقيين :

وإذا كان الإنقسام بين البيوت العربية والتركية فى العالم الإسلامى قد مهد لإنتصار الصليبيين، فإن الشقاق فى العالم المسيحى بين الكنائس الشرقية سهل وقوعها تحت حماية الكنيسة الرومانية الغربية، أو بعبارة أخرى ساعد هذا الشقاق الأخير على قيام دولة للصليبيين الكاثوليك في الشرق. ذلك أن العداء المذهبى بلغ أشده بين الروم البيزنطيين والأرمن والسريان اليعاقبة والنساطرة، وذلك عقب حركة التوسع البيزنطية فى الشرق فى القرن العاشر، مما جعلهم يتعرضون جميعاً لكارثة مشتركة فى القرن الحادي عشر، ولا يستفيد من هذا الموقف سوى الغربيين الكاثوليك (١) .

من ذلك أنه لم يكد يمضى قليل على ضم أنطاكية للامبراطورية البيزنطية فى عهد حنا شمشقيق، إلا وبدأ رجال الدين البيزنطيون الأرثوذكس حملة إضطهاد ضد إخوانهم رجال الدين الأرمن. كذلك حدث بعد أن إتخذ الأرمن، آنى عاصمة لهم (٢) ، أن تعرض بطرس الأرمنى ثم ابن أخيه جاجك الأول (٩٩٠ - ١٠٢٠) لمتاعب جديدة بقصد إجبارهم علي التسليم بمباديء الكنيسة الأرثوذكسية. أما الملوك الذين تخلوا عن ممالكهم الوراثية للإمبراطورية البيزنطية ليأخذوا بدلاً منها إقطاعات فى كابادوكيا، فقد وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين حتى يعتنقوا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية. ولذلك نجد المؤرخين المعاصرين من الأرمن - مثل متى الرهاوى - يظهرون ارتياحهم للكارثة التي حلت بالبيزنطيين فى مانزكرت، بل لقد بلغ الأمر إلى مديح ملكشاه والأطراء عليه لما حققه من راحة بال للأرمن(٣) . وقد إتهم البيزنطيون القوات الأرمينية التى إشتركت فى

(١) عن أصول الانشقاق بين الكنيستين الأرمينية والبيزنطية أنظر Grousset : L'Empire du Levant, pp. 76 - 78.

واليعاقبة من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، نسبوا إلي يعقوب برادايوس (البرادعي) الذي نصب اسقفا مونوفيزتيا علي الرها سنة ٥٤١م.

أما النساطرة فينسبون إلي نسطوروس بطرق القسطنطينية (٤٢٨ - ٤٣١) وقد قال بأن طبيعة المسيح الالهية منفصلة عن طبيعته البشرية، وعلي ذلك فإن مريم العذراء ليست أما للمسيح في صورته الالهية وانما هي أمه في صورته البشرية.

(٢) كانت مدينة آني أول عاصمة للأرمن في مقرهم الجديد في جنوب شرق آسيا الصغري قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلي سيس فيما بعد، ومازالت بعض أسوار هذه المدينة وآثارها قائمة تشهد علي رقي مستواهم الحضاري في القرنين العاشر والحادي عشر. انظر :
Schlumberger : Recits I, 127 & Vasiliev, op. cit. I, 314.

(3) Grousset : Hist. de l'Armenie,pp. 620 - 622.

موقعة ملازكرت بأنها تقهقرت ولم تثبت، كما أنه حدث بعد موقعة مانزكرت أن إنتقم المهاجرون الأرمن فى كابادوكيا لأنفسهم بإضطهاد رجال الدين الأرثوذكس. من ذلك أن جاجك الثانى ملك آنى السابق قبض على مطران قيصرية الأرثوذكسى وحبسه في جوال محكم ومعه كلب شرس حتى قضي نحبه. وكان أن رد البيزنطيون علي ذلك بأن نصبوا كميناً للملك جاجك الثانى حتى تصيدوه وقتلوه سنة ١٠٧٩(١).

ولم يكن حنق المسيحيين السريان اليعاقبة علي البيزنطيين أقل شدة، لاسميا بعد أن إسترد البيزنطيون أنطاكية والرها. وهنا أيضاً أساء رجال الدين البيزنطيون الارثوذكس إلى الكنيسة المحلية. لذلك لم يتمالك ميخائيل السريانى نفسه من إعلان الفرح عندما حلت الهزيمة بالامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث على يد المسلمين قرب حلب سنة ١٠٣٠(٢). وتعبر كتابات ميخائيل السريانى تعبيراً صادقا عن إستيائه لأن البيزنطيين يضطهدون السريان واليعاقبة، وقال إنه لذلك يفضل سيطرة الأتراك السلاجقة على حكم البيزنطيين، لأن الأتراك ينهبون ويسلبون ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة، فى حين أن إضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكاية وأسوأ أثراً.

وهكذا يبدو كيف أن الحركة التى قامت بها الإمبراطورية البيزنطية فى القرن ، العاشر لإسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها فى شرق آسيا الصغرى وفى بلاد الشام أدت إلى إستياء مختلف العناصر التى كان من الممكن أن تظل حليفاً طبيعياً للإمبراطورية ضد الصليبيين الكاثوليك. وقد كان لهذا الشعور أثره فى تسهيل قيام الإمارات اللاتينية فى الشرق، لأن الأرمن والسريان اليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبيين الغربيين مثلما نفروا من البيزنطيين وهم الروم الأرثوذكس. وكان أن نظر الأرمن في قيليقية والرها إلى الصليبيين الغربيين علي أنهم محرروهم وحلفاؤهم، كما أن عصر الحروب الصليبية شهد تقارباً ملحوظا بين الكنيسة الأرمينية والبابوية(٣)هذا فى الوقت الذى أحسن الصليبيون الغربيون معاملة الأرمن والسريان بوجه عام، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ليس ضد المسلمين فحسب، بل ضد البيزنطيين(٤).

(1) Runciman : A History of the Crusades, I. p. 75.

(2) Mathieu d' Edesse (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm. pp. 46 - 48).

(3) Lorga : L'Armenie Cilicienne, p. 91.

(4) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 634.

الدولة البيزنطية بين السلاجقة والنورمان :

لم تقتصر الكوارث التى تعرضت لها الدولة البيزنطية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر على ما فعله الأتراك بالأقاليم الآسيوية للامبراطورية، وإنما تعرضت الأقاليم الأوربية فى ذلك الوقت أيضا لخطر النورمان، مما أوقع القسطنطينية بين نارين.

والمعروف أن القرن الحادى عشر شهد هجرة جموع غفيرة من النورمان الوافدين من دوقية نورمنديا فى غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها، فضلاً عن صقلية. وكان زعيم تلك الجموع سنة ١٠٤٢ وليم هوتفيل، ولكن الفضل يرجع إلى روبرت جويسكارد فى تأسيس دولة النورمان فى أيطاليا وصقلية، بعد أن تم إعلانه دوقًا على أبوليا وكالبريا سنة ١٠٥٩[١]. وحسب روبرت جويسكارد هذا أنه إنتزع من البيزنطيين آخر معاقلهم فى إيطاليا مثل أوترنتو وبرنديزى سنة ١٠٦٢ ثم بارى عاصمتهم سنة ١٠٧١، أى فى نفس الوقت الذى تعرضت الجيوش البيزنطية فى آسيا الصغرى لكارثة مانزكرت على أيدى السلاجقة[٢]. ولعل هذه الحقيقة الهامة هى التى جعلت المؤرخ فاسليف يقرر خطورة سنة ١٠٧١ بالذات في التاريخ البيزنطى بأجمعه[٣]. وبعد أن نجح النورمان أيضاً فى إنتزاع صقلية من المسلمين، أخذوا يوجهون أبصارهم نحو الشاطيء الشرقى للبحر الأدرياتى للاستيلاء على أبيروس ومقدونيا، بل لقد طمعوا فى القسطنطينية نفسها، ثم باتوا يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق، إتماماً لحربهم ضد المسلمين فى صقلية[٤].

وفى الوقت الذى نزل فريق من النورمان بزعامة وليم هوتفيل وروبرت جويسكارد فى إيطاليا البيزنطية ، إتجه فريق آخر من المغامرين النورمان نحو الدولة البيزنطية نفسها ودخلوا فى خدمتها جنداً مرتزقة . وقد رأينا كيف أفاد هذا الفريق الأخير من الكارثة التى حلت بالبيزنطيين على أيدى السلاجقة ، وحاولوا أن يؤسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة فى آسيا الصغرى . وأوضح مثل لهذا النوع من المغامرين النورمان رسل باليل الذى سبق أن أشرنا إليه ، ، والذى صار فى وقت

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٣٢٨ - ٣٣١.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4 part I, p.p. 208 - 209 (1966).

(3) Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire, vol I p. 361 (Medison, 1961).

(4) Longman : Les Francais d' outremer au Moyen - Age, p.p. 26 - 28.

ما مهيمنا على إقليم كابادوكيا والجهات المجاورة (١٠٧٣ - ١٠٧٤) [١] .

وكان أن حاول روبرت جويسكارد أن يحذو حذو رسل باليل ، ويقيم دولة نورمانية فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً . لذلك أنزل روبرت قواته فى صيف سنة ١٠٨١ عند افلونا ، ومنها إتجه إلى دورازو حيث هزم قوات الكسيوس كومنين ، وإستولى على ذلك الموقع الهام فى أوائل سنة ١٠٨٢ . وبعد ذلك زحف روبرت على القسطنطينية مباشرة ولكنه إضطر أثناء زحفه عليها إلى العودة إلى إيطاليا حيث كانت أحوالها تستدعى وجوده ، فترك قيادة قواته فى البلقان فى صيف سنة ١٠٨٢ لإبنه بوهيموند الذى صار فيما بعد بطلاً من أبطال الحملة الصليبية الأولى[٢] .

وقد إستطاع بوهيموند أن ينزل الهزيمة بألكسيوس كومنين أكثر من مرة ، كما استولى على عدة مراكز هامة فى أبيروس ومقدونيا وتساليا ، بحيث أوشكت الإمبراطورية على السقوط فى أيدى النورمان ، مما جعل ألكسيوس كومنين يسرع إلى الإستنجاد بسليمان بن قتلمش زعيم سلاجقة الروم ، الذى أمد الإمبراطور بسبعة آلاف رجل . وبفضل هذه النجدة إستطاع الإمبراطور البيزنطى أن يواجه الموقف ، وأن يحرز إنتصاراً على بوهيموند فى تساليا ، فعاد بوهيموند إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة (سنة ١٠٨٣) [٣] .

ولم يلبث أن حاول روبرت جويسكارد وإبنه بوهيموند معاودة الكرة ، وتحديا الأسطول البندقى - المحالف للبيزنطيين - قرب كورفو . ولكن الحرب طالت بين الطرفين على سواحل ابيروس حتى توفى روبرت فى صيف ١٠٨٥ ، فإنسحب النورمان بعد ذلك من البلقان عائدين إلى إيطاليا [٤] .

ومع ذلك فإن خلفاء روبرت من ملوك النورمان - وبخاصة بوهيموند - لم ينسوا مطلقاً طريق الشرق ، وهو الطريق الذى لم تلبث الحروب الصليبية أن أمدتهم بفرصة طيبة لإختراقه . والواقع إن المشاركة فى الحركة الصليبية كانت بالنسبة لبوهيموند تجديداً لحملة ١٠٨١ ، ومحاولة أخرى لتأسيس مملكة للنورمان فى الشرق ، وهو الأمر الذى تحقق فعلاً باستيلاء النورمان على أنطاكية ، وإقامة إمارة لهم فيها[٥].

---

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p-p. 168-169 .
(2) Ostrogorsky : op. cit., p. 317.
(3) Vasiliev : op. cit. II, p. 381 .
(4) Chalandon : Règne d'Alexis Comnene, pp. 70-71 .
(5) Cam. Med. Hist. 4, part I, p. 213 (1966) .

الباب الثالث

الحملة الصليبية الأولى

"واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد"

(إبراهيم : ١٥)

الفصل الأول

الدعـــوة للحـملة

البابا أوربان الثانى وإعلان الحرب الصليبية :

أوضحنا فيما سبق أن الحروب الصليبية بمعناها العام بدأت فعلا قبل بدايتها الرسمية فى أواخر القرن الحادى عشر ، أى قبل أن يدعو البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ للحملة التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى . فمنذ توسع المسلمين فى حوض البحر المتوسط ، فى القرن السابع للميلاد ، والدعوة لم تنقطع فى غرب أوربا لمحاربة المسلمين . وقد إتخذت تلك الحروب صبغة دينية فى كثير من أدوارها ، واشتهر من بين ميادينها آسيا الصغرى وأسبانيا وشمال إفريقية ، فضلا عن بعض جزر البحر المتوسط ، مثل صقلية وكريت (١) .

على أنه حدث فى أواخر القرن الحادى عشر أن اتجه الغرب الأوربى نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين وعندئذ بدأت المرحلة النشطة فى الحركة الصليبية . والواقع أنه منذ كارثة مانزكرت التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ وأباطرة القسطنطينية لاينقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك أن الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٩) ألح على البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) فى إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية وأراضيها فى آسيا الصغرى ، ووعد ميخائيل بأن يرد الجميل للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٢) .

ويقال إن البابا جريجورى السابع - بما عرف عنه من حماسة دينية فائقة - استجاب لتلك الدعوة ، وأرسل إلى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم سوء موقف المسيحيين فى الشرق ، وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك المسلمين ، ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح . هذا إلى أن البابوية

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 15 & L'Armenie Cilicienne, pp. 1-17.
(2) Cam. Med. Hist. vol 5, p. 270 .

شغلت فى ذلك الدور بالصراع ضد هنرى الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حول مشكلة التقليد العلمانى ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة (١) . وهكذا استمرت الأوضاع حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ ، وحل محله الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٩ - ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت بإعلان ألكسيوس كومنين إمبراطورا (١٠٨١-١١١٨)(٢) .

وكان الإمبراطور ألكسيوس رجلا قديراً ، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهت الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت . وعندما واجه ألكسيوس مشكلة السلاجقة وجد أنه لا قبل له بهم ، فاتجه من جديد نحو البابوية ، واتبع سياسة تجاه البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) تتصف بالمرونة المطلقة واللباقة الفائقة (٣) . وهنا يبدو أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق - بالصورة التى تم عليها الأمر فعلا - هذه الفكرة لم تكن من إبتكار الإمبراطور ألكسيوس كومنين أو بطرس الناسك ، وإنما يرجع الفضل فى أبتكار هذه الفكرة وتنفيذها إلى البابا أوربان الثانى نفسه . ففى ضوء ما سمعه هذا البابا من أخبار مبالغ فيها عن اضطهاد الأتراك السلاجقة للمسيحيين والحجاج ، بدأ أوربان الثانى يفكر فى مشروع لطرد المسلمين من غرب آسيا ، بنفس الجهد والعزيمة التى يجرى بها طردهم عندئذ من أسبانيا . هذا بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من وصول البابوية عندئذ إلى درجة كبيرة من سعة النفوذ والسلطان ، مما جعلها تفكر فى انتهاز فرصة تلك الحرب ضد السلاجقة لبسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية (٤) .

والواقع إن البابا أوربان الثانى كان أصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبى الجديد ، إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها ، فضلا عما عرف به من بعد النظر ومقدرة فى اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم . ثم إن البابا أوربان الثانى لم يقل مرونة عن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ، فلم يكد ذلك البابا يلى منصب البابوية حتى فتح باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطى لتسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين ، كما

---

(1) Vasiliev : op. cit. I, p. 358 .
(2) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, pp. 47 - 50 .
(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 316 - 320 .
(4) Setton : op. cit. I, pp. 226 - 227 .

رفع قرار الحرمان الذى كان موقعا على ذلك الإمبراطور[1]الأمر الذى أدى إلى نوع من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وإلى منح الكنائس الكاثوليكية فى البلاد الأرثوذكسية قسطا من الحرية فى تصريف شئونها . وفى سنة ١٠٩٠ أرسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين سفارة إلى البابا أوربان الثانى تحمل له إخلاص الإمبراطور ومحبته [٢].

على أن تبادل السفارات والمجاملات لم يكف لتخليص آسيا الصغرى من خطر السلاجقة . لذلك أراد الإمبراطور البيزنطى استغلال تلك العلاقات الطيبة مع البابوية للحصول على مساعدة عملية من الغرب ضد المسلمين ، فانتهز فرصة عقد مجمع دينى برآسة البابا فى بياكنزا – بشمال إيطاليا – فى مارس سنة ١٠٩٥ وأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع وطلب مساعدة البابا [٣]. وقد نجح مبعوثو الإمبراطور فى إقناع البابا بأن السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء ، وأن قوتهم أخذت فى الضعف والانحلال بحيث تكفى ضربة واحدة قوية للاجهاز عليهم ، وأنه لولا حاجة الإمبراطورية البيزنطية إلى الرجال ومسئولياتها الجسيمة فى حماية حدودها على امتداد الدانوب ، لقامت وحدها بتوجيه ضربة قاضية ضد السلاجقة . وكان أن آمن البابا أوربان الثانى بضرورة معاونة الإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين ، فضلا عما وجده فى هذه الفكرة من توجيه جهود الأمراء والفرسان وجهة صالحة تخفف من الحروب والمنازعات المحلية الدائرة بينهم فى غرب أوربا . وازداد إيمان بقية رجال الكنيسة الغربية بتلك الفكرة عندما سمح للمندوبين البيزنطيين بالكلام فى المجمع للتدليل على سلامة وجهة نظرهم [٤].

على أن البابا أوربان الثانى اختار أن يحيط مشروعه الجديد بالسرية التامة، وأخذ يقلب الفكرة فى ذهنه ، وهو فى طريقه إلى كليرمونت لعقد مجمع دينى للنظر فى بعض المسائل الكنسية المتباينة ، ومن جملتها توقيع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيليب الأول . وعندما انعقد هذا المجمع الدينى فى كليرمونت فى

---

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance . p. 307 .

عندما عزل الإمبراطور ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ أصدر البابا جريجوري السابع قرار الحرمان ضد نقفور الثالث مغتصب العرش البيزنطي . وعندما حل ألكسيوس كومنين محل نقفور في العرش البيزنطي ، مد البابا قرار الحرمان ليشمل ألكسيوس كومنين سنة ١٠٨١ . وهكذا حتي جاء البابا أوربان الثاني فألغي القرار . انظر : Runciman : op. cit. vol. I, p. 99

(2) Runciman : op. cit. I, pp. 101 - 102 .

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 156 .

(4) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 272 .

نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، انقضت الأيام التسعة الأولى منه فى مناقشة المسائل الكنسية المتعددة ، حتى إذا ما تم ذلك وجه البابا دعوته فى اليوم العاشر إلى المسيحيين جميعاً لتوحيد الجهود لاستخلاص الأراضى المقدسة من المسلمين(١) . وقد عرض البابا على المجتمعين - فى أسلوب حماسى جذاب - مدى ما تعانيه الأراضى المقدسة وحجاجها من متاعب بسبب سيطرة المسلمين عليها ، الأمر الذى صار يتطلب من المسيحيين الغربيين و الإسراع لنجدة إخوانهم فى الشرق . ونلاحظ أن أوربان الثانى وجه دعوته هذه للقادرين والفقراء سواء ، ليترك الجميع مشاحناتهم فى غرب أوربا ويوجهون جهودهم ضد المسلمين فى الشرق ، حيث يرعاهم الرب ويبارك جهودهم ويغفر ذنوبهم . وقد نادى البابا بالاسراع فى تقديم النجدة بحيث يكون جميع المتطوعين على أهبة الرحيل إلى الشرق مع بداية فصل الصيف (٢) .

وخلاصة القول أننا نخرج من أقوال المؤرخين المعاصرين الموثوق فيهم بأن فكرة الحرب الصليبية نبعت من خطبة البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت ، ولم تنشأ - كما ظن البعض - من دعوة بطرس الناسك ومواعظه . ذلك أن نداء البابا لم يلبث أن صادف استجابة من جمهور الحاضرين فى كليرمونت ، فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد : «هذه مشيئة الرب Deus lo volt » ، وجاءت هذه الصيحة إيذاناً ببداية صفحة جديدة فى تاريخ الحركة الصليبية قدر لها أن تستمر عدة قرون(٣) .

ولم يكد البابا أوربان الثانى يفرغ من خطبته التى دعا فيها لمحاربة المسلمين ، حتى جثا أدهمار - أسقف بوى Puy - أمام قدمى البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة فى الحرب المقدسة ضد المسلمين ، وبذلك صار ذلك الأسقف أول من افتتح قائمة المتطوعين ، واختاره البابا أوربان مندوباً بابوياً فى الحملة الأولي(٤) . وكان معنى حرص البابوية على تعيين مندوب عنها يرافق الصليبيين فى رحلتهم إلى الشرق ، أنها أرادت تحقيق إشرافها وسيطرة الكنيسة الغربية على الحركة الصليبية وعلى الأراضى التى سيفتحها الصليبيون . وفعلا حدث بعد ذلك- عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس - أن نادى المطران دايمبرت Daimbert بأن هذه المدينة إنما من نصيب البابوية ، ودخل فى نزاع بسبب ذلك

(1) Michaud : Hist. des Croisades, 1, p.p 92 - 94 .
(2) Chalandon : Hist. de la Première Croisade. p.p. 37 - 41 .
(3) Vasiliev : op. cit. 11, p. 402 .
(4) Cam. Med. Hist., vol. 5 p. 273 .

الموضوع مع بلدوين الأول مؤسس مملكة بين المقدس الصليبية[1] .

وجدير بالملاحظة أن أحداً من كبار الأمراء العلمانيين لم يكن حاضراً مجمع كليرمونت ليبدى استعداده للمشاركة فى تلك الحرب المنتظرة ضد المسلمين فى الشرق . وقد أحس البابا أوربان الثانى من أول الأمر بأن مشروعه الصليبى فى حاجة إلى تأييد من القوى العلمانية . فجمع الأساقفة وأصدر المجمع قراراً بأن كل من يشترك فى الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه ، فضلاً عن أن ممتلكات الصليبيين فى الغرب ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طول مدة غيابهم [2] . كذلك استقر الرأى على أن يحيك كل محارب صليباً من القماش الأحمر على ردائه الخارجى من ناحية الكتف رمزاً للحركة التى اشترك فيها والفكرة التى خرج ليحارب من أجلها . ثم إن كل من يضع هذا الصليب بغية المشاركة فى الحرب المقدسة ، عليه أن يتجه فوراً إلى الشرق ، فإذا تردد وعاد دون أن يؤدى واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ، فإنه يتعرض لعقوبة الحرمان[3] .

ولكن هيمنة الكنيسة على تلك الحركة الصليبية لم تلبث أن تعرضت لهزة عندما أعلن أحد كبار أمراء فرنسا - وهو ريموند الرابع أمير تولوز وبرفانس (١٠٨٨ - ١١٠٥) - عزمة على المشاركة فى المشروع الصليبى الذى دعا له البابا . ولم تكن هذه المرة الأولى التى أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين، إذ سبق أن شارك فى حربهم فى أسبانيا ، كما يروى ميخائيل السريانى أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس[4] . وهكذا تجمعت عوامل كثيرة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند ، على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوى أدهمار .

أما عن البابا أوربان الثانى فلم يكتف بما قاله فى كليرمونت ، وإنما أخذ يتنقل بين المدن والبلدان داعياً للحرب الصليبية ، فعقد مجمعاً فى ليموج Limoges (ديسمبر ١٠٩٥) ، وكرر الدعوة نفسها فى أنجرز ومان وتورز وبواتييه وبوردو وتولوز وغيرها (يناير - يونية ١٠٩٦) . وأخيراً أصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع فى مجمع نيم (يولية ١٠٩٦) مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذرى فى الإعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسمياً

(1) Grousset : Hist . des Croisades, I, p. 4 .
(2) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p.p. 44-45 .
(3) Runciman : op. cit. 1, p.p. 108 - 109 .
(4) Michel Le Syrien : (Rec. Hist. Cr Doc. Arm), I. p. 372 .

قائداً لتلك الحملة [1] . ثم إن ريموند هو الذى نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوربان الثانى مبعوثين إلى جنوة طالبا مشاركتهما فى المشروع الصليبى الكبير . ولم يلبث الجنوية أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا أثنتى عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقلة كبيرة[2] . وبذلك حققت جنوة لنفسها سبقاً كبيراً مكنها من اكتساب حقوق وامتيازات فى بلاد الشام ، وهى حقوق وامتيازات لم يستطع البيازنة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل [3] .

وأخيراً عاد البابا أوربان الثانى إلى روما فى أواخر سنة ١٠٩٦ بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبى ، إذ أقبل بعض الأمراء وكثير من الناس على المشاركة فى الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة – مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا – بل أيضاً من البلدان البعيدة مثل ، سكتلندا ودانمرك وغيرهما [4] .

حملات العامة . الدعاة :

أثارت دعوة البابا أوربان الثانى حركة شعبية ضخمة ترتبط فى التاريخ عادة باسم بطرس الناسك. ذلك أنه إذا كان البابا قد طلب من الأساقفة الدعوة للحرب الصليبية، فإن الأمر لم يقتصر عليهم وإنما ظهرت طائفة جديدة من الدعاة قاموا بجهد كبير واسع النطاق فى الدعاية لمشروع الحرب المقدسة. ويذكر التاريخ دائما على رأس هؤلاء الدعاة اسم بطرس الناسك، وهو رجل متقدم فى السن قيل إنه حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس، ولكنه تعرض فى الطريق لضغط الأتراك فعاد إلى بلده دون أن يحقق أمنيته، مما ترك أثراً فى نفسه [5] . ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة – بثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج وجسده الضخم – جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العوام والدهماء فى غرب أوربا، بحيث أنهم كانوا لا يكادون يرونه ويستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيستجيبون له فى سرعة غريبة، ويشرعون في الزحف صوب الشرق، دون إعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيما جدياً من الناحيتين السياسية والحربية [6] .

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 273 .
(2) Heyd. : Hist. du Commerce I, p. 133 .
(3) Setton : op. cit. : I, p. 252 .
(4) Runciman : op. cit, I, p. 112 .
(5) Setton : op. cit. I, p. 78.
(6) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 5.

وقد مضى بطرس الناسك فى دعوته بقوة، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا مثل أورليان وشامبنى واللورين، وخرج من هذه الأقاليم بعدد ضخم من الأتباع - حوالى خمسة عشر ألفا - اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم. وهنا نكرر أن فصاحة بطرس الناسك وهيئته وقوة تأثيره لم تكن فقط العوامل التى أدت إلى استجابة تلك الجموع الغفيرة من الفقراء والمعدمين للدعوة الصليبية فهناك الظروف القاسية التى عاش فيها الفلاحون فى غرب أوربا في تلك الفترة، والتى كان لها أكبر الأثر فى ترحيبهم بالدعوة الصليبية بوصفها طريقاً للخلاص مما كانوا يقاسونه من أهوال. فكثير من الأراضى الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لغزوات الفايكنج وغيرهم من البرابرة، فقلت الأقوات فى الوقت الذى ازدادت أعداد السكان. ثم إن الحروب والمنازعات المحلية بين الأمراء والإقطاعيين أسهمت فى الإخلال بالأمن وتعريض أرواح الناس للهلاك، وممتلكاتهم للنهب، مما جعل الغالبية العظمى من أهالى غرب أوربا يعيشون فى حال يرثى له من الفقر والحرمان والخوف دون أن يجدوا أى ضمان لحماية أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم[1]. فإذا أضفنا إلى ذلك كله س النكبات الطبيعية والاقتصادية التى عانى منها الغرب الأوربى زمن الدعوة للحرب الصليبية، أدركنا السر الحقيقى لإقبال كثير من الفلاحين والمعدمين على المشاركة فى تلك الحرب، إذ لاداعى للخوف من الموت ومن محاربة المسلمين وهم فى حال أقرب إلى الموت فعلا. وكل ما هنالك هو أنه بدلا من أن يموت الفرد من الجوع فى بلده محملا بما عساه ارتكبه من ذنوب فى حياته، فإن من الأفضل له أن يموت فى حرب مقدسة مما يحقق له سعيا مشكورا وذنباً مغفوراً[2].

وفى الوقت الذى كان بطرس الناسك ماضياً فى دعوته في الغرب الأوربي، ظهر زعيم آخر من زعماء العامة إسمه والتر الملقب بالمفلس. وسرعان ما قاد والتر أتباعه عبر هنغاريا ثم أراضى الدولة البيزنطية. وفى الطريق نسيت تلك الجموع أنهم يخترقون بلاداً مسيحية، فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون علي الأهالى الآمنين[3]. ومع ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون فى أول الأمر فى البلقان بتلك الجموع الصليبية رغم مظهرها الرث الذى يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها بأبسط مباديء القتال. وهكذا شق الصليبيون طريقهم إلى صوفيا وأدرنة حتى بلغوا

(1) Michaud : op. cit. Tome I, p.p. 105 - 106.
(2) Runciman : op. cit. p.p. 114 - 155.
(3) Vasiliv : op. cit., vol. II, p. 404.

القسطنطينية فى يوليه سنة ١٠٩٦، وهناك سمح لهم الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول بطرس الناسك. ولابد أن يكون الإمبراطور قد تأكد فى تلك الأثناء من سوء استعداد أولئك الصليبيين وحاجتهم إلى التنظيم(١).

أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا فى إبريل سنة ١٠٩٦ على رأس جمع غفير مخترقاً ألمانيا وهنغاريا، حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية. وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة سملين Semlin الهنغارية وقع خلاف بينهم وبين الهنغاريين بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم، فلم يكن من الصليبيين إلا أن أحدثوا مذبحة رهيبة فى تلك البلدة الهنغارية أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء(٢). ولا شك فى أن هذه الجريمة البشعة التى أتاها الصليبيون كان لها أثرها فى إثارة ريبة البيزنطيين وتشككهم فى تلك الجموع التى أتت إلى الشرق لتحارب باسم المسيح والمسيحية، وفى الوقت نفسه لم تتورع عن ذبح آلاف المسيحيين الأبرياء. لذلك رأى الإمبراطور البيزنطى ألا يترك لأولئك الصليبيين فرصة العبث بأراضى الإمبراطورية ومدنها، ووضع خطة استهدفت تخليص الإمبراطورية البيزنطية من شرهم فى أقصر مدة ممكنة. وفعلا تولى بعض الموظفين البيزنطيين قيادة الصليبيين سريعاً صوب القسطنطينية، وإن كان أتباع بطرس الناسك قد استمروا فى طريقهم إلى البسفور ينهبون ويسلبون كل ما وصل إلى أيديهم، فنهبوا بلجراد ونيش وغيرهما من المدن والقرى الآهلة، حتى وصلوا فى نهاية المطاف إلى أسوار القسطنطينية فى أول أغسطس سنة ١٠٩٦ حيث وجدوا والتر المفلس وجموعه فى أنتظارهم(٣).

وعلى الرغم من البوادر السيئة التى بدرت من الصليبيين أثناء عبورهم أراضى الإمبراطورية الشرقية، إلا أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين تذرع بالصبر وأحسن استقبال بطرس الناسك، وقدم له ولأتباعه النصح بألا يتعجلوا في العبور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليهم إمدادات وقوات نظامية من الغرب تساعدهم على الصمود فى وجه الأتراك السلاجقة (٤). على أن انتظار تلك الجموع أمام أسوار القسطنطينية لم يلبث أن سبب متاعب جمة للدولة، إذ أخذ الصليبيون

(1) Chalandon : Permière Croisade, p. 61 - 62.
(2) Albert d' Aix : Rec. Hist. cr) Hist. Occid., IV, p. 279.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p.p. 275 - 276.
(4) Chalandon : Première Croisade, p.p. 76 - 77.

يواصلون نهب القرى والضياع المجاورة، ويعتدون على الأهالى ويسلبونهم أقواتهم وأمتعتهم، بل إن الكنائس لم تسلم من اعتداءات أولئك الرعاع[١].

وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين وشعبه بخيبة أمل واضحة، بعد أن طلبوا من البابوية إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعدهم فى دفع خطر المسلمين، فإذا بهم يفاجئون بوصول آلاف من الدهماء، دخلوا أراضى الإمبراطورية ليحصلوا على الغذاء والكساء، إن لم يكن بالطريق السلمى فليكن عن طريق السلب والنهب والاعتداء على رعايا الإمبراطور الآمينين [٢]. وأمام ذلك الخطر الجديد بدأ الكسيوس كومنين يعيد النظر فى سياسته، فدفعه الخوف على عاصمته إلى الإسراع بنقل الصليبيين إلى الشاطيء الآسيوى للبسفور، وبدأت هذه العملية فعلا فى أوائل أغسطس سنة ١٠٩٦. ومع ذلك فان الإمبراطور الكسيوس استمر يحسن النصح للصليبيين، فأشار عليهم بالتجمع والانتظار عند أحد المراكز الحصينة قرب البسفور، حتى تأتيهم الإمدادات والجيوش النظامية من الغرب[٣]. ولكن جموع العامة لم يستطيعوا ضبط أنفسهم والكف عن النهب والسلب، فاستمروا يعتدون على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة، وأخذوا يوسعون دائرة نشاطهم دون أن يدروا أن نيقية - قاعدة السلطان قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش - على بعد عدة كيلو مترات فقط منهم[٤].

ولم تلبث أن بدأت المناوشات بين الصليبيين من جهة والأتراك السلاجقة من جهة أخري. وقد أحرز الصليبيون بعض انتصارات محلية فى تلك المناوشات الأولي، مما جعلهم يغترون بقوتهم ويتمادون في الإغارة على أراضى السلاجقة. وفى أكتوبر سنة ١٠٩٦ انتهز الصليبيون فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور البيزنطى وقرروا الزحف على نيقية [٥]. وكانت عدة الصليبيين خمسة وعشرون ألفا منهم خمسمائة فارس فقط على أكثر تقدير، والباقون من المشاة المعدمين الذين لا يربطهم نظام ولا توحد بين صفوفهم قيادة. وعندما باغت السلاجقة الصليبيين أثناء زحفهم، لم تستطع غالبية العامة المقاومة، فأعمل السلاجقة السيف فيهم ذبحاً وتقتيلا بحيث لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين إلا نحو ثلاثة آلاف. وقد أسرع الإمبراطور الكسيوس كومنين -

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance p. 310.
(2) Runciman : op. cit. I, p.p. 115 - 116.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 276.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 8.
(5) Vasiliev : op. cit., p. 405.

عندما سمع بنبأ الكارثة – إلى إرسال بعض سفنه الحربية تحمل إمدادات إلى الصليبيين ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، فحملت فلول الصليبيين إلى القسطنطينية حيث ظلوا فى رعاية الإمبراطور حتى وصول حملة الأمراء(١).

وهكذا أخفقت حملة العامة التى قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس. ولم تكن بقية الحملات المماثلة التى قادها فولكمار Volkmar وجوتشوك Gottschalk وإميخ Emich أحسن حالا، بل على العكس صارت كلها وصمة سوداء فى تاريخ الحركة الصليبية (٢).

الصليبيون واليهود :

انتشر اليهود على هيئة جاليات عديدة على امتداد الطرق التجارية فى غرب أوربا فى العصور الوسطي. وقد ظل هولاء اليهود طوال العصور الوسطى على صلة وثيقة باخوانهم يهود الشرق – فى البلدان الإسلامية أو فى الدولة البيزنطية – مما قوى مركزهم التجارى والاقتصادي، ومكنهم من القيام بنشاط مالى كبير وتأسيس عدة بيوت لإقراض الأموال للأمراء والفرسان وغيرهم. ومن المعروف عن اليهود قدرتهم على استغلال من يتعامل معهم، فوقع فى شباكهم عدد كبير من الأهالى فى أوربا العصور الوسطي، وهؤلاء ساءت أحوالهم المادية نتيجة للفوائد الباهظة التى فرضها اليهود عليهم. ثم جاءت الحروب الصليبية لتضيف إلى قائمة المدينين عدداً كبيراً من الفرسان، الذين اضطروا إلى اقتراض المال لإعداد العدة وتجهيز أنفسهم بالسلاح اللازم للحرب المقدسة، مما أثار نوعاً من الاستياء العام ضد أولئك المرابين المستغلين فى غرب أوربا على عصر الحركة الصليبية(٣).

ثم إن موقف اليهود أنفسهم من مشروع الحرب الصليبية كان موقفاً معادياً. ففى ديسمبر سنة ١٠٩٥ كتب اليهود فى شمال فرنسا إلى إخوانهم فى ألمانيا يحذرونهم من أن الحركة الصليبية ستعود بالضرر على اليهود، وبالتالى فقد أخذ اليهود – عن طريق خلاياهم وجالياتهم المنبثة فى مختلف أجزاء الغرب الأوربي– يعرقلون جهود الصليبيين. وكان أن أنتشرت إشاعات مؤداها أن جودفرى بوايون – الذى كان يعد عدته للمشاركة في الحرب الصليبية – قد أقسم على أن ينتقم للمسيح

(1) Ostrogorsky : op. cit., p. 321.
(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 9.
(3) Thompson : Economic and Social Hist of the Middle Ages p. 394.

بقتل جميع اليهود. وعندما انتشرت هذه الشائعة، لجأ يهود مينزوكولونيا فى حوض الراين إلى أسلوبهم المعروف، فجمعوا الأموال وقدموها لجودفرى بوايون على سبيل الرشوة ليعدل عن نواياه(١).

على ان مثل هذه الحلول كانت لا يمكن أن تنجح فى جعل أتباع الكنيسة – وهم فى موجة حماستهم الدينية – يغفرون لليهود مسلكهم تجاه المسيحيين والمسيحية. وإذا كانت الحركة الصليبية قد أيقظت فى المسيحيين روح الانتقام من أعدائهم، فلماذا يختص المسيحيون المسلمين بذلك العداء ويتركون اليهود ؟ أليس اليهود فى عرفهم هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام ؟ ألم يكن اليهود هم الذين حاولوا سحق المسيحية وهي فى المهد ؟ اليسوا هم الذين اضطهدوا المسيحيين الأوائل وشردوهم وحرضوا عليهم الحكام الرومان ليعملوا فيهم قتلاً وتذبيحاً ؟ (٢) وهكذا لم يكن منتظراً أن تمر موجة الحماسة الصليبية بسلام دون أن يصيب اليهود فى أوربا شيئاً من رشاشها.

وكان أن تجمع فى حوض الراين فى إبريل سنة ١٠٩٦ جمع من الصليبيين الألمان، زاد عددهم على عشرة آلاف، تحت قيادة فولكمار، ومن هناك شرعوا فى الزحف شرقاً للحاق ببطرس الناسك. وفى الوقت الذى شقت تلك المجموعة طريقها نحو براغ، إذا بمجموعة أخرى تتكون بعد قليل فى حوض الراين بزعامة الأمير إميخ Emich (٣). وقد استهل إميخ هذا نشاطه الصليبى فى أوائل مايو سنة ١٠٩٦ بمهاجمة اليهود فى مدينة سبير Spier ونهب أموالهم وقتل أثنى عشر يهودياً فى حين لم ينقذ الباقين سوى أسقف المدينة الذى استظلهم بحمايته. ولم يكد إميخ وجموعه يصلون بعد ذلك إلى ورمز حتى انتشرت إشاعة بأن اليهود قتلوا مسيحياً وحفظوا جثته في إناء به ماء ليستخدموا ذلك الماء فى تسميم آبار المدينة (٤). وسرعان ما أدى انتشار هذه الإشاعة إلى اشتراك الفلاحين من الجهات والضواحى القريبة مع رجال إميخ فى إحداث مذبحة كبرى باليهود (٢٠مايو) ؛ هلك فيها أكثر من خمسمائة يهودي(٥). ثم اتجه إميخ بعد ذلك إلى مينز حيث أغلق رئيس

---

(1) Runciman : op.cit., I, p.p. 135 - 136.
(2) Cary : A. Hist. of Rome, pp. 589 - 590.
وعن تآمر اليهود ضد السيد المسيح عليه السلام ومطاردتهم له، انظر : انجيل متي (الاصحاح ٢٦، ٢٧)
(3) Setton : op. cit. I, pp. 263 - 265.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 10.
(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 277.

الأساقفة أبواب المدنية فى وجه الصليبيين. على أن اقتراب رجال إميخ من ميتز إدى إلى حركة داخل المدينة ضد اليهود قتل أثناءها أحد اليهود؛ وعندئذ فتح الناس أبواب المدنية للصليبيين الذين اقتحموا المبانى التى اختبأ فيها اليهود وقتلوهم، فى حين أعلن بعضهم اعتناقه المسيحية لينجو من ذلك المصير الرهيب. وقد قدر عدد قتلى اليهود فى حوادث مينز وحدها بألف قتيل[1]. ولم تكن حوادث مينز هى الأخيرة بالنسبة لليهود فى حوض الراين ؛ وإنما اتجه إميخ ورجاله بعد ذلك صوب كولونيا حيث قتلوا بعضهم، وبعد ذلك شقوا طريقهم صوب القسطنطينية عن طريق هنغاريا.

وسرعان ما وصلت أخبار ما فعله إميخ باليهود إلى مسامع بعض الجماعات الصليبية التى سبقت إلى الشرق، ففعل فولكمار وأتباعه باليهود فى براغ مثلما فعله إميخ بهم فى مدن الراين (٣٠ يونية). وقد حاول فولكمار أن يكرر التمثيلية ضد اليهود فى مدن هنغاريا، ولكن الهنغاريين لم يسمحوا له بذلك، وهاجموه وأعوانه من الصليبيين ففرقوهم وقتلوا كثيرا منهم. وعندما أتى بعد ذلك إميخ ورجاله إلى هنغاريا، قابلهم الهنغاريون بنفس الأسلوب،مما أدى إلى تدمير حملتى إميخ وفولكمار فى هنغاريا [٢].

هذا، وقد استمر شعور العداء تجاه اليهود فى غرب أوربا طوال عصر الحروب الصليبية. ولم تكن البابوية نفسها أقل عداء لليهود، فأصدر البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ مرسوماً بابوياً يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء فى عمليات الإقراض أو رهن الممتلكات أو غير ذلك [٣].

(1) Albert d'Aix IV, p.p. 292 - 293.
(2) Runciman : op. cit., I, p.p. 134 - 141.
(3) Thompson : Economic and Social Hist. p. 409.

الفصل الثاني

الأمراء الصليبيون والدولـــة البيزنطـــية

جودفرى بوايون وألكسيوس كومنين :

فى الوقت الذى أخذت حملات العامة من المعدمين والغوغاء يذبحون اليهود ويعتدون على الشعوب الأوربية المسيحية التى سلكوا أراضيها، جرى تنظيم الشطر الثانى من الحملة الصليبية الأولى – وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء – وإعداده إعداداً منظما. والواقع إن الشطر الخاص بالأمراء فى الحملة الصليبية الأولى تألف من عدة حملات أو جموع، لكل منها طابعها المميز الذى لازمها منذ أول الأمر، وميز نشاطها فى الشرق(١). وبعبارة أخرى فإن الروح الإقطاعية بدت واضحة فى الشطر النظامى من الحملة الصليبية الأولي، إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وفرسانه وجنده وسياسته الخاصة، مما جعل تلك الحملة فى حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت أحياناً فى اتجاهات متعارضة (٢).

أما المجموعة الأولى من حملة الأمراء فكان على رأسها جودفرى بوايون أمير لوثرنجيا وبرفقته أخوه بلدوين البولوني، فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء (٣). ويبدو أن المكانة البارزة التى تمتع بها جودفرى بوايون فى الإمبراطورية المقدسة، وأهمية الإمارات التى شارك أصحابها فى حملته جعلت لها مكانة خاصة دفعت كثيراً من الفرسان إلى الانضمام إليها، فاكتسبت طابعاً مميزاً من أول الأمر (٤). هذا مع ملاحظة أن معظم المشتركين فى هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتينى فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولم يكن من القطاع الألمانى سوى القليل، مما جعل الطابع العام لحملة جودفرى بوايون فرنجيا، أى فرنسيا. وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر أولئك الصليبيون ببلاد الشام، إذ سرعان ما ذبلت

---

(1) Cam. Med. Hist. vol 5, p.p. 279 - 280.

(٢) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولي ص ٦٥.

(3) Michaud : Hist. des Croisades, I, p.p. 146 - 147.

(4) Runciman : op. cit., I, p. 147.

العلاقات الإقطاعية التى ربطتهم بإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وأقاموا ملكية جديدة فى بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنجية، أى الفرنسية(1)، حتى أن العرب المعاصرين أطلقوا على الصليبيين عموما اسم (الفرنج).

وكانت حملة جودفرى بوايون أول حملة صليبية نظامية شقت سبيلها إلى الشرق. وقد سلكت طريق هنغاريا - مثل حملات العامه التى سبقتها - وفى وقت كان الهنغاريون مازالوا يحملون كثيراً من شعور النقمة والضغينة للصليبيين، بعد الضرر الذى لحق بهم على أيدى جموع بطرس الناسك وفولكمار وإميخ (2). وقد رأى جودفرى أن يبدد تلك المخاوف عند الهنغاريين قبل أن يعبر بلادهم، فعقد اجتماعا مع كولمان ملك هنغاريا على الحدود الهنغارية الألمانية. وفى ذلك الاجتماع قدم جودفرى أخاه بلدوين البولونى ليظل رهينة لدى الملك الهنغارى حتى يتم انتقال قواته عبر الأراضى الهنغارية، وفى الوقت نفسه أصدر جودفرى أوامر مشددة لرجاله ليحول بينهم وبين أعمال النهب والعدوان على الأهالى أو ممتلكاتهم(3).

وبوصول جودفرى بوايون إلى الحدود البيزنطية فى أواخر نوفمبر سنة ١٠٩٦ بدأت المسألة الصليبية فى تاريخ الدولة البيزنطية. ففى ذلك الدور بالذات وضع الإمبراطور ألكسيوس كومنين سياسة ثابتة تجاه الصليبيين، وهى السياسة التى لم يتخل عنها خلفاؤه أباطرة القسطنطينية طوال قرن من الزمان. ذلك أن ألكسيوس كومنين أراد أن يستغل الحركة الصليبية ويسخرها لتحقيق أهدافه ومصالح دولته الخاصة، فلما فشل فى ذلك انقلبت سياسته تجاه الصليبيين إلى عداء صريح(4). وقد بدأ الإمبراطور البيزنطى بإرسال رسل إلى جودفرى بوايون لاستقباله فيما بين بلجراد ونيش، وهناك عقدوا معه اتفاقية تمهيدية باسم الإمبراطور، تعهد فيها جودفرى بمنع رجاله من القيام بأى عمل تخريبى من أعمال السلب والنهب داخل أراضى الإمبراطورية، مثلما فعل أتباع بطرس الناسك وغيرهم من جموع العامه. وفى مقابل ذلك تعهدت الإمبراطورية بإمداد الصليبيين بكل ما يلزمهم من تموين ومساعدات، حتى وصولهم إلى جبهة الحرب ضد السلاجقة(5).

---

(1) Grousset : op.cit., I, 12.
(2) Setton : op. cit. I, p. 12.
(3) Albert d'Aix, IV. pp. 299 - 305.
(4) Chalandon : Règne d'Alexis Comnene, p.p. 164 - 165.
(5) Albert d'Aix, IV, p.p. 299 - 305.

وعلى أساس الإتفاقية السابقة استأنف الصليبيون طريقهم حتى وصلوا إلى شاطيء بحر مرمرة حيث توقفوا للراحة على شاطئه عند بلدة سليمبريا Selymbria، وكان ذلك حوالى منتصف ديسمبر ١٠٩٦ . على أنه حدث فى ذلك المكان أن أفلت زمام الصليبيين فترة من يد جودفري، وفقدوا روح النظام التى تحلوا بها حتى ذلك الوقت، فقام رجال جودفرى بنهب سليمبريا(١) .

ومهما يكن من أمر، فإن أهم ما كان يعنى الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الدور هو تحديد الجانب القانونى للعلاقة بينه وبين الصليبيين. فالحرب الصليبية جاءت شيئاً جديداً علي الغرب الأوربي، فى حين كان الصراع ضد المسلمين أمراً مألوفا للبيزنطيين منذ القرن السابع. وهكذا أراد الإمبراطور البيزنطى أن يتصور حملة جودفرى بوايون فى صورة نجدة سريعة وصلته وسط معركة طويلة ضد المسلمين، لنصرة المسيحية وطرد السلاجقة من الأراضى التى احتلوها فى آسيا (٢) .

والواقع أنه منذ وصول حركة الفتوح الإسلامية إلى شواطيء البحر المتوسط فى القرن السابع، والدولة البيزنطية فى صراع ضد المسلمين لايكاد يهدأ قليلا حتى يشتد طويلا. ومنذ توسع السلاجقة فى الشرق الأدني، والدولة البيزنطية تتحمل وحدها الضربة تلو الأخرى من جراء ذلك التوسع. وبعبارة أخرى فإن الدولة البيزنطية - وليس الغرب الأوربى - هى التى تولت عبء الدفاع عن الأماكن المقدسة فى الشرق ومحاولة استردادها من المسلمين طوال عدة قرون، فلا أقل من أن يتولى الإمبراطور البيزنطى رئاسة الجيوش الصليبية التى أخذت تفد من الغرب الأوربى منذ أواخر القرن الحادى عشر لمحاربة المسلمين وبعبارة أخرى لا أقل من أن يدخل الأمراء الصليبيون تحت لواء الامبراطور البيزنطي(٣) .

وربما أراد الإمبراطور ألكسيوس كومنين أن يجعل من جودفرى بوايون صورة للقائد النورمانى رسل باليل الذى سبق أن حضر علي رأس مجموعة من النورمان لمحاربة السلاجقة تحت راية الإمبراطور البيزنطي. وكل ما هنالك هو أن جودفرى جاء أكثر قوة وعتاداً من سلفه رسل باليل، مما جعله يبدو أعظم نفعاً للامبراطورية البيزنطية وأكثر قدرة على خدمة أغراضها. وفى الوقت نفسه أدرك

(1) Idem, p.p. 304 - 305.
(2) Brehier : op. cit., p. 310.
(3) Grousset : op.cit., I, p. 16.

ألكسيوس أن قوة جودفرى من الممكن أن تجعله أكثر خطراً على الإمبراطورية ومصالحها (١). ولعل الدرس الذى أخذته الإمبراطورية من ثورة رسل باليل عليها واغتصابه أراضيها وإنضمامه إلى السلاجقة ضدها، هذا الدرس لم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد نسيته بعد عندما وصل جودفرى بوايون على رأس جيوشه إلى أراضى الإمبراطورية فى أواخر القرن الحادى عشر. لذلك حرص الإمبراطور ألكسيوس على ألا تتكرر مأساة رسل باليل، وبدأ يتصرف تجاه جودفرى فى شيء من الحزم، فطلب منه أن يقسم يمين الولاء للامبراطور، بمعنى أن يقسم القائد الصليبى على أن يكون تابعا للامبراطور البيزنطى فى الأراضى الآسيوية التى عساه ينجح في استردادها من المسلمين(٢).

هذه هى وجهة نظر الإمبراطور ألكسيوس كومنين. ويبدو أنه لم يستهدف أى هدف آخر عدا إقناع جودفرى بالولاء للامبراطورية ورد الأراضى التى يستردها من السلاجقة فى آسيا. وهذا الأمر وحده كان كافيا لتحديد العلاقة بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والصليبيين الغربيين من ناحية أخرى. وكان الإمبراطور ألكسيوس - عندما سمع بما فعله الصليبيون فى سليمبريا - قد أرسل إلى جودفرى طالبا منه ردع قواته عن النهب، والحضور ومعه رجاله أمام أسوار القسطنطينية، فحضر جودفرى على رأس قواته وعسكروا أمام سور العاصمة فى ديسمبر سنة ١٠٩٦، وعندئذ أرسل ألكسيوس إلى جودفرى مرحباً داعيا إياه لمقابلته، ليقسم له يمين الولاء (٣). على أن جودفرى بوايون رفض تلك الدعوة، لأنه بحكم مركزه فى الإمبراطورية المقدسة، وبحكم تبعيته للامبراطور الغربى كان يتعذر عليه أن يقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطي(٤). وكيف كان يستطيع أمير إقطاعى أن يوزع ولاءه بين الإمبراطور هنرى الرابع فى الغرب

(1) Chalandon : Première Croisade, p.p. 119 - 121.

(2) Runciman : op. cit., p. 149.

(3) Chalandon : Alexis Commene, p. 179.

(٤) أشار ابن الأثير إشارة سريعة إلي مانشأ من خلاف بين زعماء الحملة الصليبية الأولي والإمبراطور البيزنطي، واشتراط الإمبراطور علي أولئك الزعماء تسليمه ما يفتحونه من بلاد وعلي أن يقسموا له يمين الولاء. فقال في حوادث سنة ٤٩١ هـ : (فلما عزم الفرنج علي قصد الشام ساروا إلي القسطنطينية ليعبروا المجاز إلي بلاد المسلمين ويسيروا إلي البر فيكون أسهل عليهم. فلما وصلوا إليها، منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده، وقال. لا أمكنكم من العبور إلي بلاد الإسلام حتي تحلفوا أنكم تسلموالي أنطاكية) (الكامل : حوادث سنة ٤٩١ هـ).

(4) Runciman, op. cit., I p.p. 140 - 150.

والامبراطور الكسيوس كومنين فى الشرق، مع ما بين الامبراطوريتين من تنافر ؟ وأخطر من هذا، كيف يستطيع جودفرى - وهو الأمير الكاثوليكى الذى وفد على رأس حملته تنفيذاً لدعوة البابا أوربان الثانى رأس الكنيسة الكاثوليكية - أن يقدم ولاءه للإمبراطور البيزنطى حامى الكنيسة الأرثوذكسية، مع ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من شقاق ونفور ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة جودفرى فى عدم توريط زملائه الأمراء الصليبيين اللاحقين به، أدركنا حرج موقفه وأسباب تمنعه عن تلبية دعوة الإمبراطور البيزنطي(٤). لذلك أخذ جودفرى يماطل فى تحديد موعد المقابلة مع الإمبراطور حتى تصل بقية الجيوش الصليبية من الغرب. فيتخذ الأمراء الغربيون موقفاً موحداً تجاه الإمبراطور البيزنطى ويضطرونه إلى التنازل عن مطالبه. هذا وإن كانت بعض المصادر تعلل تمنع جودفرى عن مقابلة الإمبراطور بأنه كان يخشى على نفسه من غدر الإمبراطور وأنه طلب رهائن تبقى لدى رجاله لحين عودته إليهم سالماً، وهو الطلب الذى إعتبره الإمبراطور إهانة له وماساً بشرفه (١).

وعندما ضاق ألكسيوس بتسويف جودفري، وأدرك أنه يماطل لكسب الوقت اتخذ قراراً خطيراً هو منع تموين الصليبيين، فرد الصليبيون على ذلك بنهب الضياع والضواحى المحيطة بالقسطنطينية مما جعل الإمبراطور يعدل بسرعة عن قرارة(٢). وفى الوقت نفسه عمل الإمبراطور على استرضاء الصليبيين بالسماح لهم بالأقامة فى ضاحية بيرا Pera - من ضواحى القسطنطينية - حتى يحتموا من قسوة الشتاء من ناحية، وحيث يسهل على الإمبراطور مراقبتهم والإشراف عليهم من ناحية أخرى (٣).

على أن هذه الإجراءات من جانب الكيسوس لم تحل المشكلة، إذ ظل جودفرى بوايون طوال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٠٩٧ قابعاً مع جنوده فى بيرا، ورفض أن يؤدى يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى أو حتى يقبل دعوته لمقابلته. وعندما أحس الإمبراطور بأن الصليبيين النورمان تحت قيادة بوهيموند فى طريقهم من إيطاليا إلى القسطنطينية عن طريق مقدونيا، فكر فى إجراء سريع للحيلولة دون التقاء هاتين المجموعتين من الصليبيين، فمنع التموين عن قوات جودفرى مرة أخرى (أوائل إبريل سنة ١٠٩٧) مما أدى إلى صدام جديد بين

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 281.
(2) Brehier, op. cit., p. 311.
(3) Chalandon : Alexis Comnene, p.p. 178 - 179.

البيزنطيين والصليبيين. وكان أن هاجم الصليبيون البيزنطيين فى بيرا ، وبعد ذلك إنسحبت قوات جودفرى منها بعد أن نهبتها وأحرقتها وأخذت تعيث فساداً فى المناطق القريبة من القرن الذهبي، بل لقد هاجمت أسوار القسطنطينية نفسها (١). وإزاء ذلك اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى أن يأمر جيشه بمهاجمة الصليبيين لدفع خطرهم، ففر رجال جودفرى ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش البيزنطي. وهكذا أدرك جودفرى بوايون حقيقة قدر نفسه ولم يجد بداً من مسالمة الإمبراطور(٢).

وأخيرا اضطر جودفرى بوايون إلى قبول شروط ألكسيوس كومنين، فقصد القصر الإمبراطورى لتقديم ولاءه للامبراطور البيزنطي، وإعلان وضع حملته الصليبية فى خدمة الامبراطورية لاسترداد الأراضى التى اغتصبها السلاجقة من الإمبراطورية (٣). وبعبارة أخرى فقد تعهد جودفرى بوايون بتسليم الإمبراطور جميع الأراضى التى كانت ملكا للإمبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت، والتى سيستردها الصليبيون من السلاجقة. ومعنى ذلك أن الاتفاق لا يشمل فقط البلاد والمدن الواقعة فى الأناضول مثل نيقية، بل يشمل أيضا البلاد والمدن الواقعة فى أطراف الشام والعراق مثل أنطاكية والرها. وهكذا جاءت تلك الاتفاقية التى تمت فى إبريل سنة ١٠٩٧ واضحة حاسمة، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تعتمد عليها وتتمسك بها فى المطالبة بحقوقها قبل الصليبيين طوال القرن الثانى عشر. وزاد من تعقيد المشكلة أن الإمبراطورية البيزنطية اختارت ألا تفسر الاتفاقية السابقة فى ضوء ما كان للأمبراطورية من ممتلكات فى القرن الحادى عشر – على عهد باسل الثانى – وإنما فى ضوء ما كان للامبراطورية قديماً من أملاك واسعة فى الشرق على عهد الإمبراطور جستنيان. وفى تلك الحالة لم تكتف الإمبراطورية بالمطالبة بحقها فى أنطاكية والرها وإنما طالبت أيضاً ببيت المقدس وطرابلس. على أننا سنرى أن الصليبيين ما كادوا يثبتون أقدامهم فى تلك المدن ويستولون عليها، حتى تناسوا كل ما للأمبراطورية من حقوق وكل ما قدموه لها من وعود مما أثار مشاكل طويلة بين الجانبين طوال القرن الثانى عشر(٤).

ومهما يكن من أمر، فإن يمين الولاء الذى أقسمه جودفرى بوايون جعل منه– ولو من الناحية الأدبية الشكلية – تابعاً للامبراطورية البيزنطية. وكان أن

(1) Albert d'Aix, p.p. 307 - 308.
(2) Runciman : op. cit., I, p. 151.
(3) Guillaume de Tyr, I, p.p. 87 - 88.
(4) Grousset : op. cit. I, p. 19.

غمر الإمبراطور ألكسيوس الأمير جودفرى بالهدايا الثمينة والخيول المطهمة، كما غالى فى إمداد الجيش الصليبى بالإمدادات السخية (١). وفى عاشر إبريل سنة ١٠٩٧ أمر الكسيوس كومنين بنقل جودفرى وجيشه الى الشاطيء الآسيوى حيث انتظر جودفرى وصول الحملة النورمانية. ولم يكد يتم نقل جيش جودفرى إلى البر الآسيوى حتى وصل جيش النورمان بقيادة بوهيموند إلى أسوار القسطنطينية. وبذلك يكون الكسيوس كومنين قد نجح فى تنفيذ خطته الخاصة بعدم اجتماع الحملتين - حملة جودفرى وحملة بوهيموند - أمام أسوار عاصمته، ليتمكن من إملاء شروطه على كل فريق علي حدة (٢).

بوهيموند النورمانى وألكسيوس كومنين :

كان ذلك فى مستهل سنة ١٠٩٦ عندما أخذ بوهيموند النورمانى - أكبر أبناء روبرت جويسكارد - يحاصر مدنية أمالفى فى جنوب إيطاليا، وكانت قد ثارت ضد النورمان فى إيطاليا. وفى تلك الأثناء ترامت إلى مسامع بوهيموند أن جيوشا غفيرة خرجت من فرنسا ولوثرنجيا وألمانيا فى طريقها إلى بيت المقدس (٣). ولم يكد بوهيموند يتأكد من طبيعة تلك الحركة وأهدافها حتى ترك حصار أمالفى وأزمع هو الآخر الخروج إلى الشرق على رأس حملة نورمانية كبيرة، وبصحبته ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية. وفى نوفمبر سنة ١٠٩٦ نزلت الحملة النورمانية فى أفلونا Avlona على شاطيء ألبانيا،ومنها اخترقت البلقان شرقاً عن طريق تراقيا إلى القسطنطينية (٤).

على أن حملة النورمان الصليبية سرعان ما سببت فزعاً للبلاط البيزنطى أكثر من حملة جودفري. فهل حقيقة أن الحملة النورمانية الكبيرة ليست إلا مجرد حملة صليبية استهدفت محاربة المسلمين ؟ أم أن لها أغراضا وأهدافاً وأطماعاً أخرى فى قلب الدولة البيزنطية نفسها ؟ إن النورمان بالذات لهم سوابق خطيرة في العدوان على الامبراطورية البيزنطية، فضلا عن أن هذه الحملة جاء على رأسها ابن روبرت جويسكارد الذى مازالت محاولته لغزو الدولة البيزنطية وتهديد القسطنطينية نفسها سنة ١٠٨١ ماثلة فى أذهان البيزنطيين (٥). هذه هى المخاوف

(1) Michaud : Hist. des Croisades, I, p. 176.
(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 183.
(3) Setton : op. cit., p. 155.
(4) Runciman : op. cit. I, 155.
(5) Cam. Med. Hist vol. vol. 5 p. 282.

التى أثارتها حملة بوهيموند فى نفوس المعاصرين داخل الإمبراطورية البيزنطية، وهى مخاوف أثبتت الأحداث بعد قليل عدم صحتها، لأن بوهيموند نفسه كان يدرك تماماً عدم مناسبة الظروف والوقت للقيام بمحاولة توسعية جديدة على حساب الدولة البيزنطية فى البلقان، وأن أية محاولة من هذا النوع تحت ستار الحرب الصليبية ستقابل بالاستهجان فى جميع انحاء العالم المسيحى وستسيء إلى النورمان إساءة بالغة. وربما كان أقرب إلى الصواب القول بأن بوهيموند رأى فى الحروب الصليبية فى الشرق فرصة تمكنه من تحقيق ما فشل رسل باليل فيه، وهو إقامة إمارة للنورمان فى الشرق على حساب السلاجقة والبيزنطيين جميعا، ولتكن هذه الإمارة الجديدة فى أنطاكية (١)!

وهكذا سار بوهيموند على رأس جموعه قاصداً القسطنطينية. وفى أثناء سيرهم فى البلقان نجح بوهيموند فى كبح جماحهم، فمنعهم من الاعتداء على الأهالى وأموالهم، بل علي العكس كثيراً ما أظهر البيزنطيون وأهل البلقان عداءهم للنورمان، فى الوقت الذى قابل بوهيموند تلك الإساءات بشيء من ضبط النفس والتسامح حتى لايثير شكوك الإمبراطورية (٢). وبهذه السياسة الحكيمة نجح بوهيموند فى كسب ثقة الإمبراطور ألكسيوس كومنين، الذى أمر بامداد القوات النورمانية بكل ما احتاجت إليه من ميرة طوال طريقها إلى القسطنطينية (٣).

وعندما اقترب النورمان من القسطنطينية فى إبريل سنة ١٠٩٧ طلب بوهيموند مقابلة الإمبراطور ألكسيوس ليصالحه ويعبر له عن إخلاصه ونواياه الطيبة، فوافق الإمبراطور علي شرط أن يدخل بوهيموند القسطنطينية بمفرده ويترك جيشه خارجها. والواقع إن بوهيموند بالذات كان أخطر الزعماء الصليبيين فى نظر الإمبراطور البيزنطي، ليس بسبب التجارب المريرة السابقة التى عانتها الإمبراطورية البيزنطية من النورمان ومطامعهم فحسب، وإنما أيضا بسبب كفاية قوات يوهيموند وحسن إعدادها وتنظيمها وقوة تسليحها مما جعل الحملة النورمانية تبدو قوة رهيبة يعمل لها حساب داخل أراضى الدولة البيزنطية (٤).

على أن تطور الأمور سرعان ما أظهر أن شيئاً من هذه المخاوف لم يتحقق، إذ أطاع بوهيموند رغبة الإمبراطور وتقدم إلى القسطنطينية بمفرده، تاركاً قيادة

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 21.
(2) Chalandon : Première Croisade, p.p. 133 - 136.
(3) Gesta Francorum, p.p. 20 - 21.
(4) Runciman : op. cit., I, p. 157.

الجيش النورمانى لابن أخته تنكرد. والواقع إن بوهيموند أظهر حكمة بالغة فى ذلك الدور، إذ كان يدرك قوة الإمبراطورية البيزنطية، وأن الصليبيين دون مساعدتها لن يستطيعوا تحقيق هدف واحد من أهدافهم فى الشرق، فضلا عن أن النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين لن يعود إلا بالخسارة على الطرفين، في حين من الممكن أن يحقق التحالف بين الطرفين نتائج مفيدة للمسيحيين أجمعين. هذا كله بالاضافة إلى ما كان يرمى إليه بوهيموند من كسب مساعدة الإمبراطور البيزنطى ليتمكن عن طريق هذه المساعدة من تحقيق أطماعه فى الشرق، وهي الأطماع التى تتلخص فى فرض نوع من الزعامة على بقية زعماء الصليبيين من ناحية، وفى إنشاء مملكة لبوهيموند فى الشرق تغنيه عن المنازعات التى دبت فى إيطاليا وصقلية بين أفراد البيت النورمانى عقب وفاة أبيه روبرت جويسكارد، من ناحية أخرى (١).

وكان أن تمت المقابلة بين بوهيموند والامبراطور الكسيوس كومنين فى جو مشبع بالود والتفاهم. وسرعان ما أقسم بوهيموند يمين الولاء للامبراطور وأعلن تبعيته له، فغمره – هو الآخر – بالأموال والهدايا الثمينة. ولما كانت هذه التبعية تحمل بين طياتها مبدأ الحد من أطماع بوهيموند ونشاطه فى الشرق، لأنه سيفتح ما يفتحه من بلاد باسم الإمبراطور البيزنطي، فان بوهيموند رأى أن يحتاط لنفسه ومستقبله، فطلب من ألكسيوس منحه إقطاعاً كبيراً فى إقليم أنطاكية. وهنا لبى الإمبراطور طلب بوهيموند، فوعده بمنطقة واسعة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوما وعرضها مسيرة ثمانية أيام (٢). وبذلك تكون هذه الاتفاقية قد حددت مولد إمارة أنطاكية النورمانية، وهى الامارة التى صار لها شأن كبير فيما بعد فى تاريخ الصليبيين بالشام.

أما ما طلبه بوهيموند من الإمبراطور بخصوص تعيينه قائداً عاما للقوات الإمبراطورية فى آسيا، فإن ألكسيوس كومنين لم يمكنه أن يحقق ذلك الطلب بحكم تشككه فى الصليبيين عامة والنورمان خاصة. ولذلك أجاب على بوهيموند بأن الوقت لم يحن بعد للبت فى ذلك الموضوع وأنه من الممكن أن يصل بوهيموند إلى تحقيق رغبته هذه عن طريق إثبات ولائه وحسن نيته (٣).

---

(1) Chalandon : Premiére Croisade, p. 132.
(2) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 51.
(3) Brehier : op. cit., p. 311.

وبفضل سياسة بوهيموند وحسن تصرفه وبعد نظره، سارت الأمور بين السلطات البيزنطية من ناحية والنورمان من ناحية أخرى على خير ما يرام، فانتقلت حملة النورمان إلى الشاطيء الآسيوى فى ٢٦ أبريل لتحتل مكانها إلى جانب حملة جودفرى بوايون. هذا مع ملاحظة أن بقية زعماء الحملة النورمانية - وبخاصة ريتشارد دى سالرنو وتنكرد - تجنبوا قسم يمين الولاء للامبراطور البيزنطي، وعبروا البسفور على رأس الجيش النورمانى إلى آسيا الصغرى دون أن يرتبطوا بأى رباط مع الإمبراطور (١).

ريموند دى تولوز وألكسيوس كومنين :

أما الجموع الصليبية الوافدة من إقليم بروفانس، فقد وصلت إلى الأراضى البيزنطية فى الوقت نفسه تقريباً الذى شهد وصول حملة النورمان. وكانت هذه الحملة البروفنسالية تحت زعامة ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس. ولما كانت البابوية تطمع دائما فى الاحتفاظ بسيطرتها علي الحركة الصليبية ، فقد أوفد البابا مع ريموند الأسقف أدهمار - أسقف بوى - ليكون مندوبا يمثل البابوية فى زعامة الصليبيين بالشرق (٢). وقد بارحت الحملة الغرب فى أكتوبر سنه ١٠٩٦ فاجتازت شمال إيطاليا إلى كرواتيا فدلماشيا وألبانيا ومقدونيا ثم القسطنطينية، دون أن تصادف عقبات كثيرة فى الطريق فيما يختص بأمور التموين. وكل ما هناك هو أن الأهالى فى الإمبراطورية البيزنطية أظهروا أحيانا شعور العداء تجاه الصليبيين، لاسميا وأن قوات ريموند نفسها كانت غير منظمة وجنحت للنهب والعدوان مما جعل البيزنطيين لا يترددون فى ردعهم (٣).

وعندما اقتربت الحملة من القسطنطينية دعا الامبراطور الكسيوس كومنين زعيمها ريموند لمقابلته بمفرده فى العاصمة، فتمت المقابلة فى أواخر إبريل سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ طلب الإمبراطور من ريموند أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل من سبقه من زعماء الجموع الصليبية، فوجد ريموند نفسه فى مركز لا يحسد عليه. ذلك أنه كان يطمع فى الحصول على زعامة الصليبيين جميعا فى الشرق بحكم صلته بالبابوية ومرافقة المندوب البابوى لحملته، وهو شرف لم تحظ به بقية الحملات الصليبية السابقة. ولكن هذه الزعامة التى اعتمدت على تأييد البابوية لا

(1) Cam. Med. Hist. vol, 5, p. 281.
(2) Lorga : Breve Hist. des Croisades,p. 51.
(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p.p. 24 - 25.

يمكن أن تتفق ويمين الولاء للإمبراطور البيزنطي، راعى الكنيسة الأرثوذكسية. هذا إلى أن ريموند كان يرى فى بوهيموند النورمانى غريمه ومنافسه الأول. فاذا كان هذا المنافس قد نجح فعلا فى اكتساب صداقة الإمبراطور البيزنطى وتأييده، فإن معنى قبول ريموند أن يقسم يمين الولاء للامبراطور هو أنه سيضطر فى المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند، وهو مالا يمكن أن يقبله[1]. لذلك كله رفض ريموند بشدة تلبية رغبة الإمبراطور، وقالها فى صراحة أنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح،ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح [2] ثم إن ريموند استنكر أن يدخل فى تبعية الإمبراطور، فى حين يظل الأخير قابعا فى القسطنطينية لا يريد أن يرافق الصليبيين فى محاربة المسلمين. لذلك أعلن ريموند أنه مستعد لإعلان تبعيته للامبراطور البيزنطى إذا خرج الإمبراطور على رأس الصليبيين بنفسه وتولى قيادتهم فى الحرب الصليبية [3].

وسرعان ما تأزم الموقف بين ريموند من جهة والامبراطور ألكسيوس من جهة أخرى، مما أنذر بحدوث صدام مسلح بين الطرفين. وهنا تدخل جودفرى بوايون، وقال لريموند أنه من الحماقة أن يفكر في شن الحرب على المسيحيين فى القسطنطينية، فى الوقت الذى يرابط السلاجقة المسلمون على بعد عدة كيلو مترات قليلة من نيقية [4]. أما بوهيموند النورمانى الذى كان قد سوى أموره مع الإمبراطور، فقد أعلن فى صراحة وقوفه إلى جانب ألكسيوس كومنين فى حالة وقوع صدام مسلح بين الطرفين. وأخيراً اضطر ريموند تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول الى اتفاقية مع الإمبراطور البيزنطي. حقيقة إن ريموند أبى بتاتاً أن يقسم يمين الولاء والتبعية للامبراطور، ولكنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الإمبراطور وشرفه، وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسيء إلى الامبراطور [5].

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين الإمبراطور البيزنطى وريموند بفضل وساطة أدهمار المندوب البابوي[6]. هذا إلى أن ريموند أتيحت له فرصة عقد اجتماع منفرد مع ألكسيوس كومنين، وفى ذلك الاجتماع صرح الإمبراطور

(1) Runciman : op. cit. I, p. 163.
(2) Raymond d'Aigles : Hist. Occid. III, p. 238.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 283.
(4) Raymond d'Aigles, p. 238.
(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 283.
(6) Setton : op. cit. I. p.p. 287 - 288.

بتخوفه من بوهيموند والنورمان، وأنه لا يمكن أن يقلد بوهيموند زعامة القوات الامبراطورية فى آسيا. وعندما سمع ريموند تلك التصريحات من فم الإمبراطور طاب قلباً وهدأ نفسياً، وبدأ يدرك أنه من الممكن أن يجد فى الإمبراطور البيزنطى حليفاً قويا ضد بوهيموند وأطماعه. ومنذ تلك اللحظة تبدلت سياسة ريموند تجاه الإمبراطورية البيزنطية تبدلا تاماً (١).

الحملة الفرنسية وألكسيوس كومنين :

وأخيراً وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين لتلتقى مع بقية الجموع الصليبية على شاطيء البسفور. وقد تألفت هذه الحملة من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير نورمنديا - وهو ابن وليم الفاتح - ، وصهره إتين (ستفن) أمير بلوا وشارتر (٢). وبعد أن مرت الحملة بايطاليا حيث باركها البابا أوربان الثاني، استقلت السفن من برنديزى إلى البلقان فى أوائل إبريل سنة ١٠٩٧ ، حيث أرست فى دورازو ومنها اخترقت البلقان إلى القسطنطينية. ويبدو أن الكسيوس كومنين لم يصادف من تلك الحملة متاعب وصعوبات مثلما صادف من الحملات السابقة(٣). ولم يمانع زعيما هذه الحملة - كونت نورمنديا، وكونت بلوا - مطلقا فى أن يقسما يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطي، ولذا حرص الإمبراطور على أن يغدق عليهما وعلى رجالهما الإمدادات والمؤن والإنعامات فضلا عن الأموال والخيول المطهمة (٤) وبعد أن قضى هؤلاء الصليبيون أسبوعين فى القسطنطينية، عبروا البسفور إلى آسيا الصغرى وأسرعوا فى اللحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلا فى حصار نيقية (٥).

(1) Runciman : op. cit. l. p. 164.
(2) Michaud : Hist. des Croisades, l, p. 178.
(3) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), p.p. 331 - 332.
(4) Chalandon : alexis Comnene, p.p. 188 - 189.
(5) Brehier : op. cit., p. 312.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم

الاستيلاء على نيقية وتسليمها للبيزنطيين :

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى - باستثناء ريموند وتنكرد - يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ، وتعهدوا له برد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التى يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من نيقية حتى أنطاكية . وفى مقابل ذلك تعهد الإمبراطور البيزنطى بمساعدة الصليبيين فى مهمتهم بكل قواه ، وأن يسهم هو الآخر بدوره فى الحرب الصليبية ، وأن يمدهم بفرق من الجيش البيزنطى فى حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا[1] . ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن اتفاقية شاملة بهذا المعنى ، تم إبرامها فى سنة ١٠٩٧ بين الإمبراطور ألكسيوس كومنين والأمير بوهيموند ، الذى كان يحاول الظهور دائما فى صورة الرجل الأول بين أمراء الحملة الصليبية الأولى والحليف الرئيسى للامبراطور البيزنطي[2] .

وأخيراً تجمعت القوات الصليبية كلها على الشاطئ الآسيوى ، حيث حضر بطرس الناسك لمقابلة الأمراء ومعه حطام حملة العامة . وهناك تم الاتفاق على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية ، المركز الرئيسى لقلج أرسلان الأول ومقر حكمه . ومن الواضح أن الصليبيين كانوا لايستطيعون المضى فى جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدى السلاجقة مما يهددهم ويهدد خطوط مواصلاتهم مع الإمبراطورية البيزنطية بخطر جسيم ، لذلك صدرت الأوامر إلى الصليبيين فى أواخر إبريل سنة ١٠٩٧ بالزحف على نيقية لاستخلاصها من السلاجقة . وقد أمد الإمبراطور البيزنطى الصليبيين بآلات الحصار والسلاح والمؤن ، ولكن لم تشترك سوى فرقة صغيرة من القوات البيزنطية فى حصار نيقية، وهى المدينة القوية التحصين[3] .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 27 .
(2) Chalandon : Alexis Comnene, 188 .
(3) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 285 .

فى ذلك الوقت كان قلج أرسلان متغيبا عن نيقية ، حيث دخل فى نزاع فى كابادوقيا مع التركمان من بنى دانشمند حول مدينة ملطية . ويبدو أن قلج أرسلان لم يهتم كثيرا بأنباء الغزو الصليبى ، إذ ظن أن الأمر لايعدو وصول بعض جموع أخرى من العامة غير المدربين ، من نوعية أتباع بطرس الناسك الذين سبق أن قضى عليهم السلاجقة فى سهولة تامة(١) . هذا إلى أن عيون الإمبراطور البيزنطى وجواسيسه أعطوا قلج أرسلان صورة مبالغ فيها عن الخلافات المستحكمة بين الإمبراطور من جهة والأمراء الصليبيين من جهة أخرى ، مما جعل السلطان السلجوقى يطمئن إلى أن الصليبيين لن يصلوا بأى حال إلى نيقية ، بدليل أنه ترك زوجته وأولاده وأمواله داخل أسوار المدينة ولم يحاول نقلهم منها(٢) .

ولكن قلج أرسلان لم يلبث أن أدرك خطورة الوضع ، وأن جيوش الصليبيين تلك المرة غير جيوش بطرس الناسك فى المرة السابقة ، فأرسل قواته على عجل للدفاع عن نيقية وإنقاذها . على أن تلك القوات لم تصل نيقية إلا بعد فوات الأوان، لأن الصليبيين كانوا قد أدركوا نيقية فى ٦ مايو سنة ١٠٩٧ وحاصروها وأخذوا يهاجمونها بعد أسبوع(٣) . ثم كان أن حضر السلطان قلج أرسلان نفسه فى حوالى ٢١ مايو وبدأ بمهاجمة الصليبيين فور وصوله ، ولكنه أدرك بعد معركة قصيرة غير موفقة أنه من الخير له أن ينسحب لأن قوة الصليبيين أعظم مما كان يتوقع . وإذا كانت خسارة السلاجقة قد جاءت كبيرة فى تلك المعركة ، فإن خسارة الصليبيين كانت فادحة أيضا . ومع ذلك فإن انتصارهم أحيى روحهم المعنوية وبث فيهم روحاً جديدة(٤) .

وفى تلك الأثناء لم يتقاعس الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بالمؤن والزاد ، كما أرسل أسطولا صغيراً من السفن إلى البحيرة التى تقع عليها مدينة نيقية لتسهيل تزويد الصليبيين بالمؤن والإمدادات(٥) . وعندما يئست حامية نيقية من وصول إمدادات إليها من قلج أرسلان بدأت تفكر فى الاستسلام . ولكن أهل نيقية من الأتراك المسلمين خشوا عنف الصليبيين وانتقامهم ، فأخذوا يتصلون سرا برجال الإمبراطور البيزنطى لعله

(1) Setton : op. cit I, p.p. 288 - 289 .
(2) Runciman, op. cit. I. p.p. 176 - 177 .
(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 29 .
(4) Albert d'Aix, p.p. 320 - 321 .
(5) Gesta Francorum, p. 37.

يكون أكثر رحمة بهم من الصليبيين . هذا فى الوقت الذى كان ألكسيوس كومنين متخوفاً من نوايا ريموند وتنكرد - بعد أن رفضا أن يقسما له يمين الولاء والتبعية- وخشى أن يعارض هذان الأميران فى تسليم نيقية عقب سقوطها للامبراطورية أو أن يتعرض الصليبيون للمدينة بالسلب والتخريب والتدمير(1). لذلك تدخل الإمبراطور البيزنطى بسرعة وفاوض حامية نيقية سراً على أساس تأمين أرواح أهل المدينة من الأتراك . ولم يلبث أن فوجئ الصليبيون بارتفاع الأعلام البيزنطية فوق نيقية دون أن يعلموا شيئاً عن المحادثات السرية التى دارت بين حامية المدينة من ناحية والامبراطور البيزنطى من ناحية أخرى . وبذلك عادت نيقية إلى أحضان الدولة البيزنطية فى ٢٦ يونية سنة ١٠٩٧ ، أى بعد ستة عشر عاما من احتلال السلاجقة لها(2).

ولم يستطع الصليبيون إخفاء استيائهم من مسلك الإمبراطور البيزنطى تجاه أسرى نيقية ، إذ ضايقهم تسامح الإمبراطور مع الأسرى المسلمين واستعداده لإطلاق سراح زوجة قلج أرسلان وأولاده دون فدية . وكان الإمبراطور ألكسيوس- من واقع تجاربه وسابق معاملاته العديدة مع المسلمين - يدرك أهمية العفو عند المقدرة ، ويقدر قيمة التسامح مع خصمه المغلوب ، ولكن الصليبيين الغربيين لم يفهموا ذلك المنطق واعتبروا مسلك الإمبراطور خيانة لهم وللقضية الصليبية (3).

وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنين إلى دعوة زعماء الحملة الصليبية - غداة الاستيلاء على نيقية - للاجتماع به قبل أن يأذن لهم بالتوغل فى آسيا الصغرى . وفى ذلك الاجتماع جدد الزعماء الصليبيون يمين الولاء للامبراطور . وكان بوهيموند أسبق الأمراء الصليبيين إلى تلبية دعوة الإمبراطور والاستجابة له، فى حين امتنع تنكرد وريموند عن الارتباط بيمين الولاء للامبراطور(4). ويبدو أن جميع زعماء الصليبيين - باستثناء تنكرد وريموند - أدركوا أهمية الإمبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم فى مشروعهم الخطير(5). حقيقة إن الإمبراطور ألكسيوس لم يرافق الصليبيين بنفسه أثناء زحفهم على قونية ، ولكنه أمدهم بفرق محدودة من الجيش البيزنطى لمؤازرتهم وإرشادهم ، فضلا عن تقديم الإمدادات والمؤن لهم . وفيما عدا ذلك يبدو أن الصليبيين والبيزنطيين تقاسموا مهمة محاربة

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 190 .
(2) Brehier : op. cit., p. 312 .
(3) Runciman, op. cit., p. 180 - 182 .
(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 193 .
(5) Chalandon : Première Croisades, p. 167 .

الأتراك فى الأناضول . فبينما انصرف الصليبيون إلى محاربة السلاجقة فى جوف آسيا الصغرى ، أى فى إقليم فريجيا واختاروا الزحف على ضورليوم وقونية ، إذا بالإمبراطور ألكسيوس كومنين يوجه جهوده نحو طرد الأتراك من الشواطئ الغربية لآسيا الصغرى أى من أقاليم مسيا Mysia وأيونيا وليديا (١) .

وخلاصة القول أنه مهما يقال فى استياء الصليبيين من مسلك الإمبراطور البيزنطى – سواء عند الاستيلاء على نيقية أو عند توزيع الأسلاب والغنائم ، أو فيما يختص بمعاملة أسرى المسلمين – فإن سقوط نيقية نفخ فى الصليبيين روحا وعزيمة شجعتهم على المضى قدما فى طريقهم ، بعد أن أدركوا خرافة الفكرة القائلة بأن السلاجقة لايهزمون(٢) . ثم إن الغرب الأوربى قابل أنباء سقوط نيقية بالفرح الكبير ، فتشجع من كان محجماً عن المشاركة فى الحركة الصليبية ، وأخذت الإمدادات تترى تباعا على الصليبيين وهم فى طريقهم إلى الشام . أما المدن الإيطالية التى ظلت حتى ذلك الوقت تقف موقفاً حذراً من الحركة الصليبية ، فلم تلبث أن تشجعت ونظرت إلى الأمر نظرة جدية جعلتها تسهم إسهاما فعليا فى تلك الحرب حتى تفوز بقسط من المكاسب(٣) .

موقعة ضور ليوم والاستيلاء علي قونية :

ثم كان أن غادر الصليبيون نيقية واستأنفوا مسيرتهم عبر فريجيا فى أواخر يونيه سنة ١٠٩٧ ، وهم يفيضون حماسة وقوة . ولم يلبث الصليبيون أن انقسموا إلى شعبتين ، وذلك لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف من ناحية ، وللقضاء على جيوب سلاجقة الروم فى أكبر مساحة ممكنة من ناحية أخرى ، فسارت إحدى الشعبتين فى الاتجاه الشمالى الشرقى والأخرى فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، على أن يلتقيا فى ضورليوم . وقد ضمت الشعبة الأولى النورمان جميعاً ، أى نورمان إيطاليا بزعامة بوهيموند وتنكرد ، ونورمان فرنسا بزعامة روبرت ، فى حين كان على رأس الشعبة الثانية المندوب البابوى أدهمار ومعه من الأمراء جودفرى بوايون وريموند .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 31 .

(٢) ويقال إن الإمبراطور ألكسيوس كومنين حرص علي ألا تتعرض نيقية لعدوان الصليبيين ونهبهم إياها فلم يسمح لهم بدخول المدينة إلا علي هيئة جماعات صغيرة ولمدة محددة .
"Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 285"

(3) Runciman : op. cit. I, p.p. 182-183 & Setton : op. cit. I, p. 201 .

(1) Albert d'Aix, p.p. 328-329 .

ولم يكد الفريق النورماني من الصليبيين يصل إلى مرتفعات ضورليوم حتى وجد نفسه في مأزق خطير(١). ذلك أن سقوط نيقية جعل البيتين الكبيرين من المسلمين في آسيا الصغرى - وهما البيت السلجوقي من الأتراك وبنو دانشمند من التركمان - يعقدان هدنة فيما بينهما لمواجهة ذلك الخطر المشترك الجديد ، فاتحد السلطان قلج أرسلان مع الأمير غازى بن دانشمند لسد الطريق في وجه الصليبيين . وهكذا اجتمعت قوى المسلمين في اسيا الصغرى لمهاجمة الصليبيين في سهول ضورليوم (٣٠ يونية) وعندئذ وجد بوهيموند نفسه في خطر محدق جعله يطلب النجدة على عجل من بقية الجيوش الصليبية التي تعمل في الأناضول(٢) . وسرعان ما أدى وصول جودفرى بوايون ثم بقية القوات الصليبية تباعاً ، إلى تغيير مصير المعركة المقبلة وقلبها رأساً على عقب ، إذ دارت الدائرة في أول يوليو سنة ١٠٩٧ على الأتراك وانتصر الصليبيون وغنموا كميات ضخمة من المؤن والغنائم . ولاتخفى علينا أهمية موقعة ضورليوم ، إذ جاءت بمثابة إعلان آخر للعالم بظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هي قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم الحربي على القوة التي طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية ، وهي قوة الأتراك السلاجقة (٣).

وبعد أن استراح الصليبيون يومين عند ضورليوم ، واصلوا زحفهم في ٤ يوليو في الاتجاه الجنوبي الشرقي عبر فريجيا . ويبدو أن الصليبيين صادفوا كثيرا من المتاعب في تلك المرحلة بسبب قسوة الطبيعة وصعوبة الأرض وقلة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة حرارة الصيف ، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم ، ولم يجدوا مايحمل متاعهم وأثقالهم(٤) . ومع ذلك استمر الصليبيون يقاسون الأمرين في زحفهم حتى وصلوا أخيراً - حوالي منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ - إلى سهول قونية الغنية بكلئها وشجرها .

ولم ير الصليبيون مايدل على أن السلاجقة اعتزموا الدفاع عن قونية ، وإنما ظهر أن الخطة التي وضعها قلج أرسلان عقب الكارثة التي حلت بجيوشه في ضورليوم ، استهدفت الانسحاب إلى الداخل وإخلاء المدن أمام الصليبيين . وكان أن دخل الصليبيون قونية ليجدوها خالية الوفاض من الناس والزاد ، اللهم إلا من

(2) Guillaume de Tyr. I, p.p. 129 - 130 .
(3) Grousset : op. cit., I, p. 35 .
(4) Gesta Francorum, p. 55.

بعض الأرمن الذين قدموا النصح للصليبيين بأخذ كميات كافية من الماء قبل أن يقدموا على اجتياز الصحراء المقفرة الواقعة بين قونية وهرقلة(١).

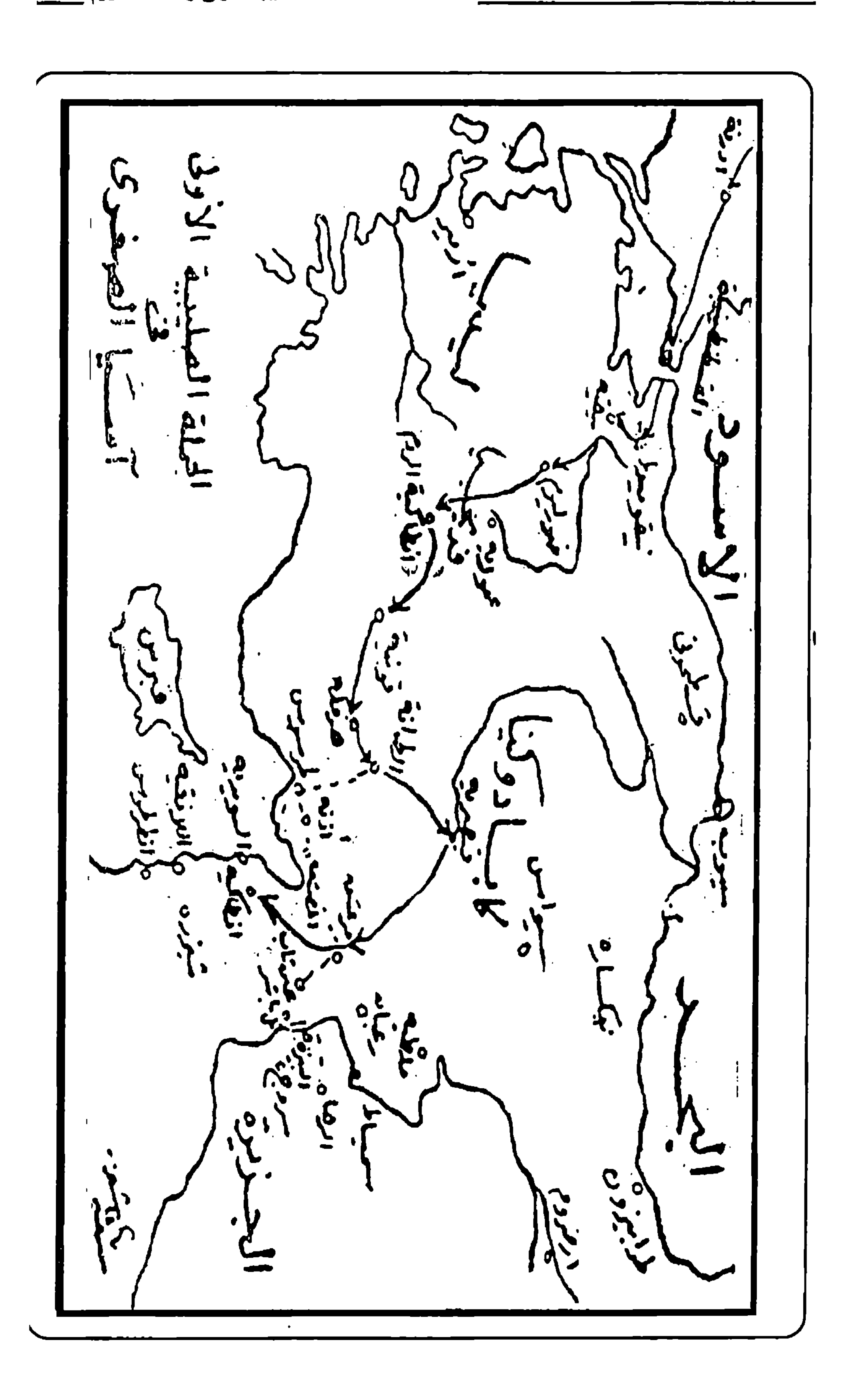
وقد حاول السلاجقة القيام بمحاولة أخيرة لصد الصليبيين عند هرقلة ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل(٢). وبعد أن أستراح الصليبيون بضعة أيام قليلة فى هرقلة انقسموا إلى شعبتين ، فانشق تنكرد ومعه بلدوين – شقيق جودفرى بوايون – واتجهوا فى حوالى منتصف سبتمبر سنة ١٠٩٧ صوب قيليقية فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، فى حين اتخذ بقية الصليبيين – وعلى رأسهم المندوب البابوى وجودفرى نفسه وبوهيموند وريموند – طريقاً شماليا شرقيا صوب قيصرية التى استولوا عليها فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٠٩٧(٣). ومن قيصرية اتجه الصليبيون صوب الجنوب الشرقى ، فاستولوا فى أوائل اكتوبر على بلاكنتيا – وهى قلعة أرمينية فى جبال طوروس ذات موقع هام – كان بنو دانشمند يحاصرونها عندما أنقذها الصليبيون . وقد طالب القائد البيزنطى المرافق للصليبيين تسليمه تلك القلعة باسم الإمبراطور ، فوافق الصليبيون على ذلك ، مما يثبت وفاءهم بتعهداتهم للامبراطور حتى تلك المرحلة (٤).

وبعد أن مر الصليبيون ببعض القرى والضياع الأرمينية حيث رحب بهم الأرمن وأظهروا لهم الود والصداقة ، اخترقوا مجموعة من سلاسل جبال طوروس العالية للوصول إلى مرعش . وكانت مرعش مدينة أرمينية معظم سكانها من الأرمن ، فرحبوا بالصليبيين عند وصولهم إليها فى ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية فى تلك الجهات . وهناك أيضاً حافظ الصليبيون على كلمتهم وسلموا مرعش للسلطات البيزنطية (٥). ومن مرعش اتجه الصليبيون نحو الشام ، فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصى شرقى أنطاكية فى ٢٠ أكتوبر ، وبذلك بدأ الغزو الصليبى للشام(٦).

وقبل أن نتتبع الغزو الصليبى للشام ، يصح أن نلقى نظرة سريعة على جهود الإمبراطور ألكسيوس كومنين فى استرداد أيونيا وفريجيا ، وجهود تنكرد وبلدوين البولونى فى قيليقية وإقليم الرها .

---

(1) Gesta Francorum, pp. 55-57 .
(2) Setton: op. cit., vol. I, p. 295 .
(3) Gesta Francorum, p. 61 .
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 38 .
(5) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 287 .
(6) Michaud : op. cit., p.p. 237 - 239 .


الحملة الصليبية الأولى
في
آسيا الصغرى
البحر الأسود

حملة ألكسيوس كومنين فى أيونيا وفريجيا :

لاشك فى أن سقوط نيقية عاصمة قلج أرسلان ، ثم هزيمة قلج أرسلان نفسه فى موقعة ضورليوم بعد ذلك ، كانا بمثابة طعنة قاتلة لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكانتها فى الأناضول . وكما أن سقوط نيقية فى أيدى السلاجقة سنة ١٠٨١ أدى إلى استيلائهم فى سهولة على جميع الأجزاء الغربية من الأناضول ، فكذلك جاء استيلاء البيزنطيين على هذه المدينة سنة ١٠٩٧ بداية لاسترداد الإمبراطورية البيزنطية لذلك الجزء الغربى من الأناضول برمته (١) .

وعندما أوغل الصليبيون فى قلب دولة قلج أرسلان دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وجد صغار الأمراء الأتراك على شاطئ بحر إيجة – مثل أمير أزمير وأمير إفسوس – أنفسهم مقطوعين عن الدولة السلجوقية ، فلم يستطيعوا المقاومة طويلاً(٢) . ولاشك فى أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين هو الذى أفاد من تلك الأوضاع ، فلم يلبث غداة الاستيلاء على نيقية أن أرسل إلى أيونيا جيشاً يقوده صهره حنا دوقاس وأسطولا تحت قيادة كازياكس Kaspax(٣) . كذلك صحبت ذلك مجموعة من أسرى السلاجقة فى نيقية ، وبصفة خاصة زوجة السلطان قلج أرسلان نفسه . ولم تلبث هذه الخطة أن أفلحت وأحرزت نجاحاً كبيراً ، إذ استسلم فوراً أمير أزمير ثم تبعه أمير إفسوس(٤) .

وفى ربيع سنة ١٠٩٨ بدأ حنا دوقاس يعمل لاسترداد إقليم ليديا وغرب فريجيا من الأتراك . وبعد أن نجح القائد البيزنطى فى إسترداد تلك الجهات حتى أنطاليا ، اتجه صوب الشمال الشرقى حيث أنزل هزيمة بالأتراك عند بلوادين Bulwadin . وفى تلك الأثناء كان الإمبراطور البيزنطى قد احتل بثنيا التى أخلاها الأتراك عقب موقعة ضورليوم . وهكذا تم للبيزنطيين استرداد الجزء الغربى من الأناضول (يونية ١٠٩٨) . ولم يبق أمام الإمبراطور ألكسيوس سوى الاتجاه نحو قيليقية والشام للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية(٥) .

وهنا نلاحظ أن نجاح الدولة البيزنطية فى إسترداد الأناضول إنما يعتبر نتيجة مباشرة من نتائج الحملة الصليبية الأولى ، وهى نتيجة لها من الأهمية

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 41 .
(2) Chalandon : Alexis Comnene , p. 195 .
(3) Runciman : op. cit. I, p. 194 .
(4) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 196 - 198 .
(5) Brehier, op. cit., pp. 312 - 313 .

التاريخية مالا يقل عن غزو فلسطين نفسها على أيدى الصليبيين . وتبدو هذه الأهمية بوضوح عند المقارنة بين ماكانت عليه خريطة الشرق الأدنى سنة ١٠٩٥ ، وبين ماصارت إليه سنة ١٠٩٨ ففى سنة ١٠٩٥ كانت الحدود التركية البيزنطية تمر بمدينة نيقية ونيقوميديا ، أى على مسافة قصيرة من بحر مرمرة والبسفور ، فى حين آل حكم أزمير وإفسوس إلى أمراء من الأتراك . أما فى سنة ١٠٩٨ فكان قد تم طرد الأتراك من أقاليم بثنيا وأيونيا وليديا وفريجيا ، ومن ثم عادت إلى هذه الأقاليم الحياة البيزنطية والحضارة البيزنطية لتعيش فى ظلها من جديد مدة ثلاثة قرون ونصف . ويكفى للدلالة على الأهمية التاريخية لهذا التطور أن نشير إلى أنه عندما سقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فى أيدى رجال الحملة الصليبية الرابعة ، لم يجد الكيان البيزنطى والحضارة البيزنطية اليونانية والتراث البيزنطى مأوى تأوى إليه وتعيش فيه سوى تلك الأقاليم الآسيوية التى تم استردادها نتيجة لجهود الحملة الصليبية الأولى .

وهكذا كانت الحملة الصليبية الأولى خير أداة استطاعت أن تثأر بها الدولة البيزنطية لنفسها مما حل بها على يد السلاجقة منذ موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ (١) .

---

(1) Grousset : Hist, des Croisades, I, pp. 41 - 43 .

الفصل الرابع

تأسيس إمارة
الرهـا الصليبية

النزاع بين تنكرد وبلدوين البولونى حول قيليقية :

رأينا كيف اختار بلدوين البولونى - أخو جودفرى بوايون - ومعه تنكرد ابن أخت بوهيموند النورمانى - أن ينفصلا فى ١٤ سبتمبر سنة ١٠٩٧ عن بقية الجموع الصليبية لغزو قيليقية وانتزاعها من الأتراك السلاجقة (١).

والواقع أن هذين الأميرين اشتهرا بأنهما أكثر أمراء الحملة الصليبية الأولى حباً للمخاطرة والمجازفة، حتى أن الحرب الصليبية كانت فى نظرهما لا تعدو مجرد مغامرة سياسية وحربية لغزو الشرق. وقد رأى هذان الزعيمان أنه من الخطأ إتخاذ الطريق الطويل حول كابادوقيا مارين بقيصرية ومرعش، لأن هذه الدورة الطويلة ليس لها مبرر إلا الرغبة فى تنفيذ الإتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين وتحطيم قوة الأتراك تماماً فى الأناضول، وتمكين الإمبراطورية البيزنطية من بسط سيطرتها على الأقاليم التى عرفت فيما بعد اسم «أرمينية الصغري» التى كانت تسكنها عناصر مسيحية، والتى تقع فى الجزء الجنوبى الشرقى من آسيا الصغري.

على أن تنكرد كان لا يزال حتى ذلك الوقت ممتنعاً عن الاعتراف بالاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين، ومن ثم كان حراً فى تصرفاته (٢). ويبدو أن بلدوين البولونى شارك تنكرد فى كثير من آرائه ووجهة نظره، ومن ثم تجنب الاثنان طريق كابادوقيا واتجها مباشرة نحو سهول قيليقية الخصبة التى كانت دائما موضع نزاع بين زعماء الآرمن فى طوروس من ناحية وأمراء السلاجقة من ناحية أخري، بصرف النظر عن حقوق الدولة البيزنطية نفسها فى تلك المنطقة(٣).

---

(1) Chalandon : Première Croisades, p. 172.
(2) Setton : op. cit. I, p. 296.
(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 43.

وكان إقليم قيليقية، الذى طالما دمرته الحروب بين البيزنطيين والمسلمين، قد عمرته هجرة أرمينيه ضخمة فى القرن الحادى عشر، عندما اضطرت جموع غفيرة من الأرمن - أمام غزو السلاجقة - إلى هجرة بلادهم حول بحيرة فان فى أواخر القرن الحادى عشر والاتجاه جنوباً صوب قيليقية. ولم يلبث أن صار ذلك الاقليم فيما بين سنتى ١٠٧٧، ١٠٨٣ جزء من ممتلكات فيلاريتوس - المغامر الأرمنى الذى سبق الكلام عنه - والذى استطاع أن يؤسس أول دولة أرمينية فى تلك المنطقة(١). وبسقوط دولة فيلاريتوس إستطاع الأتراك السلاجقة أن يخضعوا الجزء الأكبر من سهول قيليقية، وبخاصة مدينتى المصيصة وطرسوس. ومع ذلك فقد تمكن بعض زعماء الأرمن من الاحتفاظ باستقلالهم محتمين بجبال طوروس. ومن هؤلاء روبان Roupen الذى كان من رجال كاكج الثانى آخر ملوك الأرمن، وانتهى به الأمر إلى أن استقر حوالى سنة ١٠٨٠ داخل جبال طوروس إلى الشمال الشرقى من سيس. وبعد روبان خلفه ابنه قسطنطين الأول (١٠٩٢ - ١١٠٠) الذى استطاع أثناء قيامه بمطاردة الأتراك أن يوسع منطقة نفوذه فى جميع أنحاء قيليقية. وثمة زعيم آخر من زعماء الأرمن الذين لاذوا بجبال طوروس في تلك الفترة هو أوشين (ت ١١١٠) مؤسس بيت هيثوم الشهير في تاريخ أرمينيه الصغرى ؛ وكان هذا الزعيم الأخير يسيطر على مدينة أذنه (٢).

وعلى هذه الصورة وجد تنكرد وبلدوين البولونى قيليقية عند وصولهما إليهما فى أواخر سنة ١٠٩٧، وبصحبتهما بعض الأعوان والمرشدين الأرمن الذين سهلوا لهما مهمة الزحف(٣). وربما كانت كثرة الأرمن المسيحيين فى قيليقية من العوامل الرئيسية التى سهلت مهمة تنكرد وبلدوين البولوني، لأن معظم سكان المدن والقلاع فى ذلك الاقليم - كما لاحظ المؤرخ الصليبى وليم الصورى - كانوا من الأرمن، حتى ولو كانت تلك المدن والقلاع خاضعة للأتراك وبها حاميات تركية(٤).

لذلك كان أول ما فعله تنكرد عندما شرع فى حصار مدينة طرسوس هو الاتصال بأهلها الأرمن (٢١ سبتمبر سنة ١٠٩٧). ويبدو أن وصول جموع أخرى من الصليبيين بزعامة بلدوين البولونى قد أفزع حامية المدينة التركية، فانتهزت

(1) Grousset : Hist. des Croisades l, p. 43.
(2) lorga : L'Armenie Cilicienne, p.p. 88 - 91.
(3) Kaoul de Caen : (Hist. Occid., Tome lll) p. 634 & Albert d'Aix : (Hist, Occid) IV, p. 183.
(4) Guillaume de Tyr, l, p. 140.

فرصة الليل وفرت منها، وعندئذ أسرع سكان المدينة - من الأرمن والبيزنطيين - إلى دعوة الصليبيين إلي دخول مدينتهم. وللمرة الأولى تردد تنكرد فى تسليم طرسوس لمندوبى الإمبراطور البيزنطى - أسوة بما فعل الصليبيون حتى ذلك الوقت فى كافة المدن التى استولوا عليها - لأن تنكرد كان يطمع فى فتح قيليقية لحسابه الخاص، لاسيما وأنه لم يقيد نفسه بالاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الدولة البيزنطية (١).

والواقع أنه بوصول الصليبيين إلى قيليقية، بدأت تظهر فى وضوح أطماع الأمراء فى تأسيس إمارات خاصة بهم فى الشرق. من ذلك أن بلدوين البولونى عز عليه أن ينفرد تنكرد بمدينة طرسوس وأراد أن ينازعه ملكية هذه المدنية، عندما نصحه أحد الأرمن المرافقين له بأن يترك طرسوس لتنكرد ويتجه هو نحو إقامة إمارة لنفسه فى مدينة الرها. على أن تنكرد كان أسبق إلى التنازل والتسامح فترك طرسوس واتجه صوب أذنه (٢). وكان هناك نحو ثلثمائه رجل من أتباع تنكرد قد تخلفوا عند طرسوس، فرفض بلدوين أن يسمح لهم بدخول المدينة أو أن يمدهم بالزاد، وأجبرهم على المبيت فى ضيعة قريبة مكشوفة حيث دهمهم الأتراك أثناء الليل وقتلوهم عن آخرهم(٣). وقد أثارت هذه الكارثة حنق الصليبيين جميعا على بلدوين البولونى وجماعته بوصفهم المسئولين عما حل بتلك المجموعة من الصليبيين من قتل على يد الأتراك.

على أنه مما دعم نفوذ بلدوين فى تلك الفترة وصول أسطول قوى إلى شاطيء قيليقية، يحمل مجموعة كبيرة من الصليبيين، معظمهم من الأراضى المنخفضة بزعامة ونمار البولونى Winemar of Bologne - وهو قرصان محترف - قدم لبلدوين البولونى ثلثمائة جنديا لمساعدته، ثم أبحر بعد ذلك ليساعد تنكرد فى الاستيلاء علي الاسكندرونة (٤) أما تنكرد فكان فى تلك الأثناء قد انصرف من طرسوس إلى أذنه، ومنها إلى المصيصة التى كانت فى قبضة الأتراك رغم أن غالبيه سكانها من الأرمن (أوائل أكتوبر ١٠٩٧)(٥). وعند المصيصة ظهر التنافس مرة أخرى بين تنكرد من جهة وبلدوين البولونى من جهة أخري، إذ لم يلبث أن ظهر الأخير أمام المصيصة لينافس تنكرد فى

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 41.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 288.
(3) Albert d'Aix, (Hist Occid) IV, p.p. 346 - 347.
(4) Riant : Les Scandinaves en Terre Sainte, p. 134.
(5) Cam. : Med Hist. vol. 5, p. 288.

الاستيلاء عليها(١). ولكن تنكرد كان قد استولى على المصيصة فعلا بمساعدة أهلها من الأرمن، فأغلق أبوابها فى وجه بلدوين الذى اضطر إلى المرابطة بقواته خارجها. وكان أن حدث صدام بين القوتين، ولكنه انتهى بالصلح السريع(٢).

وهنا نؤكد مرة أخرى أن الصدام بين تنكرد وبلدوين البولونى إنما كان يحمل بين طياته معنى خفياً، هو بداية محاولات أمراء الصليبيين لإنشاء إمارات لهم فى الشرق(٣). ولكن المفروض - حسب الاتفاقية المعقودة بين الإمبراطور ألكسيوس وزعماء الصليبيين - أن تسلم قيليقية للامبراطورية، وبناء على ذلك لم يحتفظ الصليبيون فى المدن الأرمينية الرئيسية الثلاث فى قيليقية - وهى طرسوس وأذنه والمصيصة - سوى بحاميات قليلة العدد والأهمية. وحوالى سنة ١١٠٠ أرسل الإمبراطور الكسيوس كومنين قوة تسلمت المدن الثلاث السابقة. وإذا كان تنكرد قد استولى على هذه المدن مرة أخرى سنة ١١٠١، فإن البيزنطيين عادوا فاحتلوها سنة ١١٠٤(٤)وهكذا استمر الحال حتى أدى النزاع بين الزعماء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية، وبينهم وبين البيزنطيين من ناحية أخري، إلى تمكين الأرمن من إقامة دولة قومية خاصة بهم فى الطرف الجنوبى الشرقى من آسيا الصغري، وهى مملكة أرمينية الصغري.

بلدوين البولونى وأمراء الارمن فى طوروس والجزيرة :

لم يستطع بلدوين البولونى أن ينفذ فى قيليقية مشروعه الخاص بإنشاء إمارة صليبية أرمينية يتولى حكمها ؛ ولكنه ظل محتفظاً لنفسه بسرية المشروع حتى منتصف أكتوبر سنة ١٠٩٧ عندما التقى بأخيه جودفرى بوايون وبقية الجيش الصليبى الكبير عند مرعش. ولم يلبث بلدوين أن انشق بعد يومين عن بقية الصليبيين تحت ستار حماية ميسرة الصليبيين الزاحفين علي أنطاكية، ليبحث لنفسه عن إمارة جديدة صالحة فى البلاد الأرمينية(٥).

والملحوظ أنه إذا كانت هجرة الأرمن فى القرن الحادى عشر قد غيرت وجه قيليقية، إلا أن أثر تلك الهجرة كان أقل وضوحاً فى الأجزاء الشرقية الممتدة حتى الجزيرة وشمال الفرات، أى فى الجهات المحيطة بملطية وسميساط ومرعش

(1) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p.p. 172 - 173.
(2) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 28.
(3) Setton : op. cit., vol. I, 296.
(4) Chalandon : Alexis Comnene, p.p. 221 - 223.
(5) Albert d'Aix : (Hist. Occid) III, p. XXVII.

وعين تاب وتل باشر والرها. على إنه لا ينبغي أن يفوتنا أن هذه المنطقة كانت قبل قليل جزءاً من الإمارة الأرمينية التى أقامها فيلاريتوس والتى سبق أن أشرنا إليها، حتى إذا ما سقط فيلاريتوس، حل محله فى تلك البلاد بعض زعماء محليين من أتباعه(١) وفى ذلك الميدان صمم بلدوين على أن يعمل، لاسيما وأن أمراء الأرمن المحليين فرحوا بمجيء الصليبيين واعتبروا أن العناية الإلهية قد أرسلتهم لإنقاذهم مما يلاقونه من ضغط القوى الإسلامية المحيطة بهم. وإذا كان هناك ثمة احتمال بأن اتجاه بلدوين إلى تلك المنطقة الأرمينية لم يكن اعتباطا وإنما جاء بناء على رغبة حكام الإمارات الأرمينية فيها واتصال بعضهم ببلدوين أثناء وجوده فى قيليقية، فإن هذا الاحتمال يقويه أن الأرمن كانوا دائماً تواقين إلى الحصول على مساعدة الغرب والبابوية، بدليل ما هو معروف من إرسالهم أحد الأساقفة الأرمن إلى البابا جريجورى السابع - قبل ذلك بعشرين سنة - لطلب مساعدته، عندما بلغهم أن ذلك البابا يفكر فى إرسال حملة لمساعدة المسيحيين في الشرق (٢) . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الأرمن، فى تلك المنطقة الممتدة من شمال الشام إلى شمال الجزيرة، لندرك الأساس الذى قامت عليه أولى الإمارات الصليبية فى منطقة الشرق الأدني.

أما ملطية فقد انتقلت السلطة فيها إلى أحد أولئك المغامرين الأرمن من رجال فيلاريتوس، وإسمه جبريل. وقد حاول جبريل هذا أن يحتفظ بحسن العلاقات مع الامبراطورية البيزنطية، فاعتنق المذهب الأرثوذكسى ليجمع بين جنسه الأرمنى والمذهب الارثوذكسى البيزنطى (مذهب الروم الأرثوذكس) (٣). على أن السلاجقة لم يلبثوا أن أحاطوا بأراضيه من جميع النواحي، مما دفع جبريل إلى الإسراع بالدخول فى تبعية السلطان السلجوقى والخليفة العباسي. ولهذا الغرض أرسل جبريل زوجته إلى بغداد لإعلان تلك التبعية، وعادت الزوجة وهى تحمل لزوجها تأكيداً بضمان بقائه فى إمارته (٤). ثم أن جبريل لم يتردد فى مقاومة الأتراك عندما هددوا إمارته. من ذلك أنه حدث سنة ١٠٩٦ أن تعرضت ملطية لحصار قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، وعندئذ أبى جبريل فى إصرار تسليم

(1) Grousset : L'Empire du Levant; p.p. 182 - 183.

(2) Runciman : op. cit I, p.p. 202 - 203.

والمعروف أن الأرمن لهم كنيسة مستقلة قائمة بذاتها لا ترتبط بأية كنيسة أخري في الشرق أو الغرب. وقد خرجت هذه الكنيسة علي قرارات مجمع خلقدونية سنه ٤٥١ الذي أدان مذهب الطبيعة الواحدة.

(3) Guillaume de Tyr (Hist. Occid) Tome, I, p. 437.

(4) Michel Le Syrien, III, II, p. 179.

مدينته. وإذا كان السريان فى ملطية قد أظهروا دائما عداءاً للحكم البيزنطى الأرمني، حتى أن حنا سعيد زعيم السريان فى ملطية اتصل فعلا بالسلاجقة، إلا أن جبريل أحبط تلك المحاولة وأعدم حنا فى أوائل يوليو سنة ١٠٩٦ (١). وهكذا حتى تعرض السلاجقة لضغط الصليبيين، ونزلت الكوارث تترى على قلج أرسلان فى نيقية وضورليوم وغيرهما، فخف ضغط السلاجقة مؤقتاً عن ملطية ليهددها خطر المسلمين من ناحية أخري، هى ناحية التركمان من بنى دانشمند فى سيواس. ذلك أن صاحب سيواس – الملك غازى كمشتكين – لم يلبث أن انتهز فرصة ماحل بالسلاجقة من مصائب ليحاول أن ينفرد هو بملطية. وقد استمر الملك غازى يهدد ملطية ثلاث سنوات متتالية، مما جعل حاكم ملطية يتجه نحو الصليبيين طالباً المساعدة.

أما مرعش فقد رأينا كيف سلمها الصليبيون لمندوبى الإمبراطور البيزنطى بعد أن خلصوها من الأتراك فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ على أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أدرك أن المدينة أرمينية قلباً وقالباً، من ثم رأى أن يعهد بحكمها إلى أحد الزعماء الأرمن وإسمه ثاتول Thatoul الذى ظل يحكم مرعش حتى انتزعها منه الصليبيون سنة ١١٠٤ (٢).

وفى شرقى مرعش ظهر مغامر أرمنى آخر – هو كوغ باسيل – الذى بسط سيادته على قلعتى كيسون (كيسوم) ورعبان، قرب بهسنا. وكوغ باسيل هذا أخو باكراد الذى رافق بلدوين البولونى بعد نيقية (٣)، والذى وجه نظره نحو تلك المنطقة الأرمينية. ويبدو أن هذين الأخوين كانا يتمتعان بنفوذ واسع ومكانة خاصة فى تلك المنطقة (٤).

أما الرها فكان يحكمها زعيم أرمنى أخر هو ثوروس Thoros ابن هيثوم الذى كان أيضاً من رجال فيلاريتوس. وكانت الرها بعد وفاة فيلاريتوس قد خضعت للسلاجقة فترة عصيبة من تاريخها عندما منحها السلطان ملكشاه للأمير بوزان سنة ١٠٨٧. على أن النزاع الذى استحكم فى تلك الفترة بين أمراء السلاجقة مكن ثوروس من الوصول إلى حكم الرها ١٠٩٥ ؛ وإن كان قد تجنب

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 50.
(2) Chalandon : Les comnenes, II, p. 105.
(٣) يذكر ابن العبري أن كوغ باسيل معناها اللص باسيل لأنه سرق عدة قلاع من الثغور فتملكها الأرمن إلي الآن (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩).
(4) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 23.

الدخول فى صراع مباشر مع السلاجقة أنفسهم، ولو بشراء مساعدة بعض قبائلهم بالمال (١). وفى الوقت نفسه اعتمد ثوروس على سند شرعى فى حكم الرها هو الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطى (٢). ومع كل ذلك فإن الرها ظلت مهددة باستمرار من جانب السلاجقة نظراً لإحاطتهم بها، مما جعل ثوروس ينظر بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق الأدني.

هذا من ناحية الأرمن، أما من ناحية الصليبيين فيلاحظ أنهم أيضا كانوا فى حاجة ماسة إلى مساعدة الأرمن فى تلك المنطقة. وهكذا وقف المسيحيون الأرمن على مشارف الشام ليفتحوا أبواب الوطن الاسلامى في الشرق الأدنى أمام الصليبيين، لاسيما وأن معظم سكان الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة كانوا فعلا من الأرمن المسيحيين، رغم تفوق الأتراك الحربى والسياسى فى تلك الجهات (٣). وكانت هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحا فى منطقة تل باشر - علي الطريق بين الرها وأنطاكية - وفى منطقة الرواندان على الطريق بين مرعش وأنطاكية. وإلى هذه المنطقة بالذات اختار باكراد - الرفيق الأرمنى لبلدوين البولونى - أن يوجهه عندما ترك الأخير مرعش (٤).

بلدوين البولوني والرها :

إستطاع الأمير بلدوين أن يحرز تقدماً كبيراً، وأن يستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع فى شمال الجزيرة، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرمنى الذى كانت له السيادة فى تلك الجهات، والذى نظر إلى تقدم الصليبيين بعين الرضا للخلاص من حكم الأتراك المسلمين (٥). وهكذا لم يصادف بلدوين البولونى صعوبة فى الاستيلاء على تل باشر والرواندان، بفضل مساعدة الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركية من ناحية وضعف تلك الحاميات من ناحية أخري. وقد أراد بلدوين أن يكافيء رفيقه الأرمنى باكراد، فمنحه حكم الراوندان، ولكنه عاد وتشكك فى ولاء باكراد له فاعتقله (٦).

وفى تلك الأثناء كان ثوروس حاكم الرها قد سمع بنجاح الصليبيين في الاستيلاء على تل باشر من السلاجقة، فأرسل إلى بلدوين يدعوه للحضور إلى

(1) Guibert de Nogent. III. p. 156.
(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Arm) I, p. 35.
(3) Guillaume de Tyr : I, p. 123.
(4) Stevenson : op. cit., p. 23.
(5) Ibid.
(6) Michaud : op. cit. I, 228.

الرها لمساعدته (فبراير ١٠٩٨) . وكان ثوروس رجلا مسناً، ليس له ولد يرثه في إمارته، فخشى أن تضيع الرها من يد المسيحيين ويستولى عليها الأتراك المسلمون [1]. وزاد من مخاوف ثوروس أن كربغا (كربوقا) صاحب الموصل كان يعد عندئذ جيشاً كبيراً لإنقاذ أنطاكية من الخطر الصليبي، مما جعل ثوروس يتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش - هو فى طريقه إلى الشام - الرها وغيرها من الإمارات الأرمينية [2].

ومهما يكن من أمر، فإن تلك الاستغاثة صادفت هوى فى نفس بلدوين البولوني، لما فيها من تحقيق لأطماعه السياسية، فأسرع إلى الرها فى فبراير سنة ١٠٩٨ على رأس قوة صغيرة من ثمانين فارساً، واستطاعت تلك القوة أن تفلت من الوقوع فى قبضة حامية سميساط التركية. وكانت فرحة أهل الرها وحاكمها بتلك النجدة عظيمة، فاستقبلوها استقبالا حافلا [3]كما استقبلها رجال الدين الأرمن بغبطة بالغة، مما يشير إلى أنه لم تكن هناك فجوة واسعة بين الكنيستين الأرمينية والكاثوليكية اللاتينية، مثلما كان بين الكنيسة الأرمينية من ناحية والأرثوذكسية الرومية من ناحية أخرى [4].

والواقع أن سميساط - بمن فيها من أتراك - كانت العدو اللدود لإمارة الرها الأرمينية. ولذلك طلب ثوروس حاكم الرها من بلدوين أن يبدأ بمهاجمة تلك المدينة، فاستجاب بلدوين لذلك الطلب وأخذ يهاجم سميساط فى النصف الثانى من فبراير سنة ١٠٩٨ . وقد ساعد بلدوين فى تلك العملية جيش من الأرمن، وتمكن بفضل هذه المساعدة من الاستيلاء على الضياع المكشوفة التابعة لسميساط. وبينما المحاربون المسيحيون مشغولين بنهب تلك الضياع، إذا بقوة من الأتراك تباغتهم وتقتل نحو ألف من الأرمن [5].

ويبدو أنه من الصعب تحديد موقف بلدوين البولونى من ثوروس أمير الرها فى تلك المرحلة، وإن كان من الراجح أن فرار جنود الرها من معركة سميساط

---

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar.) I, p. 35.
(2) Runciman : op. cit., p.p. 203 - 204.
(3) Matthieu d'Edesse, I, p. 36.
(4) Guillaume de Tyr I, p. 156.

وجدير بالذكر أن ابن الأثير عندما أشار إلي إمتلاك الصليبيين الرها قال إنهم ملكوا مدينة الرها مكاتبة من أهلها لأن أكثرهم أرمن، وليس بها من المسلمين إلا القليل
(الكامل : حوادث سنة ٤٩٤ هـ)

(5) Grousset : op. cit., I, p. 55.

جعل بلدوين يفكر فى ضرورة تحويل إمارة الرها الأرمينية إلى إمارة لاتينية – أرمينية. أما ثوروس فكانت فكرته الأولى عندما استنجد ببلدوين هى أن يجعل منه قائداً لجيشه، وأن يجعل من الصليبيين جنداً مرتزقة يعملون تحت إمرته، ويدافعون عنه وعن بلده مقابل ثمن يتفق عليه. ولكن بلدوين كان لا يمكن أن يرضى بذلك الوضع الذى يتعارض مع أطماعه وآماله. ويقال إن البحث فى هذا الموضوع بالذات كان قد تم أثناء وجود بلدوين فى تل باشر قبل حضوره إلى الرها، وأن بلدوين اشترط عندئذ أن يتبناه ثوروس ويتخذه إبناً ووريثاً وشريكا له فى حكم الرها. ولم تكن هذه الشروط قاسية بالنسبة لثوروس لعدم وجود أبناء له يرثونه فى حكم الرها من ناحية ؛ ولتقدم سنه من ناحية أخرى (١). ولما كان ثوروس أشد ما يكون حاجه إلى مساعدة بلدوين، فقد انتهى الموقف بأن تبنى ثوروس بلدوين ونادى به وريثاً له فى حكم الرها، وتمت مراسم التبنى وفقاً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة الأرمينية فى القرن الحادى عشر (٢).

وهكذا صار هناك نوع من الوصابة الصليبية اللاتينية على إمارة الرها الأرمينية ؛ وبحكم هذه الوصاية أصبح العنصر اللاتينى هو البديل الطبيعى للعنصر الأرمنى فى حكم الرها. على أنه يبدو أن الأرمن كانو منقسمين على أنفسهم داخل الرها. بل لقد نقم بعضهم على ثوروس بسبب اعتناقه المذهب الأرثوذكسى واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطي. هذا فضلا عن عجز ثوروس عن حماية محاصيل الأهالى ومتاجرهم من عدوان السلاجقة، وتعسفه فى جمع الضرائب والأموال من الأهالى الخاضعين له (٣). ولم تلبث أن أتيحت الفرصة لأهل الرها للتعبير عن استيائهم بوصول بلدوين إليهم، فقامت ثورة عارمة فى الرها فى مارس سنة ١٠٩٨، وهي الثورة التى انتهت بقتل ثوروس وانتقال مقاليد الأمور فى الرها إلى يد بلدوين البولوني.

ومع أن أقوال المؤرخين المعاصرين تشهد كلها على أن تلك الثورة كانت داخلية، حركها وأشعلها فريق من أهل المدينة الأرمن (٤)، إلا أننا لا يمكن أن نبرأ بلدوين تماماً من تهمة المشاركة – ولو بنصيب محدود – فى تحريض الثوار، أو علي الأقل من تهمة التفريط فى حياة ثوروس ودمه، وعدم القيام بواجبه كاملا في

(1) Runciman : op. cit. I, p. 204.
(2) Guibert de Nogent : (Hist. Occid.,) IV, p. 165.
(3) Michaud : op cit. I, p. 233.
(4) Albert d'Aix, pp. 345 - 356. & Guillaume de Tyr ; I, p. 206.

حمايته. ولا أدل علي صحة هذا الاتهام من سياسة بلدوين في الرها، إذ حرص دائما على أن يكتسب مكانة شعبية فى نفوس الأهالي، فضلا عن أنه لم يحاول أن يسرع لإنقاذ ثوروس من يد الثوار، بل علي العكس نصحه بالاستسلام(١). بالإضافة إلى كل ذلك فقد أشارت بعض المصادر إلى إتصال المتآمرين علي حياة ثوروس ببلدوين سراً فى ليلة من ذات الليالي، وأنهم عرضوا عليه تفاصيل مؤامرتهم، ووعدوه بتسليمه زمام الحكم فى المدينة عقب التخلص من ثوروس(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد أدت ثورة مارس سنة ١٠٩٨ إلى أن أصبح بلدوين البولونى سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها. وهكذا استطاع بلدوين أن يحقق آماله وأن يصل إلى أهدافه، بل أنه كان اول أمير بين زعماء الحملة الصليبية الأولى استطاع أن يمكن لنفسه فى الشرق ويحقق أطماعه السياسية بتأسيس إمارة لنفسه ينفرد بحكمها. حقيقة أن الرها لم تكن فى الأراضى المقدسة ذاتها، ولكن أهميتها فى تاريخ المسيحية الأول معروفة (٣). هذا فضلا عن أن موقعها فى شمال الجزيرة جعل تلك الإمارة الصليبية الجديدة على جانب كبير من الأهمية فى حماية ممتلكات الصليبيين بالشام ضد أى هجوم يأتى من الشرق.

ومن الواضح أن بلدوين لم يكن حريصاً على الوفاء بتعهداته للامبراطور البيزنطي، فتناسى أنه وريث ثوروس الذى ربطته بالامبراطورية البيزنطية علاقة تبعية واضحة (٤). ثم إن الظروف التى أصبح فيها بلدوين البولونى سيد الرها ساعدته على اتخاذ هذا الموقف من الإمبراطورية البيزنطية، لأنه تولى مقاليد الأمور فى الرها نتيجة لثورة شعبية وبتفويض من أهل المدينة، مما جعله يتحلل من أى قيد يربطه بالعرش البيزنطي، فى الوقت الذى كان بلدوين قد أخذ يتحرر فعلا من التزامات الاتفاقية التى عقدها زعماء الصليبيين فى القسطنطينية مع الإمبراطور ألكسيوس كومنين. وهكذا يبدو أنه إذا كانت حكومة ثوروس اتصفت بمسحة بيزنطية أرمينية، فإن حكومة بلدوين صارت ذات صبغة لاتينية أرمينية.

---

(1) Runciman : op. cit., I, p. 206.
(2) Matthieu d'Edesse, I, pp. 37 - 38.
(٣) كانت مدينة الرها من أولي البلدان التي قامت بها جالية مسيحية كبيرة في الشرق الأدني، كما ترجمت فيها أجزاء من العهد الجديد إلي اللغة السريانية في القرن الثاني للميلاد وأسهمت مدرستها إسهاما ضخما في تطور الفكر المسيحي.
انظر Wand (J.W.C) : AHistory of the Early Church to A.D.500
Ps. 48, 62, 244, 246, 259 f.
وكذلك Burkit Early Eastern Christianity
(4) Grousset : op. cit., I, p.p. 60 - 61.

وتبدو أهمية ذلك كله في إن اتفاقية القسطنطينية بين زعماء الصليبيين والإمبراطور البيزنطي تم إعدامها فعلا في الرها قبل أن يستولي الصليبيون علي أنطاكية ويدخلوا في نزاع حول ملكيتها مع الإمبراطورية البيزنطية (١). أما الإمبراطور الكسيوس كومنين فلم يكن عندئذ في مركز يسمح له بتأكيد حقوقه في الرها، لبعدها عن مركز قوة الإمبراطور، لذلك فضل ألكسيوس أن يتغاضى مؤقتاً عما جرى في الرها من أحداث وعن إستقلال بلدوين بها حتى تمكنه الظروف في المستقبل من تأكيد حقوق الامبراطور في تلك المنطقة بصورة عملية (٢).

وسرعان ما أحس بلدوين بضرورة القيام ببعض الأعمال التي تعلي من شأنه في نظر رعاياه الجدد من الأرمن، وتضفي على حكمه في الرها قسطاً من الشرعية والأهمية. لذلك أخذ بلدوين يجدد جهوده للاستيلاء على سميساط، وهي المدنية التي كان وقوعها على الضفة المقابلة للفرات، مهدداً الرها. وكان أن وفر أمير سمسياط التركي على بلدوين عناء الحرب، إذ أدرك ذلك الأمير صعوبة الدفاع عن إمارته بعد أن تبدلت الأوضاع في الرها، فعرض على بلدوين بيعه سميساط مقابل عشرة آلاف دينار من الذهب. ولم يجد بلدوين صعوبة في الحصول على هذا المبلغ، إذا كان في خزانة أمير الرها الراحل – ثوروس – مبالغ طائلة، دفع منها بلدوين الثمن المطلوب واستولى على سميساط. وقد وجد بلدوين في قلعة سميساط عدداً كبيراً من الأسرى والرهائن الأرمن – معظمهم من أبناء الرها – فردهم إلى أهلهم وذويهم، مما أكسبه شعبية بين أهل الرها (٣).

على أن أهل الرها لم يقنعوا بالاستيلاء على سميساط وإنما طمعوا في اخضاع مركز آخر قريب في الجنوب الشرقي، هو حصن سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب. وكان صاحب تلك القلعة عندئذ هو نور الدولة بلك بن بهر ام ابن أرتق، أي أنه انتمى إلى الأراتقة، وهم بيت من التركمان ظلوا يسيطرون على بيت المقدس، حتى إذا ما تعرضوا لضغط الفاطميين نزحوا إلى الشمال الشرقي، حيث أسسوا – عدة إمارات في ديار بكر وشمال الجزيرة(٤). ويبدو أن بلك لم يدرك طبيعة الإمارة الصليبية الجديدة التي قامت في الرها، وظن أن بلدوين لايعدو أن يكون مغامراً من نوع رسل باليل، فأرسل إليه يطلب منه المعونة ضد

(1) Runciman : op. cit., I., p. 206.
(2) Setton : op. cit., I, p. 304.
(3) Guillaume de Tyr, I, p. 159.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ١٩٧ ، ٢٠٢.

رعاياه من العرب الذين رفضوا دفع ما عليهم من أموال. وكان أن زحف بلدوين علي سروج ومعه آلات الحصار، فخاف أهلها وأرسلوا رسلهم إليه يعلنون رغبتهم فى تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية. وهكذا استولى بلدوين على سروج، فعزل بلك وضمها إلى أملاكه (١). ولا شك فى أن الاستيلاء على سروج جاء متمماً لفتح الرها ومؤمناً لهذا الإمارة الجديدة (٢).

وقد أكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة ١٠٩٩، وهى قلعة على نهر الفرات ذات موقع حربى هام، علي الطريق بين الرها وعينتاب (عين تاب) (٣). على أنه لم يلبث أن تخلى عن البيرة لأحد زعماء الأرمن المحليين كما سنرى فيما بعد.

أما عن سياسة بلدوين فى حكم الرها فقد قامت على أساس الربط بين العناصر المختلفة التى صارت تتألف منها الإمارة، وبخاصة الصليبيين الغربيين من ناحية والأرمن من ناحية أخري. وقد ضرب بلدوين نفسه مثلا لهذا الترابط بزواجه من الأميرة أردا Arda، وهى إبنة أحد زعماء الأرمن (٤). على أنه إذا كانت سياسة بلدوين قد أستهدفت الربط بين العنصرين، إلا أنه من الواضح أن بلدوين نفسه كان حريصاً فى الوقت ذاته على أن يظل العنصر الأرمنى خاضعاً للعنصر اللاتينى الغربي، لذلك جذب بلدوين إلي الرها عدداً كبيرا من الصليبيين الغربيين وأغدق عليهم المنح والأموال. ولكن هؤلاء عاشوا بعيدين عن الاختلاط بالأرمن، مما أساء كثيراً إلى شعورهم (٥). ذلك أن الصليبيين الغربيين لم يلبثوا أن أصبحوا بمثابة أرستقراطية عسكرية فى الرها تحكم شعباً من الأرمن يشتغل أفراده بالتجارة والزراعة. حقيقة إن هذه الأرستقراطية لم تضطهد الأرمن مذهبياً – مثلما كان يفعل البيزنطيون – فظل التسامح المذهبى يسود العلاقات بين اللاتين

(1) Albert d'Aix (Hist. Occid. IV). pp. 356 - 357 . 445 - 446.

(٢) أما رواية الأبن الأثير عن استيلاء بلدوين علي سروج، فيقول فيها إن النزاع لم يكن بين بلدوين وبلك بن بهرام، وإنما بين بلدوين وسقمان (سكمان) بن أرتق نفسه وهو الذي كان في وقت ما صاحب بيت المقدس. ويذكر ابن الأثير أن سقمان هذا حاول غزو الرها بجيش كبير من التركمان ولكنه هزم واستولي الفرنج علي سروج، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمها ونهبوا أموالها.
(ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٤ هـ.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. 402.

(4) Guillaume de Tyr, p. 402.

(5) Michaud : op. cit. I, p. 235.

والأرمن ولكن سرعان ما استولى الوافدون الجدد من الصليبيين على الضياع الزراعية التابعة للرها خارج أسوارها واضطر من عليها من الفلاحين الأرمن إلى إلى العمل فى ظل قيود النظم الإقطاعية المعروفة فى الغرب الأوربي، فضلا عن أن الضرائب التى كان يدفعها أهل الرها لم تخف، عما كانت عليه أيام ثوروس (١).

لذلك لا عجب إذا استاء الأرمن من حكم السادة الصليبيين وأخذوا يدبرون مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم، فاتصلوا بالأراتقة سراً للحصول علي المساعدة. ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعوقب زعماؤها عقاباً قاسياً فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٠٩٨ (٢).

(1) Runciman : op. cit., I, p. 211.
(2) Albert d'Aix, p. 443, & Guillaume de tyrp. 285.

الفصل الخامس

الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة فارس

الصليبيون أمام أنطاكية :

وفى الوقت الذى كان بلدوين البولونى يعمل فى محيط الأرمن بالجزيرة زحف بقية الجيش الصليبيى الكبير على الشام قاصداً أنطاكية، وهي العاصمة البيزنطية القديمة لشمال الشام. وقد أحدث وصول الصليبيين إلى مشارف الشام هلعاً كبيراً في قلوب الأهالي، لأن كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر جديد من نوع غير عادي. وعبر عن ذلك ابن القلانسى بقوله إن الصليبيين وصلوا «فى عالم لا يحصى عددة كثرة وتتابعت الانباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها» (١) وكان الصليبيون قد غادروا مرعش فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ بعد أن تزودوا بالطعام والماء. ثم استولوا على حصن بغراس وقلعة أرتاح في الطريق. ولم تلبث أن وصلت طلائع الجيش الصليبى بقيادة بوهيموند أمام مدينة أنطاكية فى ٢١ أكتوبر(٢).

أما عن مدينة أنطاكية هذه فقد ذكرنا أن آخر حكامها من قبل الإمبراطورية البيزنطية كان فيلاريتوس الأرمني، حتى انتزعها منه زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش فى فبراير سنة ١٠٨٥ . وعندما تغلب تتش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا وقتله سنة ١٠٨٦ صارت أنطاكية من أملاك تتش، حتي اختار أخوه السلطان ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله من التركمان، وهو ياغى سيان سنة ١٠٨٧(٣). وكان ياغى سيان هذا على درجة من الكفاية السياسية مكنته من اكتساب رضاء تتش بعد وفاة ملكشاه، حتى إذا ما توفى تتش ظل ياغى سيان

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤.
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣١ (مطبوع)
(٣) ذكرته بعض المصادر باسم ياغي بسان ؛ ويقول الدكتور زكي محمد حسن : إن هذا النطق للاسم هو الأصح (زامباور : معجم الانساب ص ٢٢١)
ومع اعترافنا بجواز هذا الرأي ؛ إلا أننا آثرنا استخدام الصيغة الشائعة للاسم في غالبية المصادر المعاصرة.

محتفظاً بأنطاكية، دون أن يستطيع ملك حلب - رضوان بن تتش - انتزاعها منه. وهكذا قدر لذلك الأمير التركماني - ياغي سيان - أن يظل محتفظاً بأنطاكية ليتولى مسئولية الدفاع عنها ضد جحافل الصليبيين (١) .

ولم يكن الشقاق بين ياغي سيان أمير أنطاكية وسيده رضوان بن تتش ملك حلب هو العامل الوحيد الذي سهل مهمة الصليبيين في شمال الشام ؛ وإنما حدث في الفترة نفسها التي أخذت الجيوش الصليبية تتدفق من غرب أوربا إلى الشرق (١٠٩٦ - ١٠٩٨) أن قامت حرب أهلية بين ابني تتش - رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق - بسبب رغبة الأول في انتزاع دمشق من أخيه (٢) . وكان أن زحف رضوان - يصحبه ياغي سيان - على دمشق لطرد دقاق منها، ولكنه فشل في ذلك «وارتد عائداً إلى حلب خائباً في الأمر الذي طلب» (٣) ولم يلبث أن ترك ياغي سيان جانب رضوان وانضم إلى أخيه وغريمه دقاق، وأغراه على أن يقوم بمهاجمة رضوان في حلب. ولكن دقاق فشل هو الآخر في هجومه على حلب على الرغم من مساعدة ياغي سيان له (٤) .

هذه هي بعض الأحداث التي كانت تجرى على مسرح الشام ساعة وصول الصليبيين إليه في أكتوبر سنة ١٠٩٧(٥)ومنها يتبين أن ياغي سيان بخيانته لسيده ملك حلب حرم من الحصول على مساعدة أقرب القوى الإسلامية إليه عندما دهمه الخطر الصليبي في أنطاكية. ويقول ابن العديم أن استبداد ياغي سيان وتعسفه أثارا استياء المسيحيين في شمال الشام وبخاصة في أرتاح، مما جعلهم يفرحون لظهور الصليبيين ويطلبون العون منهم(٦) .

أما مدينة أنطاكية نفسها فكانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً ، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية (٧) .. ذلك أن

(١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولي ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) وقد كان الملك فخر الملوك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب مائلا إلي دمشق ومحبا لها ومؤثراً للعود إليها، ولا يختار عليها سواها، لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيها.
(ابن القلانسي : ١٣١ - ١٣٢) .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٣٢ .

(٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(5) Stevenson : the Crusaders, p. 25.

(٦) وفعل أهل أرتاح مثل ذلك، واستدعوا المدد من الفرنج. وهذا كله لقبح سيرة ياغي سيان وظلمه في بلاده.
(ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٣١ - (مطبوع) .

(7) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 72.

الجبال العالية أحاطت بها من جهتي الجنوب والشرق، في حين كان يحدها من جهة الغرب مجرى نهر العاصي، ومن الشمال مستنقعات وأحراش، فضلا عن قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها(١). وعندما وصل بوهيموند ومعه رجاله من النورمان إلى أنطاكية اتخذوا موقعهم فى الجهة الشمالية للمدينة، أى عند باب بولس. ثم جاء بعد ذلك روبرت أمير فلاندرز، وروبرت أمير نورمنديا، وهيو أمير فرمندوا، وستفن (إتين) أمير بلوا، فاتخذوا جميعهم موقعهم بين باب بولس وباب الكلب. أما ريموند والمندوب البابوى أدهمار ومعهم فرسان بروفانس، فاستقروا أيضا على مقربة من باب الكلب، إلى الجهة الغربية منه. وأخيرا عسكر جودفرى بوايون في الجهة الشمالية الغربية، أى فى مواجهة باب الجنينة (٢).

وكانت غالبية أهل أنطاكية فى ذلك الوقت من السريان والأرمن . وعندما علم ياغى سيان صاحب أنطاكية باقتراب الصليبيين «خاف من النصارى الذين بها، ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمى المدينة . ولما أرادوا دخول أنطاكية ، عند العصر ، منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين فى حصارهم ، فى حين تحفظ هو على أهلهم ، وكف أيدى المتطرقة إليهم» (٣).

هذه هى الرواية العربية عن موقف أهل أنطاكية المسيحيين . أما الرواية اللاتينية فتختلف تماماً ، لأنها تقول أن « الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين نساءهم وأولادهم بالمدينة فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة» (٤). ومن هاتين الروايتين المتناقضتين يبدو لنا أن أهل أنطاكية ، من السريان والأرمن تنازعهم تياران متعارضان ، فقرروا الانتظار حتى يروا من المنتصر وعندئذ ينضمون إلى جانبه . هذا إلى أنه من المحتمل أن يكون ياغى سيان قد اتخذ إجراءات تعسفية ضد المسيحيين فى أنطاكية عندما علم باقتراب الصليبيين فزج بالبطرق فى السجن وطرد كثيراً من أعيان المسيحيين ، واستولى رجاله على

(١) ذكر ياقوت الحموي عن أنطاكية ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم. من الثغور الشامية. وهي من أعيان البلاد وأمهاتها ... وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل. ولسوره ثلاثمائه وستون برجا يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ... وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد مع الجبل الي قلته فتتم الدائرة ...
(معجم البلدان، مادة أنطاكية)

(2) Guillaume de Tyr I, pp. 174 - 175.

(٣) ابن الاثير : الكامل (حوادث ٤٩١ هـ)

(4) Gesta Francorum, p. 69 .

كتدرائية القديس بطرس واتخذها اسطبلا لخيوله ، وفقـاً للروايات الصليبية ، التى لاتخلو من مبالغة (١).

ومهما يكن من أمر ، فإن حصار الصليبيين لأنطاكية ، استمر سبعة أشهر - من ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧ حتى ٣ يونية ١٠٩٨ (٢) - وكان من الممكن ألا تطول مدة الحصار على هذا النحو ، لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم، ولم يضيعوا وقتاً طويلا فى الانتظار والتفكير ، لاسيما وأن جميع الشواهد تشير إلى حالة الفزع والارتباك التى استولت على الأتراك داخل أنطاكية عندما علموا بوصول الصليبيين . وزاد من موقف الصليبيين قوة أنهم أمنوا طريق الاتصال فيما بينهم وشاطئ البحر ، وذلك عندما وصل إلى ميناء السويدية - عند مصب نهر العاصى - فى حوالى ١٧ نوفمير سنة ١٠٩٧ أسطول جنوى يحمل إمدادات هامة للصليبيين (٣).

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بينما كانت الجيوش الصليبية تخترق الأناضول فى طريقها إلى الشام ، دأبت الأساطيل الإيطالية والفلمنكية والسكندناوية على مساعدة الصليبيين . من ذلك أن المغامر ونمار البولونى استطاع أن يستولى فى أغسطس سنة ١٠٩٧ على ميناء اللاذقية من الأتراك . وبعد ذلك بعدة شهور - أى فى ربيع سنة ١٠٩٨ - زار اللاذقية أسطول إنجليزى بقيادة إدجار اثلنج وروبرت جودفنسن .(٤).

أما ياغى سيان ، فقد حاول فى تلك الأثناء الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين . وكان من الطبيعى ألا يأمل فى مساعدة رضوان ملك حلب بعد أن تخلى عنه فى العام السابق ، فارسل ابنه شمس الدولة إلى دقاق ملك دمشق ، كما أرسل إلى جناح الدولة أمير حمص وكربغا أتابك الموصل ، فضلا عن سلطان سلاجقة فارس والخليفة العباسى ، وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على الخوف إلى الجهاد . وقصد تحصين أنطاكية وإخراج النصارى منها (٥). وفى الوقت نفسه أعد ياغى سيان عدته لحصار طويل ، فشحن

---

(1) Runciman : op. ct., I, p. 214 - 215 .

(٢) حدد ابن الأثير مدة الحصار بتسعة أشهر (الكامل ، حوادث ٤٩١ هـ) .

(3) Raymond d'Agiles (Hist. Occid. III), p. 242 & Carfo (Hist., Occid V) , p.50 .

(4) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. 133 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

القلاع بالجند والمقاتلين ، واختزن داخل أسوار المدينة المؤن الكافية (١) .

وعندما طال حصار أنطاكية ، أخذ الصليبيون يوجهون جزءاً كبيراً من نشاطهم نحو القرى والضياع القريبة - وبخاصة فى حوض نهر العاصى - لنهبها والحصول على الميرة والغذاء . ويبدو أن ياغى سيان أحس بابتعاد تلك القوة من الصليبيين ، فخرج فجأة من المدينة وقام بهجوم مباغت على بقية الصليبيين . وكاد ينجح فى تفرقة شملهم لولا مهارة ريموند التى أنقذت الموقف ، وعندئذ عاد ياغى سيان ورجاله إلى داخل المدينة (٢). وفى ذلك الوقت تجمعت قرب شيزر نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية ، على رأسها دقاق السلجوقى ملك دمشق وبصحبته طغتكين أتابك ، وأمير حمص العربى جناح الدولة حسين بن ملاعب . وعندما علم هؤلاء الأمراء المسلمون أن جزءاً من الجيش الصليبى بقيادة بوهيموند النورمانى وروبرت أمير فلاندرز - يزحف على امتداد نهر العاصى ، قرروا الخروج لملاقاتهم ، فدارت معركة بين الطرفين عند البارة فى نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧(٣). ويفهم مما ذكره ابن العديم أن المسلمين تفوقوا على الصليبيين فى ذلك الاشتباك ، وأنهم قتلوا منهم جماعة(٤).

ويبدو أن تلك المعركة نبهت الصليبيين إلى عدم المغامرة بالابتعاد عن مراكزهم جنوباً ، فاكتفوا بالإغارة شرقاً حتى معرة مصرين حيث «قتلوا من وجدوا وكسروا منبرها» (٥). على أن هذه الانتصارات المحلية لم تحقق للصليبيين ما كانوا يرجونه من زاد وطعام ، فعادوا إلى أنطاكية «منتصرين ولكن الأيدى خاوية والبطون خالية» ، على قول أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين(٦).

وهكذا أخذ شبح المجاعة يهدد الصليبيين أمام أنطاكية ، ولم تكفهم المعونة المتقطعة التى كانت تأتيهم من قبرص والغرب حيناً ، وتنقطع أحياناً . وتحت تأثير الجوع والإنهاك نشبت الفوضى وسوء النظام بين الجند(٧) . وفى تلك الظروف

(1) Runciman : op. cit. I, p. 215 .
(2) Idem. p. 202 .
(3) Stevenson : op. cit., p. 26 .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٢ (مطبوع) .
(٥) المصدر السابق ج٢ ص ١٣٢ .

(6) Raymond d'Aigles (Hist, Occid. III) p. 245 .
(7) Guillaume de Tyr, I, p. 188 .

والمعروف أن بطرق بيت المقدس السابق - واسمه سيمون - كان مقيما عندئذ بقبرص فدأب علي إرسال المال والمأكولات والنبيذ من الجزيرة إلي الصليبيين أمام أنطاكية لانه رأي في انتصار الصليبيين الغربيين - رغم اختلاف المذاهب - انتصاراً للمسيحية ، ونيلا من المسلمين . أنظر (Runciman : op. cit., pp. 222 - 223) .

الحرجة والأوضاع الصعبة ، أخذ بعض الصليبيين يفرون من المعركة ويتسللون عائدين خفية . ولم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين ، بل أن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون اختفيا فجأة ، فجد تنكرد فى إثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيموند الذى وبخهما علناً لهروبهما ، وأخذ عليهما تعهداً بعدم ترك الجيش الصليبى حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس (١) .

بوهيموند ومشكلة انطاكية :

وفى وسط تلك المخاطر والأوضاع الصعبة التى أحاطت بالصليبيين أمام أنطاكية ، أخذ بوهيموند يبدو فى صورة الرجل القوى الذى تركزت فيه آمال الصليبيين ، ولكن بوهيموند لم يعمل فى ذلك الدور لوجه الرب والصليب فحسب ، ولم يبذل مابذله من جهود حرصاً على ولائه للامبراطور البيزنطى وليسلمه إلى ماشاء الله ثمار جهده وجهود الصليبيين . وإذا كان بوهيموند قد حافظ حتى ذلك الوقت على تعهده الذى قطعه على نفسه فى القسطنطينية للامبراطور ألكسيوس كومنين ، وسلم للامبراطور كل ما استولى عليه من بلاد فى آسيا الصغرى ، فإن هذه السياسة كانت لايمكن أن تستمر . وهكذا أخذت سياسة بوهيموند تجاه ألكسيوس والإمبراطورية البيزنطية تتغير أثناء حصار أنطاكية ، وهو التغير الذى ترتب عليه حدوث تحول خطير فى تاريخ الحروب الصليبية . ذلك أن بوهيموند أدرك أن الإمبراطور البيزنطى لن يوافق مختاراً على منحه أنطاكية ، فلم يبق إذاً سوى أن يحصل عليها رغم إرادة الإمبراطور(٢) .

وقد نفذ بوهيموند خطته فى براعة فائقة ، فاختار أصعب أوقات الحصار وأشدها حرجاً – فى أوائل يناير سنة ١٠٩٨ – ليعلن أنه أزمع الانسحاب والعودة إلى إيطاليا ، وأنه لايستطيع الاستمرار فى تلك العملية الحربية الطويلة التى لم يكن مستعداً لها . ولايمكنه أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله ، وهم يتساقطون كل يوم صرعى من الجوع والبرد أمام أسوار أنطاكية (٣) . ومن الواضح أن هذا التهديد الخطير كان يعنى تعرض الصليبيين جميعاً لكارثة محققة ، لأن بوهيموند ورجاله صاروا بمثابة العصب الرئيسى و العمود الفقرى للقوات الصليبية

---

(1) Gesta Francorum, pp. 77-79 .

(٢) أشار ابن القلانسي إلي نقض الصليبيين للعهد الذي قطعوه علي أنفسهم للامبراطور البيزنطي ، ولكنه أخطأ فقال : إنهم امتنعوا عن تسليمه نيقية .
(ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، س ١٣٥) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 70 .

المحاصرة لأنطاكية ، لذلك أسرع جميع الزعماء الصليبيين - فيما عدا ريموند - وتوسلوا إلى بوهيموند حتى لايتركهم أمام أنطاكية ، ووعدوه بتسليمه أنطاكية فور الاستيلاء عليها . وكان ذلك هو كل ما استهدفه بوهيموند من وراء مناورته ، فلم يبق له بعد ذلك سوى إظهار مقدرته وكفايته فى الاستيلاء على أنطاكية (١) .

ثم إن بوهيموند أدرك جيداً أن وجود قوات بيزنطية بقيادة تاتكيوس Tatikios أمام أنطاكية بحجة مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على المدينة ، سيفسد عليه خطته ، لأن القائد البيزنطى سيطالب عند سقوط أنطاكية بتنفيذ العهد الذى قطعه الزعماء الصليبيون على أنفسهم للامبراطور البيزنطي(٢) . لذلك أخذ بوهيموند يستفز القائد البيزنطى . وعندما ذهب تاتكيوس يشكو ويطلب المساندة من بقية الزعماء الصليبيين ، كان بوهيموند قد أحكم خطته ، فاتهمه أولئك الزعماء بأنه يتآمر مع الأتراك سراً ضد الصليبيين وأنه يخون القضية الصليبية فى الخفاء . وعندئذ لم يسع تاتكيوس سوى أن يفكر فى النجاة بنفسه ، فانسحب فوراً عن طريق ميناء السويدية إلى جزيرة قبرص(٣) . والواقع أن إتهام تاتكيوس كان يعنى إتهام الإمبراطورية البيزنطية كلها . فتحول شعور الصليبيين نحوها إلى عداء، وأخذوا فى أزمتهم أمام أنطاكية يلقون باللوم على الأمبراطور البيزنطى ودولته ، ويقولون أنه لو كان الإمبراطور ساعدهم بإخلاص لما وصلوا إلى الحالة السيئة التى أمسوا فيها ، ولوجدوا على الأقل ما يسد رمقهم من زاد وميرة . وهكذا دفع هذا الشعور كافة الأمراء الصليبيين إلى التنكر لوعودهم للامبراطور البيزنطي، على أساس أن البيزنطيين أنفسهم هم الذين بدأوا بنقض اتفاقية القسطنطينية ، فتخلوا عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بما يحتاجون إليه من معونة ، فضلا عن أن مندوب الامبراطور لم يثابر مع الصليبيين أمام أنطاكية ، وإنما تركهم ولاذ بالفرار(٤) . وبذلك نجح بوهيموند فى إحكام خطته ولم يبق فى طريقه مايحول دون تسلمه أنطاكية فور سقوطها فى أيدى الصليبيين .

مشروع التحالف بين الصليبيين والفاطميين :

على أن الشئ الذى يسترعى العجب حقاً ، هو أن معظم المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لايدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل أن الفاطميين

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 201 & Première Croisade p. 193
(2) Brehier : op. cit., p. 312 .
(3) Setton : op. cit., pp. 313 - 314 .
(4) Runciman : op. cit., I, p. 224 .

فى مصر فكروا فى مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التى ظهرت فى بلاد الشام، ضد خصومهم من أهل السنة ، أعنى الخلافة العباسية فى بغداد والأتراك السلاجقة فى الشام (١).

وكان صاحب السلطة الفعلية فى مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى الذى ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ - ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الآمر ، أى حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم إدراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية فى أنه عندما رأى الصليبيين يهاجمون الأتراك السلاجقة - أعداء الدولة الفاطمية الألداء - فكر فى أن يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين (٢) . وربما استند الأفضل فى تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها فى القرن العاشر لم تتعد أملاكها فى بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر ليلعبوا على مسرح بلاد الشام نفس الدور الذى لعبه نقفور فوقاس وحنا الشمشقيق فى أواخر القرن العاشر(٣) .

ولم يشأ الأفضل أن يضيع الوقت ، وإنما انتهز فرصة الفوضى التى أصابت العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر، نتيجة لوصول الصليبيين، وأرسل جيشاً تمكن من فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٧ وملكه وتسلم محراب داود من سكمان(٤) . وفى تلك الأثناء كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (يناير - فبراير ١٠٩٨) . وهناك فى المصادر ما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين منذ وصولهم إلى القسطنطينية، بأن يحاولوا محالفة الفاطميين فى مصر. ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة فى ذلك الوقت، إلا أن بعض المصادر الصليبية أشارت إلى أنهم آرسلوا من نيقية سفارة إلى مصر(٥) . وإذا كان هذا الرأى ليس له ما يؤيده فى بقية المصادر الصليبية، إلا أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الإمبراطور البيزنطى مما جعلهم

(1) Chalandon : Première Croisade, p, 196 .

(2) Stevenson : op. cit., I, p. 26 .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 83 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق س ١٣٥ .

(5) Runciman, op. cit., I, p. 230.

يرحبون بالسفارة التى أرسلها الأفضل فى أوائل سنة ١٠٩٨ أمام أنطاكية(١). ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامى على نفسه فى ذلك الحين بين سنة وشيعة، وترك وعرب، وما سببه هذا الإنقسام من خسارة للمسلمين جميعاً الأمر الذى مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع. وتصور لنا المصادر اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدى الصليبيين(٢).

ومهما يكن من أمر فقد صح حساب الأفضل فى أول الأمر، لأن الأتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبى وإقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة، فلم يتمكنوا من إرسال نجدة لأقربائهم من بيت المقدس ترد عادية الفاطميين. وفي الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التى اتخذها الفاطميون، لأن غزو الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكا للأتراك السلاجقة فى أشد الأوقات حرجاً(٣). هذا فضلا عن أن السفارة التى أرسلها الفاطميون إلى الصليبيين عند أنطاكية، أكسبت أولئك الأخيرين وضعاً سياساً معترفاً به في ركن هام من أركان العالم الإسلامي. ويذكر ابن الأثير كيف أخذ الصليبيون ينهضون بدورهم فى مهارة بالغة عندئذ، فلم يكتفوا ببث الطمأنينة فى نفوس الفاطميين، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم فى بلاد الشام ؛ وإنما حاولوا أيضا أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق، فأرسلوا إلى دقاق يطمئنونه على مصيره، ويؤكدون له أنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التى كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضي، أى الرها وأنطاكية واللاذقية(٤)وبعد هذه الخطوة حاول الصليبيون أيضا استمالة رضوان ملك حلب، حتى إذا ما فرغوا من أمره هو الآخر، استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام إمارة بعد أخرى ومدينة تلو مدينة من الإمارات والمدن الإسلامية بالشام.

تدخل رضوان ملك حلب، موقعة العمق :

ويبدو أن تلك الخطة الصليبية قد نجحت إلى حد كبير، إذ هدأ دقاق فى دمشق، وظل حيناً بعد هزيمته فى البارة لا يحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين

(1) Riant : Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades, I, p. 162.

(2) Guillaume de Tyr, I, pp. 191 - 192.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 84 - 85.

(٤) وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب دمشق بأننا لا نأخذ ولا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، ولا نطلب سواها، مكرا منهم وخديعة حتي لا يساعدوا أصحاب أنطاكية (ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ)

عن أنطاكية. أما أخوه رضوان ملك حلب، فعلى الرغم من علاقته السيئة مع ياغى سيان، إلا أنه كان لا يستطيع أن يستمر طويلا فى موقفه السلبى تجاه أنطاكية. ذلك أن ياغى سيان كان قبل كل شيء تابعاً وفصلا لرضوان، فى الوقت الذى كانت أنطاكية جزءاً من نصيب رضوان فى الدولة السلجوقية (١).

وكان ياغى سيان قد أرسل ابنه ليستحث القوى الإسلامية القريبة ويطلب منها العمل لإنقاذ أنطاكية، فاتجه الإبن إلى حلب لاسترضاء رضوان مرة أخرى والاعتذار له عما فات. وأخيراً وجد رضوان أنه لابد من أن يتناسى الماضي، وصمم على أن يسرع إلى إنقاذ أنطاكية، وصاحبه في حملته سكمان (سقمان) بن أرتق من ديار بكر، وأمير حماة، فضلا عن قوات أخرى من حمص ومن الأراتقة فى إقليم الجزيرة(٢). وقد اجتمعت هذه القوات الإسلامية كلها فى حارم وهى قلعة تقع عل بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً من أنطاكية، إلى الشرق منها. أما الخطة التى وضعها المسلمون فخلاصتها أن تهاجم تلك الجيوش أنطاكية فجأة فى الوقت الذى تخرج جيوش ياغى سيان من المدينة لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل، وبذلك يقع الصليبيون بين نارين(٣).

على أن المسيحيين فى حلب وحارم - وبخاصة السريان والأرمن - علموا بتلك الخطة. فأرسلوا سراً إلى الصليبيين أمام أنطاكية فى أوائل فبراير سنة ١٠٩٨ يخبرونهم بكل تلك التفاصيل حتى لا يؤخذون علي غرة(٤)وكان أن وضع بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف، فترك المشاة يحرسون معسكر الصليبيين ويتابعون حصار أنطاكية فى حين خرج هو على رأس حوالى سبعمائة فارس لصد المسلمين (٨ فبراير ١٠٩٨). واختار الصليبيون موقعاً حصيناً بين بحيرة العمق من ناحية ومجرى نهر العاصى من ناحية أخري(٥). وفي اليوم التالى دارت الموقعة وانتهت في سرعة باندحار المسلمين الذين أرتدوا نحو حصن حارم، وفى أعقابهم الصليبيون. وعندما رأت حامية حارم حرج الموقف لاذت هي الأخرى بالفرار بعد أن أشعلت النار فى الحصن، وبذلك استولى الصليبيون علي حارم بمساعدة أهلها من السريان والأرمن(٦). وكان استيلاء الصليبيين على حارم نصراً كبيراً نظراً

---

(1) Setton : op. cit., I,p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 86.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 194.

(5) Chalandon : Première Croisade pp. 195.
Guillaume de Tyr, I, p. 196 &

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ

لأهميتها فى حماية أنطاكية من ناحية حلب(١).

وفى تلك الأثناء وجدت حامية أنطاكية بقيادة ياغى سيان أن الوقت مناسب للقيام بهجوم مفاجيء فى غيبة الفرسان الصليبيين، فخرج ياغى سيان فعلا وقام بهجومه، ولكن مشاة الصليبيين تصدوا له وقاوموه. واستمر الصراع حاداً بين الطرفين لحين عودة فرسان الصليبيين ظافرين يحملون رءوس ضحاياهم فى معركة العمق، فقذفوا بها داخل أسوار أنطاكية ليعلم ياغى سيان بما حل بحلفائه (٢).

سقوط انطاكية :

وعندما رأى ياغى أن الهزيمة حلت بالحلبيين مثلما حلت بالدماشقة من قبل، أرسل نداء جديداً إلى بركياروق سلطان سلاجقة فارس، وتابعه كربوغا (كربوقا) أتابك الموصل. وسرعان ما انتشرت إشاعة بين الصليبيين تفيد بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة كربوغا فى طريقه إليهم، مما جعل الصليبيين يفكرون فى طريقة عاجلة للاستيلاء على أنطاكية بعد أن ثبت أن طول مدة الحصار ليس فى صالحهم(٣).

والواقع أن كربوغا كان قد أعد عدته فعلا لنجدة أنطاكية، ولكنه توقف فى الطريق لمحاولة الاستيلاء على الرها من بلدوين، وبذلك أضاع الأسابيع الأخيرة من شهر مايو فى حصار الرها دون جدوي، مما أعطى الصليبيين أمام أنطاكية فرصة طيبة من الوقت (٤). وكان أن شيد الصليبيون قلعة على تل قريب من أنطاكيه كانت به مقابر للمسلمين، فاستغلوا ما عليه من أحجار فى بناء تلك القلعة التى مكنتهم من إحكام الحصار على المدينة (٥). وعندما تم بناء القلعة فى ١٩ مارس، اكتمل حصار أنطاكية وأصبح من الصعب تسرب المؤن والامدادات إليها أو خروج أهلها منها لرعى ماشيتهم فى المراعى القريبة (٦). وصادف عندئذ وصول أسطول إنجليزى من عدة سفن إلى ميناء السويدية فى ٤ مارس سنة ١٠٩٨ يحمل كثيراً مما افتقر إليه الصليبيون من زاد وسلاح وآلات للحصار، كما وصل إلى نفس الميناء قبل ذلك – أى فى أواخر نوفمبر من العام السابق – أسطول جنوى من

(1) Stevenson : op. cit., pp. 80 - 86.
(2) Gesta Francorum. pp. 80 - 86.
(3) Michaud : op. cit., pp. 264 - 267.
(4) Runciman : op. cit. I, p. 231.
(5) Cam. Med Hist. vol. 5, p. 291.
(6) Runciman : op. cit., I, pp. 228 & Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 292.

ثلاث عشرة سفينة - مما يشير إلى أزدياد أهمية العامل البحرى تدريجياً فى خدمة الصليبيين ومساعدتهم[١].

وفى تلك الأثناء لم تتوقف الاشتباكات بين الأتراك وحامية أنطاكية من جهة والصليبيين من جهة أخري.ويبدو أن كفة الصليبيين كانت هى الراجحة فى تلك الاشتباكات، حتى اطمأنوا أخيراً إلى أن حصارهم لأنطاكيه صار تاماً، بعد أن أمنوا اتصالهم بالبحر عن طريق ميناء السويدية من جهة وبامارة الرها التى غدا يحكمها واحد منهم - هو بلدوين البولونى - من جهة اخري.

ويشهد المؤرخون المسلمون بأن ياغى سيان لم يهمل الدفاع عن المدينة، وأنه أظهر من الشجاعة «وجودة رأيه وحزمه واحتياطه مالم يشاهد من غيره» [٢]. على أن الخيانة لم تلبث أن لعبت دورها فى سقوط أنطاكية. ذلك أنه وجد فى المدينة رجل أرمنى الأصل اسمه نيروز - ويعرف بالزراد - كان ياغى سيان قد صادره وأخذ ماله وغلته، فحمله الحنق على أن كاتب بيمند (بوهيموند) [٣]. ويبدو أن نيروز هذا كان قد تظاهر بإعتناق الإسلام ونال ثقة ياغى سيان، حتى عهد إليه بحراسة أبراج المدنية فى الجهة الجنوبية. ولم يلبث ذلك الأرمنى المسيحى الأصل، أن غلبت عليه روح الخيانة فاتصل بأبناء جلدته من الأرمن، وأمكنه عن طريق وساطة بعضهم مراسلة بوهيموند سراً [٤]، فقال له «أنا فى البرج الفلاني، وأنا أسلم أنطاكية إن أمنتنى وأعطيتنى كذا وكذا» وكان أن وافقه بوهيموند وبذل له «مالا وإقطاعاً» [٥] على أن بوهيموند احتفظ لنفسه بسر المؤامرة، ورفض أن يذيعه على الأمراء «وكتم أمره عن باقى الفرنج» كما أخذ يجسم لأمراء الصليبيين خطورة موقف الصليبيين، ويطلب منهم الموافقة على تحقيق حلمه الكبير، وهو إعطاؤه أنطاكية والسماح له بانشاء إمارة لنفسه فيها، ثمناً لجهوده فى إنقاذهم من ذلك الموقف الخطير [٦]. ولم يلبث أن وافق الأمراء على طلبات بوهيموند تحت

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 198.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ. وقد وصفه ابن العديم بأنه كان حسن التدبير في سياسة العسكر (زبدة الحلب، ٤٩١ هط) وقال عنه أبو الفدا أنه أظهر في الدفاع عن أنطاكية شجاعة عظيمة (المختصر في أخبار البشر ج٢ ص ٢١٠).

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٢ - ١٣٤ (مطبوع).
ويؤكد المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن نيروز هذا ارمني الأصل، انظر
Guillaume de Tyr, I, p. 212.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٤ (مطبوع).

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(6) Gesta Francorum. p. 100.

تأثير الظروف السيئة التى بات فيها الصليبيون، فضلا عن الخوف من الإشاعات التى انتشرت بين صفوف الصليبيين، والتى أكدت أن كربوغا أتابك الموصل ترك حصار الرها وأخذ يزحف فى طريقه إلى أنطاكية لتخليصها من الصليبيين (نهاية مايو).

ويبدو أن وصول تلك الأخبار إلى الصليبيين فت فى عضدهم، حتى بدأ كثيرون منهم يتسربون طالبين العودة إلى بلادهم (١). ومن هؤلاء إتين دى بلوا الذى اتجه إلى اسكندرونه فى ٢ يونيه على رأس عدد كبير من رجاله الفرنسيين بعد أن ملوا طول الحصار فى تلك الظروف الصعبة، وعملوا حساباً للخطر الجديد الذى أوشك أن يحل بهم على يد كربوغا. ولو كان إتين دى بلوا أنتظر عدة ساعات لغير رأيه فى الانسحاب، إذ حدث مساء اليوم نفسه الذى انسحب فيه أن زحف الصليبيون على البرج الذى كان به الخائن نيروز الزراد. ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا أنطاكية فى صباح اليوم التالى بعد أن فتحت أمامهم أبوابها، فهرع إليهم أهل المدينة السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم فى التعرف على خفاياها وفى قتل من فيها من المسلمين (٢). وقد حاول ياغى سيان نفسه الفرار مع جملة من فر من الأتراك ؛ ولكنه سقط عن فرسه فقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج (٣) وكان أن تطرف الصليبيون فى قتل من وجوده بأنطاكية من المسلمين فقتل وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال مالا يدركه حصر (٤).

ولم يلبث أن أثار خبر سقوط أنطاكية موجة من الذعر فى البلدان الإسلامية القريبة فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن (٥). ولاشك فى أن سقوط أنطاكية كان له دوى هائل فى العالم المسيحي، لا يفوقه إلا أثر سقوط بيت المقدس نفسها فى أيدى الصليبيين فيما بعد. فأنطاكية مدينة قديمة لها تاريخها وأهميتها الكبرى فى نظر المسيحيين. ويكفى أنها كانت ثالث مدن العالم فى عصر الإمبراطورية الرومانية، فضلا عن أنها المدينة التى أطلق فيها على اتباع المسيح لأول مرة اسم المسيحيين (٦)، والتى أسس فيها القديس بطرس أول اسقفية له. وقد

---

(1) Runciman : op. cit., I, 233 .
Guillaume de Tyr I, p. 231. &

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٤ (مطبوع)

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٥ (مطبوع)

(٦) ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا (سفر أعمال الرسل ١١ ، ٦٢).

ظلت أنطاكية تتمتع بشهرة واسعة حتي استولى عليها المسلمون فى القرن السابع، وعندئذ غدت ملتقى الحضارتين اليونانية والعربية، والمركز الرئيسى للتبادل التجارى بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية (١).

تدخل سلاجقة فارس، حملة كربوغا :

رأينا كيف أضاع كربوغا عدة أسابيع فى حصار الرها، مما أعطى الصليبيين فرصة ثمينة مكنتهم من الاستيلاء على أنطاكية. وقد دفع ذلك المؤرخ وليم الصورى إلى القول بأن صمود بلدوين أمير الرها ومقاومته هى التى أنقذت الصليبيين أمام أنطاكية (٢). ولم يلبث أن وجد الصليبيون أنفسهم غداة استيلائهم على أنطاكية أمام مهام عاجلة خطيرة، فأسرعوا إلى اعداد عدتهم للدفاع عن المدينة ضد هجوم كربوغا المنتظر، وفي الوقت نفسه كان عليهم أن ينظفوا المدينة على عجل من أثر المذبحة الرهيبة التى أحدثوها فى أهلها من المسلمين، فعجلوا بدفن جثث القتلى ومواراتها فى التراب حتى لا تكون سبباً فى إنتشار الوباء(٣) وبينما الجند يقومون بتلك الأعمال ؛ عكف أدهمار- ومعه رجال الدين - علي إعداد كتدرائية القديس بطرس وغيرها من الكنائس القديمة التى كانت بالمدينة لتزاول وظائفها بوصفها دور عبادة للمسيحيين. كذلك أخرج البطرق الأرثوذكسى حنا الرابع من سجنه الذى وضعه فيه ياغى سيان، وأعيد إلى كرسى البطرقية فى أنطاكية - رغم أنه يمثل الكنيسة الشرقية - وذلك حتى ترد تعليمات من البابوية فى ذلك الشأن(٤).

ولم يكد الصليبيون ينهضون بتلك الأعباء العاجلة عقب استيلائهم على أنطاكية، حتى دهمهم الخطر المنتظر من جانب كربوغا. وكان كربوغا بعد مغادرته إقليم الفرات قد توقف قليلا عند مرج دابق حيث اجتمع مع دقاق بن تتش ملك دمشق، وطغتكين أتابك، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسكمان بن أرتق، «وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم» (٥). أما رضوان ملك حلب فظل معادياً لأخيه دقاق فى تلك الأوقات الحرجة التى شهدت تقرير مصير الشام الإسلامية.

---

(1) Runciman : op. cit. I, p. 213.

(2) Guillaume de Tyr I, pp. 216 - 217.

(٣) قدرت المصادر الصليبية عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون في أنطاكية بعشرة الاف. (Michaud : op. cit., I, 292).

(4) Runciman, op. cit., I, p. 237.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

ولكى يرد كربوغا على موقف رضوان هذا ورفضه الانضمام إلي الحلف الإسلامى لإنقاذ أنطاكية، ضم إليه الأمير العربى جناح الدولة حسين صاحب حمص، وهو من قبيلة بنى ملاعب، وكان قد تزوج أم رضوان أى أرملة تتش(١).

وهكذا اجتمع الجيش السلجوقى الكبير فى مرج دابق، ومنها أخذ يزحف على أنطاكية عن طريق نهر العاصي. وكان الصليبيون قد تركوا حامية صغيرة عند جسر الحديد – إلى الشمال الشرقى من أنطاكية – فقتل المسلمون رجالها عن آخرهم فى ٤ يونية سنة ١٠٩٨(٢). ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع الجيش السلجوقى أمام أنطاكية. وقد حاول السلاجقة اقتحام أنطاكية عن طريق قلعتها التى كانت لاتزال باقية فى أيدى المسلمين، وساعدهم فى ذلك شمس الدولة بن ياغى سيان. ولكن كربوغا فشل فى تحقيق تلك الخطة، وعندئذ لجأ إلي تجويع الصليبيين داخل المدينة بأحكام الحصار عليها(٣) ولتحقيق ذلك اختار كربوغا أن يعسكر فى السهل الممتد جنوبى أنطاكية عند باب البحر(٤)، كما ولى على قلعة أنطاكية أحمد بن مروان. وهكذا ظل الصليبيون محصورين داخل أسوار أنطاكية، قرابة ثلاثة أسابيع (٨ – ٢٨ يونية)، فساءت حالتهم وبدأ بعض زعمائهم فى الفرار،فى حين أخذت السفن الرأسية بالسويدية تقلع عائدة وعليها من استطاعت حمله من الفارين(٥).

ولعله من الواضح كيف انقلب الوضع، فصار الصليبيون محاصرين داخل أنطاكية والمسلمون خارجها يطوقونها ويعملون على تجويع من بداخلها، وذلك بعد أن كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية ويعملون على قطع الزاد عن ياغى سيان وحاميته من السلاجقة المسلمين(٦). وتشير المصادر إلى أن الصليبيين داخل أنطاكية تعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء والمؤن فعدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة، وبلغ ثمن رغيف الخبز الصغير ديناراً والبيضة الواحدة دينارين. ولم تكن هذه الأسعار فى متناول غالبية الصليبيين، فاضطر بعضهم إلى العيش على

---

(١) ذكر إبن العديم أن رسل رضوان كثر ترددها في تلك الأثناء علي كربوغا، الأمر الذي أخاف دقاق وأثار الظنون في نفسه.
(زبدة الحلب ٢ ص ١٥٦ (مطبوع)
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٣٦ (مطبوع)
(٣) المصدر السابق ص ١٣٦ – ١٣٧، ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٧ (مطبوع)
(5) Cam. Med Hist. : vol. 5, p. 292.
(٦) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦.

أوراق الأشجار، «فضلا، عن الميتات والدواب» (١). وفى وسط تلك الأزمة أخذ كثير من الفرسان يعبرون عن ندمهم على ترك بلادهم والحضور إلى الشرق، بل لقد جاهر بعضهم بأن إتين دى بلوا كان على حق عندما انسحب أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية وقفل راجعاً إلى بلاده (٢).

ولم يبق أمل للصليبيين فى أنطاكية للخلاص من تلك المحنة التى ألمت بهم سوى حضور الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ليطعن كربوغا وجيوشه من الخلف. لذلك استنجد الصليبيون بالإمبراطور الذى استجاب لندائهم وخرج على رأس جيشه قاصداً أنطاكية مخترقاً آسيا الصغري(٣) ولكن لم يلبث أن التقى بالإمبراطور فى آسيا الصغرى إتين ذى بلوا وبعض زملائه، فأخبروه أن السلاجقة استردوا أنطاكية(٤). وكان أن اهتز الإمبراطور لتلك الأخبار ورأى أن يعدل خطته سريعاً، لأن سلامة جيوشه وبلاده أهم بكثير من سلامة أنطاكية والصليبيين، ولذلك قفل راجعاً ولم تفلح الجهود التى بذلك لحمله على المضى فى طريقه إلى أنطاكية(٥). ولا شك فى أن عودة ألكسيوس كومنين جاءت ضربة خطيرة للصليبيين داخل أنطاكية. كذلك كان لتلك العودة أثرها فى تشجيع كربوغا. وسرعان ما بدأ اليأس ينتاب كثيراً من الصليبيين، فخارت قواهم وتسللوا من المواقع الأمامية ليحتموا بمنازل المدينة ودورها، مما دفع الأمير بوهيموند إلى إشعال النار فى المدينة فى ١٢ يونية ليحرق منازلها ويجبر الصليبيين القابعين داخلها على الخروج إلى الستاريس الأمامية للدفاع عن أسوار المدينة (٦).

ويروى ابن القلانسى وابن العبرى أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون فى الاستسلام، ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية، وقال لهم «لا تخرجون إلا بالسيف» (٧). وعندما مرض ريموند - القائد الأعلى للقوات الصليبية - حل محله بوهيموند فى حوالى ٢٠

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٧. أما ابن الأثير فيقول عن الصليبيين داخل أنطاكية عندئذ ليس لهم ما يأكلونه ، وتقوت الاقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر. (الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ).

(2) Runciman, op. cit., I, p. 238.

(3) Guillaume de Tyr, pp. 250 - 254 & Gesta Francorum, pp. 141 - 147.

(4) Michaud : op. cit., I, pp. 300 - 302.

(5) Gesta Francorum, pp. 147 - 148.

(6) Guillaume de Tyr, I, p. 255.

(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ص ٩٦.

يونية، وعندئذ أخذ بوهيموند بحماسته المعروفة، يرفع من الروح المعنوية للصليبيين ويعدهم لخوض معركة فاصلة مع المسلمين (١).

وليس معنى سوء حال الصليبيين داخل انطاكية أن المسلمين تمتعوا بجبهة متماسكة، بل على العكس ظل المسلمون فى ذلك الدور الحاسم يعانون خللا واضحاً فى صفوفهم مما عاد عليهم بالخسارة. ذلك أن رضوان ملك حلب رفض - كما سبق أن ذكرنا - المشاركة فى الحلف الإسلامى للعمل على استرداد أنطاكية من الصليبيين ؛ هذا على الرغم من أن تأمين مستقبله ومستقبل أمارته كان يحتم عليه ان يتخذ موقفاً أكثر اتزاناً وحكمة ؛ بعد أن صارت حلب واقعة بين الرها فى الشرق وأنطاكية فى الغرب، وكلاهما سقط فى قبضة الصليبيين (٢). ولعل عدم وجود رضوان مع المسلمين أمام أنطاكية، وعدائه لأخيه دقاق ملك دمشق الذى رافق كربوغا، كانا من العوامل التى خلقت جواً من القلق والاستياء فى صفوف المسلمين. ولما أحس كربوغا بحاجته إلى مساعدة رضوان، بدأ يسعى للاتصال به، وعندئذ توهم دقاق من ذلك (٣) وفى الوقت نفسه أحس دقاق برغبته فى العودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين فى بلاد الشام، وهو التوسع الذى سبب له قلقاً بالغا (٤). ومن جهة أخرى فان جناح الدولة حسين بن ملاعب - أمير حمص العربى الذى أسهم مع كربوغا فى حصار أنطاكية - ظل يشعر بقلق دائم بسبب الخوف من انتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة ومنبج الذى كان على اتفاق مع رضوان. بل لقد بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على انفسهم، فظهر الشقاق بين أتراك كربوغا من ناحية والعرب بزعامة وثاب بن محمود المرداسي من ناحية أخرى «وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته» (٥). أما المؤرخ أبو الفدا، فعلل روح التباغض والفرقة التى سادت زعماء المسلمين أمام أنطاكية بأن كربوغا أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء المذكورين، وتكبر عليهم فخبثت نياتهم على كربوغا (٦).

وفى الوقت الذى كان معسكر المسلمين يعانى ذلك التصدع والشقاق، أخذ

---

(1) Michaud : op. ct., I, p. 304.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 93.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ (مطبوع).

(4) Runciman : op. cit., I, p. 249.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ (مطبوع).

(٦) أبو الفداء : المختصر، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

بوهيموند ينفخ فى الصليبيين روحاً جديدة. وكان أن أرسل بوهيموند سفارة من رجلين - أحدهما بطرس الناسك - إلى كربوغا يوم ٢٧ يونية لأقناعة بترك الحصار، ولكن كربوغا - رغم ما كان يعانيه من تفكك فى معسكره - أصر على استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط (١). وبذلك لم يعد أمام بوهيموند سوى الحرب، فأمر رجاله بالخروج من أنطاكية فى ٢٨ يونية سنة ١٠٩٧ للدخول فى معركة فاصلة ضد المسلمين. وكان من الممكن للمسلمين القضاء على الصليبيين عند خروجهم من أنطاكية جماعات صغيرة، إذ خرجوا فى اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوغا «ينبغى أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال : لا تفعلوا ! أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم» (٢). وبذلك أضاع كربوغا الفرصة، إذ تكامل الصليبيون وأنزلوا الهزيمة بالمسلمين «لما عاملهم كربوقا أولا من الاستهانة لهم والإعراض عنهم» (٣).

وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوغا، فانفض عنه كثير من الأمراء. وكان التركمان أول من «عاث فى المعسكر فانهزم» (٤). فى حين ظل سكمان بن أرتق وجناح الدولة آخر من انهزم من الأمراء. وعند فرارهما من الميدان لجأ كربوغا هو الآخر إلى الفرار، وبذلك عمت الكارثة (٥). ثم إن التعليمات التى صدرت إلى الصليبيين جعلتهم لا يلتفتون إلى الأسلاب والغنائم، وإنما واصلوا مطاردة فلول المسلمين، واشترك معهم فى تلك المطاردة أهل المنطقة من السريان والأرمن، فظلوا يتعقبون الجند المنهزمين ويعملون فيهم قتلا، حتى جسر الحديد وحارم شرقا(٦). ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات ما لا يحصي، ومن انقطع من المعسكر نهبه الأرمن(٧).

وبذلك لم يحقق الصليبيون انتصارا على سلاجقة الروم وحدهم، وإنما أيضا

(1) Chalandon : Première Croisade, p. 220.

(٢) ابن الأثير : الكامل (سنة ٤٩١ هـ)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هط.
وقد ذكر ابن العديم أن بعض الأمراء أشاروا علي كربوغا بأن لا يمكن الصليبيين من الخروج ويقتلوهم اولا فأول - فلم يعرج المسلمون علي شيء من ذلك لانهم أيقنوا بالظفر بالفرنج وخرجوا بأجمعهم فى خلق عظيم ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ص ١٣٧ .

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(6) Gesta Francorum, p. 159.

(٧) ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

على سلاجة الشام وفارس، فعاد كربوغا إلى الموصل تحوطه خيبة الأمل. وعاد دقاق إلى دمشق يجر أذيال الفشل. أما أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية فقد أدرك عبث المقاومة، ولكنه رفض تسليم القلعة لريموند وأصر على تسليمها لبوهيموند نفسه(١).

التنافس بين بوهيموند النورماني وريموند الصنجيل حول أنطاكية:

تأكد استيلاء الصليبيين علي أنطاكية وقلعتها بعد أن حلت الهزيمة بالجيش السلجوقي، واتضح عجز بركيارق سلطان سلاجقة فارس ودقاق ملك دمشق عن وقف الغزو الصليبي. وإذا كان بركياروق (بركيارق) قد هزم أدبيا فى شخص تابعه كربوغا، فان دقاق هزم شخصياً أمام أنطاكية. وبانتصار الصليبيين على سلاجقة فارس والشام أصبح الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الصليبيين، لأن أنطاكية بالذات تعتبر مفتاح بلاد الشام على قول بعض المؤرخين(٢). وكان يجب على الصليبيين - براً بقسمهم الصليبى - ألا يضيعوا وقتاً طويلا وأن يبدءوا بالزحف مباشرة على بيت المقدس، ولكنهم لم يفعلوا ذلك وأضاعوا ستة أشهر، وهم واقفون حيث هم في إقليم أنطاكية يبحثون فى مشاكلهم الداخلية (٣).

والواقع أن الصليبيين وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ضخمة عقب هدوء موجة الفرح الأولى التى عمتهم بعد الإنتصار علي خطر كربوغا وضمان الاستيلاء على أنطاكية .حقيقة أنهم استولوا على قلعة المدنية واستحكاماتها وأسوارها سليمة، ولكن حماية تلك الأسوار الطويلة والحصون العديدة تطلبت عدداً كبيراً من الرجال المحاربين، فى الوقت الذى تناقص عدد الصليبيين، فضلا عن أنه كان مطلوباً منهم أن يحشدوا كل مالديهم من قوى للاستيلاء على بيت المقدس. ثم إن الصليبيين لم يجدوا فى أنطاكية شيئاً من مخازن الميرة والمؤن التى ظلوا يحلمون بها طويلا. وبالاضافة إلى ذلك فقدوجد الصليبيون بداخل أنطاكية عدداً كبيراً من المسيحيين الشرقيين، وهؤلاء -وبخاصة السريان - لم يطمئن الصليبيون إلى

(١) يروي ابن العديم أن الصليبيين آمنوا أحمد بن مروان وأنزلوه في دار بانطاكية وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم إلي أعمال حلب، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ولم يسلم منهم إلا القليل.
ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٣٧ - ١٣٨.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p. 181.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 108

شعورهم وإخلاصهم(١). وأخيراً فإن المشكلة الكبرى التى استنفدت كثيراً من الوقت والجهد كانت تحديد مصير أنطاكية نفسها. فلمن تنتقل ملكية هذه المدينة الهامة ؟ وهل تكون من نصيب الصليبيين أو البيزنطيين ؟ وإذا احتفظ بها الصليبيون فمن من أمرائهم أولى بها ؟(٢).

والواقع أن حقوق الإمبراطورية البيزنطية فى اقليم أنطاكية، كانت واضحة لا شبهة فيها، ليس فقط لأن الدولة البيزنطية ظلت تمتلك إقليم أنطاكية حتى الغزو السلجوقى سنة ١٠٨٥، بل أيضا وفقاً للاتفاقية المعقودة بين زعماء الصليبيين والإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧، وهى الإتفاقية التى كان بوهيموند نفسه أول من أقرها(٣). ولكن يبدو أن بوهيموند عندما تعهد سنة ١٠٩٧ برد أملاك الإمبراطورية البيزنطية ومدنها كان يأمل ان يعينه الكسيوس كومنين نائباً عنه فى حكم بلاد الشام التى كانت قديماً جزءاً من الإمبراطورية. فلما خاب أمل بوهيموند وأحس أنه وحده تحمل العبء الأكبر فى الاستيلاء على أنطاكية، قرر هو نفسه أن يتحلل من تعهده السابق للامبراطورية وأن يتخذ سياسة معادية للدولة البيزنطية ومصالحها (٤).

وكان أن طلب بوهيموند فى أواخر شهر يونيو سنة ١٠٩٨ من بقية زعماء الصليبيين تسليمه ما بأيديهم من أبواب المدنية وأبراجها وتحصيناتها، فقبلوا جميعاً باستثناء ريموند الصنجيل الذى أخذ ينازع بوهيموند أنطاكية (٥). وقد أكد بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين أنه عقب أن حلت الهزيمة بكربوغا، أطلق الصليبيون على بوهيموند لقب «أمير أنطاكية» إعترافاً منهم بأن الفضل الأول فى الاستيلاء على المدنية من المسلمين إنما يرجع إليه (٦).

ولكن ريموند الصنجيل لم يكن أقل من بوهيموند النورمانى رغبة فى الاستئثار بانطاكية. ولذلك رفض ان يتخلى عن المواقع التى احتلها رجاله فى

(1) Runciman : op. cit., I, p. 236.
(2) Cam. Med. Hist. vol 2, pp. 294 - 295.
(3) Chalandon : alexis Comnene, pp. 203 - 205.
(4) Vasiliev : op. cit., I, pp. 408 - 409 &
Ostrogorsky : op. cit., 323, and
Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 294.
(5) Raymond d'Agiles, p. 262.
وريموند هذا هو ريموند الرابع كونت تولوز وقد نسب الي مقاطعة Saint - Gilles بفرنسا، فحرف العرب هذه النسبة الي الصنجيل .
(6) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 109.

المدينة . وهكذا صارت أنطاكية، قسمة بين بوهيموند وريموند، فاحتل الأول الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة، في حين احتل ريموند القطاع الجنوبى الغربى من المدينة (١).

على أن الانقسام الداخلى بين بوهيموند وريموند كان لا يخفى الوجه القانونى لمشكلة أنطاكية، أى أحقية الدولة البيزنطية فى تملك المدينة وفقاً لاتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧ . وإذا كان بعض زعماء الصليبيين قد نكثوا بعهدهم وطمعوا فى الاستيلاء على أنطاكية، فإن الإمبراطور البيزنطى نفسه لم يكن أقل تنكراً لعهده ؛ لأنه لم ينفذ من جانبه شروط الإتفاقية السابقة، ولم يحضر على رأس جيوشه لمساعدة الصليبيين الغربيين، وبخاصة فى المحنة التى تعرضوا لها عندما دهمتهم جيوش كربوغا أمام أنطاكية (٢). لذلك عقد الصليبيون مجلساً فى مستهل شهر يوليو سنة ١٠٩٨ ، حضره جميع زعمائهم، وقرر المجلس إيفاد رسولين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين لدعوته باسم الصليبيين للحضور لتسلم أنطاكية وفقاً للاتفاقية المعقودة بين الطرفين. وقد هلك أحد هذين الرسولين في الطريق، فى حين وصل الآخر إلى القسطنطينية فى أواخر يولية (٣). على أنه يلاحظ أن رسالة الصليبيين إلى الإمبراطور ألكسيوس كومنين كانت تحوى ركنين أساسين متكاملين : فهى تعرض علي الإمبراطور استلام أنطاكية، ولكنها تشترط عليه الحضور شخصياً على رأس حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس (٤).

ولو اغتنم الإمبراطور ألكسيوس كومنين تلك الفرصة الذهبية وقصد أنطاكية فوراً على رأس جيشه لاستطاع أن يقضى على أطماع بوهيموند وريموند جميعاً. ولا يخفى علينا أن الصليبيين عندئذ كانوا قد بلغوا درجة شديدة من الوهن والضعف بعد مالقوة من مشاق أثناء زحفهم فى أسيا الصغري، وما بذلوه من جهد وتضحيات أمام أنطاكية، مما جعلهم فى حاجة ماسه الى إمدادات من الإمبراطور

(1) Guillaume de Tyr, p. 274.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 294.

(3)Gesta Francorum, p. 161.

ويلاحظ أن رواية ألبرت اختلفت عن الرواية السابقة. إذ قال : إن الرسولين الذين أوفدهما الصليبيون الي الامبراطور كلفا باخطاره انه حنث بوعوده للصليبيين، وبناء علي ذلك فانهم صاروا في حل من تعهداتهم له.

(Albert d'Aix, p. 434).

(4) Guillaume de Tyr, p. 277.

البيزنطى تعينهم على مواصلة الزحف على بيت المقدس(١). كذلك لا يخفى علينا أن موافقة بقية زعماء الصليبيين على تسليم أنطاكية للامبراطور البيزنطى بالشرط السابق لم يكن الدافع إليها حرصهم على الوفاء بالالتزامات التى قطعوها على أنفسهم فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧، بقدر ما كان الأمل في الحصول من الإمبراطور البيزنطى على المساعدة التى كانوا فى أمس الحاجة إليها، مقابل إعطائه المدينة (٢).

والواقع إنه من الصعب تفسير موقف الكسيوس كومنين السلبى من ذلك العرض السخى الذى يمكنه من استرداد شمال بلاد الشام، فضلا عن تمكينه من الإشراف علي فتح بيت المقدس، لاسيما وأن تجربته حتى ذلك الوقت مع الصليبيين كانت ناجحة وأتاحت له فرصة طيبة لاسترداد جزء كبير من أراضى الامبراطورية السليبة فى الأناضول. ويبدو أنه اطمئن إلى تعهدات الصليبيين وقسمهم، وظن أنهم سيستمرون فى سياستهم التى اتبعوها فى آسيا الصغري، فيفتحون البلاد ليسلمونها للإمبراطورية لقمة سائغة، وأعتقد أنه بعد أن يفرغ الصليبيون من فتح بلاد الشام وفلسطين، ستكون هذه البلاد - بحكم موقعها الجغرافى وروابطها التاريخية بالامبراطورية البيزنطية - تابعة للقسطنطينية، أو على الأقل سيكون حكامها من الصليبيين تابعين للامبراطور ومعترفين له بالولاء. ولذلك ختار الإمبراطور أن يصمت مؤقتاً ولا يرد على رسالة الصليبيين (٣).

وأخيراً أفاق الإمبراطور ألكسيوس كومنين بعد فوات الفرصة. ذلك أن الصليبيين قرروا فى أبريل سنة ١٠٩٨ الزحف على بيت المقدس بعد أن ظلوا فى انطاكية أكثر من تسعة أشهر. وفى الوقت الذى اتخذ الصليبيون قرارهم بالزحف على بيت المقدس، تلقوا رد الامبراطور البيزنطى على رسالتهم (٤). وفى تلك الرسالة أعلن الإمبراطور الموافقة على مشاركة الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس إذا سلموه أنطاكيه، ولكنه طلب منهم إنتظاره حتى شهر يوليو(٥). ومن الواضح أن رد الامبراطور البيزنطى جاء متأخراً، أى بعد أن مرت أشهر طويلة استطاع خلالها بوهيموند أن يثبت مركزه فى أنطاكيه، بحيث أصبح من الصعب على الإمبراطور البيزنطى زحزحته من ذلك المركز. هذا الى أنه فى الوقت الذى

(1) Brehier, op. cit., 314.
(2) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 204 - 205.
(3) Grousset : Hist de Croisades I, p. 112.
(4) Setton : op. cit., I, p. 329.
(5) Raymond d'Agiles, p. 286, and Guillaume de Tyr, p. 307.

أخذ الامبراطور ألكسيوس كومنين يعد الفرنجة بالحضور لمساعدتهم فى انتزاع فلسطين من الفاطميين، إذا به يعقد إتفاقاً سرياً مع الفاطميين فى مصر ضد الصليبيين. وشاء سوء حظه أن تقع رساله بهذا المعنى موجهة من الامبراطور الى الوزير الأفضل فى أيدى الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة(١).

ومن الواضح أن الصليبيين الغربيين كانوا يتصرفون فى حكمة بالغة تجاه الإمبراطورية البيزنطية. ولا أدل على محاولة الفرنجة إثبات حسن نواياهم تجاه القسطنطينية من معاملتهم لبطرق أنطاكية حنا الرابع الأرثوذكسي، الذى قبض عليه الأتراك وسجنوه طوال حصار الصليبيين للمدنية، حتى إذا ما سقطت أنطاكية فى أيديهم احتفى به الصليبيون حفاوة بالغة، وأقاموا له حفلا كبيراً ثبتوه فيه رئيساً لكنيسة أنطاكية(٢). كذلك لم يتعرض الصليبيون لأتباع المذهب الأرثوذكسى فى البلاد التى استولوا عليها، وإنما أطلقوا حرية العقيدة لجميع المسيحيين، بما فى ذلك السريان والأرمن، وسمحوا لهم باصلاح كنائسهم وزخرفتها بالفسيسفاء والأيقونات والصور وغيرها. أما رجال الدين الأرثوذكس أنفسهم، فقد تركهم الصليبيون فى مناصبهم ولم يتعرضوا لهم، وكل ما هنالك هو أنهم عينوا بعض رجال الدين الكاثوليك فى الأسقفيات الشاغرة(٣).

على أن هذه السياسة الوديعة تجاه الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها لم تلبث أن تبدلت عندما تكاسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين فى الحضور إلى الشام لمساندة الصليبيين ؛ ثم عندما اكتشف الصليبيون إتصالاته مع الفاطميين فى مصر. ومن ذلك أن بوهيموند عندما ثبت مركزه فى أنطاكيه لجأ الى خلع حنا الرابع بطرق أنطاكية الأرثوذكسى وأحل محله بطرقاً كاثوليكياً (٤).

ومهما يكن من أمر، فان الصليبيين بوجه عام رأوا ان ينتظروا الإمبراطور ألكسيوس كومنين ؛ حتى إذا ما حل يوم ٣ يولية ١٠٩٨ ولم يحضر عقد زعماؤهم مجلساً لتحديد موعد الزحف على بيت المقدس، واختير أول شهر نوفمبر لذلك حتى تكون حرارة الصيف قد خفت حدتها وأصبح الجو ملائماً لحركة الجيوش الصليبية (٥).

---

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 207.
(2) Albert d'Aix, p. 433.
(3) Guillaume de Tyr, p. 274.
(4) Grousset : Hist. des Coisades I, p. 114.
(5) Runciman : op. cit. I, p. 250.

احتلال البارة ومعرة النعمان :

تعرض الصليبيون للخمول خلال المدة الطويلة التى قضوها فى شمال الشام، ففترت الحماسة الصليبية فى نفوسهم، وظهر شعور عام بالاستكانة بينهم، وبدأ كل واحد من أمرائهم يعتقد أن دوره فى الحرب الصليبية ينتهى بتأسيس إمارة مناسبة لنفسه فى الشرق، مما هدد الحملة الصليبية الأولى بالتفتت فى شمال الشام. وقد حرص بوهيموند فى تلك المرحلة على ان يبدو دائما فى صورة أمير أنطاكية وحاكمها الأوحد، فمنح الجنوية فى ١٤ يولية براءة خولتهم الحق فى سوق خاص بهم وكنيسة، فضلا عن ثلاثين بيتاً من بيوت أنطاكية، تشكل حياً صغيراً لنشاطهم التجاري. وبذلك ضمن مناصرة الجنوبية له واعتماده عليهم وعلى مساعدتهم للاحتفاظ بمواصلاته مع إمارة النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا (١).

وربما كان الرجل الوحيد الذى ظل يوحد بين صفوف الصليبيين فى ذلك الوقت دون أن تكون له مطامع الأمراء الشخصية هو المندوب البابوى أدهمار الذي حرص على أن يؤلف بين قلوب أمراء الصليبيين وبوجههم نحو عمل يتفق وطبيعة المهمة الصليبية التي أتوا من أجلها إلي الشرق. على أن تعدد المعارك فى ساحة أنطاكية وكثرة القتلى والجيف، نتج عنه انتشار وباء فى المعسكر الصليبى، ذهب ضحيته بضعة آلاف من الصليبيين من بينهم أدهمار نفسه (أول أغسطس سنه ١٠٩٨) . وقد دفع ذلك الوضع الصليبيين إلى القيام بغزوات وجولات قريبة خارج أنطاكية – ليبتعدوا عن منطقة الوباء (٢).

ومن تلك الغزوات الصغيرة التى قام بها الصليبيون عندئذ، خروج فارس من أتباع ريموند الصنجيل – إسمه ريموند بليه Raymond Pilet – على رأس قوة صغيرة فى منتصف يولية سنة ١٠٩٨ مخترقاً طريق معرة مصرين بقصد إحتلال معرة النعمان وتل منس (تلمنس)، وهي الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرقى من أنطاكية، أى داخل نطاق ممتلكات رضوان ملك حلب السلجوقي. ويفهم من رواية ابن العديم أن الفارس ريموند كان على صلة بالسريان والأرمن فى تلك النواحى قبل أن يقوم بحملته، وأنهم شاركوه فى الزحف، مما سهل له مهمته (٣). ولكن رضوان أسرع بارسال قطعة من عسكر حلب إليهم، فالتقى الحلبيون بالصليبيين

(1) Heyd : op. cit., Tome I, p. 134.

(2) Cam. Med Hist vol. 5, p. 295. and Michaud : op. cit., I, p. 333 & Gesta Francorum pp. 162 - 165.

(٣) وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصاري بلد المعرة علي المعرة وقاتلوها.
ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٨ (مطبوع).

بين تل منس ومعرة النعمان، وعندها لم يقو الصليبيون على مقاومة الجيش الحلبى من جهة، وحرارة الجو مع قلة الماء من جهة أخري، فانهزم الفرنج وبقى الرجالة منهم، فقتل منهم زائداً عن ألف رجل، وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان فى حين ارتد ريموند إلى تل منس(١).

أما جودفرى بوايون فقد خشى على نفسه من الوباء الذى انتشر فى أنطاكية فقصد أخاه بلدوين فى الرها، الذى أعطاه تل باشر والراوندان (أوائل أغسطس ١٠٩٨)(٢). هذا فى حين اتجه بوهيموند إلى قيليقية حيث دعم الحاميات الصليبية التى تركها تنكرد فى طرسوس وأذنه والمصيصة ومرسين فى الخريف السابق، وتأكد من ولائها له، مما يشير إلى أنه كان ينوى إدخال إقليم قيليقية فى حيز الإمارة التى يعتزم إقامتها لنفسه فى أنطاكية (٣).

وفى سبتمبر سنة ١٠٩٨ عاد جودفرى بوايون إلى أنطاكية حيث نظم مع ريموند الصنجيل حملة اكتسبت طابعاً غريباً، لأن الصليبيين قاموا فيها بالدفاع عن عمر والى عزاز ضد رضوان ملك حلب (٤). وكان حصن عزاز هذا يقع على بعد اربعين كيلو متراً تقريباً شمالى حلب، على الطريق الرئيسى بين أنطاكية من ناحية والرها وتل باشر من ناحية اخري. وعندما عصي عمر والى عزاز سيده رضوان، أرسل الأخير جيشاً لمحاصرته، وعندئذ لم يسع عمر سوى طلب النجدة من جودفرى (٥). وأكثر من هذا أن عمر أرسل إبنه محمود ليظل رهينة عند جودفرى ضمانا لإخلاصه واثبات عدم نيته في التغرير بالصليبيين (٦). ولم يكن فى وسع جودفرى أن يشن حرباً علي حلب دون الاستعداد الكافي، فحصل على مساعدات قوية من بوهيموند ومن أخيه بلدوين فى الرها، وعندئذ رفع رضوان الحصار عن عزاز وسحب قواته إلى حلب. على أن جودفرى بوايون لم يقتنع بذلك وإنما رأى أمامه فرصة لتحقيق بعض الأطماع الصليبية فى شمال الشام. ولذلك استمر فى طريقه إلى عزاز، حيث خرج عمر والى الحصن لاستقباله،

---

(١) المصدر السابق – نفس الجزء والصفحة .

(2) Setton : op. cit., I, p. 325.

(3) Runciman : op. cit., I, p. 254 and Stevenson : The Crusaders, p. 29.

(4) Setton : op. cit., I, p. 325.

(٥) ابن العديم. زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٤١ (مطبوع).

(6) Michaud : op. cit., I, p. 339.

ويروي ابن العديم أن هذا الابن ظل رهينة إلي أن مات عند الفرنج (زبدة الحلب، ج٢ ص ١٤١).

وترجل أمامه من فوق فرسه، وأعلن تبعيته له (منتصف سبتمبر ١٠٩٨) (١). ولم يغفر رضوان صاحب حلب لعمر فعلته هذه، فما زال به حتى أخذ عزاز منه ثم قتله في حلب(٢).

وفي نهاية سبتمبر قام ريموند الصنجيل بحملة على البارة، وهى مدينة تابعة لمملكة حلب تقع شرقى نهر العاصي بين جسر الشغر (الشغور) ومعرة النعمان(٣). ويبدو أن رضوان لم يقم بأية محاولة للدفاع عن البلدة فاستولى عليها ريموند فى حوالي ٢٥ سبتمبر ،وعاقب الرجال والنساء واستصفى أموالهم وسبى بعضا وقتل بعضا، . فضلال عن أنه حول جامعها الكبير إلى كنيسة (٤).

على أن تلك الغزوات المحلية التى قام بها الصليبيون فى ذلك الدور لم تكن فى حقيقة أمرها إلا وسيلة لقضاء الوقت حتى يحين موعد الزحف على بيت المقدس. ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف بانقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة، فعقد الصليبيون مجلساً فى ٥ نوفمبر سنه ١٠٩٨ بكنيسة القديس بطرس بانطاكية، وأجمع الزعماء جميعاً على استئناف الزحف نحو بيت المقدس، ما عدا بلدوين الذى كان مشغولا بتنظيم إمارته فى الرها (٥).

ومن الواضح أن هذا القرار لم يلبث أن أثار أمام الصليبيين من جديد مشكلة أنطاكية ووضعها القانوني، لاسيما وأن بوهيموند - يسانده معظم الأمراء - ظلّ متمسكاً بحقه فى السيطرة على المدينة، فى حين نازعه ريموند ذلك الحق. حقيقة أن الصليبيين حاولوا التهرب مرة أخرى من تلك المشكلة وتأجيلها من جديد بأن أرسلوا إلى البابا فى ١١ سبتمبر يخبرونه بوفاة مندوبه أدهمار ويطلبون منه الحضور شخصياً لزيارة كنيسة القديس بطرس فى أنطاكية بوصف البابا وريث القديس بطرس فى رئاسة الكنيسة البطرسية. ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا واثقين من أن البابا لن يستطيع تلبية دعوتهم، ومن ثم لن تحل مشكلة أنطاكية، على يد البابا، مما تطلب التفكير فى وضع حل لها على يد زعماء الصليبيين أنفسهم(٦).

وعندما أدرك بوهيموند أنه لن ينال أنطاكية برضاء الإمبراطور البيزنطى

---

(1) Albert d'Aix, p. 439 and Guillaume de Tyr, p. 283.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٤١.

(3) Chalandon : Première Croisade, pp. 244 - 246.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٤١ & Gesta Francorum. pp. 167 - 169

(5) Michaud,op. cit., pp. 346 - 347.

(6) Runciman op. cit., I, p. 256.

صمم على أن يمتلكها رغم إرادة الإمبراطور، فتحولت سياسته من مهادنة الإمبراطورية واحترام حقوقها إلى معاداتها وسلب حقوقها. وعندئذ انقلبت سياسة ريموند هو الآخر فأصبح من المنادين بالتمسك بحقوق الإمبراطورية البيزنطية واحترام الأتفاقية التى عقدها الصليبيون مع الإمبراطور البيزنطى سنة ١٠٩٧(١). وهكذا انقلب الموقف رأساً على عقب، فصار بوهيموند - وهو أول من عقد إتفاقاً مع الإمبراطور البيزنطى تعهد له فيه بالولاء - ينادى بالخروج عن ذلك الاتفاق، فى حين أمسى ريموند - وهو الأمير الوحيد من أمراء الحملة الذى لم يتقيد بالاتفاقية السابقة ولم يقسم يمين الولاء للامبراطور - هو المدافع عن حقوق الإمبراطورية والمنادى باحترام الاتفاقية التى عقدها الصليبيون مع الكسيوس كومنين. وبذلك أدت مشكلة أنطاكية إلى تعقيد الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين، فضلا عن تعقيد الموقف بين زعماء الحملة الأولى بعضهم وبعض(٢).

وكان أن طال الجدل والنقاش بين زعماء الحملة الصليبية الأولى حول مصير أنطاكية، وعندئذ استاء الجند وبقية الفرسان، وأعلنوا أن الوقت قد حان ليبروا بقسمهم الصليبى ويستردوا بيت المقدس، فأنذروا الزعماء بأنهم إذا استمروا فى منازعاتهم الخاصة حول المسألة الأنطاكية، فإن الصليبيين جميعاً سيتركونهم فى أنطاكية ويتجهون رأساً إلى بيت المقدس ؛ ولكنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد أن يدمروا أسوار أنطاكية ويتركونها للزعيميين المتنازعين - ريموند وبوهيموند - مكشوفة عارية أمام المسلمين والبيزنطيين جميعاً (٣).

ولاشك فى أن هذا التهديد أثار مخاوف بوهيموند وريموند جميعاً، فضلا عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم ومستقبل الحملة، ومن ثم بدأت المساعى الجدية للوصول الى حل لتلك الأزمة. ويبدو أن بوهيموند وريموند خشيا عندئذ أن ينفذ الصليبيون تهديدهم، فتوصلا إلى إتفاق سريع فى نهاية نوفمبر لشغل الصليبيين وتوجيههم وجهة تتفق ورغبتهم فى مهاجمة المسلمين. أما هذه الوجهة فكانت معرة النعمان، التى سبق أن هاجمها الصليبيون فى شهر يوليو، وباء هجومهم عليها بالفشل (٤).

(1) Brehier : op. cit. p. 314.
(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 120.
(3) Gesta Francorum, p. 171.
(4) Stevenson : op. cit; p. 30.

وعندما هاجم الصليبيون معرة النعمان استغاث أهلها بالملك رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص فلم ينجدهم أحد (١). ولم يكن للأهالى من القوة والإمكانات ما يمكنهم من المقاومة طويلا، فاضطروا إلى الاستسلام للصليبيين فى ١١ ديسمبر (٢)، وعندئذ لم يحترم الصليبيون الأمان الذى أعطوه لأهل معرة النعمان، وإنما «غدروا بهم ورفعوا الصلبان فوق البلد، وقطعوا على أهل البلد القطائع، ولم يفوا بشيء مما قرروه، ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به»(٣). وتضيف المصادر الصليبية إلى ذلك أن الصليبيين أحرقوا المعرة أولا عن آخر(٤).

على أنه على الرغم من اشتراك بوهيموند وريموند سوياً فى الاستيلاء على معرة النعمان، إلا أن الحزازات استمرت قائمة بين الرجلين بسبب مشكلة أنطاكية. ويبدو أن ريموند نفسه أدرك أن هذه المشكلة طالت أكثر مما ينبغى وأنه لابد من وضع حد سريع لها. ولذلك دعا الأمراء الى الاجتماع به فى أوائل يناير سنة ١٠٩٩، وعرض عليهم مبالغ ضخمة من المال ليكتسبهم إلى جانبه ويعلنونه زعيماً أوحداً للصليبيين جميعاً، ولكن عرضه قوبل بفتور من جانب الأمراء (٥). وأخيراً رأى ريموند أن الموقف لم يعد يحتمل التأجيل بعد ماعم الاستياء جميع صفوف الصليبيين، فخرج ريموند من معرة النعمان فى ١٣ يناير سنه ١٠٩٩ على رأس جيوشه معلنا الزحف على بيت المقدس، وتبعه بقية الصليبيين، ما عدا بوهيموند الذى اختار البقاء بانطاكية (٦). وهكذا حلت المشكلة بين ريموند وبوهيموند بأن أصبح ريموند الزعيم الذى لا ينافسه أمير آخر فى قيادة الحملة الصليبية، فى حين قنع بوهيموند بتحقيق حلمة فى أمتلاك أنطاكية (٧).

وأخيراً تحركت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهراً فى شمال الشام (أكتوبر ١٠٩٧ - يناير ١٠٩٩) (٨).

---

(١) ابن الأثير : الكامل، سنة ٤٩١ ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٤١ - ١٤٢.

(2) Albert d'Aix p. 268 & Gesta Francocrum p. 175.

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦، وقد قدر ابن القلانسي عدد قتلي المسلمين فى معركة معرة النعمان بأكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي، في حين قدرهم ابن الأثير بما يزيد عن مائة ألف.

(4) Chalandon : Première Croisade, p. 249.

(5) Gesta Francorum, p. 279.

(6) Michaud, op cit. I, pp. 345 - 347.

(7) Cam. Med Hist. vol. 5, p. 295.

(8) Setton : op. cit., I, p. 327.

الباب الرابع
سقوط بيت المقدس

" لتبلون في أموالكم وأنفسكم
ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب
من قبلكم ومن الذين أشركوا
أذى كثيرا . وإن تصبروا وتتقوا
فإن ذلك من عزم الأمور"

(آل عمران : ١٨٦)

الفصل الأول

الطريق الى بيت المقدس

الصليبيون والامارات العربية فى أواسط بلاد الشام :

اتجه ريموند على رأس الصليبيين من معرة النعمان إلى كفر طاب ، وهى قلعة على بعد عشرين كيلو مترا إلى الجنوب ، حيث مكثوا هناك حتى ١٦ يناير ١٠٩٩ وفى تلك الفترة لحق بهم روبرت النورمانى وتنكرد . وبوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم وبين البيوت العربية التى انتهزت فرصة انحلال قوى السلاجقة لتؤكد استقلالها ببعض المدن والحصون مثل حمص وطرابلس وشيزر(١) . وجدير بالذكر أن أولئك الأمراء العرب كان مسلكهم تجاه الصليبيين مختلفاً تماماً عن مسلك الأتراك الذين لم يعرفوا سوى السيف ، فى حين أدرك الأمراء العرب فى الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قريبهم تحميهم من ذلك الخطر ، فآثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الأتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض .

من ذلك أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ – صاحب شيزر (١٠٩٨ – ١١٤٥) – أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير فى كفر طاب ، وتعهد له بألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وميرة ، فضلا عن أنه أرسل إليهم فى ١٧ يناير سنة ١٠٩٩ دليلين ليرشدا الصليبيين فى عبورهم إقليم العاصى . وقد تم فعلا تنفيذ تلك الاتفاقية ، مما يدل على اتجاه الأمراء العرب فى ذلك الدور نحو مسالمة الصليبيين ، رغم ما تعرض له المسلمون من اعتداءات على أيديهم(٢) .

ثم كان أن أراد بعض الصليبيين – وعلى رأسهم ريموند الصنجيل – أن يتجهوا إلى الشمال الغربى لستولوا على جبلة ، وهى مدينة ساحلية تقع جنوبى

---

(1) Setton : op. cit. I. pp. 164 I 165 .

(2) Guillaume de Tyr, p. 265 & Gesta Francorum, p. 181 & Raymond d'Agiles, pp. 272 - 273 .

ولم يذكر ابن الأثير هذه التفصيلات التي وردت في المصادر الغربية ، وإنما اكتفي بعبارة ، وراسلهم منقذ صاحب شيرز فصالحهم عليها .

(الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ)

اللاذقية ، وكانت تابعة لابن عمار صاحب طرابلس[١] . وقد رأى هذا الفريق من الصليبيين أنه من الممكن الحصول على ما يحتاجون إليه من تموين وإمدادات - من قبرص والدولة البيزنطية فضلا عن الغرب الأوربى - إذا هم سلكوا طريق الساحل ، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التى إتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها[٢] . ومعنى هذه الخطة أن يسلك الصليبيون إلى بيت المقدس طريق الساحل - وهو طريق طويل متعرج - فيستولون فى طريقهم على جبلة وانطرطوس وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ، وغيرها من الموانى والمراكز الساحلية .

ولكن تنكرد خالف ذلك الرأى بعد أن أدرك النقص الكبير فى عدد الصليبيين بحيث لم يعد الجيش الصليبى يضم سوى ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة المسلحين[٣] . ومن الواضح أن اتخاذ الطريق الساحلى إلى بيت المقدس كان يستلزم حصار كل مدينة من المدن الساحلية مما يستنفد تضحيات كثيرة ووقتاً طويلا ، بحيث يصل الصليبيون فى نهاية المطاف إلى بيت المقدس وقد تضاءل عددهم وأنهكهم التعب ، وأعطوا خصومهم وقتاً كافياً للاستعداد لملاقاتهم ، الأمر الذى يجعل مهمتهم فى الاستيلاء على بيت المقدس - وهى هدفهم الأساسى - من الصعوبة بمكان . أما إذا سلك الصليبيون الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس فإنهم سيتجنبون كثيراً من المشاكل السابقة ، حتى إذا ما استولوا على المدينة المقدسة ، سهل عليهم بعد ذلك اتخاذها قاعدة وانتزاع بقية المدن الساحلية - مثل طرابلس وصور وعكا - واحدة بعد أخري[٤] .

وقد أدرك بقية الصليبيين صواب رأى تنكرد ، فقرروا اتخاذ أقصر الطرق الداخلية إلى بيت المقدس ، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطىء البحر كلما استدعت ظروف التموين ذلك . وفعلا استأنف الصليبيون زحفهم وفقاً لتلك الخطة فعدلوا مؤقتا عن حصار جبلة واتجهوا نحو مصياب[٥] فى ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ،

---

(١) كان حاكم طرابلس وقت الغزو الصليبي لبلاد الشام جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار الذي توفي سنة ١٠٩٩ ، فخلفة أخوه أبو علي فخر الملك ابن عمار .
(أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٦٠)

(2) Heyd : op. cit. I, p. 134 .

(3) Chalandon : Première Croisade p 253 .

(4) Raymond d' Agiles, p. 273 .

(٥) مصياب : حصن حصين مشهور بالساحل الشامي ، وبعضهم يقول مصياف (ياقوت : معجم البلدان)

وعندئذ خرج اليهم أميرها العربى ، وعقد معهم إتفاقية . ثم اتجهوا نحو بعرين ومنها إلى سهل البقاع ، حيث فرح الصليبيون بما صادفوه من خيرات وفيرة (١) وقد احتمى أهالى تلك المنطقة من العرب المسلمين ، بحصن الأكراد وسط ذلك السهل ، ومعهم ما استطاعوا حمله من ثروة ومال ، فاتجه إليهم الصليبيون وحاصروهم حصاراً محكماً حتى سقط الحصن فى أيديهم فى ٢٩ يناير ١٠٩٩ . وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة حسين بن ملاعب أمير حمص العربي، الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرنجة حتى لايتعرضون لبلدهم بسوء(٢) .

الحملة الصليبية الاولى وبنو عمار :

وبعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة ، وهى مدينة صغيرة ، تقع شمالى طرابلس وتتبعها (٣) . وكانت إمارة طرابلس عندئذ خاضعة لبنى عمار – كما سبق أن أشرنا – فأسرع صاحبها فخر الملك أبو على بإرسال الرسل إلى ريموند لعقد إتفاقية تعهد فيها الأمير العربى بدفع الأموال للصليبيين ، كما أسرع برفع أعلامهم على سور طرابلس وغيرها من المواضع التابعة له إشارة إلى ولائه للصليبيين. أما ريموند الصنجيل فقد أرسل من جانبه رسلا إلى طرابلس للاتفاق مع أميرها فخر الملك ، وعندئذ استرعت نظر رسل الصليبيين ثروة طرابلس وغناها ، وطمعوا فى زيادة الجزية (٤) . وأشاروا على ريموند أن يهاجم عرقة التابعة لإمارة طرابلس ، كنوع من الضغط على أميرها فخر الملك حتى يزيد من قيمة الجزية التى تعهد بدفعها للصليبيين . وسرعان ما صادفت هذه الفكرة قبولا حسنا ، لاسيما وأن عرقه نفسها تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها وسط إقليم غنى بمياهه وثروته الطبيعية(٥) .

وفى الوقت الذى اتجه جزء من الجيش الصليبى لحصار عرْقة ، اتجه فريق آخر نحو انطرطوس(٦)، واستولوا عليها فى حوالى ١٧ فبراير ١٠٩٩ . وكانت

(1) Stevenson , op. cit., p. 31 .

(2) Gesta Francorum, pp. 183 - 185 .

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين ساروا إلي حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة (الكامل سمة ٤٩١ هـ)

(3) Michaud : op. cit., I, p. 349 .

(4) Raymond d'Agiles, p. 275 .

(5) Crousset : Hist. des Croisades, I, pp. 132 - 133 .

(٦) يقول ياقوت إن عرقة – بكسر أوله وسكون ثانيه – بلدة في شرقي طرابلس ، أما انطرطوس – كما كتبها ياقوت في معجم البلدان – أو أنطرسوس – كما كتبها ابن الاثير وغيره من المعاصرين – فهي بلد من أعمال طرابلس .

أنطرطوس هذه ميناء صغيراً على شاطئ البحر ، تابعاً لبنى عمار ، وأدى استيلاء الصليبيين على ذلك الميناء إلى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الايطالية والبيزنطية(١) . هذا فضلا عن أن الاستيلاء على انطرطوس ساعد الصليبيين بعد قليل فى الاستيلاء على مرقية ، إلى الشمال منها .

على أن الصليبيين لم يقنعوا بذلك ، وإنما حدث فى الوقت الذى أخذ ريموند ورجاله يحاصرون عرقة ، أن اتجه جودفرى وروبرت دى فلاندرز لحصار جبلة ، وهى التى كان مفروضاً هى الأخرى أن تكون تابعة لأمير طرابلس ، ولكن القاضى أبو محمود عبيد الله بن منصور استطاع أن يستقل بها عن نفوذ بنى عمار. وقد استمر حصار جبلة من ٢ إلى ١١ مارس ، وانتهى بعقد إتفاق بين أبى محمود قاضى جبلة والصليبيين ، تعهد فيه الأول بدفع جزية من المال والخيل . وبعد ذلك اتجه جودفرى وروبرت إلى عِرْقة تلبية لنداء ريموند الذى طلب مساعدتهما(٢) .

وعلى الرغم من أن الصليبيين جمعوا قواتهم أمام عِرقة فى ١٤ مارس ، وعلى الرغم من سهولة تموين الصليبيين عن طريق البحر، ووفرة ما حصلوا عليه من خيرات فى إقليم طرابلس ، إلا أن حصار عرقة طال دون نتيجة(٣) . وفى تلك الأثناء دأبت بعض جموع من الصليبيين على الإغارة على الضياع والقرى القريبة من طرابلس ، ثم تعود إلى إقايم عرقة محملة بالأسلاب . ولم يلبث أن اعترض جودفرى بوايون على الاستمرار فى حصار عرقة ، «بعد أن حاصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة ثقوب . فلم يقدروا عليه(٤)» . وقد نادى جودفرى بأن الوقت الذى أضاعه الصليبيون فى تلك العملية الحربية لايعادل بأى حال من الأحوال الفائدة المرجوة من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة . لذلك أصر جودفرى على أن يترك الصليبيون حصار عرقة فى الحال ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس(٥) .

---

(1) Raymond d'Agiles, p. 276 .
(2) Gesta Francorum, p. 187 & Albet d'Aix, p. 453 .
(3) Stevenson : op. cit. I, p. 31 .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .
(5) Raymond d'Agiles, p. 278 & Albert d'Aix, pp. 454 - 455 .
هذا ويذكر ابن الأثير أنه عندما طال حصار الصليبيين لعرقة : راسلهم منقذ صاحب شيزر ، فصالحهم عليها (حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

ومن الثابت أن ريموند أخذ فى تلك المرحلة يندم على استعانته بجودفرى وروبرت واستحضارهما من جبلة لمعاونته . فحتى ذلك الوقت – ومنذ أن زحف الصليبيون من أنطاكية – كان ريموند هو زعيم الصليبيين فى زحفهم على بيت المقدس ، حتى أن تنكرد نفسه اعترف له بتلك الزعامة مقابل مبلغ كبير من المال. أما وقد حضر جودفرى ، فإن نفوذه أخذ يطغى على نفوذ ريموند ، وانضم تنكرد وروبرت إلى جانب جودفرى ، مما أضر ضرراً بليغاً بمركز ريموند الصنجيل ومكانته (١) .

وزاد الموقف توتراً بين ريموند وجودفرى وصول بعثة من قبل الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس – فى حوالى ١٠ أبريل سنة ١٠٩٩ – تحمل رسالة منه إلى زعماء الصليبيين وهم رابضون أمام عرْقة . وقد استهل الإمبراطور رسالته بتذكير الصليبيين بالاتفاقية بينهم وبينه سنة ١٠٩٧ . ثم عبر عن استيائه لأن بوهيموند نكث بعهده للامبراطور بعد أن كان أول من أقر الاتفاق معه ، فاستأثر بإنطاكية وأصر على أن يجعل منها إمارة لنفسه . وأخيراً عرض الإمبراطور على الصليبيين أن ينتظروه حتى أواخر يونية ليحضر إليهم بنفسه ويشترك معهم فى الزحف على بيت المقدس ، ويتحمل عنهم كل أعباء الحرب ونفقاتها (٢) .

ومن الواضح أن هذا العرض من جانب الإمبراطور البى زنطى بدا طيباً لأول وهلة ، لأنه سيؤدى إلى إقامة جبهة مسيحية قوية فى الشرق الأدنى ، لا يستطيع المسلمون التغلب عليها أو مقاومتها . هذا فضلا عن أن حضور الإمبراطور بنفسه سيهئ للصليبيين قيادة عليا قوية ، وهو الأمر الذى باتوا يفتقرون إليه منذ وفاة أدهمار – المندوب البابوى – فى أنطاكية . لذلك رحب ريموند الصنجيل بفكرة انتظار الإمبراطور ، وربما رأى فى ذلك الحل فرصة طيبة للاستعانة بالإمبراطور فى توطيد زعامته على الصليبيين من ناحية (٣)، فضلا عن استخدام قوى الصليبيين أثناء فترة الانتظار فى الاستيلاء على عرْقة ليتخذها – بالاضافة إلى أنطرطوس – نواة للامارة التى أخذ يحلم بتأسيسها لنفسه فى طرابلس من ناحية أخري(٤) .

على أن غالبية الأمراء الصليبيين – وعلى رأسهم جودفرى بوايون – عارضوا فكرة إنتظار الإمبراطور البيزنطى ، ونادوا بالزحف فوراً على بيت

(1) Runciman : op. cit., I, pp. 271 - 272 .
(2) Guillaume de Tyr, p. 307 .
(3) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 214-215 .
(4) Grousset : Hist, des Croisades, I, p. 138 .

المقدس . وكانت حجتهم فى ذلك قوية وهى أن العرض البيزنطى جاء متأخراً بعد فوات الأوان ، فضلا عن أن الإمبراطور ألكسيوس كثيراً ما وعد وأخلف ، وطالما خدع الصليبيين بوعوده ، ومناهم بالأمانى المعسولة دون أن يحقق شيئاً . وكان آخر ما يذكره الصليبيون للامبراطور البيزنطى أنه وعدهم بالحضور لمساعدتهم أمام أنطاكية فانتظروه وأضاعوا الأشهر الطويلة ، ولكنه لم يحضر[1] هذا كله بالأضافة إلى أن الصليبيين أخذوا يحسون فى ذلك الوقت بما كان يجرى من اتصالات بين الإمبراطور البيزنطى والفاطميين . ذلك أن الفاطميين دهشوا عندما وجدوا الصليبيين يتقدمون جنوباً صوب فلسطين ، فأرسلوا إلى الإمبراطور ألكسيوس يسألونه عما إذا كانت تلك الحركة تعمل لحسابه ، ولكنه أنكر علاقته بها [2] .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفرى بوايون - يسانده روبرت دى فلاندرز - استطاعا إجبار ريموند الصنجيل على احترام رأى جموع الصليبيين فى الزحف دون إبطاء على بيت المقدس ، مما أكسب جودفرى محبة الصليبيين وتقديرهم [3] وكان أن اضطر ريموند إلى رفع الحصار عن عرقة فى ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ ، وبذلك فشلت محاولته هذه فى تلك المرحلة فى استخدام الصليبيين فى تأسيس دولة لنفسه على شاطئ الشام ، مثلما فعل بوهيموند فى أنطاكية [4] .

ولاشك فى أن إخفاق الصليبيين فى الاستيلاء على عرقة بعد ذلك الحصار الطويل ، وما ظهر فى صفوفهم من خلافات وتيارات متعارضة أثناء الحصار ، كل ذلك أدى إلى تقوية مركز أمير طرابلس ابن عمار ، الذى لم يلبث أن سحب عروضه السابقة على الصليبيين قبل أن يرفع هؤلاء حصارهم عن عرقة . ولكن قيام الصليبيين بالهجوم على طرابلس ، وإنزالهم الهزيمة بالمسلمين فى أواخر شهر مارس وأوائل أبريل ، جعل ابن عمار يعود إلى رشده ويركن إلى مسالمة الصليبيين، فتعهد بالاستمرار فى دفع الجزية فضلاً عن دفع غرامة حربية باهظة لهم[5]. وقد اكتفى الصليبيون بذلك ، فغادروا إقليم طرابلس فى ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ ، وتولى إرشادهم بعض الإدلاء من طرابلس نفسها حتى وصلوا مساء ١٩ مايو أمام بيروت[6] .

---

(1) Michaud : op. cit., p. 361 .
(2) Runciman : op. cit., I, p. 272 .
(3) Albert d'Aix, pp. 455 & Raymond d'Agiles, p. 289 .
(4) Stevenson : op. cit., p. 32 .
(5) Raymond d'Agiles, p. 285 & Guilaume de Tyr, pp. 308 - 309 .
(6) Albert, d'Aix, pp. 455 & Raymond d'Agiles, p. 289 .

الفاطميون وبيت المقدس :

يعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين – الذين أطلق عليهم اسم المصريين – وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التى نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، فيقول «ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر ، وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال ؟؟» (١). ثم يسترسل أبو المحاسن فى وصف سوء حال الصليبيين عندما زحفوا على الشام ، وكيف أن المسلمين فى العراق والشام حاولوا صدهم ، «كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج ؟» (٢) .

والحقيقة هى أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها – كما سبق أن أشرنا – وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة فى شمال الشام ليستردوا فلسطين وبين المقدس ، ظناً منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصليبيين جميعاً . ولا أقل لإثبات صحة هذا الرأى من إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التى مرت بها فلسطين قبيل وصول الصليبيين مباشرة إلى بيت المقدس(٣) .

ذلك أننا رأينا كيف استطاع الأتابك اتسزبن أوق (الاقسيس) أن يستولى على بيت المقدس باسم السلطان ألب أرسلان من الفاطميين سنة ١٠٧١ ، ومن ثم ظل أتسز هذا يحكم فلسطين منذ تلك السنة حتى سنة ١٠٧٩ ، عندما آلت فلسطين إلى تتش الذى عين أحد رجاله التركمان – وهو أرتق بن أكسب مؤسس بيت الأراتقة – حاكما على بيت المقدس . وعندما توفى أرتق هذا سنة ١٠٩١ حل محله ابنه سكمان تحت سيادة ابنه دقاق بن تتش ملك دمشق(٤) .

على أن الفاطميين لم يستطيعوا أن يسكتوا مطلقاً عن ضياع بيت المقدس من أيديهم ، لذلك رحبوا بتقدم الصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى على حساب الأتراك السنيين ، ووجدوا فى ذلك فرصة طيبة لاسترداد حقوقهم الضائعة فى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٧ .
(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٧ . ويقصد بعساكر مصر الجيش الفاطمي .
(٣) للوقوف علي حقيقة موقف الدولة الفاطمية من الحركة الصليبية ، أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية (بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ١٦ ، ١٩٦٩) وانظر كذلك : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطي (للمؤلف) ص ١٦٥ وما بعدها .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٣ ، ٤٩٢ هـ ، وابن القلانسي ، ص ١٣٥ .

فلسطين . بل إن المؤرخ ابن الأثير لم يتردد فى إتهام الفاطميين بأنهم هم الذين دعوا الفرنجة إلى بلاد الشام ليساعدونهم ضد الأتراك السلاجقة(١) . وبعبارة أخرى فإن الفاطميين لم يروا فى الانتصارات التى أحرزها الصليبيون فى ضوروليوم وأنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين ، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هى تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذين سادوه قرابه نصف قرن من الزمان ، استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعاً ، الشيعة والسنة سواء .

وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة فى تلك اللحظة التى وجدوا نفوذ الأتراك قد انهار فى بلاد الشام ، دون أن يستطيع رضوان ملك حلب أو دقاق ملك دمشق أو حتى السلطان بركياروق نفسه أن يمنع تقدم الفرنج أو يقف فى طريقهم . وربما اعتقد الفاطميون أن ساعة الانتقام من الأتراك قد أزفت ، الإنتقام للعنصر العربى بوجه عام ، والشيعة بوجة خاص(٢) . ولم يكد يحل الصليبيون بإقليم أنطاكية ، حتى أسرع الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه ، حاكم مصر الفعلى عندئذ (١٠٩٥ - ١١٢١) إلى بذل كل جهد ممكن لعقد تحالف بين الفاطميين والصليبيين ضد العدو المشترك للطرفين ، وهم الأتراك السلاجقة . ووصلت رسل الأفضل فعلا إلى الصليبيين أمام أنطاكية أثناء حصارهم لها (١٠٩٧ - ١٠٩٨) كما سبق أن أشرنا . أما العرض الذى تقدم به الأفضل للصليبيين فكان واضحاً بسيطاً ، خلاصته أن يتعاون الطرفان فى القضاء على السلاجقة ، ثم تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما بحيث يكون القسم الشمالى (سوريا) للصليبيين ، والقسم الجنوبى (فلسطين) للفاطميين(٣) . وليس أدل من هذا العرض على جهل الفاطميين بحقيقة الحركة الصليبية وعدم إدراكهم أن الصليبيين لم يتركوا بلادهم فى غرب أوربا ويتحملوا ما تحملوه فى الشرق إلا لاستخلاص الأراضى المقدسة فى فلسطين . ففلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص هما الهدف الأول الرئيسى للصليبيين . هذا وإن كان الصليبيون قد أظهروا مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين ، فاختاروا أن يتركوهم على عماهم ولم يفصحوا

---

(١) وقيل : أن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها علي بلاد الشام إلي غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخري تمنعهم من دخول الإقسيس (أتسز) إلي مصر وحصرها ، خافوا فأرسلوا إلي الفرنج يدعونهم إلي الخروج إلي الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين .....

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ) . ويعني بالمسلمين أهل السنة .

(2) Grousset : Hist., des Croisades I, pp. 144 - 145 .

(3) Setton : op. cit., vol. I, p. 316 .

لهم عن نواياهم تجاه فلسطين ، بل أرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة - رداً على سفارة الأفضل - تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك (١).

على أن الوزير الأفضل لم يشأ أن ينتظر وصول الصليبيين إلى فلسطين ، وإنما اختار أن يعمل فوراً . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور «بالسيف» في ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراتقة ، ولكنه لم يحاول ان يهاجم بيت المقدس عندئذ وترك ذلك للوقت المناسب(٢). ولم يلبث أن حان الوقت المناسب والصليبيون مازالوا متعثرين في منطقة أنطاكية فخرج الأفضل على رأس جيوشه ، واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكمان (سقمان) الأرتقي وأخيه إيلغازي في ١٠٩٧(٣) . وقد « أحسن الأفضل إلى سقمان وإيلغازي ومن معهما وأجزل لهما العطاء» . كما سمح لهما الأفضل بالخروج من بيت المقدس ، فإتجه الأخوان نحو دمشق ومنها إلى الجزيرة حيث استطاعا أن يؤسسا إمارة لبني أرتق هناك(٤) . أما فلسطين فقد غدت جزءاً من الدولة الفاطمية . ولم تكد تحل سنة ١٠٩٨ إلا وكانت حدود تلك الدولة قد أمتدت إلى نهر الكلب شمالا ومجرى الأردن شرقا (٥) .

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التي أمسى فيها العالم الإسلامي نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ، فإن الحقيقة المرة لم تلبث أن صدمتهم . فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو المشترك وهم الأتراك ، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطميين على بيت المقدس ، غدا الحليفان وجهاً لوجه ، ولا مناص من حدوث صدام بينهما . وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للصليبيين أرسل إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين ، كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمي خلاصته أن يسهل لهم مهمة الحج إلى أماكنهم المقدسة على شكل مجموعات من مائتي أو ثلثمائة حاج بشرط إلا يكونوا مسلحين(٦) . ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم

---

(1) Michaud : op. cit., I, p. 362 .

(٢) إبن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ، سنة ٤٩١ هـ .

(٤) « فسارا إلي دمشق ثم عبرا الفرات ، فأقام سقمان ببلد الرها وسار إيلغازي إلى العراق ، (ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٢ هـ) .

أنظر كذلك أبن ميسر ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ - ١٣٨

(5) Setton : op. cit., I, p. 316 .

(6) Michaud : op. cit. I, pp. 362 - 363 .

سيتمكنون من الحج فعلا ، ولكن بمعونة الرب وارادته . وكان معنى ذلك بداية الصدام بين الصليبيين والفاطميين من أجل بيت المقدس(١) .

سقوط بيت المقدس :

بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب ، ولكنهم – فيما يبدو – لم يتركوا قوات كافية لدعم نفوذهم فى تلك الجهات والدفاع عنها ، وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الساحلية التى ظل الأسطول الفاطمى قادراً على إمدادها بالرجال والزاد من ناحية أخري(٢) . وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا إقليم طرابلس فى طريقهم إلى بيت المقدس . وهنا نجد معظم تلك المدن الساحلية تحاول أن تحذو حذو طرابلس نفسها ، فتحصل على مسالمة الصليبيين بأحسن الشروط الممكنة . من ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم ، عرضوا عليهم إمدادهم بالمؤن فضلا عن تقديم مبلغ كبير من المال ، كل ذلك مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للأهالي(٣) . وأكثر من هذا فقد تعهد أهل بيروت بالدخول فى طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم ، إذا هم نجحوا فى إحتلال بيت المقدس(٤) . وهذا بعكس ما حدث عندما مر الصليبيون بصيدا (٢٠ مايو ١٠٩٩) إذ اعتدت حامية صيدا على بعض الجند الصليبيين ، مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة ويعتدون على الضياع القريبة (٥) .

وبعد ذلك مر الصليبيون بصرفند وصور ، حيث انضم إليهم (٢٣ مايو سنة ١٠٩٩) بعض الفرسان القادمين من الرها وأنطاكية لمساعدتهم . وقد التزم الصليبيون طريق الساحل بعد صور ، فمروا بعكا التى قام حاكمها بتموين الصليبيين ، كما تعهد بالدخول فى طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس(٦) . وهكذا مضى الصليبيون فى تقدمهم فمروا بقيسارية فى ٢٦ مايو ، ثم بأرسوف بعد

(1) Guillaume de Tyr, I, pp. 305 - 306 .
(2) Runciman : op. cit. I, p. 275 .
(3) Setton, op. cit., p. 341 .
(4) Albert d'Aix, p. 458 .
(5) Guillaume de Tyr, p. 33

(٦) تختلف رواية ابن الأثير عن ذلك ، إذ قال إن الصليبيين ، حصروا عكا فلم يقدروا عليها، (الكامل ، سنة ٤٩٢ هـ) والرواية الأولي هي التي أجمعت عليها المصادر الصليبية .

ذلك بقليل[١] . ولم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه إلى يافا ، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلى ويشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة ومع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائماً على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر، فاحتلوا الرملة التى هجرها أهلها وتركوا فيها حامية صغيرة[٢] . وعلى مقربة من الرملة كانت اللد وبها كنيسة القديس جرجس (جورج) التى أقامها البيزنطيون . فلما علم أهل تلك الناحية ، باقتراب الصليبيين أحرقوا الكنيسة ، ولكن الصليبيين رمموها ، وأقاموا أسقفاً كاثوليكياً على إقليم اللد والرملة ، اتخذ كرسيه فى كنيسة القديس جرجس[٣] .

وأهم ما حدث فى تلك الفترة التى قضاها الصليبييون فى الرملة (أوائل يونية سنة ١٠٩٩) ، أنهم عقدوا مجلساً للحرب ، ناقشوا فيه عدة مسائل ، أهمها الرأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين فى مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا فى القاهرة ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة فى بيت المقدس فعليهم أن يؤمنوا أنفسهم بالاستيلاء على دلتا النيل[٤] . وسنرى فيما بعد أن هذه الفكرة ظلت مسيطرة على عقول زعماء الحركة الصليبية طوال عصر الحروب الصليبية ، حتى وضعت موضع التنفيذ أكثر من مرة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ولكن من الواضح أن الظروف التى أحاطت بالصليبيين فعلا فى نهاية القرن الحادى عشر لم تسمح مطلقاً بتلك المغامرة ، لأن مملكة بيت المقدس لم تكن قد ولدت بعد ، ولأن أقدام الصليبيين لم تكن قد ثبتت فى فلسطين مثلما صار عليه الوضع فى القرن الثالث عشر[٥] .

وكان أن تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرة ، فغادر الصليبيون الرملة فى ٦ يونية سنة ١٠٩٩ . وفى الطريق التقوا ببعض المسيحيين الوافدين من بيت لحم ، وهؤلاء استحثوا جودفرى بوايون على الإسراع إلى بيت المقدس ، لأن الفاطميين يتوعدون المسيحيين ويتأهبون للثأر منهم ، فضلا عن أنهم استحضروا عمالا من مصر لتقوية الاستحكامات فى بيت المقدس[٦] . لذلك أرسل جودفرى

---

(1) Albert d'Alex, p. 460 .
(2) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 33 .
ويقول أبو المحاسن : إن الصليبيين أخذوا الرملة وقت إدراك الغلة أي وقت الحصاد . (النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٠) .
(3) Gesta Francorum : p. 193 & Guillaume de Tyr, p. 313 .
(4) Raymond d'Aix, p. 299 .
(5) Albert d'Aix, p. 292 .
(6) Ibid .

فرقة من الفرسان بقيادة تنكرد إلى بيت لحم حيث استقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالا حافلا ، مهللين بأن ساعة الخلاص قد حانت ، وأنهم جميعاً أتباع المسيح ورعاياه ، لافرق بين كاثوليك وأرثوذكس وسريان[1]. وبعد ذلك غادر تنكرد بيت لحم لملاقاة بقية الجيش الصليبى ، بحيث لم يحل يوم ٧ يونية ، إلا وكان الصليبيون جميعاً أمام أسوار بيت المقدس . وهنا أفاض المؤرخون الصليبيون فى وصف مشاعر الصليبيين وأحاسيسهم عندما وجدوا أنفسهم أمام تلك المدينة المقدسة ، وما أثارته رؤياها فى نفوسهم من ذكريات حبيبة إلى قلوبهم [2].

وفى تلك الأثناء كان افتخار الدولة – حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل [3] – قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار ، وقطع موارد الماء ، وأخفى المواشى [4] ، وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين ، فضلا عن إهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمداً فى الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند الفاطميين والسودان[5].

ولم يكد الصليبيون يشرعون فى حصار بيت المقدس فى ٧ يونية سنة ١٠٩٩ حتى آخذوا يهاجمون المدينة معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم[6]. وفى حوالى منتصف يونية وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوية التى استطاعت الاستيلاء على المدينة فى سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين عندما علموا باقتراب الصليبيين من أرسوف . ومن الثابت أن تلك السفن الجنوية أحضرت للصليبيين كثيراً مما كانوا يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التموين[7]، الأمر الذى جعلهم أمام بيت المقدس يحرصون على تأمين الطريق بينهم وبين يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التى تجلبها لهم الأساطيل الغربية[8]. ولاشك فى أن تلك المعونة البحرية كان لها أثرها الفعال فى دعم مركز الصليبيين ، وفى إمدادهم بما احتاجوا اليه ، مما مكنهم من مواصلة الحصار والهجوم ، فى الوقت الذى كانت الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت

---

(1) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III) , pp. 354 - 355 .
(2) Guillaume de Tyr, p. 318 .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ، ص ١٤٨ .
(4) Gesta Francorum. p. 199 & Raymond d'Agiles pp. 293 - 294 .
(5) Foucher de Chartres (Hist. Occid . III) p. 359 .
(6) Gesta Francorum, p. 195 .
(7) Heyd : Hist. du Commerce I, pp. 134 - 135 & Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 258.
(8) Gesta Francorum, p. 199 .

المقدس ومقطوعة عن العالم الخارجي تماماً (١).

وكان أن طال حصار الصليبيين لبيت المقدس واشتدت حرارة الصيف ، مما أثار أعصابهم وجدد المنازعات فيما بينهم حول مصير بيت المقدس وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم . ولم تلبث أن انتشرت إشاعة قوية بين الصليبيين مؤداها أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من مصر فى طريقه إلى بيت المقدس لتخليصها ، مما جعل الصليبيين يفكرون فى القيام بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة(٢). لذلك أقام الصليبيون برجين يطلان على سور المدينة، أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود ، فأحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه(٣) . أما البرج الثانى فقد زحف الصليبيون به حتى «ألصقوه بالسور وحكموا به على البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون .... » (٤) .

وقد حدث ذلك الهجوم الشامل الذى قام به الصليبيون على بيت المقدس ليلة ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ ثم اشتد الهجوم واتخذ طابعاً عنيفاً صباح اليوم التالى ، أى الجمعة ١٥ يوليو ، وهو اليوم الذى استطاعوا فيه اقتحام المدينة بعد حصار دام «نيفاً وأربعين يوماً»(٥) . ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتماء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه ، فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة «حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين !!» (٦) .

وفى الحال أخذ جودفرى بوايون يقسم العمل على الأمراء ، فأرسل بعضهم لفتح باب العمود حتى يدخل منه بقية الصليبيين إلى داخل المدينة ، فى حين قام البعض الآخر – مثل تنكرد – باحتلال قبة الصخرة . والمعروف أن قبة الصخرة كانت غنية بما فيها من تحف ثمينة سال لها لعاب الصليبيين فنهبوها عن

---

(1) Chalandon : Première Croisade, pp. 269 - 271 .
(2) Runciman : op. cit. I, pp. 283 - 284 .
(٣) ابن الأثير : الكامل – حوادث ٤٩٢ هـ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ – ١٤٩ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .
(6) Gesta Francorum . p.p. 203 - 205 .

آخرها[١] .

على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم فى سهولة ودون مقاومة ، إذ صادف الصليبيون مقاومة شديدة فى القطاع الجنوبى . أما افتخار الدولة – حاكم المدينة الفاطمى – فقد احتمى مع طائفة من الجند بمحراب داود حيث اعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، ولكنهم لم يلبثوا ان القوا السلاح بعد أن «بذل لهم الفرنج الأمان» [٢]. وفعلا أطلق الصليبيون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان ، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمى بيت المقدس التى نجت من وحشية الصليبيين[٣] .

ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التى اقترفها الصليبيون فى بيت المقدس ، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب[٤]. ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلماً فى الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتمى به من المسلمين ، وعددهم مايزيد على سبعين ألفا منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف». ومهما يكن فى هذا الرقم الذى ذكره المؤرخون من مبالغة ، فإن جميع الدلائل تشير إلى وحشية وعظم الجرم الذى اقترفه الصليبيون فى بيت المقدس[٥] .

---

(١) أخذ الصليبيون من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة (أي فضة) ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه ما لايقع عليه الإحصاء ....

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٣) المرجع السابق & Gesta Franco rum p. 205

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٥) لم يذكر هذا الرقم من الضحايا المسلمين المؤرخون المسلمون – مثل ابن الأثير – فحسب ، بل ذكره أيضاً المؤرخون المسيحيون الشرقيون – مثل ابن العبري الملطي الذي ذكر بالنص الواحد ولبث الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصي مايزيد علي سبعين ألفا .... (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧) .

كذلك ذكر متي الرهاوي أن عدد من قتلهم الصليبيون من المسلمين زاد علي خمسة وستين ألفا . (Doc. Arm, I, p. 45)

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة ، فذكر وليم الصورى أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت الرعب والإشئمزاز(١) . كذلك ذكر مؤرخ صليبى حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التى أحدثها الصليبيون فيه ، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا فى صعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه (٢) . ولم يكن اليهود أحسن حالا من المسلمين ؛ «إذ جمعوا اليهود فى الكنيس وأحرقوه عليهم» (٣) .

ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوربيين المحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحة يوليو سنة ١٠٩٩ كانت لطخة عار فى تاريخ الحملة الصليبية الأول (٤) . وإذا كان المسلمون قد تطرفوا أحياناً – فيما بعد – فى معاملة الصليبيين ،فإن هذا التطرف لم يكن إلا رد فعـــل لمذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، وهى المذبحة التى ظلت تشكل جرحا داميا فى قلوب المسلمين حتى طرد الصليبيين نهائياً من الشام (٥) .

أما الدولة الفاطمية ، فقد تلقت تلك الأخبار فى برود ، وظلت تغط فى سباتها العميق . وكذلك بغداد حيث اتجه قاضى دمشق زين الدين أبو سعد الهروى ليخبر الخليفة العباسى بالكارثة التى حلت بالمسلمين فى الشام . وهناك فى بغداد اجتمع « المستنفرون » من دمشق ، وحضروا فى الديوان (الخليفى) وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا . وقام القاضى فى الديوان ، وأورد كلاماً ابكى الحاضرين(٦) . كل ذلك والخلافة العباسية لم تحرك ساكـــناً ، وكذلك السلطان بركياروق ، ووقع التقاعد (٧) .

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 354 .
(2) Raymond d'Aigles, p. 300 .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ . Michaud : op. cit., I, pp. 424 - 425
(4) Grousset : Hist. des Croisades, p. 161 &
Runciman : op. cit. I, p. 278 .
(5) Runciman : op. cit. I, p. 287 .

(٦) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .
(٧) وقد قال أبو المظفر الأبيوردي شعراً في عدم اكتراث الخلافة العباسية ، واعتماد المسلمين عندئذ علي البكاء والنحيب : ==

والواقع أنه إذا كان ثمة خطر سيهدد الصليبيين فيما بعد ، فإن السحب التى أنذرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا فى الشمال بفضل جهود زعماء حركة الجهاد من الأتراك والأكراد ، وكان ذلك بعد أن نجح الصليبيون فى تثبيت أقدامهم فى بلاد الشام.

--

وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بني الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحق الذري بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها	علي هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم	ظهور المذكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمتي لايشرعون إلي العدي	رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردي	ولايحسبون العار ضربة لازم
أترضي صناديد الأعاريب بالأذي	ويغضي علي ذل كماة الأعاجم

أنظر : ابن الأثير : الكامل – حوادث ٤٩٢ هـ .

الفصل الثانى

تنظيــــم الفتــــح

بيت المقدس غداة استيلاء الصليبيين عليها :

أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى فى تحقيق أهدافها الروحية والحربية مشكلة أساسية أمام الصليبيين، هى تحديد وضع البلاد التى استولى عليها الصليبيون، وطريقة تنظيمها، وكيفية بناء دولة غربية صليبية على أرض شرقية إسلامية، تتألف من تلك العناصر المشتتة المتباينة التى جرفها تيار الدعوة الصليبية من غرب أوربا ليلقى بها جميعاً فى صعيد واحد(١). حقيقة أن الحرب الصليبية جاءت وليدة المصادفات التاريخية، كما أن نجاحها أيضا تم نتيجة المصادفات التاريخية، إذ نبتت الدعوة الصليبية فى الوقت الذى ضعفت الدولة البيزنطية وانحلت قوى الأتراك السلاجقة. ولكن كان لزاماً على الصليبيين الأوائل بعدما حققوه من نجاح فى الشام أن يتبعوا سياسة متكاملة بعيدة الهدف، لخلق دولة ثابتة فى بيت المقدس من تلك العناصر المتباينة التى تألفت منها الحملة الصليبية الأولي. وإذا كان من الصعب أن يتم هذا العمل بسهولة أو دفعة واحدة أو على يد فرد واحد ؛ فإن التاريخ يشهد على أن الفضل الأول فى وضع أساس ذلك البناء يرجع بدون شك إلى بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨) أما الفترة الواقعة بين سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين في ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ وقيام بلدوين الأول فى حكمها فى ١١ نوفمبر سنة ١١٠٠، فكانت فترة إنتقال، أو على الأصح فترة توفيق بين الميول الانفصالية للأمراء ورجال الدين من جهة والأوضاع التى يتطلبها قيام ملكية مدعمة النفوذ والسلطان من جهة أخري. وفى فترة الانتقال هذه، قام جودفرى بوايون بالوصاية على بيت المقدس(٢).

وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التى واجهت الصليبيين بعد أن انتهوا من الاجهاز على جميع من فى بيت المقدس من المسلمين، هى عدم وجود زعيم أوحد أو رئيس أعلى أو قائد لهم يعترفون جميعاً بزعامته، ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم

---

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, pp. 28 - 29.
(2) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 164 - 165.

فضلا عن تنظيم البلاد التى فتحوها [١] . وهنا أحس الصليبيون بعظم الخسارة التى أصابتهم بوفاة أدهمار المندوب البابوي، وهو الذى كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحى للصليبيين، فضلا عن أنه كا يؤلف بين أمراء الصليبيين تحت زعامته . ولكن وفاة أدهمار فى أنطاكية فى أول أغسطس سنة ١٠٩٨ – كما مر بنا – أدت إلى افتقار الحملة الصليبية الأولى إلى زعامة روحية، كما أصبحت تلك الحملة – من الناحية السياسية – لا تعدو مجرد حلف بين الأمراء، يتصف بالفوضى وسوء النظام لعدم وجود رأس تتزعم الحلف وتنسق بين جهود أعضائه وآرائهم [٢] . وفى وسط ذلك الفراغ ظهرت الاتجاهات الشخصية قوية عند الأمراء، فأخذ بعضهم يتخلى عن موكب الحملة ويتوقف فى الطريق لتحقيق كسب خاص، مثلما فعل بلدوين البولونى فى الرها وبوهيموند فى أنطاكية، وما أراد أن يفعله جودفرى بوايون فى جبلة، وريموند فى عرقة [٣] .

وأخيراً لم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس سوى جودفرى بوايون لأن ريموند منعه من التوقف فى جبلة، وريموند لأن جودفرى بدوره منعه من التوقف فى عرقة وطرابلس ؛ فضلا عن تنكرد وروبرت دى فلاندرز وروبرت النورماني . وهؤلاء الأمراء هم الذين دخلوا كنيسة القيامة فى بيت المقدس مساء يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وأيديهم ملطخة بدماء ضحاياهم من أهل المدينة الأبرياء ليبتهلوا إلى الله طالبين حسن الثواب [٤] .

جودفرى والوصاية على بيت المقدس :

ثم كان أن اجتمع زعماء الحملة الصليبية فى ١٧ يوليو لتنظيم فتحهم الجديد، وعندئذ برزت المشكلة الأولي، وهى هل يكون زعيم الدولة الجديدة من العلمانيين أو الكنسيين ؟ ومن الواضح أن الكنيسة الغربية كان لها سند واضح فى المطالبة بالإشراف على بيت المقدس، لأن البابا أوربان الثانى هو صاحب الفضل فى الدعوة للحرب الصليبية[٥] . ولو كان الزعيم الروحى للحملة الصليبية الأولى –

(1) Runciman : op. cit. I, p. 289.
(2) Runciman : op. cit. I, p. 289.
(3) Chalandon : Première Croisade, p. 278 - 279.
(4) Guillaume de Tyr, I, p. 357.
(5) Michaud, op. cit. I, p. 428 - 429.

وقد توفي البابا أوربان الثاني في ٢٩ يوليو ١٠٩٩ ، أي بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين بأسبوعين ، وذلك قبل أن يسمع الخبر الذي طالما تمناه منذ دعا للحملة الصليبية الأولي سنة ١٠٩٥ .

وهو المندوب البابوى أدهمار - حياً ، لأمكن أن يتولى الزعامة العليا فى تلك الدولة الجديدة، بحكم مكانته وشخصيته واتزانه من جهة، وما قام به من دور بارع فى توجيه الأمراء المشتركين فى الحملة وحفظ التوازن بينهم من جهة أخري[1] وشاءت الظروف أن يكون كرسى بيت المقدس خالياً عند سقوطها فى أيدى الصليبيين، لأن بطرق المدينة الأرثوذكسى - سيمون (سمعان أو شمعون) - مات فى قبرص قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وبذلك أصبحت دولة الصليبيين مطلقة اليد فى تعيين أحد رجال الدين الكاثوليك بطرقاً على بيت المقدس[2].

على أنه من الواضح أن فكرة قيام حكومة دينية فى بيت المقدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين وتوجيههم، كانت فكرة خاطئة، ولا يمكن تنفيذها، وأنه كان لا يمكن لها البقاء. ذلك أن قيام دولة لاتينية من المسيحيين الغربيين فى بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامي، أمر يحتاج إلى قيادة حربية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد أعدائها المحيطين بها. ولذلك سرعان ما استبعد الصليبيون من حسابهم هذه الفكرة، لاسيما وأنه لم يكن بصحبتهم الزعيم الدينى الرشيد الذى يصلح لتلك الزعامة [3].

وكان أن اتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين لينظم أمور الفتح الجديد. وهنا بدأت مشكلة أخري، هى أى الأمراء يفضل الآخرين ليكون زعيماً لدولة بيت المقدس الصليبية ؟ إن تعجل روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز العودة إلى غرب أوربا، جعل الأمر محصوراً بين إثنين، هما ريموند وجودفري[4]. وليس هناك من شك فى أن ريموند كان أوفر ثروة وأكثر قوة من منافسه، هذا فضلا عن قوة شخصيته ومرونته السياسية وبعد نظره الذى جعله يؤثر التحالف مع الدولة البيزنطية [5]. على أن قوة هذا الأمير من ناحية وعدم حب الأمراء والفرسان له من ناحية أخرى جعلت الأمراء يتخوفون من اختياره. هذا إلى أن سياسته تجاه الإمبراطور ألكسيوس كومنين، وإفراطه فى التودد إليه والتحالف معه أثارت استياء كثير من الصليبيين، حتى فرسانه ورجال جيشه. ومع

(1) Setton : op. cit, I, p. 338.
(2) Albert d'Aix (Hist. Occid, VI) p. 489.
(3) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 166 - 167.
(4) Archer : The Grusades, p. 93.
(5) Runciman : op. cit. i, p. 291.

ذلك فان بعض المؤرخين الصليبيين يؤكدون أن تاج بيت المقدس عرض عليه، ولكنه رفضه [١] وهكذا لم يبق هناك سوى جودفرى بوايون الذى رفض هو الآخر هذا الشرف فى أول الأمر، ولكن بقية الزعماء أجبروه على قبول حكم بيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩ [٢].

ولم تكن مهمة جودفرى بوايون بالمهمة السهلة الهينة، إذ كان عليه أن يعانى الكثير بسبب عدم إخلاص ريموند بوجه خاص. هذا إلى أن جودفرى لم تكن له من المؤهلات الموروثة أو المكتسبة ما يجعله يمتاز عن غيره من الأمراء الصليبيين، بل على العكس لقد اختاره الأمراء ورجال الدين لما لمسوه فى أخلاقه من لين وسهوله تمكنهم من تحقيق مآربهم دون أن يخشوا خطراً من جانبه.

ومهما يكن من أمر، فالملاحظ أن جودفرى لم يحمل لقب ملك بيت المقدس. وقد رددت الأساطير أن التاج عرض عليه ولكنه رفض أن يرتدى تاجاً من الذهب فى المكان الذى ارتدى المسيح تاجاً من الشوك[٣] لذلك اكتفى جودفرى باتخاذ لقب متواضع هو «حامى بيت المقدس» Advocatus Sancti Sepulchri[٤] ومن الواضح أن اختيار جودفرى هذا اللقب جاء اعترافاً منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة، وأن لها صفتها الدينية التى تجعل للكنيسة نوعاً من الإشراف عليها. وهكذا أدى تواضع جودفرى إلى تأخير قيام ملكية صليبية قوية منظمة تستطيع بيت المقدس فى ظلها أن تعيش وسط الأخطار الجسيمة المحيطة بها[٥].

أختيار أرنولف مالكورن بطرقا على بيت المقدس :

وكان أن أخذ رجال الدين فى بيت المقدس يزدادون قوة أمام ذلك الحاكم الطيب، بعدما لمسوة فيه من لين العريكة. وعندما اجتمع رجال الكنيسة فى أول أغسطس سنة ١٠٩٩ لاختيار بطرق لبيت المقدس، وقع اختيارهم على أرنولف مالكورن[٦]. وقد احتج أبناء بروفانس من الصليبيين على ذلك الأختيار، وحاولوا تجريح أرنولف، والقول بأن انتخابه غير قانونى لعدم صلاحيته ولسوء سلوكه أثناء

(1) Raymond d'Agiles, p. 301 & Albert d'Aix, p. 485.
(2) Iorga : hist. des Croisades, p. 67.
(3) Michaud : op. cit. I, p. 436.
(4) Runciman op. cit. I, pp. 292 - 293.
(5) Grousset : op. cit I, p. 171.
(6) Richard : ie Royaume Latin, p. 93.

زحف الصليبيين على بيت المقدس، ولكن كل هذه الطعون لم تجد، لاسيما وأن عدم اختيار ريموند حاكماً أضعف من مكانة رجاله ابناء إقليم بروفانس (١).

على أن البطرق الجديد كان من جانبه معتدلا، فاختار ألا يقحم نفسه فى مشاكل مع جودفرى وإنما قصر نشاطه على المسائل الكنسية. وقد وجه كل اهتمامه إلى إضفاء صبغة لاتينية على كرسى بيت المقدس، فزود كنيسة القيامة بأجراس لأعلان مواعيد الصلاة - وهو أمر كان المسلمون قد حرموه على المسيحيين فى بيت المقدس - واستبعد القساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة، مما أثار استياء أهل بيت المقدس من المسيحيين المحليين(٢). وكان بعض القساوسة الأرثوذكس عند خروجهم من بيت المقدس أيام افتخار الدولة الفاطمى قد أخفوا صليب الصلبوت - أو الصليب الأعظم -الذى يقال أن المسيح عليه السلام قد صلب عليه، ولكن أرنولف أجبرهم عند عودتهم على إظهاره(٣). ولم يعد أمام الأرثوذكس فى بيت المقدس سوى قبول ذلك الوضع الجديد بعد أن تفرق زعماؤهم الدينيون، وأصبح من المستحيل عليهم تعيين بطرق لهم يستطيع الصمود أمام البطرق الكاثوليكى الجديد(٤).

---

(1) Raymond d'Aigles, p. 302.
(2) Runciman : op. cit. I, p. 294.
(3) Raymond d'Agiles, p. 302.
(4) Michaud : op. cit. I, p. 438.

الفصل الثالث

إتمام غزو فلسطين

احـتلال نابلس :

بعد أن إستقرت الأمور للصليبيين فى بيت المقدس على النحو الذى أوضحناه صارت الخطوة التالية أمامهم هى الإستيلاء على بقية فلسطين ، حيث لم يمتكوا منها حتى ذلك الوقت سوى بيت المقدس وبيت لحم واللد والرملة ويافا (١) ويبدو أن الصليبيين لم يصادفوا صعوبات كبيرة فى تلك المهمة ، لأن سقوط بيت المقدس أحدث موجة من الرعب فى نفوس أهالى المدن والقرى المجاورة ، فضلاً عن خلو تلك المدن من وسائل الدفاع . وكان أن أسرع أهالى نابلس إلى الإستسلام ، وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسلم المدينة ، فتسلم تنكرد نابلس فى غير صعوبة فى أواخر يوليو سنة ١٠٩٩ (٢).

ولم يكد تنكرد يفرغ من تلك المهمة ، حتى تلقى رسالة عاجلة فى ٤ أغسطس من جودفرى بوايون ـ الذى كان فى بيت المقدس ـ يطلب منه التوجه مباشرة صوب شاطىء البحر للتأكد من صحة الأخبار القائلة بأن حملة فاطمية وصلت من مصر إلى أرض فلسطين . لذلك أسرع تنكرد ومعه فرسانه إلى قيسارية ، ومنها إتجهوا جنوباً على إمتداد الشاطىء حتى الرملة للبحث عن الحملة الفاطمية ، حتى عثروا على عدد كبير من الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرملة ، فقبضوا عليهم ، وعرفوا منهم أن جيشاً فاطمياً كبيرا على رأسه الوزير الأفضل فى طريقه فعلاً إلى عسقلان لإسترداد بيت المقدس . وفى الحال أرسل تنكرد رسالة عاجلة إلى جودفرى بوايون يطلب منه الحضور بسرعة ومعه كافة مقاتلى الصليبيين (٣).

موقعة عسقلان ١٢ أغسطس ١٠٩٩ :

والواقع أن الوزير الأفضل أخذ فى الإستعداد لمقاتلة الصليبيين عندما سمع بزحفهم على مدينة بيت المقدس ، فجمع رجاله وخرج من مصر ليحول دون إستيلائهم على المدينة المقدسة ، ولكنه وصل عسقلان فى ٤ أغسطس ،وقد فات

---

(1) Grousset :L,Empire du Levant, p. 197.
(2) Gesta Francorum, p.209 & Guibert de Nogent, p304.
(3) Gesta Francorum, p. 209.

الأمر ، أي بعد أن إستولى الصليبيون على بيت المقدس بعشرين يوما (١). وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالإستيلاد على شمال الشام ، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة السنة . ولم يسع الأفضل بعد أن تأكد من سقوط بيت المقدس سوى التوقف فى عسقلان ومن هناك أرسل «رسولاً إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه » (٢).

ويبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديراً فى ميدان الحرب بقدر ما هو معروف عنه من مهارة سياسية وإدارية ، إذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله إلى عسقلان أضاع وقتاً ثميناً « ينتظر الأسطول فى البحر والعرب » (٣). وفى الوقت الذى كان الأفضل منتظرً فى عسقلان إكتشفت الصليبيون أمره فبادروا بالهجوم بوصفه خير وسائل الدفاع (٤). وكان جودفرى بوايون قد أسرع فى الإنضمام إلى تنكرد ، فخرج من بيت المقدس يوم ٩ أغسطس ومعه البطرق أرنولف وروبرت دى فلاندرز ، وقصدوا الرملة حيث تأكدوا من وصول الفاطميين إلى عسقلان . وبعد قليل لحق ببقية القوى الصليبية روبرت النورمانى وريموند الصنجيل ومعهما رجالهما (٥).

ولم يكد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة لى ١٠ أغسطس حتى أخذوا يزحفون جنوباً فى إتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير (٦). وفى المعركة التى دارت بين الطرفين فى ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين وتشتت شملهم بعد قليل، حتى أن بعضهم لم يجد مفراً سوى البحر ، فالقوا بأنفسهم فى اليم حيث غرقوا ، فى حين إحتمى البعض

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٣ (Rec.Hist. Orient III)

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٥٢٠ (Rec. Hist. Orient III) &
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .
وجدير بالذكر أن ابا المحاسن يقول : إن الافضل جد فى السير حتى وصل إلى القدس ثانى يوم فتحه « فقصده الفرنج وقاتلوه فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كبير » على أنه لا يوجد فى بقية المصادر ما يؤيد رواية أبى المحاسن من أن الأفضل قصد بيت المقدس أولا ثم ارتد عنها إلى عسقلان (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩)

(4) Stevenson : Op.cit I, p. 35.

(5) Gesta Francorum, P. 211 & Guillaume de Tyr, 380.

(٦) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

الآخر ؛ بشجر الجميز ، وكان هناك كثيراً ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه ؛ أما الوزير الأفضل فقد هرب إلى مدينة عسقلان ومعه بعض رجاله، ومنها ركبوا سفينة فى البحر فارين إلى مصر . وهكذا «تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر (١)».

ومن الواضح أن النصر المعنوى والأدبى الذى حققه الصليبيون فى عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التى غنموها (٢) فكما أن الهزيمة التى حلت بكربوغا عند أنطاكية على أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٨ أخرجت السلاجقة من معركة شمال الشام ، فكذلك أدى إنتصار الصليبيين فى موقعة عسقلان إلى القضاء على هيبة الفاطميين ، بفلسطين ، وإخراجهم من معركة جنوب الشام . فلم يجرؤوا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين ، وقبعوا فى مصر يشاهدون مدن فلسطين وهى تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الغزاة . وبعبارة أخرى فقد أصبحت يد الصليبيين طليقة فى فلسطين منذ إنتصارهم فى عسقلان ، مثلما صارت يدهم طليقة فى شمال الشام عقب إنتصارهم على كربوغا(٣).

وكان أن بدأ جودفرى بوايون بحصار عسقلان نفسها ، فوجد أهل عسقلان أنفسهم أمام الأمرالواقع ، وأرادوا الإستسلام فوراً دون مقاومة ، لولا أنهم خشوا أن يحل بهم ما حل بأهل بيت المقدس فى الحرم الشريف من قتل وذبح. وكان أهل عسقلان قد لمسوا ما فعله ريموند الصنجيل (Saint Gilles) مع إفتخار الدولة ـ القائد الفاطمى الذى إحتمى مع فريق من رجاله فى محراب داود ساعة سقوط بيت المقدس ـ إذ أمنهم ريموند حتى خرجوا سالمين إلى عسقلان (٤). لذلك وثق أهل عسقلان فى ريموند دون غيره من زعماء الصليبين ، وأرسلوا إليه يطلبون منه تسلم بلدهم بشرط أن يؤمنهم على أرواحهم وحرياتهم (٥). وعندما قبل ريموند الصنجيل الدعوة ، خشى جود فرى أن يلجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطىء فلسطين فى مواجهة بيت المقدس ، مما يحرم دولة بيت المقدس

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .
ابن ميسر : تاريخ مصر ٤٦٤ .

Gesta Francorum, pp. 217- 219 & Albert d' Aix, p. 497.

(2) Cam. Med. Hist Vol.5p. 297.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, P.

(4) Setton : op. cit. I. p. 837.

(5) Runciman : op. cit. I, p. 297.

الناشئة من شواطئها الطبيعية على البحرالمتوسط ، وبالتالى يقطع الصلة بينها وبين الغرب . لذلك طلب جودفرى من ريموند أن يتخلى عن عسقلان لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس ، فاستاء ريموند الصنجيل وفضل أن تبقى عسقلان فى أيدى المسلمين عن أن يستولى عليها جودفرى . وهكذا إنسحب ريموند ، وحرص بقية الأمراء على الإنسحاب معه، بعد أن أوعز إلى أهل عسقلان بالثبات والمقاومة. أما جودفرى فقد وجد نفسه وحيداً أمام عسقلان التى اشتد أهلها فى المقاومة ، فإضطر إلى أن ينسحب بدوره من أمامها (١).

وفى تلك الأثناء إنصرف ريموند الصنجيل نحو أرسوف محاولاً الإستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها ، ولكن جودفرى ظل واقفاً له بالمرصاد ، فلحق به وأصر على أن أرسوف هى الأخرى تتبع بيت المقدس . وللمرة الثانية إنسحب ريموند الصنجيل نحو الشمال بعد أن حرض أهل أرسوف على المقاومة وعدم الإستسلام لجودفرى (٢). ومن هذا يتضح كيف أدى انقسام الصليبيين على أنفسهم ، والمنافسة بين زعمائهم ، إلى عدم تمكينهم عندئذ من الإستيلاء على موانى فلسطين ، بل إن بلداً مثل عسقلان كان من الممكن أن يستولى عليه الصليبيون فى سهولة سنة ١٠٩٩ لم يستطيعوا إمتلاكه بعد ذلك إلا سنة ١١٥٣ . وطوال تلك السنوات ظلت عسقلان شوكة فى جانب الصليبيين وقاعدة للقوات التى دأبت على الخروج من مصر للإغارة على بلاد الصليبيين القريبة . وربما كان المسئول عن كل ذلك هو تقاعس الصليبيين عن إقامة ملكية صليبية مهيبة الجانب فى بيت المقدس ، يطيعها الجميع ويأتمرون بأمرها (٣).

ولم يلبث جودفرى أن إرتاح من منافسة بقية الأمراء المناوئين بعد أن أبحر كثير من الصليبيين عائدين إلى الغرب ، معتقدين أنهم أوفوا بقسمهم الصليبى، وأن مهمتهم إنتهت بالاستيلاء على بيت المقدس (٤). وعلى رأس هؤلاء كان روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز، ومعهما جميع أتباعهما . أما الموانى الهامة فى أواسط بلاد الشام ـ وهى عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس ـ فقد بقيت فى

(1) Raoul de Caen (Hist. Occid III), p. 703.
ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين لم يتخلوا عندئذ عن عسقلان إلا بعد أن «بذل لهم أهلها قطيعة اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار ثم عادوا إلي القدس .» حوادث ٤٩٢ هـ .

(2) Albert d'Aix, p. 498.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 180.

(4) Setevenson : op. cit., p. 36 .

أيدى المسلمين ، إذ سيطر الفاطميون أو أتباعهم على الموانى الأربعة الأولى ، فى حين كانت طرابلس فى قبضة بنى عمار . ومع ذلك فإنه يبدو أن موقعة عسقلان كان لها رد فعل قوى ، بحيث لم تتردد السلطات الإسلامية الحاكمة فى تلك الموانى فى تقديم كافة التسهيلات للصليبيين ليحصلوا على ما يلزمهم من مواد تموينية ، وذلك قبل أن يستولى الصليبيون على جبلة واللاذقية (١).

أما عن ريموند الصنجيل ، فبعد أن وصل إلى اللاذقية ، إختار أن يبقى فى شمال الشام ليعمل ـ بمساعدة حلفائه البيزنطيين ـ على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكية .

ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يخفى علينا أن عودة كثير من الصليبيين إلى الغرب الأوروبى فى تلك المرحلة ـ أى عقب سقوط بيت المقدس مباشرة ـ ترك الدولة الجديدة التى ولدت فى الشرق فى حاجة ماسة إلى الرجال والمقاتلين، فى الوقت الذى أحاط بها أعداؤها من كل جانب (٢).

تنكرد وإحتلال إقليم الجليل :

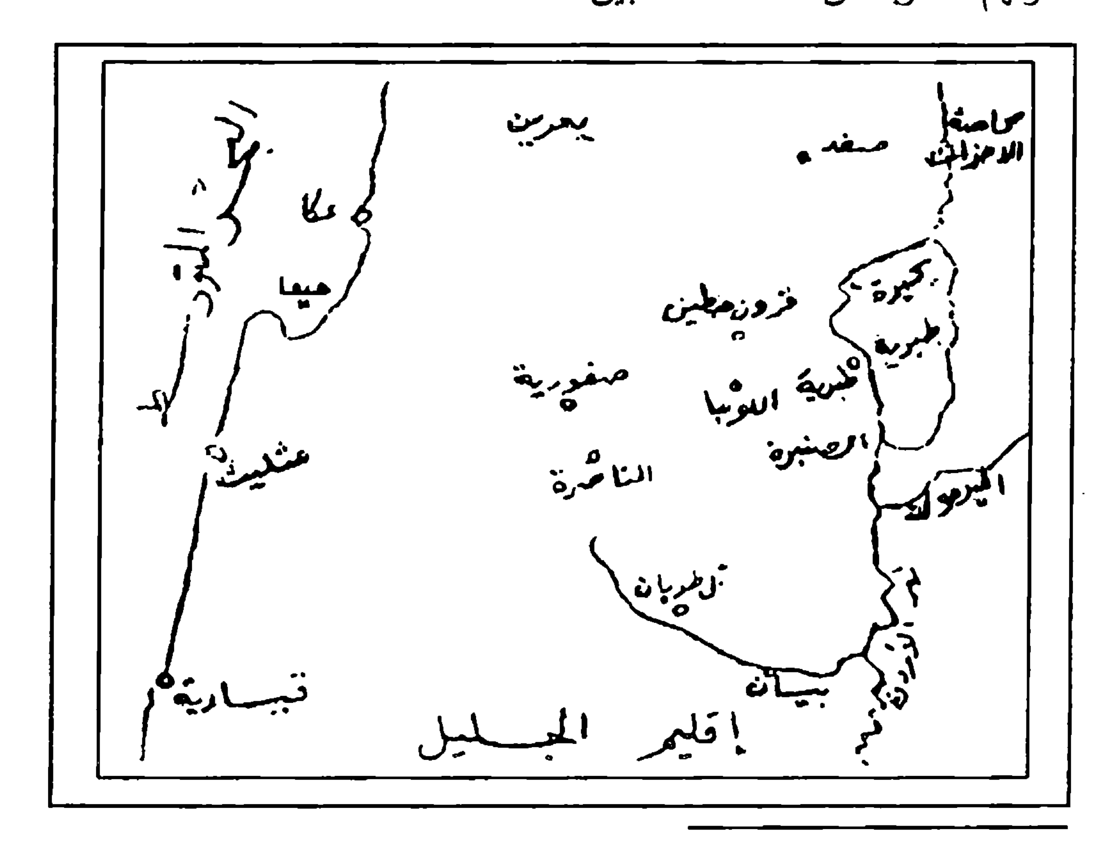
وأخيراً لم يبق إلى جانب جودفرى بوايون سوى تنكرد؛ ذلك الأمير النورمانى الذى لم يتعجل العودة إلى إيطاليا وظل فى فلسطين يعمل تحت رئاسة جودفرى . وكان أن عهد جودفرى إلى تنكرد بفتح إقليم الجليل وإحتلاله ، على أن يقطعه إياه ليصبح أميراً عليه تابعاً لجودفرى (٣).

وكان إقليم الجليل قبيل وصول الصليبيين إلى فلسطين موضع نزاع وتنافس بين دقاق صاحب دمشق والفاطميين ، ولكن دقاق لم يتمكن من إحتلال ذلك الإقليم عقب هزيمة الفاطميين فى عسقلان ، مما سهل مهمة تنكرد (٤)وهكذا إستطاع الصليبيون فتح إقليم الجليل بسرعة ، على الرغم من قلة المقاتلين وحاجة تنكرد إلى الرجال ، فإحتلوا مدينة طبرية فى سهولة بعد أن هرب منها أهلها المسلمون وظلت فيها أقلية من السريان ، ثم حصن تنكرد مدينة طبرية تحصيناً قويا حتى يتخذها مركزاً لإمارته الجديدة (٥). وفى الجنوب الشرقى من الجليل إحتل تنكرد بيسان ، وهى مدينة حصينة ذات موقع هام يمكن الإشراف منها على الضفة

(1) Albert d'Aix, pp. 499 - 500.
(2) Iorga : Hist des Croisades, p. 67.
(3) Raoul de Caen p. 703 & Guillaume de Tyr, I, p. 384.
(4) Runciman : op. cit. I, p. 304.
(5) Albert d'Aix, pp. 217-218.

الشـرقيـة لنهـر الأردن . وطوال تلك الأثناء لم يكف تنكرد عن القيـام بإغـارات عدوانيـة على البلدان الإسلاميـة المجاورة ، فتـارة يعتـدى على الجـهات التابعة لسلاجقة دمشق ، وأخرى يعتدى على المدن والقرى التابعة للدولة الفاطمية(١) .

على أن تناقص عدد الصليبيين يوماً بعد يوم جعل موقف جودفرى وتنكرد فى غاية الخطورة ، إذ لم يبق لديهما سوى بضعة مئات من الجند ، فى حين أخذ الباقون يبحرون بالجملة عائدين إلى بلادهم فى غرب أوربا . وهكذا عاشت دولة بيت المقـدس الصليبيـة فى تلك المرحلة على ذكرى إنتصـارات الصليـبيين فى أنطاكية وبيت المقدس وعسقلان ، فلم تستطع أن تجعل إحتلالها لفلسطين فعلياً ، وإكتفى الصليبيون بوضع حاميات فى المدن الرئيسية ، مثل بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرة . أما الأراضى والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن ، فقد ظلت فى أيدى أصحابها المسلمين . ويمكن تشبيـه المراكز الصليبيـة فى الشام عندئذ بالجـزر الصغيـرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوبة من الدخلاء الغاصبين (٢) .



(1) Guillaume de Tyr, I, p. 384.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, 181.

الإتفاقيات التجارية بين الصليبيين وموانى فلسطين العربية :

لم يكن للدولة التى أقامها الصليبيون فى بيت المقدس سوى مرفأ واحد على البحر هو ميناء يافا . ولما كانت هذه الدولة محاطة بأعداء من الداخل ، فقد صار لزاماً على جودفرى بوايون أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجى وبخاصة الغرب الأوربى عن طريق البحر . ولذلك أخذ يفكر فى الإستيلاء على أرسوف ـ شمالى يافا ـ وهى التى لم يستول عليها الصليبيون فى أغسطس سنة ١٠٩٩ نتيجة للنزاع بين جودفرى وريموند الصنجيل (١). على أن إمكانات جودفرى كانت قد ضعفت كثيراً وتناقص رجاله بشكل ملحوظ ، فى الوقت الذى إفتقر إلى أسطول يحكم الحصار على أرسوف من ناحية البحر . ولذلك فشلت الحملة الصغيرة التى أرسلها جودفرى فى ديسمبر سنة ١٠٩٩ للإستيلاء على أرسوف وعادت تجر أذيال الفشل ، مما يشهد على مدى ضعف الصليبيين فى بيت المقدس عندئذ (٢) .

أما جودفرى فإكتفى بأن ترك فى الرملة ـ على مقربة من أرسوف ـ بضعة مئات من رجاله لتهديد أرسوف بين حين وآخر ، وشن غارات عدوانية على ضواحيها . وكان أن إستطاعت هذه القوة الصليبية أن تظفر فى فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالى أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمى فى مزارعهم القريبة ، فانتقم الصليبيون ممن وقع فى أيديهم من المسلمين إنتقاماً وحشياً بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم(٣) . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية ، فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، ولكنه إكتفى بأن بعث إليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندى لمساعدتهم . وقد تشجع أهل أرسوف عند وصول تلك النجدة إليهم عن طريق البحر وشرعوا فى القيام بهجوم مضاد ضد الصليبين ، ولكنهم وقعوا فى كمين نصبه الصليبيون فى مارس ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، وأنه لا مفر من الدخول فى تبعية الصليبيين ، حتى يتمكنوا من فلاحة أراضيهم القريبة . وهكذا إنتهى الأمر بأن ذهبت سفارة من أهل أرسوف إلى جودفرى بوايون فى أواخر مارس ١١٠٠ تحمل إليه مفاتيح أبواب المدينة وتحصيناتها ، وتعرض عليه الدخول فى تبعيته ودفع جزية مالية رمزاً لهذه التبعية (٤).

(1) Stevenson : op. cit., p. 39.

(2) Albert d'Aix, pp. 507 - 511.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 182 .

(4) Albert d'Aix, pp. 512 - 514 .

وفى تلك الأثناء ، دأب الصليبيون منذ يناير سنة ١١٠٠ على العمل فى تحصين يافا وتقوية إستحكاماتها ، وساعد جودفرى فى هذه المهمة الأسطول البيزى (١). ولم تلبث يافا بعد تحصينها أن صارت لها السيطرة على شاطىء فلسطين بأكمله، كما فاقت قوتها مينائى عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطمية . وبعبارة أخرى فإن يافا غدت قاعدة لنشاط تجارى وحربى كبير ، بعد أن صارت الميناء الرئيسى لدولة بيت المقدس الصليبية ، فقصدتها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحى ، وبخاصة من جنوة والبندقية وبيزة ، لإحضار الحجاج من ناحية وإمداد بيت المقدس بما احتاجت إليه من امدادات من ناحية أخرى (٢).

على أن تحصين يافا على ذلك الوجه سبب متاعب خطيرة للممتلكات التابعة للدولة الفاطمية بجنوب فلسطين ، إذ إتخذ الصليبيون يافا مركزاً لشن غارات مستمرة على تلك الممتلكات . وهكذا بدأ اليأس يدب فى قلوب أهل الموانىء الإسلامية فى فلسطين بعد أن تأكدوا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فلم تمض مدة طويلة حتى أعلن حكام عسقلان وقيسارية وعكا تبعيتهم لدولة الفرنجة ، ودفعوا جزية مشتركة قدرها خمسة آلاف دينار رمزاً لتلك التبعية، فضلا عما تعهد المسلمون بتقديمه من مواش وغلال وزيوت وغيرها من الفروض العينية (٣). كذلك سارع كثير من مشايخ العرب وزعمائه فى الجهات الداخلية إلى عقد مثل تلك الإتفاقيات الودية مع حكومة بيت المقدس الصليبية ، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم . وهنا نلاحظ أن جميع تلك الإتفاقيات التى عقدها المسلمون فى فلسطين مع جودفرى حاكم بيت المقدس سنة ١١٠٠ـ سوا ء تلك التى أبرمتها المدن الساحلية أو شيوخ القبائل الداخلية ـ كان لها جانبها التجارى ، فضلاً عن الجانب السياسى، مما جعل البضائع المتعددة ـ من توابل وغلال وبيض وطيور ومنسوجات ومواش ـ تتدفق على بيت المقدس ويافا ، بذلك توافر لدولة الصليبيين فى بيت المقدس قسط كبير من والثبات (٤).

---

(1) Heyd : op. cit. I, p. 135.

أشار ابن الأثير إلى جهود جودفرى فى تحصين يافا فقال : « إنه عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكرى (تنكرد) » حوادث سنة ٣٩٣ هـ .

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 183 &
Heyd : op. cit. I, p. 136.

(3) Albert d'Aix, p. 515.

(4) Albert d'Aix, p. 516.

على أن هذه الاتفاقيات السياسية والتجارية التى عقدت بين المسلمين والصليبيين فى فلسطين ، والتى حققت قسطاً من السلام المؤقت بين الطرفين ، لم تمتد لتشمل شئون البحر والملاحة . من ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن الصليبيين حرموا على مسلمى فلسطين أى تبادل تجارى عن طريق البحر مع بقية العالم الإسلامى . وإستطاع الصليبيون أن ينفذوا خطتهم هذه عن طريق بعض الإتفاقيات التى عقدوها مع الجمهوريات الإيطالية صاحبة التفوق البحرى فى البحر المتوسط عندئذ (١) . وقد ترتب على ذلك عدم إمكان حصول موانى فلسطين الإسلامية على مايلزمها من أمدادات ومؤن من دمياط والاسكندرية ، مما أدى إلى إضعافها ثم سقوطها فى نهاية الأمر دون عناء فى أيدى الصليبيين . وفى الوقت نفسه أفاد الصليبيون والتجار الأيطاليون من تلك السياسة لأنهم ضمنوا تركيز النشاط التجارى فى بلاد الشام فى أيديهم (٢) . وكانت السفن الغربية التى تتولى حراسة شواطىء فلسطين تتصيد كافة المراكب الإسلامية الوافدة من الإسكندرية ودمياط وتونس ، لتصادرها وتقتل بحارتها . ومع ذلك فإن تلك الإعتداءات البحرية على السفن الإسلامية لم تعكر صفو السلام الذى تم بين المسلمين والصليبيين سنة ١١٠٠ ، فأخذ مسلموعسقلان يذهبون فى أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة ، فى حين كان المسيحيون يقصدون عسقلان لقضاء مطالبهم دون خوف (٣) .

سيطرة الفرنجة على إقليم السواد :

وفى تلك الأثناء غدا جودفوى بوايون على درجة من القوة وثبات المركز مكنته ـ بمساعدة تنكرد ـ من بسط سيطرته على إقليم السواد (سواد البلقاء) شرقى بحيرة طبرية ، وهو الإقليم الذى كان تابعاً لدقاق ملك دمشق . ذلك أن تنكرد إستطاع فى مايو سنة ١١٠٠ أن يخرج على رأس مائتين من فرسان الصليبيين وألف من مشاتهم ليقوم بإغارات مدمرة فى إقليم السواد ، إستمرت ثمانية أيام وأنزلت كثيرا من الأضرار ـ فى الأرواح والأموال ـ بأهل الإقليم من المسلمين (٤) . وعندما طلب أمير السواد ـ وهو الذى أطلق عليه الصليبيون إسم المزارع السمين ـ النجدة من سيده دقاق ملك دمشق ، أمده الأخير بنحو

(1) Heyd : op. cit I, pp. 134 - 136 .
(2) Runciman : op. cit. I, p. 310 .
(3) Albert d'Aix p. 516 .
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 186 .

خمسمائة فارس ، فاستطاعت هذه القوة الصغيرة من الدماشقة أن تهاجم مؤخرة قوات تنكرد وجودفرى وأن تطلق سراح من لديهم من أسرى المسلمين .غير أن الدماشقة لم يستطيعوا مواصلة هجومهم طويلاً فإنسحبوا عائدين من حيث أتوا ، فى حين عرج تنكرد على مدينة طبرية ليستريح فيها بضعة أيام قبل أن يقوم بهجومه التالى الذى لم يكتف فيه بتخريب إقليم السواد ، وإنما أوغل حتى إقترب من دمشق نفسها (١).

وكان أن أرسل تنكرد سفارة من ستة فرسان إلى دمشق ، تحمل إنذاراً إلى دقاق بإعتناق المسيحية أو ترك دمشق فورا. فاستاء دقاق من تلك الجرأة ورد عليه بأن أنذر الرسل بالقتل إن لم يعتنقوا الإسلام ، فقبل أحدهم ذلك وأعدم الخمسة الباقون . وعندما علم جودفرى وتنكرد بذلك ، خرجا على رأس جميع قواتهما ، وإستمر الصليبيون يعيثون فسادا فى الجهات والضياع والمزارع المحيطة بدمشق قرابه أسبوعين . أما أمير السواد فقد أدرك أن دقاق عاجز عن حمايته ، فإعترف بالتبعية لتنكرد ووافق على دفع جزية له (٢).

وعند عودة جودفرى بوايون إلى بيت المقدس عن طريق الساحل ماراً بعكا وقيسارية ، أسرع أمير قيسارية ـ بوصفه تابعاً لجودفرى ـ إلى إقامة وليمة حافلة له . وهكذا غدت دولة بيت المقدس الصليبية بمثابة ملكية فرنجية إقطاعية يحيطها عدد من الإمارات الإسلامية التابعة لها(٣).

(1) Runciman : op. cit., I, pp. 310 - 311 .

(2) Albert d'Aix, pp. 518 - 519.

(3) Grousset, op. cit., p. 187.

الفصل الرابع

بطرقية بيت المقدس

دايمبرت البيزى والحروب الصليبية :

كان من المتوقع عقب إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ان تقوم بها حكومة دينية يرأسها أحد رجال الكنيسة، حيث أن البابوية هى التى دعت للحرب الصليبية وحددت للصليبيين الهدف الذى وصلوا إليه فعلاً. ولكن ظهر أنه من الصعب تحقيق هذه الفكرة بعد وفاة المندوب البابوى أدهمار، إذ لم توجد بين صفوف الصليبيين بالشام شخصية كنسية لها من المكانة والنفوذ ما يساعد على تحقيق ذلك الإتجاه. ومع ذلك فإن تلك الفكرة لم تمت تماماً، لاسيما وأن جودفرى بوايون لم يتخذ لقب ملك وإنما إكتفى بلقب «حامى بيت المقدس» وبذلك إستبعدت على الاقل فكرة ملكية علمانية فى بيت المقدس. وكان ذلك هو الموقف فى فلسطين عندما وصل إلى الشام دايمبرت رئيس أساقفة بيزة [1].

والمعروف أن البيازنة قاموا بدور ملحوظ فى الحروب الصليبية منذ فجر مولدها، فشاركوا مشاركة فعالة فى محاربة المسلمين بأسبانيا طوال القرن الحادى عشر [2]. ثم كان أن وقف دايمبرت رئيس أساقفة بيزة إلى جانب البابا أوربان الثانى فى مشروعه الصليبى الكبير لإسترداد الأراضى المقدسة بالشرق. هذا بالإضافة إلى ما أثبته دايمبرت من كفاية سياسية ومهارة نادرة جعلته يحتل مكانة ظاهرة فى الأحداث التى أخذت تجرى عند نهاية القرن الحادى عشر. ذلك أنه قام بدور المندوب البابوى فى الحرب الصليبية التى شنها ألفونس السادس ملك قشتالة على المسلمين فى أسبانيا. ويبدو أنه نجح فى القيام بذلك الدور، الأمر الذى جعل البابا أوربان الثانى يعينه مندوباً بابوياً فى الاراضى المقدسة خلفاً لادهمار الذى توفى فى أنطاكية، وذلك على الرغم مما أحاط بدايمبرت من شائعات عن عدم إستقامته وانحراف سلوكه [3] ولم يلبث أن خرج دايمبرت على رأس أسطول بيزى

---

(1) Michaud: op. cit, II, p.9.
(2) Heyd: op. cit. I, pp. 121- 122
(3) Runciman: op. cit. I,p. 299..

من مائة وعشرين سفينة فى صيف سنة ١٠٩٩ متجهاً نحو الشام. ومن الواضح أن جمهورية بيزة كانت تقف بأجمعها خلف دايمبرت، إذ رأى البيازنة فى المهمة الجديدة التى أسندت إليه فرصة طيبة للحصول على قسط من المكاسب والإمتيازات، ولاسيما إذا إستطاع دايمبرت أن يسبق الصليبيين إلى فتح بيت المقدس. ولكنه لم يكد يصل على رأس سفنه إلى اللاذقية حتى كان كل شئ قد إنتهى بإستيلاء الصليبيين فعلاً على بيت المقدس فى ١٥ يوليو [١].

ومع ذلك فإن بوهيموند النورمانى أمير انطاكية أسرع إلى الترحيب بالبيازنة، وأراد أن يستغل تلك القوة الكبيرة فى بسط نفوذه على الاطراف الشمالية لبلاد الشام، لاسيما وان بوهيموند كان مفتقراً الى قوة بحرية تمكنه من تقويض النفوذ البيزنطى فى الجهات الساحلية [٢]؛ حيث إستطاع بعض حلفاء الدولة البيزنطية مثل الامير الانجليزى إدجار أيثلنج Edgar Aetheling وريموند الصنجيل السيطرة على اللاذقية. لذلك عقد بوهيموند إتفاقا مع دايمبرت للإستيلاء على اللاذقية ذات الموقع البحرى الهام. وتعتبر هذه الإتفاقية الحلقة الأولى فى سلسلة الإتفاقيات التى عقدتها بيزة مع الصليبيين فى الشرق لتحقيق مكاسب وإحتكارات تجارية [٣].

وفى ذلك الوقت وصل ريموند الصنجيل وروبرت دى فلاندرز وروبرت النورمانى إلى جبلة، فإستاءوا إستياءاً بالغاً لهجوم بوهيموند ودايمبرت على اللاذقية، لأن ريموند بالذات كره أية زيادة لنفوذ بوهيموند، فضلاً عما يسببه الهجوم على اللاذقية من تعكير صفو العلاقات بين الصليبين والإمبراطورية البيزنطية، فى الوقت الذى كان الصليبيون دائماً أبداً فى حاجة الى معونة البيزنطينين [٤]. ولم يكن من الحكمة مطلقاً ان يبدأ المندوب البابوى دايمبرت أعماله فى الشرق بالعدوان على الإمبراطورية البيزنطية، مما يوسع شقة الخلاف بين الشرق والغرب المسيحيين، وبين الدولة البيزنطية والصليبيين فى الشام ثم بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية.

وإزاء ذلك الإستياء الذى أبداه ريموند وزميلاه، اضطر بوهيموند ودايمبرت الى رفع الحصار عن اللاذقية، فدخلها ريموند وأعوانه، حيث رحب به الاهالى

(1) Grousset: op. cit. I,p. 191.
(2) Albert d,Aix, pp. 500- 501.
(3) Heyd: op. cit. I,p. 135.
(4) Chalandon:Alexis Comnene, p. 218.

ورفعوا علمه إلى جانب علم الإمبراطور البيزنطى [1]. وبعد ذلك أبحر روبرت دى فلاندرز وروبرت النورمانى عائدين إلى الغرب عن طريق القسطنطينية، فى حين بقى ريموند الصنجيل فى اللاذقية [2].

دايمبرت وبوهيموند في بيت المقدس:

على أنه يلاحظ أن بوهيموند الأنطاكى لم يف حتى ذلك الوقت بقسمه الصليبى الخاص بزيارة بيت المقدس. لذلك لم يكد يصل إلى أنطاكية عائداً من حصار اللاذقية حتي اصطحب دايمبرت ، واتجه الاثنان نحو بيت المقدس . ولايستبعد أن يكون بوهيموند - بعد أن لمس المساعدة التى قدمها لها البيازنة ضد البيزنطينيين عند اللاذقية - قد وعد دايمبرت بمساندته فى المناداة به بطرقاً على بيت المقدس. ومن يدرى، فقد تكون البطرقية هى الخطوة الأولى للوصول بدايمبرت إلى حكم بيت المقدس نفسها وإقامة حكومة ثيوقراطية فيها، لاسيما وأن جودفرى لم يعتمد فى حكمه على حق وراثى شرعى ، فضلاً عن ضعفه وإعتلال صحته. ولما كان بلدوين أمير الرها قد شغل هو الآخر بإمارته عن الحج إلى بيت المقدس ، فقد دعاه بوهيموند لمصاحبته، هو ودايمبرت، فوعد باللحاق بهما [3].

وكان أن خرج بوهيموند ودايمبرت إلى بيت المقدس، فاتبعا الطريق الساحلى حتى يكونا على مقربة من الأسطول البيزى الذى سار بحذائهما. وبعد أن مرا بجبلة التى كانت تابعة لأمير طرابلس، أدركا بانياس، حيث إلتقى بوهيموند ودايمبرت ببلدوين. ثم إستأنف الأصحاب الثلاثة سيرهم جنوباً، ومعهم عدد كبير من أتباعهم من الرجال والنساء، حتى قدر موكبهم ببضعة الاف [4]. وقد مروا بانطرطوس، وصادفوا فى طريقهم كثيراً من المتاعب بسبب إشتداد البرد فى جبال لبنان من جهة، وبسبب الشعور العدائى الذى قوبلوا به والذى حرمهم من الحصول على ما يلزمهم من تموين من جهة أخرى. وهكذا حتى وصلوا الى طرابلس فقدم لهم ابن عمار صاحب المدينة ما كانوا فى حاجة إليه من ميرة وغذاء [5]. على أنه لا يوجد فى المصادر ما يثبت ان حكام بيروت وصور وعكا التابعين للخلافة الفاطمية - فعلوا مثلما فعل صاحب طرابلس، فتعرض موكب الصليبيين مرة أخرى

(1) Runciman: op. cit. I,p. 301.
(2) Guibert de Nogent,p. 232.
(3) Setton: op. cit. I,p. 377.
(4) Foucher of chartres, pp. 98. 322-326.
(5) Archer: The crusades, pp.98-99.

للعناء بسبب صعوبة الحصول على التموين، وإستمر الأمر على ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس فى ٢١ ديسمبر سنة ١٠٩٩ .

وقد سر جودفرى عندما رأى ذلك العدد الضخم من الصليبيين يصلون الى بيت المقدس، لأنه كان فعلاً فى حاجة ماسة الى الرجال، وصار يأمل فى إقناع بعض أولئك الصليبيين بالبقاء فى بيت المقدس بعد الحج . ويبدو أنه نجح إلى حد كبير فى ذلك ، إذ إختار بعض الصليبيين أن يظلوا فى خدمة جودفرى عقب عودة بوهيموند وبلدوين إلى الشمال (١).

على أن وصول بوهيموند وبلدوين ودايمبرت إلى بيت المقدس أمر له اهمية وخطورة فى تاريخ الحركة الصليبية، لأن هذا الحدث يشير إلى نهاية الفترة القلقة التى أعقبت وصول الصليبيين إلى الشام، وهى الفترة التى تطلبت وضع الفتوح الصليبية فى إطار معين ثابت . هذا إلى أن وصول أولئك الزعماء الثلاثة سوياً أثار الشعور بوجود نوع من الترابط أو التفاهم بينهم ، فضلاً عن أن ظهور دايمبرت والبيازنة على مسرح بيت المقدس جاء أعلاناً لسيادة الغربيين على البحر ودليلاً على أن الصلة بين الفرنجة فى الشام وبين العالم اللاتينى الغربى لن تنقطع (٢).

دايمبرت بطرق بيت المقدس :

وكانت المشكلة الأولى التى صار على زعماء الصلبيين حلها هى تحديد العلاقة بين جودفرى حامى المقدس من ناحية ، وأميرى أنطاكية والرها من ناحية أخرى. فهل من حق حاكم بيت المقدس أن يباشر نوعاً من الأولوية والرئاسة على أميرى أنطاكية والرها؟ أن جودفرى بوايون لم يتمتع بلقب ملك ، وإنما إكتفى – كما سبق أن ذكرنا – بلقب متواضع هو حامى بيت المقدس . وهذا اللقب فيما يبدو كان لايمكن أن يخوله حق الزعامة على بقية الأمراء الصليبيين بالشام، مما جعل العلاقة بين الجانبين تتميز بنوع من الغموض والميوعة حتى قيام مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بعد (٣).

على أنه يلاحظ من جهة أخرى أن مجئ دايمبرت إلى بيت المقدس عاق ـ ولو إلى حين ـ التطور نحو قيام ملكية صليبية فيها. حقيقة إن هذا التطور كان طبيعياً وأمراً ضرورياً فى دولة إعتمدت فى بقائها على الحرب، وعاشت فى خوف

(1) Runciman : op. cit. I, p. 303 .
(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 193 .
(3) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem. pp. 92 - 93 .

دائم بسبب شعورها بأنها غريبة وسط مجتمع معاد يحيط بها. ولكن كان لابد لكى يتم هذا التطور من أن يكون بطرق بيت المقدس ضعيفاً ، حتى لا يقف عقبة فى طريق السلطة العلمانية ونموها. وهنا تبدو أهمية وصول دايمبرت فى ذلك الوقت بالذات، لانه أعلن فى بيت المقدس أن إنتخاب أرنولف مالكون بطرقاً عمل باطل وغير قانونى، مما أدى إلى عزله، وشغور كرسى بطرقية بيت المقدس. ومن الواضح أن دايمبرت لابد وأنه رسم تلك الخطة مع بوهيموند أثناء الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس، فإتفقا على الضغط على جودفرى الذى كان محتاجاً إلى معونة البيازنة البحرية من ناحية وإلى مساعدة بعض الفرسان الذين يمكن ان يمده بهم بوهيموند من ناحية اخرى [1].

وهكذا أتيحت الفرصة لدايمبرت فإعتمد على رجاله البيازنة فضلاً عن بوهيموند، حتى تم إنتخابه بطرقاً على بيت المقدس فى أواخر ديسمبر سنة ١٠٩٩ [2] . ولم يلبث أن ركع جودفرى وبوهيموند أمام البطرق الجديد - مثلما يركع الأفصال الاقطاعيون أمام سيدهم - طالبين منه تقليدهم حكم بيت المقدس وأنطاكية على التوالى [3] ومعنى ذلك أن بطرق بيت المقدس أصبح السيد الأعلى فى البلاد المقدسة، وممثل المسيح فيها، وذلك بوصفه بطرقاً على تلك المدينة من ناحية، ومندوباً بابوياً إختاره البابا - وهو خليفة القديس بطرس - لينوب عنه فى الأرض المقدسة من ناحية أخرى. وبذلك صار على بقية الأمراء العلمانيين أن يدينوا له بالطاعة والإحترام وأن يتسلموا منه تقاليدهم الخاصة بقيامهم فى حكم إماراتهم .

ثم أن بطرق بيت المقدس الجديد - وهو الرجل القوى الذى ساندته أساطيل بيزة وجيوش بوهيموند - لم يجد أمامه فى بيت المقدس أميراً علمانياً قوياً يحد من نفوذه ويوقفه عند حده، لان جودفرى نفسه كان معروفاً بضعفه وطيبته وحرصه على إسترضاء الكنيسة ورجالها، وربما ظن أن هذا هو الطريق الوحيد لإكساب حكمه صبغة شرعية ثابتة [4]. وخلاصة القول، فان إختيار دايمبرت بطرقاً على بيت المقدس جاء مظهراً لقيام حكومة ثيوقراطية جديدة فى المدينة المقدسة [5].

وبعد أن تمت تلك الخطوة التى غيرت وجه الدولة الصليبية الجديدة فى

(1) Setton: op. cit. I,p. 377.
(2) Gesta Francorum (HIST. Occid. III), p. 519.
(3)Albert d,Aix, pp. 511 ` 512 & Guillaume de Tyr,p.387.
(4)Michaud: op. cit. II,pp. 9-10
(5) Grousset: op. cit. I,p. 193.

بيت المقدس، عاد بلدوين وبوهيموند إلى إمارتيهما فى الشمال فى أول يناير سنة ١١٠٠ . وقد حاول دقاق ملك دمشق أن يظفر بالأميرين عند بعلبك، ولكنهما أفلتا من قبضته وعادا سالمين [١]. وربما لم يكن لهذه المحاولة فى حد ذاتها أهمية سوى أنها نبهت الصليبيين إلى أن بقاء دمشق وعكا وغيرهما من المدن الواقعة فى وسط بلاد الشام بأيدى المسلمين، وكان يشكل خطراً جسيماً على الصليبيين، ويفصل بين الأمارات الصليبية فى شمال الشام، وبيت المقدس فى الجنوب.

أما بوهيموند فقد كسب كثيراً من وراء الدور الذى قام به فى مساعدة دايمبرت لأنه ضمن تأييد بطرق بيت المقدس له فى حالة تعرضه لهجوم من جانب الإمبراطور البيزنطى. وعلى أساس هذا التأييد، إتخذ بوهيموند لنفسه لقب «امير» انطاكية ، كما إتخذ ابن أخته تنكرد لقب «أمير» الجليل ، اشارة منهما إلى انهما لا يتبعان جودفرى، وإنما دايمبرت [٢].

ولم يلبث أن إستحكم النزاع فى بيت المقدس بين جودفرى ودايمبرت فى فبراير سنة ١١٠٠ ، وذلك عندما أصر الأخير على أن يأخذ جزءاً من يافا وجزءاً من بيت المقدس [٣] وقد وافق جودفرى على ذلك، بل لقد وافق على أن يستولى البطرق على حكم المدينتين بعد وفاته أو بعد أن يستولى جودفرى على مدينتين بدلهما من المسلمين، ولكن دايمبرت كان لا يستطيع الإنتظار وأخذ يتعجل القضاء على كل أثر لنفوذ السلطة العلمانية فى بيت المقدس [٤].

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفرى بوايون لم يلبث أن مرض بالحمى ، وهو المرض الذى أدى إلى وفاته بعد بضعة أشهر ، مما أثار مشكلة اختيار خلف يحل محله فى المطالبة بحقوقه وسلطاته فى بيت المقدس [٥] .

تنكرد وفتح حيفا :

أما عن المسلمين فى المدن الساحلية، فقد قاموا فى تلك الأثناء بإغارات من أرسوف وعسقلان على المراكز الصليبية القريبة. ولم تقو الحامية التى تركها الصليبيون فى الرملة على الصمود أمام تلك التهديدات، فاسرعت إلى طلب

(1) Guillaume de Tyr, pp. 387 - 388 .
(2) Runciman : op. cit. I, p. 306 .
(3) Michaud : op. cit II, p. 10 .
(4) Guillaume de tyr, pp. 388-390 .
(٥) أجمعت المصادر الغربية والصليبية على أن جودفرى توفى بالحمى ، وهذا يخالف الرواية التى ذكرها ابن الأثير وهى أنه مات مقتولا بسهم أصابه أثناء حصار عكا .
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

المعونة من جودفرى. وقد أسرع جودفرى بوايون - بمساعدة البيازنة - بتحصين يافا فى اوائل سنة ١١٠٠ .ويبدو أن تلك التحصينات التى قام بها الصليبيون ، بالإضافة إلى مارآه المسلمون من مجئ بوهيموند ودايمبرت إلى بيت المقدس على رأس قوة كبيرة ، هى التى جعلت أمراء أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا يسارعون إلى طلب الصلح مقابل اموال معينة تعهدوا بدفعها (١).

ولم يلبث أن وصل الى يافا فى يونية سنة ١١٠٠ أسطول بندقى من مائتى سفينة. ومن الواضح أن هذه الحملة البندقية إنما أتت إلى الشرق للمشاركة فى الحرب الصليبية من ناحية ولتحقيق ما يمكن تحقيقه من مكاسب للبندقية فى الشرق من ناحية أخرى ، وذلك أسوة بما فعلته بقية الجمهوريات الإيطالية التجارية فى عصر الحروب الصليبية (٢)وقد عرض البنادقة خدماتهم على دولة بيت المقدس الصليبية للمساهمة فى محاربة المسلمين، بشرط أن يكون لهم الثلث فى كل مدينة يساعدون فى الإستيلاء عليها، ليتخذوا من ذلك الثلث حياً تجارياً يباشرون فيه نشاطهم التجارى. فإذا نجحوا فى الإستيلاء على طرابلس كانت المدينة بأكملها لهم، مع تعهدهم بدفع ضريبة سنوية رمزاً للتبعية لدولة بيت المقدس . وفى مقابل كل ذلك وضع البنادقة أنفسهم وخدماتهم تحت تصرف الصليبيين حتى ١٥ اغسطس (٣).

وكان أن بدأ البنادقة يحاصرون عكا من ناحية البحر، فى الوقت الذى أخذ مرض الموت يزداد وطأة على جودفرى بوايون، فقام دايمبرت بطرق بيت المقدس وتنكرد بالمساهمة فى حصار عكا من ناحية البر (٤) . ولم تلبث أن جاءت الاخبار بوفاة جودفرى فى ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ وعندئذ إقترح دايمبرت وتنكرد على البنادقة ترك عكا وتوجيه الجهود ضد حيفا، حيث أن هذه الاخيرة أقرب إلى بيت المقدس وأكثر نفعاً للصليبيين. وكانت حيفا تابعة عند ئذ للدولة الفاطمية، فيها حامية صغيرة، ولكن معظم سكانها من اليهود الذين كرهوا المسيحيين كراهية شديدة، ومن ثم أبدوا مقاومة عنيفة (٥).

وعندما إنتشرت الشائعات بأن حيفا أوشكت على السقوط فى أيدى الصليبيين، علم تنكرد بأن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن تكون هذه

(1) Stevenson : op. cit. p. 40 .
(2) Runciman:op. cit. I,pp. 312 - 313
(3)Heyd: op. cit. I, 136.
(4) Translatio Sancti Nicolai Veoetian (Hist Occid, Tome V),pp. 272-275.
(5) Albert d'Aix p. 527.

المدينة من نصيب أمير آخر إسمه جالدمار، وعندئذ هدد تنكرد بالأنسحاب وأعلن أنه لن يعمل لحساب غيره، لاسيما وأن حيفا كانت الثغر الطبيعى لإماراته فى الجليل [١]. ولكن البطرق دايمبرت إسترضى تنكرد بسرعة ووعده بحيفا، فضاعف تنكرد جهوده حتى سقطت حيفا فى أيدى الصليبيين فى أغسطس سنة ١١٠٠ وبذلك إكتملت إمارة الجليل بعد أن حصلت على ثغر لها على البحر، وإن كان تنكرد نفسه لم يهنأ طويلاً بذلك النصر، إذ لم تلبث الظروف أن إضطرته إلى نقل نشاطه إلى مسرح آخر[٢].

(1) Setton, op. cit.,I,p. 380.
(2)Grousset: Hist. des Croisades, 1, p. 290.

الباب الخامس

تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية

(قل هل ننبئكم بالأخسرين
أعمالاً . الذين ضل سعيهم
في الحياة الدنيا وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعاً
)

(الكهف : ١٠٣ - ١٠٤)

الفصل الأول

النزاع بين بلدوين وبطرق بيت المقدس

البطرق دايمبرت يفرض نفسه على دولة بيت المقدس :

كان حكم جودفرى بوايون فى بيت المقدس بمثابة حل وسط بين النظامين الملكى والثيوقراطى ، وفيه ترضية - ولو جزئية - لتطلعات الأمراء وتطلعات رجال الكنيسة ، ولذلك أثار موت ذلك الرجل مشكلة كبرى حول الوضع المقبل لدولة بيت المقدس الصليبية وكيف يكون نظام الحكم فيها (١) ويقول المؤرخ وليم الصورى إن جودفرى بوايون اوصى قبل وفاته بأن يخلفه البطرق دايمبرت فى حكم بيت المقدس، وذلك فى حالة عدم وجود ورثة مباشرين من سلالةلجودفرى نفسه (٢) . ومن الواضح أن تنفيذ هذه الوصية كان يعنى تحويل حكومة بيت المقدس الى حكومة ثيوقراطية فعلاً، أى حكومة دينية ترتبط بالكنيسة، وهو ما كان يسعى إليه دايمبرت منذ أمد بعيد.

على ان قيام حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس وإستبعدا كل فكرة تستهدف نظاماً ملكياً وراثياً ، كان امراً صعب التحقيق. ذلك ان المدة القصيرة التى تولى فيها جودفرى بوايون حكم بيت المقدس كانت كافية لتجعل فرسانه يؤمنون بضرورة قيام ملكية وراثية فى بيت المقدس حتى يتحقق الإستقلال للكيان الصليبى . هذا فضلاً عن أن أرنولف مالكورن - البطرق السابق لبيت المقدس الذى خلفه دايمبرت - كان له أنصاره من رجال الدين ، وهؤلاء شايعوا فكرة قيام ملكية علمانية وراثية فى بيت المقدس ، لا لشئ سوى التشفى فى دايمبرت والوقوف فى وجه أطماعه وآماله (٣).

ومهما يكن من أمر ، فإن وجه الأهمية فى ذلك الموقف هو أن المؤمنين بنظام الملكية الوراثية اتجهوا بأفكارهم وقلوبهم نحو بيت بوايون، وأرادوا ان تكون

---

(1) Stevenson: op. cit.p. 42.

(2) Guillaume de Tyr, p. 403.

وهناك رأي آخر رددته بعض المراجع يؤكد أن جودفري بوايون اوصي فعلا لاخيه بلدوين امير الرها بان يرثه في حكم بيت المقدس . انظر:

Cam: Med. Hist. vol. 5.p. 304 &Stevenson:op. cit.p.42.

(3) Albert d'Aix, p. 526.



الملكية المنشودة محصورة فى ذلك البيت بالذات. وكان أن أحاطوا نواياهم بالسرية التامة المطلقة ، فاوفدوا من قبلهم اسقف الرملة ومعه إثنان من الفرسان لمقابلة بلدوين امير الرها ومطالبته بالحضور على وجه السرعة لإستخلاص حقوقه وتولى السلطة، بوصفه الوريث الشرعى لدولة الفرنجة فى بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفرى (١) وعندما أحس دايمبرت بهذا الإتجاه اخذ يفكر فى وسيلة يضيع بها على بلدوين فرصة الفوز بحكم بيت المقدس ، فلم يجد بداً من الاستفادة بأحد كبار الامراء الصليبيين ممن يعتبرون أنداداً لبلدوين نفسه . وفعلاً فكر دايمبرت فى صديقه بوهيموند أمير انطاكية ، بوصفه القوة الوحيدة التى تستطيع ان تقف فى وجه بلدوين وتحول دون وصوله الى حكم بيت المقدس . هذا فضلاً عن أن دايمبرت كان له أنصار بين أمراء بيت المقدس أنفسهم من بينهم تنكرد ابن اخت بوهيمند (٢) . وقد عرف عن تنكرد هذا الحماسة وسرعة البت ، زيادة على انه صار من أقوى أمراء دولة بيت المقدس بعد تأسيسه إمارة الجليل . وكان أن إتفق تنكرد مع دايمبرت على عرض حكم بيت المقدس على بوهيموند بوصفه القوة الكبرى التى يمكنها الوقوف فى وجه بلدوين من ناحية ثم مساعدة دايمبرت من ناحية أخرى (٣).ويتضح من الرسالة التى بعث بها دايمبرت وتنكرد الى بوهيموند ان الغرض منها كان إستثارة الأخير، وإنه لو قدر لخطة دايمبرت النجاح لأدت إلى إثارة فتنة أو حرب أهلية بين الصليبيين بعضهم وبعض فى بلاد الشام ، أعنى بين بلدوين أمير الرها من جانب وبوهيموند أمير النطاكية من جانب آخر، مما يؤدى بالصليبيين جميعاً فى الشرق إلى كارثة كبرى. وفى وسط تلك الازمة إزداد وضوح الرأى الذى نادى به عقلاء الصليبيين ، وهو ضرورة قيام ملكية علمانية وراثية قوية فى بيت المقدس توحد بين صفوف الصليبيين من جهة وتحميهم من خطر المسلمين أو البيزنطيين من جهة أخرى (٤).

ومهما يكن من أمر فإن حسن حظ الصليبيين شاء ألا تصل الرسالة التى بعث بها دايمبرت إلى بوهيموند، اذ وقع حامل الرسالة قرب اللاذقية فى أيدى رجال ديموند الصنجيل، المنافس اللدود لبوهيموند (٥) . ولعلنا نذكر كيف أصر

(1) Michaud:op.cit.II,P. 19.
(2) Stevenson: op. cit., p. 42.
(3) Guillaume de Tyr,p. 406.
(4) Richard: Le Royaume Latin,pp. 62- 63.
(5) Albert d,Aix,p.624.

ويلاحظ ان ريموند نفسه لم يكن موجوداً عندئذ فى بلاد الشام. وانما كان متغيباً فى زيارة القسطنطينية، بناء على دعوة الامبراطور البيزنطى.
(Runciman: op. cit. I,pp. 318-319)

بوهيموند على حرمان ريموند من أى حق فى أنطاكية عقب سقوطها، مما أثار شعور المرارة والكراهية فى قلب الاخير. حقيقة أن بوهيموند علم بالأحداث الجارية فى بيت المقدس عن طريق آخر، ولكن ذلك كان فى الوقت الذى حلت به كارثة كبرى جعلته عاجزاً حتى عن مجرد الحركة. ذلك أنه حدث فى شهر يوليو سنة ١١٠٠ - أى فى الوقت الذى توفى جودفرى بوايون - أن كان بوهيموند فى طريقه إلى ملطية ليقدم النجدة لأميرها الأرمنى ضد التركمان من أتباع غازى كمشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس ، فوقع بوهيموند أسيراً فى قبضة غازى كمشتكين، ولم تفلح الجهود التى بذلها الصليبيون لإنقاذه[١] وهكذا قدر لبوهيموند أن يظل أسيراً ثلاث سنوات فى قلعة نكسار قرب شاطئ البحر الاسود (٢)، مما ترك الطريق ممهداً أمام بلدوين ليصل إلى عرش بيت المقدس. والمعروف عن بلدوين انه كان رجلاً ذكياً طموحاً لاتفوته فرصة الدعوة التى وصلته من أنصاره فى بيت المقدس، فصمم منذ اللحظة الأولى على أن يضع خدماته وجهوده ويسخر شخصيته الفذة فى خدمة دولة الصليبيين الناشئة فى فلسطين، فضلاً عن تحقيق طموحاته الشخصية ، مما جعله من أعظم الشخصيات الصليبية التى شهدها عصر الحروب الصليبية (٣).

والواقع ان بلدوين إمتلك من الشجاعة والقوة والإخلاص، ما كفل له النجاح والتغلب على خصومه (٤) وتبدو لنا أخلاقه فى وضوح من تصرفه عندما سمع بما حل ببوهيموند على يد الملك غازى كمشتكين بن الدانشمند أمير سيواس التركمانى. ذلك أن بوهيموند عندما وقع فى الأسر أرسل رسالة سرية الى بلدوين أمير الرها مستنجداً به، ومع الرسالة خصلة من شعره الذهبى لتكون دليلا على صدق الرسول. وعندما تأكد بلدوين من صحة الخبر أسرع على رأس عدد كبير من فرسانه فى إتجاه ملطية لإدراك كمشتكين وفك أسر بوهيموند (٥) ولكنه لم يكد يصل إلى ملطية حتى كان التركمان قد أسرعوا بالانصراف عنها متجهين إلى الى سيواس، ومنها إلى نكسار قرب البحر الاسود. وكل ما إستطاع بلدوين ان يفعله هو تخليص ملطية من التركمان، وعند ئذ أعلن أمير ملطية الأرمنى ولاءه وتبعيته

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٣هـ

(٢) ابن العديم. زبدة الحلب، ج٢ ص ١٤٥.

ويلاحظ أن ابن العديم ذكر أن بوهيموند وقع أسيراً فى معركة دارت بأرض مرعش.

(3) cam. Med. Hist., Vol. 5,p. 304.

(4) Setton: op. cit., p. 381.

(5) Runciman: op. cit.I, P. 321.

لبلدوين ، الذى ترك بضع مئات من فرسانه لحماية ملطية ، ثم عاد الى إمارته فى الرها دون أن يجازف بنفسه ويتبع التركمان فى عقر دارهم لإنقاذ بوهيموند(١).

على أن بلدوين لم يكد يستقر فى إمارته بالرها بعد عودته من الشمال حتى تلقى فى أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر سنة ١١٠٠ الرسالة التى بعث بها أنصاره فى بيت المقدس يخبرونه فيها بما كان من موت أخيه جودفرى، ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتسلم مقاليد الأمور فى المدينة المقدسة. عندئذ أظهر بلدوين اسفه لموت أخيه اكثر من فرحه للإستيلاء على إرثه (٢). ولم يشأ بلدوين أن يضيع الفرصة التى وافاه القدر بها للفوز بحكم بيت المقدس، فغادر الرها نحو المدينة المقدسة فى ٢ اكتوبر سنة ١١٠٠ بعد أن عهد بشئون الرها إلى قريبة بلدوين دى بورج، وترك له قوة كبيرة من الفرسان والمشاة للدفاع عن الإمارة إذا هددها خطر (٣).

وهكذا ساعدت الظروف بلدوين على إتمام رحلته الموفقة إلى بيت المقدس، إذ لو كان بوهيموند حراً طليقاً ووصلته رسالة دايمبرت، لسبب له ذلك كثيراً من المضايقات. ولكن الامر لم يقف عند حد أسر بوهيموند ووقوع الرسالة فى يد خصمه ريموند فحسب، بل ان أهل أنطاكية من الصليبيين، حملوا لبلدوين جميلاً كبيراً لمروءته ومحاولته فك أسر أميرهم (٤). لذلك لا عجب إذا إستقبلت أنطاكية بلدوين - وهو فى طريقه الى بيت المقدس - إستقبالاً حماسياً طيباً ، فقضى بها ثلاث أيام ثم غادرها فى ١٥ أكتوبر متبعاً طريق الساحل، فمر باللاذقية حيث التقى بالمندوب البابوى موريس دى بورتو Maurice de porto الذى كان قد وصل الى الشام منذ قريب. ويبدو أن بلدوين واجه بعد ان غادر اللاذقية بعض الأخطار من جانب سلاجقه دمشق الذين حاولوا قطع الطريق عليه، ولكنه مر بسلام حتى وصل إلى مدينة طرابلس فى ٢١أكتوبر بعد أن بلغ رجاله درجة خطيرة من الإعياء(٥). وفى طرابلس أكرمه أميرها العربى أبو على بن عمار، وأمده ورجاله بما كانوا فى حاجة ماسة إليه من ميرة وغذاء، وتعهد بأن يحيطه علماً بتحركات عدوهما المشترك، وهو دقاق ملك دمشق السلجوقى (٦). وليس هذا

(1) Albert de,Aix,pp.525 - 526.
(2) Foucher de chartres (Hist. occid.lll) p. 373.
(3) Cam. Med. HIST Vol. p. 301.
(4) Grousset: Hist. des Croisades,I, 208.
(5) Guillaume de Tyr,Ip. 407. 8. Albert d' AIX, P. 528.
(6) Estoire d, Eracles, I,p. 407 & Gesta Francorum,p. 520.

مجال الخوض فى العلاقات بين القوى الإسلامية ببلاد الشام فى ذلك الوقت، ولكن تكفى الاشارة إلى أن العداء الشديد إستحكم عندئذ بين سلاجقه دمشق من ناحية وبنى عمار فى طرابلس من ناحية أخرى، الأمر الذى دفع حكام طرابلس إلى السعى لمحالفة القوى الصليبية المجاورة للوقوف فى وجه سلاجقة دمشق (١).

ومهما يكن من أمر، فإن بلدوين إستطاع أن ينجو من شباك دقاق ملك دمشق بفضل مساعدة إبن عمار. وكان دقاق قد خرج وبصحبته جناح الدولة أمير حمص العربى ، لإصطياد بلدوين عند مصب نهر الكلب فى مكان ضيق بين الجبال والبحر (٢). ولكن المعركة - وفق المصادر الصليبية - إنتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين ، الذى غنم قدراً لا بأس به من الغنائم والأسلحة والخيول (٣). وهكذا إستأنف بلدوين طريقه الى بيت المقدس، بعد أن أثرت هزيمة الدماشقة فى أمراء الموانى الفاطمية على الساحل - مثل بيروت وصيداً وصور وعكا - فقدموا لبلدوين ما إحتاج اليه من زاد وميرة (٤)

تتويج بلدوين

وأخيراً نجح بلدوين فى الوصول إلى حيفا، وهى أول مدخل ساحلى للصليبيين فى فلسطين. وقد سبق أن أوضحنا أن حيفا كانت تابعة لتنكرد - حليف دايمبرت - ولكن تنكرد كان لحسن الحظ متغيباً عندئذ فى بيت المقدس لمساعدة حليفة فى السيطرة على المدينة المقدسة . ولم يستطع أتباع تنكرد فى حيفا أن يمنعوا الزاد والتموين عن بلدوين أو معارضته - بوصفه على الاقل أميراً صليبياً، فضلاً عن إنه أخو سيدهم السابق جودفرى – فحصل بلدوين على ما لزمه من زاد، ثم إتجه إلى يافا، أكبر ثغر للصليبيين عندئذ فى فلسطين (٥). ومن يافا إتجه بلدوين الى بيت المقدس، حتى إذا ما إقترب منها حوالى ١٠ نوفمبر سنة

---

(1) Foucher de Chartres pp. 374 - 376.
(2) Guillaume de Tyr, p. 407.
(٣) يفهم من الاشارة الموجزة التى اوردها ابن الاثير عن تلك الموقعة ان دقاق هو الذى انتصر «على الفرنج».
كذلك يذكر ابن القلانسى (ص١٣٨ سنة ٤٩٤ هـ) ان دقاق ومعه جناح الدولة صاحب حمص اعترضا طريق بلدوين قرب بيروت وان المسلمين ادركوه وقتلوا بعض اصحابه.
والكلب بفتح أوله وسكون ثانة، نهر صغير بين بيروت وصيدا .
(4) Albert d'Aix, pp. 528 - 530 .
(5) Foucher de chartres, p. 377

١١٠٠ خرج المسيحيون من أهل المدينة - على إختلاف طوائفهم ومذاهبهم - لإستقباله إستقبالاً رائعاً بوصفه أخو جودفرى ووريثه، بل لقد نادوا جميعا به داخل المدينة المقدسة ذاتها - ملكاً وسيداً عليهم [١]. (١١ نوفمبر ١١٠٠).

وهكذا لم يقدر للحكومة الثيواقراطية التى أراد البطرق دايمبرت إقامتها فى بيت المقدس أن تعيش أكثر من خمسة شهور، إذ لم يستطع دايمبرت الوقوف امام الرأى العام المسيحى، وإضطر إلى الإنسحاب الى كنيسة جبل صهيون [٢] وكانت ساعة الثأر قد حانت بالنسبة لأرنولف مالكورن - بطرق بيت المقدس السابق الذى عزله دايمبرت - فجمع حوله رجال الدين لتقديم كل مساعدة ممكنة لبلدوين. على ان بلدوين كان على درجة من الحرص بحيث لم يشأ أن يتعجل عزل دايمبرت من كرسى بطرقية بيت المقدس، وذلك خوفاً من إحداث فتنة داخلية فى تلك الفترة الحساسة من تاريخ بطرقية الدولة الوليدة، وإنما إختار أن يقوم عندئذ بما أسماه المؤرخون نزهة حربية فى المناطق القريبة، أى حول عسقلان والخليل وبيت لحم [٣]. ذلك أنه خرج فى ٢٥ نوفمبر على رأس مائة وخمسين فارساً وخمسمائة من المشاة ، فهاجم العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج الى بيت المقدس، كما أغار على بعض المراكز قرب البحر الميت. وأخيراً عاد الى بيت المقدس فى ٢١ ديسمبرسنة ١١٠٠ [٤].

وعند عودة بلدوين الى بيت المقدس تم الصلح والإتفاق بينه وبين دايمبرت. وهنا نلاحظ أن دايمبرت كان رجلاً له مكانته وأهميته بالنسبة للصليبيين فى الشام، فقد رأينا أنه قبل مجيئه إلى الشرق كان رئيس أساقفة بيزة، أى الزعيم الروحى لتلك المدينة الايطالية صاحبة الدور الهام فى قصة الحروب الصليبية. ولم يكن فى إستطاعة الصليبيين فى الشام أن يستغنوا مطلقاً عن مساعدة الأسطول البيزى، تلك القوة البحرية الضاربة التى كان فى وسعها الوقوف فى وجه السفن الفاطمية ومنعها من التردد على بيروت وصور وعكا وعسقلان وغيرها من الموانى التى ظلت بأيدى المسلمين فى الشام حتى ذلك الوقت [٥]. هذه الإعتبارات وغيرها لم تغب مطلقاً عن فكر بلدوين، وهو الرجل الحصيف البعيد النظر، فآثر منذ اللحظة الأولى أن يقف موقفاً معتدلاً بعيداً عن التطرف من

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 410.
(2) Idam, p. 4ll.
(3) Albert d'Aix pp. 533 - 536 .
(4) Stevenson : op. cit. pp. 43 - 44 .
(5) Grousset : Hist . des Croisades, I, p. 216 .

دايمبرت ، مما جعل الأخير يجنح تلقائياً للسلم ويوافق على مبدأ تتويج بلدوين ملكا على بيت المقدس.

وكان أن تم ذلك التتويج في يوم عيد الميلاد في ديسمبر سنة ١١٠٠ في كنيسة العذراء ببيت لحم، فوضع دايمبرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية (١). وبتتويج بلدوين تبددت جميع آمال دايمبرت، وزالت نهائياً فكرة قيام حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس (٢).

أما عن تنكرد ، فكانت وفاة جودفري ، وما أعقب تلك الوفاة من أحداث ، بمثابة كارثة حلت به . ذلك أن تنكرد الذى جعله جودفرى أميراً على الجليل والذى إستولى على حيفا بعد ذلك ، صار بدون شك الرجل الثانى فى دولة بيت المقدس . على أن ظهور بلدوين على مسرح الحوادث بعد وفاة أخيه جودفرى جاء فى حد ذاته طالعاً سيئاً بالنسبة لتنكرد ، بسبب الخلاف بين تنكرد وبلدوين ، وهو خلاف قديم يرجع إلي أيام التنافس بينهما حول الإستيلاء على قيليقية والمصيصة سنة ١٠٩٧ . ثم كان أن راهن تنكرد على الحصان الخاسر ، فحاول أن يشد أزر دايمبرت وأن يمنع بلدوين من الوصول إلى بيت المقدس بمختلف الطرق ، ولكنه فشل فى كل ذلك ، وإنتهى الأمر بقيام بلدوين ملكاً علي بيت المقدس (٣) . وهكذا صار من الصعب علي تنكرد أن يصبح تابعاً لبلدوين ، وأن يعلن ولاءه له بعد ماأظهره نحوه من ألوان العداء والخصومة الشديدة ، بل إنه رفض الحضور لمقابلة الملك الجديد عندما إستدعاه أكثر من مرة لمقابلته في يناير سنة ١١٠١(٤) .

وفي وسط تلك الأزمة المستحكمة بين بلدوين وتنكرد ، تلقي الأخير رسالة في مارس سنة ١١٠١ من الصليبيين في أنطاكية ، يطلبون منه الحضور إليهم للقيام بالوصاية علي إمارتهم أثناء أسر خاله بوهيموند . وكانت هذه الدعوة حلاً ناجحاً للموقف ، إذ رحب تنكرد بتلك الفرصة التي ستخلصه من موقفه الحرج مع بلدوين ، وفى الوقت نفسه ستمكنه من بسط سيادته على شمال الشام . ولم يلبث أن تم الصلح بين تنكرد وبلدوين ، فتنازل تنكرد لملك بيت المقدس عن الجليل وطبرية وحيفا ، بشرط واحد هو أن يسترد تلك المناطق مرة أخري إذا عاد قبل إنقضاء ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وهكذا غادر تنكرد فلسطين في مارس سنة ١١٠١ ليباشر نشاطاً من لون آخر في شمال الشام (٥).

---

(1) Stevenson : op. cit., p. 44.
(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 63.
(3) Setton : op. cit. I, p. 381 .
(4) Runciman : op. cit. I, p. 325 .
(5) Albert d'Aix, pp. 537 - 538 .

الفصل الثاني

بلدوين الأول والفاطميون

متاعب الصليبيين فى الشام

أجمع المؤرخون على أن جودفرى بوايون كانت تنقصه صفات السياسى الناجح ، فدفعه العناد إلى الوقوع أحياناً فى خصومات عنيفة مع بعض زملائه من أمراء الصليبيين، وفى الوقت نفسه جعلته تقواه يرضخ للكنيسة أكثر مما ينبغى ، مما عرض دولة بيت المقدس الصليبية الوليدة لخطر التصدع .

وعلى العكس منه كان أخوه بلدوين الأول الذى امتلك من الحصافة وبعد النظر والحكمة ، فضلاً عن الشجاعة ، ما جعل منه حاكماً ناجحاً [١] . لذلك جاءت وفاة جودفرى وتتويج بلدوين ملكاً على بيت المقدس بمثابة إنقاذ للصليبيين ولدولتهم الوليدة . ومع ذلك فقد كان الطريق أمام بلدوين الأول طويلاً وشاقاً، ولم تكن المهمة التى أمامه – وهى الخاصة بدعم أسس البناء الذى أقامه الصليبيون بالشام – بالأمر الهين، بسبب الأزمات العديدة التى واجهت الصليبيين فى بداية القرن الثانى عشر [٢] .

والواقع أن الأزمة الشديدة التى عاناها الصليبيون عندئذ فى بلاد الشام لم تكن بسبب قلة الطعام وندرة الزاد، وإنما كانت فى حقيقة أمرها أزمة فى المقاتلين والرجال. ذلك أن الصليبيين لم يؤسسوا ما أسسوه من إمارات إلا بعد أن ضحوا بعدد كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقص خطير فى الفرسان ، فى الوقت الذى كان بقاؤهم يتوقف على القتال والحرب[٣] . ولعل خير دليل على إفتقار الصليبيين فى ذلك الدور الأول من تاريخهم بالشام إلى الرجال ، أنه حدث عند أسر بوهيموند أمير أنطاكية، أن أتباعه لم يجدوا بينهم فارساً يستطيع النهوض بعبء الدفاع عن الأمارة ، فإستنجدوا بإبن أخته تنكرد الذى كان عليه أن يختار بين الجليل وأنطاكية . ولم يكد تنكرد ينتقل إلى أنطاكية حتى أصيب الصليبيون فى الجليل بخيبة أمل كبيرة وأحسوا أنهم حرموا من جهود رجل ، والرجال قليل [٤] .

حقيقة إن الأساطيل الغريبة الوافدة من إيطاليا وبروفانس وغيرهما ، أخذت

(1) Cam. Med Hist. vol 5, p. 304 .
(2) Runciman : op. cit. II, p. 3.
(3) Stevenson op. cit., p. 39, n I.
(4) Setton, op. cit. I p. 282.

تجلب باستمرار حجاجاً من الغرب ، ولكن هذه الأساطيل كثيراً ما تعرضت لإغارات البحرية الإسلامية بشمال إفريقية ، فإذا وصل الحجاج سالمين إلى يافا ، فإنهم كانوا لا يسلمون فى كثير من الحالات من غارات البدو فيما بين يافا وبيت المقدس ، بحيث لا يصل فى النهاية الى المستوطنات الصليبية إلا قلة قليلة (١) وبعض هؤلاء كانت إقامتهم لاتطول فى الأراضى المقدسة ، وإنما يشرعون فى العودة الى بلادهم فى الغرب الأوربى بعد الحج . فإذا أضفنا الى ذلك اتساع مساحة الأراضى التى سيطر عليها الصليبيون بالشام ، أدركنا فى النهاية ، خطورة الوضع الذى أضحت فيه الإمارات الصليبية ، لأن عدد المدافعين لا يتناسب إطلاقاً وإتساع الممتلكات الصليبية (٢). هذا فى الوقت الذى كانت تلك الإمارات أشبه بجزر منعزلة وسط محيط إسلامى مترامى الأطراف، مما جعلنا نقرر أن إحتفاظ الصليبيين بكيانهم فى تلك الظروف لم يكن مرده قوتهم ، بل ضعف القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وتفككها ، وإنقاسمها على أنفسها (٣). ولو أقام المسلمون فى الشرق الأدنى - أو على الأقل فى العراق والشام ومصر - جبهة متحدة عندئذ ، لإستطاعوا فى غير عناء كبير القضاء على تلك الجماعات الغربية الدخيلة المتناثرة فى بلاد الشام ، وتطهير الوطن العربى منها قبل ان يستفحل خطرها.

وفى مثل تلك الظروف كان من المتعذر على بلدوين الأول ملك بيت المقدس أن يتبع طريقة الحرب المنظمة ضد القوى الإسلامية المحيطة به ، كما كان من المستحيل أن يقيم حاميات قوية على أطراف دولته فى فلسطين ؛ وإنما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يتبع أسلوب الحرب السريعة الخاطفة ، وأن يجعل من جيشه وحدة متحركة سريعة الإنتشار تنتقل بسرعة من الشمال الى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حسب الحاجة ، مكتفياً بإقامة نوع من المخافر الصغيرة على الحدود لمراقبة تحركات القوى الإسلامية المجاورة (٤) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإنجازات السريعة الخاطفة التى حققها الصليبيون فى الشام على أيام جودفرى ، وإنتصار بلدوين على دقاق ملك دمشق عند نهر الكلب ؛ حققت للصليبيين قسطاً من المهابة فى نظر القوى الإسلامية المجاورة(٥). ولم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكاً على بيت المقدس حتى قام بمهاجمة قبيلة

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp.. 218 - 219 .
(2) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 198 - 19 .
(3) Runciman, op. cit., II. pp. 4 - 5.
(4) Guillaume de Tyr, I, pp. 44 - 45 .
(5) Runciman : op. cit. II, p. 7.

عربية كبيرة كانت تعبر الأردن فى ربيع سنة ١١٠١ ، فقتل معظم رجالها ، وسيق النساء والأطفال أسرى مع الغنائم الوفيرة . وكان من جملة الأسرى زوجة شيخ القبيلة وهى على وشك الوضع ، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادمتها وجملين وقدر من الزاد . ولم تلبث أن وضعت فى الطريق وعادت الى زوجها الذى سعى إلى بلدوين ليشكره ويرجو أن يرد له الجميل فى يوم من الأيام (١). ويهمنا الآن من هذه القصة التى رددتها بعض المصادر الصليبية أن إغارة بلدوين على تلك القبيلة العربية وما فعله بأفرادها من قتل وأسر ، جاءت لتزيد من خطره فى نظر جيرانه . ولم تلبث الموانى الساحلية فى فلسطين – مثل أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا وصور – أن أرسلت مبعوثين عنها فى مارس سنة ١١٠١ إلى الملك بلدوين الأول ، تحمل إليه الهدايا والجزية ، وتطلب منه المهادنة لتتمكن من مباشرة نشاطها الإقتصادى والمتاجرة مع الفرنجة . وبذلك لم يبق سوى دقاق ملك دمشق السلجوقى الذى أوفد سفارة إلى بلدوين لشراء الأسرى الذين أسرهم بلدوين فى موقعة نهر الكلب ، وتم فعلاً تسليم هؤلاء الأسرى لدقاق مقابل مبلغ كبير من المال (٢).

إستيلاء بلدوين الأول على أرسوف وقيسارية :

وضع بلدوين الأول عند تتويجه ملكاً على بيت المقدس خطة إستهدفت ضم جميع شواطىء فلسطين المواجهة لمملكته ؛ وذلك لتأمين طريق الحجاج من ناحية، ولدعم الإتصال مع الغرب الأوربى من ناحية أخرى ، مما يوفر للمملكة الصليبية كثيراً من أسباب القوة (٣) . وإذا كان تنفيذ تلك الخطة قد تطلب معاونة القوى البحرية الإيطالية ، فإن حسن حظ بلدوين أمده بأسطول جنوى وصل الى حيفا عند منتصف مارس سنة ١١٠١ ، ومنها أبحر الى يافا فى منتصف الشهر التالى (٤) . وكان أن إفترص بلدوين تلك الفرصة المواتية فذهب إلى يافا لمقابلة الجنوية ، وإصطحبهم معه إلى بيت المقدس ، حيث إحتفلوا جميعاً بإحياء عيد الفصح ، ثم بدأت المفاوضات حول الثمن الذى يرتضيه الجنوية لقاء مساعدتهم بلدوين على تحقيق أهدافه . ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقدم الجنوية معونتهم البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم من المنقولات، فضلاً

(1) Guillaume de Tyr, p. 415 .
(2) Albert d'Aix, pp. 541 - 542 .
(3) Runciman : op. cit. II, p. 7 .
(4) Cafaro : Liberatio Civit. Orionis (Hist. Occid. V) pp, 60 - 61 .

عن درب من دروب السوق فى كل مدينة يستولون عليها ليتخذونه مركزاً يباشرون فيه نشاطهم التجارى (١).

وقد إختار بلدوين أن يبدأ بمهاجمة أرسوف ، ذلك الميناء الذى ظل تابعاً للدولة القاطمية، والذى لم يستطع الصليبيون الإستيلاء عليه من قبل بسبب إفتقارهم إلى المساعدة البحرية . ولم تستطع أرسوف الصمود تلك المرة ، فإستسلمت فى أواخر أبريل سنة ١١٠١(٢) وبعد أن ترك بلدوين حامية فى أرسوف إتجه براً ويحذائه الأسطول الجنوى فى البحر قاصداً قيسارية . وكانت قيسارية أيضاً - من الناحية الإسمية على الأقل - تابعة للدولة الفاطمية ، ولكنها لم تستطع المقاومة طويلاً فإستولى عليها الصليبيون « بالسيف » فى ١٧ مايو سنة ١١٠١ (٣). وتشير المصادر الغربية إلى أن الصليبيين أحدثوا مذبحة وحشية فى قيسارية فقتلوا كثيراً من أهلها الأبرياء وإقتحمها الصليبيون بالسيف « وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها وأعانهم الجنويون عليها » ، وأعقب ذلك توزيع الغنائم وفقاً للإتفاقية المعقودة مع الجنوية (٤). وعندما إحتمى بعض أهالى قيسارية بجامع المدينة لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال، حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين (٥).

الحملة الفاطمية على الشام سنة ١١٠١ ، موقعة الرملة الأولى :

على أن إستكانة الفاطميين ، والجمود الذى إنتابهم عقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين لم يستمرا طويلاً ، وإنما إختار الوزير الأفضل أن يرسل حملة كبيرة إلى فلسطين فى ربيع سنة ١١٠١ ، بقيادة المملوك سعد الدولة القواسى الذى كان حاكم بيروت من قبل(٦) . وقد تجمعت هذه الحملة فى عسقلان ، التى صارت بمثابة مركز إنطلاق جميع الحملات التى خرجت ضد الصليبيين فى تلك المرحلة. على أن الحملة الفاطمية أضاعت كثيراً من الوقت فى عسقلان ، فقضى الجيش الفاطمى عدة أشهر بلا عمل ، ربما فى إنتظار إمدادات جديدة تأتيه من

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 415.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ١٣٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٧ .

(4) Foucher de Chartres, pp. 389 - 390.

وكذلك ابن القلانسى ، ص ١٣٩ .

(5) Albert d'Aix, pp. 453 - 454.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

مصر ؛ مما أتاح فرصة كافية لبلدوين إستعد فيها وجمع قواته ووضع خطته (١). وأخيراً تحركت الجيوش الفاطمية فى أوائل سبتمبر بعد أن وصلتها الإمدادات المطلوبة ، فإتجهت إلى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس .

وكانت الأخبار قد وصلت بلدوين بأن المسلمين لم يقصدوا مجرد إغارة محلية ، وإنما إستهدفوا الوصول إلى بيت المقدس ذاتها ، فأسرع إلى عقد مجلس حربى فى يافا فى أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ ، وتقرر فى ذلك المجلس أن يبدأ الصليبيون بمهاجمة المسلمين فوراً (٢). ومن المرجح أن يكون بلدوين قد أدرك خطر المهمة التى عليه أن يواجهها ، إذ كانت قواته محدودة لم تتجاوز مائتين وستين فارساً وتسعمائة من المشاة ، وهى قوة صغيرة بلا شك ، إذا قيست بأعداد الجيش الفاطمى من المغاربة والعرب والسودان (٣). ولكن بلدوين أخذ يشجع رجاله وذكرهم بأنهم إذا ماتوا فإنما سيلحقون بالشهداء والقديسين ، وإذا إنتصروا فسيكونون قد أدوا خدمة للمسيح وكنيسته ليس بعدها خدمة (٤).

وهكذا تقدم الصليبيون يحملون صليب الصلبوت وعلى رأسهم بلدوين ورجال الدين ، حتى إلتقى الخصمان فى صباح ٧ سبتمبر فى السهل الواقع فى الجنوب الغربى من مدينة الرملة . ولم يلبث أن تصدع الجيش الفاطمى الكبير فى تلك الموقعة ، وإنتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفوفهم وإحكام خطتهم . وقد قتل من المسلمين عدد كبير ، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة – سعد الدولة القواسى – صريعاً فى المعركة (٥). وإستمر الصليبيون يطاردون المسملين حتى أسوار عسقلان ، فى حين عاد بلدوين لتوزيع الغنائم – وما أكثرها – ؛ إذ ترك المسلمون خلفهم كل ما معهم من سلاح ومؤن وعدد وآلات (٧ سبتمبر سنة ١١٠١) « فملك الفرنج جميع ما للمسلمين » (٦) .

---

(1) Stevenson : op. cit., pp. 44 - 45 .
(2) Runciman : op. cit. II, p. 7.
(3) Albert d'Aix, p. 549.
(4) Foucher de Chartres, p. 392 .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .
(6) Albert d'Aix, p. 553 & Guillaume de Tyr, p. 26 .
ويلاحظ أن رواية أبى المحاسن عن هذه الموقعة غير دقيقة ، إذ يقول إن المسلمين ثبتوا «وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية ، ويقال إنهم هزموا من الفرنج ثلثمائة ألف ، ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواسى المذكور ونفر يسير» .
(النجوم الزاهر ج ٥ ص ١٥٣) .

ولم يكد بلدوين الأول يفرغ من تحقيق ذلك النصر الكبير ، حتى وصلته الأخبار بأن حملة صليبية خرجت من غرب أوربا فى طريقها إلى الأراضى المقدسة ، ولكن الأتراك السلاجقة قضوا عليها . وقد وصلت فلول تلك الحملة وبعض أمرائها إلى أنطاكية ، ومنها إلى بيت المقدس للحج (١) وبعد أن إحتفل أولئك الصليبيون بإحياء عيد الفصح (سنة ١١٠٢) شرع معظمهم فى العودة إلى غرب أوربا ، فى الوقت الذى كان الفاطميون يستعدون لإنفاذ حملتهم الثانية إلى فلسطين (٢) .

الحملة الفاطمية الثانية سنة ١١٠٢ ، موقعة الرملة الثانية :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يستطع صبراً على الهزيمة التى لحقت بجيوشه على أيدى الصليبيين ، فأسرع إلى إعداد حملة أخرى كبيرة من المغاربة والعرب والسودان ، سنة ١١٠٢ ، تحت قيادة شرف المعالى ابن الوزير الأفضل (٣) وقد إتبعت هذه الحملة الطريق نفسه الذى إتبعته الحملة السابقة ، فإتجه الجيش الفاطمى من عسقلان إلى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك إتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس .

وكان الملك بلدوين الأول قد إتخذ أهبته ، فحشد فى يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بإنتصاره السابق وإستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس (١٧ مايو) فى قلة من الفرسان تبلغ مائتى فارس ، قاصداً الرملة (٤) . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله فى غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشرذمة من فرسان الصليبيين ليست إلا مقدمة لجيش صليبى كبير آت فى أعقاب الملك ، فإختاروا أن يباغتوا الملك ورجاله فوراً قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن فى إستطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الإسلامية ، فإنهزم الفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة ، (٥) ، وفر بعضهم إلى يافا ، فى حين لجأت

(1) Runciman, op. cit. I, p. 76.
(2) Guillaume de Tyr, I, p. 28 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .
(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 423.
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

البقية الباقية -ومن جملتهم الملك بلدوين نفسه - إلى الرملة (١٧ مايو سنة ١١٠٢) (١).

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ، كان فى إستطاعة المسلمين أن يستولوا عليها ويدخلوها فى غير عناء ليقضوا على غريمهم ملك بيت المقدس ، ولكن غروب الشمس وحلول الظلام جعلهم يؤجلون ذلك إلى الصباح التالى (٢). وبينما بلدوين يقضى ليلته فى الرملة لا يغمض له جفن فى انتظار مصيره فى الصباح التالى، إذا بفكرة الهروب فى منتصف الليل تراود نفسه . ويقال إن الذى أوحى إليه بهذا الفكرة وساعده فى تنفيذها هو شيخ العرب الذى كان بلدوين فى العام السابق قد أكرم زوجته الشابة وأطلق سراحها من الأسر وهى تعانى من آلام الوضع ، فحفظ له الشيخ ذلك الجميل وأتى ليساعد بلدوين فى محنته (٣) . ومهما يكن من أمر فالمهم هو أن بلدوين « تنكر وخرج منها إلى يافا »، وكان فراره ليلاً ، وبذلك إستطاع أن يفلت من مطاردة الفاطميين الذين لاحقوه عندما سمعوا خبر فراره (٤) . أما الرملة فسقطت فى يد الفاطميين فى ١٩ مايو سنة ١١٠٢ ، فقتلوا معظم من فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا بصحبة بلدوين(٥). ويؤكد ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة « أربع مائة صبرا وأسر ثلثمائة إلى مصر » (٦) .

ولم تلبث الجيوش الفاطمية أن حاصرت يافا فى الوقت الذى كانت مطاردة بلدوين تجرى على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين - وهو فى طريقه إلى يافا - خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، إتجه نحو أرسوف شمالى يافا (١٩ مايو سنة ١١٠٢) (٧) . وكانت فرحة الصليبيين فى أرسوف بالغة عندما رأوا أمامهم بلدوين

---

(1) Albert d'Aix, p. 593.

ويذكر ابن الأثير فى موضع آخر أن بلدوين كان فى سبعمائة فارس ، ولم يكن فى مائتى فارس كما ذكر المؤرخون الغربيون . كما يذكر أنه عندما حلت الهزيمة بالصليبيين أختفي بردويل فى «أجمة قصب» فأحرقها المسلمون ولحقت النار بعض جسده ففر إلى الرملة . (الكامل ، سنة ٤٩٥ هـ) .

(2) Setton : op. cit., vol. I p. 365.

(3) Guillaume de Tyr, I, pp. 414 - 415 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٥ هـ .

(5) Foucher de Chartes, p. 402.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(7) Albert d'Aix, p. 595 .

على قيد الحياة ، بعد أن إنتشرت الشائعات بخير مقتله . وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، فى حين إستطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحق به كثير من الإمدادات الصليبية (١) . وشاءت الصدف أن تصل إلى ميناء يافا فى أواخر شهر مايو مائتى سفينة ، تحمل عدداً كبيراً من الجند والحجاج الإنجليز . وشقت هذه السفن طريقها إلى الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمى ، وبذلك حصل بلدوين فى يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة (٢) . وفى ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، وما هى إلا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون بفضل تنظيمهم فى إنزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التى ولت الأدبار نحو عسقلان (٣) .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالى أسرع بإرسال حملتين ، إحداهما برية تحت قيادة المملوك تاج العجم ، وتألفت من أربعة آلاف فارس ؛ والأخرى بحرية برئاسة القاضى ابن قادوس (٤) ولكن الشيء الذى كان ينقص الفاطميين عندئذ لم يكن كثرة الرجال وإنما حسن النظام وإحكام الخطط الحربية ؛ إذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس وقال له « ما يمكننى أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل . ولم يحضر عنده ولا أعانه فأرسل القادوسى إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً وإستدعى تاج العجم فلم يأته ، ولا أرسل رجلا » (٥) .

وفى تلك الأثناء أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة الى تنكرد الوصى على أنطاكية ، وإلى بلدوين دى بورج أمير الرها الجديد ، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة (٦) . ولم تلبث هذه النجدة التى بلغت خمسمائة من الفرسان وألفاً من

---

(1) Michaud : op. cit. II, p. 30 .

(2) Runciman : op . cit. II, p. 79 - 80.

ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أمراء الجيش الفاطمى عقب النصر الذى أحرزوه علي الصليبيين في الرملة ، فرأي فريق منهم الاتجاه إلي يافا «فبينما هم فى هذا الاختلاف إذ وصل إلي الفرنج خلق كثير فى البحر قاصدين زيارة البيت المقدس ، فندبهم بغدوين (بلدوين) للغزو معه » (الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .) .

(3) Foucher de Chartes pp. 404 - 405 & Guillaume de Tyr, p. 435 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٥) المصدر السابق .

(6) Stevenson : op. cit. I, p. 46 .

المشاة أن وصلت يافا فى سبتمبر سنة ١١٠٢ ، وعلى رأسها أميرا أنطاكية والرها (١) . وكان من الممكن أن يصبح لتلك التجمعات الصليبية شأن كبير لو أن الفاطميين ثبتوا فى القتال فى معركة فاصلة ضد الصليبيين ؛ ولكن الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا آثرت الإنسحاب – وفى أعقابها الصليبيون – حتى عسقلان . وفى وسط تلك الأزمة طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ، ولكن دقاق « إعتذر عن ذلك ولم يحضر» (٢) .

على أن إجتماع تنكرد وبلدوين دى بورج مع الملك بلدوين الأول أثار عدة مشاكل حساسة ، محورها تحديد العلاقة بالضبط بين أمارتى أنطاكية والرها من ناحية ومملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية أخرى. ويبدو أن أهم مسألة أثيرت فى تلك المناسبة ، كانت رغبة الملك بلدوين فى التخلص من دايمبرت بطرق بيت المقدس الذى توج بلدوين مكرهاً والذى أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه . وقد أرسل البابا باسكال الثانى مندوباً إلى بيت المقدس ليتحقق من ذلك الوضع ، وعندئذ أوضح بلدوين للمندوب البابوى سوء تصرفات دايمبرت وتآمره ضد الملك، وجشعه . وجاءت هذه الإتهامات مقرونه بالأدلة الدامغة ، مما جعل المندوب البابوى يصدر حكمه بإعفاء دايمبرت من منصبه ، فغادر دايمبرت بيت المقدس الى أنطاكية ، حيث عهد إليه تنكرد برعاية كنيسة القديس جورج (جرجس) فى المدينة سنة ١١٠٢(٣) .

على أن تنكرد إنتهز فرصة حضوره إلى مملكة بيت المقدس فى العام نفسه لنجدة الملك بلدوين من جديد ، وأحضر معه دايمبرت ليطالب بإعادته إلى بطرقية بيت المقدس ، كشرط أساسى لإعترافه بالولاء لملك بيت المقدس . وقد عارض بلدوين ذلك الطلب ، حتى أنتهى الأمر بعقد مجمع دينى فى بيت المقدس أقر عدم صلاحية دايمبرت لشغل تلك الوظيفة الدينية (٤). ولم يلبث أن عاد دايمبرت إلى إيطاليا سنة ١١٠٤ حيث حاول أن يحصل على تأييد البابوية لإعادته إلى كرسى

---

(1) Albert d'Aix, pp. 597 & Raoul de Caen, p. 707.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر سنة ٤٩٦ هـ . Rec, Hist. or., p. 404
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(3) Runciman : op. cit., II pp. 81 - 82 .

(4) Richard . Le Royaume Latin . p. 94 .

بيت المقدس ، ولكنه توفى فى يونية سنة ١١٠٧ (١).

أما تنكرد وبلدوين دى بورج فقد إستاءا لعدم تلبية رغبتهما الخاصة بإعادة دايمبرت إلى كرسيه البطرقى، وإنسحبا إلى إمارتيهما فى الشمال (حوالى ١٠ أكتوبر سنة ١١٠٢) ، دون أن يعترفا بالتبعية للملك بلدوين .

بلدوين الأول وفتح عكا :

من الملاحظ فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائما تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر ربطاً قوياً ، وإلى تأمين إتصالها بالشاطيء تأميناً ثابتاً ؛ لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئه التى تتنفس بها تلك المملكة والشريان الذى ربطها بقلب العالم الغربى وتتزود عن طريقه بما تحتاج إليه من أمدادات بشرية ومادية . لذلك لم تقنع مملكة بيت المقدس بالموانى المحدودة التى استولت عليها من المسلمين حتى ذلك الوقت ، وهى يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا ؛ وظلت تطمع فى الإستيلاء على بقية موانى فلسطين الإسلامية مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها كانت تابعة للفاطميين (٢) حقيقة أن سيطرة الفاطميين على هذه الموانى صارت شكلية ، ولكن من يدرى ، فربما غدت سيطرتهم فعلية فى المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغلها المسلمون فى طعن مملكة بيت المقدس الصليبية فى الصميم عن طريق قطع الشريان الذى يربطها بالغرب الأوربى. ومثال ذلك ما حدث فى شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت على شاطيء الشام بضع سفن تحمل حجاجا عائدين إلى الغرب الأوربى، فأسرت السلطات الفاطمية فى صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظهم فى أسواق الرقيق بالقاهرة، وفق رواية المصادر الصليبية (٣).

وكان أن شرع الملك بلدوين الأول فى ربيع سنة ١١٠٣ يحاصر عكا لأول مرة «وضيق عليها وكاد يأخذها» . ولكن عكا – كما هو معروف عنها فى جميع عصور التاريخ – من أحصن موانى الشام. ولم تلبث أن وصلتها « النجدات من سائر السواحل » ، وجاءت إليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، وعندئذ أدرك الملك بلدوين أن الإستيلاء على عكا لن يتم فى سهولة ، فرفع الحصار عنها وعاد

(1) Albert d'Aix, pp. 598 - 600 .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 239 .

(3) Albert d'Aix, pp. 600 - 601 .

من حيث أتى (١) . ومن الواضح أن عجز بلدوين الأول أمام عكا فى تلك المرة إنما يرجع إلى عدم وجود قوة بحرية تسنده وتشد أزر قواته البرية . وقد ظهرت الحاجة إلى القوة البحرية مرة أخرى عندما أرسل الوزير الأفضل حملته البرية - التى سبقت الإشارة إليها - ضد يافا فى أغسطس سنة ١١٠٣ ، ولكن الخلاف بين القائدين الفاطميين أدى إلى فشل الحملة كما أوضحنا . ثم لم يلبث أن أدى وصول الملك بلدوين الأول إليها فى أكتوبر سنة ١١٠٣ إلى رفع الحصار البحرى عنها (٢) .

وأخيرا أتيحت الفرصة لبلدوين الأول فى أوائل مارس سنة ١١٠٤ ، عندما وصلت إلى اللاذقية عمارة جنوية تألفت من عدد كبير من السفن ، مما ضمن للصليبيين سيادة فعلية على سواحل الشام (٣) . وكان ذلك الأسطول الجنوى قد وصل إلى اللاذقية يحمل كثيراً من التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك ؛ فإستعان به ريموند الصنجيل فى القيام بهجوم فاشل على طرابلس «فلم يروا فيها مطمعاً» ، وعندئذ إنتقل الصليبيون إلى جبيل وحاصروها وقاتلوها ، حتى طلب أهلها الأمان وإستسلموا . ولم يف الصليبيون بالأمان والعهد فاعتدوا على أهل جبيل «وأخذوا أموالهم وإستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب» (٤) . ولم يكد الأسطول الجنوى يفرغ من مهمته فى جبيل حتى إستعان به الملك بلدوين الأول فى مهاجمة عكا أواخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمى زهر الدولة الجيوشى (٥) ، الذى «قاتل حتى عجز» ولكن لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذى فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتى البر والبحر ، فاضطر إلى الاستسلام «وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً» (٦) ، وتذكر المصادر الصليبية أن الجنوية نقضوا العهد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .
Foucher de Chartres, p. 406 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .
Albert d'Aix, pp. 603 - 604.

(3) Heyd : op. cit, I, p. 139 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ . Runciman, II, P. 60.

(٥) اسمه بنا ، ويعرف بزهر الدولة الجيوشى نسبة إلي ملك الجيوش الأفضل .

(٦) هذه رواية ابن الأثير (الكامل ، سنة ٤٩٧ هـ) . وتذكر بقية الروايات أن الجيوشى طلب الأمان وأنه أجيب إلي طلبه . ولكن يلاحظ أن رواية المؤرخ أبي المحاسن تختلف عن الرواية السابقة التى أجمع عليها المؤرخون الغربيون : إذ يذكر أبو المحاسن أن الجيوشى «طلب الأمان له وللمسلمين فلم يعطوه لما علموا (الفرنج) من أهل مصر أنهم لم ينجدوه» . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٨) .

الذى أعطاه بلدوين لأهل المدينة فإعتدوا على أرواح السكان وممتلكاتهم مما أثار غضب الملك بلدوين ونقمته (١).

ومهما يكن من أمر ، فإن سقوط عكا جعل للصليبيين السيادة على شواطىء فلسطين ، بعد أن حرم الأسطول الفاطمى من أهم قواعده بالشام . وكان بلدوين قد وعد الجنوية بإعطائهم ثلث عكا ليكون حياً تجارياً لهم . وفعلاً أوفى بوعده ، كما منحهم ثلث قيسارية وأرسوف أيضاً (٢). أما عن المسلمين فإن خسارتهم بضياع عكا كانت فادحة ، ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانى الشام التى أخذت تتساقط واحد بعد أخر فى أيدى الصليبيين . من ذلك مايقوله أبو المحاسن عن الخليفة الآمر الفاطمى أنه كان «يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد .... وكان فيه تهاون فى أمر الغزو والجهاد حتى إستولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه .... ولم ينهض لقتال الفرنج البته ، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكراً فهو كلا شىء ....» (٣).

الحملة الفاطمية سنة ١١٠٥ . موقعة الرملة الثالثة :

وفى تلك الأثناء لم يتخل الوزير الأفضل عن فكرة إرسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة فى هذا الصدد فى صيف ١١٠٥ ، فجمع فى عسقلان جيشاً كبيراً بلغ خمسة آلاف جندياً ، ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين (٤). وفى الوقت نفسه أستعد الأسطول الفاطمى لمساندة الجيش من ناحية البحر . كذلك لم يتردد الوزير الأفضل فى طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين ، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ، فعرض على طغتكين – الذى آلت إليه السلطة فى دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تتش فى صيف سنة ١١٠٤ – أن يساعده فى قتال العدو المشترك . وفعلا إستجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل إليهم أحد رجاله – اسمه «اصهبد صباوا» – ومعه ألف وثلثمائة فارس . وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها حكام مصر والشام المسلمون ضد الصليبيين (٥).

---

(1) Albert d'Aix, pp. 606 - 607 .

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 445 .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث لسنة ٤٩٨ هـ .

(٥) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

وعندما علم بلدوين الأول بتلك الأحداث ترك يافا ، وخرج على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من ناحية وبيت المقدس من ناحية أخرى . وسرعان ما أجتمع حول بلدوين أفصاله من أمراء الصليبيين ومعهم جيوشهم ، فضلا عن أرتاش (بكتاش) المطالب بملك دمشق وهو ابن تاج الدولة تتش الكبير [١]وكان أرتاش قد رافق بلدوين لمساعدته ، ومعه مائة من رجاله . ولم يكد إبرمار بطرق بيت المقدس يأتى ومعه صليب الصلبوت وعدد من الرجال فى ٢٧ أغسطس ، حتى دارت المعركة المنتظرة مع المسلمين . وقد أنتهت تلك المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق ، وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين، وقتل كثير من أمراء الجيش ، من جملتهم جمال الملك أمير عسقلان . هذا مع ملاحظة أن خسائر الصليبيين أيضا كانت ضخمة فى تلك الموقعة ، فقتل منهم كثيرون ، على رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا . وقد عبر ابن الأثير تعبيراً دقيقاً عن نتيجة تلك الموقعة بقوله أنه «لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى ، فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم [٢]»، أما الأسطول الفاطمى فقد قفل راجعاً إلى صور وصيدا وطرابلس . ولكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانى الصليبية ، فأسرها الصليبيون [٣] .

والواقع أن حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصليبيين فى تلك الفترة ، هذا وإن ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ولكن فى نطاق محدود . وكان مركز انطلاق الهجمات الفاطمية دائما مدينة عسقلان ، ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة

---

(١) توفى دقاق ملك دمشق فى يونية سنة ١١٠٤ وعندئذ آلت السلطة الفعلية إلى الاتابك طغتكين الذي أختار ألا يكشف عن مطامعه ، فأعلن قيام تتش الصغير ابن دقاق محل أبيه ، مع أن تتش كان فى العام الأول من عمره . وبعد قليل خلع طغتكين الطفل تتش وأحل محله عمه أرتاش أو بكتاش ، وهو أخو دقاق ، ولم يتجاوز عمره الثانية عشرة . على أن أرتاش خشى خطر طغتكين ففر من دمشق إلي حوران ومنها لجأ إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس طالبا حمايته . وبعد أن أشترك أرتاش فى مساعدة بلدوين فى موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥ ، تخلى بلدوين عن مساعدته فإنسحب أرتاش إلى الرحبة علي الفرات ، أنظر : (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨-١٤٩ هـ) .Runciman : op. cit., II, p. 89

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ . Gesta Francorum, p. 541

(3) Foucher de Chartres p. 414.

١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ، كما أغارت سنة ١١٠٧ على الخليل ؛ بل إن الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ إلى أسوار بيت المقدس ذاتها [١].

أمراء الجليل وحرب المسلمين :

وبينما الملك بلدوين الأول يواصل نشاطه وجهوده فى المنطقة الساحلية ، ظل فصله هيو فالكنبرج - خليفة تنكرد فى حكم طبرية - يعمل على توسيع إمارته فى الجليل على حساب المسلمين ، وذلك بالتوسع فى الشمال الغربى تجاه صور وفى الشمال الشرقى فى أقليم السواد . وكان هدفه الأول جهة البحر الإستيلاء على صور من الفاطميين . ولتحقيق هذا الغرض شيد حصن تبنين فى مواجهة ساحل صور ، وهو الحصن الذى صار له شأن كبير فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية [٢]. أما فى الجهة الشرقية قرب بحيرة طبرية ، فقد دأب هيو على القيام بإغارات فى إقليم السواد - سواد البلقاء - التابع لدمشق ، فشيد هناك حصن عال (حصن العال) على بعض المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية.

وقد تم بناء هذين الحصنين - تبنين وعال - فى خريف سنة ١١٠٥ ، الأمر الذى أزعج طغتكين صاحب دمشق ، لأنه رأى فى ذلك تهديداً خطيراً لإمارته [٣]. وكان أن إنقضت جيوش دمشق على هيو حاكم الجليل فى نهاية سنة ١١٠٥ أثناء عودته محملا بالغنائم من أحدى إغاراته على المسلمين ، فأصيب هيو بجرح خطير مات بسببه ، وتشتت رجاله [٤]. ولم يصعب بعد ذلك على طغتكين الاستيلاء على حصن عال «بما فيه من آلات وغيرها» ، فى حين عين بلدوين فارساً فرنسياً اسمه جرفيه Gervais (جرفاس) ليكون أميراً على الجليل [٥].

وسرعان ما إستغل المسلمون فى عسقلان وصور وصيدا وبيروت فرصة انشغال بلدوين الأول بأمور الجليل فى القيام بإغارة على طريق يافا - بيت المقدس. وكان أن خرج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية فى تلك المدن

(1) Runciman op. cit. II, pp. 90 - 91 .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٥١ Guillaume de Tyr, p. 459

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٩ ؛ وقد أطلق ابن القلانسي علي حصن عال أسم «علمال» وقال عنه إنه «من الحصون الموصوفة بالمنعة والحصانة» .

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٤٩ هـ .

(5) Albert d'Aix, p. 635 . ابن القلانسي ص ١٤٩

في ٩ أكتوبر سنة ١١٠٦ إلى سهل نهر العوجة - بين أرسوف ويافا - وقتلوا قرابة خمسمائة من حجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك . وبعد ذلك أوغل المسلمون حتى الرملة وقتلوا قوة إستطلاعيةمن بعض الفرسان أرسلهم حاكم يافا الصليبي (١). وقد إستمرت القوة الإسلامية تواصل نشاطها ضد الصليبيين فيما بين يافا وبيت المقدس ، حتى إذا ما أحس المسلمون بأن الملك بلدوين في طريقه إليهم، انسحبوا إلى مدنهم الساحلية وتحصنوا فيها . وقد أراد بلدوين أن ينتقم من المسلمين بمهاجمة عسقلان ، ولكنه عدل عن ذلك مؤقتاً لعدم وجود سفن كافية تساعدة من ناحية البحر (٢).

وهكذا وجدت مملكة بيت المقدس نفسها بين نارين ، أمام هجمات الدماشقة من ناحية الشمال وهجمات الفاطميين من ناحية الجنوب . ففي الوقت الذي أخذ طغتكين أتابك دمشق يهاجم إقليم طبرية ، أخذ صاحب صور يشن هجمات عنيفة ضد حصن تبنين (٣). ولم يلبث طغتكين أن نصب كميناً للصليبيين في أوئل مايو سنة ١١٠٨ في الجبال القريبة من طبرية . ففقد الصليبيون كثيراً من الضحايا في ذلك الكمين ، ووقع جرفيه (جرفاس) أمير الجليل ،وهو من مقدمي الافرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة ، - أسيرا في أيدي المسلمين ، فحملوه إلى دمشق مقيداً بالأغلال (٤). وقد أبدى طغتكين إستعدادا لإطلاق سراح جرفيه مقابل ثمن باهظ ؛ هو جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا . ولكن الملك رد عليه بأنه غير مستعد للتنازل عن هذه المدن الثلاث حتى ولو كان الأسرى المطلوب إطلاق سراحهم هم جميع أهل بيته وجميع زعماء الفرنجة . وكان أن أمر طغتكين بقتل جرفيه (٥)(جرفاس - جرفاش) .

على أن طغتكين لم يلبث أن وجد نفسه في نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين ، ففكر في عقد هدنه مع بلدوين الأول ، في الوقت الذي كان الأخير لايرجو أكثر من مسالمة الدماشقة ، ليتفرغ للخطر المستمر الذي هدد يافا والرملة من جانب الفاطميين . لذلك أرسل طغتكين سفارة من خمسة رجال إلى بلدوين

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 246 - 248 .

(2) Albert d'Aix, pp. 635- 638 .

(3) Setton : op. cit. vol. I, 386.

(٤) ابن الجوزي :مرآة الزمان حوادث ٥٠١ هـ ابن القلانسي ص ١٦١ . Albert d'Aix, p. 657

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ ، ١٦٢ . Guibert de Nogent, p. 259

لعقد هذه الهدنة ، فإستقبلهم بلدوين إستقبالاً حسناً . وقد تحدث كل من أبى المحاسن وابن الأثير عن هذه الهدنة فذكرا أنها كانت لبضع سنوات ، وأن الطرفين إتفقا فيها على اقتسام السواد وجبل عوف ، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنجة والثلث الثانى لسلاجقة دمشق والثلث الأخير للمزارعين المسلمين (١) ويصف ابن الأثير مدى أهمية هذه الهدنة للمسلمين ، إذ لولاها «لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتى ذكرها أمراً عظيماً ..» (٢) .

إستيلاء الصليبيين على بيروت وصيدا :

وطوال تلك الأثناء لم يتخل بلدوين مطلقاً عن فكرة الإستيلاء على بقية المدن الساحلية التى مازالت بأيدى الفاطميين ، وهى عسقلان فى الجنوب وصور وصيدا وبيروت فى الشمال. وقد أدرك أن عسقلان وصور على جانب كبير من المناعة والقوة ، وأنه ليس من السهل الإستيلاء عليها دون إستعدادات كبيرة ، لذلك إختار أن يبدأ بمهاجمة صيدا فى ربيع سنة ١١٠٦ مستغلاً فرصة وجود عدد كبير من الحجاج الإنجليز والفلمنكيين والدانيين عندئذ فى بيت المقدس ليساعدوه فى ذلك الأمر . وعندما علم حاكم صيدا بذلك أسرع بإرسال مبلغ كبير من المال إلى بلدوين لشراء مسالمته، وقبل بلدوين الثمن وكف يده عن صيدا مدة عامين (٣).

ثم كان أن وصل إلى شواطىء فلسطين فى أغسطس سنة ١١٠٨ عدد كبير من السفن الوافدة من بيزة وجنوة والبندقية وأمالفى ، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة فى الإستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلاً فى حصارها براً وبحراً . وقد بدأ الصليبيون عملياتهم الحربية الأولى ضد صيدا بنجاح ، ولكن لم يلبث أن تغير مجرى الأمور عندما وصلت إلى مياه صيدا عمارة بحرية فاطمية كبيرة استطاعت أن تنزل الهزيمة بالسفن الإيطالية (٤) .وكان ذلك فى الوقت الذى طلب حاكم صيدا من طغتكين إمداده بقوة برية تساعده على دفع الصليبيين ، مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طغتكين النداء وأرسل له نجده كبيرة، قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل . وعندئذ أدرك بلدوين أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٠ . . Stevenson : op. cit., p. 50 .

(3) Albert d'Aix, op. 632- 634 .

(4) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 253 .

العملية فاشلة ، فآثر الانسحاب ومعه قواته إلى عكا . ولم يكد ينسحب بلدوين حتى إمتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذى تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفاً من أن تكون هناك مؤامرة دبرها طغتكين للإستيلاء على صيدا .

وعندما هدد سلاجقة دمشق بإستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، رضخ صاحبها ودفع مبلغاً يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه (١) .

وفى صيف سنة ١١٠٩ إتجه بلدوين لمساعدة برتراند - ابن ريموند الصنجيل - فى جهوده للإستيلاء على طرابلس ، فسقطت هذه المدينة فى ١٢ يوليو فى أيدى برتراند مما أدى إلى مولد إمارة طرابلس الصليبية ، كما سيلى فيما بعد . ونكتفى الآن بالإشارة إلى أن برتراند بن ريموند أراد أن يعترف بالجميل لبلدوين الأول ، فساعده فى العام التالى فى الإستيلاء على بيروت (٢) وقد إستمر حصار بيروت عدة أشهر - من فبراير حتى مايو سنة ١١١٠ - وعبثاً حاول الفاطميون خلال تلك المدة إرسال نجدات إلى بيروت عن طريق البحر . وعندما يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات إليه ، فر فى سفينته ليلاً إلى قبرص ، فاضطر أهل بيروت إلى الإستسلام لبلدوين بعد أن حصلوا على وعد منه بالأمان (٣) . ومع ذلك فإن الجنوية والبيازنة أحدثوا مذبحة رهيبة فى أهل بيروت المسلمين ، ولم يستطع الملك بلدوين إقرار الأمن والسلام إلا فى صعوبة بالغة (٤) .

ولم يلبث أن وصل عكا فى صيف سنة ١١١٠ أسطول من الحجاج النرويجيين تحت زعامة سيجورد Sigurd ملك النرويج ، فرحب بلدوين الأول بالملك النرويجى ورجاله أجمل ترحيب ؛ ثم رأى - كعادته - أن يستغل تلك القوة فى تحقيق مكاسب جديدة لمملكة بيت المقدس ، وليتجه الصليبيون تلك المرة ضد صيدا التى فشلوا من قبل فى الإستيلاء عليها . وعندما أخذ النرويجيون يحاصرون صيدا بحراً فى الوقت الذى كان بلدوين الأول يحاصرها براً (أكتوبر ١١١٠) ، ،

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٢ Albert d'Aix, p. 654- 655

(2) Michaud : op. cit., I, pp. 40 - 44.

(3) Foucher de Chartes, p. 416 & Albert d'Aix, p. 671 .

(٤) ابن القلانسي ؛ ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ - ١٦٨ . ويشير ابن القلانسي إلي شدة مقاومة مسلمي بيروت (بحيث لم ير الافرنج من ما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا) ولكن يبدو أن وصول أربعين مركباً للجنوية مشحونة بالمقاتلين رجح كفة الفرنج .

شاء حسن حظ الصليبيين أن يأتي إلى الشام أسطول بندقي كبير تحت زعامة دوج البندقية نفسه ، فإشترك مع الأسطول النرويجي في حصار صيدا ومهاجمتها من ناحية البحر [1]. وهكذا أدرك قاضي صيدا وشيوخها أنه لا أمل في النجاة إلا بالإستسلام ، فطلبوا الأمان (٣ ديسمبر ١١١٠) وعندئذ أمنهم بلدوين وسمح للقاضي ومعه عدد كبير من الأهالي بالخروج إلى دمشق «وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان » [2]. وبعد ذلك عاد النرويجيون إلى بلادهم ، في حين أنعم بلدوين على البنادقة بامتيازات كبيرة في عكا [3].

أطماع بلدوين الأول في عسقلان وصور :

أما مدينة عسقلان - وهي القاعدة الرئيسية للفاطميين في فلسطين - فقد أوشكت هي الأخرى أن تدخل تحت حماية الفرنج . ذلك أن حاكم عسقلان - شمس الخلافة - أرسل إلى بلدوين الأول «مالاً وعروضاً» طالباً منه إتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع إستعداده لدفع الجزية للصليبيين [4]وقد إنزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات مفتاح فلسطين ، فأرسل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ، ولكنه أعطى تعليمات سرية لقائد الحملة لكي يعزل شمس الخلافة ويحل محله في حكم المدينة [5]. على أن شمس الخلافة أوجس خيفة من تلك الحملة ، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها إلى القاهرة . ويروي أبن الأثير أن شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب «فأحضر جماعة من الأرمن وإتخذهم جنداً » [6]؛ الأمر الذي أساء إلى شعور أهل عسقلان ، فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره ، كما قتلوا عددا ممن بالمدينة من الفرنج في يوليو سنة

---

(1) Heyd : op. cit. I, p. 142 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٤ ويصور ابن الأثير صدى استيلاء الفرنج علي صيدا وموانى الشام ، إذ (بلغت القلوب الحناجر ، وايقنوا باستيلاء الفرنج علي سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه فشرع أصحاب البلاد الاسلامية بالشام في الهدنة معهم ..)
أنظر أيضاً . Guillaume de Tyr, p. 478.

(3) Heyd : op. cit. I, p. 142 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٧٢ . & Albert d'Aix pp. 676 - 680

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

١١١١ ؛ وفى الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها (١).

وعندما سمع بلدوين بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع إلى عسقلان ، ولكن بعد أن كان كل شيء قد انتهى ، فلم يسعه سوى العودة . وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة فى حلق الصليبيين (٢).

أما مدينة صور فكانت - مثل عسقلان - من المدن التى إستعصت على بلدوين الأول ، لأنها إعتمدت دائماً على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الإمدادات . ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الإغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم فى كثير من الحالات من ناحية أخرى ، ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتابك دمشق طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة منهم . وفعلاً أرسل أهل صور إلى طغتكين يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم «وإلا سلمنا البلد إلى الفرنج ، فأجابهم طغتكين إلى ما طلبوا ، وعين عليهم والياً اسمه مسعود ، وفرق عليهم المؤن والأموال «فطابت نفوس أهل البلد » (٣)وفى الوقت نفسه تم الإتفاق على أن يرسل أهل صور مالديهم من ثروات وأموال يخشون عليها إلى دمشق ، حيث تحفظ أمانة لأصحابها . وعندما علم بلدوين - الذى إستاء لهذه الإتفاقية - بموعد خروج القافلة التى تحمل ثروة الصوريين إلى دمشق ، أطبقت قواته عليها ، وغنم الصليبيون تلك الثروة الطائلة (٤).

ويبدو أن الحصار الذى فرضه بلدوين على صور فى نوفمبر سنة ١١١١ لم يكن تاماً لعدم وجود أسطول صليبى قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثلما كان الحال فى حصار بيروت وصيدا . حقيقة إن بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وبعد أن حدثت عدة إشتباكات محلية لم يوفق فيها الصليبيون، لجأ بلدوين الأول إلى بناء ثلاثة أبراج من الخشب قرب صور لمهاجمة المدينة منها ، ووضع فى كل برج ألف رجل . ويروى ابن الأثير أن شيخاً من أهل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . Albert d'Aix p. 481.

(2) Runciman : op. cit. II, p. 95 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(4) Albert d'Aix, p. 690.

طرابلس أحرق تلك الأبراج ، بعد أن رماها بحطب «سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت» [1] .

أما طغتكين فقد إستجاب لنداء أهل صور الذين أرسلوا إليه يعرضون تسليمه مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم ، فذهب إليهم حيث تسلم البلد ، وقال لهم «أنا ما فعلت هذا إلا لله تعالى لا لرغبة في حصن ومال ، ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي » [2] . ثم رحل عنهم وأرسل فرقة قوية من جيشه إلى صور، مما جعل بلدوين يقنط تلك المرة أيضاً من حصار صور ، فأنصرف عنها وأخذ يباشر نشاطه فى منطقة طبرية ضد أتابك دمشق . كذلك لجأ بلدوين الأول إلى تهديد القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة ، فكان يهاجمها فى وادى موسى جنوبى البحر الميت وينهب ماتحمله من ثروات وبضائع [3] .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
(٢) ابن الجوزي : مرآة سنة ٥٠٦ – ٥٠٨ هـ .
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٨ Albert d' Aix, p. 693.

الفصل الثالث

بلدوين الأول والأتراك

هجوم الاتراك على الصليبيين سنة ١١١١ - بلدوين الاول :

سنعالج الأحداث الصليبية المرتبطة بأنطاكية وعلاقتها بالأتراك فى باب آخر مستقل ؛ ولكننا مضطرون هنا إلى التعرض لبعض هذه الأحداث فى إيجاز لايضاح الدور الذى قام به بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيها.

ذلك أنه بينما كان بلدوين الأول مشغولا بموضوع خروج شمس الخلافة فى عسقلان عن طاعة الخلافة الفاطمية فى القاهرة واتجاهه نحو محالفة الصليبيين، إذا برسالة تصله من بلدوين دى بورج أمير الرها تفيده بأن الأتراك غزوا إمارته. وكان بعض أهالى حلب قد شكوا إلى الخليفة العباسى وسلطان سلاجقة فارس من سياسة حاكمهم رضوان إزاء الصليبيين واستكانته لتنكرد حاكم أنطاكية، وطلبوا الجد فى جهاد الصليبيين [١]. وفى الوقت نفسه وصلت إلى بغداد سفارة من الإمبراطور البيزنطى لاستثارة الخليفة والسلطان ضد الصليبيين (تنكرد) «والايقاع بهم والاجتماع على طردهم، وترك التراخى فى أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد فى الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم» [٢]. ويبدو أن هذه التيارات استثارت المسلمين فى بغداد ضد الخليفة العباسى المستظهر والسلطان محمد السلجوقى لتقاعسهما عن الجهاد، فهبت الثورة، وصاح الناس فى السلطان «أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام، حتى أرسل إليك فى جهادهم [٣]».

وإزاء تلك الثورة العنيفة، أرسل الخليفة إلى حميه السلطان محمد السلجوقى فى أصفهان يستحثه على القيام بعمل ما ضد الصليبيين. فلجأ السلطان بدوره إلى تكليف مودود أتابك الموصل بجهاد الصليبيين فى إبريل سنة ١١١١ [٤] وعندما

---

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن رضوان هذا بأنه كان بخيلا شحيحاً قبيح السيرة، ليس في قلبه رأفة ولاشفقة علي المسلمين ، وكانت الفرنج تغاور وتأخذ من باب حلب ولا يخرج إليهم. (النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ٢٠٥) .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٤ هـ.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

استعان مودود بجيرانه من الترك والأكراد – مثل أمراء ميافارقين ومراغة وأربل وهمذان وغيرهم – أحس بلدوين دى بورج أمير الرها بتلك التجمعات الإسلامية على حدود إمارته، فشرع فى تحصين الرها، وخزن الميرة والطعام فيها، مما جعل مودود ينصرف عن حصار الرها إلى ثانى مدن تلك الإمارة الصليبية، وهى مدينة تل باشر غربى الفرات (٢٨ يوليو).

على أن أمير تل باشر الصليبى نجح هو الآخر فى مقاومة الحصار (١) ؛ فى الوقت الذى طلب أمير شيزر بالشام النجدة ضد تنكرد صاحب أنطاكية. أما رضوان ملك حلب فقد تظاهر بالاستقامة فطلب مساعدة المسلمين ضد تنكرد. لذلك فكر مودود فى مهاجمة إمارة أنطاكية الصليبية بمساعدة حلب. وعندئذ كشف رضوان النقاب عن وجهه، وظهر أنه يخشى خطر سلاجقة فارس أكثر من خشيته خطر الصليبيين، فأغلق مدينته فى وجه مودود ورفض أن يتعاون معه ضد الصليبيين. وهكذا لم يبق أمام مودود سوى طغتكين أتابك دمشق، الذى كان يأمل فى غزو طرابلس بمساعدة مودود. وكانت طرابلس قد سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١١٠٩م. وعندما التقى طغتكين ومودود قرب معرة النعمان، اتفقا على الاشتراك فى محاربة الصليبيين (٢) ولكن طغتكين لم يلبث هو الآخر أن تخوف من ذلك الجيش السلجوقى الكبير الذى كان تحت إمرة مودود. ومن يدرى فربما انتهز سلاجقة فارس تلك الفرصة التى أتاحتها لهم الحروب الصليبية لانتزاع دمشق منه ؟ ويرى ابن الأثير أن طغتكين عندما اجتمع بالأمير مودود «اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج سراً (٣) ، وهكذا لم تلبث أن باءت جهود السلاجقة بالفشل، بعد أن أخذ كل أمير منهم يتشكك فى الآخر، وبقى مودود على نهر العاصى مع طغتكين، حليفه غير الوفى (٤).

أما الصليبيون فسرعان ما أظهروا تماسكاً قوياً، وتناسوا ما بين بعضهم وبعض من خلافات، فانسحب تنكرد من أمام شيزر – التى كان يهاجمها – وعاد إلى فامية مسرعاً، ومن هناك أرسل إلى الملك بلدوين الأول طالباً مساعدته ضد

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ . & Albert d'Aix, p. 681

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حادث سنة ٥٠٥ هـ.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, 266.

المسلمين [1]. ولم تلبث أن تجمعت قوات الصليبيين من بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها قرب فامية - فى الجزء الأوسط من حوض نهر العاصى - ومن ذلك الموقع بالذات - كان يمكنهم الإشراف على شمال الشام ، فضلا عن شاطىء لبنان وفلسطين.

ويبدو أن مودود خشى الالتحام مباشرة مع تلك الحشود الصليبية التى بلغت نحواً من ستة عشر ألفا، فدخل على رأس جيوشه حصن شيزر ومعه طغتكين فى ١٥ سبتمبر سنة ١١١١، وذلك للاحتماء به [2]، ونصب جنودهما خيامهم فوق أسطح المنازل [3]. وكان أن تحركت القوات الصليبية هى الأخرى - وعلى رأسها ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكية والرها - إلى شيزر، حيث عسكرت فى مواجهة المدينة. ولم تلبث أن ساءت الأوضاع فى معسكر المسلمين، إذ أصر طغتكين على أن يستجيب له بقية أمراء المسلمين فى الزحف جنوباً لمهاجمة طرابلس، وهو أمر لم يقره باقى زعماء القوى الإسلامية المتحالفة. وكان ذلك فى الوقت الذى مرض برسق أمير همذان ورغب فى العودة، فى حين توفى فجأة سكمان صاحب ميافارقين فانسحبت قواته ومعها جثمانه راجعة من حيث أتت. وكذلك اختار أحمد بك الثانى صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخلية [4]. وهكذا رأى مودود حلفاءه وقد انفضوا عنه، مما جعله لا يقوى بمفرده على منازلة الجيش الصليبى الكبير الذى ظل متماسكاً مستعداً للمعركة. لذلك لم يتعد الأمر بعض المناوشات التى قام بها فرسان السلاجقة لمنع الصليبيين من الوصول إلى مياه النهر للشرب، ثم عاد مودود إلى الموصل وطغتكين إلى دمشق [5].

وإذا كانت تلك الحملة السلجوقية لم تحقق شيئاً للجانب الإسلامى، بل على العكس أظهرت تفكك المسلمين عندئذ وعدم وحدتهم، فإنها حققت الكثير بالنسبة

(1) Runciman : op. cit., II p. 122.

(٢) يذكر ابن الأثير (سنة ٥٠٥ هـ) أن الفرنج اجتمعوا كلهم بعد الاختلاف والتباين، وساروا إلي أفامية، فسمع بهم سلطان بن منقذ صاحب شيزر فسار الي مودود وطغتكين وهون عليهما أمر الفرنج وحرضهما علي الجهاد فرحلوا إلي شيزر.

(٣) ابن القلانسي، ص ١٧٧.

(4) Runciman : op. cit. II p. 123.

(٥) ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ &
ابن القلانسي ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ، ويذكر ابن الأثير أن الفرنج لما سمعوا بتفرق عساكر الاسلام طمعوا. أنظروا ايضا Albert d'Aix, p. 684.

للصليبيين. ذلك أنها جمعت صفوف القوى الصليبية فى شمال الشام وجنوبها بعد الاختلاف والتباين على قول ابن الأثير، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة والأولوية على بقية أمراء الصليبيين (١). وكفى أن تنكرد - الخصم العنيد لبلدوين الأول - اعترف بتلك الزعامة، وحاكاه فى ذلك بلدوين دى بورج، فصار الملك بلدوين الأول يتصرف فى حملة سنة ١١١١ بوصفه القائد الأعلى لقوات الصليبيين، والزعيم الأوحد الذى دان له بالطاعة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً - حتى سنة ١١٨٦ - صار الصليبيون فى بلاد الشام يؤلفون جبهة متماسكة، على الرغم من قيام تلك الجبهة على أسس إقطاعية. وبعبارة أخرى فان النظم والتقاليد الملكية التى وضع أساسها الملك بلدوين الأول نجحت فى أن تحقق للصليبيين ببلاد الشام قدراً من الاستقرار السياسى استمر نحواً من خمسة وثمانين سنة (٢).

هجوم الاتراك سنة ١١١٣ : موقعة الصنبرة :

على أنه إذا كانت حملة سنة ١١١١ التى قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت إلى لاشيء، فإن هذه النتيجة لا ينبغى أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل. وهو رجل عرف بالتقوى والورع وتمسكه بفكرة الجهاد الدينى (٣). والواقع إن فشل تلك الحملة إنما يرجع أولا إلى عدم إخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق، وتخوفهما من قوة مودود. لذلك عاد مودود إلى الموصل حزيناً كاسف البال، واكتفى مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام، تحقيقاً لرغبة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى.

ثم كان أن تغيرت الأوضاع فى بلاد الشام ١١١٣، وكان ذلك عندما دخل طغتكين فى صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور - كما سبق أن رأينا - مما أثار الحزازات بينهما مرة أخرى. وعندئذ اتجه طغتكين نحو مودود أتابك الموصل فأرسل إليه يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول إليه (٤). والواقع إن مودود - لم يكن فى حاجة إلى تحريض لمواصلة الجهاد، فعبر الفرات عند

---

(١) ابن الأثير - سنة ٥٠٥ هـ. & Setton : op. cit. I, p. 400.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 268.

(٣) وصف أبو المحاسن مودود بأنه كان من خيار الملوك دينا وشجاعة وخيراً (النجوم الزاهرة. ج ٥ ، ص ٢٠٧).

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

منتصف مايو سنة ١١١٣، وتبعه أمراء السلاجقة في إقليم الجزيرة. وبعد أن تجمعت الجيوش السلجوقية عند سلمية - إلى الجنوب الشرقى من حماه - اتجهت مباشرة صوب بحيرة طبرية. ولم يلبث مودود وطغتكين أن حاصرا مدينة طبرية المنيعة، وعندما استعصت عليهما، أخذ السلاجقة يدمرون وينهبون الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور [١]. على أن طغتكين ومودود سمعا باقتراب الصليبيين فاحتميا بسرعة فى شبة الجزيرة التى يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك جنوبى بحيرة طبرية، وهى الجهة التى تعرف بالأقحوانة [٢].

وكان الملك بلدوين فى عكا عندما بلغه نبأ الحملة السلجوقية على إقليم طبرية، فأرسل فى الحال يطلب المساعدة من أميرى أنطاكية وطرابلس. وفى ذلك الوقت كان روجر الصقلى Roger de Sicile قد خلف عمه تنكرد - الذى توفى سنة ١١١٢ - فى حكم أنطاكية ، فى حين خلف بونز Pons أباه براتراند فى حكم طرابلس، فقرر الأميران الإسراع لنجدة الملك بلدوين. غير أن بلدوين الذى طلب المساعدة لم يشأ أن ينتظر وصولهما، فتعجل فى مهاجمة السلاجقة دون أن يعتبر بما سبق أن حل به عند الرملة سنة ١١٠٢. ولم يكد الملك بلدوين الأول يصل إلى جسر الصنبرة - إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية - فى ٢٠ يونيو سنة ١١١٣، حتى فكر مودود وطغتكين فى نصب كمين له [٣]. وكان أن وقع بلدوين الأول فى الكمين، ولم ينج ومعه البطرق أرنولف مالكورن - إلا بمشقة بالغة، فى حين وقع جميع المشاة، ومعهم متاع الملك نفسه فى أيدى السلاجقة. هذا عدا من غرق من الصليبيين فى نهر الأردن أو بحيرة طبرية [٤]، حتى قدرت خسائر الصليبيين فى تلك الموقعة بألف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان (٨ يونية ١١١٣) [٥].

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ. & Albert d'Aix, p. 694.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٤٦ - ٥٤٧

ابن القلانسي : ص ١٨٥ والصنبرة بالكسر ثم الفتح والتشديد وسكون الباء.

(٤) يذكر ابن الأثير أن الملك بلدوين نفسه وقع أسيراً في تلك المعارك، ولكن المسلمين لم يعرفوه فأخذوا سلاحه وأطلقوا سراحه (الكامل، ٥٠٧ هـ).

(5) Guillaume de Tyr, 486 &

Foucher de Chartres, p. 426.

وقد قدر صاحب مرآه الزمان عند قتلي الصليبيين في موقعة الصنبرة بألفي فارس من الشجعان والأبطال.

ولم يلبث أن وصل روجر أمير أنطاكية وبونز Pons أمير طرابلس ومعهما رجالهما، وبذلك قويت نفوس الفرنج وأخذت تتجمع القوى الصليبية مرة أخرى لمواجهة السلاجقة. وقد أحس الصليبيون بالتفوق العددى لخصومهم، ولذلك تحاشوا الاشتباك معهم فى موقعة فاصلة، واكتفوا بالاحتماء ببعض المرتفعات الواقعة غربى بحيرة طبرية، فالتجأوا إلى جبل هناك وظلوا قابعين فى مكمنهم ستاً وعشرين يوماً والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب، ومنعوا الميرة عنهم، لعلهم يخرجون إلى قتالهم ؛ فلم يخرج منهم أحد (١).

ومن الواضح أن هذه الخطة الجامدة التى لجأ إليها الصليبيون أتاحت الفرصة للسلاجقة، فخربوا المراكز الصليبية فى إقليم الجليل حتى وصلوا إلى بيسان ونابلس ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة (٢).

ثم كان أن ازداد موقف الصليبيين حرجاً فى ذلك الوقت عندما قامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس نفسها مستغلة فرصة وجود الملك بلدوين الأول والجيش الصليبى قرب طبرية (٣). وهكذا تقدم الجيش الفاطمى من عسقلان يدمر وينهب ويقتفى أثر الصليبيين حتى وصل إلى أسوار بيت المقدس. ولكن حامية بيت المقدس ومن بقى فيها من الفرسان ظلت متيقظة تماما، فى الوقت الذى كان الجيش الفاطمى الذى خرج من عسقلان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل حربى ضخم ضد المدينة، مما جعل المسلمين يشرعون فى العودة إلى عسقلان الليلة نفسها التى بلغوا فيها بيت المقدس (٤). ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الإسلامية، لأمكن أن تقوم الدولة الفاطمية بعمل حربى كبير يهدد الصليبيين تهديداً خطيراً ويجعلهم بين نارين (٥).

ولم يلبث أن وصل إلى عكا فى شهر أغسطس عدد من الحجاج الغربيين، قدرتهم المصادر بستة عشر ألفا (٦) مما بدل الموقف لصالح الصليبيين. لاسيما

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٦

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(3) Stevenson : op. cit., p. 63.

(4) Foucher de Chartres, pp. 426 - 427.

(5) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 274.

(6) Albert d' Aix, p. 696.

Guillaumde de Tyr, p. 437.

وأن مودود وطغتكين لم يحاولا إطلاقا الاستفادة من النصر الذى أحرزاه على بلدوين الأول عند الصنبرة. وكان أن انصرف مودود وطغتكين إلى دمشق، وهناك أذن مودود لرجال جيشه فى العودة والاستراحة ثم الاجتماع فى الربيع لمعاودة الغزاة (١). أما مودود نفسه فقد بقى - ومعه بعض خواصه - فى دمشق فى ضيافة طغتكين، وذلك لحين استئناف الحرب ضد الصليبيين (أوائل سبتمبر ١١١٣) (٢).

مقتل مودود : التحالف بين أتابك دمشق والصليبيين :

ولم تمض بضعة أسابيع حتى قتل مودود فى الجامع الأموى بدمشق بيد أحد الباطنية، وذلك عند ذهابه لتأدية صلاة الجمعة (٣). وقد اتهم المؤرخون - مثل ابن الأثير وابن القلانسي - طغتكين بالتآمر على ضيفه وتحريض ذلك الباطنى على قتله (٤). والواقع أننا لا نستبعد أن يكون وجود مودود فى دمشق قد أثار مخاوف طغتكين الذى خشى أن يكون الغرض من حركة الجهاد هو رغبة سلطان السلاجقة فى بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين. وربما كان فى تعجل طغتكين فى قطع رقبة القاتل فى الحال وإحراق جثته دليلا على رغبته فى طمس معالم الجريمة والتخلص من أدلتها، تحت ستار إظهار استنكاره لتلك الجريمة (٥). ولم ينفرد المؤرخون المسلمون وحدهم بتوجيه ذلك الاتهام إلى طغتكين، بل شاركهم فى هذا الرأى أيضا بعض المؤرخين الصليبيين (٦).

ومهما يكن من أمر، فإن الصليبيين هم الذين استفادوا من تلك الجريمة، فى الوقت الذى أحس طغتكين باتهام الرأى العام الإسلامى له، فلم يجد حليفا يطمئن إليه سوى الصليبيين. وهكذا ثبت أن أمراء الشام فى ذلك الوقت لم يقدروا المصلحة العليا للعالم الأسلامى، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل الصالح العام، مما دفعهم إلى محالفة الصليبيين للاحتفاظ بإماراتهم، خوفا من أن تلتهمها

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(2) Setton : op. cit., p. 402.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٩.

(٤) فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله (ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ).

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٨.

(6) Guillaumde de Tyr, p. 487 & Albert d'Aiz, pp. 700.

سلطنة السلاجقة فى فارس واحدة بعد أخرى (١).

حملة السلاجقة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت الممتلكات الصليبية فى شمال الشام والعراق لزلزال عنيف فى نوفمبر سنة ١١١٤، دمر بلادهم من أنطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها (٢). ، فرأى السلطان محمد السلجوقى أن يستغل تلك الظروف وما نجم عنها من تصدع أسوار المدن والقلاع الصليبية لإرسال حملة جديدة إلى بلاد الشام بزعامة برسق بن برسق صاحب همذان، لمحاربة الصليبيين فضلا عن الإنتقام من طغتكين أتابك دمشق والقضاء على إيلغازى أمير ماردين (٣). ولم تكد تلك الحملة تعبر الفرات فى مايو سنة ١١١٥، حتى أجمع الأمراء - سواء من المسلمين أو المسيحيين - على مقاومتها. فمن الجانب الإسلامى قاوم تلك الحملة إيلغازى بن أرتق أمير ماردين، ولؤلؤ الخادم الوصى على حلب، وطغتكين أتابك دمشق ؛ فى حين قاومها من الجانب المسيحى، روجر أمير أنطاكية وبونز أمير طرابلس. ومعنى ذلك أنه لم يبق على ولائه من أمراء الشام المسلمين لسلطان السلاجقة سوى بنى منقذ فى شيزر وابن قراجة صاحب حمص. ومع ذلك فإن برسق لم يبال بذلك العداء الذى صادفه من أمراء الشام على اختلاف أديانهم ومللهم، فمضى فى طريقه يهاجم الأمراء المسلمين والمسيحيين جميعاً (٤).

وهكذا استولى برسق على حماه التى كانت تابعة لطغتكين وبها ثقله ،كما هاجم قلعة فامية (أفامية) التى كانت تابعة لإمارة أنطاكية الصليبية (٥).، الأمر الذى أدى إلى التقارب بين الأمراء المسلمين والمسيحيين بالشام وجعلهم يتفقون على مقاومة العدو المشترك. من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن طغتكين وقائد حلب شمس الخواص أسرعا إلى طلب معونة أمير أنطاكية الصليبى ضد برسق (٦).، فى حين ذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن أمير أنطاكية هو الذى بدأ محالفة طغتكين ضد الخطر المشترك. وسواء صحت هذه الرواية أم تلك

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 276 - 277.

(2) Archer : op. cit., p. 151.

(٣) خرج مع برسق الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم (السلطان) بالبداية بقتل إيلغازي وطغتكين، فاذا فرغوا منهم قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم وحاصروا بلادهم (ابن الأثير : الكامل، سنة ٥٠٩ هـ).

(4) Runciman : op. cit., II, p. 131.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٩ هـ.

(٦) المصدر السابق.

فالمهم هو أن حملة برسق أدت إلى نوع من التقارب بين بعض الأمراء المسلمين والصليبيين بالشام، مما أدى إلى عقد اتفاقية بين أتابك دمشق والوصى على حلب من جهة وبين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية ،وغيرهما من شياطين الفرنج ،من جهة أخرى. واستهدف ذلك الحلف الإسلامى الصليبى الجديد مقاومة سلاجقة فارس ومنعهم من غزو بلاد الشام (١).

وكان أن احتشدت فعلا قوات دمشق وقوات حلب جنبا الى جنب مع قوات بيت المقدس وأنطاكية عند أفامية لمواجهة برسق، الأمر الذى جعل برسق يدرك صعوبة موقفة وأنه من المجازفة الاشتباك مع ذلك العدد الضخم المتحالف من الأعداء، فآثر الانساحب إلى الجزيرة. ولم يكد برسق ينصرف عائداً إلى الجزيرة حتى اعتقد ملك بيت المقدس وأمير طرابلس أن الخطر زال، فانصرفا بجيوشهما. ولكن برسق لم يلبث أن عاد بعد قليل وعندئذ واجهه الصليبيون وانزلوا به الهزيمة عند دانيث فى ١٤ سبتمبر، وقضوا على معظم جيشه ، وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة. أما برسق نفسه فلم يستطع الفرار إلا فى صعوبة، ويقال إنه مات بعد عدة أشهر وقد ندم على الهزيمة ؛ وعندئذ لم يفكر السلطان محمد السلجوقى فى المغامرة بحملة أخرى ضد الصليبيين فى بلاد الشام (٢).

وفى الوقت الذى كان بلدوين الأول مشغولا بحملة برسق على شمال الشام عادت حامية عسقلان إلى مهاجمة يافا براً وبحراً، ولكن حامية يافا الصليبية صمدت أمام ذلك التهديد. وعندما علم الفاطميون بعودة الملك بلدوين من شمال الشام، أسرعوا بالانسحاب إلى عسقلان دون أن يحققوا غرضهم . (سبتمبر ١١١٥) (٣).

---

(1) Setton : op. ict., I, pp. 404.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠٩ هـ.
وقد وصف الأثير برسق بأنه كان خيراً دينا.

(3) Guillaumde de Tyr, I, pp. 494 - 495.

الفصل الرابع

سياسة بلدوين الأول

وصوله إلي البحر الأحمر وغزوه مصر :

وبعد أن أطمأن الملك بلدوين الأول من ناحية سلاجقة فارس وانفصام العروة التى كانت تربطهم بإمارات الشام الإسلامية ، بدأ يفكر فى عدة مشاريع توسعية قام بها فى جرأة بالغة . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية النقب فى الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهو الإقليم المعروف باسم وادى عربة . ومن الواضح أنه مع ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية ، فإنه يمكن الصليبيين أيضاً من عزل مصر عن بقية العالم الإسلامى فى الشرق وقطع الطريق البرى بينها وبين الشام والعراق والحجاز (١) .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادى عربة جنوبى البحر الميت . ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزاً يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأجمعه (٢) . وفى العام التالى (سنة ١١١٦) خرج بلدوين فى حملة أخرى ، ومضى حتى أيلة على ساحل خليج العقبة حيث فر الأهالى من وجهه خوفاً . وقد بنى بلدوين فى أيلة أيضاً قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام (٣) . كذلك شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة آيلة فى خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة التى أخذت تحرك فى قلوبهم ذكريات ومشاعر دينية عزيزة عليهم . هذا وإن كان رهبان دير القديسة كاترين فى شبه جزيرة سينا قد رفضوا أن يستضيفوه خشية انتقام الفاطميين فى القاهرة ، مما جعل بلدوين ينصرف عائداً إلى بيت المقدس (٤) .

وبعد أن أبل بلدوين الأول من مرض أصابه أثناء عودته من أيلة إلى بيت

---

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. 213 .

(2) Runciman : op. cit., II pp. 97 - 98 .

(3) Setton : op. cit., I, p. 406 .

(4) Albert d'Aix, p. 703.

المقدس ، قام بمحاولة أخرى للاستيلاء على مدينة صور التى لم يبق للفاطميين غيرها - فضلا عن عسقلان - من موانى الشام . ويبدو أن صور كانت مصدر متاعب كثيرة للصليبيين فى الشام ، حيث خرجت منها فى تلك الفترة عدة غارات لمهاجمة الممتلكات الصليبية القريبة ، فضلا عن أنها كانت مركزاً بحرياً تأوى إليه السفن الفاطمية التى هددت الأساطيل الصليبية [1]. ولكن حاجة بلدوين إلى أسطول قوى لم تمكنه من الاستيلاء على صور . وعندئذ شيد قلعة منيعة جنوبى صور - وهى إسكندرونة - لإحكام الحصار على صور وكان ذلك سنة ١١١٦ [2].

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبية وصلت سنة ١١١٦ على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة ، وذلك باستثناء عسقلان وصور ، ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين فى عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم [3]. وربما استهدف بلدوين من مهاجمة الفاطميين أن يضطرهم إلى الإستعانة بحاميتى صور - وعسقلان ، فيستولى على هاتين المدينتين فى غير عناء [4]. على أن بلدوين الأول لم يحاول أن يحشد جميع قوى الصليبيين فى الشام لغزو الدولة الفاطمية ، وإنما خرج على رأس مائتين من الفرسان تقريباً وأربعمائة من المشاه فقط ، مما يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربى واسع النطاق [5].

وكان أن أستطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب البدو ، الذين خشوا خطر الصليبيين فسهلوا لهم الحصول على ما لزمهم من زاد وماء [6]. ولم يلبث أن وصل الصليبيون فى ٢١ مارس سنة ١١١٨ إلى الفرما واستولوا عليها ، وهى أولى المراكز الأمامية فى الأراضى المصرية [7]. وكانت دهشة الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها وتركوا فيها متاعهم ، مما هيأ للغزاة قدراً كبيراً

---

(1) Stevenson : op. cit. pp. 65 - 66 .

(2) Guillaume de Tyr, p. 507 .

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 283 .

(4) Archer : The Crusades, p. 140 .

(٥) ويلاحظ أن هذا الرأي يتعارض مع ماذكره ابن الأثير من أن بلدوين فى تلك الغزوة إنما كان «قاصداً ملك مصر والتغلب عليها وقوى طمعه فى الديار المصرية» .
(الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ) .

(6) Albert d'Aix, p. 705 .

(7) Michaud : op. cit. I, p. 52 .

من الغنائم . وبعد أن أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها (١)، اتجه غرباً نحو مصب النيل . ويروى ابن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة . كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين إلى أنه وصل إلى مصب نهر النيل فعلاً (٢).

على أن بلدوين الأول كان لايستطيع أن يمضى أكثر من ذلك لصغر قوته أولا ثم لمرضه ثانياً ، وهو المرض الذى لم يلبث أن توفى بسببه قرب العريش فى ٢ أبريل سنة ١١١٨ (٣).

تعمير بيت المقدس بالسريان والأرثوذكس :

ومن الأعمال الداخلية التى قام بها الملك بلدوين الأول قبل أن يقوم بحملته على مصر ، تعمير بيت المقدس بجموع المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس والسريان . وكان الباعث لبلدوين على هذا التفكير التجربة القاسية التى مر بها أثناء هجوم السلاجقة على إقليم الجليل سنة ١١١٣ ، إذ انتهز المزارعون وأهل الإقليم من المسلمين تلك الفرصة وخرجوا عن طاعة الصليبيين فى الوقت الذى هدد الفاطميون بيت المقدس وهى شبه خاوية لتغيب بلدوين ورجاله عنها . وكان من الطبيعى أن يبدأ بلدوين بتعمير بيت المقدس أولاً وهى كبرى مدن المملكة ، فضلاً عما لها من مكانة فى قلوب المسيحيين جميعاً (٤).

والواقع أن بيت المقدس وغيرها من مدن الشام كانت زاخرة بأعداد كبيرة من المسيحيين المحليين ، وذلك عند وصول الصليبيين إلى الشرق . ولكن مافعله أولئك المسيحيون الشرقيون من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم – وبخاصة فى أنطاكية والرها – جعل المسلمين لا يطمأنون إليهم ويطردونهم من بقية المدن التى كانت لا تزال تحت سيطرة المسلمين ، وبخاصة بيت المقدس (١).

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ & Guillaume de Tyr, p. 508

(٣) ذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سبح فى النيل عند تنيس «فانتقض جرح كان به» (حوادث سنة ٥١٢ هـ) فى حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة . وذكر أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه (حنطوه) ورموا أحشاءه ، هناك فعرف ذلك المكان حتى اليوم بسبخة بردويل أو البردويل (قرب بور سعيد الحالية) وأعتاد الناس أن يرجموها على أيام أبى المحاسن .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 284 .

ولم يلبث أن أستولى الصليبيون على بيت المقدس وكثير من أقاليم الشام ، فعمدوا بدورهم إلى طرد المسلمين منها . وهكذا أمست بيت المقدس تشكو فراغاً ضخماً ونقصاً كبيراً فى السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين والمسيحيين سواء [٢] . هذا فى الوقت الذى كان الصليبيون أنفسهم قلة ، إذ تعجل كثير من الحجاج الوافدين من الغرب فى العودة إلى أوطانهم بعد زيارة الأماكن المقدسة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصليبيين الذين استقروا فى الشام اشتغلت غالبيتهم بشئون الحرب والحكم ، وأنهم كانوا موزعين على عدد كبير من المدن والمعاقل لحراستها ، أدركنا مدى حاجة مملكة بيت المقدس بوجه خاص إلى سكان نشيطين تطمئن إليهم للنهوض بأعباء النشاط العمرانى من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها [٣] .

ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين فى الاعتماد على المسلمين فى هذه المهام فإنه لم يبق أمامه سوى المسيحيين المحليين ، وبخاصة المشتتين منهم شرقى نهر الأردن وفى حوران . وكانت بلاد الشام بوجه خاص تضم طوائف عديدة من المسيحيين المحليين مثل الموارنه فى طرابلس والسريان والأرمن فى أنطاكية والأرمن والنساطرة فى الرها ، وعندئذ فتح الملك بلدوين الأول أبواب مملكته أمام هذه الطوائف جميعاً واتصل بهم سراً وأغراهم على الهجرة إلى المدينة المقدسة ،حتى اكتظت بيت المقدس بأعداد من الأرثوذكس والأرمن [٤] .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس قامت على أساس الترابط الشديد بين سكانها من المسيحيين الغربيين الكاثوليك من جهة والمسيحيين الشرقيين من جهة أخرى . وقد أستطاع الملك بلدوين الأول أن يوفق بين الجميع رغم اختلاف مذاهبهم ، ليعملوا جميعاً فى إنعاش الأرض المقدسة وحمايتها . ولتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين والشرقيين ، وكان هو نفسه قد ضرب مثلا من قبل لذلك بزواجه من شرقية أرمينية . وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات الشرقيات فإن جمهرة الفرسان الصليبيين وصغار جندهم لم يجدوا غضاضة فى ذلك ، الأمر الذى أدى

(1) Guillaume de Tyr, p. 500 .

(2) Runciman : op. cit. II, p. 100 .

(3) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 311 - 312 .

(4) Richard : Le Royaume Latin. p. 124.

إلى ظهور جيل مولد فى بلاد الشام قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن مصالح الصليبيين فيما بعد عندما تناقص عدد الوافدين من الغرب (١).

سياسة بلدوين الأول الدينية :

على الرغم من أن شخصية بلدوين الأول ليس لها الطابع الدينى القوى الذى اعتادت الأساطير المعاصرة أن تلصقه بأخيه جودفرى (٢)، إلا أنه من الثابت أن بلدوين الأول كان حريصا على أن يجعل سيطرته على الكنيسة حقيقة واقعة (٣). وقد دفع ذلك بلدوين إلى العمل على محاربة فكرة إقامة حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس ، وهى الفكرة التى رأينا مدى حرص دايمبرت على تنفيذها . وإذا كان دايمبرت قد تنازل عن آرائه فى إقامة حكومة دينية حتى هدأ الموقف بينه وبين بلدوين ، وقام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكاً فى كنيسة بيت لحم سنة ١١٠٠ ، إلا أن النزاع لم يلبث أن تجدد بين الطرفين فى مارس سنة ١١٠١ . ويقف المؤرخ وليم الصورى فى ذلك النزاع إلى جانب دايمبرت ، ويؤكد حسن نيته، وأن أرنولف مالكورن – بطرق بيت المقدس السابق – هو المسئول عن إفساد العلاقات بين الملك بلدوين ودايمبرت (٤). أما المؤرخ ألبرت الآكسى – وهو المدافع دائماً عن بلدوين الأول ومبدأ الملكية ، فيقول إن الملك بلدوين كان لايمكن أن يغفر لدايمبرت محاولاته للحيلولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس وحرمانه من أن يرث أخاه جودفرى ويخلفه فى الحكم، فضلا عن مؤامرة دايمبرت لإعطاء ملك بيت المقدس إلى بيت بوهيموند الأنطاكى (٥).

ولعل استياء كل طرف من الآخر وعدم صفاء نياتهما ، هو الذى جعل

---

(1) Runciman : op. cit. II, p. 100.

وقد ذكر Thompson أن ثمة زيجات تمت بالشام فى عصر الحروب الصليبية بين الصليبيين والعرب ، وأطلق على أبناء هذه الزيجات اسم (Pulani) أى الأفراخ . كذلك أشار إلى أن الأرثوذكس كانوا أحط طبقة فى المجتمع الصليبى ببلاد الشام ، وقد خشى الصليبيون دائما تآمرهم مع الدولة البيزنطية أو المسلمين ، ولو أنه لم يكن غنى للصليبيين عنهم ، بسبب معرفتهم باللغات

(Thompson : Economic & Social Hist of The Middle Ages : vol I, p. 398).:

(2) Cam. med. Hist., vol. 5, p. 304.

(3) Runciman : op. cit. II, p. 100.

(4) Guillaume de Tyr, pp. 438 - 439.

(5) Albert d'Aix, p. 538 .

النزاع يطول بين الرجلين ، حتى انتهى الأمر - كما سبق أن أشرنا - بعزل دايمبرت نهائياً سنة ١١٠٢ ، واختيار إبرمار بطرقاً جديداً لبيت المقدس . وقد أيد الملك بلدوين هذا الاختيار لما لمسه فى البطرق الجديد من ورع وتقوى ورغبة تامة فى الابتعاد عن الاشتغال بالمسائل السياسية ، وهذا كل ماكان يبتغيه بلدوين فى الشخص الذى يتولى بطرقية بيت المقدس (١) .

ولكن إبرمار لم يستمر طويلا فى منصبه ، إذ وصل النزاع حول شغل كرسى بطرقية بيت المقدس إلى البابوية ، فأرسل البابا باسكال الثانى مندوباً اسمه جبلين للتحقيق فى الموضوع ، وانتهى الأمر باختيار جبلين نفسه بطرقاً على بيت المقدس ، سنة ١١٠٨ (٢) . وكان هذا البطرق الجديد متقدماً فى السن . فلم يلبث أن توفى فى أبريل سنة ١١١٢ ، فأختير بعده أرنولف مالكورن بطرقاً من جديد على بيت المقدس بعد أن ظل أثنى عشرة سنة يترقب تلك الفرصة التى أعادت إليه كرسيه المسلوب (٣) .

وهكذا يبدو أن بلدوين الأول اتبع سياسة دينية اتصفت بالمهارة ، ومكنته من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى فى حكومة بيت المقدس ، وتجنيب تلك المملكة الناشئة صراعاً بين السلطتين الدينية والعلمانية . هذا إلى أن إخلاص أرنولف مالكورن للملك بلدوين الأول ، لم يمكن الملك من إحكام إشرافه على كنيسة بيت المقدس فحسب ، بل ضمن أيضاً لتلك المملكة الناشئة نظاماً وراثياً فى بيت بلدوين، مما أتاح لها فرصة الاستقرار والثبات ، وجنبها النزاع والقلاقل (٤) .

وإذا كانت بطرقية بيت المقدس قد غدت - بفضل سياسة الملك بلدوين الأول - الحليف المخلص الوفى للملكية ، فإن الملك بلدوين لم يتقاعس من جانبه عن مؤازرة تلك البطرقية وتوسيع اختصاصها الدينى ، وزيادة نفوذها على حساب بطرقية أنطاكية . وكان ذلك عندما نشب نزاع بين بطرقية بيت المقدس وبطرقية أنطاكية حول أسقفية بيروت ، وذلك بعدما استولى بلدوين على هذه المدينة الأخيرة من الفاطميين سنة ١١١٠ . ذلك أن تنظيم الكنيسة البيزنطية كان يقضى بأن يتبع أسقف بيروت رئيس أساقفة صور ، وهذا الأخير يتبع بطرق أنطاكية .

---

(1) Idem : p. 622.

(2) Guillaume de Tyr, p. 457 .

(3) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 248 .

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 97 .

ولكن ذلك الوضع صار غير ذى موضوع سنة ١١١٠ عندما كانت بيروت فى أيدى الصليبيين فى حين ظلت صور نفسها فى قبضة المسلمين . لذلك طالبت بطرقية بيت المقدس بأن تكون أسقفية بيروت تابعة لها ، فى حين تمسك بطرق أنطاكية بتبعية تلك الأسقفية له (١).

وعندما اشتد الخلاف ، عرض الملك بلدوين الأمر على البابوية فأفتى البابا باسكال الثانى سنة ١١١١ بأن الفتح الإسلامى غير الأوضاع القديمة التى كان معمولا بها فى الدولة البيزنطية ، وبناء على ذلك فإن البابوية ترى أن تكون الكنائس فى جميع البلاد التى يفتحها بلدوين الأول تابعة لبطرق بيت المقدس (٢) ويبدو أن ما حققه الملك بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية ، والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون بطرقية بيت المقدس من جانبها لها الأولوية على بطرقية أنطاكية . وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثانى عشر بأن ظلت أسقفيات إمارة طرابلس تابعة لبطرق أنطاكية ، ماعدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس فقد غدت تابعة لبطرقية بيت المقدس (٣).

زواج بلدوين الأول :

وثمة ناحية شخصية خاصة بالملك بلدوين الأول ولكنها أثرت فى وضع الكنيسة ، هى أنه طلق زوجته الملكة أردا Arda ، وتزوج من أدلياد الصقلية Adelaide de Sicile (٤). أما عن أردا فهى ابنة أرمنى تزوجها بلدوين أيام أن كان أميراً على الرها ليضمن ولاء الأرمن ، وهم كثيرون فى إقليم الرها . ومن الواضح أن هذا الزواج السياسى كان يحقق كثيراً من النفع لبلدوين وهو أمير للرها ، ولكنه لم يلبث أن أحس – بعد أن أصبح ملكاً على بيت المقدس – أنه ليس فى حاجة إلى الأرمن لأن أعدادهم قليلة فى جنوب بلاد الشام ووسطها ، وبالتالى فإنه لم يعد حريصاً على تلك الزيجة السياسية ، لاسيما وأن أردا فقيرة لم تستطع أن تشبع حاجة الملك الجديد إلى المال ، فضلا عن أنه لم يعش له منها أولاد يربطونه بها (١). وكان أن سعى الملك بلدوين سنة ١١١٠ لدى كنيسة بيت لحم لإتمام الطلاق

(1) Richard : Le Royaume Latin, p. 97 .
(2) Guillaume de Tyr, p. 502 .
(3) Grousset : hist. des Croisades I, p. 312 .
(4) Setton : op. cit. I, p. 102 .

من زوجته بعد أن أتهمها بالخيانة . ولكي يغرى تلك الكنيسة على تأدية هذه الخدمة له أضفى عليها وعلى أسقفها كثيراً من النعم والامتيازات . كذلك استخدم الملك نفوذه لدى بطرق بيت المقدس من ناحية ولدى البابوية من ناحية أخرى لرفع كنيسة بيت لحم إلى أسقفية (٢) أما أردا فقد طلبت من زوجها السماح لها بزيارة ولديها فى القسطنطينية ، وهناك لم تعبأ ببلدوين أو بيت المقدس وإنما حاولت أن تشبع نفسها بمباهج العاصمة البيزنطية .

ولم يلبث الملك بلدوين أن أخذ يبحث لنفسه عن صفقة أخرى رابحة ، وعثر على ضالته فى أدلياد أرملة روجر الأول صاحب صقلية الذى توفى سنة ١١٠١ . وقد استهدف بلدوين الأول من وراء تلك الزيجة تحقيق مكاسب عدة ، سياسية ومالية ، منها ضمان صداقة النورمان فى إيطاليا وصقلية ، وبخاصة الملك روجر الثانى ابن الأميرة أدلياد ، ومنهاأيضاً كسب الثروة الطائلة التى كانت تملكها تلك الأميرة والتى كانت كفيلة بإنعاش خزانة مملكة بيت المقدس (٣) . وبعد أن حصلت أدلياد على موافقة إبنها روجر الثانى على تلك الزيجة ، اشترطت على بلدوين الأول أنه إذا لم ترزق منه بمولود ذكر ، فإن عرش بيت المقدس ينتقل بعد وفاته إلى ابنها روجر الثانى ، نظراً لأن بلدوين لم يكن له أبناء يرثونه . وكان أن وافق بلدوين الأول على هذا الشرط ، وأبحرت العروس من صقلية إلى عكا فى بداية شهر أغسطس سنة ١١١٣ فى أسطول كبير يحمل ثروة طائلة ، من الذهب والفضة والتحف وغيرها (٤) .

على أن خصوم بلدوين لم يلبثوا أن أثاروا موضوع طلاق آردا وقالوا إن هذا الطلاق لم يكن قانونياً ، وأنه تم بالتواطؤ مع صنائع بلدوين من رجال الكنيسة وأولهم أرنولف مالكورن . ومن ثم أصبح بلدوين متهماً بالزواج من إمرأتين ، وهى تهمة لها خطورتها فى المسيحية (٥) . ولم تفلح جهود بلدوين الأول أو جهود ربيبه أرنولف مالكورن أسقف بيت المقدس فى دفع هذه التهمة عنه ، إذ أصر البابا باسكال الثانى ومندوبه الذى أرسله إلى بيت المقدس للتحقيق فى الموضوع

---

(1) Runciman : op. cit., II p. 102 .

(2) Guillaume de Tyr, pp. 473 - 474 .

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 184 .

(4) Albert d'Aix, p. 597.

(5) Runciman : op. cit., II, p. 104.

على أن طلاق أردا من بلدوين الأول باطل . وبناء على ذلك يجب أن يطلق الملك زوجته الصقلية الجديدة . وصادف أن مرض بلدوين الأول مرضاً خطيراً فى أوائل سنة ١١١٧ ، فاستمر طريح الفراش فى عكا بضعة أسابيع بين الحياة والموت ، مما جعله يخشى أن يموت مغضوباً عليه من الرب والكنيسة بسبب زواجه من إمرأتين فى وقت واحد . وهكذا انتهى الأمر بطلاق أدلياد ، فعادت كسيفة البال إلى صقلية فى أبريل سنة ١١١٨ (١).

ولاشك فى أن طلاق أدلياد جاء لطمة قوية لإبنها روجر الثانى وجميع الأمراء النورمان فى أيطاليا وصقلية . وإذا كان بلدوين الأول قد أراد بتلك الزيجة كسب النورمان فى أيطاليا وصقلية ، وضمان مورد ثابت من الرجال والمال ليغذى مملكة بيت المقدس ، فإن النتيجة جاءت عكسية بالنسبة للعلاقات بين مملكة بيت المقدس من ناحية ومملكة النورمان فى إيطاليا وصقلية من ناحية أخرى .

وفـــيات الاعـــيان :

ولم تلبث سنة ١١١٨ أن شهدت وفاة مجموعة من أعيان المسلمين والمسيحيين فى الشرق والغرب ، ممن لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحركة الصليبية . ففى ٢١ يناير سنة ١١١٨ توفى البابا باسكال الثانى فى روما ، وفى ٢ أبريل توفى بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، وفى ٥ أبريل توفى السلطان محمد السلجوقى فى فارس ؛ وفى ١٦ أبريل سنة ١١١٨ توفيت فى صقلية أدلياد زوجة بلدوين الأول والملكة السابقة على بيت المقدس ؛ وبعد ذلك ببضعة أيام توفى أرنولف بطرق بيت المقدس ؛ وفى ٦ أغسطس توفى الخليفة المستظهر العباسى فى بغداد ، وفى منتصف أغسطس توفى ألكسيوس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية بعد مرض طويل (٢).

بلدوين الأول فـي نظر التاريخ

وبعد ، فإن أهمية بلدوين الأول فى التاريخ ترجع إلى أنه لم يكن مثل أخيه جودفرى محارباً صليبياً فحسب ، بل كان أيضاً سياسياً ومنظماً ومؤسساً لمملكة لها أهميتها فى تاريخ العصر الذى عاش فيه . فبلدوين الأول هو الذى استطاع بمهارته أن يحقق لمملكة بيت المقدس مكانة مرموقة وسط المحيط الإسلامى فى

(1) Guillaume de Tyr, p. 509 .

(2) Runciman : op. cit. II, pp. 105 - 106 .

الشرق الأدنى ، وإليه يرجع الفضل فى وضع دعائم تلك السياسة الناجحة التى سار عليها خلفاؤه ملوك بيت المقدس من بعده والتى حققت نوعاً من التوازن بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية فى الشرق الأدنى (١).

هذا إلى أن سياسة بلدوين الأول التوسعية أكسبته أهمية خاصة فى تاريخ الصليبيين بالشام . ذلك أنه تسلم دولة بيت المقدس الصليبية محدودة المساحة ، تكاد لا تتعدى المدينة المقدسة وضواحيها القريبة ، فما هى إلا سنوات قليلة حتى حولها إلى مملكة قوية تشمل كل فلسطين تقريبا ، وتتمتع بشاطىء طويل على البحر المتوسط مما حقق لتلك المملكة الصليبية اتصالا آمنا مستمراً مع العالم الأوربى الغربى (٢). ثم كان أن توج بلدوين أعماله قبل وفاته بأشهر معدودة بالسيطرة على وادى عربة والضفة الشرقية للأردن ، والاستيلاء على أيلة على خليج العقبة ، بل لقد أوغل فى الأراضى المصرية نفسها شرقى الدلتا . كل ذلك ليقطع الصلة بين المسلمين فى أفريقية واسيا ، أو بين الدولة الفاطميةمن جهة والجناح الآسيوى للعالم الإسلامى من جهة أخرى ، وهى الصلة التى كانت تهدد بوقوع الصليبيين فى الشام بين شقى الرحى . ولا شك فى أن سيطرة الصليبيين على ميناء أيله كان من شأنها أن تمكنهم من قطع طريق القوافل ، بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى ، فضلا عن تهديد الحجاج المسلمين وهم فى طريقهم إلى الحرمين (٣) .وكما أن إمارة الرها الصليبية صارت تقف حاجزاً بين الإمارتين الإسلاميتين الكبيرتين فى شمال الشام والعراق – وهما حلب والموصل – فكذلك أراد بلدوين الأول أن يجعل من أيلة ووادى عربة حاجزاً صليبيا بين القاهرة ودمشق . ولم تلبث تلك الخطة التى وضع أساسها بلدوين الأول أن نجحت فى تمزيق أوصال العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى ، وتمكين الصليبيين فى الفترة الواقعة بين سنتين ١١١٦ ، ١١٨٧ من التحكم فى المسالك المؤدية إلى الحجاز (٤).

أما عن سياسته الداخلية فإن بلدوين الأول كان لايقل مهارة فى توجيهها عنه فى توجيه السياسة الخارجية ، مثلما يتضح ذلك فى إشرافه على الكنيسة ورجالها ، وفى منع رجال الدين من إقامة حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس .

(1) Cam. Med Hist vol. 5. p. 304 .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 314 - 315 .

(3) Setton : op. cit., I, P. 406.

(4) Grousset : Hist. de Croisades, I, pp. 315 - 316.

الباب السادس

قيام إمارة طرابلس

[أفمن أسس بنيانه على
تقوى من الله ورضوان خير أم
من أسس بنيانه على شفا جرف
هار فانهار به في نار جهنم والله
لايهدي القوم الظالمين].
(التوبة : ١٠٩)

الفصل الأول

ريموند الصنجيل والصليبيون

ريموند والدولة البيزنطية :

رأينا ما أصاب ريموند الصنجيل . Raymond of St. Gilles من خيبة أمل واضحة أثناء مسيرة الحملة الصليبية الأولى ، إذ ظل يمنى نفسه حينا بعد آخر بأنطاكية ، أو على الأقل باقتسامها مع بوهيموند ، حتى انتهى الأمر باستئثار بوهيموند بها وحده (١) . فلما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه إمارة فى شمال الشام على حساب سلاجقة حلب ـ حول البارة ومعرة النعمان ـ انبرى له بوهيموند مرة أخرى ونافسه فى الاستيلاء على معرة النعمان ، مما اضطر ريموند إلى التخلى عنها فى يناير سنة ١٠٩٩(٢) . وكان أن فكر ريموند فى تأسيس إمارة على شاطىء الشام ، فهاجم أنطرطوس وعرقة إلى الشمال الشرقى من طرابلس ، ولكنه نجح فى إحتلال الأولى فى فبراير سنة ١٠٩٩ . وفشل فى الاستيلاء على عرقة مايو سنة ١٠٩٩(٣) . وعندما رشح اسمه حاكما على دولة بيت المقدس الصليبية ، أدى حسد زملائه الأمراء له وتخوفهم منه إلى ضياع تلك الفرصة من يده . وعندئذ أتجه ريموند إلى مهاجمة الثغور الفاطمية فى فلسطين ـ مثل عسقلان وأرسوف ـ ولكن عداء جودفرى بوايون له لم يمكنه من تحقيق غرضه (اغسطس ١٠٩٩) وأخيرا لم يجد ريموند وسيلة سوى تملق الدولة البيزنطية وخدمة سياستها وتحقيق أغراضها ومطامعها فى بلاد الشام ، والمناداة بحقوقها فى أنطاكية وغيرها من أقاليم الشام (٤) .

وقد أخذت سياسة ريموند هذه تظهر فى وضوح منذ أن استولى على اللاذقية فى صيف ١٠٩٨ ، إذ سلمها للبيزنطيين بعد قليل ، مما قوى الرابطة بينه وبين الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ، وجعل الأخير يثق إلى حد بعيد فى إخلاص ريموند له (٥) .

---

(1) Runciman : op. cit., I, pp. 249 - 251 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١هـ Gesta Francorum, pp. 172 - 178

(3) Raymond d'Agiles, pp. 279 - 288 .

(4) Vasiliev : op. cit., II, p. 409 .

(5) Albert d'Aix, pp. 500 - 501 .

ولم يلبث هذا التحالف بين ريموند والإمبراطور البيزنطى أن اتخذ وجهة خاصة ضد بوهيموند صاحب أنطاكية الذى استثار بسلوكه الإمبراطور البيزنطى والأمير ريموند جميعا، والذى كان وجوده فى ذلك الجزء من شمال الشام بالذات مهددا لأطماع الامبراطور البيزنطى من ناحية وريموند من ناحية أخرى (١). ومن أمثلة سلوك بوهيموند وموقف ريموند منه فى ذلك الدور ماحدث فى صيف سنة ١٠٩٩، إذ بينما تقدم ريموند إلى جانب جودفرى صوب بيت المقدس للاستيلاء عليها من المسلمين، اختار بوهيموند ـ كما سبق أن أشرنا ـ أن يبقى حيث هو فى أنطاكية لينتهز فرصة تغيب منافسه ويحاول الاستيلاء على اللاذقية من البيزنطيين بمساعدة الأسطول البيزى تحت زعامة دايمبرات (٢). ولولا رجوع ريموند لسقطت اللاذقية فى يد بوهيموند لأن الأخير لم يلبث أن انسحب ـ وكذلك الأسطول البيزى ـ عند اقتراب ريموند، حتى لايقع صدام بين القوات الصليبية بالشام بعضها البعض، وبذلك استرد ريموند اللاذقية (٣). وكان أن توسط دايمبرت فى الصلح بين ريموند وبوهيموند، فاجتمع الأميران قرب اللاذقية، وسويا ما بينهما من خلاف. ولكن هذه التسوية، كانت فى الظاهر فقط، إذ ظل بوهيموند قائما فى أنطاكية على كره من الامبراطورالبيزنطى، فى حين ظل ريموند يحمل فى قلبه حقدا دفينا على بوهيموند، واكتفى مؤقتا بأن سيطر على اللاذقية وانطرطوس باسم الإمبراطور البيزنطى (٤).

وإذا كان ريموند قد يئس من القضاء على قوة بوهيموند فى أنطاكية، فإنه سرعان ما فكر فى أستغلال تحالفه مع البيزنطيين لإقامة إمارة جديدة لنفسه فى شمال الشام تنافس إمارة أنطاكية. وخلال ذلك استمرت روح التنافس والكراهية تسود العلاقات بين ريموند وبوهيموند. من ذلك أن بوهيموند مر فى يناير سنة ١١٠٠ باللاذقية أثناء عودته من زيارة بيت المقدس، وطلب من ريموند أن يمده بالزاد، فاعتذر الأخير بحجة نقص المؤن لديه (٥).

هذا بالاضافة الى الدور الذى قام به ريموند لمنع بوهيموند من الاستيلاء على عرش بيت المقدس عقب وفاة جودفرى بوايون، إذ سبق أن رأينا كيف

(1)Ostrogorsky : op. cit., p. 323 .

(2) Stevenson : op. cit., p. 39 .

(3) Albert d'Aix, pp. 502 - 504.

(4) Foucher de Chartres, I, p. 368 .

(5) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 321 .

استطاعت قوات ريموند فى اللاذقية أن تمنع الرسالة التى أرسلها دايمبرت الى بوهيموند مستدعيا إياه ليتولى الحكم فى المدينة المقدسة (مايو ـ أغسطس ١١٠٠) (١).

وأخيرا رحل ريموند إلى القسطنطينية فى صيف سنة ١١٠٠ للاتفاق مع الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين على القيام بعمل حاسم ضد بوهيموند فى أنطاكية (٢). ولم يكد ريموند يصل الى القسطنطينية حتى جاءت الاخبار بوقوع بوهيموند أسيرا فى قبضة التركمان من بنى دانشمند فى كابادوقيا . ولكن هذا الحدث لم يكن له أثر فى سياسة ريموند والامبراطور الكسيوس كومنين تجاه انطاكية ، لأن تنكرد الذى تولى الوصاية على أنطاكية عند أسر خاله ، لم يقل خطراً عن بوهيموند ، فاتبع سياسة العداء نفسها تجاه الإمبراطورية البيزنطية وريموند جميعاً ؛ وبدأ بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية فى قيليقية مثل طرسوس وأذنه والمصيصة (٣). ولم يكد تنكرد يفرغ من ذلك حتى اتجه إلى اللاذقية ، ولكنها قاومته مقاومة شديدة استمرت سنة ونصف حتى استولى عليها فى النصف الثانى من سنة ١١٠٢(٤).

وفى الوقت الذى أخذ ريموند والكسيوس كومنين يعدان العدة لإرسال حملة ضد تنكرد وإنقاذ اللاذقية ، إذا بحملة صليبية جديدة تصل من الغرب إلى القسطنطينية وتستأثر بتفكير الامبراطور وحليفه . وكان أن عين الامبراطور البيزنطى حليفه ريموند للاشراف على هذه الحملة وتوجيهها إلى الأراضى المقدسة . ويبدو أن ريموند سر لتلك المهمة ، إذ رأى فى الحملة الجديدة أداة صالحة يمكن أن يستخدمها فى تحقيق بعض أطماعه فى الشام .

ريموند والحملة الصليبية سنة ١١٠١

لم يكد الغرب الأوربى يعلم بالتوفيق الذى أصابته الحملة الصليبية الأولى فى بلاد الشام ، وبنجاح رجال تلك الحملة فى استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين حتى تحمس كثير من الامراء الذين ترددوا فى المشاركة فى الحملة الاولى للذهاب إلى الشام ليفوزوا بنصيب من الأسلاب قبل ضياع الفرصة ، فضلا

---

(١) أنظر ماسبق – الباب الخامس – الفصل الأول .

(2) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 222 - 223 .

(3) Raoul de Caen, pp. 706 - 707 .

(4) Idem, p. 708 .

عما كانوا يرجونه من المشاركة فى الحركة الصليبية والفوز بثوابها . ولايخفى علينا أن الصليبيين فى الشام كانوا عندئذ فى حاجة ماسة إلى تلك المعونة البشرية، لتعويض النقص فى الرجال من جهة ، ولاستئناف سياسة التوسع من جهة ثانية ، ثم لحراسة ما حققوه من مكاسب ضد أية محاولة إنتقامية من جانب المسلمين من جهة ثالثة (١).

وقد تألفت أول مجموعة من أولئك الصليبيين من اللمبارديين الذين تحركوا فى نهاية سبتمبر سنة ١١٠٠ نحو القسطنطينية عن طريق الدانوب تحت قيادة أنسلم رئيس أساقفة ميلان ، وألبرت وجيوبرت وهيومن الأمراء (٢). ويبدو أن هذه المجموعة من الصليبيين كانت شبيهة بحملة العامة فى الحملة الصليبية الأولى ، إذلم تضم ـ مع كثرة رجالها ـ سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين ، فى حين تألفت الغالبية العظمى من أفرادها من العامة وبخاصة النساء والأطفال . هذا الى أنهم أتوا من أعمال السلب والنهب ما جعل الإمبراطور الكسيوس كومنين يطلب منهم عند وصولهم القسطنطينية فى مارس سنة ١٠١١ أن يعبروا إلى آسيا الصغرى (٣)وقد عارض اللمبارديون تلك الأوامر الامبراطورية فى أول الأمر بحجة الرغبة فى إنتظار بقية إخوانهم الوافدين من الغرب ، ولكنهم اضطروا أخيرا إلى الاستجابة لنصيحة الأمير ريموند الصنجيل، فعبروا البسفور فى أبريل سنة ١١٠١ لينتظروا إخوانهم على الشاطىء الأسيوى(٤) .

ولم تلبث أن وصلت جموع صليبية أخرى من الفرنسيين والألمان ، فعبروا أيضاً البسفور وعسكروا عند نيقية على مقربة من اللمبارديين ، حتى اجتمع الصليبيون جميعا فبلغت عدتهم نحو مائتى ألف ، ومن ثم بدأوا زحفهم تحت قيادة ريموند الصنجيل . وكان الاتجاه الغالب فى أول الأمر هو أن يسلك الصليبيون أقصر الطرق للوصول إلى إخوانهم فى الشام ، وهو طريق ضورليوم وقونية ، وأيد هذا الرأى الإمبراطور الكسيوس والأمير ريموند نفسه (٥)ولكن جموع اللمبارديين أصروا على عدم اتباع ذلك الطريق وأصروا على أن تتجه الحملة ضد بنى

(1) Grousset : His. des Croisades. I, p. 232 .

(2) Setton : op. cit., I, pp. 347 - 348 .

(3) Runciman : op. cit., II, pp. 18 - 19 .

(4) Chalandon : Alexis Comnene, pp. 224 - 225 .

(5) Albert d'Aix, pp. 560 - 562 .

دانشمند فى كابادوقيا للانتقام لبوهيموند وفك سراحه من الأسر[١] ومن الواضح أن هذا الاتجاه كان خاطئا لأن الملك غازى كمشتكين بن دانشمند كان قد نقل بوهيموند بعيداً فى قلعة نكسار على حدود بلاده ، أى فى المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الأسود ، الأمر الذى تطلب من الصليبيين المغامرة للوصول إلى تلك الأطراف النائية (٢) ولكن اللمبارديين ردوا على ذلك الاعتراض بأنه إن لم يمكن الوصول إلى بوهيموند فيكفى الانتقام له بتدمير أماسية وسيواس ، وهما المدينتان الرئيسيتان لبنى دانشمند . وهكذا أدى جهل اللمبارديين بطبيعة البلاد وعدم رغبتهم فى الاستماع للنصح إلى الانحراف بحملة سنة ١١٠١ عن طريقها الطبيعى ، مما عرضها لكوارث بالغة (٣) .

وكان أن أذعن البيزنطيون والأمير ريموند الصنجيل وبقية الصليبيين لرأى اللمبارديين ، فوصلت الحملة إلى أنقرة فى أواخر يونية سنة ١١٠١ واستولت عليها فى سهولة . ومن هناك اتجه الصليبيون فى الاتجاه الشمالى الشرقى إلى كنغرى ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على هذه المدينة ، فاتجهوا شمالا للاستيلاء على قسطمونى على ساحل البحر الأسود . وعندئذ أخذ الإنهاك يحل بالصليبيين لصعوبة البلاد وجدبها وطول الطريق وقلة المؤن ، بعد أن دأب قلج أرسلان على الانسحاب من أمامهم ، مدمرا كل ما يمكن أن يستفيد منه الصليبيون ، وبخاصة مواد التموين (٤) .

وفى ذلك الوقت أخذت تجمع قوى الأتراك المشتتة لمواجهة الخطر الصليبى الجديد ، فأسرع قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ورضوان ملك حلب السلجوقى لنجدة الملك غازى كمشتكين ، واستعد الجميع للمعركة الحاسمة بين أماسية وسيواس (٥) . وعندما وقعت الواقعة فى أوائل أغسطس سنة ١١٠١ كان اللمبارديون – وهم السبب فى تلك الكارثة ـ أول من ولى الأدبار . وعبثاً حاول الأمير ريموند

(١) ذكر ابن الأثير أن هدف تلك الحملة الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر فقال : «وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج وأرادوا تخليص بيمند...».
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ) .

(2) Setton : op. cit., I, p. 35.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 324 - 325 .

(4) Runciman : op. cit., II, p. 22.

(٥) ذكر ابن الأثير أن المسلمين نصبوا كمينا للصليبيين ، حتى إذا ما وصلوا إلى ذلك الموضع بين آماسية وسيواس « خرج الكمين عليهم» (الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ) .

الصنجيل وبقية الأمراء الفرنسيين والألمان حثهم على الثبات والمقاومة . وهكذا اضطر ريموند ومعه القوات البيزنطية التى رافقت الصليبيين إلى الإنسحاب . ولم يلبث ريموند أن فر شمالا نحو البحر الأسود ـ قرب سينوب ـ ومن هناك ركب سفينة إلى القسطنطينية (١).

وكان فرار ريموند بمثابة إعلان نهاية تلك الحملة ، إذ لم يلبث بقية الأمراء الصليبيين أن لاذوا بالفرار واستطاع معظمهم الوصول سالمين إلى ميناء سينوب البيزنطى ، ولكن بعد أن تركوا فى أيدى الآتراك أتباعهم ونساءهم وأطفالهم ومتاعهم ... وبذلك استولى السلاجقة على صفقة رابحة من الأسرى والغنائم . وبعد ذلك أخذ الأتراك فى مطاردة فلول الصليبيين ، فقتلوا منهم عددا ضخما قدره المؤرخون الصليبيون أنفسهم بما يتراوح بين مائة وستين ألفا ، وخمسين ألفا (٢) فى حين ذكر ابن الأثير أنه «لم يفلت أحد من الفرنج وكانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاث آلاف هربوا ليلا وأفلتوا مجروحين» (٣).

وهكذا محت تلك الكارثة التى حلت بالصليبيين على أيدى السلاجقة الأثر الرنان الذى تركه انتصار الصليبيين على السلاجقة فى ضورليوم سنة ١٠٩٧ . وزاد من وقعها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة ، إذ لم يلبث أن وصل إلى القسطنطينية فى منتصف يونية سنة ١١٠١ وليم الثانى كونت نفرز Nevers (١٠٨٩ـ١١٤٧) على رأس خمسة عشر ألفا من الفرسان المشاة الفرنسيين . وقد أظهر أولئك الصليبيون الجدد رغبة فى اللحاق بإخوانهم اللمبارديين ، فأدركوا أنقرة فى غير صعوبة . ومن هناك لم يستطيعوا اقتفاء أثر اللمبارديين ، فاتجهوا نحو قونية التى وجدوها محصنة تحصيناً قوياً ففشلوا فى الاستيلاء عليها (٥). وفى ذلك الوقت كان السلاجقة قد فرغوا من إبادة حملة اللمبارديين السابقة فتقدم قلج أرسلان والملك غازى بن دانشمند نحو أولئك الصليبيين الجدد ، واستطاعوا أن يبيدوهم إبادة شبه تامة قرب مدينة هرقلة فى أواخر أغسطس سنة ١١٠١ ولم يتمكن كونت نفرز من الفرار إلى مدينة أرمناك البيزنطية إلا فى صعوبة بالغة ، ومنها أخذه بعض البيزنطيين إلى أنطاكية (٦) .

(1) Albert d'Aix, pp. 569 - 607 & Foucher de Chartres, p. 377 .

(2) Albert d'Aix, pp. 571 - 572 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(4) Setton : op. cit., I, p. 358 .

(5) Runciman : op. cit., II, p. 26 .

(6) Albert d'Aix, pp. 575 - 578 .

وفى الوقت الذى كانت تلك الجموع الفرنسية تسعى إلى حتفها فى آسيا الصغرى ، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الحملة المشئومة فى أوائل يونية سنة ١١٠١ إلى القسطنطينية ، وقد تألفت من ستين ألف صليبى بزعامة وليم التاسع دوق أكوتين ـ وهو شاعر التروبادور الشهير ـ وولف الرابع دوق بافاريا . وعندما عبر هؤلاء الصليبيون البسفور على سفن بيزنطية ، تعرضوا أثناء مسيرتهم فى الأناضول لكثير من المتاعب بسبب صعوبة البلاد ونقص الماء والزاد (١) وقد إتبع الاتراك مع تلك المجموعة من الصليبيين الخطة نفسها التى اتبعوها مع من سبقهم من الصليبيين ، فتركوا المدن مفتوحة أمامهم بعد إخلائها تماماً ، مع إحراق أو إتلاف كل مايمكن أن يفيد منه الصليبيون من مؤن وخلافه ، حتى إذا وصل الصليبيون فى طريقهم إلى أقصى ما يمكن أن يصلوا إليه من جوع وظمأ وإنهاك، هاجموهم وقضوا عليهم فى سهولة (٢) . وعندما أدرك الصليبيون قونية وجدوا المدينة خاوية الوفاض ، فواصلوا زحفهم فى الوقت الذى اجتمع قلج أرسلان سلطان قونية والامير غازى بن دانشمند وقراجا أمير حران ، وتربصوا جميعاً للصليبيين على مقربة من هرقلة . وكان أن انقض الاتراك على الصليبيين فى أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ فأبادوا الجيش الصليبى أولا عن آخر ، ولم يتمكن من النجاة بصعوبة إلا قلة قليلة ، منهم وليم التاسع دوق أكوتين وولف الرابع دوق بارفايا ، فاتجها إلى طرسوس ، ومنها إلى إنطاكية (٣) .

وهكذا لقيت حملة سنة ١١٠١ بأقسامها الثلاثة مصيرها المشئوم الذى جرتها إليه جموع اللمبارديين . ولو كان اللمبارديون استمعوا للنصح فى أول الأمر ولم يتجهوا إلى شمال شرق الأناضول ، لأمكن لهذه الحملة أن تبدأ بداية طيبة ، وأن تتفادى الكوارث التى حلت بها . ولا شك فى أن هذه الحملة كانت لها نتائج خطيرة ، أهمها تقوية الروح المعنوية عند الاتراك المسلمين بعد أن تمكنوا من إنزال تلك الهزائم المتتالية بالصليبيين ، مما محا أثر الهزيمة التى حلت منذ سنوات بالسلاجقة فى ضورليوم (٤) . وبذلك انسد طريق آسيا الصغرى مرة أخرى فى وجه الصليبيين ، بعد أن كانت الحملة الاولى قد نجحت فى إقتحامه وفتحه ، واستمر هذا الطريق مغلقاً طوال عدة سنوات مقبلة ، أى حتى أيام فردريك

(1) Matthieu d'Edesse (Hist. Arm. I), p. 59.

(2) Setton : op. cit., I, pp. 361 - 362 .

(3) Foucher de Chartres, p. 399 & Guibert de Nogent , p. 243 .

(4) Runciman : op. cit., I, p. 29 .

باربروسا فى أواخر القرن الثانى عشر . أما بالنسبة للموقف فى بلاد الشام ، فإن الكارثة التى حلت بحملة سنة ١١٠١ حرمت الصليبيين فى الشام من آلاف عديدة من الرجال كانت الامارات الصليبية الناشئة ـ ومملكة بيت المقدس بوجه خاص ـ أحوج ما تكون إليهم للدفاع عن كيانهم ، بعد أن تناقص عدد الصليبيين بالشام بصورة ملحوظة (١) . وأما بالنسبة للمدن التجارية الإيطالية ، فإن انسداد الطريق البرى مرة أخرى إلى الشام جعل إعتماد الصليبيين فى الشرق على الطريق البحرى الذى سيطرت عليه الأساطيل الايطالية ، مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوة وبيزةوغيرها من قوى الغرب البحرية (٢) .

---

(1)Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 332 - 333 .

(2) Runciman, op. cit., II, p. 30 .

الفصل الثانى

ريموند وتأسيس إمارة فى الشام

تنازل ريموند عن مطالبه في أنطاكية واللاذقية :

اتجه بعض أمراء حملة سنة ١١٠١ الصليبية ـ بعد الكارثة التى حلت بهم ـ إلى أنطاكية ، فى حين استطاع معظم الناجين الفرار إلى القسطنطينية ، حيث آعد لهم الإمبراطور الكسيوس كومنين فى أوائل سنة ١١٠٢ سفنا حملتهم إلى الأراضى المقدسة(١). وكان أن صحب ريموند الصنجيل الفريق الأخير إلى الشام ، فوصلوا فى غير صعوبة إلى السويدية ، وهو الميناء الطبيعى لأنطاكية . ولكن ريموند لم يكد ينزل إلى البر فى يناير ١١٠٢ حتى قبض عليه أحد الفرسان ، متهما أياه بخيانة الصليبيين فى الأناضول ، مماعرضهم للكارثة التى حلت بهم ، وانتهى الأمر بتسليم ريموند لغريمه تنكرد الذى اعتقله فى قلعة أنطاكية (٢) ولم يلبث تنكرد أن وجه الى ريموند تهمة خيانة الصليبيين الغربيين ، والتواطؤ مع الدولة البيزنطية ضدهم وضد مصالحهم بالشام . ولكن تنكرد وافق ـ تحت ضغط الأمراء الصليبيين ـ على إطلاق سراح ريموند ، بشرط أن يتعهد بالتنازل عن جميع إدعاءاته ومطالبه ، ليس فى أنطاكية فحسب بل فى اللاذقية أيضا . وعندما وافق ريموند على ذلك وأقسم على التخلى عن جميع المطالب السابقة ، أطلق تنكرد سراحه (٣).

ولاشك فى أن هذه الاتفاقية جاءت فاتحة خير بالنسبة للصليبيين بالشام ، لأنها وضعت حداً للتنافس بين النورمان بزعامة بوهيموند ثم تنكرد من ناحية وبين أبناء بروفانس بزعامة ريموند الصنجيل من ناحية أخرى ، وضمنت لإمارة أنطاكية اعترافا جديدا بوجودها مما ثبت أركانها .هذا فضلا عن أن ريموند أخذ منذ ذلك الوقت يعمل لحسابه الخاص على ساحل الشام ، بعد أن كان معظم نشاطه السابق مكرساً لخدمة الامبراطورية البيزنطية وتنفيذ سياستها ، فاتجه نحو تأسيس

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 231 .

(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. I) p. 27 .

(3) Albert d'Aix, pp. 582 - 583 .

إمارة لنفسه على حساب المسلمين بدلا من العمل على تقويض أركان إمارة أنطاكية الصليبية (١). ويبدو أن ريموند أدرك أخيرا أن سياسته فى محالفة الامبراطور البيزنطى لم تأت له بثمرة سوى الخسارة الفادحة ، إذ اعتبر الصليبيون هذه السياسة خيانة لهم ؛ فى حين اكتشفت الامبراطور البيزنطى فى نهاية الامر أن حليفه ريموند أضعف من أن يقدم له معونة فعلية تخدم مطامع الامبراطورية ضد الصليبيين بالشام (٢).

استيلاء ريموند على أنطرطوس :

وعندما اتجهت بقايا حملة ١١٠١ من أنطاكية إلى بيت المقدس للحج ، فكر ريموند الصنجيل فى الاستفادة من تلك البقايا فى الاستيلاء على أنطرطوس (طرطوس) ، وهى المدينة التى كانت وقت مجىء الحملة الصليبية الأولى تابعة لبنى عمار - أمراء طرابلس - حتى استولى عليها ريموند سنة ١٠٩٩ ثم سنة ١١٠٠ . ولكن بنى عمار عادوا فاستردوها أثناء غياب ريموند مع الحملة اللمباردية فى آسيا الصغرى ، مما جعل ريموند يحرص على الاستيلاء عليها من جديد . وفعلا بدأ حصار أنطرطوس بمساعدة من معه من زعماء حملة ١١٠١ الفاشلة (٣). وصادف فى ذلك الوقت وصول أسطول جنوى إلى الشام ، فاستعان به ريموند فى حصار المدينة من ناحية البحر حتى سقطت فى يده فى فبراير سنة ١١٠٢ (٤). ولم يكد ريموند يستولى على طرطوس حتى اتخذها قاعدة لأعماله ومشروعاته المقبلة على ساحل الشام ، وأول هذه المشروعات فتح مدينة طرابلس ذاتها (٥).

وكان صاحب طرابلس عندئذ هو القاضى فخر الملك أبو على بن عمار (١٠٩٩-١١٠٨)الذى سبق أن رأينا سياسته المرنة تجاه الحملة الصليبية الأولى ، وكيف أنه لم يتطرف فى معاداة الصليبيين ، حتى عندما هاجموا عرقة التابعة له، أو طرابلس ذاتها . كذلك أشرنا إلى أن القاضى فخر الملك هذا حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، وحذره من الكمين الذى نصبه له سلاجقة دمشق . والواقع إن

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 334 - 335 .

(2) Runciman : op. cit., II, p. 56 .

(3) Albert d'Aix, p. 583 .

(4) Heyd : op. cit., I, p. 139 .

(5) Archer. op. cit., p. 156.

فخر الملك لم يأت بجديد فى سياسته هذه ، إذ حرص أسلافه دائما على الاحتفاظ باستقلالهم وسط النزاع بين الفاطميين من ناحية وسلاجقة الشام من ناحية أخرى وكذلك حرص هو على أن يمسك العصا من الوسط بين الفاطميين والدماشقة من ناحية ، والصليبيين من ناحية أخرى (١).

على أن الموقف تبدل عندما استولى ريموند على أنطرطوس وأخذ يصر فى عناد على الاستيلاء على طرابلس ، وعندئذ أصبح لزاما على فخر الملك أن يقبل مضطرا مبدأ الحرب دفاعا عن كيانه ، وأن يلقى بنفسه ـ كرها أيضا ـ بين أحضان القوى الاسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر (٢). وكان أن أرسل فخر الملك أبو على بن عمار مستنجدا بملك دمشق دقاق من ناحية ، وبأمير حمص ـ جناح الدولة ـ من ناحية أخرى . وفى ذلك الوقت كان أعوان ريموند من الصليبيين قد أتجهوا نحو بيت المقدس ، ولم يبق معه سوى جيش صغير من ثلثمائة رجل ، استغلهم فى مهاجمة الجهات القريبة ، بل لقد بلغت به الجرأة حد مهاجمة طرابلس نفسها بذلك الجيش الصغير (٣). وكان من الممكن للمسلمين إذا تعاونوا أن يقضوا على ريموند وهو فى تلك القوة الصغيرة ، إذ يذكر ابن الأثير أن فخر الملك أرسل إلى دقاق وإلى صاحب حمص يقول لهما « من الصواب أن نعاجل صنجيل إذ هو فى هذه العدة القريبة » (٤).

وكان أن أرسل جناح الدولة صاحب حمص قوة إلى طرابلس ، كما أرسل دقاق ألفى فارس ، واجتمعت تلك الجيوش مع جيش ابن عمار عند أسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد ريموند . وهنا يروى ابن الآثير كيف ثبت ريموند ، فخصص مائة من رجاله لقتال أهل طرابلس ، ومائة لقتال الدماشقة وخمسين لقتال عسكر حمص ، واحتفظ لحراسته بالخمسين الباقين . وبفضل تلك الخطة استطاع ريموند أن ينزل الهزيمة بالمسلمين الذين قتل منهم سبعة آلاف فى حين ارتد الباقون داخل أسوار طرابلس (٥).

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 337 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(3) Raoul de Caen, p. 708.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

ومهما يكن فى هذا القول من مبالغة واضحة ، فالذى يهمنا هو أن ريموند لم يشأ أن يضيع ثمرة انتصاره ، وإنما شرع فى حصار طرابلس فوراً ؛ وأقبل لمساعدته المسيحيون من الجهات القريبة مثل الجبل والسواد . ولكن يبدو أن ريموند سرعان ما أدرك صعوبة المهمة التى تنتظره وأن طرابلس ليست بالسهولة التى يظنها ، فقنع بما عرضه عليه صاحب طرابلس من جزية ، من المال والخيل ، وانسحب بعد ذلك إلى أنطرطوس (مارس ـ أبريل ١١٠٢) (١).

ريموند وإمارة حمص :

وبعد أن عقد ريموند الهدنة السابقة مع ابن عمار ، خرج فى ربيع سنة ١١٠٢ لغزو سهل البقاع حيث كانت ممتكات أمير حمص تمتد غرباً حتى جبل عكار . وقد بدأ ريموند أولا بمهاجمة حصن الطوبان ـ إلى الشمال الشرقى من حصن الأكراد ـ وذلك لأن ابن العريض مقدم حصن الطوبان أسر فارساً من ، أكابر فرسانة، ورفض إطلاق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال(٢) . وفى السنة نفسها ،١١٠٢، هاجم ريموند حصن الأكراد أيضا ، وهو حصن يمتاز بموقعه الحربى الفريد حيث أنه يشرف على كل الأقليم بين أنطرطوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى (٣). وكان ريموند قد سبق أن استولى على حصن الأكراد فى يناير سنة ١٠٩٩ ، ولكن أمير حمص عاد فاسترده . عندما سمع جناح الدولة صاحب حمص أن ريموند عاد إلى تهديد حصن الأكراد سنة ١١٠٢ ، أخذ يستعد ويجمع قواته للدفاع عنه ، عندما دهمه ثلاثة من الباطنية فى جامع حمص الكبير أثناء تأديته الصلاة ، وقتلوه غيلة فى مايو سنة ١١٠٢(٤).

ولاشك فى أن هذه الجريمة التى خلصت ريموند من ألد خصومه تعطينا فكرة واضحة عن مدى انحلال المحيط الإسلامى فى بلاد الشام عندئذ ، مما مكن الصليبيين من تحقيق أطماعهم وسهل عليهم الحصول على مكاسب كبيرة ما كانوا

(١) المرجع السابق، Raoul de Caen, p. 707
ويذكر ابن الأثير أنريموند عندما أنصرف من منطقة طرابلس إلى أنطرطوس فتح هذه المدينة الأخيرة . والحقيقة إن فتح أنطرطوس سبق زمنيا الموقعة بين ريموند من ناحية وقوات طرابلس وحمص ودمشق من ناحية أخري (حوادث ٤٩٥ هـ) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، وحوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(3) Stevenson, op. cit., p. 54.

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. pp. 525-526) وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .
ويروي صاحب مرآة الزمان أن أولئك الباطنية كانوا من العجم وأنهم اقتربوا من جناح الدولة وهم في زي الزهاد وأخذوا يدعون له ويستحثونه ثم ضربوه بسكاكينهم فخر قتيلاً .

ليحصلوا عليها بتلك السهولة لولا ذلك الانحلال فى صفوف خصومهم (١). والتاريخ لايتهم فى جريمة مقتل جناح الدولة سوى رضوان ملك حلب ، الذى ربطته به رابطة وثيقة . ذلك أن حناح الدولة كان متزوجا من أم رضوان ولكن النزاع دب بين الرجلين سنة ١١٠٠ ، مماجعل رضوان يستأجر ثلاثة من الباطنية العجم لتنفيذ جريمته الوحشية فى زوج أمه (٢).

ولم يكد ريموند يسمع بمقتل جناح الدولة صاحب حمص ، حتى أسرع بمغادرة حصن الأكراد واتجه صوب حمص ذاتها ، للاستفادة من حالة الاضطراب والقلق التى غدت فيها المدينة بعد مقتل صاحبها . وفعلا وصل ريموند إلى حمص «ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها (٣)»، فأرادت الخاتون ـ أرملة جناح الدولة ـ أن تستدعى إبنها رضوان صاحب حلب للدفاع عن حمص ؛ ولكن رجال جناح الدولة عارضوا ذلك الاتجاه ، وفضلوا أن يستنجدوا بدقاق ملك دمشق . وعندما أحس ريموند باقتراب دقاق ، أدرك أن قوته أصغر من أن تستطيع الوقوف بين نارين ، فقنع بما فرضه على حمص من جزية مالية وانصرف عنها . وهكذا وضع دقاق يده على حمص ، وأناب عنه فى حكمها أتابكة طغتكين (أيتكين)(٤).

أما عن ريموند الصنجيل فقد عاد أدراجه ليقوم بعملية حربية أخرى ناجحة . ذلك أنه انتهز فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية فى شتاء سنة ١١٠٣ واستغل تلك القوة البحرية فى مهاجمة طرابلس . وعندما فشل الصليبيون فى الاستيلاء على طرابلس « لم يروا فيها مطمعا »، واتجهوا جنوباً لمهاجمةجبيل (٥)، وهى قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت ، وكانت هى الأخرى تابعة لبنى عمار(٦) . ولم تستطع جبيل الصمود فى وجه الحصار البحرى الذى فرضه الجنوية ، والهجوم البرى من جانب ريموند ،

(١) ذكر أبو المحاسن أن سبب قتل ابن ملاعب جناح الدولة «أنه كان عند رضوان بن تتش ملك حلب منجم باطني ، فندب لقتل جناح الدولة هذا أولئك النفر ، ثم قتل المنجم بعد ذلك بأربعة عشر يوما» (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩ أما ابن الأثير وابن العديم فقد قالا في صراحة: «وقيل أن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله» .

(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٤٦) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ص ١٤٧ .

(٥) ابن الأثير : الكامل سنة ٤٩٧ هـ . Heyd : op. cit., I, pp. 139-141 & 158

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ .

فاضطرت إلى الاستسلام فى أواخر سنة ١١٠٤[1] . ويروى ابن الأثير أن الصليبيين لم يفوا بالأمان الذى منحوه لأهالى جبيل ، فأخذوا أموالهم واستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب [2] . أما الجنوية فقد كافأهم ريموند بإعطائهم ثلث جبيل ، مما مهد فيما بعد لأن تصبح جبيل ذاتها مستوطنة جنوية لها أهميتها تحت أشراف أسرة أمبرياتشى Embriaci [3] .

خاتمة ريموند الصنجيل :

وبالاستيلاء على أنطرطوس فى الشمال وجبيل فى الجنوب تم وضع الإطار الخارجى لإمارة طرابلس الصليبية ، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة ، وهى مدينة طرابلس ذاتها . ولكن هذه المدينة كانت محصنة تحصيناً طبيعيا يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها بسهولة ، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة ممتدة فى البحر ، مما مكن صاحبها ابن عمار من الحصول على مايحتاج إليه من مؤن عن طريق البحر فى حالة حصار مدينته براً. لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة أسماها المسلمون قلعة صنجيل (Saint - Gilles) نسبة إلى ريموند الصنجيل فى مواجهة طرابلس مباشرة ، أى على الجبال المقابلة لها ، وذلك لإحكام الرقابة عليها وقطعها عن العالم الداخلى . وأعانه فى بناء هذه القلعة الإمبراطور البيزنطى الذى أرسل إليه الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة لبنائها من جزيرة قبرص [4] .

وهكذا أصبح موقف ابن عمار فى طرابلس خطيراً ولم يعد أمامه طريق للاتصال بالعالم الخارجى سوى طريق البحر ، فى حين تكاتف المسيحيون المحليون ــ من الموارنة وغيرهم ــ مع ريموند فى إحكام الحصار المفروض على طرابلس [5] .

وتروى المصادر العربية أن بنى عمار حاولوا هدم قلعة صنجيل

(1) Albert d'Aix, p. 606 ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(3) Heyd : op. cit., I, p. 139.

وكان الأسطول الجنوي الذي ساعد ريموند في الاستيلاء علي جبيل بقيادة أمير البحر هيوامبرياتشي .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٩ هـ . Guillaume de Tyr, I, p. .

(٥) المصدران السابقان .

(أغسطس ـ سبتمبر ١١٠٤) وإشعال النار فيها ، ولكنهم لم يحققوا غرضهم (١). وكل ما هنالك هو أن ريموند أصيب بجروح نتيجة لسقوط بعض أجزاء القلعة المشتعلة عليه . ويشير صاحب مرآة الزمان إلى أن ريموند توفى بعد أن عقد هدنة مع ابن عمار تقضى بأن يكون للأول ، ظاهر طرابلس دون أن يقطع الميرة والمسافرين عنها ، ولكن هذا الرأى الأخير لا يوجد ما يدعمه فى المصادر الصليبية ، فضلا عن بقية المصادر العربية (٢).

ومهما يكن من أمر ، فان ريموند لم يلبث أن توفى فى قلعة صنجيل فى نهاية فبراير سنة ١١٠٥ متأثرا بجروحه ، قبل أن يحقق أمنيته فى الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام تشابه أنطاكية أو بيت المقدس ، يتخذها مركزاً لإمارة جديدة لنفسه . وإذا كانت مدينة طرابلس ذاتها لم تسقط فى يد ريموند إلا أنه صاحب الفضل فى تأسيس إمارة طرابلس ووضع إطارها العام وتسهيل مهمة الاستيلاء عليها أمام خلفائه .

وقد شاءت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط فى أيدى الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية فى بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين فى أواخر القرن الثالث عشر . فالرها التى سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٨ عادت إلى المسلمين سنة ١١٤٤ ، وبيت المقدس التى استولى عليها الصليبييون سنة ١٠٩٩ استردها المسلمون سنة ١١٨٧ ، وأنطاكية التى غواها الصليبيون سنة ١٠٩٨ استعادها المسلمون سنة ١٢٦٨ . أما طرابلس التى لم تقع فى أيدى الصليبيين إلا سنة ١١٠٩ ، فقد ظلت باقية فى قبضتهم حتى سنة ١٢٨٩(٣).

(١) ابن الأثير: الكامل ، حوادث ٤٩٩ هـ .

(٢) سبط الجوزي : مرآة الزمان (ص ٥٢٨) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 344 - 345.

الفصل الثالث

أعمال وليم جوردان

وليم جوردان وحصار طرابلس :

ترك ريموند الصنجيل ابنه الأكبر برتراند يحكم أملاكه فى الغرب الأوربى (تولوز) ؛ فى حين اختار أفصال ريموند وفرسانه فى الشام ابن خالته وليم جوردان ليتابع سياسته فى الشرق. وكان أن استأنف وليم سياسة ريموند بجميع أركانها، فاحتفظ بالعلاقات الطيبة مع البيزنطيين من جهة، واستمر فى إحكام الحصار البرى حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل من جهة أخرى (١). ودليل ذلك كله ما يرويه ابن الأثير من أن الإمبراطور البيزنطى أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة الى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس، فحملوها فى البحر (من قبرص) (٢). وقد دارت عندئذ معركة بحرية بين السفن البيزنطية وسفن ابن عمار، أسرت فيها سفينة بيزنطية واقتادها المسلمون إلى ميناء طرابلس (٣).

على أن ابن عمار وجد نفسه فى حاجة الى معونة خارجية عاجلة لمقاومة حصار وليم جوردان، وبخاصة بعد أن ساءت أحوال طرابلس وارتفعت أسعار الطعام فيها ارتفاعاً فاحشاً وهجرها الفقراء، وافتقر الأغنياء، وفشلت جهود فخر الملك ابن عمار فى تخفيف حدة الأزمة (٤). ولما كان ابن عمار لا يستطيع طلب هذه المعونة من طغتكين أتابك دمشق وحمص بسبب ما وقع بين الطرفين من خلاف وعداء، أو من الفاطميين الذين يرغبون فى انتزاع طرابلس لانفسهم من بنى عمار، فإنه لم يبق سوى الأمير الأسبق لبيت المقدس وهو سكمان بن أرتق التركمانى الذى أصبح عندئذ صاحب حصن كيفا فى ديار بكر. وكان أن تحرك سكمان فعلا لنجدة طرابلس ولكنه لم يلبث أن توفى فى الطريق، وبذلك انقطع آخر أمل تعلق به بنو عمار للحصول على معونة خارجية تمكنهم من إنقاذ طرابلس (سنة ١١٠٥) (٥).

---

(1) Runciman : op. cit., II, p. 62 .

(٢) ابن الاثير : الكامل . حوادث سنة ٤٩٩ هـ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠ – ١٦٣ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتى ٤٩٨ هـ ، ٤٩٩ هـ .

وهكذا ضاقت دائرة الحصار حول طرابلس، فاضطر أهلها إلى بيع ما لديهم من الحلى والأوانى الغريبة لشراء ما يلزمهم من قوت، فى حين آثر بعضهم الفرار إلى صفوف الفرنجة (١). ومع ذلك فقد استمرت المدينة تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل قوة عزيمة ابن عمار من ناحية، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحرى يحكم الحصار على طرابلس من ناحية البحر من ناحية أخرى (٢). ويبدو أن ثراء طرابلس وكثرة ما فيها من ذهب وفضة، ثم استعداد أهلها فى محنتهم لدفع الأثمان الباهظة مقابل القليل من الغذاء، ساعد كل ذلك على تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرص البيزنطية، بل من إمارة أنطاكية الصليبية وجزائر البنادقة (٣).

وإزاء إصرار الصليبيين على حصار طرابلس، اضطر فخر الملك ابن عمار إلى السفر فى ربيع سنة ١١٠٨ إلى بغداد لطلب النجدة من زعيمى العالم الإسلامى فى المشرق، وهما الخليفة المستظهر العباسى (١٠٩٤ - ١١١٠) والسلطان محمد السلجوقى (١١٠٤ - ١١١٧) (٤). وقد أناب فخر الملك عنه فى حكم طرابلس ابن عمه ذو المناقب ابن عمار، ودفع مرتبات الجند لستة أشهر مقبلة، ثم اتجه الى بغداد حاملا معه الهدايا الفاخرة للعاهلين العباسى والسلجوقى (٥). وتلقى رواية ابن الأثير عن رحلة ابن عمار إلى بغداد ضوءاً ساطعاً على مدى تفكك المسلمين فى المشرق عندئذ، وانحلال الخلافة العباسية، فضلا عن ضعف السلطنة السلجوقية، إذ لم يجد ابن عمار من الطرفين سوى الكلمات المعسولة والسؤال عن حالة وما يعانيه فى مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر فى قتالهم ؛ ولكنه لم يظفر بشىء من المعونة المنشودة (٦).

وهكذا لم يسع ابن عمار سوى أن ينصرف عائداً الى إمارته فى أغسطس سنة ١١٠٨ بخفى حنين ؛ ولكنه لم يكد يصل إلى الشام حتى سمع أن طرابلس نفسها قد طارت من يده أثناء غيابه. ذلك أن أهل طرابلس عندما ضاق بهم الحال أرسلوا إلى الوزير الأفضل الجمالى فى القاهرة يطلبون منه حماية الدولة الفاطمية

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(2) Setton; op. cit., p. 396.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠ .

(5) Stevenson : op. cit., p. 56 .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ .

لهم ؛ ويعرضون عليه تسلم المدينة للدفاع عنها، فأرسل إليهم شرف الدولة ابن أبى الطيب واليا سنة ١١٠٨ «ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون إليه أهل البلاد فى الحصار». فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجده من آلاته وذخائره وغير ذلك وحمل الجميع إلى مصر فى البحر. وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بنى عمار وآلت إلى الفاطميين (١). ولم يبق لابن عمار بعد ذلك سوى جبلة، وهى قلعة صغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب، وكان القاضى فخر الملك أبو على بن عمار قد استولى عليها سنة ٤٩٤ هـ (١١٠١م) (٢).

ولكن إذا كان الفاطميون قد حققوا أمنيتهم فى إمتلاك طرابلس إلا أنهم كانوا أضعف من أن يستطيعوا حماتها. ويعبر أبو المحاسن عن ذلك بالتنديد بعدم اكتراث الفاطميين بالفرنج من كل وجه وتقاعدهم عن المسير (٣).

ولم يلبث أن كثر الطامعون فى حطام إمارة بنى عمار، فبينما فاز الفاطميون بمدينة طرابلس ذاتها ؛ إذا بطغتكين أتابك دمشق يسعى للاستيلاء على عرقة الواقعة شمالى طرابلس. والمعروف أن حصن عرقة كان من الحصون المنيعة (٤)، ويتمتع بموقع حربى هام لأنه بمثابة الباب الشمالى لطرابلس، ويؤدى استيلاء الدماشقة عليه إلى قطع الطريق على الصليبيين بين أنطرطوس (طرطوس) وطرابلس (٥).

وكان فخر الملك أبو على بن عمار فى أواخر أيام حكمه قد عهد بقلعة عرقة إلى أحد رجاله. ولكن هذا الغلام طمع فى الاستقلال بعرقة وعصى على مولاه. وفى الوقت نفسه لم يستطع الصمود فى وجه وليم جوردان فعرض على طغتكين أن يعطيه إياها، وبعث إليه يقول «أرسل من يتسلم هذا الحصن منى، قد عجزت عن حفظه، ولأن يأخذه المسلمون خير إلى دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج». ولذلك أرسل طغتكين على الفور ثلثمائة من رجاله إلى عرقة تحت رئاسة رجل اسمه إسرائيل (٦).

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة سنة ٥٠٢ هـ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(5) Stevenson : op. cit., p. 56 .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

وعندما خرج طغتكين من دمشق فى مارس سنة ١١٠٨ للقيام بعدة هجمات على القلاع الصليبية القريبة، ولزيارة حصن عرقة والاطلاع عليه وتقويته بالعساكر والأقوات وآلات الحرب ؛ تصدى له وليم جوردان، فلاذ الدماشقة بالفرار، وعلى رأسهم طغتكين نفسه، وظل وليم يطاردهم حتى مشارف حمص، ثم عاد متجهاً صوب شيزر. وقد حاول الأخوان مرشد وسلطان – أميرا شيزر – الإيقاع بوليم جوردان وأسره، ولكنه انتصر عليهما [١]. وهكذا عاد وليم بعد ذلك النصر المزدوج ليستولى على عرقة التى سقطت بعد حصار ثلاثه أسابيع (إبريل سنة ١١٠٨) ويروى بعض المؤرخين الصليبيين أن حاميه عرقة عندما يئست من المقاومة فرت ليلا وتركت القلعة خالية ليحتلها الصليبيون فى الصباح التالى[٢] ؛ فى حين يؤكد ابن الأثير أن أهل عرقة طلبوا الأمان، فأمنهم (جوردان) على نفوسهم [٣].

(١) أسامة بن منقذ : الأعتبار ؛ ص ٥٠ ويطلق أسامة وابن الأثير علي وليم جوردان إسم «السرداني» .

(2) Albert d'Aix, p. 668.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

الفصل الرابع

برترام وظهور إمارة طرابلس

التنافس بين وليم جوردان وبرترام :

ظل وليم جوردان أكثر من ثلاث سنوات يواصل جهوده الصليبية على ساحل الشام ، مؤملا أن يتوج تلك الجهود بالاستيلاء على طرابلس نفسها . ولكنه قبل أن يتمكن من تحقيق تلك الأمنية تعرض لمنافس خطير وصل إلى الشام لينتزع منه تلك الإمارة الصليبية الجديدة التى أوشكت أن تولد . ولم يكن هذا المنافس سوى برترام (براترند) الإبن الأكبر لريموند الصنجيل ، وصاحب الحق الشرعى فى تركة أبيه [١] .

وكان برترام قد أعد العدة لرحلته إلى الشرق ، وعمل حساب ماقد يواجهه من مصاعب ، فخرج من بلاده - بروفانس - على رأس أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول قوى من أربعين سفينة . ويبدو أن برترام اتجه إلى الشام وقد وضع فى برنامجه ضرورة الإستيلاء على مدينة طرابلس ، لأنه حرص فى طريقة من الغرب على أن يمر بجنوة حيث أجرى مباحثات عن الشروط التى تقبل بها جنوة مساعدته فى تحقيق أغراضه [٢] . هذا فى الوقت الذى كان وليم جوردان من ناحية أخرى قد أدرك ضرورة الحصول على مساعدة إحدى القوى البحرية الإيطالية للاستيلاء على طرابلس ، فأرسل هو الآخر سفيراً إلى جنوة للغاية ذاتها . ولكن وجود برترام نفسه فى جنوة جعله يكسب الجولة ، فتعهدت له جنوة بأن تساعده فى الحصول على تركة أبيه فى الشام من ناحية وفى الاستيلاء على طرابلس من الفاطميين من ناحية أخرى ، مقابل تعهد برترام بمنح الجنوية امتيازات تجارية واسعة فى طرابلس [٣]. وهكذا أبحر برترام من جنوة إلى الشرق وبصحبته أسطول جنوى قوى مؤلف من ثمانين سفينة . وعندما مرت هذه الحملة

---

(١) خلف برترام أباه ريموند الصنجيل في إمارة تولوز كما سبق أن ذكرنا . ولكن حق برترام في وراثة أبيه ظل مزعزعاً لأنه كان ابناً غير شرعي له . وكان لريموند ابن آخر شرعي صغير السن هو الفونسو جوردان ، فاستدعاه أهل تولوز وأمروه عليهم ، وتم الاتفاق بين الأخوين ١١٠٨ علي أن يرث الفونسو أباه في ممتلكاته الغربية ، في حين يرث برترام أباه في ممتلكاته بالشام . أنظر

Runciman : op. cit., II, pp. 61, 64 - 65 .

(2)Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 352 .

(3) Heyd : op. cit., I, p. 140.

بالدولة البيزنطية، رحب الإمبراطور الكسيوس كومنين ببرترام ابن حليفة ريموند، وأكرم وفادته فى القسطنطينية وقدم له كثيراً من الهدايا . وفى مقابل كل ذلك أقسم برترام يمين الولاء للامبراطور ، مجدداً الحلف بين أمراء بروفانس والإمبراطورية البيزنطية(١).

على أن الأسطول البروفنسالى - الجنوى لم يتجه نحو أنطرطوس مباشرة ، وإنما اختار برترام أن ينزل فى ميناء السويدية حيث قابل تنكرد أمير أنطاكية . وقد طلب برترام من تنكرد إعطائه نصيب أبيه ريموند فى أنطاكية ، فأجاب تنكرد بأنه مستعد لبحث هذا الموضوع بشرط أن يساعده برترام فى الحملة التى يوشك تنكرد القيام بها ضد مدينة المصيصة فى قليقية ، لاستردادها من البيزنطيين (٢). وعندئذ تذكر برترام عهده للامبراطور البيزنطى ، فرفض الموافقة على هذا الشرط ، الأمر الذى استثار غضب تنكرد ، فطلب منه الرحيل فوراً ، وألا تطأ قدمه بعد ذلك أرض إمارة أنطاكية (٣).

وهكذا أبحر برترام ومعه حلفاؤه الجنوية نحو أنطرطوس ، التى كانت حتى ذلك الوقت أهم مركز فى ممتلكات أسرة ريموند بالشام . وعندما طالب برترام قريبة وليم جوردان بتسليمه تركة أبيه من المدن والبلاد ، رد الأخير بأن هذه البلاد جميعاً من حقه وحده ، لأنه هو الذى ظل يدافع عنها - بعد وفاة ريموند - قرابة أربع سنوات ، ولولاه لضاعت تلك البلاد بين المسلمين من ناحية والنورمان فى أنطاكية من ناحية أخرى . هذا بالإضافة إلى أنه - أى وليم - ضاعف تلك التركة بالاستيلاء على عرقة وحصن عكار (٤). وبذلك تعقد الموقف بين وليم جوردان من ناحية وبرترام من ناحية أخرى ، مما جعل الأول يستنجد بتنكرد بعد أن تعهد بأن يصبح تابعاً له ، فوعده تنكرد بالحضور على رأس قواته إلى أنطرطوس للاشتراك مع وليم فى طرد برترام (٥).

على أن برترام لم يتنظر وصول تنكرد ، وإنما ترك أنطرطوس واتجه على رأس قواته - وصحبته الأسطول الجنوى - إلى طرابلس ليحاصرها براً وبحراً . وفى الوقت نفسه أرسل برترام رسالة عاجلة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس

(1) Albert d'Aix, p. 664 .
(2) Runciman : op. cit., II, p. 66 .
(3) Albert d'Aix, pp. 665 - 666 .
(4) Foucher de Chartres, p. 419.
(5) Setton : op. cit., I, p. 397.

يخبره بتحالف وليم جوردان وتنكرد ضده لحرمانه من تركة أبيه ، ويطلب إليه الحضور على عجل لمساعدته ،مع تعهده بالولاء والتبعية لمملكة بيت المقدس (١).

ولم يكن بلدوين الأول بالرجل الذى يترك تلك الفرصة تفلت من يده ، وهو الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطة عليا تهيمن على جميع الإمارات الصليبية ببلاد الشام . لذلك أسرع بإنفاذ رسولين إلى تنكرد ووليم جوردان لإحاطتهما علماً بأن برترام تحت رعاية الملك بلدوين نفسه وحمايته ، ويحذرهما من القيام بأى عمل عدوانى ضده ، ثم اختتم الملك رسالته إليهما بدعوتهما إلى الحضور لمقابلته أمام طرابلس للنظر فى رد تركة ريموند إلى ابنه برترام (٢). ولم يلبث أن خرج بلدوين الأول على رأس خمسمائة من فرسانه قاصداً طرابلس حيث التقى به برترام ، وأقسم له يمين الولاء . أما وليم جوردان فذهب إلى تنكرد وأراد أن يستحثه على القتال ، ولكن الأخير هدأ من ثورته ، وصحبه إلى طرابلس حيث لحق بهما بعد قليل بلدوين دى بورج أمير الرها (٣).

وهكذا التقى جميع زعماء الصليبيين بالشام وشمال العراق فى قلعة صنجيل أمام طرابلس ، حيث عرض النزاع بين برترام ووليم جوردان على بساط البحث . وفى ذلك الموقف أظهر الملك بلدوين الأول براعة وحكمة فى تسوية الخلافات بين صفوف الصليبيين ، فتم الصلح بين تنكرد وبلدوين دى بورج ، كما تم الصلح بين برترام ووليم جوردان (٤). وقد قام الصلح الأخير على أساس تقسيم تركة الأمير ريموند بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرْقة وأنطرطوس ، فى حين أخذ برترام قلعة صنجيل وجبيل ، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها . وتقرر أنه إذا مات أحدهما دون ولد فإن الآخر يرثه فى ممتلكاته (٥).

استيلاء الصليبيين على طرابلس :

وكان النجاح فى الوصول إلى الاتفاقية السابقة إيذاناً بتوجيه جهود الصليبيين ضد طرابلس ، تلك المدينة التى ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة . ولم يكن بوسع طرابلس فى تلك المرة أن تقاوم فرسان بيت المقدس

(1) Albert d'Aix, p. 666.
(2) Runciman : op. cit., II, p. 68 .
(3) Grousset : op. cit., I. pp. 355 - 356 .
(4) Stevenson : op. cit., p. 57 .
(5) Albert d'Aix, p. 668 & Guillaume de Tyr, p. 466 .

وبروفانس وأنطاكية ، والرها مجتمعين ، فى الوقت الذى أخذ الأسطول الجنوى الكبير يحكم الحصار عليها من ناحية البحر [1]. ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت إجراءاً سريعاً عندئذ لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ، ولكن الأسطول الذى أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظراً فى موانى الدلتا لحين صدور تعليمات بشأن الخلاف بين قادته ؛ فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت مسيرته . وفى تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس «وسقط فى أيديهم، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة» [2]. وأخيراً أبحرت العمارة الفاطمية نحو طرابلس بعد فوات الأوان ، ولم تكد تصل إلى ميناء طرابلس «حتى وجدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كما هم » [3].

وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ويلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ، ثم يحدد مظاهر عدم الإكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : الأول تقاعدهم عن المسير تلك المدةالطويلة ؛ والثانى ضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة ، لدفع الفرنج من البحر عن البلد ؛ والثالث عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكرالمصرية . «هذا مع قوتهم (الفاطميون) من العساكر والأموال والأسلحة » [4].

والواقع أن أهل طرابلس عندما وجدوا أنفسهم وحيدين أمام مجموعة من الأعداء ، واضطروا إلى التفكير فى الإستسلام ، طلبوا أن يكون استسلامهم للملك بلدوين الأول والأمير برترام ، بشرط عدم الاعتداء على حياة من يرغب من الخروج من المدينة وعلى ممتلكات من يرغب البقاء فيه [5]. وقد قبل الملك بلدوين تلك الشروط السابقة ، وسمحوا للقائد الفاطمى - على قول ابن الأثير - بمغادرة المدينة ومعه فريق من رجاله ، وأمن الصليبيون طريقهم إلى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٧٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) المرجع السابق ، ويذكر أبو المحاسن أن الأسطول الفاطمي حضر بعد تأخير «وصار كلما سار نحو البلدة رده الفرنج إلي نحو مصر ، حتي تمكن من الوصول إلي طرابلس أخيراً فوجدها قد أخذت .(أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩ .

(5) Guillaume de Tyr, p. 468.

دمشق(1) . ولكن ذلك لم يمنع ابن الأثير من الإشارة إلى ما ارتكبه الصليبيون داخل طرابلس من حوادث النهب (2) . ولعل تفسير هذا التناقض فى مسلك الصليبيين إنما يبدو فى أن بلدوين ورجاله دخلوا المدينة من جانب فاحترموا شروط الصلح ولم يتعرضوا لأملاك المسلمين وأرواحهم ؛ فى حين أن الجنوية دخلوا المدينة فى الوقت نفسه من جانب آخر فأتوا من أعمال السلب والعنف ما أشار إليه ابن الأثير (3) .

الجنوية وامتيازاتهم التجارية :

ولم تكد طرابلس تسقط فى أيدى الصليبيين حتى طالب الجنوية بالثمن ، بعد المساعدة الكبيرة التى قدموها لهم . وقد سبق أن رأينا كيف أعطى ريموند الصنجيل الجنوية ثلث جبيل مقابل مساعدتهم له ؛ وبذلك أصبحت هذه المدينة الصغيرة مستوطنة جنوية . وقد عين لحكم هذه المستوطنة أحد أمراء الأسطول الجنوى – اسمه هيو امبرياتشو – الذى لم يلبث أن حصل من جنوة على حق الحكم الوراثى فى جبيل ، مع تعهده بدفع المال اللازم لحكومة جنوة (4) .

وعندما مات هيو سنة ١١٣٥ تعاقبت سلالته فى حكم جبيل . وليست هناك أهمية خاصة لهؤلاء الحكام الجنوية الذين توارثوا تلك المدينة سوى أنهم أخذوا يبتعدون تدريجياً عن أصلهم الإيطالى ونزعتهم التجارية ، ويندمجون فى الوسط الفرنجى البروفنسالى المحيط بهم ، حتى أصبحوا مجرد أفصال تابعين لأمراء طرابلس (5) . وساعد على ذلك أن حكام جبيل من بيت امبرياتشو الجنوى ارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع البيوت الصليبية فى المدن المجاورة – مثل نابلس

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٢) «إذ نهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة مالا لايحصي ، فإن أهلها كانوا أكثر البلاد أموالا وتجارة» .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ) .

أما أبو المحاسن فيقول : « ... وهجموا علي طرابلس فأخذوها ونهبوا وأسروا رجالها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالها وذخائرها ، وكان فيها مالايحصي ولايحصر ، وأقتسموها بينهم» . (النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ١٨٠) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 358 .

(4) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p. 420 .

(5) Heyd : op. cit., I, pp. 162 - 163 .

وطرابلس وأنطاكية – مما أدى إلى ذوبان تلك الأسرة الجنوية فى المحيط الصليبى الواسع الذى يحف بها . ولا أدل على نسيان حكام جبيل لأصولهم الجنوية وتنكرهم لمصالح جنوة ذاتها ، من أنهم منحوا سنة ١٢١٧ امتيازاً تجارياً للبنادقة فى جبيل [١].

أما عن نصيب الجنوية فى طرابلس مقابل ماقدموه من مساعدات فى فتحها ، فقد «تقرر بين الافرنج والجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من البلد ومانهب ، والثلثان لريموند بن صنجيل ، وأفردوا للملك بغدوين من الوسط مارضى به » [٢].

توحيد إمارة طرابلس :

إتخذ برترام لقب أمير طرابلس ، وحرص على تأكيد تبعيته لملك بيت المقدس . وفى الوقت نفسه تناسى وعوده العريضة للامبراطور البيزنطى [٣]. على أن إمارة طرابلس ولدت ممزقة ، وأخذت تعانى من ذلك التمزق مالم تعانية إمارة أخرى من الإمارات الصليبية ببلاد الشام ؛ لأن معنى استيلاء برترام على مدينة طرابلس واستيلاء وليم جوردان على أنطرطوس وعرقة ، هو تقطيع أوصال الإقليم الواحد ، مع ما ينتج عن ذلك من ضعف وحزازات . هذا إلى أن اختلاف اتجاهات الحاكمين وتوزيع ولائهما توزيعاً متضاداً زاد من حدة الفرقة والانقسام ؛ لأنه بينما اعترف برترام أمير طرابلس بالتبعية لملك بيت المقدس ، إذا بوليم جوردان صاحب أنطرطوس وعِرْقة يقدم ولاءه لأمير أنطاكية . وجميع تلك الظواهر – وغيرها – كانت بدون شك لاتبشر بخير ، وأنذرت بالصدام بين الرجلين الذين اقتسما أملاك بيت ريموند الصنجيل فى الشرق .

ولكن شاء حسن حظ إمارة طرابلس الصليبية أن ينتهى ذلك الوضع بمقتل وليم جوردان بيد أحد رجاله فى ظروف غامضة أشارت إليها المصادر الصليبية إشارة مقتضبة غير واضحة [٤]. وهكذا ضم برترام جميع الممتلكات البروفنسالية فى الشام تحت سيادته ، وأصبحت إمارة طرابلس إمارة كبيرة مترابطة لاتقل عن

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 359 - 360 .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ .

(3) Runciman : op. cit., II, p. 69 .

(4) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p. 470 .

إمارة الرها وأنطاكية فى أهميتها ، ويحكمها برترام بن ريموند الصنجيل مؤسس الإمارة ، وهو الذى ربطته علاقات وثيقة بملك بيت المقدس . أما تنكرد - الذى «قامر على الحصان الخاسر» - فلم يعد له نقوذ إطلاقاً فى إمارة طرابلس الجديدة بعد مقتل حليفه (١).

استيلاء الصليبيين علي بانياس وجبلة وحصن الأكراد :

وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين استيلاؤهم على ماتبقى من المعاقل الإسلامية على شاطيء الشام . من ذلك أن تنكرد احتل فى طريق عودته من حصار طرابلس مدينة بانياس التى لم تبد سوى مقاومة ضعيفة مما جعل تنكرد لا يتعرض لأرواح أهاليها (٢).

ومن بانياس زحف تنكرد على جبلة التى أوى إليها أمير طرابلس السابق فخر الملك عمار ، كما سبق أن أشرنا . ولم تستطع جبلة هى الأخرى أن تقاوم حصاراً طويلاً «وكان القوت فيها قليلاً» ، فاضطر ابن عمار إلى تسليمها فى يوليو سنة ١١٠٩ وقد سمح تنكرد لابن عمار أن يخرج سالماً إلى شيزر ومنها إلى دمشق، حيث أشفق عليه طغتكين «وأقطعه الزبدانى وأعماله» (٣). وهكذا أضحت بانياس وجبلة أجزاء من إمارة أنطاكية الصليبية .

أما فى داخلية البلاد فيروى لنا ابن القلانسى أن الصليبيين من أتباع برترام زحفوا فى السنة السابقة نفسها (١١٠٩ - ١١١٠) على رفنية شرقى أنطرطوس . على أن طغتكين عندما سمع بذلك أسرع من دمشق للدفاع عن تلك القلعة ، واكتفى مؤقتاً بأن عسكر على رأس قواته قرب حمص لمراقبة الأمور ؛ «فلم يقدروا (الصليبيون) على منازلة رفنية» (٤). وكان أن أنتهى الموقف بعقد اتفاق ودى بين طغتكين والصليبيين ، وافق بمقتضاه الطرف الأول على أن يستولى الصليبيون - برترام -على ثلث دخل البقاع ، فضلا عن حصنى المنيطرة وابن

---

(1) Runciman : op. cit., II, p. 69.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .
ابن القلانسي ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .
وقد أخطأ ابن الأثير فقال : إن تنكرد إستولي في تلك السنة علي جبيل من المسلمين ، والحقيقة إنها جبلة أما جبيل فاستولي عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ كما مر بنا ، وتم ذلك علي يد ريموند الصنجيل لاتنكرد .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 537) .

عكار(١) . ولاشك فى أن استيلاء الصليبيين على هذين الحصنين الأخيرين أمر له أهميته ، لأن المنيطرة تسيطر على الطريق بين جبيل وبعلبك ، فى حين أن سيطرتهم على حصن ابن عكار تمكنهم من الإشراف على الطريق بين عرقة وحمص . وفى مقابل ذلك كله تعهد برترام أمير طرابلس بعدم الاعتداء على مصياث وحصن الطوفان وحصن الأكراد ، وكان الأخير تابعاً لقراجا صاحب حمص .

على أن الصليبيين لم يحافظوا على كلمتهم مدة طويلة ، إذ لم يلبث تنكرد صاحب أنطاكية أن استولى على حصن الأكراد سنة ١١١٠ أثناء قيامه بغارة على شيزر (٢) . ومن الواضح أن حصن الأكراد بحكم موقعة كان يجب أن يتبع إمارة طرابلس لا أنطاكية ؛ ولذلك لم يلبث تنكرد أن تخلى عنه للأمير بونز ، الذى خلف أباه برترام فى حكم طرابلس سنة ١١١٣ . ومنذ هذه السنة ظل حصن الأكراد تابعاً لإمارة طرابلس حتى أعطاه ريموند الثانى أمير طرابلس للفرسان الاسبتارية سنة ١١٤٢ (٣) .

سياسة بونز أمير طرابلس :

أما عن العلاقات بين الصليبيين بعضهم وبعض فى تلك الفترة ، فأهم مايميزها التقارب الشديد بين الوحدات الصليبية الأربع فى الشرق الأدنى ، وهى الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، حتى أن تاريخها فى الفترة التى أعقبت سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين جرى فى إتجاه واحد (٤) وقد ظهر ذلك التقارب عندئذ أشد مايكون وضوحاً بين أمراء طرابلس وأنطاكية،حتى أن برترام أرسل ابنه وخليفته بونز إلى بلاط غريمه القديم تنكرد فى أنطاكية ، ليتلقى هناك تعاليم الفروسية وآدابها . ويقال إن بونز تعلق فى تلك الفترة بغرام سيسيل – زوجة تنكرد الشابة – حتى إذا ما توفى تنكرد فى ١٢ ديسمبر ١١١٢ ، تزوج بونز من أرملته سيسيل على الفور (٥) . ولاشك فى أن هذه الزيجة كان لها أثرها الخطير من الناحية السياسية إذ ربطت بين الأسرتين الحاكمتين فى طرابلس وأنطاكية .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 537) .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ سبط بن الجوزي ، (p. 536) .

(3)King : the Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 36 .

(4) Setton : op. cit., I, p. 421.

(5) Guillaume de tyr, I, p. 483 & Albert d'Aix, p. 701 .

وفى الوقت نفسه ، لم يتخل بونز عن علاقته الودية مع ملك بيت المقدس ، فرافقه سنة ١١١٥ لصد الأتابك برسق عندما هدد الأخير إمارة أنطاكية [١].

هذا عن سياسة بونز أمير طرابلس تجاه القوى الصليبية المجاورة . أما عن سياسته تجاه المسلمين ، فقد اتبع الخطة التى وضعها أسلافه بخصوص مهاجمة ممتلكات دمشق وحمص ، وذلك على حدود دولته فى الاتجاه الشرقى . من ذلك مايرويه ابن الأثير من أن الصليبيين استولوا سنة ١١١٥ على رفنية ، وهى من أملاك طغتكين صاحب دمشق «وبالغوا فى تحصينها» . ولكن ابن الأثير يضيف أن طغتكين لم يلبث أن حضر بنفسه واقتحم رفنية واستردها من الصليبيين بعد أن «أخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً فقتل البعض وترك البعض ، وغنم المسلمون من دوابهم وكراعهم وذخايرهم ما امتلأت به أيديهم وعادوا إلى بلادهم سالمين» [٢].

أما الحصن الثانى للصليبيين فى أقليم البقاع فكان حصن بعرين الذى شيده بونز أمير طرابلس حوالى ذلك الوقت . وهناك إشارات فى المصادر الصليبية تفيد أن برسق استطاع أن يستولى على ذلك الحصن من الصليبيين سنة ١١١٥ . على أن الصليبيين لم يلبثوا أن استردوا رفنية وحصن بعرين ، فهاجم بونز رفنية واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى نهاية مارس سنة ١١٢٦ وذلك بعد حصار بضعة أيام [٣]. أما قلعة بعرين فقد استولى عليها أيضاً بونز بعد ذلك بقليل ، بدليل ما تواتر فى المصادر من أن بعرين كانت سنة ١١٣٢ إحدى القلاع المنيعة التابعة لإمارة طرابلس .

وخلاصة القول إن إمارة طرابلس ظلت فى نمو حتى بلغت أقصى اتساعها سنة ١١٣٢ عندما صارت تمتد من المرقب شمالاً حتى نهر الكلب جنوباً ، ومن شاطىء البحر المتوسط غرباً حتى بعرين ورفنية وحصن الأكراد وعكار شرقاً . ومنذ ذلك الوقت وتاريخ إمارة طرابلس مرتبط إلى حد كبير بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى ، مما يجعلنا نعرض له أثناء كلامنا عن هاتين الوحدتين [٤].

(1) Albert d'Aix, p. 701 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ .
سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (pp. 555, 557) .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 367 - 368 & Foucher de Chartres p. 480.

الباب السابع
إمارة أنطاكية والبيزنطيون

" إن هؤلاء لشرذمة قليلون
وإنهم لنا لغائظون. وإنا
لجميع حاذرون".

(الشعراء : ٥٤ – ٥٦)

الفصل الأول

بوهيموند وتأسيس إمارة أنطاكية

مشكلتا أنطاكية واللاذقية سنة ١٠٩٩ :

رأينا كيف إتجه زعماء الحملة الصليبية الأولى جميعاً صوب بيت المقدس فى يناير سنه ١٠٩٩، عدا بوهيموند الذى ظل باقياً فى أنطاكية، وبلدوين البولونى الذى إستقر في الرها. ومهما يقال فى أن هذين الأميرين إنما إختارا ألا يصحبا بقية الزعماء الصليبيين حرصاً على مصالحهما الخاصة ورغبة فى الإحتفاظ بالمكاسب التى حققاها، وطمعاً فى إنشاء إمارتين مستقلتين إحداهما فى أنطاكية والأخرى فى الرها، فإنه ينبغى أن نعترف بأن بقاء هذين الأميرين فى شمال الشام والعراق جاء عظيم الفائدة بالنسبة للصليبيين فى فلسطين، لأنه حمى ظهورهم من خطر السلاجقة أثناء زحفهم على بيت المقدس. ونستطيع أن نتصور مدى الخطر الذى كان من الممكن أن يتعرض له الصليبيون لو أنهم إستمروا يستولون على المدن والبلاد الإسلامية ليتركوها خلفهم دون حماية كافية، ويتابعون سيرهم نحو بيت المقدس غير عابئين بالإحتفاظ بسلامة خطوط مواصلاتهم وتأمين ظهورهم. ولاشك فى أن النتيجة الوحيدة لهذه السياسة كانت ملاحقة السلاجقة للصليبيين وإستردادهم ما إستولى عليه الصليبيون من مدن، ثم حصر الجموع الصليبية فى نهاية الأمر فى منطقة بيت المقدس والفتك بهم بعد أن يكون الإعياء قد إستبد بهم بسبب مشقة الطريق (١). وعندئذ لا يجد الصليبيون مخرجاً أو منفذاً، فالطريق وراءهم قد قطع، وصحراء سيناء أمامهم، وبادية الشام عن يسارهم، والبحر عن يمينهم. ولكن بقاء بوهيموند فى شمال الشام وبلدوين فى شمال العراق جاء بمثابة إقامة حراسة صليبية قوية على الأبواب الشمالية لطريق بيت المقدس، فإستطاع بقية الصليبيين بفضل هذه الحراسة أن يزحفوا فى إطمئنان نحو المدينة المقدسة، وأن يتفرغوا لما عساه أن يبديه الفاطميون من مقاومة، دون أن يعملوا حساباً كبيراً لطعن السلاجقة لهم من الخلف.

على أنه إذا كان بوهيموند قد أحس بإرتياح لإبتعاد ريموند الصنجيل عن انطاكية (٢) ، فليس معنى ذلك أن بوهيموند اطمأن تماماً لملكية أنطاكية. ذلك أن

---

(1) Grousset : Hist des Croisades,I, p. 299.
(2) Albert d' Aix, p. 448.

مدينة أنطاكية كانت أغنى المدن الصليبية جميعاً فى الشرق الأدني، بفضل ما إمتازت به من موقع فريد جعلها واسطة التجارة بين حلب وإقليم الجزيرة من ناحية والغرب الأوربى من ناحية أخري، فضلاً عما إشتهرت به من صناعات الأقمشة والسجاد والزجاج والخزف (1). لذلك لاعجب إذا إشتد التنافس بين مختلف الأطراف المسيحية على إمتلاك أنطاكية بالذات. وهنا نلاحظ أن مشكلة أنطاكية لم تكن مشكلة داخلية بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض، وإنما كان لها وجه خطير يتعلق بحقوق الإمبراطورية البيزنطية فى تلك المدينة، وهى حقوق لها سندها التاريخى والقانونى. ولم يستطع الإمبراطور ألكسيوس كومنين أو خلفاؤه المباشرون أن يتناسوا حقوقهم فى أنطاكية، مما يجعلنا نقرر أن إمارة أنطاكية الصليبية لم تقم رغم إرادة السلاجقة المسلمين وحدهم، بل أيضاً رغم إرادة الإمبراطورية البيزنطية ذاتها (2). ومع ذلك فقد إستطاع النورمان - بما هو معروف عنهم من صلابة عود - وبفضل قوة ومهارة أميرهم بوهيموند ثم تنكرد، أن يواجهوا عداء السلاجقة والبيزنطيين جميعاً، وأن يقيموا دعائم إمارتهم فى أنطاكية ويحتفظوا بها قائمة فى وجه العواصف المضادة التى واجهتهم من قبل أعدائهم (3).

أما مشكلة اللاذقية، فكانت هى الأخرى لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية ذلك أنه بعد أن قام أحد القراصنة - ويدعى ونمار البولونى - بالإستيلاء عليها من الأتراك فى صيف ١٠٩٧، لم يلبث أن إنتزعها من ونمار بعض البحارة الإنجليز بزعامة إدجار إثنلج. وهكذا أخذت أيادى المغامرين تتلاقف اللاذقية حتى إستولى عليها ريموند الصنجيل فى صيف سنة ١٠٩٨ فسلمها بدورة للبيزنطيين (4).

على أن إمتلاك البيزنطيين اللاذقية شكل خطراً كبيراً على إمارة أنطاكية، إذ كان فى إستطاعة البيزنطيين أن يشرفوا من تلك المدينة الهامة على وادى نهر العاصى بأكمله، وبالتالى يهددون مطامع بوهيموند ويحولون بينه وبين التوسع (5). لذلك لم يكد بقية الأمراء الصليبيين يستولون على بيت المقدس، حتى شرع بوهيموند فى حصار اللاذقية فى صيف ١٠٩٩. وإذا كانت هذه العملية

(1) Runciman : op. cit., II, p. 9.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, pp. 314 - 315.
(3) Grousset : Hist des Croisades, I, pp. 370 - 371.
(4) Albert d'Aix, p. 500 & Raoul de Caen, p. 749.
(5) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 371.

الحربية فى حاجة إلى أسطول قوى لكى تتم بنجاح ، فإن الظروف سرعان ما أمدت بوهيموند بالأسطول البيزى الذى وصل - وعلي رأسه رئيس الأساقفة دايمبرت - إلى أنطاكية، فى الوقت المناسب (١).

ولم يلبث أن تمكن بوهيموند من فرض حصار قوى على اللاذقية بمساعدة الأسطول البيزي، حتى أوشكت الحامية البيزنطية فى المدينة أن تستسلم، فى الوقت الذى إقترب، ريموند الصنجيل عائداً إليها بعد إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس (سبتمبر سنة ١٠٩٩). وكان ذلك عند جبلة - أى على بعد ثلاثين كيلو متراً من اللاذقية - عندما سمع ريموند بهجوم بوهيموند على اللاذقية، فإستشاط غضباً، وأرسل إنذاراً عاجلاً إلى أمير أنطاكية يطلب منه رفع الحصار فوراً عن المدينة والعودة من حيث أتي(٢) . وإذا كان بوهيموند قد رفض ذلك الإنذار وأصر على مهاجمة اللاذقية، فإنه كان ينتظر أن يسانده فى موقفة دايمبرت زعيم البيازنة. ولكن دايمبرت تخلى عنه فى تلك اللحظة الحرجة مما اضطر بوهيموند إلى رفع الحصار عن اللاذقية والعودة إلى أنطاكية. وهكذا دخل ريموند فى اليوم التالى اللاذقية ليرفع رايته - إلى جانب الرايه البيزنطية - على قلعتها، وتم الاتفاق بعد ذلك على تسوية المسألة بين بوهيموند وريموند فى مقابلة ودية (٣).

أما عن دايمبرت، فإن تخليه عن بوهيموند أمام اللاذقية لم يؤثر في الصداقة بين الرجلين، وتجلت هذه الصداقة فى موقف بوهيموند من أطماع دايمبرت للوصول إلى بطرقية بيت المقدس، كما مر بنا.

فتوحات بوهيموند فيما وراء نهر العاصى :

وبعد أن قام بوهيموند بالحج وزيارة بيت المقدس، أخذ يفكر فى توسيع إمارته بالإستيلاء على بعض المواقع الإسلامية القريبة. وكان أن بدأ بالهجوم على قلعة فامية فى حوض نهر العاصي. وكانت هذه المدينة للأمير العربى سيف الدولة خلف ابن ملاعب الذى كان فى عداء دائم مع جيرانه من أمراء المسلمين، وبخاصة بنى منقذ فى شيزر (٤). وربما ظن بوهيموند أن تلك المنازعات بين الأمراء المسلمين - بعضهم وبعض - من شأنها أن تمكنه من تحقيق أطماعه

(1) Heyd : op. cit., p. 135.
(2) Setton : op. cit., I, p. 374.
(3) Albert d'Aix, p. 504.

(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٥٢ ، ٥٥.

والإستيلاء على فامية فى سهولة. ولكنه لم يكد يصل إلى ذلك الحصن حتى وجد مهمته أصعب مما يظن، فقفل راجعاً بعد أن «أتلف زرعه» (يونية ١١٠٠) (١).

ويروى ابن العديم أن بوهيموند قام فى تلك الفترة بالذات بمهاجمة سلاجقة حلب، وأن رضوان السلجوقى صاحب حلب طرد النورمان من كلا، وهو مكان شرقى العاصى فى منتصف الطريق بين أنطاكية وحلب. على أنه كان للصليبيين - أى النورمان من أتباع بوهيموند - عدة قلاع فى تلك المنطقة عدا كلا، مثل زردنا وسرمين، فخرجت الحاميات الصليبية من تلك المراكز وطاردت الأمير رضوان وأنزلت به الهزيمة فى ٥ يولية سنة ١١٠٠، وعندئذ ولى رضوان الأدبار «واستبيح عسكره وقتل خلق كثير وأسر قريب من خمس ماية نفس ومنهم بعض الأمراء (٢)». وقد ترتب على هذا النجاح أن تمكن النورمان من إحتلال برج الحاضر - قرب قنسرين - وكفر طاب شمالى شيزر، فى منتصف الطريق بينهما وبين معرة النعمان (٣).

ولم يسع رضوان ملك حلب - عقب تلك الهزائم التى حلت به - سوى أن يستنجد بالأمير العربى جناح الدولة صاحب حمص، دون أن يقدر مدى ما تسببه إستعانته بذلك الأمير العربى الصغير من مساس بمكانة السلاجقة وهيبتهم. وقد ذهب جناح الدولة إلى حلب فعلاً لمساعدة رضوان ولكنه صادف من المهانة وعدم التقدير ما جعله يعود بسرعة الى حمص، وهو راغب فى الانتقام من رضوان السلجوقى (٤).

أما بوهيموند فقد استمر يباشر نشاطه حول حلب، فعسكر فى أواخر يولية سنة ١١٠٠ على ضفاف نهر قويق، ومن هناك أخذ يراقب الموقف.

ويذكر ابن العديم أن بوهيموند كان ينوى تحويل الكثبان القريبة من حلب - والتى كانت مدافن للمسلمين - إلى حصون تحيط بالمدينة، وبذلك يضمن حصار حلب ومواصلة التضييق عليها حتى تسقط فى يده (٥). ولا يخفى علينا أن قوة سلاجقة حلب كانت قد أخذت تنحل سريعاً فى ذلك الوقت. وكان من الممكن أن

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، سنة ٤٩٣ هـ.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (مطبوع ج ٢ ص ١٤٤).

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب. ج ٢ ص ١٤٤ (مطبوع).

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 277.

(٥) وعزموا أن يبنوا مشهد الجف، ومشهد الدكة، ومشهد قرنبيا حصونا، وأن يقيموا علي حلب ويستغلوا بلدها (ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٤٤ - مطبوع).

يستولى بوهيموند على تلك المدينة لو أنه واصل الهجوم عليها، ولكنه تركها وغير إتجاهه فجأة صوب ملطية، وذلك عندما علم بهجوم كمشتكين الدانشمند عليها (١).

ومن هذا يبدو أن بوهيموند ظل يحارب فى أكثر من جبهة واحدة، وينازل أكثر من عدو في وقت واحد. ففى الوقت كان يحارب المسلمين - من عرب وسلاجقة - لم يتردد فى منازلة البيزنطيين - أعداءة القدامى - ليسترد منهم مدينة مرعش. وكانت هذه المدينة - فى جبال طوروس - قد استولى عليها الصليبيون فى الحملة الأولى سنة ١٠٩٨ - كما مر بنا - وسلموها للبيزنطيين، ولكن بوهيموند عاد وأصر على استردادها. ولم يستطع بوهيموند فى حملته التى قام بها ضد مرعش أن يحقق غرضه. وكل ما إستطاعه هو السيطرة على الأراضى المكشوفة المحيطة بها. وربما كانت هذه الحملة فى ذاتها لاتهمنا كثيراً سوى من ناحية أن أهل ملطية الأرمن ما كادوا يعلمون بوجود بوهيموند على مقربة منهم عند مرعش حتى إستنجدوا به ضد الأتراك المسلمين.

أسـر بوهيموند :

رأينا أن مدينة ملطية - عند أطراف الفرات - كان يحكمها وقت وصول الصليبيين إلى الشرق أحد زعماء الأرمن، وإسمه جبريل. وقد أنقذ وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ جبريل هذا من هجوم قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم. ولكن ملطية سرعان ما وجدت نفسها أمام عدو آخر لا يقل خطورة، هو الملك غازى كمشتكين (نوشتكين) ابن الدانشمند - أمير سيواس (٢) - الذى ظل ثلاث سنوات كاملة يهدد ملطية ويعيث فى أراضيها فساداً وتخريباً (٣). وعندما عاد كمشتكين إلى مهاجمة ملطية فى صيف سنة ١١٠٠، استنجد جبريل ببوهيموند - وتعهد له بتسليمه المدينة إذا هو نجح فى إنقاذها (٤).

وكان بوهيموند يدرك تماماً أهمية الأرمن والدور الذى يمكن أن يقوموا به فى المسائل المتعلقة بالشرق الأدنى -وبخاصة الأزمة بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية - ولذلك حرص على حمايتهم والدفاع عنهم، وإعتقد دائماً أن النورمان

---

(١) المصدر السابق - ص ١٤٥.
(٢) كتبه ابن العديم نوشتكين الدانشمند وكتبه ابن الأثير كمشتكين بن الدانشمند.
(3) Michel Le Syrien (ed. Chabol) III, p. 187.
(4) Matthieu d'Edesse, p. 51.

والأرمن لهم جميعاً عدوان مشتركان، هما البيزنطيون والأتراك (١) . لذلك أسرع بوهيموند لنجدة ملطية ومعه خمسمائة فارس وهو عدد صغير لم يكن يصلح للوقوف به فى وجه جموع الأتراك (٢) .

ولم يلبث أن وقع بوهيموند فى كمين نصبه الأتراك، وإنتهى الأمر بأسره وذبح رجاله فى أوائل أغسطس سنة ١١٠٠ (٣) . ولاشك فى أن وقوع بوهيموند فى الأسر جاء كارثة على الصليبيين، نظراً لنشاطه وبلائه فى حرب المسلمين، مما جعل أحد المؤرخين الأرمن – وهو متى الرهاوى – يقول إن إسم بوهيموند كان يثير الرعب فى قلوب المسلمين حتى خراسان (٤) . أما الملك غازى كمشتكين، فقد إستغل ذلك النصر ليشدد قبضته على ملطية، فاتجه فى اليوم التالى إلى أسوار المدينة ورءوس الفرنجة من أتباع بوهيموند معلقة على أسنة الرماح، والأسرى بجانبه مكبلين بالأغلال ليثير الرعب فى نفوس أهل ملطية ويضطرهم الي الاستسلام .

ويقال إن بوهيموند أرسل عند أسره رساله سرية إلى بلدوين البولونى حاكم الرها – الذى صار بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيما بعد – يستنجد به لفك أسره، فخرج بلدوين على رأس مائه وأربعين فارساً فقط قاصداً ملطية . وكان من الممكن أن يقع بلدوين فى المصير نفسه الذى وقع فيه بوهيموند، لولا أن الملك غازى كان قد غادر ملطية قبل وصوله، وإتجه شمالاً إلى بلاده حيث سجن بوهيموند فى قلعة نكسار قرب شاطيء البحر الأسود (٥) .

أما بلدوين فقد إستقبل فى ملطية إستقبال المحرر، وأعلن جبريل حاكم المدينة تبعيته له . وبعد أن ترك بلدوين خمسين فارساً من فرسانه فى ملطيه للدفاع عنها، إنصرف عائداً إلى مركز إمارته بالرها . على أن تلك المعونة الصغيرة لم تكف لحماية ملطية من هجمات الملك غازي، وهى تلك الهجمات التى لم تهدأ إلا باستيلائه عليها ،وأسر صاحبها، سنة ١١٠١ أو سنة ١١٠٣ حسب إختلاف الروايات (٦) .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I p. 378.

(٢) قدر ابن الأثير عدد رجال بوهيموند بخمسة آلاف، وهو عدد مبالغ فيه، كما يبدو من تطور الأحداث التي أدت إلى أسره (الكامل، حوادث سنة ٤٩٣ هـ) .

(3) Albert d'Aix, pp. 524 & Matthieu d'Edesse, p. 52.

(4) Matthieu d'Edesse, p. : 52.

(5) Albert d' Aix, p. 525.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ.

الفصل الثاني

وصاية تنكرد على أنطاكية
(١١٠٠ - ١١٠٣)

الموقف فى أنطاكية بعد أسر بوهيموند :

أحدث أسر بوهيموند فراغاً كبيراً فى شمال الشام، لاسيما وأن بلدوين البولونى أمير الرها لم يلبث هو الآخر أن إستدعى إلى بيت المقدس ليرث أخاه جودفرى فى الحكم.

وبالنسبة لأنطاكية بالذات، قرر أمراؤها ورجال الدين فيها إستدعاء تنكرد للقيام بالوصاية على الإمارة أثناء أسر خاله (١). وقد جاء ذلك العرض على تنكرد في الوقت المناسب بعد أن ساء موقفه مع ملك بيت المقدس الجديد بلدوين الأول، كما مر بنا. وهكذا ترك تنكرد إقطاعه فى الجليل، وإتجه إلى أنطاكية ليباشر مهمته الجديدة (أواخر مارس ١١٠١) (٢).

ولم يلبث أن وجد نورمان أنطاكية فى تنكرد زعيماً يفيض قوة وحماسة، ولا يقل عزيمة وبأساً عن سلفة بوهيموند. ثم إن تنكرد حرص على أن يكون أميناً فى وصايته على أنطاكية، فلم يتخذ لنفسه لقب «أمير أنطاكية»، وإن لقبته الوثائق الصليبية المعاصرة بلقب «الأمير الكبير» أو «لقب خادم الله » لتمييزه عن سائر أمراء الإمارة. والواقع إنه لم يكن فى إستطاعة تنكرد أن يتصرف غير ذلك، نظراً لبقاء أهل إمارة أنطاكية على ولائهم لبوهيموند، مما كان من المحتمل أن يعرضه لمقاومة شديدة إذا هو حاول أن يعتدى على حقوق بوهيموند فى حياته (٣).

أما عن سياسة تنكرد فقد سارت في الطريق نفسه الذي رسمه بوهيموند، فعمل على تنظيم الإدارة وتركيزها، وصبغ كنيسة أنطاكية بالصبغة اللاتينية الكاثوليكية، ثم توسيع حدود إمارة أنطاكية على حساب البيزنطيين والمسلمين جميعاً. وكان أول ما فعله تنكرد لتحقيق ذلك البرنامج، هو إكتساب ود القوى

---

(1) Guillaume de Tyr, I,p. 413 & Foucher de Charters, p. 384.
(2) Setton : op. cit., I, p. 382.
(3) Runciman : op. cit., II, pp. 9, 32.

البحرية الإيطالية، فعقد إتفاقاً مع الجنوية فى صيف سنة ١١٠١ منحهم بمقتضاه ثلث دخل ميناء السويدية، ودرباً فى أنطاكية يباشرون فيه نشاطهم التجاري. على أن المهم فى هذه الإتفاقية هو أن تنكرد وعد الجنوية بإعطائهم نصف دخل ميناء اللاذقية فى الوقت الذى كانت اللاذقية نفسها بأيدى البيزنطيين. ومن الواضح أن ذلك يعنى طلب مساعدة الأسطول الجنوى فى إنتزاع اللاذقية من البيزنطيين. وهكذا يمكن تلخيص البرنامج الذى وضعه تنكرد لسياسته الخارجية خلال وصايته على أنطاكية فى شطرين : الشطر الأول الإستيلاء على اللاذقية وقيليقية من البيزنطيين، والشطر الثانى الإستيلاء على الجزء الأوسط من وادى نهر العاصى من سلاجقة حلب وأتباعهم (١).

حروب تنكرد ضد البيزنطيين :

وإذا كان تنكرد - مثل خاله بوهيموند - حريصاً على حماية إمارة أنطاكية من خطر البيزنطيين الذين لم يغفروا للنورمان إستيلائهم على تلك المدينة، فإن حسن الحظ شاء أن تحول ظروف الإمبراطورية البيزنطية عندئذ دون قيامها بأية محاولة ضد أنطاكية، سواء هجومية أو حتى دفاعية. ذلك أن الكارثة التى حلت بالحملة الصليبية سنة ١١٠١ أضعفت مركز البيزنطيين فى آسيا الصغرى وقوت مركز الأتراك، مما جعل من المتعذر على الإمبراطور البيزنطى أن يرسل حملة فى تلك الظروف عبر آسيا الصغرى إلى قيليقية وشمال الشام. وكان أن إستغل تنكرد الفرصة، فلم يكد يسمع بهزيمة الصليبيين فى آسيا الصغرى سنة ١١٠١ حتى فكر فى مهاجمة المدن البيزنطية فى قيليقية، عملاً بالحكمة القائلة بأن الهجوم خير وسائل الدفاع (٢).

ولا أدل على ضعف مركز الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى فى مستهل القرن الثانى عشر من أن تنكرد لم يكد يشرع فى غزو قيليقية فى أواخر سنة ١١٠١ حتى استطاع فى مدة قصيرة أن يستولى على المصيصة وأذنة وطرسوس - وهي المدن الرئيسية الثلاث فى ذلك الإقليم - ثم انصرف بعد ذلك ليبدأ حصار اللاذقية (٣).

على أن اللاذقية إمتازت عندئذ بقوة تحصيناتها، فضلا عن وجود فرقة من رجال ريموند الصنجيل داخلها للدفاع عنها، وبعض قطع من الأسطول البيزنطى

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 232 & Heyd : op. citt. I, p. 135.
(2) Grousset : Hist. des Croisares I, p. 383.
(3) Runciman : op. cit. II, p. 33.

فى مياهمها، مما تطلب حصاراً طويلاً وجهداً عنيفاً من تنكرد ليستولى عليها (١). ومع ذلك فإن تنكرد إستغل وقته أثناء مدة الحصار إستغلالا طيباً، فقام فى تلك الأثناء بمحاولة فاشلة للإستيلاء على جبلة - إلى الحنوب من اللاذقية - ثم شاء حسن حظه أن ريموند الصنجيل لم يكن موجوداً فى الشام حينئذ ليدافع عن اللاذقية وعن حقوق الإمبراطورية البيزنطية - كما سبق أن دافع عنها سنة ١٠٩٩ - وإنما كان ريموند مشغولاً سنة ١١٠١ بمرافقة الحملة اللمباردية المشئومة فى شمال شرق الأناضول. ولم يكد ريموند ينتهى من أمر تلك الحملة ويعود إلى ميناء السويدية حتى قبض عليه تنكرد وإعتقله فى قلعة أنطاكية كما مر بنا (٢).

ومن الواضح أن حرص تنكرد على إعتقال ريموند إنما كان مصدره تخوفه من أن ينتهز ريموند فرصة أسر بوهيموند، ويجدد النغمة القديمة فيطالب بحقه في أنطاكية ، فضلاً عن تهديده لمشروع تنكرد الخاص بالإستيلاء على اللاذقية. لذلك لم يطلق تنكرد سراح خصمة سنة ١١٠٢ إلا بعد أن أقسم له على أن يتخلى عن مطالبه وإدعاءاته فى شمال الشام. وهكذا إنصرف ريموند من محبسه ليتجه نحو أنطرطوس (طرطوس)، ومر أثناء طريقه باللاذقية فأمر رجاله بالإنسحاب منها ومرافقته لتحقيق مشروعه الخاص بتأسيس إمارة لنفسه حول طرابلس (٣).

ولم تلبث الحامية البيزنطية أن وجدت نفسها وحيدة فى اللاذقية بعد أن انسحب أتباع ريموند من البروفنساليين، في الوقت الذى شدد تنكرد هجماته عليها بمساعدة حلفائه الجنوية من ناحية البحر، مما أدى إلى سقوط اللاذقية فى يده فى أواخر سنة ١١٠٢ وأوائل سنة ١١٠٣. وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على واجهة بحرية عريضة، فضلاً عن ميناء بحرى رئيسى يربطها بالغرب (٤).

ثم إن تلك الحروب ضد البيزنطيين جاءت مصحوبة بتغيير فى أوضاع بطرقية أنطاكية. ذلك أن الصليبيين عندما فتحوا أنطاكية إحتفظوا بالبطرق الأرثوذكسى حنا الرابع، الذى قاسى كثيراً أثناء فترة الحصار، ومن ثم إزدادت مكانته فى نظر المسيحيين جميعاً، وإحترمه الصليبيون الكاثوليك رغم مذهبة الأرثوذكسى (٥). ولكن نظرة النورمان إلى حنا الرابع لم تلبث أن تبدلت أثناء عدائهم للبيزنطيين، إذ أخذوا يعتبرون ذلك البطرق رسولاً للبيزنطيين وعيناً

(1) Raoul de Caen, p. 706.
(2) Albert d'Aix, p. 582.
(3) Runciman : op. II, p. 34.
(4) Raoul de Caen; pp. 708 - 709.
(5) Albert d'Aix, p. 433.

للإمبراطور البيزنطى عليهم. لذلك عزل بوهيموند - قبل أسره مباشرة - بطرق أنطاكيـة الأرثوذكسى حنا الرابع، وعين بدله أحـد رجـال الدين الكاثوليك، هو برنارد ذى فالنس أسقف ارتاح الذى شغل كرسى أنطاكية من سنة ١١٠١ حتى سنة ١١٣٥، وقام خلال تلك المدة بدور كبير فعال فى النشاط الداخلى والخارجى لإمارة أنطاكية. وقد إستأنف تنكرد سياسة خالة إزاء الكنيسة، فحرص دائماً على إسـتـبـدال رجـال الدين الأرثوذكس بغـيـرهم من الكاثوليك، مما أثار غـضب الإمبراطور البيزنطى والكنيسة الأرثوذكسية جميعاً (١).

ولاشك فى أن الإنتصارات التى أحرزها تنكرد على البيزنطيين جعلت له كلمة مسموعة فى شئون فلسطين وبيت المقدس،كما ظهر ذلك فى تدخله لدى بلدوين سنة ١١٠٢ عقب الكارثة التى حلت بالأخير عند الرملة لإعادة دايمبرت إلى كرسى بيت المقدس، كما سبق أن ذكرنا (٢).

إنقسام المسلمين :

أما عن جانب المسلمين، فإن خبر أسر بوهيموند أثار موجة من الحماسة المؤقتة بين صفوفهم، ظهر صداها فى النكسة التى منى بها الصليبيون. من ذلك ما يخبرنا به ابن العديم من أن النورمان أسرعوا عقب تلك الكارثة إلى الإنسحاب من إقليم حلب، فى حين تشجع صاحب حلب رضوان السلجوقى وخرج من مدينتة ليحتل مزارع الغلال المجاورة، متخذاً معسكره قرب سرمين. أما أمير حمص العربى - جناح الدولة - فإنه عقب أسر تنكرد استرد من الصليبيين قلعة أسفونا، غربى سرمين وشمالى معرة النعمان (٣).

على أن أنشقاق المسلمين وتصدع صفوفهم وضعف وحدتهم فى ذلك الوقت، حالت دون قيامهم بعمل حاسم ضد الصليبيين. ذلك أن النزاع سرعان ما دب بين رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص، ليس فقط لأن الأول كان سلجوقياً تركياً والثانى كان عربياً ، وإنما أيضا بسبب الخلاف المذهبي، لأن رضوان على الرغم من أصله السلجوقى كان متشيعاً إسماعيلى المذهب فى حين كان جناح الدولة سنياً (٤). ولعل هذه النعرة المذهبية هى التى دفعت جناح

(1) Runciman : op. cit., II., pp. 32 - 33.

(٢) أنظر ما سبق.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٥ (مطبوع).

(4) Grousset : Hist des Groisades, I, p. 367.

الدولة إلى مهاجمة رضوان فى معسكره قرب سرمين، وعندئذ لاذ رضوان بالفرار، ووقع وزيره أبو الفضل ابن الموصول أسيراً. وهكذا أخذ المسلمون يهاجمون بعضهم بعضاً بدلاً من توحيد جهودهم ضد عدوهم المشترك.

ثم إن عطف رضوان على الباطنية وتشجيعه المتزايد لهم، سرعان ما أوجد إنقساماً بين صفوف المسلمين فى حلب، وهو الإنقسام الذى أفاد منه الصليبيون وحدهم. ذلك أن رضوان اعد دعاة الإسماعيلية فى نشر دعوتهم، وعينهم فى المناصب الكبيرة فى إمارته وحفظ جانبهم، وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة، وصارت لهم دار الدعوة بحلب فى أيامه، وكاتبه الملوك فى أمرهم «فلم يلتفت ولم يرجع عنهم» (١). وكان زعيم الباطنية عندئذ هو الحكيم المنجم الباطنى الذى قربه رضوان إليه، ومن ثم عمل على إفساد العلاقة بين رضوان وجناح الدولة، مما أثار إستياء كثير من أهل حلب المخلصين.

وقد ذكرنا كيف أن رضوان ملك حلب لم يستطع أن يغفر لتابعه جناح الدولة صاحب حمص - الذى كان متزوجاً من أمه - ما حل به قرب سرمين. لذلك تظاهررضوان بمصالحة جناح الدولة ودعاه إلى حلب حيث أكرم وفادته، حتى إذا ما دخل جناح الدولة جامع حلب لتأدية فريضة الجمعة، إنقض عليه ثلاثة أعجام من الباطنية - بإيحاء من زعيمهم الحكيم المنجم الباطنى - ليمزقوه إرباً (٢). ومن الواضح أن هذه الجريمة إنما تمت بتدبير رضوان، الذى لم يكتف بتشجيع الباطنية وإنما قتل صاحب حمص بدلاً من أن يؤازره ويشجعه على الصمود فى وجه الصليبيين (٣).

جمود السلاجقة :

ومن الظواهر التى تسترعى الإنتباه فى تلك الفترة بالذات - أى فى أوائل القرن الثانى عشر - جمود سلاجقة فارس وأتابكتهم فى الموصل ، بحيث أنهم لم يتحركوا للحد من توسع الفرنجة، على الأقل فى شمال العراق والشام وشرق آسيا الصغري، ولم يحاولوا الإستفادة من الموقف السيء الذى بات فيه الصليبيون عقب أسر بوهيموند أمير أنطاكية. ثم حدث فى العام نفسه تقريباً، الذى شهد أسر

(١) ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢ ص ١٤٥ (مطبوع).
سبط بن الجوزي : مرآة الزمان.
(Rec. Hist. Or . p. 525)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٦ (مطبوع).
(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ

بوهيموند، أن منيت حملة صليبية كبيرة - هى الحملة اللمباردية - بهزيمة ساحقة فى شمال شرق الأناضول (سنة ١١٠١) . ومع كل ذلك لم يحاول سلاجقة فارس ان يهتبلوا الفرصة لتحويل التيار فى الشرق الأدنى ضد الصليبيين لطردهم من البلاد التى أغتصبوها. ثم كيف ارتضى سلاجقة فارس لأنفسهم أن تقوم القوى التركمانية الصغيرة - مثل الأراتقة - بمحاربة إمارة الرها، دون أن يشاركوهم عبء الجهاد للقضاء على تلك القوة الصليبية الرابضة فى شمال العراق والتى تهدد سلامة الخلافة العباسية فى بغداد (١). ؟

لاشك فى أن موقف السلاجقة المتسم بالجمود فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر، إنما مرده النزاع الداخلى بين زعمائهم وقادتهم (٢). ذلك أن وصول الصليبيين الغربيين إلى الشرق الأدنى وإنتصارهم على السلاجقة فى آسيا الصغرى والشام وشمال العراق، كان له رد فعل عنيف داخل دولة السلاجقة، إذ انحلت السلطة المركزية وضعفت سيطرة السلطان بركياروق على مختلف حكام الأقاليم التى تألفت منها دولته. ولم يلبث أن إشتد النزاع بين قادة السلاجقة وحكامهم، مما أضعف من قوتهم وأضاع هيبة السلطان السلجوقى نفسه. من ذلك ما يرويه ابن الأثير عن القتال الذى نشب بين زعماء السلاجقة حول حكم الموصل عند وفاة حاكمها كربوغا (كربوقا) فى أواخر سنة ١١٠٢، والسلطان السلجوقى يسمع ويرى دون أن يتدخل (٣).

وهكذا صار من المتعذر على سلطان سلاجقة فارس أن يقوم بحرب ضد الصليبيين فى شرقى آسيا الصغرى أو فى الشام وشمال العراق، وقادته فى شغل بالنزاع الداخلى ومقاتلة بعضهم بعضاً. وبعبارة أخرى فقد أفاد الصليبيون من انقسام دولة ملكشاه وتفتتها، وما نشأ بين زعمائها وقادتها من خلافات شغلتهم جميعاً عن محاربة الدخلاء (٤).

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 396.
(2) Setton : op. cit., I, pp. 157 - 169.
(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٥.
(4) Archer : op. cit., p. 144.

الفصل الثالث

عودة بوهيموند إلى حكم أنطاكية

إطلاق سراح بوهيموند :

إستاء البيزنطيون من الحرب السافرة التى شنها ضدهم تنكرد الوصى على أنطاكية، وهى الحرب التى أدت إلى إستيلائه على مدن قيليقية فضلاً عن اللاذقية. ولما كان من الصعب على الإمبراطور البيزنطى وجيوشه إختراق آسيا الصغرى لمعاقبة النورمان فى تلك الظروف التى أعقبت فشل الحملة الصليبية سنة ١١٠١ ، فإن الإمبراطور لم يجد وسيلة للإنتقام سوى الحصول على شخص بوهيموند نفسه بأى ثمن . ولم تكن محاولة الإمبراطور البيزنطى عندئذ هى المحاولة الأولى مع الملك غازى كمشتكين لإطلاق سراح بوهيموند ، إذ أخذ بلدوين دى بورج أمير الرها يتخوف عندئذ من أطماع تنكرد وسياسته ، ولم يجد سبيلاً لمنع الصدام مع النورمان فى أنطاكية سوى إطلاق سراح بوهيموند وإعادته إلى إمارته (١). لذلك قام بلدوين دى بورج - بالإشتراك مع برنارد بطرق أنطاكية - بمحادثات مع الملك غازى لإطلاق سراح بوهيموند ، وعندئذ تقدم الإمبراطور البيزنطى فجأة بعرض سخى ، إذ عرض على الملك غازى مائتين وستين ألف دينار ثمناً لتسليمه بوهيموند ، وقام حاكم طرابيزون بالوساطة بين الطرفين (٢).

وعندما علم قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم بتلك المحادثات بين الإمبراطور البيزنطى والملك غازى حول تسليم بوهيموند ، تدخل ليطلب من الملك غازى تسليمه نصف المبلغ مقابل المساعدة التى قدمها للملك غازى سنة ١١٠١ ضد حملة اللمبارديين . ولكن الملك غازى رفض طلب قلج أرسلان ، فأعلن الأخير الحرب على الأول ، فى الوقت الذى كان بوهيموند لايزال أسيراً فى نكسار(٣).

والواقع إن بوهيموند لم يكن فى عزلة تامة عن تلك المحادثات الدائرة بشأن شخصه وتحديد مصيره ، فوصلت إليه الأخبار - فى محبسه - بعرض الإمبراطور

(1) Runciman : op. cit., II, p. 38.
(2) Albert d'Aix, p. 610 .
(3) Runciman : op. cit., II, p. 301 .

البيزنطى من ناحية وطلب السلطان قلج أرسلان من ناحية أخرى ، ثم موقف الأمير التركمانى الملك غازى من الطرفين . ويقال إن بوهيموند - وهو النورمانى الوسيم - كان على صلة ببعض النساء فى حريم الملك غازى - مما مكنه من متابعة الأخبار الخارجية ، ثم من العثور على شفعاء عند الملك غازى من ناحية أخرى (١) . وكان أن أرسل بوهيموند إلى الملك غازى يذكره بأن كلا من الطرفين الذين يتساومان عليه - الإمبراطور البيزنطى وسلطان سلاجقة الروم - عدو مشترك لبوهيموند وللملك غازى نفسه ، وأن مصلحة الملك غازى تتطلب منه أن يطلق سراح بوهيموند دون أن يسلمه لأحد ، وفى هذه الحالة يتعهد بوهيموند بمحالفة الملك غازى ضد أعدائهما المشتركين . أما من ناحية المال فإن معنى إصرار قلج أرسلان على مقاسمة الملك غازى المبلغ الذى سيدفعه الإمبراطور البيزنطى ، هو أن الملك غازى لن يتسلم سوى مائة وثلاثين ألف دينار ، فى الوقت الذى تعهد بوهيموند بدفع مائة ألف دينار عن طريق الصليبيين بالشام (٢) .

وفى تلك الأثناء أخذت جيوش الملك غازى تهاجم ملطية ، وعندئذ إستنجد حاكمها جبريل بزوج إبنته بلدوين دى بورج أمير الرها . ولكن الأخير خشى أن يؤدى تدخله لمساعدة ملطية إلى تعثر المفاوضات الدائرة بشأن إطلاق سراح بوهيموند ، فأصم أذنيه عن نداء جبريل ، مما أدى إلى سقوط ملطية فى قبضة الملك غازى ومقتل جبريل نفسه (٣) . ولم يلبث الملك غازى أن قبل العرض الذى تقدم به بوهيموند لإطلاق سراحه ، فأقتيد إلى ملطية حيث تبادل مع الملك غازى أيمان الإخلاص والتحالف ، وبعد ذلك تم إطلاق سراحه فى أوائل مايو سنة ١١٠٣ . أما عن مقدم الفدية المتفق عليه ، فقد إشترك فى جمعه الصليبيون فى الرها وأنطاكية ، فضلاً عن الأرمن فى أقليم طوروس ، فى حين دفع المؤخر أتباع بوهيموند فى صقلية (٤) .

ومن الواضح أن إطلاق سراح بوهيموند فى ذلك الوقت جاء كارثة على المسلمين ، كما يعبر عن ذلك ابن الأثير ، لأنه «عاد إلى أنطاكية فقويت نفوس أهلها به» (٥) . هذا إلى أن إطلاق سراح بوهيموند أوقع الملك غازى فى نزاع مرير مع سلطان سلاجقة الروم ، الذى عز عليه أن يرفض غازى طلبه ويحرمه من

(1) Setton : op. cit., vol. I, p. 388.
(2) Albert d'Aix, p.p. 610 - 612 .
(3) Michel Le Syrien, II, pp. 185 - 189 .
(4) Runciman : op. cit., II, p. 39 .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

مبلغ ضخم . وهكذا تفككت جبهة الأتراك فى آسيا الصغرى ، وهى الجبهة التى أمكنها سنة ١١٠١ أن تقضى على الحملة اللمباردية ، وأرسل قلج أرسلان إلى سلاجقة فارس وإلى الخليفة العباسى يستعديهما على الملك غازى التركمانى ، مما زاد من تشقق الجبهة الإسلامية ، وتصدعها فى الشرق الأدنى (١).

أما بوهيموند فقد وصل أنطاكية فى مايو سنة ١١٠٣ ليستقبل استقبالاً رائعاً فى إمارته بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات قام فيها ابن أخته تنكرد برعاية شئون الإمارة فى الداخل والخارج بمهارة فائقة . ولم يسع بوهيموند سوى أن يشكر تنكرد لإخلاصه وأمانته ، وإن كان يبدو وجود قدر من الخلافات الشخصية بين بوهيموند وتنكرد فى تلك الفترة ، بسبب رغبة الأخير فى الاحتفاظ لنفسه بالفتوحات التى فتحها أثناء قيامه بالوصاية على إمارة أنطاكية (٢). ومهما يكن من أمر ،فإن تلك الحزازات قدر لها ألا تنكشف فإضطر تنكرد إلى مسالمة خاله على طول الخط تحت تأثير الرأى العام ، فى حين اكتفى خاله بإقطاعه إقطاعاً صغيراً فى إرمارة أنطاكية (٣).

حروب بوهيموند ضد البيزنطيين والمسلمين :

ولم يكد بوهيموند يعود إلى أنطاكية حتى إفتتح صفحة جديدة فى سلسلة عدائه للدولة البيزنطية . ذلك أن الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين جدد طلبه الخاص بتنفيذ اتفاقية سنة ١٠٩٧ بينه وبين أمراء الحملة الصليبية الأولى ، وطالب بإعطائه أنطاكية وغيرها من البلدان البيزنطية التى إنتزعها الصليبيون من السلاجقة (٤). ولكن بوهيموند رد على الإمبراطور بالرفض ، محتجاً بأن مسلك الإمبراطور أثناء صراع الحملة الصليبية الأولى ضد السلاجقة ، يجعل الصليبيين فى حل من عدم الإلتزام بالاتفاقية السابقة . لذلك أرسل الإمبراطور حملة كبيرة سارت فى آسيا الصغرى بحذاء شاطئ البحر المتوسط لاحتلال طرسوس وأذنه والمصيصة ، وإنتزاعها جميعاً من النورمان . ولكن تلك الحملة لم توفق فى مهمتها بسبب موقف أهالى تلك البلاد – وجلهم من الأرمن – مما جعل قائد الجيش البيزنطى يتجه إلى مرعش التى كان حاكمها الأرمنى ثاتول Thatoul تابعاً للإمبراطور البيزنطى (٥).

(1) Albert d'Aix, pp. 613 - 614.
(2) Runciman : op. cit., II, p. 39 .
(3) Setton : op. cit., I, p. 388 .
(4) Chalandon : Alexis comnene, p. 233.
(5) Chalndon : Alexis comnene, p. 234 .

ولم يكد القائد البيزنطى يعود من مرعش إلى القسطنطينية حتى زحف بوهيموند أمير أنطاكية وجوسلين دى كورتناى - نائباً عن بلدوين دى بورج أمير الرها - على مرعش ، فأستولى عليها جوسلين باسم أمير الرها سنة ١١٠٣ فى حين استولى بوهيموند على مدينة الأبلستين ، شمالى مرعش (١) .

وفى الوقت نفسه لم يهمل بوهيموند - بعد إطلاق سراحه - جانب جيرانه المسلمين ، فشرع يحاربهم بشراسته المعروفة . وبدأ بمهاجمة البلدان التابعة لسلاجقة حلب ، كما فرض الجزية على قنسرين (٢) . ويروى ابن العديم أن الصليبيين فى أنطاكية والرها إشتركوا فى مهاجمة المسلمين على نهر قويق شمالى حلب ، فمزقوا الأهالى إربا وفرضوا عليهم الأموال الباهظة . وبعد أن قضوا بضعة أيام فى إقليم حلب تم الإتفاق مع صاحبها رضوان السلجوقى على أن يدفع لهم «سبعة آلاف دينار وعشرة رءوس من الخيل ، ويطلقون الأسرى ماخلا من أسروه على المسلمية من الأمراء (٣) » ويبدو أن هذه الأموال التى حرص بوهيموند على فرضها على جيرانه المسلمين فى تلك الفترة بالذات إنما كان الغرض منها رد المبالغ التى إقترضها بلدوين دى بورج والبطرق برنارد من المسيحيين للحصول على الفداء اللازم لإطلاق سراح بوهيموند (٤) . يدل على ذلك ماذكره ابن الأثير من أن بوهيموند «لم يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وماجاورها يطالبهم بالإتاوة ......» (٥) .

كذلك يروى ابن العديم أن الصليبيين التابعين لإمارة الرها خرجوا بعد ذلك من تل باشر ، ودمروا الأجزاء الشمالية والشرقية من حلب ، وعاثوا فيها فساداً وتحريقاً ، ثم إتجهوا إلى قلعة بسرفوث وإستولوا عليها ، كما هاجموا قلعة كفر لاثا ، ولكن قبيلة بنى عليم تصدت لهم وردتهم عنها فعادوا أدراجهم إلى بسرفوث (٦) . ولا شك فى أن إستيلاء الصليبيين على قلعة بسرفوث أمر له أهميته لأن تلك القلعة تتحكم فى الطريق بين حلب وأنطاكية (٧) .

---

(1) Raoul de Caen, pp. 710 - 712 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(3) Runciman : op. cit., II, p. 39. والمسلمية قرية علي طريق حلب

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ (مطبوع)

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٨ (مطبوع)

(7) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 401 .

موقعة حران وأثرها فى أنطاكية :

وفى ذلك الوقت إستغل أمير الرها إنقسام السلاجقة على أنفسهم ، والنزاع بين بركياروق ومحمد ابنى ملكشاه – كما سيلى فيما بعد – وقام بحملته الشهيرة على حران فى ربيع سنة ١١٠٤ . ويهمنا فى هذا المقام أن بوهيموند أمير أنطاكية – ومعه تنكرد – لم يتركا بلدوين الثانى (دى بورج) أمير الرها وحيداً أمام حران ، نظراً لأهمية هذه المدينة ووقوعها على الطريق الموصل إلى بغداد قلب العالم الإسلامى فى المشرق . وكان معنى إستيلاء الصليبيين على حران أنهم سيتمكنون من قطع الإتصالات بين المسلمين فى العراق وفارس وإخوانهم فى الشام، فضلاً عن أن سقوط حران سيعطى الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتأمين الرها والسيطرة على إقليم الجزيرة (١).

على أن تهديد الصليبيين لحران على تلك الصورة جعل إثنين من أمراء الأتراك – هما شمس الدولة جكرمش أتابك الموصل ، ومعين الدولة سكمان الأرتقى صاحب ماردين فى ديار بكر (وهو الذى كان أمير سروج من قبل) يتناسيا ما بينهما من حزازات قديمة ، ويتفقان على مقاومة ذلك الخطر . وهكذا إلتقى الأميران عند رأس العين على الخابور للزحف على الصليبيين . وكان مع سكمان سبعة آلاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد (٢).

ولم يلبث أن دارت المعركة فى مايو سنة ١١٠٤ بين الطرفين على ضفة نهر البليخ (٣). وفى تلك الموقعة أظهر المسلمون «الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخين فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاءوا ، وإمتلأت أيدى التركمان من الغنائم ووصلوا إلى الأموال العظيمة .....» وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ووقع أمير الرها – بلدوين الثانى دى بورج – ومعه جوسلين حاكم تل باشر ، أسيرين

---

(١) عبر المؤرخ ابن الأثير عن انقسام المسلمين عندئذ علي أنفسهم بعبارة نصها :
ولما استطال الفرنج – خذلهم الله تعالي – بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم انشغال عساكر الاسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا، تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء ، واختلفت الأهواء، وتمزقت الأموال (سنة ٤٩٧ هـ) .

(2) Runciman : op. cit., II, p. 40 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ . &

Albert d'Aix. p. 651 .

ويلاحظ أن المصادر الصليبية قدرت عدد جيوش المسلمين بثلاثين ألف رجل . وهو رقم مبالغ فيه ، ربما قصد به تبرير الهزيمة التي حلت بالجيوش الصليبية .

فى قبضة المسلمين [١]. أما بوهيموند ومعه معظم جيشه فقد لاذوا بالفرار بعد أن بلغ بهم الإضطراب والذعر حداً جعل برنارد بطرق أنطاكية يقطع ذيل فرسه لئلا يجذبه منه أحد الأتراك ويفتك به [٢].

وسنقتصر فى هذا المقام على علاج أثر تلك الكارثة التى حلت بالصليبيين فى أحوال إمارة أنطاكية، على أن نؤجل الكلام عن أثرها فى إمارة الرها إلى الباب الآتي. ذلك أن موقعة حران أو البليخ أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم جهة الشرق على حساب المسلمين، كما أتاحت لرضوان ملك حلب السلجوقى فرصة ليثأر لنفسه من نورمان أنطاكية. حقيقة إن رضوان لم يشترك فى موقعة حران مع اتابك الموصل وصاحب ماردين، ولكن رضوان وقف على رأس جيشه قرب الفرات ليتابع سير المعركة. ولم يكد يعلم بإنتصار الأتراك حتى أسرع بالإستفادة من الموقف، فاسترد القلاع والمدن القريبة من حلب - مثل معرة مصرين وسرمين - وساعده فى ذلك أهالى البلاد من المسلمين الذين إنقضوا على حكامهم الصليبيين[٣]. هذا فى الوقت الذى هب شمس الخواص أمير رفنية لمهاجمة القلاع الصليبية القريبة، فاسترد صوران، شرقى شيزر. وهكذا لم تلبث الحاميات الصليبية الموجودة فى البارة ومعرة النعمان وكفر طاب ولطمين أن إنسحبت ولاذت بالفرار إلى أنطاكية، وبذلك إنكمشت حدود إمارة أنطاكية الصليبية إلى القويق وبحيرة العمق، بعد أن كانت تلك الحدود قد قاربت مشارف حلب ذاتها [٤].

وزاد موقف النورمان سوءاً إستيلاء رضوان ملك حلب على أرتاح، وهى القلعة ذات الموقع الهام بالنسبة لأنطاكية. ويؤكد ابن العديم وصاحب مرآة الزمان أن الأرمن فى أرتاح ثاروا ضد حكم النورمان وأنهم نادوا رضوان لإستلام الحصن. وذلك «لجور الفرنج» و « ولما شملهم جور الفرنج» [٥]. ثم إن بعض المؤرخين يرون أن أرتاح لم تكن المدينة الوحيدة التى سلمها أهلها من الأرمن للمسلمين، وإنما كانت هناك حالات أخرى مشابهة، مما مكن المسلمين من إسترداد عدة مدن وحصون فى ذلك الإقليم دون أن يتحملوا جدهاً أو عناءاً [٦]. وخلاصة القول، إن

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ & Raoul de Caen, p. 170.
(٢) ابن الأثير الكامل . حوادث سنة ٥٠٤ هـ & Foucher de chartes, p. 409
(3) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢، ص ١٤٩ (مطبوع).
(٥) سبط بن الجوزي : مرآة زمان (p. 592).
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢، ص ١٥٠ (مطبوع).
(6) Stevenson : op. cit., p. 78.

هزيمة البليخ التى حلت بالصليبيين سنة ١١٠٤، أضاعت كثيراً من المكاسب التى سبق أن حققتها إمارتا أنطاكية والرها على حساب المسلمين بالشام.

ثم إن المسلمين لم يكونوا وحدهم الذين أفادوا من تلك الكارثة، بل سرعان ما إستغل الإمبراطور ألكسيوس كومنين الفرصة ليثأر من خصمه بوهيموند ويسترد منه بعض الممتلكات البيزنطية (١). ذلك أن الرعايا البيزنطيين فى مدن قيليقية - مثل طرسوس وأذنه والمصيصة - ثاروا بدورهم ضد حكم النورمان وسلموا مدنهم للبيزنطيين (٢). ويبدو أن الأرمن فى تلك الجهات شاركوا الرعايا البيزنطيين ثورتهم، بدليل ما نلحظة من أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين عهد بعد ذلك بقيادة الجيوش البيزنطية فى قيليقية إلى قائد أرمني. ولم يلبث أن أرسل الإمبراطور أسطولاً بيزنطياً إلى اللاذقية، إستطاع أن يفاجيء المدينة ويستولى على معظمها من النورمان (٣). ولم يكد ذلك الأسطول يفرغ من الإستيلاء على اللاذقية حتى شرع ينتزع من النورمان عدة مراكز أخرى على الشاطيء - فيما بين اللاذقية وأنطرطوس - فضلاً عن قلعة المرقب (٤). وهكذا وجد بوهيموند نفسه بين نارين، وعليه أن يحارب فى جبهتين لينقذ إمارته، فالمسلمون عن يمينه يهاجمونه على جبهة نهر العاصي، والبيزنطيون عن يساره يهددون شواطيء أنطاكية. وزاد من حرج موقف بوهيموند أنه لم يجد بين الصليبيين فى طرابلس أو بيت المقدس نصيراً يعطف عليه ويساعده فى محنته.

نهاية بوهيموند :

ولم يكن فى إستطاعة بوهيموند أن يقف موقف المتفرج على إمارته التى أجهد نفسه فى أقامتها، وهى تنهار لبنة بعد أخرى أمام غزوات البيزنطيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى (٥). والواقع أنه على الرغم من خطورة إغارات رضوان ملك حلب - الذى بلغت قواته جسر الحديد على نهر العاصى - ، إلا أن رضوان لم يكن بالرجل الذى يحرص على الإستفادة فائدة كاملة من الموقف، فلم يلبث أن صرف نظره عن أنطاكية وشغل بأمر دمشق. وكان بوهيموند نفسه يدرك أن رضوان ليس بالخصم الخطير، وأنه من الممكن أن يصفى موقفه معه فى سرعة

(1) Grousset : Hist des Croisades, l, pp. 412 - 413.
(2) Raoul de Caen, p. 712.
(3) Stevenson : op. cit., pp. 79.
(4) Grousset : Hist des Croisades, l, p. 414.
(5) Vasiliev op. cit., ll, p. 410.

فيما بعد، وأن مصدر الخطر الحقيقى الذى هدد أنطاكية عندئذ إنما كان الإمبراطورية البيزنطية [١] . لذلك فكر بوهيموند فى القيام بعمل سريع حاسم للانتقام من القسطنطينية وإمبراطورها، وقرر العودة إلى غرب أوربا ليثير الرأى العام ضدها، عله ينجح فى الدعوة لحملة صليبية جديدة يتخذها أداة يثأر بها لنفسه من القسطنطينية. وكان تنكرد عندئذ فى الرها، يدبر شئونها عقب أسر أميرها بلدوين دى بورج ، فاستدعاه بوهيموند، وعهد إليه من جديد برعاية شئون إمارة أنطاكية أثناء غيابه فى إيطاليا وفرنسا.

وفى أواخر سنة ١١٠٤ أبحر بوهيموند إلى إيطاليا وبصحبته صديقة القديم البطرق دايمبرت. ويقال إنه حمل معه كل ما إستطاع حمله من أموال ومجوهرات وتحف، فضلاً عن بضع نسخ من تاريخ الحملة الصليبية الأولى التى لا يعرف مؤلفها (Gesta Francorum)، والتى تعالج تاريخ تلك الحملة من وجهة نظر النورمان [٢] . وتحتل رحلة بوهيموند إلى غرب أوربا فى ذلك الوقت مكانه هامة فى تاريخ الحروب الصليبية، لأنه لم يقنع بجمع المحاربين من ايطاليا وصقلية وفرنسا لمحاربة المسلمين، وإنما أخذ يقوم بدعاية واسعة فى تلك البلاد ضد الإمبراطورية البيزنطية، ليصورها للغربيين فى صورة حليفة الإسلام والعقبة الكؤود فى وجه الصليبيين، وأن القضاء على الإمبراطورية البيزنطية هو الضمان الوحيد لإستقرار الصليبيين بالشام.

وهكذا لم يكتف بوهيموند بمحاولة تجديد محاولات أبيه - روبرت جويسكارد - فى غزو الدولة البيزنطية (دورازو) فحسب، بل أنه بذر فى الغرب الأوربى البذور الأولى لفكرة توجيه جهود الصليبيين ضد القسطنطينية والدولة البيزنطية، مما يعتبر أساساً للحملة الصليبية الرابعة التى غزت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ [٣] . وقد ساعد على تثبيت دعاية بوهيموند ضد الدولة البيزنطية فى عقول الغربيين، ما حدث من أن الإمبراطور البيزنطى لجأ فعلاً عند تعرضة لهجوم بوهيموند سنة ١١٠٧ إلى طلب المعونة من السلاجقة، فأمده قلج أرسلان - سلطان سلاجقة الروم - بجمع من عسكره . وذكر هذه الحقيقة إبن الأثير وبعض

(1) Stevenson : op. cit., p. 78.

(2) Raoul de Caen : (Hist. Occid. lll) pp. 712 - 713 & Guillaume de de Tyr l, p. 450.

(3) Vasiliev : op. cit., ll, pp. 410 - 411.

(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 324.

المؤرخين الصليبيين[1] . ولم يلبث أن قدم بوهيموند للغرب الأوربى الدليل المادى على التحالف بين البيزنطيين والسلاجقة، عندما أسر بعض أولئك السلاجقة فى القتال مع البيزنطيين.

ومهما يكن من أمر، فإن بوهيموند زار البابا باسكال الثانى وإستثاره ضده الإمبراطورية البيزنطية[2]، ثم إنتقل إلى فرنسا حيث إستقبله ملكها إستقبالاً طيباً وسمح له بجمع المحاربين، وتمت عدة مصاهرات بين بوهيموند وأسرته من ناحية والأسرة الملكية فى فرنسا من ناحية أخري، مما قوى رابطة التحالف بين الطرفين[3]. وأخيراً عاد بوهيموند إلى أبوليا فى جنوب إيطاليا فى أواخر سنة ١١٠٦، ومعه جمع غفير من الصليبيين من مختلف الجنسيات الأوربية، مثل الفرنسيين والأيطاليين والأسبان والإنجليز والألمان، وجميعهم شاركوا بوهيموند الرأى فى أن تكون الإمبراطورية البيزنطية وجهة حملتهم[4]. وقد إختار بوهيموند أن يهاجم مدينة دورازو، وهى أقوى قلعة بيزنطية عند مدخل الأدرياتيك وتعتبر مفتاح مقدونيا (أكتوبر سنة ١١٠٧).

على أن دورازو قاومت مقاومة باسلة فى الوقت الذى حضر الإمبراطور ألكسيوس بنفسه ليهاجم النورمان براً وبحراً . ولم يلبث أن ساء موقف بوهيموند ورجاله أمام دورازو وتعرضوا للجوع و الهلاك بسبب إفتقارهم إلى القوة البحرية من ناحية وإنتشار الأمراض بين صفوفهم من ناحية أخري. ولم يجد بوهيموند مخرجاً من ذلك الموقف سوى الإستسلام لشروط الإمبراطور التى فرضها فى صلح دفول Devol سنة ١١٠٨ . وبمقتضى هذا الصلح تعهد بوهيموند بأن يصبح تابعاً أميناً لألكسيوس وخلفائه، وأن يعاونهم ضد جميع أعدائهم، وأن يعيد للامبراطورية كل أراضيها القديمة [5] .. ومعنى ذلك أن إمارة أنطاكية الصليبية قبلت وفقاً لتلك الشروط أن تصبح قاصرة على أنطاكية وميناءها السويدية، ثم المنطقة الممتدة فى الشمال الشرقى حتى مرعش، مضافاً إلى ذلك ما يستطيع بوهيموند الإستيلاء عليه من المسلمين. أما مدن قيليقية والمنطقة الساحلية المحيطة باللاذقية فتعود جميعها للإمبراطورية البيزنطية، وليس للصليبيين أى حق فيها.

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ &

Albert d'Aix, p. 651.

(2) Vasiliev : op. cit., II, p. 410.

(3) Runciman : op. cit. II, p. 49.

(4) Vasiliev : op. cit., II, pp. 410 - 411.

(5) Chalandon : Alexis Comnene, p. 233.

هذا كله بالإضافة إلى موافقة بوهيموند على عزل البطرق الكاثوليكى فى أنطاكية وتعيين بطرق أرثوذكسى محله. وأخيراً، فقد تعهد بوهيموند بأن يحارب تنكرد ويعتبره عدواً، إذا هو رفض أن يقبل شروط تلك الإتفاقية التى عقدها خاله مع البيزنطيين (١).

ومن هذا تبدو أهمية إتفاقية دفول فى أنها كشفت النقاب عن موافقة الإمبراطورية البيزنطية على مبدأ قيام إمارة أنطاكية الصليبية، وعلى بقاء أنطاكية نفسها فى يد بوهيموند والنورمان، طالما أنهم يرتبطون برباط التبعية والولاء للامبراطور البيزنطي. هذا إلى ما تكشفت عنه تلك الإتفاقية من حرص الإمبراطور ألكسيوس كومنين على مصالح الكنيسة الشرقية ورعاياه من المسيحيين الأرثوذكس، بحيث يكون تعيين بطرق أرثوذكسى لأنطاكية، بمثابة رد إعتبار للكنيسة الشرقية. على أن هذه الإتفاقية ظلت من الناحية العملية حبراً على ورق طالما أن بوهيموند كان واثقاً من أن تنكرد لن يقبل شروط الإتفاقية شكلاً وموضوعا (٢).

أما بوهيموند نفسه فكان الموقف مشيناً وسيئاً للغاية بالنسبة له، بعد أن رأى آماله العريضة تتحطم فجأة وتنتهى إلى ما إنتهت إليه سنة ١١٠٨ . وبعد ذلك الإستسلام الفاضح لم يستطع بوهيموند العودة إلى إمارته بالشام، فذهب إلى إيطاليا حيث قضى بقية حياته محتجبا عن الأنظار إلى أن مات فى مارس سنة ١١١١ (٣).

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 418.
(2) Runciman : op. cit., II, p. 51.
(3) Vasiliev : op. cit. II, p. 411.

الفصل الرابع

الفترة الثانية لحكم تنكــرد فى أنطــاكية

(١١٠٤ - ١١١٢)

تنكرد وسلاجقة حلب :

عندما أقلع بوهيموند إلى الغرب سنة ١١٠٤، ترك تنكرد فى موقف لايحسد عليه، اذ كان عليه أن يدافع عن أنطاكية أمام عدوين لا يرحمان : هما السلاجقة من الشرق والبيزنطيون من الغرب. هذا فضلاً عن أن بوهيموند ترك الخزانة خاوية، مما أوجد تنكرد أمام مشكلة الحصول على المال اللازم لتجنيد الرجال وإعداد التحصينات. ومن الواضح أن هذه المشكلة الأخيرة كانت تمثل العقبة الأساسية التى كان على تنكرد أن يبدأ بعلاجها ؛ ولذلك إستدعى كبار الأثرياء فى أنطاكية - وكانوا خمسة من السريان والأرمن - وطلب منهم تقديم الأموال اللازمة لمواجهة الموقف. وبهذه الأموال إستطاع تنكرد أن يستأجر الجنود اللازمين له، فلم يحل ربيع سنة ١١٠٥ إلا وكان تنكرد على رأس جنده يحاصر أرتاح (١).

وكان أن أسرع رضوان ملك حلب للدفاع عن أرتاح، مصطحباً معه فرسانه من الأتراك فضلاً عن المشاه العرب. وعندما إلتقى الطرفان عند تيزين - شرقى أرتاح - دارت معركة حادة إنتهت بإنتصار الصليبيين وهزيمة رضوان ورجاله، الذين قتل منهم حوالى ثلاثة آلاف رجل «ما بين فارس وراجل، وهرب من بأرتاح من المسلمين» (٢).

وهكذا إستطاع تنكرد أن يمحو بسرعة أثر هزيمة البليخ، وأن يسترد أرتاح من المسلمين، وبذلك إنقلب الموقف مرة أخرى فى جبهة العاصي، فأخذ الصليبيون يطاردون المسلمين، ويستردون البلاد التى فقدوها فى العام السابق. ويروى ابن العديم أن الخراب الذى أصاب إقليم حلب عندئذ فاق ما حدث لإقليم

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I,p. 420.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٠ - ١٥١ (مطبوع).
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ. & Albert d'Aix, 6,

كلا سنة (٤٩٣ هـ) ١١٠٠م، إذ عسكر تنكرد عند تل أغدى - من أعمال ليلون عند جبل بركات - أى على الطريق الرئيسى بين أنطاكية وحلب، وبذلك هدد حلب وما حولها تهديداً مباشراً (١). ويضيف ابن الأثير أن الصليبيين إستردوا فى تلك الفترة سرمين، وهو مركز هام في إقليم الجزر(٢).

ولم يلبث أن إستولى تنكرد على فامية من الباطنية بعد أن إشتد الصراع داخلها وقتل حاكمها خلف بن ملاعب بيد جماعة من الباطنية (٣). وعندئذ استنجد أهل الحصن من المسيحيين بتنكرد، الذى حضر فى سرعة ولكنه لم يوفق أول الأمر فى الإستيلاء على المدينة، فإنصرف عنها بعد حصار بضعة أسابيع. وبعد أشهر حضر إلى أنطاكية مصبح بن ملاعب - ابن الأمير خلف الذى قتل - وطلب من تنكرد معاودة الكرة ضد فامية، فإستجاب له تنكرد وسقطت فامية فى سبتمبر سنة ١١٠٦، كذلك إسترد تنكرد كفر طاب شرقى فامية - بين معرة النعمان وشيزر - مما مكنه من شن إغارات عنيفة وتهديد المدن والقلاع والضياع الإسلامية القريبة ، وبخاصة مدينة شيزر سنة ١١٠٨ (٤).

تنكرد والبيزنطيون :

ولم يكن تنكرد أقل رغبة من الثأر من البيزنطيين، حيث ظلت اللاذقية دائماً ميدان صدام بين البيزنطيين والنورمان فى جبهة الشام. ولم يستطع تنكرد أثناء إشتباكاته مع المسلمين فى حوض نهر العاصى أن يواجه البيزنطيين فى اللاذقية، ولكنه بعد أن حقق إنتصاراته على المسلمين - وإسترد أرتاح وفامية - بدأ يفكر فى طرد البيزنطيين من اللاذقية (٤). ويبدو أنه لم يكن للبيزنطيين عندئذ حاميات قوية فى اللاذقية، لأن الإمبراطور إضطر الى إستدعاء معظم جيوشه من اللاذقية وقيليقية فى صيف سنة ١١٠٧ عندما هدد بوهيموند الجبهة الغربية للامبراطورية (٥). ومع ذلك فقد كان تنكرد فى حاجة الى أسطول قوى يمكنه من

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق & Albert d'Aix 66

وقد ذكر ابن الأثير أن خلف ملاعب عندما استقر في أفامية كان يخيف السبيل ويقطع الطريق واجتمع عنده كثير من المفسدين فكثرت أمواله.

كذلك ذكر ابن الأثير أن أهل سرمين كانوا غلاة في التشيع، فلما ملك الصليبيون سرمين تفرق أهلها وذهب بعضهم إلي أفامية حيث دبروا مؤامرة مع أبي طاهر المعروف بابن الصائغ للفتك بابن ملاعب. ونجحت المؤامرة. ويصف ابن الأثير أفامية بأنها من أمنع الحصون (الكامل - حوادث سنة ٤٩٩ هـ).

(٣) اسامه بن منقذ : الاعتبار ص ٧٥ - ٧٦.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 250.

(5) Runciman, op. cit., II pp. 53 - 54.

محاصرة البيزنطيين وطردهم من اللاذقية. ولذلك إستعان بالبيازنة، وإستطاع بهذه الطريقة أن يسترد اللاذقية فى منتصف سنة ١١٠٨ . وقد كافأ تنكرد البيازنة على ما قدموه له من معونة بإعطائهم درباً فى أنطاكية وحياً فى اللاذقية، فضلاً عن أنه كفل لهم حرية التجارة والعمل فى جميع موانى إمارة أنطاكية (١).

وأخيراً توج تنكرد إنتصاراته على البيزنطيين بالقيام بهجوم على قيليقية فى أواخر سنة ١١٠٨ وأوائل سنة ١١٠٩ . وفى ذلك الهجوم نجح تنكرد فى الإستيلاء على المصيصة بعد حصار قصير، كما إستطاع بعد بضعة أشهر أن يبسط سيطرته على أذنه وطرسوس، فى حين ظلت الأجزاء الغربية من إقليم قيليقية خاضعة للامبراطورية (٢).

وهكذا استطاع تنكرد فى مدى أربع سنوات أن يسترد معظم ما خسرته إمارة أنطاكية عقب هزيمة البليخ، وأن يحفظ تلك الإمارة من الضياع نهائياً بين المسلمين والبيزنطيين. ولاشك فى أنه أفاد فى تلك الفترة فائدة عظمى من الإنقسام بين صفوف السلاجقة.

تنكرد والسلاجقة

ظل الأتابكة فى شمال الشام وأرض الجزيرة مصدر جميع القلاقل التى شهدتها تلك البلاد عند مطلع القرن الثانى عشر. وإذا كان أولئك الأتابكة فى نظر الصليبيين حكاماً مستقلين فانهم فى حقيقة الأمر كانوا - من الناحية النظرية على الأقل - تابعين لسلاجقة فارس (٣).

ويطول بنا الأمر لو دخلنا فى تفاصيل المنازعات بين أتابكة الشام والجزيرة، ولكن تكفى الإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من عقد صلح سنه ١١٠٤ بين بركياروق ومحمد ابنى ملكشاه، وأن الموصل - بمقتضى ذلك الصلح - صارت من نصيب محمد. على أن جكرمش أتابك الموصل رفض أن يسلم محمد المدينة، واعتذر بأنه لن يسلمها إلا لبركياروق نفسه (٤). ولم تؤثر وفاة بركياروق فى يناير سنة ١١٠٥ فى موقف جكرمش، إذ «جدد سور الموصل ورم جميع ما

---

(1) Heyd : op. cit., I, pp. 145 - 146.
(2) Guillaume de Tyr I, p.p. 635 - 636.
(3) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 24.
(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ١٩٧ - ١٩٨ . وقد كتب ابن العبري اسم أتابك الموصل بالياء (جكرميش).

يحتاج إلى الإصلاح ، ورفض دفع المال المقرر عليه لمحمد الذى غدا السلطان الوحيد لسلاجقة فارس. ويبدو أن جكرمش إعتمد إلى حد كبير على ولاء أهل الموصل له ومحبتهم «لحسن سيرته فيهم»، الأمر الذى جعل السلطان محمد يزحف على الموصل بالنقابين والدبابات، ويقاتل أهل الموصل قتالاً شديداً، ولكن دون أن يظفر بغرضة (١).

وأخيراً فكر السلطان محمد فى وسيلة لإسترجاع الموصل وديار بكر والجزيرة، فمنح حكمها جميعاً لأحد رجاله – وإسمه جاولى سقاووا – وعهد إليه سنة ١١٠٦ بمحاربة الصليبيين فى أطراف العراق والشام، وتحت هذا الستار يستطيع أن يقضى على جكرمش. ولم يلبث الأخير أن حلت به الهزيمة، فأسر على ضفاف دجلة، ولكن أهل الموصل رفضوا أن يسلموا مدينتهم لجاولى وأقاموا زنكى الصغير ابن جكرمش – وسنه إحدى عشرة سنة – أتابكا عليهم (٢).

ثم إن أهل الموصل لم يقنعوا بكل ذلك وإنما إستنجدوا بقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم فى قونية، فحضر إليهم ووضع يده على الموصل وتعهد بحمايتهم (٣). أما جاولى فقد إنسحب الى سنجار حيث إتصل به إيلغازى بن أرتق، كما إتصل به الملك رضوان صاحب حلب، وإتفق الطرفان علي طرد قلج أرسلان من الموصل أولاً ثم التوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية. وقد إنتهت الحرب ضد قلج أرسلان بهزيمته وغرقه فى نهر الخابور، مما مكن جاولى من الإستيلاء على الموصل سنة ١١٠٧(٤). على أن جاولى لم يكد ينجح فى تحقيق ذلك حتى أعلن إستقلاله بالموصل، مما جعل السلطان محمد يعهد سنة ١١٠٨ إلى أحد رجاله – وهو مودود بن التونتكين – بطرد جاولى من الموصل على أن يحل محله فى حكمها (٥). وهكذا إضطر جاولى مرة أخرى إلى الفرار من الموصل سنة ١١٠٨، حيث إلتف حوله فى الجزيرة جميع أعداء سلطنة السلاجقة، وعلى رأسهم قبيلة بنى مزيد العربية التى طردها السلطان محمد من الحلة سنة ١١٠٨. كذلك لم يتردد جاولى فى محالفة القوى الصليبية المجاورة ليكون جبهة قوية ضد السلطنة

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ.
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨ .
(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ.
(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ & Runciman op. cit., II, p. 110.
ويذكر أبو المحاسن أن قلج أرسلان لما رأي الهزيمة عليه ألقي نفسه في الخابور فغرق، فأخرج وحمل تابوته إلي ميافارقين ودفن بها (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩١).
(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ وما بعدها.

السلجوقية، مما جعله يطلق سراح بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها، ويعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة، كما سيلى فيما بعد (١).

على أن تنكرد الذى كان يسيطر على أمور الرها منذ أربع سنوات رفض أن يسلم المدينة لبلدوين إلا إذا أقسم له يمين الولاء. وكان من المستحيل أن يفعل بلدوين دى بورج ذلك وهو تابع فعلاً لملك القدس، فإنصرف غاضباً إلى تل باشر حيث أنظم إليه جوسلين وأخذا يفكران فى الإستعانة بجاولى ضد تنكرد (٢) وفى تلك الأثناء كان جاولى يسعى لإقامة إمارة له فى الجزيرة، فلم يجد مفراً من الإعتداء على ممتلكات رضوان ملك حلب. وكان أن أخذ رضوان يبحث لنفسه بين صفوف الصليبيين عن حليف، مثلما إعتمد جاولى على محالفة بلدوين الثانى أمير الرها، فلم يجد رضوان حليفاً سوى خصمه القديم تنكرد صاحب أنطاكية.

وهكذا إنقسم المسلمون والصليبيون فى شمال الشام والعراق على أنفسهم، فظهر حلفان الأول من جاولى وبلدوين دى بورج أمير الرها، والثانى من رضوان وتنكرد حاكم أنطاكية .وقد إنتهت المعركة الى دارت بين الطرفين فى نهاية سبتمبر سنة ١١٠٨ بهزيمة الفريق الأول وإنتصار تنكرد، ولكن بعد أن خسر الصليبيون جميعاً ألفى رجل (٣).

تنكرد وبقية الإمارات الصليبية بالشام :

وقد حاول تنكرد أن يستغل إنتصاره السابق على بلدوين دى بورج ليضع يده على إمارة الرها الصليبية. ولكنه فشل فى محاولته هذه، بعد أن حصل بلدوين دى بورج على مساعدة جميع أمراء الأرمن فى الجهات الواقعة شرقى آسيا الصغرى وأطراف الجزيرة. لذلك إستجاب تنكرد لنصيحة بطرق أنطاكية، فسحب نائبه ريتشارد دى سالرنو من الرها، ودخلها بلدوين دى بورج ظافراً حيث إستقبل فى حماسة بالغة (٤).

أما تنكرد فلم يجد أمامه – بعد أن فشلت خطته فى الرها – سوى إمارة طرابلس ليتدخل فى شئونها، عله ينجح فى السيطرة على تلك الإمارة. وقد سبق أن ذكرنا كيف حضر برترام بن ريموند الصنجيل إلى الشام ١١٠٨ للمطالبة بحقه

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(2) Setton : op. cit., I, pp. 393 - 394.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(4) Matthieu d'Edesse, p. 87.

فى تركة أبيه وإستلامها من وليم جوردان. كذلك أشرنا إلى أنه عند وصول برترام إلى ميناء السويدية أسرع تنكرد لملاقاته، ثم عاد وطرده عندما رفض برترام أن يحالفه فى مشاريعه العدوانية ضد الدولة البيزنطية (١). وكان أن ألقى وليم جوردان بنفسه بين أحضان تنكرد وأعلن تبعيته له، فوجد تنكرد فى ذلك فرصة طيبة لتحقيق أطماعه فى الإمارة الجديدة عن طريق الوقوف إلى جانب وليم، ولكن برترام فوت على تنكرد هدفه عندما إستنجد ببلدوين الأول ملك بيت المقدس، الذى حذر تنكرد من القيام بأى عمل عدوانى ضد برترام (٢).

ومهما يكن من أمر، فان حضور بلدوين بنفسه، وتقسيمه ساحل الشام بين وليم جوردان وبرترام - كما سبق أن ذكرنا - ثم مساعدته برترام فى فتح طرابلس واتخاذها قاعدة للامارة الجديدة، كل ذلك أنقذ إمارة طرابلس من الوقوع تحت سيطرة تنكرد. ثم إن برترام لم يعترف وحده بالولاء لملك بيت المقدس، بل إضطر تنكرد هو الآخر إلى الإعتراف بذلك الولاء. وبزعامة مملكة بيت المقدس على كافة الإمارات الصليبية فى الشام وشمال العراق (٣).

توسع تنكرد على حساب المسلمين :

وعندما قنط تنكرد من التوسع على حساب إمارة الرها من جهة وإمارة طرابلس من جهة أخرى، لم يجد أمامه سوى جيرانه المسلمين، فإستولى على بانياس فى يولية سنة ١١٠٩، وهى تقع بين أنطرطوس واللاذقية، وبذلك صارت بمثابة الحد الجنوبى لإمارة أنطاكية على شاطىء البحر. وإلى الشمال من بانياس إستولى تنكرد أيضا على جبلة التى كان فخر الملك بن عمار أمير طرابلس السابق قد أوى اليها. وفى الداخل - فى مواجهة جبلة - إستولى تنكرد سنة ١١١١ على حصن بكسرائل (٤).

أما فى الجبهة الشرقية، فبعد أن قام تنكرد بمصاحبة بلدوين الأول ملك بيت المقدس فى ا لدفاع عن إمارة الرها ضد مودود أتابك الموصل الذى هاجمها وأوشك أن يقضى عليها سنة ١١١٠ - كما سيلى بالتفصيل - عاد تنكرد ليحارب رضوان ملك حلب الذى تنكر لمساعدة تنكرد له من قبل ضد أمير الرها وحليفه جاولي، وهاجم تنكرد أثناء حربه الأخيره ضد السلاجقة دفاعاً عن الرها (٥). وكان أن

(1) Albert d'Aix, pp. 665 - 666.

(2) Setton : op. cit. I, p. 367.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 445 - 447.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٣ هـ.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

هاجم تنكرد النقرة – قرب منبج – فإستولى عليها بعد أن فر أهلها الى الجزيرة تاركين خلفهم كل ما يملكون من مال ومتاع. ومن هناك إتجه تنكرد لمحاصرة الأثارب إلى الجنوب الغربى من حلب، على الطريق بينها وبين أنطاكية (١).

أما رضوان فقد إحتمى بمدينته حلب، وإكتفى بأن عرض على تنكرد مبلغ عشرين ألف دينار ليتخلى عن حصار الأثارب، ولكن تنكرد تمسك بثلاثين ألف دينار، فضلاً عن إطلاق سراح جميع من فى حلب من أسرى الصليبيين. ولما كان رضوان لا يريد دفع ذلك المبلغ الضخم، فقد ترك الأثارب تسقط فى يد تنكرد فى نهاية سنة ١١١٠ (٢). ويذكر ابن العديم ومتى الرهاوى أن تنكرد ترك حامية القلعة تخرج من غير سوء، فى حين قال ابن الأثير أنه قتل ألفين من رجالها وأسر الباقى (٣).

والواقع إن سقوط الأثارب التى لا تبعد عن حلب أكثر من ثلاثين كيلو متراً، جاء بمثابة ضربة خطيرة لرضوان، إذ «ضعفت حلب بأخذ الأثارب ضعفاً عظيماً» على قول ابن العديم. ذلك أن تنكرد صار يستطيع من تلك القلعة مهاجمة حلب نفسها فى عنف، فضلاً عن حرمانها من الغلال والغذاء الذى تحصل عليه من السهول المحيطة بها . وبعبارة أخرى فان تنكرد أصبح فى موقف يجعله يملى إرادته على رضوان الراغب فى الصلح، فأصر تلك المرة على الشروط التى طلبها من قبل، وأضاف إليها الإستيلاء على حصن زردنا، فضلاً عن إطلاق سراح جميع الأرمن المحبوسين فى حلب (٤). وكان أن إرتضى رضوان كل هذه الشروط القاسية، فتم الصلح بينه وبين تنكرد، ولكن حلب نفسها غدت فى حالة سيئة من المهانة والضعف، لاسيما بعد أن هجرها جزء كبير من أهلها وفروا إلى بغداد. كذلك ساءت أحوالها الاقتصادية بعد أن إستولى الصليبيون على معظم مزارعها ودمروا الباقى وإنصرف عنها التجار «وأقام الناس ما يجدون شيئا يقتاتون به، فكثرت اللصوص من الضعفاء، وخاف الأعيان على أنفسهم، وساء تدبير الملك

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٥ – ١٥٦ (مطبوع).

(٢) وصف ابن العديم (زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٦٤) رضوان صاحب حلب بأنه كان يحب المال، ولا تسمح نفسه باخراجه، حتي كان أمراؤه وكتابه ينبذونه بأبي حبة، وهو الذي أفسد أحواله وأضعف أمره.

(3) Matthieu d'Edesse, I, p. 95 &

ابن الاثير ، سنة ٥٠٤ هـ.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٦ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٦ – ١٥٧ & Albert d'Aix p. 634

رضوان ، فأطلق العوام ألسنتهم بالسب له وتعييبه» (١).

ثم إن تنكرد الذى أصبح السيد المسيطر على الأطراف الشمالية من بلاد الشام لم يقنع بفرض كلمته على ملك حلب وإذلاله، وإنما أخذ يسعى لتحقيق مكاسب أخرى على حساب القوى الإسلامية الصغيرة، المجاورة. ولم يلبث سلطان بن منقذ أمير شيزر وعلى الكردى أمير حماة أن تعهدا بدفع قطيعة طائلة، ثمناً لشراء مسالمة تنكرد، فدفع الأول أربعة آلاف دينار، ودفع الثانى عشرة آلاف دينار (٢).

نهاية تنكرد :

وبعد أن قام تنكرد - بالاشتراك مع بلدوين دى بورج أمير الرها وبلدوين الأول ملك بيت المقدس - بدور ملحوظ فى محاربة سلاجقة فارس الذين تجمعوا مرة أخرى ١١١١ تحت قيادة مودود أتابك الموصل، عاد تنكرد إلى أنطاكية حيث توفى فى ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢(٣)، دون أن يترك وريثاً من زوجته سيسل، التى لم تلبث أن تزوجت بعد قليل من برترام أمير طرابلس، مما أدى إلى تهدئة الموقف بين إمارتى أنطاكية وطرابلس، كما مر بنا (٤).

ولاشك فى أن وفاة تنكرد جاءت خسارة عظيمة للصليبيين فى الشام بوجه عام وإمارة أنطاكية بوجه خاص، الأمر الذى جعل المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى يرثيه فى حرارة بالغة (٥). ذلك أنه يعتبر المؤسس الحقيقى لإمارة أنطاكية، فإستطاع أن يحتفظ لتلك الإمارة بمكانتها خلال مدة أسر خاله بوهيموند (١١٠٠ - ١١٠٣)، ثم طوال غيبته فى الغرب (١١٠٤ - ١١١١) كما دافع عن كيان الإمارة ومصالحها ضد البيزنطيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى (٦). وأكثر من هذا أن تنكرد هو صاحب الفضل فى توسيع إمارة أنطاكية، والاستيلاء على كثير من المراكز الهامة من البيزنطيين والمسلمين، سواء على شاطيء الشام أو فى داخليته، أو فى قيليقية، وساعد على تحقيق كل هذه المكاسب شجاعة تنكرد التى بلغت أحياناً حد التهور، وصلابته فى كثير من المواقف، وهى صفات ورثها

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الإعتبار ص ١٢٠ - ١٢١.

(3) Foucher de Chartres, p. 425.

(٤) أنظر ما سبق (الفصل الرابع من الباب السادس)

(5) Matthieu d'Edesse, pp. 281 - 282.

(6) Setton : op. cit., p. 401.

عن أسلافه النورمان فى غرب أوربا وجنوبها [1].

ولم يمض عام على وفاة تنكرد حتى لحق به حليفه رضوان ملك حلب السلجوقى (ديسمبر ١١١٣)، الذى إعتمد على الصليبيين من ناحية وعلى الباطنية من ناحية أخرى فى مقاومة سلاجقة فارس وخلافة بغداد. وقد سبق أن ذكرنا أن رضوان أفرط فى الإعتماد على الباطنية حتى إزداد نفوذهم «وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة .. وبايعهم خلق كثير على مذهبهم طلباً لجاههم. وكان كل من أراد أن يحمى نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم» [2]. وقد ترك رضوان من بعده فى حكم حلب ابنه الشاب ألب أرسلان المعروف بالأخرس، وهو الذى وصفه المؤرخ ابن العديم بأنه كان متهوراً قليل العقل، فبدأ حكمه بقتل أخويه ملكشاه ومباركشاه [3]. ويبدو أن الباطنية وصلوا عندئذ إلى درجة من خطورة النفوذ جعلت السلطان محمد السلجوقى يرسل إلى ألب أرسلان يأمره بقتلهم، فى الوقت الذى ضاق أهل حلب ذرعاً بهم وإستاءوا من حماية رضوان لهم، فإنقضوا عليهم عقب وفاة رضوان، وقتلوا زعيمهم أبا طاهر الصائغ وإسماعيل الداعى وغيرهم من زعماء الباطنية، فى حين حبسوا كثيرين وفر الباقى وتفرقوا فى البلاد [4]. ويقول ابن الأثير أن من إستطاعوا النجاة من الباطنية فروا الى الصليبيين وإحتموا بهم [5]. وقد حاول الباطنية الإستيلاء على قلعة شيزر ولكنهم فشلوا فى ذلك، ولم ينجحوا سوى فى الإستيلاء على القليعة قرب بالس والفرات، على الطريق بين حلب وبغداد. ومنذ تشريد الباطنية فى ذلك الوقت أخذوا ينزحون إلى جبال لبنان ويستقرون هناك [6].

أما عن سياسة ألب أرسلان ملك حلب الجديد تجاه الصليبيين فلم تختلف عن سياسة أبيه، إذ سارع بدفع الجزية الى روجر الأنطاكى – خليفة تنكرد – للإستعانة به ضد بقية السلاجقة. ولم يلبث ألب أرسلان «أن رأى أن المملكة تحتاج الى من يدبرها أحسن تدبير»، فقصد طغتكين أتابك دمشق، وطلب منه الحضور

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 476 - 477.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٥ ، ١٦٨.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

وقد وصفه ابن العديم كان فى كلامه حبسة وتمتمة فلذلك عرف بالأخرس (زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٦٧).

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب. ج ٢ ص ١٦٨ – ١٦٩.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ.

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠

أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٤٦ – ١٥٣.

لإستلام حلب وإدارة شئونها. وقبل طغتكين تلك الدعوة وذهب مع ألب أرسلان الى حلب فى نهاية فبراير سنة ١١١٤ (١). على أن ألب أرسلان انهمك «فى المعاصى واغتصاب الحرم والقتل» ، فإستاء طغتكين من مسلكه ورأى من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والإعراض عن مشورته ما أنكره، ولذلك عاد طغتكين إلى دمشق بعد قليل.

ولم يلبث أن دبر بدرالدين لؤلؤ اليايا مؤامرة لقتل ألب أرسلان أثناء نومه. وعندما نجحت المؤامرة (سنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ م) أعلن أخوه الصغير سلطان شاه ملكاً على حلب. غير أن سلطانشاه كان صغيراً فى السادسة من عمره، فتولى لؤلؤ مع القائد شمس الخواص – أمير رفنية السابق – السيطرة على قلعة حلب وجيشها، وإن كانت السلطة الفعلية فى الإمارة قد آلت إلى أعيان حلب. ولعل ضعف مركز حلب بين جيرانها فى ذلك الوقت هو الذى دفع لؤلؤ إلى إتباع سياسة رضوان فى محالفة الصليبيين بأنطاكية (٢).

(١) ابن العديم زبدة الحلب، ج ٢ ص ١٦٩.
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٢ – ١٧٣.
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠.

الفصل الخامس

روجــــر الأنــطـــاكــى

إختيار روجر حاكماً على أنطاكية :

ظل تنكرد يحكم أنطاكية بمقتضى العرف الإقطاعى الغربى حتى وفاة بوهيموند سنة ١١١١ . ومعنى ذلك أن تنكرد حتى تلك السنة كان نائباً عن بوهيموند في حكم أنطاكية ، ولم يصبح أميراً على تلك الامارة إلا بعد وفاة بوهيموند ، لأن الأخير ترك طفلا صغيراً فى الثانية من عمره - هو بوهيموند الثانى - ظل فى إيطاليا بين أحضان أمه . وهكذا كان على تنكرد أن يفكر فيمن يخلفه فى حكم أنطاكية ، فإختار روجر دى سالرنو ، وأوصى له بالحكم وهو على فراش الموت ، ولكنه إشترط أن يتنازل روجر عن الحكم لبوهيموند الثانى إذا بلغ الأخير سن الرشد وأتى إلى الشرق للحصول على تركة أبيه (١).

وعلى هذا الأساس أصبح روجر دى سالرنو - الذى عرف بالأنطاكى - أميراً على أنطاكية فى نهاية ديسمبر سنة ١١١٢ . وهنا نلاحظ أن روجر هذا كان متزوجا من سيسليا Cecilia أخت بلدوين دى بورج أمير الرها ، كما أن مارى أخت روجر صارت الزوجة الثانية لجلوسلين دى كورتناى ، مما أوجد رباطا قوياً بين إمارتى الرها وأنطاكية (٢). وعندما أصبح بلدوين دى بورج ملكاً على بيت المقدس سنة ١١١٨ ، حظيت إمارة أنطاكية - بفضل علاقة المصاهرة هذه - بتأييد مملكة بيت المقدس ومساعدتها (٣).

حملة السلاجقة سنة ١١١٣ :

وصف أسامة بن منقذ روجر دى سالرنو بأنه كان «شيطاناً من الفرنج» (٤). وذلك لقوته ودهائه ومثابرته على محاربة المسلمين والإعتداء عليهم . ولم يكد روجر يتولى حكم إمارة أنطاكية حتى أتيحت له الفرصة ليظهر شجاعته فى

(1) Foucher de Chartres, p. & Guillaume de Tyr, p. 483 .
(2) Runciman : op. cit., II, p. 126.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. pp. 482 - 483 .
(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٨ .

محاربة السلاجقة الذين قاموا بحملة على بيت المقدس .

ذلك أن مودود بن ألطنتاش (١) - أتابك الموصل - ظل متمسكاً بفكرة الجهاد والحرب الدينية ضد الصليبيين ، وهى المهمة التى عهد إليه بها محمد ، سلطان سلاجقة فارس . وكان مودود هو الممثل للسلطان السلجوقى فى إقليم الجزيرة والشام ، وذلك بوصفه حاكم الموصل ، لذلك دعا جيرانه من أمراء المسلمين لمحاربة الصليبيين سنة ١١١٣ ، وإنضم إليه بعض زعماء السلاجقة مثل تميرك صاحب سنجار ، وأياز ابن إيلغازى أمير ماردين ، وطغتكين أتابك دمشق (٢) . وكان طغتكين هو الذى وجه تلك الحملة ضد مملكة بيت المقدس الصليبية للإنتقام من الإغارات التى دأب الصليبيون على القيام بها لمهاجمة دمشق وملحقاتها (٣) .

وعندما علم بلدوين دى بورج بنية المسلمين ، أسرع بتحذير بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، فإستنجد الأخير بأتباعه فى الشام ، وخف لنجدته روجر أمير أنطاكية ، وبونز أمير طرابلس ، فى حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته فى شمال العراق ، كانت فى مهب العاصفة وفى حاجة إلى حماية خاصة . وبعد أن أنزل المسلمون هزيمة بالملك بلدوين الأول عند الصنبرة ، ارتد ملك بيت المقدس مدحوراً إلى طبرية ، ولم يلبث أن وصل روجر الأنطاكى وبونز لنجدته (٤) . على أن زعماء السلاجقة لم يلبثوا أن تفرقوا - كما سبق أن ذكرنا - بعد أن أضاعوا بضعة أسابيع فى الانتظار غربى طبرية (٥) . فاتجه مودود صحبة طغتكين إلى دمشق فى أغسطس سنة ١١١٣ حيث قتل مودود بيد أحد الباطنية وبتحريض من طغتكين ، كما سبق أن أشرنا (٦) . وبذلك إستراح الصليبيون من ذلك الرجل الذى آمن بفكرة الجهاد من ناحية ، وإحتفظ بولائه لسلطان السلاجقة من ناحية أخرى ، مما جعله يسبب للصليبيين رعباً كبيراً (٧) .

---

(١) ورد هذا الإسم في المصادر العربية في صور عديدة ، منها (ألتونطاش) و التون تكش .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ .
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 484 .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ . Guillaume de Tyr. p. 489.
(٥) ذكر ابن العبري أن مودود ، أذن للعساكر في العود والاستراحة ، ثم الاجتماع في الربيع (تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩) .
(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ &
Matthieu d'Edesse d. p. 107 - 108 .
(7) Runciman : op. cit., II, p. 127 .

أما عن خليفة مودود ، وهو آقسنقر البرسقى ، فقد صار لزاماً عليه عقب أن عينه السلطان السلجوقى فى حكم الموصل أن يستأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين. وقد قام بهجوم سنة ١١١٤ على الرها - كما سيلى فى الباب الآتى - ولكنه لم يستطع حصارها أكثر من شهرين ، ثم إرتد عنها فاشلاً ، بعد أن «صبر له الفرنج»(١).

حملة السلاجقة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت أنطاكية فى أواخر نوفمبر سنة ١١١٤ لزلزال شديد دمر جزءاً كبيراً من مبانيها ، فضلاً عما أحدثه بالمدن والقلاع التابعة لتلك الإمارة (٢). وقد تخوف الصليبيون من أن يحاول المسلمون فى حلب ودمشق الإستفادة من تلك الكارثة فى مهاجمة أنطاكية ، ولكن شيئاً من تلك المخاوف لم يتحقق . والواقع إن الخطر الذى هدد أنطاكية والصليبيين جميعاً فى بلاد الشام وأطراف العراق فى ذلك الوقت إنما إنبعث من الموصل ، حيث تجمعت حملة جديدة ، لاستئناف الجهاد ضد الصليبيين .

وكان السلطان محمد السلجوقى قد عزل آقسنقر البرسقى من أتابكية الموصل، ومن زعامة الحرب الدينية ضد الصليبيين بعد فشله أمام الرها ، وأحل محله أحد مماليكه الأتراك ، وهو المعروف باسم جيوش بك (٣). وقد أرسل السلطان ابنه مسعود ليتدرب على شئون الحكم عند جيوش بك فى الموصل ، فى حين عهد السلطان بقيادة الحرب ضد الصليبيين فى فبراير سنة ١١١٥ إلى برسق بن برسق صاحب همذان وخوزستان ، وهو أحد القادة المعروفين بمهارتهم فى شئون الحرب. وتحت قيادة برسق هذا ، سار جيوش بك ومعه قوات الموصل ، وتميرك صاحب سنجار ومعه قوات الجزيرة(٤).

ويبدو أن سلطنة السلاجقة فى أصفهان لم تستهدف من هذه الحملة محاربة الصليبيين فقط ، بل بسط هيمنة السلطنة السلجوقية على كافة الإمارات الإسلامية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ .

Matthieu d'Edesse, pp. 282 - 283

(٢) أشار ابن الأثير إلي هذا الزلزال فقال : إنه كان شديداً بديار الجزيرة والشام ، وأنه خرب كثيراً من المدن مثل الرها وحران وسميساط وغيرها وهلك خلق كثير تحت الهدم» (الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ) .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 485 - 486

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

فى الشام وشمال الجزيرة ، حيث إستطاع كثير من حكام المسلمين - مثل طغتكين فى دمشق ، وبدر الدين لؤلؤ فى حلب ، وإيلغازى والأراتقة فى ديار بكر - أن يستغلوا فرصة الفوضى التى عمت البلاد نتيجة للحرب بين المسلمين والصليبيين لقطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية فى أصفهان. بل إن بعض أولئك الأمراء - مثل إيلغازى الأرتقى - لم يترددوا فى محاربة قوات السلطان محمد، مما جعل السلطان يعد هذه الحملة بقصد إخضاع أولئك الأمراء، ثم محاربة أنطاكية والرها وغيرهما من القوى الصليبية بعد ذلك (١).

وسرعان ما أحس ذلك النفر من أمراء المسلمين بالخطر، وكان أكثرهم إحساساً به هو إيلغازى فى ديار بكر، فأرسل بسرعة إلى طغتكين أتابك دمشق يستنجد به ضد الخطر المشترك (٢). ولعله من الواضح مدى الحرج والخطر اللذين أحس بهما طغتكين عقب مقتل مودود، لأن هذه الجريمة التى أتهمه الرأى العام الإسلامى بتدبيرها، إنما راح ضحيتها زعيم حركة الجهاد في العالم الإسلامي، فضلاً عما فيها من مساس بالسلطان محمد نفسه، لأن مودود كان أحد رجاله المخلصين (٣). لذلك أخذ طغتكين يعمل حساباً كبيراً لانتقام السلطان محمد، وأدرك أن محالفة الصليبيين فى ذلك الموقف خير له بكثير من مشاركة السلاجقة تحت ستار الجهاد (٤). وفعلاً لم يكد إيلغازى يذهب إلى طغتكين لطلب المساعدة، حتى إتفق الطرفان على محالفة الصليبيين (٥).

أما بدر الدين لؤلؤ صاحب حلب فكان على ولائه فى أول الأمر لسلطنة السلاجقة، ولكنه غير رأيه فى آخر لحظة. وهكذا لم يبق لسلطنة أصفهان غير دعامتين إعتمدت على ولائهما فى بلاد الشام، هما بنو منقذ فى شيزر الذين أفزعهم تهديد إمارة أنطاكية لفامية وكفر طاب (٦)؛ ثم أمير حمص قيرخان بن قيراجا (قرجان بن قراجة) الذى كان يرغب في الاستيلاء على حماة من طغتكين. وفعلا لم يكد إيلغازى يفرغ من مباحثاته مع طغتكين، فى دمشق، حتى

(١) وأمرهم (السلطان) بالبداءة بقتل إيلغازي وطغتكين فاذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم ....
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٩ هـ.
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 490.
(4) Foucher de Chartres, p. 29 & Guillaume de Tyr, p. 493.
(٥) فاتفقا علي الامتناع، والالتجاء إلي الفرنج، والاحتماء بهم.
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ.
(٦) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٥.

قبض عليه قيرخان عند الرستن - بين حمص وحماة - أثناء عودته، وإن كان لم يلبث أن أفرج عنه بعد قليل عندما تأخر ظهور الجيش السلجوقي(١).

وكان أن تجمعت الحملة السلجوقية أخيراً فى الجزيرة، ومنها اتجهت صوب حلب فخشي «المولى لأمرها» بدر الدين لؤلؤ الخادم غدر السلاجقة. وعندما استنجد بدر الدين لؤلؤ بطغتكين وإيلغازي، أسرعا لنجدته على رأس ألفين من الفرسان، ودخلا حلب لينتظروا جميعاً وصول قوات السلطان محمد. أما الصليبيون فلم يكونوا أقل تخوفاً واستعداداً لملاقاة الجيش السلجوقى فأسرع روجر الأنطاكى أمير أنطاكية يجمع جيوشه علي نهر العاصى - عند جسر الحديد - للدفاع عن أنطاكية من جهة، ومراقبة تطورات الموقف فى حلب من جهة أخري. ثم حدث الإتصال بين الجانبين لمواجهة الخطر المشترك، فإجتمعت قوات الأطراف جميعاً البالغة اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من الصليبيين وعشرة آلاف من المسلمين، وتم اللقاء عند فامية (٢).

وكان برسق قائد الجيش السلجوقى قد وضع خطته على أساس إتخاذ حلب قاعدة لعملياته الحربية فى الشام، فلما وجد أن بدر الدين لؤلؤ الخادم تنكر للسلطان وإنضم إلى الجبهة المعادية، إضطر إلى أن يغير وجهته فاتجه شطر بنى منقذ فى شيزر وقيرخان فى حمص، وهما اللذان بقيا على ولائهما للسلطان محمد (٣).

وقد اختار برسق أن يبدأ بحماة التابعة لطغتكين أتابك دمشق، فإستولى عليها بمساعدة حليفه قيرخان «ونهبها ثلاثة أيام» أتى فيها من أعمال السلب والتخريب ما جعل المسلمين في الشام يتخوفون من جيوش السلطان محمد ويرغبون فى مقاومتها(٤). ثم إتجه برسق بعد ذلك إلى شيزر، ومن هناك هاجمت قواته كفر طاب التابعة للصليبيين. على أنه يبدو أن وصول بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس على رأس قوات كبيرة، جعل برسق يدرك أن السلامة فى الانسحاب، فتراجع فوراً على رأس قواته إلى الجزيرة وتمت عملية الانسحاب بنجاح. وهكذا لم يلبث أن تفرق الحلفاء، فعاد الملك بلدوين الأول إلى بيت المقدس، وبونز إلى طرابلس، وطغتكين إلى دمشق، وشمس الخواص قائد جيش حلب إلى حلب ، وروجر إلي أنطاكية ، وإيلغازى إلى ماردين (٥).

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٨ هـ.
(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الإعتبار ص ١٢٠.
(3) Stevenson : op. cit., 98.
(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٩ هـ.
(٥) المصدر السابق.

على أن إنسحاب برسق لم يكن فى حقيقة الأمر سوى خدعة بارعة، لأنه لم يلبث أن عاد فجأة بجيوشه إلى كفر طاب وحاصرها، حتى إذا ما إستولى عليها فى أوائل سبتمبر سنة ١١١٥، دمرها وأسر من بقى على قيد الحياة من حاميتها الصليبية، ثم أعطاها لحلفائه بنى منقذ أمراء شيزر. وبعد ذلك إتجه برسق إلى معرة النعمان ومنها أخذ يستعد للإستيلاء على زردنا، وهى قلعة للصليبيين قرب حلب[١]. وفي الوقت نفسه أرسل برسق قوة كبيرة تحت قيادة جيوش بك صوب حلب. على أن هذه العملية الأخيرة لم يكن لها أثر سوى إضعاف قوة برسق من ناحية، وإستثارة روجر الأنطاكى من ناحية أخري.

وفى الوقت الذى كانت قوات السلاجقة تعسكر غربى سرمين – عند دانيث– إذا بالصليبيين بقيادة روجر الأنطاكى وبلدوين دى بورج أمير الرها ينقضون عليهم فيقتلون منهم كثيرين، فى حين فر الباقون، وعلي رأسهم برسق نفسه (١٤ سبتمبر ١١١٥)، وقد حصلوا على كثير من الغنائم « واخذ الكفار من هذا ما يفوق الوصف وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب والأمتعة ما لا يحصي[٢]». وكان أن قسم أمراء الصليبيين على أنفسهم تلك الغنيمة الضخمة، فسر أهل أنطاكية سروراً عظيماً عندما عاد روجر ومعه تلك الثروة الطائلة فى ١٨ سبتمبر[٣].

وهكذا جاء إنتصار الصليبيين في دانيث ليضع نهاية لجهود سلاطين سلاجقة فارس لإسترداد الشام. ولم يلبث أن توفى برسق بعد بضعة أشهر متأثراً بعار الهزيمة ، فى حين أعرض السلطان محمد السلجوقى عن بذل تضحية أخرى فى بلاد الشام[٤]. ثم إن هذه الهزيمة كان لها رد فعل قوى فى بلاد الشام، سواء فى القوى المحالفة للسلطان السلجوقى أو المعادية له. ومن ذلك ان بنى منقذ فى شيزر أسرعوا إلي ترك كفر طاب فإحتلها النورمان أثناء عودتهم إلى أنطاكية بعد الموقعة[٥]. أما طغتكين اتابك دمشق – حليف الصليبيين – فقد تشجع وإنتزع رفنية من امير حمص[٦]. ثم إن بنى منقذ فى شيزر لم يكتفوا بتسليم كفر طاب

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٥.
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٦.
وذكر ابن العديم أن الترك عندئذ انتشروا في أعمال المعرة واشتغلوا بالسلب والنهب ، ووقع التحاسد فيما بينهم.

(3) Guillaumde de Tyr, p. 489.
(4) Runciman : op. cit., II, p. 133.

(٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤٤.
(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٧.

لروجر الأنطاكي، وإنما عقدوا معه صلحاً لمسالمته كما حرصوا على عدم الإعتداء على القوافل الصليبية بين أنطاكية وبيت المقدس (١).

روجر الأنطاكى والمسلمون بعد موقعة دانيث :

إستطاع روجر الأنطاكى بعد الانتصار الكبير الذى حققه على السلاجقة فى موقعة دانيث أن يضفى على نفسه مكانه عظيمة فى المحيط الصليبى من ناحية، وفى المحيط الإسلامى من ناحية أخري، فأخذت القوى الإسلامية المجاورة تعمل حساباً كبيراً لروجر – أو سير جال – كما أسماه المسلمون Sir Roger(٢). حقيقة إن طغتكين ذهب إلى بغداد فى مارس سنة ١١١٦ ليظهر التوبة عن محالفة الصليبيين، ويطلب العفو من السلطان محمد، «فرضى عنه السلطان وخلع عليه» (٣)، ولكن كل ذلك لا يحجب وجه الحقيقة الكبرى وهى أن القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ظلت مفككة لا تربطها رابطة، مما مكن الصليبيين من إحراز نصر تلو آخر. ثم إن كل قوة من تلك القوى الإسلامية كانت تعانى خللاً واضطراباً فى جهازها الداخلي،مما أتاح فرصة طيبة للصليبيين للتدخل فى شئونها وإبتلاع الممتلكات الاسلامية قطعة بعد أخرى (٤).

من ذلك ما حدث فى حلب عندئذ من قيام بدر الدين لؤلؤ بقتل ألب أرسلان ابن أستاذه لينفرد هو بحكم الإمارة (١١١٤ – ١١١٧) (٥). وعندما أحس بدر الدين لؤلؤ بضعفه، وعدم قدرته على الوقوف بمفرده وسط العواصف الداخلية والخارجية المحيطة به، طلب محالفة طغتكين أتابك دمشق. على أن هذه المحالفة لم تنجه من المصير السيء الذى انتظره ؛ إذ قتله بعض أعوانه عند رجوعه من قلعة جعبر سنة ١١١٧ وهم يصيحون «أرنب ! أرنب» ليوهموه أنهم يتصيدون أرانب (٦).

ويهمنا من تلك الأحداث أن الفرصة أتيحت لروجر الأنطاكى عندما وجد حلب دون ملك يزود عنها، فغزا أرض حلب «وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشرقية»، على قول ابن العديم. وعندما تولى ياروقتاش (يارقتاش) – الأرمنى الأصل – الوصاية على حلب، أسرع إلى إسترضاء روجر الأنطاكي، فعقد معه صلحا وتنازل له عن حصن القبة – أو قبة ملاعب – علي الطريق بين حلب

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 510.

(2) Setton : op. cit. I, p.408.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٩ هـ.

(4) Stevenson : op. cit., pp. 100-101

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠٨.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٧ وكذلك كتاب الكامل لابن الأثير – حوادث سنة ٥١١هـ.

ودمشق - فضلاً عن إعطاء روجر الحق فى فرض ضرائب على قوافل الحج المسلمين بين حلب والحجاز (١).

ولم يكن جيران حلب المسلمين أقل طمعا فى تلك الإمارة المتداعية، فأسرع نجم الدين إيلغازى بن أرتق - أمير ماردين - إلى إحتلال بالس على الفرات، وكانت تابعة لحلب. وعندما تقدم طغتكين أتابك دمشق وآقسنقر البرسقى أمير الرحبة لاحتلال حلب سنة ١١١٧ - ١١١٨، إستنجد أبو المعالى ابن الملحى الوصى علي حلب بروجر الأنطاكى الذى أدى ظهوره على المسرح إلى اختفاء الأميرين المسلمين (٢). ...

ولكن إذا كانت حلب قد غدت منذ سنة ١١١٨ تحت حماية الصليبيين من أهل أنطاكية، بعد أن فضل الحلبيون هذه الحماية عن الوقوع تحت سيطرة أحد من الشرق على قول ابن العديم (٣)، فإن الأوضاع لم تلبث أن تغيرت عندما تغلب الشعور الدينى وسلم الحلبيون بلدهم للأمير التركمانى نجم الدين إيلغازى ابن أرتق صاحب ماردين وديار بكر (٤). وهكذا تجدد العداء بين حلب وأنطاكية، فتقدم النورمان لحصار عزاز - شمالى حلب - ثم زحفوا على بزاع - إلى الشمال الشرقى من حلب - سنة ١١١٩ ،وبذلك بسط روجر الأنطاكى سيطرته على جميع المواقع المحيطة بحلب من ناحيتى الغرب والشمال. وجدير بالذكر أن الصليبيين عند إستيلائهم على تلك الأجزاء الجديدة لم يدمروها ويخربوا مزارعها، وإنما «زرعوا أعمال عزاز وقووا فلاحيهم وصار يدخل إلى حلب ما يتبلعون به من القوت (٥)».

ويرجح أنه حوالى ذلك الوقت أيضاً - أى سنة ١١١٧ - ١١١٨، إستولى الصليبيون على حصن المرقب إلي الجنوب الشرقى من بانياس، وبذلك إستطاعت إمارة أنطاكية - في عهد أميرها روجر - أن تقوم بدورها كاملاً في دعم السياسة الصليبية بالشام (٦).

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 559)
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٩ . وقد ذكر ابن القلانسي الاسم في صورة (ابن الملحمي).
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨١ .
(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١١.
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٦ .

Matthieu d'Edesse, pp. 297 - 298.
(6) Runciman : op. cit., II, 135.

الباب الثامن

إمــارة الرهــا والمسـيحيون الشـرقيون

" وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون".

(هود : ١٢١ - ١٢٢)

الفصل الأول

بلدوين دى بورج وإمارة الرها

أمراء الرها والأرمن :

رأينا فى الأبواب السابقة كيف نجح بلدوين الأول فى تأسيس أولي الإمارات الصليبية في الرها، وهي الإمارة التى أصبحت الدرع الواقى للصليبيين بالشام ضد الأخطار التى هددتهم من جانب سلاجقة فارس والعراق. ولم تلبث إمارة الرها أن نمت وإمتدت على ضفتي الفرات من راوندان وعين تاب غرباً إلى مشارف حران شرقاً، ومن بهسنى وكيسون شمالاً إلى منبج جنوباً.

على أن إمارة الرها ظلت دائماً تعانى من نقطتى ضعف واضحتين : أولاهما عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتزود عنها وتكسبها وقاية ومناعة، والثانية عدم تجانس سكانها، إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين – السريان والأرمن – والصليبيين الغربيين، فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا فى مدن بأكملها داخل نطاق تلك الإمارة – مثل سروج. وكان من الصعب على أمراء الرها فى تلك الظروف أن يحكموا إمارتهم حكماً يضمن لهم إشرافاً دقيقاً على مختلف أجزاء الإمارة، ولذلك لجأوا إلي تحصين المدن والقلاع التابعة لهم، وجمع الضرائب من المناطق المحيطة بتلك المدن (١).

وإزاء النقص الخطير فى عدد الصليبيين وفرسانهم، إضطر الأمير بلدوين الأول إلى الإعتماد فى حكم إمارة الرها على الأرمن الذين بلغوا ثلاثة أرباع عدد سكان الإمارة. وعندما إستدعى بلدوين الأول ليتولى حكم بيت المقدس عقب وفاة أخية جودفرى سنة ١١٠٠، إختار ابن عمه بلدوين دى بورج ليخلفه فى إمارة الرها تحت لقب الأمير بلدوين الثاني. وهكذا قدر لبلدوين الثانى هذا أن يتم عمل سلفه فى الرها، ثم يخلفه بعد سنين طوال ليتم عمله أيضاً فى بيت المقدس (٢).

على أن بلدوين دى بورج وجد نفسه فى مركز لا يحسد عليه حاكم عندما ولى أمر الرها، بسبب قلة المحاربين وخطر الأعداء ونقص المال. وهنا لم يجد

---

(1) Runciman : op. cit. II, p. 10.
(2) Setton : op. cit., I, pp. 381 - 407.

بلدوين دى بورج مفراً من إتباع سياسة سلفة بلدوين الأول فى الإعتماد على الأرمن ؛ ولكن دون أن يرهقهم أو يتعنت معهم. ذلك أنه عمل علي إسترضائهم والتقرب إليهم، وتحقيق نوع من التآلف بينهم وبين الصليبيين الغربيين. ومن الواضح أن هذه السياسة كان من شأنها أن تخفف من الأثر السيء الذى تركه بلدوين الأول فى النفوس، عندما تخلص من سلفة ثوروس الأرمنى بطريقة تنم عن الغدر والخيانة. هذا فضلاً عما فرضه بلدوين الأول عليهم من ضرائب باهظة أثقلت كاهل الطبقة البورجوازية. حقيقة إنه قام بحماية الأرمن من خطر السلاجقة، ولكنه تقاضي ثمناً باهظا مقابل تلك الحماية (١).

أما بلدوين الثانى دى بورج فلم يتبع سياسة تعسفية تجاه الأرمن، وإنما حصل منهم علي الأموال والمصاريف اللازمة للدفاع ضد الأتراك، دون أن يلجأ إلى أساليب التعسف والإجحاف. هذا بالإضافة إلى حسن معاملته للكنيسة الأرمنية ورجالها، مما جعل المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى يشيد بتلك المعاملة (٢). كذلك يذكر المؤرخ ميخائيل السريانى أن بلدوين الثانى دى بورج قام بحماية مطران اليعاقبة فى الرها (٣). ولم تلبث هذه السياسة أن قوت الرابطة بين المسيحيين الشرقيين والصليبيين الغربيين. ولتوثيق تلك الرابطة أيضاً، لجأ بلدوين الثانى دى بورج إلى الزواج من أرمينية - هى مورفيا ابنة جبريل حاكم ملطية - الذى كان تابعاً لأمير الرها منذ أن قام بلدوين الأول بالدفاع عن مدينته ضد بنى دانشمند سنة ١١٠٠ (٤).

ولم يلبث بلدوين الثانى أن وجد سنداً كبيراً فى شخص ابن عمته جوسلين دى كورتناى الذى وصل إلى الرها بعد قليل. وقد بلغ من سرور بلدوين بجوسلين أن منحه حكم جميع أراضى إمارة الرها غربى الفرات - بما فيها حصن تل باشر لتكون مركزاً له - ودلوك عند مفرق الطرق بين مرعش وحلب والرها، وعينتاب (عين تاب) إلي الجنوب الشرقى من دلوك، وغيرها. وهكذا أصبح جوسلين دى كورتناى الرجل الثانى فى إمارة الرها بعد بلدوين دى بورج، وشاركه فى السيطرة على تلك المنطقة ذات الموقع الهام بين سلاجقة حلب وسلاجقة فارس(٥).

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 388.
(2) Matthieu d'Edesse, pp. 70-71.
(3) Michel Le Syrien ed. Chabot. 111, p. 167.
(4) Guillaume de Tyr. pp. 347 - 387.
(5) Setton : op. cit., I, p. 363.

الحرب ضد الأراتقة :

وسرعان ما أدرك بلدوين الثانى دى بورج أنه لكى يقوى صلته بملطية،لابد وأن يتوسع على حساب الأتراك فى الموصل وديار بكر. وإختار أن يبدأ بالأراتقة فى ديار بكر. وكان بلدوين الأول قد إستولى على مدينة سروج - على بعد أربعين كيلو متراً إلى الجنوب من الرها - من حاكمها الأرتقى بلك بن بهرام بن أرتق (١). ولم تلبث أن أصبحت سروج المدينة الثانية فى إمارة الرها شرقي الفرات، وأقطعها لفارس إسمه فوشيه دى شارتر. ولكن لم يكد بلدوين الثانى دى بورج يتولى حكم إمارة الرها، حتى لجأ سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا إلى مهاجمة سروج، فتصدى له بلدوين دى بورج وفوشية دى شارت (٢). وفى القتال الذى دار بين الطرفين، حلت الهزيمة بالصليبيين، وقتل فوشيه فى المعركة (يناير سنة ١١٠١)، وإستولى المسلمون على سروج، فى حين لم يبق فى قبضة الصليبيين سوى قلعتها. أما بلدوين الثانى فقد إنسحب عقب تلك الهزيمة إلى الرها - حيث كان لايزال يتمتع بمحبة الأرمن وعطفهم - ثم إتجه بعد ذلك إلى أنطاكية لطلب المعونة من تنكرد (٣). وعندما عاد بلدوين الثانى من أنطاكية وجد الأراتقة لا يزالون يهاجمون قلعة سروج، فإنقض عليهم، وإستطاع - بفضل ما حصل عليه من أنطاكية - أن يمزق شملهم فى أوائل فبراير سنة ١١٠١، ثم دخل سروج نفسها وعاقب أهلها المسلمين لمساندتهم الأراتقة، وحمل منهم أسرى كثيرين (٤).

وقد شجع هذا الانتصار بلدوين الثانى على القيام بإغارات على المدن والأقاليم الإسلامية المجاورة التابعة للأراتقة. ومن ذلك ما يرويه المؤرخ متى الرهاوى من أنه قام فى سبتمبر وأكتوبر سنة ١١٠٣ باغارة علي الأراتقة حول ماردين، فأسر منهم كثيرين وحمل قدرا كبيرا من الغنائم (٥). ويذكر ابن الأثير أن بلدوين الثانى قام فى نوفمبر سنة ١١٠٣ بإغارة على مختلف المدن والقلاع الإسلامية فى إقليم الجزيرة، مثل جعبر والرقة على الفرات - وكانتا تابعتين للعقيليين (بنى عقيل) - فأغاروا وإستاقوا المواشى وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين (٦)

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I pp. 363.

(3) Runciman : op. cit II, p. 37.

(4) Matthieu d'Edesse (Doc. Arm I), pp. 53 - 54.

(5) Idem, p. 70.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.
ويقول ابن الأثير أن ملكشاه كان قد سلم سنة ٤٧٩ هـ قلعتي جعبر والرقه لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب ، وهو من بني عقيل.

أحوال السلاجقة :

وقد يبدو غريباً أن يتمكن الصليبيون فى الرها من مواصلة إعتداءاتهم المتكررة على البلدان الإسلامية فى الجزيرة عندئذ، دون أن يحاول سلاجقة فارس – ونوابهم أتابكة الموصل – التدخل لصد الصليبيين. بل إن أتابكة الموصل لم يحاولوا إستغلال الفرصة الذهبية التى أتاحها لهم وقوع بوهيموند أمير أنطاكية فى أسر بنى دانشمند (١١٠٠ – ١١٠١)، والفشل الذريع الذى منيت به حملة اللمبارديين الصليبية فى الأناضول، وكان فى إستطاعتهم أن يستغلوا كل هذه الظروف للإنفراد بإمارة الرها وإنزال ضربة قاصمة بها.

ولكن نظرة عاجلة نلقيها علي أتابكية الموصل فى تلك الفترة كفيلة بأن توضح لنا أن الموقف السلبى لتلك الأتابكية عندئذ إنما يرجع إلى إختلال أحوالها الداخلية أختلالاً جعلها مسرحاً لكثير من الفتن والثورات والمنازعات بين أمراء السلاجقة [(١)]. أما السلطان بركياروق فقد صار عاجزاً عن إخضاع بنى جلدته السلاجقة فى بلاد الروم وحلب ودمشق، بل إنه عجز عن ردع نوابه فى الأقاليم.

ومن ذلك أن قوام الدولة كربوغا (كربوقا) أتابك الموصل أوصى وهو على فراش الموت سنة ١١٠٢ بأن يخلفه فى حكم الموصل أحد رجاله، وإسمه سنقرجه [(٢)]. ولكن موسى التركماني – وهو أيضاً أحد رجال كربوغا – نازع سنقرجه حكم الموصل، وإستطاع موسى هذا أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل، بوصفه نائباً عن السلطان بركياروق. ولم يكد موسي التركمانى يهنأ بذلك النصر حتى ظهر له منافس جديد في شخص جكرمش الذي إستولى على نصيبين والذى طمع فى الموصل أيضاً، مما جعل موسى يستنجد بسقمان بن أرتق وأعطاه حصن كيفا وعشرة ألاف دينار لمساعدته. على أن ذلك لم يغن موسى التركمانى شيئاً إذ لم يلبث أن قتل، وبذلك أصبح جكرمش حاكم الموصل وما حولها [(٣)].

ولعل هذا المثل عما كان يحدث بالموصل فى تلك الفترة يعطينا صورة واضحة عن مدى إنحلال السلطة المركزية فى سلطنة سلاجقة فارس، مما أتاح للأتابكة أن يتوارثوا مدن الدولة وأقاليمها ويتقاتلوا فيما بينهم وبين بعض، وهم فى

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 394 - 395.

(٢) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنه ٤٩٥ هـ.

(٣) المصدر السابق.

شغل بذلك عن الصليبيين فى الرها وغير الرها [1]. أما سبب ذلك الإضطراب فى السلطنة السلجوقية فى أوائل القرن الثانى عشر للميلاد، فمرجعه - كما سبق أن أشرنا - الخلاف بين بركياروق وأخيه محمد حول تقسيم ملك أبيهما ملكشاه. وإذا كان ذلك الخلاف قد إنتهى باتفاق الأخوين سنة ١١٠٤ على أن يأخذ بركياروق فارس وبغداد، ويترك لأخيه محمد الأقاليم الغربية من الدولة - أعنى ديار بكر والجزيرة والموصل والشام [2]. إلا أنه من الواضح أن سلطة كل منهما غدت إسمية إلى حد كبير أمام إزدياد نفوذ الأتابكة والحكام المحليين. ولم تغب هذه الحقيقة عن بال الصليبيين الذين رأوا إشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً فأسرعوا إلى إستغلال الفرصة، بعد أن « تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء وإختلفت الأهواء وتمزقت الأموال [3]».

موقعة حران وأسر بلدوين الثانى :

وكانت إمارة الرها - بحكم تطرفها فى الشمال الشرقى - أكثر إحساساً من غيرها من الإمارات الصليبية فى الشرق الأدنى بأحوال سلاجقة فارس، وأكثرها رغبة فى الإستفادة من تلك الأحوال. لذلك فكر بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها فى الإستيلاء على حران - إلى الجنوب الشرقى من الرها - وهى التى لم تكن أحوالها الداخلية عندئذ أفضل بكثير مما كانت عليه الموصل [4]. ذلك أن أحد مماليك السلطان ملكشاه - واسمه قراجه - كان يحكم حران حكماً إستبدادياً تعسفياً سنة ١١٠٣، عندما إنتهز أحد رجاله - وإسمه محمد الأصبهانى - فرصة تغيبه عن المدينة وإنتزع الحكم بمساعدة الأهالي.

ولكن محمد هذا لم يلبث أن قتل، «قتله غلام تركى يعرف بجاولي» وأعلن نفسه حاكماً على المدينة [5]. وكان ذلك فى ربيع سنة ١١٠٤ عندما وصل بلدوين الثانى دى بورج إلى حران لحصارها ومعه جوسلين دى كورتناى صاحب تل

(١) ويعبر ابن الأثير تعبيراً بليغا عن أحوال السلطنة السلجوقية في ذلك الوقت فيقول صارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقري محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها محكوما عليها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانو قاهرين وكان الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإذلالهم ... (الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ).

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧.

(4) Setton : op. cit., I 389.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

باشر، وبوهيموند أمير أنطاكية وابن أخته تنكرد، فضلاً عن عدد آخر كبير من الأمراء الصليبيين ورجال الدين (١). ويبدو أن الصليبيين أضاعوا وقتاً ثمينا أمام حران، لأنهم لم يحاولوا إقتحامها وإكتفوا بحصارها حتى يضطرونها الى الجوع والاستسلام . وفى الوقت الذى أوشكت حران علي الإستسلام، وقع نزاع بين بلدوين دى بورج أمير الرها وبوهيموند أمير أنطاكية حول أيهما يرفع بيرقه أولاً على المدينة عند سقوطها (٢). وكان ذلك فى المساء عندما ظن الصليبيون أن المدينة ستسقط فى أيديهم. ولم يدر الصليبيون عندئذ أن جيشاً كبيراً من الأتراك فى طريقه لإنقاذ حران، وأن هذا الجيش سيكون على مقربة منهم فى الصباح الموعود (٣).

ذلك أن هجوم بلدوين على حران ألف بين خصمين متعاديين، هما جكرمش أتابك الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا، «فأرسل كل منهما لصاحبه يدعوه إلى الإجتماع معه لتلافى أمر حران ، ويعلمه أنه قد بذلك نفسه لله تعالى وثوابه، وكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه» (٤). ولم يلبث أن جمع هذان الأميران ما يقرب من عشرة الآف محارب من الترك والعرب والأكراد. وبعد أن تم الاجتماع عند رأس العين – على الخابور – إتجه الزعيمان للقاء الصليبيين. وفى موقعة حران – أو البليخ – التى دارت بين الطرفين على ضفاف نهر البليخ فى ٧ مايو سنة ١١٠٤، أبيد جيش الرها إبادة شبه تامة، وقتل من الصليبيين عشرة آلاف ما بين راجل وفارس (٥) و قد حاول بلدوين الثانى دى بورج وجوسلين دى كورتناى الفرار، ولكنهما وقعا أسيرين فى أيدى التركمان. وسرعان ما أوشك النزاع أن يدب بين التركمان من أتباع سقمان الأرتقى والأتراك السلاجقة من أتباع جكرمش حول الإستئثار بتلك الغنيمة الثمينة من الأسري، حتى إنتهي الأمر بأن أخذ السلاجقة الأمير بلدوين. وبعد أن إستولى جكرمش ، علي حران، اتجه لحصار الرها ومعه أسيره القمص بلدوين دى بورج (٦).

ولاشك فى أن موقعة حران (البليخ) كانت لها نتائجها السيئه بالنسبة

(1) Guillaume de Tyr, I p. 389.
(2) Runciman : op. cit. II, p. 42.
(3) Guillaume de Tyr, p. 445 - 446.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ :
(٥) سبط ابن الجوزي Albert d'Aix, p. 615, & 527
(٦) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث ٤٩٧ هـ Foucher de Chartres, p. 409

للصليبيين بوجه عام وإمارة الرها بوجه خاص. فمعنى إنتصار الترك على قوات الرها وأنطاكية، هو أن مركز الأولى غدا مزعزعاً فى حين أن الثانية فقدت الأمل فى قرب الإستيلاء على حلب. هذا فضلاً عن فشل خطة الصليبيين فى عزل المسلمين فى الأناضول والعراق والشام بعضهم عن بعض [١].

واذا كانت إمارة أنطاكية قد تعرضت لتشفى البيزنطيين بعد موقعة حران، فان إمارة الرها تعرضت هى الأخرى لكثير من المتاعب الداخلية، وبخاصة من جانب الأرمن الذين لم يلبثوا أن أظهروا ضجرهم من حكم الصليبيين. والواقع إن إنتصار الأتراك وهزيمة الصليبيين على ضفاف البليخ،كشف عن حقيقة شعور الأرمن تجاه حكامهم الصليبيين الغربيين ومدى إستيائهم من حكم الفرنجة. حقيقة إن الأرمن تضامنوا مع الصليبيين فى الرها، وأظهروا ولاءهم لتنكرد عندما أسر أميرهم بلدوين دى بورج، ولكن ذلك لا ينسينا أن الأرمن هم الذين سلموا أرتاح لسلاجقة حلب، تخلصاً من «جور الفرنج» [٢] ويعلل متي الرهاوى موقف الأرمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمينية وإهمالها بل إضطهاد رجالها فى كثير من الأحيان، مما دفع الأرمن إلى الإتصال سراً بالأتراك [٣].

وهكذا يبدو أنه إذا كانت الرها وغيرها من المعاقل الصليبية قد إستطاعت البقاء وسط المحيط الأرمنى شرقى آسيا الصغرى وفي أطراف العراق والشام، فان الفضل فى ذلك كله إنما يرجع إلى إنقسام المسلمين على أنفسهم [٤].

وصاية تنكرد على الرها :

وعندما إتجه جكرمش لحصار الرها، وجد أهل المدينة من المسيحيين أنفسهم فى مأزق خطير بعد أن قضى المسلمون على جيشهم، وغدا أميرهم بلدوين أسيراً فى قبضة جكرمش الذى ألقى به فى سجن الموصل، فى حين ظل جوسلين دى كورتناي أسيراً فى قبضة سقمان بن أرتق الذى حبسه فى قلعة حصن كيفا. ولكن بوهيموند وتنكرد اللذين هرباً فى موقعة البليخ استطاعا الوصول إلى الرها للدفاع عنها ضد الهجوم الإسلامى المنتظر [٥]. وهنا تغلبت العاطفة الدينية،

(1) Runciman : op. cit., II,p. 44.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٠ ويتفق هذا مع ما ذكره ابن القلانسي وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموا إليه الحصن لما شملهم من جور الافرنج وتزايد ظلمه (ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٨).

(3) Matthieu d'Edesse : Hist. Arm) I : pp. 80 - 81.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 412 - 413.

(5) Setton : op. cit., I, p. 389.

فأظهر الأرمن فى الرها ولاءاً شديداً لهذين الأميرين الصليبيين، بل أنهم دعوا تنكرد للقيام بالوصاية على مدينتهم ورعاية شئون الإمارة حتى يتم إطلاق سراح أميرهم بلدوين دي بورج (١). وهكذا ترك بوهيموند ابن أخته تنكرد فى الرها، وعاد فى سرعة ليرعى شئون إمارته أنطاكية التى تأثرت هى الأخرى تأثراً عميقاً بهزيمة الصليبيين فى البليخ (٢).

ولم يكد بوهيموند يرحل عن الرها حتى ظهر جكرمش أمام أسوارها. على أن تنكرد لم يجبن أمام آلاف السلاجقة الذين تأهبوا للهجوم على الرها، وإنما إستمر يبث في الأهالي العزيمة، وإكتفى بأن أرسل رسالة سرية إلى خاله بوهيموند يطلب منه نجدة عاجلة لإنقاذ المدينة. وفى الوقت الذى وصل بوهيموند إلى مشارف الرها لنجدتها، كان السلاجقة قد تراجعوا بعد اشتباك قصير مع أهل الرها (٣). وهكذا إنسحب جكرمش بعد أن حاصر الرها أسبوعين (يونيه -يوليه ١١٠٤) دون أن يتمكن من إقتطاف الثمرة الحقيقية لإنتصاره فى البليخ.

ويقال إن الصليبيين أسروا عندئذ أحد كبار الأمراء السلاجقة، فعرض جكرمش على بوهيموند إستعداده لمبادلة ذلك الأمير ببلدوين الثاني، أو دفع مبلغ ١٥ ألف دينار مقابل إطلاق سراح ذلك الأمير السلجوقي. وعندما وصلت أخبار ذلك العرض إلى بيت المقدس، أرسل الملك بلدوين الأول إلى بوهيموند يطلب منه مبادلة الأمير السلجوقى ببلدوين دى بورج فوراً، ولكن بوهيموند فضل المال لحاجته اليه، وبذلك ظل بلدوين الثانى أمير الرها أسيراً (٤).

(1) Archer : op. cit., p. 616.
(2) Runciman : op.cit. II, p. 43.
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٥٠ Albert d'Aix pp. 617 - 619
(4) Runciman : op. cit., II, p. 45.

الفصل الثانى

عودة بلدوين الثانى لحكم الرها

إطلاق سراح بلدوين :

وفى تلك الأثناء كانت دولة سلاجقة فارس لا تزال تعانى الكثير بسبب الإنقسامات والحروب الداخلية. من ذلك ما سبق أن أشرنا إليه فى الباب السابق من نجاح جاولى فى القضاء على جكرمش وإنتزاع الموصل منه ليستقل بها، ثم ثورة أهل الموصل على جاولى سقاووا ومناداتهم بزنكى - بن جكرمش - حاكماً عليهم، مما إضطر جاولى إلى الإنسحاب من المدينة سنة ١١٠٦ (١).

ولكن جاولى لم يلبث أن عاد إلى الموصل وتمكن من إستردادها سنة ١١٠٧ وعندئذ حاكى سلفه جكرمش، وعمل على أن يستقل بتلك الأتابكية متناسياً كل حق للسلطنة السلجوقية فيها. لذلك أسرع السلطان محمد السلجوقى إلى عزل جاولى فى العالم التالى وأحل محله مودود فى حكم الموصل، فإضطر جاولى إلى الخروج إلى قلعة جعبر على الفرات ومعه أسيره بلدوين الثانى ليبحث عن المال والحلفاء لمحاربة مودود (٢).

وفى ذلك الوقت كان جوسلين دى كورتناى حاكم تل باشر قد حصل على حريته سنة ١١٠٧ بعد دفع مبلغ ضخم بلغ عشرين ألف دينار (٣). ولم يكد جوسلين ينعم بحريته حتى أخذ يعمل على تحرير سيده بلدوين الثانى دى بورج - الذى كان فى قبضة جاولى - من الأسر. والواقع إن بلدوين الثانى كان قد فقد الأمل فى إطلاق سراحه عندما إنتقل من قبضة جكرمش إلى قبضة جاولي. ولكن جوسلين دى كورتناى استغل الظروف الجديدة التى غدا فيها جاولي، وحاجته إلى المال من جهة، وإلى محالفة الصليبيين ضد السلطنة السلجوقية من جهة أخري، وساومه على إطلاق سراح بلدوين دى بورج (٤). وكان أن تم الاتفاق علي ذلك مقابل سبعين ألف دينار، بشرط أن يتعهد بلدوين بإطلاق سراح جميع أسرى

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨.
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.
(٣) المصدر السابق.

(4) Setton : op. cit., 1, p. 393.

المسلمين فى الرها، وبأن يقف إلى جانب جاولى فى مشاريعه المقبلة ضد السلطنة السلجوقية «وينصره متى أراد ذلك منه، بنفسه وعسكره وماله» (١).

وهكذا تم إطلاق سراح بلدوين دى بورج سنة ١١٠٨، بعد أن دفع له جوسلين دى كورتناى مقدم الفدية المتفق عليها وهو ثلاثون ألف دينار. ثم إن جاولى لم يكتف بإطلاق سراح بلدوين، وإنما أحاطه - هو وجوسلين - بكثير من مظاهر التكريم ؛ «وخلع عليه»، مما جعل العلاقة بين جاولى من ناحية وبلدوين وجوسلين من ناحية أخرى تتحول إلى محالفة شخصية (٢).

النزاع بين بلدوين وتنكرد حول الرها :

وكان أول ما فعله بلدوين دى بورج عقب إطلاق سراحه سنة ١١٠٨ هو أنه توجه إلى أنطاكية ليطلب من تنكرد رد إمارته فى الرها. ولكن تنكرد الذى ظل يحكم الرها أربع سنوات، يجمع دخلها ويدافع عنها ويدبر أمورها، عز عليه أن يتنازل عن ذلك السلطان، فأمد بلدوين ببعض المال والخيل والسلاح، ولكنه إمتنع عن الاعتراف بحقه فى إسترداد الرها، وأصدر تنكرد أوامره لنائبه ريتشارد دى سالرنو بألا يسلم الرها لبلدوين (٣).

ولم يسع بلدوين دى بورج سوى أن يغادر أنطاكية غاضباً، فاتجه إلى تل باشر حيث اجتمع بجوسلين دى كورتناي. ولكن تنكرد لم يلبث أن لحق بهما ليحاربهما قبل أن يقوى أمرهما ويجمعا عسكراً ويلتحق بهما جاولى وينجدهما. ويبدو مما ذكره ابن الأثير أن نزاعاً شب عندئذ بين الأمراء الصليبيين الثلاثة، وإن كان هذا النزاع لم يطل، فعكف ثلاثتهم على بحث المشكلة عن طريق التفاوض (٤). وعندما فشلت تلك المباحثات فى إيجاد حل للموقف، انصرف تنكرد إلى أنطاكية، فى حين تطلع بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى إلى حليفهما جاولى لمساعدتهما. وقد بلغ من حرص بلدوين الثانى على استرضاء جاولي، أن بعث إليه بمائة وستين رجلا من أسرى المسلمين، بعد أن حررهم وسلحهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(2) Michel Le Syrien, lll, p. 196.

(3) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. l); p. 86.

ويذكر ابن الأثير أن تنكرد طيب خاطر بلدوين دي بورج وأعطاه ثلاثين الف دينار وخيلا وسلاحا وثيابا وغير ذلك (الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ).

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ،

وقد ذكر ابن الأثير أن زعماء الصليبيين الثلاثة كانوا يقتتلون ؛ فإذا فرغوا من القتال اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحادثوا.

«وكساهم» ليقوموا بدورهم فى مساعدة جاولى وبلدوين جميعاً [١].

ولم يلبث أن ظهر على مسرح الأحداث حليف آخر لبلدوين دى بورج، ساعده على حل المشكلة واستخلاص إمارته من قبضة تنكرد. أما هذا الحليف الجديد فهو كوغ باسيل [٢] - أحد زعماء الأرمن - وكان قد نجح أيام الحملة الصليبية الأولى فى أقامة إمارة مستقلة لنفسه حول كيسوم (كيسون)، فى الجزء الشرقى المواجه للفرات من مرتفعات طوروس. وسرعان ما غدت تلك الإمارة الأرمينية قلعة منيعة، ومأوى لكثير من الأرمن ومحوراً لآمالهم [٣]. ذلك أن الأرمن أخذوا ينظرون الى كوغ باسيل على أنه بطل قومى ؛ لاسيما بعد أن نجح سنة ١١٠٧ في دفع هجوم الأتراك عن إمارته، ثم إنزال الهزيمة مرة أخرى فى العام التالى - سنة ١١٠٨ - بسلاجقة الروم عندما حاولوا الاعتداء على تلك الإمارة. وهكذا بلغ هذا الزعيم الأرمنى أوج مجده وقوته عندما قصده بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى طالبين منه مساعدتهما علي استرداد الرها من تنكرد [٤].

ويؤكد المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى أن كوغ باسيل أحسن استقبال الأميرين الصليبيين ورحب بهما ترحيباً كبيراً، لأنه وجد مصالحه تتفق ومصلحة بلدوين دى بورج بسبب تخوف الأرمن من سياسة تنكرد. ذلك أن تنكرد وضع سياسة استهدفت ضم قيليقية بأجمعها الى الصليبيين وطبعها بالطابع اللاتينى الغربي، كما بدا ذلك من استيلائه على المصيصة. وبعبارة أخرى فان سياسة تنكرد فى تلك المنطقة لم تكن موجهة ضد البيزنطيين فحسب بل ضد الأرمن أيضاً. هذا فضلا عن أن تنكرد أناب عنه ابن عمه ريتشارد دى سالرنو في الرها، وهذا الأخير أساء معاملة الأرمن وعجز عن حمايتهم، كما فشل فى صد جكرمش عندما غزا المنطقة المحيطة بالرها سنة ١١٠٥. ولعل فشل النورمان فى اكتساب محبة الأرمن هو الذى جعل أهل الرها يحنون إلى حكم بلدوين دى بورج، وهو الأمير الذى تقرب منهم وحافظ على شعورهم وتزوج أميرة أرمينية [٥].

لذلك كله لم يتردد كوغ باسيل فى إعطاء بلدوين دى بورج قوة كبيرة من

(1) Runciman : op. cit., II, p. 112 &

ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(٢) هكذا كتبه جمهرة المؤرخين (أنظر ابن العبري، ص ١٩٩)
أما ابن الأثير فقد كتبه (كواسيل)

(3) Matthieu d'Edesse, I, p. 77.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 437.

(5) Matthieu d'Edesse, p. 79 & Albert d'Aix, p. 648.

المحاربين الأرمن تبلغ ألف فارس وألفى راجل [1]. وعندما خرج بلدوين على رأس تلك القوة لاسترداد إمارته دارت مناوشات بينه وبين خصمه، وعندئذ - وقبل أن يشتد القتال - تدخل بطرق أنطاكية لحسم النزاع بين الطرفين. وكان لذلك البطرق - وهو برنارد فالنس - مكانة كبيرة فى نفوس المسيحيين، حتى قال عنه ابن الأثير إنه «كالإمام للمسلمين لا يخالف أمره»، فحكم بأن يأخذ بلدوين الرها ويعود تنكرد إلى أنطاكية، وتم ذلك فى ١٨ سبتمبر سنة ١١٠٨ [٢].

ولم يكد بلدوين دى بورج يعود إلى إمارته، حتى اتبع سياسة مشبعة بالتسامح والأخاء تجاه حليفه جاولي، فأطلق سراح أسرى المسلمين، سواء فى الرها أو حران أو غيرهما من المدن المجاورة، بل إن رئيس سروج «كان مسلماً فارتد، فسمعه أصحاب جاولى يقول فى الإسلام قولا شنيعاً فضربوه، وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع، فذكر ذلك للقمص (بلدوين دى بورج) فقال : هذا لا يصح لنا ولا للمسلمين، فقتله ...»[٣].

الانشقاق فى صفوف المسلمين والمسيحيين :

على أن الحل الذى وضعه بطرق أنطاكية لم يمح ما فى النفوس من كراهية وحقد، وإن كان قد وضع حداً للصراع المسلح بين تنكرد وبلدوين دى بورج. وزاد من اتساع الفجوة بين الرجلين أن كلا منهما وجد من يسانده بين صفوف المسلمين، فبلدوين دى بورج له صديقه جاولى أتابك الموصل السابق، الذى لم يفتأ منذ طرده من الموصل يعمل علي إنشاء إمارة لنفسه فى الجزيرة رغم إرادة السلطان محمد السلجوقي، مما أوقعه فى خلاف وعداء مع رضوان ملك حلب الذى بدأ يتأثر بأطماع جاولى التوسعية[٤]. ومن ذلك أن جاولى هاجم فى سبتمبر سنة ١١٠٨ مدينة بالس على الفرات، وهى لا تبعد أكثر من خمسين ميلاًعن حلب، واستولى عليها حيث قتل أعوان رضوان داخلها. وفى ذلك الموقف لم يجد رضوان بداً من محالفة عدوه القديم تنكرد، وربما وجد الأخير فى ذلك التحالف فرصة للانتقام من بلدوين دى بورج الذى استطاع أن يسترد الرها على كره منه [٥].

وهكذا تألفت جبهتان متعارضتان : الأولى من بلدوين دى بورج وجاولى

(1) Stevenson : The Crusaders, p. 85.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(٣) المصدر السابق.

(4) Setton : op. cit., I, pp. 393 - 394.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

والثانية من تنكرد ورضوان. وفى المعركة التى دارت بين الفريقين قرب منبج - غربى الفرات على الطريق بين حلب والرها - انتصر فريق تنكرد، وفر جوسلين دى كورتناى إلى تل باشر وبلدوين دى بورج إلى دلوك فى أكتوبر سنة ١١٠٨ (١). وقد تبع تنكرد غريمه بلدوين دى بورج لمحاصرته فى دلوك، ولكن تخوفه من أن يهاجمه جاولى من الخلف ويقطع عليه خط الرجعة، جعله يعدل عن خطته وينصرف إلى أنطاكية. وقد قدرت خسارة المسيحيين فى معركة منبج هذه بما يقرب من ألفين (٢).

إنقلاب سياسة بلدوين دى بورج ضد الأرمن :

ولم يلبث ذلك الانقسام فى صفوف الصليبيين أن ظهر له رد فعل عنيف داخل الرها ذاتها. ذلك أن الأرمن فى الرها عندما سمعوا بالهزيمة التى لحقت بأميرهم بلدوين دى بورج وتابعه جوسلين دى كورتناى توجسوا شراً، وتخوفوا من أن يعود إليهم حكم تنكرد وقريبه ريتشارد دى سالرنو، وهو الحكم الذى ظل يذكره أهل الرها بالسوء والشر. لذلك عقد الأرمن اجتماعاً كبيراً فى كنيسة القديس حنا بالرها، ودعوا إلى ذلك الاجتماع رئيس الأساقفة الكاثوليكي. ويبدو أن الأرمن وجهوا بعض الإساءات والاتهامات إلى رئيس الأساقفة، مما أنذر بحدوث صدام بين الأرمن والصليبيين داخل المدينة (٣).

على أن الأرمن الذين ظنوا أن بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى لابد وأن يكونا قد هلكا وأسرا فى الصراع ضد تنكرد ، فوجئوا بالأميرين يدخلان الرها سالمين. ولم يلبث أن علم بلدوين دى بورج بما فعله الأرمن فى غيابه، فأدرك خطورة ذلك الاتجاه على مستقبله ومستقبل إمارته. ومنذ ذلك الوقت انقلبت سياسته تجاه الأرمن رأساً على عقب، وأخذ ينظر إليهم نظرة الريبة والشك، ولم يتورع عن اضطهادهم وإذلالهم وسلبهم ممتلكاتهم والاعتداء علي حرياتهم الدينية وغير الدينية. هذا فضلا عما وقعه علي المذنبين منهم من عقوبات بلغت حد الحبس والطرد وسمل الأعين، حتى أن الأسقف الأرمنى لم يسلم من سمل عينيه إلا بعد أن دفع مبلغاً باهظاً من المال (٤).

وبعد أن كانت سياسة بلدوين فى حكم الرها تقوم على أساس الربط بين

(1) Albert d'Aix, p. 649.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٣.

(3) Matthieu d'Edesse, p. 268.

(4) Idem : pp. 267 - 268.

الصليبيين والأرمن ؛ إذا به يغير سياسته تغييراً تاما، فاستبعد الأرمن من حسابه كلية، واعتمد فى حكومته اعتمادا واضحاً على رجاله من الصليبيين الغربيين وحدهم. ومن الواضح أن هذه السياسة زادت الموقف سوءا، لأن الأرمن في الرها ضاقوا بحكم الصليبيين، ورأوا فيهم أعداء فاقوا الأتراك المسلمين فى تطرفهم (١). ولذلك لم يكن عجباً أن يتصل الأرمن فى الرها بمودود أتابك الموصل، عند قيام الأخير بحملته ضد الصليبيين سنة ١١١٢، عارضين عليه إستعدادهم لتسليمه الرها.

وعندما علم بلدوين دى بورج بتآمر الأرمن مع مودود ضده، جاء انتقامه شديداً فى تلك المرة، إذ طرد من الرها جميع أبنائها الأرمن. ولم يترك فيها - عدا الفرنجة - سوى السريان واليعاقبة وغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى (٢).

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 443.

(2) Michel le Syrien, III, p. 196.

الفصل الثالث

مودود وإمارة الرها

حملة مودود أتابك الموصل على الرها سنة ١١١٠ :

سبق أن رأينا كيف أعلن جاولى أتابك الموصل استقلاله بتلك المدينة وقطع كل صلة تعبر عن ولائه للسلطان محمد السلجوقي، الأمر الذى جعل السلطان يعهد الى مودود بن ألتونتكين بالقضاء على جاولى والقيام محله في حكم الموصل (١). وعندما نجح شرف الدولة مودود فى مهمته وأصبح أميراً على الموصل سنة ١١٠٩، عهد إليه السلطان محمد فى العالم التالى باستئناف الجهاد ضد الصليبيين. وكان أن أعد مودود حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين، واشترك معه في تلك الحملة سكمان القطبى أمير خلاط وميافارقين، ونجم الدين إيلغازى بن أرتق أمير ماردين فى ديار بكر، ومع الأخير «خلق كثير من التركمان» (٢).

وقد إتجهت تلك الحملة الكبيرة من الأتراك لحصار الرها (إبريل - مايو سنة ١١١٠) فأسرع بلدوين الثانى دى بورج إلى ارسال جوسلين دى كورتناى إلى فلسطين للاستنجاد بالملك بلدوين الأول. أما تنكرد الذى لم يعبأ بإنقاذ الرها، فان بلدوين الثانى دى بورج إتهمه بتحريك تلك الحملة الإسلامية ضد الرها والتآمر مع المسلمين ضده (٣). ولم يستطع بلدوين الأول ملك بيت المقدس الحضور على عجل لأنه كان يحاصر بيروت، وأوشكت المدينة أن تسقط فى يده عندما بلغته إستغاثه بلدوين دى بورج (٤). ولم يكد الملك بلدوين الأول يستولى على بيروت فى مايو سنة ١١١٠، حتى جمع قواته واتجه صوب الرها، وصحبته برترام أمير طرابلس على رأس فرسانه (٥). وفى طريق بلدوين إلى الرها انضم إليه قرب سميساط بعض زعماء الأرمن، وعلي رأسهم كوغ باسيل (٦).

وعندما اقترب الملك بلدوين الأول من الرها، رفع مودود الحصار عن

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر ص ١٩٩.
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٤.
(3) Albert d'Aix,p. 670.
(٤) صالح بن يحيي : تاريخ بيروت، ص ١٨.
(5) Albert d'Aix, p. 672.
(6) Stevenson : op. cit., I, p. 88.

المدينة واتجه صوب حران، حيث انضم إليه طغتكين ومعه قوات دمشق (١) . وقد رأى الملك بلدوين الأول أن يقوم الصليبيون بعمل جامع ضد تلك الحشود التركية الضخمة، التى أخذت تهدد الصليبيين وتبعثر قواهم. ولذلك أرسل ملك بيت المقدس إلى أنطاكية يستدعى تنكرد وقواته للمشاركة فى حرب فاصلة ضد الأتراك (٢). وقد تردد تنكرد أول الأمر فى تلبية نداء الملك، ولكنه عاد وأدرك أن عدم تعاونه مع إخوانه الصليبيين فى حربهم الجامعة ضد الأتراك سيسيء إليه والى سمعته فى المحيط الصليبيي، فاتجه على رأس ألف وخمسمائة فارس إلى الملك بلدوين، الذى قام بدور الوسيط لتصفية الخلاف بينه وبين بلدوين دى بورج، وحشد جميع جهود الصليبيين للمعركة الفاصلة ضد المسلمين (٣) . وهكذا «إتفق الفرنج كلهم وأزالوا ما كان بينهم من الشحناء.. فتصافى تنكرد وبلدوين وابن صنجيل بعد النفار ... (٤)» .

ويبدو أن الخطة التى وضعها مودود عندما ترك حصار الرها واتجه إلى حران استهدفت استدراج الصليبيين إلى أقصى مكان بعيد عن قاعدتهم فى الجزيرة ثم الإيقاع بهم، كما حدث فى موقعة البليخ سنة ١١٠٤ (٥). وكان فى استطاعة الصليبيين – بعد أن وحدوا صفوفهم – أن يلاحقوا المسلمين عند حران، ولكن الملك بلدوين الأول فطن إلى خطة مودود، وأراد أن يسرع بإنزال ضربته بالأتراك قبل أن يتمكنوا من تنفيذ خطتهم. وكان من المحتمل أن ينجح بلدوين فى ذلك لولا أن الأحقاد القديمة بين زعماء الصليبيين عادت إلي الظهور، فانسحب تنكرد ومعه قواته إلى سميساط علي الفرات، مما اضطر الملك بلدوين الأول الى الرجوع إلى الرها (٦) . وفى ذلك الوقت جاءت الأخبار تترى علي الملك بلدوين بخطورة هجمات الفاطميين على مملكة بيت المقدس، فلم يعد أمام الملك متسعاً من الوقت ليحاول أن يوفق بين أمراء الصليبيين مرة أخري. وتم الاتفاق علي تحديد الأماكن التى يحتشد فيها المسيحيون ليسهل الدفاع عنها – مثل الرها – على أن تخلى بقية المراكز على شاطيء الفرات من سكانها الأرمن واليعاقبة.

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩ – ١٧١ .

(2) Setton : op. cit., I, p. 399.

(3) Stevenson : op. cit. p. 88.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٤ .

(٥) ذكر ابن الأثير أن المسلمين رحلوا عن الرها إلي حران ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم ... (الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ) .

(6) Matthieu d'Edesse, p. 93.

إجلاء الأرمن عن أرض الجزيرة واستيلاء المسلمين عليها :

وكان أن بدأ الصليبيون تنفيذ الخطة السابقة، فزودوا الرها بالغذاء والسلاح والمواد اللازمة لمقاومة حصار طويل، ووضعوا فيها حامية قوية تكفى للدفاع عنها [1]. وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو تطهير ضياع الجزيرة من الأرمن، وسحب ذلك الفريق من المسيحيين الشرقيين إلى الجهات الشمالية الغربية فى إتجاه سميساط أى عبر الفرات، حيث يمكن أن يأوى أولئك الأرمن فى ا لمناطق الجبلية المحيطة بكيسوم (كيسون) [2].

وفى تلك الأثناء كان مودود ورجاله عند حران، يرقبون الموقف عن كثب، ويتحينون الفرصة المناسبة للعمل، فأخذوا يجتاحون المزارع والضياع والقرى المسيحية، حتى وصلوا إلى الفرات. وهناك علموا أن جيوش الصليبيين قد عبرت الفرات، فى حين بقيت بضعة آلاف من المهاجرين الأرمن ينتظرون دورهم فى عبور النهر، بسبب قلة السفن اللازمة لنقلهم إلى الضفة الغربية [3]. وكان أن هاجم الأتراك أولئك اللاجئين وعلموا السيف فيهم، حتى قتلوا منهم عدة آلاف، فى حين وقف الجيش الصليبى على الضفة الغربية للنهر لا يدرى ماذا يفعل. وبعد ذلك عاد مودود إلى حران ومعه عدد كبير من الأسرى وقدر هائل من الغنائم [4].

وهكذا ساء موقف الصليبيين عند أطراف الفرات إلى درجة كبيرة. حقيقة إن الصليبيين ظلوا يحتفظون بالرها وسروج، وهما أكبر قلعتين فى تلك المنطقة شرقى الفرات. ولكن هاتين القلعتين أصبحتا قائمتين وسط أرض خربة مقفرة، ليس فيها زرع ولا ضرع ولا سكان. أما بلدوين دى بورج فقد عاد إلى الرها ينعى إمارته الخربة، فى حين رجع بلدوين الأول إلى بيت المقدس، وتنكرد إلى أنطاكية [5].

استياء المسلمين والدعوة للجهاد :

على أن الوضع الذى أمسى فيه المسلمون فى أوائل القرن الثانى عشر، وشعورهم بسوء موقفهم فى الشام وأطراف العراق، أثار بينهم موجة عامة من الاستياء، فارتفعت الأصوات تستنكر ذلك الوضع وتنادى بالجهاد. هذا إلى أن

(1) Guillaume de Tyr, p. 463.
(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 454.
(3) Stevenson : op. cit., pp. 88.
(4) Matthieu d'Edesse, pp. 93 - 94.
(5) Albert d'Aix, p. 675.

سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعاقل فى أرض الجزيرة والشام قطع أوصال العالم الإسلامى فى الشرق الأدني، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام ومصر والحجاز، وهو أمر لم يألفه المسلمون منذ حركة الفتوح العربية الإسلامية فى القرن السابع للميلاد. ويروى ابن الأثير أن بعض أهالى حلب قصدوا عندئذ بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الفرنجة، وهناك «اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا، ومنعوا من الصلاة، وكسروا المنبر، فوعدهم السلطان إنفاذ العسكر للجهاد [1]. » وفى يوم الجمعة التالى قصد جمهور الغاضبين جامع القصر بدار الخلافة فى بغداد حيث كرروا العملية نفسها، فاقتحموا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر، وعندئذ أدرك الخليفة المستظهر خطورة الموقف، فأرسل إلى السلطان السلجوقى « يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه [2].» وكان أن أخذ السلطان محمد السلجوقى يعد العدة لحملة ثانية، على أن تكون تحت قيادة ابنه مسعود والأمير مودود أتابك الموصل.

ويروى ابن القلانسى أنه فى ذلك الوقت بالذات، بلغ العداء أشده بين البيزنطيين والصليبيين، مما جعل الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين يرسل مبعوثاً الى السلطان محمد السلجوقى يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد، «وترك التراخى فى أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد فى الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم» [3]. وقد وصل المبعوث البيزنطى إلى بغداد قبل وصول وفد حلب [4]، الأمر الذى جعل المسلمين فى بغداد يصيحون فى السلطان «أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام، حتى قد أرسل إليك فى جهادهم ... [5]. »

حملة مودود الثانية على الرها سنة ١١١١ :

وقد أخذت الاستعدادات تجرى على قدم وساق فى دولة سلاجقة فارس فى ربيع سنة ١١١١ لإعداد حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين. وكان أن اجتمع تحت قيادة مودود حاكم الموصل جميع حكام الأقاليم فى دولة السلاجقة : سكمان

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٤ هـ.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣.
(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 252.
(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٤ هـ.

القطبى صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر، والأميران أيلبكى وزنكى إبنا برسق فى أذربيجان .. وغيرهم. وكذلك كوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب أربل والأمير مودود، فاجتمعوا، ما عدا إيلغازى صاحب ماردين فإنه سير ولده أياز بدله (١).

وبعد أن اجتمع أولئك الأمراء علي رأس قواتهم قرب سنجار، اتجهوا لمهاجمة الرها. وكانت الرها على استعداد منذ العام السابق لمواجهة مثل الهجوم، وبها من الزاد والمؤن والسلاح - فضلا عن المحاربين - ما كان كفيلا بأن يمكنها من الصمود. وفعلا لم يلبث أن قنط المسلمون من الاستيلاء علي الرها بعد أن «رأوا أمراً محكماً قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التى تركت عندهم وبكثرة المقاتلين» (٢). لذلك رأى مودود أن يعبر نهر الفرات لمهاجمة تل باشر، وفى الطريق لم يحجم الأتراك عن تدمير كل ما صادفهم من ضياع الصليبيين (٣).

وقد حاصر المسلمون تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ولكن جوسلين دى كورتناى استطاع الصمود فى وجه المسلمين فرحلوا عنها ولم يبلغوا غرضاً. ويذكر ابن العديم أن المسلمين كانوا على وشك الاستيلاء على تل باشر، لولا أن جوسلين اتصل بأحمد بك الكردى أمير مراغة «فتطارح جوسلين الفرنجى صاحبها على أحمد بك الكردي، وحمل اليه مالاً، وطلب منه رحيل العسكر عنه، فأجابه إلى ذلك ...» وفى ذلك الوقت كان رضوان صاحب حلب قد أرسل إلى مودود وإلى أحمد الكردى يخبرهم «بأننى قد تلفت، وأريد الخروج من حلب، فبادروا إلى الرحيل ..» وعلى هذا الأساس نجح أحمد بك الكردى فى أقناع الأتراك بترك حصار تل باشر والاتجاه إلى حلب لنجدة رضوان (٤). وعندما أطمأن جوسلين إلى ابتعاد المسلمين عن قلعته، خرج علي رأس مجموعة من فرسانه، واستطاع أن يدهم موخرة جيش المسلمين، ويقتل من الأتراك نحو ألف رجل، ثم أسرع بالعودة إلى تل باشر محملا بالغنائم (٥).

ولم يكد الأتراك يقتربون من حلب لنجدة رضوان حتى فوجئوا بموقف غريب. ذلك أن رضوان طلب مساعدة الأتراك عندما كان هؤلاء بعيدين عن تل

(١) المصدر السابق، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.
(٢) المصدر السابق
(3) Stevenson : op. cit., p. 91.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٩.
(5) Albert d'Aix, p. 681.

باشر، ولكن اقتراب الأتراك من حلب أثار مخاوف رضوان لكثرتهم وبدأ يحسب حساباً لخطرهم، وأدرك أن تلك الجيوش التركية الكثيفة وذلك النفر من الأمراء ذوى المطامع يشكلون خطراً عليه وعلى سلطانه أكثر من خطر تنكرد نفسه (١). وهكذا سرعان ما ظهرت المفاجأة الكبري، وهى أن رضوان الذى كان يستنجد بالأتراك ضد تنكرد أغلق فى وجه المسلمين «أبواب البلد ولم يجتمع بهم» (٢).، بل إنه لم يلبث أن تحالف بسرعة مع تنكرد للوقوف فى وجه ذلك الخطر المشترك(٣). ويروى ابن العديم أن أهل حلب لم يرضوا عن مسلك ملكهم رضوان، فغضبوا ونادوا بالجهاد، وعندئذ أخذ رضوان بعض أعيانهم رهائن وحبسهم فى قلعة المدينة، ورتب قوماً من الجند والباطنية لحراسة سور حلب، ومنع الحلبيين من الصعود إليه، وبذلك ظلت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه الجيش الأسلامى المتحالف (٤).

وإزاء ذلك الموقف الذى وقفه رضوان من الأمير مودود وحلفائه، اتجه الجيش المشترك إلى حوض نهر العاصى لاسترداد الجهات التى استولى عليها تنكرد أخيراً فى أقليم معرة النعمان. وهناك عند معرة النعمان حضر طغتكين أتابك دمشق على رأس جيشة وانضم لحلف الأمراء، وبذلك اكتملت رابطة الأتراك ولم يعد متخلفاً سوى رضوان صاحب حلب الذى «لم يلتفت إلى أحد منهم »(٥). على أن طغتكين لم يلبث أن «اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق، فشرع فى مهادنة الفرنج سراً »(٦). وهكذا صدق المؤرخ ابن العديم حين قال إن أمراء المسلمين فى ذلك العصر كانوا يرجون استمرار بقاء الصليبيين ليضمن أولئك الأمراء استمرار بقائهم فى مناصبهم (٧).

وقد عرض طغتكين على أمراء الأتراك أن يتوجهوا جميعاً للاستيلاء على طرابلس، ولكن بقية الأمراء – عدا مودود – عارضوا ذلك الرأي، واعتقدوا أنه من المجازفة الابتعاد حتى طرابلس من أجل تحقيق مصلحة خاصة لأتابك دمشق (٨).

---

(1) Setton : op. cit., I, p. 400.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(3) Albert d'Aix, p. 682.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٩.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ ؛ التاريخ الباهر ص ١٧ – ١٨.

(٧) وكان السبب في ذلك أن المتقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه، (ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٣.

(٨) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٦٠.

وعندئذ قرر طغتكين أن يقف موقفاً سلبياً من الحملة الإسلامية، فرفض أن يتعاون مع إخوانه المسلمين فى أى عمل يقومون به ضد الصليبيين إلا اذا أطاعوه واتجهوا صحبته إلى طرابلس، مع ما فى ذلك العمل من خطورة بالغة. ولم يلبث الأمير برسق أن اشتد به المرض وأعلن رغبته فى العودة، فى حين كان الأمير سكمان القطبى قد توفى فجأة عند بالس وعاد جنده بجثمانه. أما أحمد بك الكردى فقد انسحب مسرعاً ليطلب من السلطان أن يقطعه ما كان لسكمان القطبى من البلاد. وبذلك لم يبق إلى جانب الأمير مودود سوى إياز الأرتقى بن إيلغازي، فضلا عن طغتكين صاحب دمشق (١).

وفى الوقت الذى انفرط عقد الجيش التركي، أخذت القوى الصليبية تتجمع من جديد بعد الاختلاف والتباين لمواجهة الخطر الناجم عن اتحاد كلمة أمراء المسلمين. وكان أن أقبل بلدوين دى بورج أمير الرها وجوسلين دى كورتناى صاحب تل باشر وتنكرد أمير أنطاكية لملاقاة بلدوين ملك بيت المقدس ومعه برترام أمير طرابلس، وغير هؤلاء كثيرون من أمراء الصليبيين (٢). وأخيراً اجتمعت الجيوش الصليبية كلها قرب فامية – على الضفة الشرقية لنهر العاصى – فى حين كان طغتكين ومودود علي الضفة الغربية للنهر عند شيزر، حيث اجتمع بهما سلطان بن منقذ صاحب شيزر وهون عليهما أمر الفرنج وحرضهما على الجهاد، (١٥ سبتمبر ١١١١) (٣). وبعد عدة أيام وقف فيها الفريقان وجهاً لوجه، عبر الأتراك نهر العاصى إلى الضفة التى عليها الصليبيون، ودارت مناوشات بين الفريقين بلغت أحيانا درجة عنيفة، ثم انسحب بعدها مودود إلى الموصل وعاد كل أمير إلى إمارته (٤).

وهكذا أثبتت تلك التجربة فشل حركة الجهاد الإسلامية طالما أن المسلمين كانوا مفتقرين إلى وحدة تنظم صفوفهم. ذلك أن أمراء المسلمين ظلوا منشقين على أنفسهم فى الوقت الذى ترابط الصليبيون جميعاً من أطراف العراق وشمال الشام إلى جنوب فلسطين، تحت زعامة بلدوين ملك بيت المقدس (٥).

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٦ – ١٧٧.
ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 469.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(4) Setton : op. cit., I, p. 400.

(5) Runciman : op. cit. II, p.

الفصل الرابع

تدهور امارة الرها

مؤامرة الأرمن فى الرها سنة ١١١٢ :

ومع أن الأمير مودود وجد نفسه وحيداً فى حركة الجهاد ضد الصليبيين ، إلا أنه قام فى صيف سنة ١١١٢ بمهاجمة الرها فجأة ، فترك قواته تحاصرها قرابة شهرين ، فى حين انصرف هو - عندما رأى قوة تحصين الرها وتعذر الاستيلاء عليها فى سهولة - إلى سروج ، بوصفها المركز الثانى للصليبيين شرقى الفرات (١). على أن جوسلين دى كورتناى استطاع أن يلحق بمودود عند سروج وأنزل به الهزيمة ، وقتل عدداً كبيراً من رجاله فى يونيه سنة ١١١٣ . ويرجع ابن الأثير تلك الهزيمة إلى أن مودود لم يحتفظ بوحدة جيشه كاملة ، وإنما ترك جزءا يحاصر الرها وأتى بالجزء الباقى لمهاجمة سروج ، وبذلك «أهمل الفرنج ولم يحترز منهم ، فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم». ولم يسع مودود فى ذلك الموقف سوى التراجع نحو الرها فسبقه جوسلين إليها لمساعدة بلدوين دى بورج فى الدفاع عنها (٢).

وفى تلك المرحلة بالذات تآمر الأرمن فى الرها ضد بلدوين دى بورج، واتصلوا بالأتراك طالبين مساعدتهم للتخلص من حكم الصليبيين (٣). وقد تم الاتفاق فى تلك المؤامرة على أن يساعد الأرمن مودود فى الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقى من مدينة الرها ، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة فى سهولة . على أن وصول جوسلين دى كورتناى حال دون تنفيذ المؤامرة ، لأنه عندما علم بها أسرع إلى احتلال القلعة التى كان مفروضاً أن يبدأ السلاجقة بالاستيلاء عليها ، وهاجم الأتراك الذين أخذوا يتسللون إليها حتى ردهم عن آخرهم ، وبذلك حال دون سقوط المدينة فى أيدى السلاجقة (٤).

---

(1) Stevenson : op. cit., p. 95 .

(2) Matthieu d'Edesse, p. 100 &

ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٦ هـ .

(3) Matthieu d'Edesse, p. 101 .

(4) Michel Le Syrien, IIIp. 196 .

ومع أن تلك المؤامرة باءت بالفشل إلا أنها تكشف النقاب عن مدى انحلال الأوضاع الداخلية فى الرها بسبب الانقسام بين شطرى السكان المسيحيين ، الأرمن والصليبيين الغربيين . وكان أن أدى كشف المؤامرة إلى تطرف بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى فى معاملة الأرمن معاملة وحشية صارمة ، فاستحلا دماء كثيرين من الأبرياء ، وأمرا بذبح وإحراق عدد غير قليل من أهل الرها الأرمن . ولم يلبث بلدوين دى بورج بعد ذلك بعدة أشهر أن طرد من الرها عدداً كبيراً من الأرمن ، بعد أن أدرك أن وجودهم داخل أسوار المدينة يعرض سلامته وسلامة المدينة للخطر (١).

ويبدو أن شعور الأرمن فى تلك الفترة بالذات صار معبئاً ضد الصليبيين بوجه عام ، ليس داخل الرها فحسب ، بل فى جميع الأقاليم التى إنتشر فيها الأرمن شرقى أسيا الصغرى وشمال العراق . وليس أدل على شعور الكراهية المتبادل بين الصليبيين والأرمن فى تلك الفترة ، من حقد الصليبيين على كوغ باسيل (كواسيل) بسبب ازدياد نفوذ الأخير واتساع ملكه . وكان أن تحالف بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها ، وتنكرد أمير أنطاكية ضد كوغ باسيل الأرمنى ، واستطاع تنكرد أن يستولى على رعبان ، واستعد فعلا لمحاصرة كيسوم ، عندما عقد الصلح بين الطرفين (٢).

جهود بلدوين دى بورج فى إنقاذ مملكة بيت المقدس سنة ١١١٣ :

أما مودود حاكم الموصل فلم يهدأ ، وظلت فكرة الجهاد تتحكم فى مشاعره وأحاسيسه ، فأعد حملة جديدة سنة ١١١٣ لغزو بلاد الصليبيين ، واشترك معه تميرك صاحب سنجار ، والأمير إياز الأرتقى بن إيلغازى أمير ماردين ، وطغتكين أتابك دمشق . واستطاع الأخير – كما سبق أن أوضحنا – أن يوجه تلك الحملة ضد مملكة بيت المقدس (٣).

وكان بلدوين دى بورج أمير الرها – بحكم قربه من الموصل – أول من أحس بحركة مودود وحلفائه ، فأسرع إلى تحذير الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس . وعندما أحس الملك بلدوين بخطورة الموقف استنجد بأفصاله الأقربين مثل روجر الأنطاكى وبونز أمير طرابلس . أما بلدوين دى بورج أمير الرها ، فكان

(1) Matthiu d'Edesse, pp. 102 - 105 .
(2) Runciman : op. cit., II, p. 123 .
(٣) أنظر ما سبق : الفصل الخامس من الباب التاسع .

من الواضح أنه يتعرض لخطر شبه دائم من جانب الأتراك ، لذلك لم يطلب إليه الملك بلدوين الحضور(١) .

وقد سبق أن شرحنا ما حدث لتلك الحملة قرب بحيرة طبرية ، ثم ما كان من مقتل مودود فى دمشق فى سبتمبر سنة ١١١٣ ؛ مما أدى إلى فشلها (٢) .

سوء الاحوال الاقتصادية فى الرها ، طرد جوسلين:

والواقع إن اتجاه الحملة الإسلامية السابقة صوب إقليم الجليل جاء رحمة للرها التى تعرضت - بحكم تطرفها - لكثير من هجمات السلاجقة ، والتى كانت لا تستطيع المقاومة والثبات أكثر مما قاومت وثبتت . ذلك أن الأتراك خربوا الأراضى المحيطة بها ودمروا ما فيها من شجر وزرع ، حتى صارت الرها بمثابة واحة وسط صحراء واسعة مجدبة مليئة بالأعداء من كل جانب . أما الجزء الواقع غربى الفرات من إمارة الرها - أى إقليم تل باشر - فكان على العكس فى حالة نسبية من الهدوء ، لأنه لم يتعرض لما تعرضت له الرها من إغارات أتابكة الموصل ، فضلا عن أن نهر الفرات كان يحميها من هجماتهم المتكررة .

وتشير المصادر إلى أن جوسلين دى كورتناى أخذ يتصرف فى ذلك الوقت تجاه سيده بلدوين دى بورج تصرفات تدل على عدم اللياقة والإخلاص ، مما أثار حنق بلدوين وشكوكه . ومع أنه لاتوجد فى الواقع أدلة ثابتة على خيانة جوسلين لبلدوين الثانى ، إلا أنه من المحتمل أن يكون سبب سوء التفاهم بين الطرفين هو حقد بلدوين دى بورج على جوسلين ، لاسميا وأن بلدوين - وسط المتاعب الداخلية والخارجية التى ألمت به وبإمارته - أخذ يتشكك فى جميع من حوله ، فلم يكتف بالشك فى الأرمن وإخلاصهم ، وإنما تشكك أيضاً فى أقرب أعوانه إليه وهو جوسلين نفسه ، بعد أن وجد أنه محبوب من الأرمن . ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى الموقف بأن قبض بلدوين دى بورج على جوسلين وحبسه ، ثم أطلق سراحه بعد أن عزله عن حكم تل باشر (٣) .

ولم يجد جوسلين دى كورتناى أمامه سوى الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، فذهب إليه طامعاً فى عطفه . وكان أن أقطع الملك بلدوين جوسلين إمارة طبرية والجليل ، حيث أظهر جوسلين نشاطاً وسعاً فى مهاجمة المسلمين وبخاصة فى إقليم صور . وتدل الشواهد على أن جوسلين لم يحاول - وهو فى

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 484 .

(٢) أنظر ما سبق : الفصل الخامس من الباب التاسع .

(3) Runciman : op. cit., II, p. 124 .

إمارته الجديدة - أن يسئ إلى بلدوين دى بورج أمير الرها ، مما جعل الأخير - عندما تولى عرش بيت المقدس عقب وفاة بلدوين الأول - لايكتفى بإعادة جوسلين إلى تل باشر ، بل أعطاه إمارة الرها بأكملها سنة ١١١٩ (١) .

مؤامرة الأرمن سنة ١١١٣ لتسليم الرها لمودود :

أما الأرمن فى الرها ، فظلوا يضمرون البغض وسوء النية لبلدوين دى بورج والصليبيين عموماً . وزاد من كراهيتهم وحقدهم تلك الإجراءات التعسفية التى اتخذها بلدوين الثانى ضد الأرمن سنة ١١١٢ . ولم يلبث استياء الأرمن أن دفعهم إلى التفكير فى تسليم الرها للسلاجقة سنة ١١١٣ ، أى فى الوقت الذى بدأ مودود حاكم الموصل يتأهب لحملته الجديدة ضدّ الصليبيين . وربما ظن الأرمن أن الظروف مواتية لتسليم الرها لمودود أثناء غياب بلدوين دى بورج فى تل باشر ، لأخذ قلعتها بعد طرد جوسلين دى كورتناى منها . ومع أنه لايوجد دليل ثابت على أن الأرمن تواطأوا فعلا ضد الأتراك فى تلك المرة ، إذ ربما لايعدو الأمر مجرد إشاعة أو دسيسة ، إلا أن تجربة العام السابق جعلت بلدوين دى بورج يسرع إلى اتخاذ إجراءات عنيفة لحماية الرها من جهة وللانتقام من الأرمن من جهة أخرى (٢) .

ولم يلبث أن عهد بلدوين دى بورج إلى أحد رجاله بعقاب الأرمن وطردهم من الرها ، فانتشر الصليبيون فى المدينة يذبحونهم بالجملة ، كما لجأوا فى ١٣ مايو سنة ١١١٣ إلى طرد من تبقى منهم على قيد الحياة خارج المدينة . ويصف المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى حالة الأرمن فى ذلك الوقت ، وكيف أنهم مروا بأيام حالكة ليس لها مثيل فى تاريخهم ، فكان الأب لايعرف أبناءه والأبناء يفرون من آبائهم ، والكل لايعنيهم سوى النجاة بأرواحهم ، وقد غادروا الرها تاركين خلفهم كل ما امتلكوه من مال ومتاع . أما من بقى منهم داخل منزله وأغلق عليه بابه ، فإن الصليبيين اقتحموا عليه داره وأحرقوه حياً . وهكذا لم يتبق فى الرها من أبنائها الأرمن سوى ثمانين رجلا لاذوا بكنيسة القديس تيودور ، حتى تم القبض عليهم فحبسوا فى قلعة المدينة تحت الحراسة المشددة (٣) . وقد اتجه معظم الأرمن المطرودين من الرها إلى المدن والبلاد الأرمينية الأخرى القريبة - وبخاصة سميساط - فى حين صارت الرها مدينة شبه خربة ، فازداد ركودها وضعفها ، بعد أن فقدت عنصرا أساسيا من سكانها المعروفين بنشاطهم ودأبهم .

(1) Stevenson : op. cit., p. 106 .
(2) Grousset : Hist des Croisades, I. 490 .
(3) Matthieu d'Edesse, pp. 104 - 106 .

ولم يلبث أن أحسن بلدوين دى بورج بأن طرد الأرمن من الرها عاد عليه وعلى إمارته بالخسارة ، وأن من بقى بالمدينة من المسيحيين الغربيين والسريان لايكفون للاحتفاظ للرها بنضارتها وقوتها ، فسمح للأرمن فى فبراير سنة ١١١٤ بالعودة إلى الرها مرة أخرى (١).

استنجاد الأرمن بالسلاجقة :

وإذا كان الأرمن بعد عودتهم إلى الرها قد ركنوا إلى الهدوء التام ولم يحاولوا القيام بأى عمل يسئ إليهم ، إلا أنهم ظلوا مع ذلك - داخل الرها وخارجها- لا يستطيعون أن يغفروا للصليبيين سوء معاملتهم واضطهادهم لكنيستهم.

وكان السلطان محمد السلجوقى قد عهد بحكم الموصل بعد مقتل مودود إلى حاكم جديد هو آقسنقر البرسقى ، مع تكليفه - مثل سلفه - بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين . وفى سنة ١١١٤ قام آقسنقر بحملة كبيرة ضد الرها ، وبصحبته ابنه عماد الدين زنكى وتميرك صاحب سنجار وغيرهما . والمعروف أن آقسنقر كان رجلا ماهرا ، فبدأ بدعم نفوذه والاستيلاء على أعمال الموصل مثل جزيرة ابن عمر ، كما استولى على ماردين من صاحبها إيلغازى ، وبعد ذلك سير إيلغازى ابنه إياز مع آقسنقر لمهاجمة الرها . وقد ظل آقسنقر يحاصر الرها شهرين كاملين ، قاومه طوالها الفرنجة وصبروا له على قول ابن الأثير (٢). ويبدو أن صمود الرها على ذلك الوجه جعل آقسنقر يرفع حصاره عنها ، ويوجه إغاراته ضد الضياع الصليبية المحيطة بها وبسروج وسميساط . وفى تلك المرحلة أرسل حاكم كيسوم ورعبان الأرمنى إلى آقسنقر يعرض عليه محالفته ضد الصليبيين .

وكان كوغ باسيل (كواسيل) الأرمنى - حاكم إمارة كيسوم ورعبان - قد توفى فى أكتوبر سنة ١١١٢ تاركاً إمارته المستقلة لأرملته وابنهما بالتبنى ، دغا باسيل . وعندما أحس هذان الأخيران بأن تنكرد أمير أنطاكية يطمع فى إمارتهما ، طلبا حماية الأتابك آقسنقر البرسقى واعترفا بتبعيتهما له وسيادته على إمارتهما ؛ وقبل آقسنقر ذلك بعد فرض جزية معينة على تلك الإمارة الأرمينية ، رمزا لتبعيتها (٣). ويبدو أن بعض الأرمن الذين طردهم بلدوين الثانى من الرها سنة

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 491.

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٨ هـ .

(٣) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٨ في هذه السنة توفي بعض جنود الفرنج ويعرف بكواسيل ؛ وهو صاحب مرعش وكيسوم ورعبان وغيرها ، فاستولت زوجته علي المملكة وتحصنت من الفرنج وأحسنت إلي الاجناد ، وراسلت آقسنقر البرسقي وهو علي الرها وأستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه .

١١١٣ نزحوا إلى كيسوم حيث حرضوا دغا باسيل على محالفة السلاجقة ضد الصليبيين [١] .

بلدوين الثانى دي بورج والتوسع على حساب الأرمن :

على أن الصليبيين اعتبروا ما قام به أمراء كيسوم الأرمن من تحالف مع السلاجقة ، خيانة كبرى فى حق المسيحية ، فضلا عما فى ذلك التحالف من تهديد صريح للامارات الصليبية فى شمال العراق والشام . لذلك لم يلبث بلدوين دى بورج أمير الرها أن خرج لحصار رعبان سنة ١١١٥ ، وعندئذ استنجد دغا باسيل بأحد حكام الأرمن فى منطقة طوروس الجبلية . ولكن الأخير لم يهتم بأمر مساعدة دغا باسيل وانتهز فرصة مجيئه إليه وقبض عليه وسلمه لخصمه بلدوين دى بورج أمير الرها ؛ الذى لم يطلق سراح دغا باسيل إلا بعد أن أجبروه على تسليم مدينتى كيسوم ورعبان سنة ١١١٦ ، فى حين لجأ دغا باسيل نفسه إلى بلاط القسطنطينية [٢] .

ثم إن بلدوين دى بورج لم يكتف بذلك ، وإنما طمع فى ضم بقية الإمارات الأرمينية المستقلة فى أطراف العراق والشام . لذلك خرج بلدوين فى العام التالى ومعه تابعه صاحب سروج لمهاجمة إمارة أخرى للأرمن ، هى البيرة ، وكانت بيد زعيم أرمنى آخر هو أبو الغريب . والمعروف أن البيرة ذات موقع هام على مجرى الفرات فى الطريق بين الرها وعينتاب . وعلى الرغم من أنها دانت بالطاعة لبلدوين الأول سنة ١٠٩٩ ، إلا أنه تركها تتمتع بكيانها كإمارة أرمينية صغيرة[٣] . وقد استطاعت البيرة أن تقاوم حصار بلدوين دى بورج نحو سنة ، حتى سلمت له أخيراً سنة ١١١٧ . وهنا يظهر المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى استياءه ، لأن أمير الرها وجه نشاطه ضد الأرمن المسيحيين بدلا من المسلمين ، واتهم ذلك الأمير بأنه لم يفرق بين السلاجقة المسلمين والأرمن المسيحيين [٤] . أما البيرة فقد ظلت بأيدى الصليبيين حتى سنة ١١٤٥ .

وأخيرا استولى بلدوين دى بورج على قلعة قورس شمالى حلب سنة ١١١٧ وبذلك يكون الأرمن فى أطراف العراق والشام قد لقوا على أيدى الصليبيين مالم يلقوه على أيدى المسلمين . ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين دى بورج لم يستقر

(1) Runciman : op. cit., II, p. 129 .
(2) Matthieu d'Edesse, pp. 116 - 117 .
(3) Setton : op. cit., I, p. 405
(4) Matthieu d'Edesse, p. 117 .

بعد ذلك فى حكم الرها طويلا ليتابع سياسته ضد الأرمن ، إذ توج ملكاً على بيت المقدس فى ١٤ أبريل سنة ١١١٨ بعد وفاة الملك بلدوين الأول ، واتـخذ لقب الملك بلدوين الثانى . ولم يجد ملك بيت المقدس بلدوين الثانى أكفأ وأشجع من جوسلين دى كورتناى ليحل محله فى حكم الرها ، وينهض بمهمة الدفاع عن الجبهة الشمالية الشرقية للصليبيين . وهكذا عادت المياه إلى مجاريها بين الرجلين ، واتجه جوسلين إلى الرها ليتولى مهام منصبه الجديد [1] .

(1) Cam. Med Hist vol 5, p. 301 .

الباب التاسع

الصليبيون فى أوج مجدهم

" فليضحكوا قليلا وليبكوا
كثيرا جزاء بما كانوا
يعملون"

(التوبة : ٨٢)

الفصل الأول

حياة الصليبيين ونظمهم فى الشـــام

البناء السياسى :

لم يقدر للصليبيين منذ دخولهم بلاد الشام سنة ١٠٩٧ حتى طردهم منها سنة ١٢٩١ أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها، وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة، وتفصل بينها أراضى ومدن وبلاد إسلامية. ويمكن تشبيه دولة الصليبيين فى أقصى اتساعها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه فى الشمال من أنطاكية غرباً إلى الرها شرقاً، وضلعه الأيمن من الرها إلى أيلة على البحر الأحمر، وضلعه الجنوبى من أيلة إلى غزة، وضلعة الغربى من غزة إلى إنطاكية. هذا مع ملاحظة مع مافى هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ، إذ امتلك الصليبيون أراضى ومدن عديدة خارج حدود تلك الرقعة، وفى الوقت نفسه وجدت داخلها مدن كبرى ظلت محتفظة بوضعها الإسلامى دون أن يستطيع الصليبيون الاستيلاء عليها مطلقاً، مثل حلب وحماه ودمشق[1].

وقد سبق أن رأينا كيف ظهرت النوايا والأطماع السياسية للأمراء المشتركين فى الحملة الصليبية الأولي، وذلك قبل وصولهم إلى بلاد الشام ذاتها، الأمر الذى جعل من المتعذر قيام وحدة سياسية تضم شمل الصليبيين فى الشرق الأدني. وهكذا قامت إمارة الرها، ثم إمارة أنطاكية، ثم مملكة بيت المقدس وأخيراً إمارة طرابلس[2]. وعلى الرغم مما ادعاه كل واحد من أمراء تلك الوحدات الصليبية من استقلال وسيادة، إلا أن مملكة بيت المقدس الصليبية تمتعت بأولوية ظاهرة، وذلك بحكم أوضاعها الدينية والتاريخية. ويكفى أن المسيحيين جميعاً نظروا إليها على أنها مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة، مما جعلها مقصد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحي[3].

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, p. 396.
(2) Longman : Les Français d'Outremer au Moyen - Age, pp. 108 - 109.
(3) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 97 - 99.

والواقع إن الفضل فى بناء مملكة بيت المقدس الصليبية التى قامت فى أواخر القرن الحادى عشر، إنما يرجع إلى الملوك الستة الأوائل الذين تعاقبوا على عرش تلك المملكة، والذين حملوا أسماء بلدوين وفولك وعموري. وقدرأينا كيف أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ – ١١١٨) جمع من الصفات السياسية والحربية والخلقية والعقلية، ما جعل منه حاكماً ناجحاً، استطاع أن يرسى الدعائم الأولى التى قامت عليها مملكة الصليبيين فى بيت المقدس. وقد شاء حسن حظ تلك المملكة أن يخلف بلدوين الأول مجموعة من الملوك عرفوا جميعاً بالمقدرة والكفاية والحرص علي الصالح الصليبى العام بالشام، وهم بلدوين الثاني، وفولك الأنجوي، وبلدوين الثالث، وعمورى الأول، وأخيراً بلدوين الرابع (١١٧٤ – ١١٨٥)[١]. ومصدر نجاح هؤلاء الملوك جميعاً هو مقدرتهم على استغلال الظروف، واختيار الرجال، والإفادة من المنافسات والخزازات بين الترك والعرب، وبين السنة والشيعة، وبين حكام حلب وحكام دمشق. هذا فضلا عما لجأ إليه بلدوين الثانى من محالفة الباطنية، وتمكين تلك الفرقة الهدامة من إشاعة الفوضى فى المجتمع الإسلامى بالشام، وقتل جماعة من أعلام المجاهدين[٢].

نظم الحكم والإدارة :

وقد طبق الصليبيون بالشام كثيراً من النظم الإقطاعية التى خبروها وعاشوا فى ظلها فى الغرب الأوربى قبل حضورهم إلى الشرق.

ففى مملكة بيت المقدس كان الملك على رأس الهرم الإقطاعى وتتألف أملاكه الخاصة (الدومين) من ثلاث مدن رئيسية هى بيت المقدس وعكا ونابلس، ثم أضيف إليها الداروم بعد ذلك[٣]. وكان يلى الملك أربعة من كبار الأمراء – أشبه بالدوقات فى الغرب – هم أمراء يافا والجليل وصيدا وشرق الأردن – ولكل واحد من هؤلاء الأمراء الأربعة الكبار موظفوه وإدارته، أشبه بالملك نفسه،ولكن على مقياس أصغر. وبعد ذلك جاءت مجموعة الأمراء الذين حكموا بقية مدن المملكة، وعددهم حوالى أثنى عشر أميراً أهمهم أمير قيسارية وأمير تبنين[٤]. وكان على كل فصل من أولئك الأمراء – الكبار والصغار – أن يعترف بالتبعية لسيده الإقطاعى، ويقدم له الخدمة العسكرية والفرسان المحاربين، وفقا للقواعد

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. XIV.
(2) Setton : op. cit., pp. 119 - 120.
(3) Richard : Le Royaume Latin de Jérusalem, pp. 71 - 72.
(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 302.

والأصول الإقطاعية. هذا مع ملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن محدودة فى بلاد الشام بموسم معين أو أيام معدودات فى السنة، كما هو الحال فى الغرب الأوربي، وإنما تطلبت ظروف إقامة الصليبيين فى بلاد الشام، وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة، أن تكون الخدمة الحربية غيرمشروطة إلا من ناحية عدد الفرسان الذين يقدمهم الفصل لسيده الإقطاعى فى الحرب(١).

وكان إقطاع كل أمير وحدة متماسكة من الأرض - مدينة وأعمالها أو حصن أو عدة قرى متلاصقة مثلا - إلا فى حالة أراضى الكنيسة التى آلت إليها عن طريق الهبة والإحسان، أو أراضى هيئات الفرسان - وبخاصة الاسبتارية والداوية - التى آلت اليهم عن طريق الفتح والغزو، فكانت متناثرة فى مختلف أنحاء الشام.

أما الموارد المالية التى عاش عليها الملك والأمراء فكانت عديدة، منها ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطة بهم، فضلا عن الضرائب العديدة التى فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات والحجاج والموانى والسفن(٢).

أما عن دستور مملكة بيت المقدس فأول ما نلاحظة عليه أنه لم يكن ثابتاً على حال واحد، وإنما تعرض لكثير من التغيير والتبديل حسب الظروف. ويبدو مما كتبه اللاحقون أن ملك بيت المقدس - على الرغم مما تحقق له من سيادة على أمراء أنطاكية والرها وطرابلس - إلا أنه كان محدود السلطان فى عاصمته أمام سطوة الدين ورجال الدين، إذ لا ينبغى لملك أن يرفع رأسه فى مدينة المسيح. ولعل هذا هو السبب الذى جعل أمراء الحملة الصليبية الأولى - واحدا بعد آخر - يرفضون شرف تولى حكم مدينة بيت المقدس بعد أن فتحها الصليبيون سنه ١٠٩٩، حتى إذا ما قبل جودفرى ذلك المنصب بعد ضغط شديد، إشترط عدم تتويجه ملكا، اعتقاداً منه بأنه لا يجوز أن يقوم ملك فى مدينة المسيح(٣).

وبينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس يتوارثون منصب الإمارة وفقا للقانون الإقطاعى المعروف فى الغرب، إذ بالملكية فى بيت المقدس تظل إنتخابية من

(١) من ذلك أن أمراء يافا وصيدا والجليل كان علي كل منهم أن يقدم للملك مائة فارس كامل العدة في وقت الحرب، في حين كان علي أمير شرقي الأردن تقديم ستين فارسا فقط.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 289.

(3) Cam. Med. Hist. vol, 5. p. 300.

ناحية المبدأ، وإن كان أمراء المملكة قد أخذوا بعد ذلك بالمبدأ الوراثي، كما حدث عند تولية بلدوين الرابع ملكا سنة ١١٧٤ وهو فى الثالثة عشر من عمره بعد وفاة أبية (١). ومهما تعددت سلطات الملك، فإنه كان مقيداً فى كثير من المسائل برأى أمرائه فضلا عن رأى المحكمة العليا، فكان مثلا لا يستطيع أن يعزل أميراً من إقطاعه إلا بموافقة تلك المحكمة.

وكانت تلك المحكمة العليا فى أساسها هيئة قضائية، ولكن لم يلبث أن اتسع اختصاصها فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية لابد من موافقتها على أى قانون أو تشريع جديد فى المملكة، فضلا عن الفصل فيما ينشأ بين الأمراء بعضهم وبعض من خلافات ومنازعات، أو ما يرتكبونه من مخالفات وجرائم(٢). وفوق هذا وذاك، فقد كان لتلك المحكمة رأى مسموع فى توجيه السياسة العامة للمملكة، لأن المحكمة العليا تألفت من أفصال الملك المباشرين - وهم كبار الأمراء - فضلا عن أنها ضمت ممثلين للكنيسة من كبار رجالها، وممثلين للجاليات الأجنبية التى امتلكت أراضى ومدن فى المملكة - مثل البنادقة والجنوية والبيازنة - وممثلين لهيئات الفرسان، مثل الإسبتارية والداوية. ومن الواضح أن ملك بيت المقدس كان لا يستطيع أن يتخذ قراراً سياسياً خطيراً دون الرجوع إلى رأى جميع الفئات السابقة (٣).

وبالأضافة إلى المحكمة العليا التى اختصت بالتشريع والسياسة العليا للمملكة، وفض المنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض، وجدت محاكم أخرى فى مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها وتنوع نشاطها. من هذه المحاكم مثلا تلك التى أطلق عليها اسم المحاكم البورجوازية Cours des bourgeois وهى خاصة بالفرنجة من غير النبلاء - أى عامة الفرنجة من الطبقة الوسطى - وتفصل فيما يحدث بينهم من خلافات بسبب المعاملات المالية والمدنية فضلا عما صار لها من نفوذ فى القضايا الجنائية (٤). وقد قامت هذه المحاكم البورجوازية فى كل مدينة من المدن الصليبية الكبري، وتولى رئاستها فيكونت المدينة يساعده إثنا عشر محلفاً يختارهم الأمير الذى تتبعه المدينة. أما المدن التى كان للتجار الإيطاليين أحياء بها، فقد وجدت بها أنواع أخرى من المحاكم ذات الطابع التجارى : النوع الأول هو محاكم الأموال Cours de la Fonde وقد قامت فى المدن ذات النشاط التجاري، والنوع الثانى محاكم الموانى

(1) Grousset : Hist. des Croisades, II p. 609.
(2) Longman : op. cit., p. 137.
(3) Runciman : op. cit., II, pp. 300 - 301.
(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 283.

والسفن Cours de la Chaine وقد قامت فى الموانى البحرية، ويتولى رئاستها جميعاً القناصل أو وكلاؤهم(1).

هذا عن المحاكم، أما الجهاز الإدارى فى المملكة فكان يشرف عليه مجموعة من كبار الموظفين، أولهم القهرمان Seneschal وكان يشرف على الاحتفالات الكبرى وعلى الشئون المالية والخزانة، ويأتى بعده كند أسطبل المملكة Constable وهو قائد الجيش تحت رئاسة الملك العليا، ويشرف على كل ما يتعلق بتنظيماته وإمداداته، ويساعده المارشال. وبعد ذلك يأتى الياور Chamberlain ويشرف على القصر الملكى وعلى مالية الملك الخاصة. وهكذا تعدد الموظفون فى مملكة بيت المقدس بتعدد الاختصاصات أو أتساع النشاط الإداري(2).

ومع أنه لم يصلنا الكثير عن النظم التى كانت سائدة فى إمارة الرها، إلا أنه بدراسة ما وصلنا من نظم إمارتى أنطاكية وطرابلس يمكننا القول بأن الإمارات الصليبية شابهت مملكة بيت المقدس فى نظمها القضائية والإدارية على مقياس أصغر، مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التى نتجت عن الظروف التى أحاطت بكل إمارة من ناحية والبنية البشرية التى تألفت منها الإمارة من ناحية أخري(3). فإمارة الرها مثلا أدى تطرفها فى الشمال الشرقي وإحاطة الأرمن والأتراك بها، وبعدها نسبيا عن التيار الصليبى العام فى بلاد الشام، إلى وقف تطورها الدستورى وإلى اعتماد أمرائها على نسبة كبيرة من الموظفين الأرمن الذين تأثروا بالنظم البيزنطية(4). وفى إمارة أنطاكية أيضا نلمس روح النورمان ونزعتهم الاستبدادية ورغبة أمرائها فى كبت أية معارضة من جانب كبار النبلاء فى الإمارة، كما نلمس التأثيرات البيزنطية التى تبدو فى بعض النظم والتشريعات لاسيما تلك الخاصة بالضرائب(5).

وهكذا كان من المتعذر على الصليبيين أن يتجاهلوا فى نظمهم بالشام آثار البيئة والظروف التى أحاطت بهم.

الكنيسة والهيئات الدينية :

وكان من الطبيعى أن يكون للكنيسة أهمية كبرى فى مجتمع ادعى أنه قام على أساس الدين، وزعم أنه يسعى لتحقيق أهداف دينية. ومهما تكن الأسباب التى دفعت البابوية إلى الدعوة للحروب الصليبية، فالمهم هو أن قيام البابوية فعلا

(1) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٨ – ٧٩.
(2) Runciman : op. cit., II, pp. 303 - 304.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.
(4) Longnon : op. cit., p. 137.
(5) Runciman : op. cit., II, pp. 306 - 307.

بتلك الدعوة جعل لها هيمنة عليا على الحركة الصليبية من أولها لآخرها، وعلى الصليبيين جميعاً بالشام، الكبير منهم والصغير[١] واذا كان لملك بيت المقدس نفسه ثمة رئيس أو سيد، فإن هذا الرئيس كان البابا فى روما. وقد سبق أن أوضحنا كيف كان من المتوقع أن تقوم حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس لولا وفاة أدهمار المندوب البابوى فى الحملة الصليبية الأولي، ثم سوء سيرة دايمبرت. هذا إلى أن البابوية رأت من صالحها عدم قيام حكومة دينية فى بيت المقدس، لأن ظهور أحد رجال الدين الأقوياء فى مدينةالمسيح معناه قيام بابوية جديدة فى الشرق، وفى تلك الحالة يستطيع البابا الجديد فى بيت المقدس أن يطالب - بوصفه خليفه المسيح فى مدينته - بالسيادة على بابا روما، الذى لن ينفعه عنئذ أنه خليفه القديس بطرس فى كنيسته. ولعل هذه المخاوف هى التى جعلت بابوات روما لا يؤيدون دايمبرت فى خلافه مع ملك بيت المقدس، ولا يشجعون بأى حال قيام حكومة ثيوقراطية فى الأراضى المقدسة [٢].

ولعل أول ما يسترعى إنتباهنا عن الكنيسة فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية هو أنها فازت بنصيب الأسد، بمعنى أنها ربحت كثيراً ولم تقدم سوى القليل. فعند دخول الصليبيين إلى الشام طردوا رجال الدين الأرثوذكس، واستحوذ إخوانهم الكاثوليك على كل شيء ليظهروا جشعاً كبيراً فى امتلاك الأراضى والأموال، عدا الهبات والهدايا التى انهالت عليهم[٣]. وهكذا تميزت الأديرة والكنائس التى دخلت فى حوزة الصليبيين بالشام بوفرة ثروتها واتساع أملاكها التى لم تقتصر على بلاد الشام، بل امتدت إلى القارة الأوربية نفسها. ويكفى أن نعرف أن أحد تلك الأديرة - وهودير جبل صهيون فى بيت المقدس - امتلك سنة ١١٧٨ حياً بأكمله فى مدينة القدس ذاتها مع تمتعه بحق فتح بوابة فى أسوار المدينة. وكانت لذلك الدير أيضا ممتلكات وأراضى وبساتين وأسواق فى عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وأنطاكية وقيليقية، بل إن بعض الخيرين من حجاج بيت المقدس وهبوا ذلك الدير بعد عودتهم إلى أوربا ضياعاً وأملاكاً فصارت له ممتلكات فى صقلية وأيطاليا فضلا عن فرنسا[٤]. وهذا مثل واحد من أمثله كثيرة يضيق المقام عن ذكرها وإنما سقناه لنأخذ فكرة عامة عن مدى ثروة الكنيسة ومؤسساتها فى الشام على عصر الحروب الصليبية. ويبدو أن تلك الثروة

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. 295.
(2) Setton : op. cit., I, pp. 379 - 383.
(3) Longnon : op. cit., p. 133.
(4) Thompson : op. cit., p. 406.

الطائلة التى تمتعت بها المؤسسات الدينية، أثارت حقد النبلاء فى بلاد الشام، لاسيما وأن ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب، كما كان رجالها معفين من الخدمة العسكرية، مما جعل النبلاء والفرسان يشعرون أن الكنيسة ورجالها يتضخمون على حسابهم ويجمعون الأموال والثروات، فى الوقت الذى يتحملون هم المغارم وعبء الدفاع عن الكيان الصليبى بأجمعه فى بلاد الشام.

أما عن التنظيم الكنسى فى بلاد الشام، فيلاحظ أن الوضع جرى منذ القرن الرابع للميلاد علي ان يكون بتلك البلاد كرسيان بطرقيان كبيران، أحدهما فى بيت المقدس والآخر فى أنطاكية، وقد استمر هذا الوضع سائداً في العصر الصليبي. أما بطرق بيت المقدس فقد ضعف مركزه أمام الملك بعد الفشل الذى منى به دايمبرت. وعندما يخلو منصب بطرقية بيت المقدس، كان رجال البطرقية ينتخبون اثنين للمنصب، يختار الملك أحدهما. ويتبع بطرق بيت المقدس خمسة من رؤساء الأساقفة فى صور، وقيسارية، والناصرة، والكرك، وبصري. ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة(١) . أما بطرق أنطاكية، فكانت تتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها، بمعنى أنه كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس وأنطرطوس وجبلة والبارة وطرسوس والمصيصة فضلا عن الرها(٢) .

وقد شهدت بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية عديداً من الهيئات الدينية، أهم ما يعنينا منها هيئات الفرسان، وبخاصة الاسبتارية والداوية. وسنشير فى موضع آخر إلى نشأة هاتين الهيئتين. ويهمنا فى هذا المقام أن نؤكد نموهما السريع فى القرن الثانى عشر وازدياد أملاكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو والنهب، حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثروة واتساع النفوذ(٣) . والواقع أن منظمتى الداوية والاسبتارية سدتا فراغاً ضخماً في حياة الصليبيين بالشام. فمن الناحية الروحية، كان هناك كثيرون من الأتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة فى ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة فى محاربة المسلمين، وهؤلاء وجدوا ضالتهم فى تلك المنظمات التى جمع أفرادها بين حياة المتعبد وحياة المحارب. ومن الناحية السياسية قام فرسان الاسبتارية والداوية بجهد ضخم فى حماية الكيان الصليبى بالشام والزود عنه، وفى محاربة المسلمين وغزو بلادهم ودفع هجماتهم، فى وقت قل عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوربي(٤) . ويشهد تاريخ الحروب الصليبية

(1) Richard : Le Royaume Latin, p. 98.
(2) Runciman : op. cit., II, pp. 311 - 312.
(3) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 390 - 392.
(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, pp. 305 - 306.

بالشام على أن فرسان الداوية والاسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عودا وأكثرهم عناداً وجرأة وشجاعة ، وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية لانتهى أجل الكيان الصليبى بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة (١).

ومن الواضح أن نشاط هيئات الفرسان بالشام فى عصر الحروب الصليبية لم يقتصر على ما أسهموا به من جهد حربي، وإنما قاموا أيضا بجهد كبير فى ميدان الخدمة الاجتماعية. من ذلك أن ملجأ الاسبتارية فى بيت المقدس كان يتسع لألف حاج، فضلا عن المشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم(٢) ... وكان الاسبتارية والداوية يوزعون صداقات يومية على فقراء الصليبيين والمعوزين منهم، وبلغت هذه الصدقات درجة من السخاء أثارت انتباه الزوار والأغراب. وبالإضافة إلى كل ذلك قام أولئك الفرسان بحراسة طرق الحجاج من يافا وعكا إلى بيت المقدس، وبذلوا فى ذلك جهداً استحق شكر المعاصرين. أما عن نشاطهم المالى والمصرفى فقد بدأ بتقديم تسهيلات إئتمانية للحجاج الوافدين من الغرب، ولم يتخذ هذا النشاط شكلا استغلالياً إلا بعد ذلك فى أواخر العصر الصليبي، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين(٣).

على أن هذه المزايا الضخمة التى حققتها هيئات الفرسان للصليبيين قابلتها مثالب كثيرة ترتبت على وجودهم. ذلك أن هذه الهيئات كانت مستقلة تماماً فى بلاد الشام عن كل نفوذ سياسي، ولا تعترف بالتبعية إلا للبابا فى روما مباشرة ، مما جعل منها دولة داخل الدولة. وكثيراً ما نجد إحدى الهيئتين تتخذ لنفسها سياسة خاصة معينة فى مشكلة من المشاكل، أو تعقد صلحاً أو هدنة مع المسلمين دون أن ترتبط أوتقيد نفسها بالسياسة العامة للدولة الصليبية. هذا إلى أنها – مثل الكنيسة – تمتعت بأملاك واسعة، فلم تمتلك ضياعاً وأراضى وأسواقاً ومراعى ومواشى فحسب، بل امتلكت أيضا كثيرا من المدن والحصون والقلاع وتعهدت بالدفاع عنها ضد المسلمين. ولاشك فى أن هذه الممتلكات جاءت على حساب بقية الفئات الصليبية بالشام(٤).

الحياة الاقتصادية :

امتازت حياة الصليبيين فى بلاد الشام بنشاط اقتصادى واسع، وإن كان الصليبيون أنفسهم لم يسهموا فى ذلك النشاط إلا بقسط ضئيل(٥). والمعروف أن

(1) Runciman : op. cit., II, p. 312.
(2) King : The Knights Hospitallers, pp. 64 - 67.
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٤٥٠ – ٤٥١ (١٩٦٦) .
(4) Thompson, op. cit., p. 407.
(5) Longnon : op. cit., p. 141.

معظم الأجزاء التى احتلها الصليبيون من الشام وأقاموا فيها مدة طويلة، فقير مجدب، حتى أنهم اضطروا عندما انكمشت رقعة بلادهم فى المدن الساحلية إلى استيراد القمح من خارج بلاد الشام. ومع ذلك فإن سفوح الجبال والمروج هيأت لهم مراعى طيبة، فضلا عن بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون والخضروات التى أحاطت بالمدن. ومن الثابت أن الصليبيين شرعوا فى تصدير بعض تلك الحاصلات مثل الزيتون والموالح إلى الغرب. أما قصب السكر فقد عرف الصليبيون زراعته فى الشام، كما تعلموا استخراج السكر منه، فأقاموا مصانع للسكر فى عكا وصور وغيرهما من موانى الشام، ومنها صدروا السكر بكميات كبيرة إلى الغرب الأوربى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر(١) . كذلك صدر الصليبيون بالشام الأقمشة والملابس الحريرية والكتانية والمخمل إلى الغرب. واشتهر اليهود فى المدن الصليبية - وبخاصة فى صور وأنطاكية - بانتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوربا، وإن تعرضوا فى هذه الصناعة لمنافسة شديدة من الزجاج المصدر من مصر.

وكان لملوك الصليبيين وأمرائهم دخل كبير من الرسوم التى فرضوها على تجارة المرور، أى التجارة المارة ببلادهم من الشرق الأقصى إلى الغرب الأوربي، عن طريق بغداد ودمشق فعكا وغيرها من الموانى الصليبية. هذا فضلا عما فرضوه على البضائع الواردة الى بلادهم أو المصدرة منها إلى الغرب. ومن الواضح أن الجزء الأكبر من ذلك النشاط التجارى تركز فى قبضة التجار الايطاليين وبخاصة البنادقة والبيازنة والجنوية، وهم الذين امتلكوا أحياء بأكملها فى كثير من المدن الصليبية بالشام، وأنشأوا فيها فنادق خاصة بتجارهم زودوها بكل ما يجعل الواحد منهم يشعر بأنه يعيش فى بلده الأصلي(٢) .

وقد برزت عكا بالذات فى النشاط التجارى للصليبيين ببلاد الشام، وهو النشاط الذى بلغ ذروته فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر. فابن جبير قال عن عكا عندئذ إنها « قاعدة الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام » وشبهها بالقسطنطينية فى كونها مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى فى جميع الآفاق(٣) . ذلك أن عكا كانت الميناء الطبيعى لإقليم دمشق، واليها يتجه التجار الوافدون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة

(1) Heyd : op. cit., II, pp. 680 - 686.
(2) Richard : op. cit., I, pp. 217 - 227.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٩٣ .

العربية إلى الشام. وقد حكى ابن جبير أنه سافر من دمشق الاسلاميه سنة ١١٨٤ وفى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة الصليبية، وأشار إلى أن مثل هذه القوافل كانت كثيرة، كما أظهر دهشته لسهوله الإجراءات المتعلقة بالمكوس(١). هذا إلى أن الحجاج الوافدين من غرب أوربا إلى الشام كانوا يفضلون عادة النزول بعكا بالذات، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس وغيرها من المراكز الصليبية فى الداخل.

ومع ذلك فإن صغر ميناء عكا وعجزه فى كثير من الحالات عن استقبال عدد كثير من السفن الكبيرة، جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور، فضلا عن الموانى الأخرى فى شمال الشام، مثل اللاذقية والسويدية (٢) وهنا نلاحظ أن هذه الموانى الصليبية لم تستقبل التجار المسيحيين فحسب، بل إستقبلت أيضاً فى عصر الحروب الصليبية كثيراً من التجار المسلمين، وبخاصة من المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر، وقاموا برحلات داخل الشام حتى دمشق بقصد المتاجرة(٣). وكان للتجار المسلمين خانات ينزلون بها فى الموانى الصليبية.

وأخيراً، فإننا نلاحظ على النشاط الاقتصادى فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية عدة ملاحظات نوجزها فيما يلى :

أولا : أن السلع التجارية التى كانت محورا للتجارة عندئذ معظمها يدخل تحت باب الكماليات مثل الحرير والأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والبلور وغيرها.

ثانياً : أن النقود المتداولة فى بلاد الشام عندئذ تنوعت وتباينت تبايناً شديدا، لا يقل عن تنوع العناصر والأجناس التى اجتمعت فى تلك البلاد. فبالاضافة إلى العملات الغربية التى أحضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من غرب أوربا، ظلت النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضا فى بلاد الشام طوال العصر الصليبي(٤).

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٩١.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, pp. 315 - 316.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٩١.
وقد أظهر ابن جبير دهشته من أن التبادل التجاري يتم بين المسلمين والصليبيين رغم ما بينهما من حروب، وأن القوافل تنتقل بين اراضي الطرفين في سهولة، فقال : ومن أغرب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلي بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلي بلاد المسلمين:. أنظر رحلة ابن جبير ص ٢٨٨.

(4) Thompson : op. cit., pp. 404 - 405.

ثالثاً : أن ملوك بيت المقدس لم يستفيدوا كثيرا من ذلك النشاط الاقتصادى المحيط بهم فى بلاد الشام. حقيقة إنهم فرضوا كثيرا من الضرائب على الصادرات والواردات، وعلى القوافل المارة بأراضيهم، فضلا عن الاحتكارات التى حاكى فيها ملوك بيت المقدس النظم البيزنطية(١) . ولكن أولئك الملوك دأبوا دائما على توزيع تلك الموارد على الكنيسة وهيئات الفرسان، فكان ريع الضريبة الفلانية يخصص لمساعدة الاسبتارية، وريع المكس الفلانى يخصص للداوية، ودخل ميناء كذا يخصص للكنيسة الفلانية أو الدير الفلانى .. مما حرم الملكية نفسها من ثروة طائلة. هذا وإن ظل ملوك بيت المقدس أوفر ثروة وأحسن حالا بكثير من بعض ملوك الغرب الأوربى فى ذلك الوقت (٢).

الحياة الاجتماعية

اتصف البناء الاجتماعى للصليبيين فى الشرق بالخلل وعدم وجود انسجام بين الطبقات المختلفة التى تألف منها المجتمع الصليبى فى الشام، وكان ذلك من العوامل الرئيسية التى أدت الى ما لحق بالصليبيين من فشل فى نهاية الأمر. ذلك أن الصليبيين الغربيين الذين عاشوا فى بلاد الشام، ظلوا دائما قلة قليلة، بعد أن عادت نسبة كبيرة ممن شاركوا فى الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم بعد فتح بيت المقدس، في حين تألفت الغالبية العظمى من سكان دولة الصليبيين بالشام من المسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم. وإذا كانت الأقلية الغربية قد استطاعت أن تحفظ بنفوذها السياسى فى بلاد الشام، وتجعل من نفسها أرستقراطية حاكمة، فإنها لم تستطع مطلقا أن تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وأصولها الغربية سليمة نقية، وإنما اضطرت بحكم قلة عددها وسط محيط شرقى واسع أن تفقد كثيرا من صفاتها الأصلية وتكتسب الكثير من التعديلات الجديدة (٣).

ونستطيع أن نحدد الطبقات التى تألف منها مجتمع دولة الصليبيين بالشام على عصر الحروب الصليبية بما يأتى :

(١) الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان الغربيين، وهؤلاء كانوا قلة إذ لم يزد عددهم فى مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال. ومثل ذلك العدد أيضاً فى إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس مجتمعين.

---

(1) Longnon : op. cit., p. 140.
(2) Thompson : op. cit., I, p. 406.
(3) Richard : op. cit., p. 122.

وقد ظلت هذه الطبقة – التى كان مفروضاً أن تظل بمثابة العمود الفقرى للمجتمع الصليبى بالشام – تعاني نقصاً كبيراً في العدد بسبب كثرة الضحايا في الحروب، وقلة الوارد من الغرب [١]. حقيقة إن جموع الحجاج لم ينقطع وصولها إلى الشام منذ سقوط بيت المقدس، ولكن قليل من هؤلاء اختاروا الإقامة فى الشام بعد الحج، وكانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى غرب أوربا. ثم إنه إذا كان الصليبيون قد أنجبوا كثيراً من الأطفال فى الشام، فإنه لم يعش من تلك الذرية سوى نسبة ضئيلة بسبب العوامل الجوية والصحية التى لم يألفوها. وأخيراً فإنه يلاحظ أنه إذا كانت هذه الأرستقراطية الصليبية الحاكمة قد ظلت نقية فى مملكة بيت المقدس، فإن الأمر فى أنطاكية والرها لم يظل كذلك، إذ تزوج بعض نبلاء الصليبيين وفرسانهم من الأرستقراطية المحلية، وبخاصة من عنصر الأرمن[٢].

(٢) طبقة عامة المحاربين من الصليبيين، وهؤلاء عبارة عن عامة الصليبيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء، والذين شاركوا فى الحركة الصليبية. وكان هؤلاء العامة من الصليبيين الغربيين يؤلفون فرق المشاة فى الجيش الصليبي، واضطروا بعد استقرارهم بالشام إلى التزاوج مع المسيحيين الشرقيين المحليين – وبخاصة الأرمن – مما أدى قرب منتصف القرن الثانى عشر إلى ظهور طبقة جديدة هى :

(٣) طبقة الأفراخ (المولدين) Pollani وهؤلاء نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين المحليين، من أرمن وسريان وغيرهم. ومن الواضح أنه مع مرور الوقت حلت هذه الطبقة الجديدة محل الطبقة السابقة، وقامت بدورها فى خدمةالمجتمع الصليبى بالشام [٣].

(٤) طبقة المسيحيين المحليين من أرمن وموارنة وروم وسريان ويعاقبه وأقباط وغيرهم. وقد احتقر الصليبيون الغربيون هؤلاء المسيحيين الشرقيين عموما، وأحسوا نحوهم بالكراهية نتيجة للخلافات المذهبية. ولعله من الواضح أن فئة البيزنطيين أو الروم الارثوذكس كانوا أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين، بسبب التخوف دائما من تآمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد

---

(١) وخير مثل لذلك ما سبق أن أشرنا إليه من زواج أمراء الرها – بلدوين الأول وجوسلين – من أرمنيات.

(2) Longnon : op. cit., pp. 155 - 156.

(3) Thompson : op. cit., pp. 398 - 399.

مصالح الصليبيين. ومع ذلك فإن الصليبيين لم يطردوهم أو يقضوا عليهم - كما فعلوا مع اليهود - وإنما استبقوهم لمهارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والأعمال الحقيرة، التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها . أما الأرمن الذين اشتهروا بنشاطهم فقد كانوا أحسن حالا، وشجعهم ملوك بيت المقدس علي الهجرة إلى أراضي المملكة ومدنها لتعميرها بعد أن هجرتها نسبة كبيرة من سكانها المسلمين. كذلك نسمع عن تولى الأرمن بعض الوظائف الهامة فى الدويلات الصليبية بالشام، فضلا عما كان هناك من تزاوج بينهم وبين الصليبيين الغربيين[1] .

(٥) التجار الإيطاليون : وهؤلاء تركزوا فى المدن الصليبية وبخاصة الموانى الساحلية مثل يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وصور وبيروت وطرابلس وجبيل واللاذقية والسويدية. وقد ظل هؤلاء التجار يكونون طبقة مستقلة قائمة بذاتها يتكلمون الإيطالية، ولا يختلطون بغيرهم إلا فى نطاق المعاملات المالية والتجارية. ويشبه التجار الإيطاليين فى وضعهم تجار مرسيليا فى عكا ويافا وصور وجبيل، وتجار برشلونة فى صور[2] .

(٦) المسلمون : وهم أهل البلاد الأصليون، وسكان المدن والبلاد التي احتلها الصليبيون. ومع أن بعض تلك المدن هجرها أهلها من المسلمين عقب الغزو الصليبي، إلا أنه من الثابت أن نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة وسط المجتمع الصليبي، تؤثر فيه [3] . ومن أهم الجاليات الإسلامية الت ظلت باقية رغم احتلال الصليبيين لبلادها، الجالية التى سكنت المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا، والجالية القائمة فى حوض نهر العاصى وسهل البقاع. يضاف إلى هؤلاء قبائل البدو الرحل الذين ظلوا يتنقلون خلف المرعى من مكان إلى آخر، معهم قطعانهم من المواشي، وينتهزون أية فرصة مناسبة للانقضاض على قوافل الصليبيين وممتلكاتهم[4] .

(٧) الرقيق والأقنان : كان لا يمكن للصليبيين بالشام أن يستغنوا عن الرقيق والأقنان، بعد أن اعتادوا فى الغرب وجود تلك الطبقة ليعمل أفرادها فى فلاحة الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة. وكانت الغالبية العظمى من المزارعين

(1) Runciman : op. cit., II, p. 294.
(2) Grousset : L'Empire du Levants, pp. 319 - 320.
(3) Richard : Le Royaume Latin, pp. 123 - 124.
(4) Thompson : op. cit., p. 398.

فى الشام – علي عصر الحروب الصليبية – من الأقنان. وإذا كانت أوضاع الرقيق والأقنان قد أخذت تتحسن في القرن الثاني عشر فى الغرب الأوربي، وصار فى استطاعة كثيرين منهم أن يتحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة فى الحياة(١) فإن الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام. ذلك أن الرقيق والأقنان قاسوا الكثير من العنت بسبب تعسف الصليبيين وجورهم فى بلاد الشام مما جعلهم يترحمون على أيام الحكم الإسلامي(٢). وتنص قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية على أن الرقيق والفلاحين والأسرى كالمواشى يخضعون لقانون البيع والشراء، وأن للسيد أن يفعل ما شاء بمن ملكت يداه(٣).

هذا عن البناء الاجتماعى لدولة الصليبيين بالشام، ومنه يتضح أن ذلك البناء تألف من طبقات متباينة معظمها غير متآلف مع بعضه البعض، مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين. وكانت اللغة السائدة بين الصليبيين بوجه عام فرنسية الطابع، لاتينية الأصل وإن اختلفت لهجاتها، فاستخدم الصليبيون فى أنطاكية ومملكة بيت المقدس اللهجة الجنوبية من الفرنسية "Langue d'oc" أما الأقليات الأخرى التى وجدت داخل المجتمع الصليبي، فاستخدم كل منها لغته الخاصة. وقد شهد عصر الحروب الصليبية بالذات انسياب بعض الألفاظ العربية فى اللغات الأوروبية، وهى ألفاظ اضطر الصليبيون إلى استخدامها بحكم الأختلاط والجوار مع المسلمين العرب فى بيئة واحدة (٤).

أما العادات والتقاليد، فإن تناقص أعداد الصليبيين الأصليين فى بلاد الشام جعل من المتعذر عليهم الاحتفاظ طويلا بعاداتهم وتقاليدهم الغربية(٥). ويروى لنا أسامة بن منقذ كثيرا من غرائب أخلاق الصليبيين وعاداتهم وتقاليدهم، وفى الوقت نفسه يحكى لنا كثيرا من القصص الطريفة التى تشهد على مدي تأثر الصليبيين بالبيئة الشرقية ومحاكاتهم المسلمين فى كثير من عاداتهم(٦).

ولم يختلف نظام الأسرة وأوضاعها عند الصليبيين فى الشام عما كان عليه الوضع السائد في الغرب الأوروبى فى العصور الوسطي. وكل ما هنالك هو أن

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطي ج٢ ص ٨٨.
(2) Thompson : op. cit., I, p. 398.
(3) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 226.
(4) Longman : op. cit., pp. 155 - 156.
(5) Runciman : op. cit., II, p. 291.
(٦) أنظر ما كتبة أسامة بن منقذ عن طبائع الإفرنج وأخلافهم (كتاب الاعتبار ص ١٣٢ – ١٤٩).

طبيعة الحرب الطويلة، ووجود عدد كبير من شباب الغرب الأغراب الذين طال بعدهم عن بلادهم، أدى أحيانا إلى شيء من الانحلال الخلقى بين الصليبيين بالشام. وقد ذكر أسامة بن منقذ بضع ملاحظات على الصليبيين فى هذا الشأن فقال : أنه ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، وقال إن الرجل منهم يمشى هو وامرأته عندما يلقاه صديق له فيأخذ المرأة ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج منتحياً بعيداً ينتظر فراغهما من الحديث فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى ...[1].

كذلك يبدو أن الأوضاع التى عاش فيها الصليبيون فى الشام أدت إلى ظهور عدة أمراض خلقية، حتى انحرف بعضهم نحو الشذوذ الجنسي[2]. الأمر الذى جعلهم يلجأون إلى فكرة جلب نساء من غرب أوربا وجزائر البحر المتوسط للترفيه عن الجند المحاربين. ومن ذلك ما يرويه عماد الدين الكاتب والمؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة ٥٨٥ هـ = ١١٨٩م أن « وصلت فى مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر (جزر البحر)، وإنتدبن للجرائر، واغترين لإسعاف الغرباء، وقصدن بخر وجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء. وأنهن لا يمتنعن عن العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة .. [3].

---

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .
(٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ١٨٤
أبو شامة : كتاب الروضتين ج٢ ص ١٤٩ .

الفصل الثانى

بلدوين الثانى ملك بيت المقدس

مشكلة الوراثة فى مملكة بيت المقدس :

لم يترك بلدوين الأول ملك بيت المقدس ولداً يرثه فى الملك، ولم يعمل حساباً للموت فيوصى فى حياته بتعيين شخص معين يتولى عرش المملكة من بعده، ليتفادى ما حدث فى أنطاكية بعد وفاة تنكرد. لذلك اجتمع أمراء المملكة ومعهم البطرق أرنولف مالكورن في اليوم التالى لوفاته لبحث مشكلة ملء العرش (١).

وفى المؤتمر الذى عقده الصليبيون لبحث مشكلة عرش بيت المقدس، إتجه الرأى أولا نحو استدعاء الأخ الثالث لجودفرى بوايون وبلدوين بوايون، وهو الأمير ايستاش البولوني(٢). ولكن البعض اعترض على ذلك الرأي، ونادى المعترضون بأن أحوال المملكة تتطلب عدم إنتظار وصول ذلك الأمير من فرنسا، فضلا عن أن المصلحة العامة قضت بأن يكون خليفة بلدوين الأول من الأمراء الذين عاشوا فى الوسط الصليبى بالشرق وأحسوا بإحساسات الصليبيين وخبروا حرب المسلمين. وهنا إنبرى جوسلين دى كورتناى ينادى بأن هذه الشروط كلها متوافرة فى الأمير بلدوين دي بورج أمير الرها، فضلا عن أنه ابن عم الملك الراحل، والوحيد الذى مازال على قيد الحياة من كبار الأمراء الذين شاركوا فى توجيه الحملة الصليبية الأولى (٣).

وكان من المستغرب حقاً أن يأتى ذلك الترشيح من جوسلين دى كورتناى بالذات وهو الذى طرده بلدوين دى بورج من تل باشر. ولعل جوسلين رأى فى ذلك فرصة طيبة لاسترضاء بلدوين دى بورج وإزالة ما في نفسه من رواسب الماضى (٤). ثم إن جوسلين دى كورتناى، كان عندئذ أبرز أمراء مملكة بيت المقدس بوصفه أمير الجليل وطبرية، فوجد رأيه أذنا صاغية من بقية زعماء

(1) Guillaume de Tyr, pp. 513 - 516.
(2) Ibid.
(3) Runciman : op. cit., II, pp. 143 - 144.
(4) Michaud : Hist. des Croisades II, pp. 56 - 57.

الصليبيين، وبخاصة البطرق أرنولف. وشاءت الصدف العجيبة أن يكون بلدوين دى بورج فى تلك الأثناء فى طريقة إلى بيت المقدس للزيارة والحج، فتم تتويجه ملكاً علي مملكة بيت المقدس الصليبية فى كنيسة القيامة يوم ١٤ أبريل سنة ١١١٨ (١).

ولم يعش أرنولف مالكورن بطرق بيت المقدس طويلا بعد تتويج بلدوين الثانى ملكاً، فحل محله البطرق جرموند Germond. أما جوسلين دى كورتناى فقد كافأه بلدوين الثانى على موقفه ووفائه بإعطائه إمارة الرها، على أن يكون تابعاً له فى حكم تلك الإمارة (٢).

وكان أن أخذ بلدوين الثانى يعمل بسرعة فى تثبيت سلطانه، لا داخل مملكة بيت المقدس فحسب، بل فى مختلف الإمارات الصليبية ببلاد الشام وشمال العراق. وقد أتت أول عقبة واجهت الملك الجديد من جانب بونز أمير طرابلس، الذى رفض سنة ١١٢٢ أن يقدم الولاء ويعترف بالتبعية الإقطاعية لبلدوين الثانى ملك بيت المقدس. ولكن بلدوين الثانى اتخذ موقفاً حازماً سريعاً، لاسيما وأن أراتقة حلب غزوا إمارة أنطاكية - التي كانت عندئذ تحت وصاية بلدوين الثانى - فى الوقت نفسه الذى أعلن بونز عصيانه (٣). وهكذا تمكن بلدوين الثانى من إخضاع أمير طرابلس فى سرعة ليتفرغ للأراتقة ويردهم عن إمارة أنطاكية، كما سيلي.

ثم إن بلدوين الثانى حرص فى تلك الأثناء علي إنعاش الأحوال الاقتصادية فى مملكته، فأصدر قراراً سنة ١١٢٠ بإعطاء جميع الغربيين - من التجار والحجاج والزوار - الحرية في نقل البضائع من المملكة وإليها، كما سمح لجميع المسيحيين الشرقيين - من السريان والأرثوذكس والأرمن - بدخول بيت المقدس والمتاجرة فيها (٤).

الفرسان الاسبتارية والداوية :

وفى عهد بلدوين الثانى بدأ نشاط هيئات الفرسان يسترعى الانتباه فى الحروب الصليبية، بعد أن تكونت هيئة الفرسان الداوية، فى حين تحولت الاسبتارية من هيئة للعناية بمرضى الصليبيين وعلاجهم إلى منظمة عسكرية.

والواقع إن الهدف الأساسى من قيام هيئات الفرسان - وبخاصة الاسبتارية والداوية - بالشام على عصر الحروب الصليبية، إنما كان العناية بمرضى

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 519.
(2) Stevenson : op. cit., p. 106.
(3) Foucher de Chartres, pp. 515 - 516.
(4) Guillaume de Tyr, I, pp. 534 - 535.

الصليبيين ورعايتهم. ولكن هذا الهدف لم يلبث أن تحول بعد قليل فاتخذت تلك الهيئات طابعاً حربياً وصار عليها أن تدافع عن ممتلكات الصليبيين بالشام، وتحمى أماكنهم المقدسة، وتحارب المسلمين، حتى جاء وقت أصبح فيه الداوية والاسبتارية هم حماة الكيان الصليبى بالشام (١). وساعد تلك الهيئات على ذلك ما جمعوه من ثروة طائلة، وما استولوا عليه من ممتلكات عديدة، حتى صارت لهم مدن وحصون ومعاقل بأكملها، يمتلكونها ويزودون عنها.

وثمة رأى يقول إن جذور هيئة الاسبتارية ترجع إلى ما قبل قيام الحروب الصليبية، عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفى سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية فى هيئة بيمارستان أو مستشفى قرب كنيسة القيامة فى بيت المقدس، للعناية بفقراء الحجاج، ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى Hospitallers التى حرفت بالعربية إلى اسبتارية (٢). ولم يلبث أولئك الاسبتارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديرى البندكتى المعروف في غرب أوربا، وصاروا يتبعون البابا فى روما تبعية مباشرة. وعند وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وحصارهم لها، قام أولئك الإسبتارية – بحكم درايتهم بأحوال البلاد – بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين (٣). ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاسبتارية تتبلور ويصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام خاص بها. وقد تعاقب فى رئاسة تلك الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين عملوا دائماً على إكساب منظمتهم أهمية خاصة فى النشاط الصليبي(٤). وساعد الاسبتارية على ذلك حصولهم على كثير من الأراضى والإعانات، فضلا عن أن كثيراً من كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاسبتارية على النهوض برسالتهم. وهكذا لم تحل سنة ١١٣٧ إلا وكان للاسبتارية دور فعال فى محاربة المسلمين (٥).

أما هيئة الداوية فقد نشأت منذ أول أمرها على أساس عسكرى حربي. ويرجع تأسيس تلك الهيئة إلي سنة ١١١٨ عندما وضع أساسها فارس فرنسى اسمه هوجودى باينز Hugue de Payens. وقد أختار ذلك الفارس جزءاً من هيكل سليمان فى المسجد الأقصى ببيت المقدس ليكون مقراً لمنظمته الجديدة ، ومن ثم أطلق على أتباعه اسم فرسان المعبد Templars، وهم الذين عرفوا باسم

---

(1) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. l.
(2) Delaville Le Roulx : Les Hospitaliers en Terre Saint et en Chypre, p. 29.
(3) Guillaume de Tyr, pp. 822 - 823.
(4) King : op. cit., pp. 19 - 23.
(5) Runciman : op. cit., II, p. 157.

الداوية [1]. ولم تلبث هذه الهيئة الجديدة أن تبلورت هى الأخري، واتخذت طابعها الخاص، فذهب رئيسها هوجو إلى فرنسا وانجلترا لحث الفرسان والنبلاء على مساعدة رهبانها الذين جمعوا فى الأراضى المقدسة بين الحياة الدينية والحياة العسكرية. وكان أول عمل تعهد الداوية بالقيام به حماية طريق الحجاج بين بيت المقدس وشاطيء البحر، ثم لم يلبثوا أن أسهموا فى كل عمل حربى آخر قام به الصليبيون فى بلاد الشام [2].

ولاشك فى أن تأسيس هيئة الداوية من جهة، وتحول الاسبتارية إلى هيئة عسكرية من جهة أخري، قد هيأ لمملكة بيت المقدس قوة حربية دائمة ساعدتها فى تحقيق كثير من أغراضها. وقد حظيت تلك الهيئات بعطف الملك بلدوين الثانى ومساعدته، مع أنها ظلت مستقلة عن سلطانه وتتبع البابوية، ولا تدين لغيرها بالولاء[3]. على أننا نلاحظ أنه إذا كانت تلك الهيئات قد استطاعت أن تقوم بدورها كاملا فى أول الأمر، فإنها لم تلبث أن تحولت عن مبادئها وأغراضها عندما ازدادت امتيازاتها وكثرت ثروتها وأخذت تتدخل فيما لا يعنيها. هذا إلى أنها أصبحت كنيسة داخل الكنيسة، ولم يحجم رؤساؤها عن الدخول فى منازعات مع بطرق القسطنطينية نفسه [4].

التحالف بين دمشق والقاهرة :

وكان أخطر ما يهدد مملكة بيت المقدس الصليبية منذ قيامها هو نشأة تحالف بين القاهرة ودمشق، مما يوقع تلك المملكة بين شقي الرحي. لذلك حرص بلدوين الثانى على أن يسترضى طغتكين فى دمشق، وأرسل إليه عقب توليه عرشِ بيت المقدس يطلب تجديد الهدنة بين الطرفين. ولكن طغتكين طلب ثمناً باهظا لم يوافق عليه بلدوين الثانى «وأظهر القوة». وكان أن رد طغتكين على ذلك بمهاجمة الصليبيين فى الجليل وطبرية فنهبها وما حولها، ثم اتجه إلى عسقلان [5].

وفى ذلك الوقت كان الوزير الأفضل الفاطمى قد قام بمحاولة جديدة ضد الصليبيين، فحشد جيوشه فى عسقلان، وأرسل أسطوله إلى صور. وقد تمت تلك

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 542.
وقد اختلفت الآراء في أصل هذه التسمية العربية، وقال بعضهم إنها مشتقة من داود الذي أقام أولئك الفرسان في بيت أو معبد منسوب إليه.
(2) Guillaume de Tyr, pp. 520 - 521.
(3) King : op. cit., pp. 31 - 32.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 544 - 545.
(5) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ.

المحاولة التى قام بها الأفضل الفاطمى لضرب الصليبيين بعقد اتفاق مع طغتكين الذى حضر بنفسه إلى عسقلان لقيادة القوات المشتركة، وعندئذ أخبره المقدم على الجيش الفاطمى أن لديه تعليمات «بالوقوف عند رأى طغتكين والتصرف على ما يحكم به». وهكذا تمت المعجزة، فتحالف الدماشقة السنيون مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين، مما أنذر بتهديد مملكة بيت المقدس تهدياً خطيراً [(١)].

ولم يسع الملك بلدوين الثانى فى ذلك الموقف الحرج سوى الاستنجاد بالصليبيين فى أنطاكية وطرابلس، ثم رابط الملك نفسه شمالى عسقلان حيث تجمد الموقف بين الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة أشهر، عاد بعدها كل فريق من حيث أتي[(٢)]. واختار بلدوين الثانى ألا يترك الأزمة تمر دون أن يثأر من طغتكين، فأغار على أذرعات، واستولى على بعض المواقع شمالي عال وشرقى طبرية، مثل حصن الحبس المعروف بحصن جلدك [(٣)].

وفى الوقت نفسه قام جوسلين دى كورتناى – الذى لم يكن فى قد سافر بعد إلى الرها – بالإغارة سنة ١١١٩ على قبائل العرب فى منطقة طبرية، مثل بنى خالد وبنى ربيعة (فكبس طائفة من طي يعرفون ببني خالد فأخذهم وأخذ غنائمهم، وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة فأخبروه أنهم بوادي السلالة بين دمشق وطبرية). وقد أسرع جوسلين علي رأس خمسين فقط من فرسانه للحاق بذلك النفر من العربان فى وادى السلالة لنهب قطعانهم. ولكن جوسلين ضل الطريق فسار علي طريق آخر، وعندئذ أحاط بهم العرب وطعنوا خيولهم «فجعلوا اكثرهم رجالة» فقتل من الصليبيين سبعون عدا الأسري. أما جوسلين فاتجه إلى طرابلس حيث جمع بعض قوات أغاريها على عسقلان، ولكن المسلمين هزموه «فعاد مغلولا» [(٤)].

موقعة البلاط سنة ١١١٩ مقتل روجر الانطاكى :

رأينا كيف اختلت أحوال إمارة حلب بعد وفاة ملكها رضوان سنة ١١١٣ إذ حكم بعده ابنه ألب أرسلان مدة قصيرة، حتى قتل فى سبتمبر سنة ١١١٤ وعندئذ تولى بدر الدين لؤلؤ اليايا الوصاية علي الإمارة (١١١٤ – ١١١٧)، وبعده تولى يارقتاش، ثم ابن الملحي. ولم تكد تحل سنة ١١١٨ حتى كانت حلب قد صارت

(1) Setton : op. cit., pp. 411 - 412.
(2) Foucher de Chartres, pp. 617 - 619 & Guillaume de Tyr, pp. 518 - 519.
(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٢ هـ.
(٤) المصدر السابق، حوادث سنة ٥١٣ هـ.

تحت رحمة النورمان فى أنطاكية، الأمر الذى جعل الحلبيين يتجهون نحو إيلغازى الأرتقى طالبين حمايتهم من روجر الأنطاكي.

ولم يلبث أن استولى روجر على بزاع سنة ١١١٩ (١). وبذلك صارت حلب محاصرة من نواح ثلاث، وهو أمر لم يحتمله الحلبيون أو إيلغازى نفسه. لذلك حشد إيلغازى جيوشه من التركمان فى أبريل سنة ١١١٩، وانضم إليه بعض الأمراء - مثل أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي، والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن، وغيرهما. كذلك يرجح أن إيلغازى طلب المعونة من السلطان محمود السلجوقى - الذى خلف أباه محمد عند وفاته سنة ١١١٨ - ولكنه لم يلق رداً، فى حين رضى طغتكين صاحب دمشق أن يذهب بنفسه لمساعدته، كما أعلن أبو العساكر سلطان بن منقذ - أمير شيزر - استعداده لمهاجمة إمارة أنطاكية من الجنوب (٢).

وقد اختار إيلغازى أن يتجه علي رأس القوات المتحالفة إلى الفرات أولا - فهاجم تل باشر والرها، ثم عبر الفرات عند بالس واتجه إلى قنسرين لينقذ حلب التى لم تفتأ تستغيث به. وكانت قوة الجيش الإسلامى عندئذ تبلغ أربعين ألفاً، ومع ذلك استخف روجر الأنطاكى بأمر المسلمين، لولا أن حثه برنارد بطرق أنطاكية علي طلب النجدة العاجلة من بلدوين الثانى ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس. وقد أرسل ملك بيت المقدس من طبرية يفيد روجر أنه سيحضر علي وجه السرعة ومعه أمير طرابلس. وفعلا خرج الملك بلدوين الثانى على رأس جيش بيت المقدس ومعه صليب الصلبوت قاصداً الشمال (٣).

على أن روجر الأنطاكى لم ينتظر وصول الملك بلدوين الثانى إليه، وإنما تعجل الخروج - فى ٢٠ يونية - لصد المسلمين ومعه قوة بلغت سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة، واستمر فى سيره حتى وصل إلى جسر الحديد علي نهر العاصي، قرب أرتاح (٤). وكان أن علم إيلغازى - عن طريق عيونه بضعف قوة روجر، فرأى أن يستغل الفرصة ويعاجله بالهجوم قبل وصول النجدات إليه. وفعلا تقدم إيلغازى من قنسرين صوب الجيوش الصليبية في أواخر يونيه، حيث دارت موقعة البلاط فى سهل قريب من أرتاح في ٢٨ يونية، وهي الموقعة التى انتهت

(١) المصدر السابق.
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٣ هـ.
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(4) Gautier Le Changelier, II, pp. 100 - 101.

بتدمير الجيش الصليبى أولا عن آخره ، وأخذهم بالسيف من سائر نواحيهم ، في حين خر روجر الأنطاكى نفسه (سرجال) صريعاً في المعركة (١). وقد بلغ من كثرة قتلى الصليبيين أن أطلقوا على السهل الذى دارت فيه المعركة اسم ساحة الدم ، Ager Sanguinis .

وكان لذلك النصر رد فعل قوى عند المسلمين والصليبيين جميعاً. ذلك أن الموقعة في حقيقة أمرها قررت مصير حلب، فأما أن تبقي فى قبضة المسلمين وإما أن يبتلعها الصليبيون. لذلك جاءت فرحة المسلمين بالنصر عظيمة، فنظم شعراؤهم القصائد فى مدح إيلغازي، وأرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسى الخلع وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج (٢) والواقع أن إيلغازى كان يستطيع بعد ذلك النصر المبين أن يجنى ثماراً كثيرة لاسيما وأن الطريق إلي أنطاكية صار مفتوحاً أمامه . ولو أسرع إيلغازى إلي أنطاكية عندئذ ،لما امتنعت عليه ،علي قول ابن العديم (٣).

أما بالنسبة للصليبيين، فإن الكارثة التى حلت بهم كانت فادحة. ويكفى أن إمارة أنطاكية - وهي الباب الشمالى للاملاك الصليبية ببلاد الشام - صارت فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش، فى الوقت الذى أخذ المسيحيون المحليون - السريان والأرمن والأرثوذكس - يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين (٤) ويرجع الفضل إلى بطرق أنطاكية عندئذ - هو برنارد دى فالنس - فى رعاية شئون المدينة وحراسة تحصيناتها، حتى حضر الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس (٥). وكان أن وجد الملك إمارة أنطاكية، فى حال يرثي له، بعد أن اجتاح الأتراك أراضيها ودمروا ضواحيها. ولم يكد الملك بلدوين الثانى يتسلم الوصاية على إمارة أنطاكية لحين وصول بوهيموند الثانى بن بوهيموند الكبير مؤسس الإمارة من الغرب - حتى أخذ يعمل بسرعة لتنظيم الأمور وإعادة الثقة إلى الأهالى وإعداد العدة لصد المسلمين (٦).

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٨٨ & Guillaume de Tyr, pp. 525 - 526

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٥١٤ هـ.

ومما قاله الشعراء المعاصرون في مدح إيلغازي في تلك المناسبة قول العظيمي :

قل ما تشاء فقولك المقبول ... وعليك بعد الخالق التعويل

واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكي لفقد رجاله الانجيل

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩١.

(4) Stevenson : op. cit., p. 104.

(5) Gautier Le Changelier, p. 115.

(٦) يذكر ابن العديم عن الإجراءات السريعة التي اتخذها الملك بلدوين الثاني عندئذ في أنطاكية أنه قبض علي أموال القتلي ودورهم وأخذها، وزوج نساء القتلي بمن بقي، وأثبت الخيل، وجمع وحشد واستولي علي أنطاكية .... ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩١.

وكـان إيلغـازى الأرتقى قـد ازداد قـوة بعـد أن انضم إليـه طغـتكين أتابك دمشق، فاتجـه الإثنان لمحاصرة الأثارب حتى سقطت في أيديهما (أغسطس سنة ١١١٩)، ثم اتجها بعد ذلك إلى زردنا التي استسلمت أيضا بعد مقاومة عنيفة. وفى ١٤ أغسطس سنه ١١١٩ دارت المعركة عند دانـيث بين المسلمين والملك بلدوين الثاني وانتهت المعركة بهزيمة إيلغازى وطغتكين، وإن كان انتصار الصليبيين غير حاسم [١]. وبعـد ذلك عاد إيلغـازى وطغتكين إلى حلب ومعـهما عـدد كبيـر من الأسري، وهناك أشاعا أنهمـا انتصرا على الأعداء كما انتقما بقتل من بقى من أسرى المعركة السابقة الذين كانوا بحلب [٢].

وقبل أن يستأنف بلدوين الثانى محاربة الأتراك، نزل على قلعة زور غربى البارة، ثم إسترد كفر طاب وسرمين ومعرة مصرين من المسلمين. وكان المسلمون قد انتهـزوا فرصة الكارثة التى حلت بروجر الأنطاكى واستولوا عليها [٣]. وبعد ذلك عاد بسرعة إلى إنطاكية لينظم أمورها ثم قفل راجعاً إلى بيت المقدس [٤].

على أن الأراتقـة لم يخلدوا لهـزيمتـهم السـابقـة، وإنما أخـذ إيلغـازى يجـدد هجماته على الصليبيين منذ أواخر مايو سنه ١١٢٠، فاجتاح كل المنطقة بين تل باشر وكيسوم (كيسون) حيث قتل كثيراً من الأعداء وخرب ضياعهم وقراهم، رغم المقـاومـة الشـديدة التى أبداها جوسلين دى كـورتناى [٥]. ثم غـادر إيلغـازى إقليم سميساط وتل باشر ليستولى على عزاز من إمارة الرها. وعند اقتراب إيلغازى من أنطاكـيـة هرب كـثـير من أهلهـا، وأرسلوا إلـى الملك بلدوين الثـانى يطلبـون النجـدة السريعة، فخف الملك لنجدتهم ومعه صليب الصلبوت في يونيـة سنة ١١٢٠. وبعد أن انضم إليـه جـوسلين دى كـورتناي، خـرج الملك على رأس القوات الصليبيـة إلى دانيث لملاقاة الأتراك [٦].

وفى تلك المرة أيضاً حضر طغتكين من دمشق لمساعـدة إيلغازي، ولكن اشـتـبـاكاً بين الطرفين لم يحـدث، إذ انتـقل بلدوين الثـانـى إلى الشـمـال لإسـتـرداد الأجزاء التى استـولى عليـها إيلغازى فى العـام السابق حـول زردنا والأثارب، في

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩١ - ١٩٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٩ - ١٢٠،
(4) Setton : op. cit., I, p. 414.
(5) Matthieu d'Edesse, p. 127 & ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩٤ - ١٩٥
(6) Foucher de Chartres, pp. 445 - 446.

حين تحرك إيلغازى وطغتكين صوب حلب [١]. وكان أن انتهى الموقف بين بلدوين الثانى وإيلغازى بعقد هدنة اعترف فيها إيلغازى بحق إمارة أنطاكية فى الاحتفاظ بممتلكاتها شرقى نهر العاصي، وهى من الجنوب إلى الشمال كفر طاب ومعرة النعمان والبارة وغيرها [٢]. وبذلك يكون بلدوين الثانى قد حقق نجاحاً كبيراً للصليبيين بدون حرب، وبعد ذلك قفل راجعاً إلى بيت المقدس.

على أن العداء لم ينقطع بين الأراتقة والصليبيين رغم الهدنة السابقة، إذ دأب حاكم منبج الأرتقى علي الإغارة على أراضى الرها، مما جعل جوسلين دى كورتناى يرد عليه بالإغارة على أراضى منبج وإقليم صفين على الصفة الغربية للفرات [٣]. بل إنه أوغل فى مايو سنة ١١٢١ حتى خرب بزاعه وهاجم الأثارب إلى الجنوب الشرقى من حلب، وأحدث مذبحة ضخمة فى أهلها من المسلمين، وعندئذ عهد إيلغازى إلى إبنه سليمان حاكم حلب بعقد الصلح مع الصليبيين والتنازل لهم عن بعض المناطق القريبة من حلب [٤].

وفى تلك الأثناء لم تنقطع الاشتباكات بين طغتكين أتابك دمشق وبلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى صيف سنة ١١٢١ فى منطقة الجليل والجولان وجبل عجلون[٥]. أما الأمير إيلغازى فقد أحاطت به المتاعب عندما أعلن ابنه سليمان عصيانه وخروجه عن طاعة أبيه، ثم عقد صلحاً مع الصليبيين أعطاهم بمقتضاه زردنا والأثارب، وهى ا لثمار التي حصل عليها إيلغازى من انتصاراته الأخيرة [٦] وقد أفزعت تلك الأخبار إيلغاري، فأراد أن يعاقب ابنه ويسترد زردنا والأثارب ، وفعلا شرع فى مهاجمة زردنا، مما تطلب عودة الملك بلدوين الثانى إلى شمال الشام فى صيف سنة ١١١٢.

على أنه لم يحدث صدام مسلح عندئذ بين إيلغازى وبلدوين الثاني، فعاد الأخير إلى بيت المقدس فى سبتمبر سنة ١١٢٣ بعد أن خلص زردنا من الحصار

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩٥ – ١٩٦ Foucher de Chartres p. 446

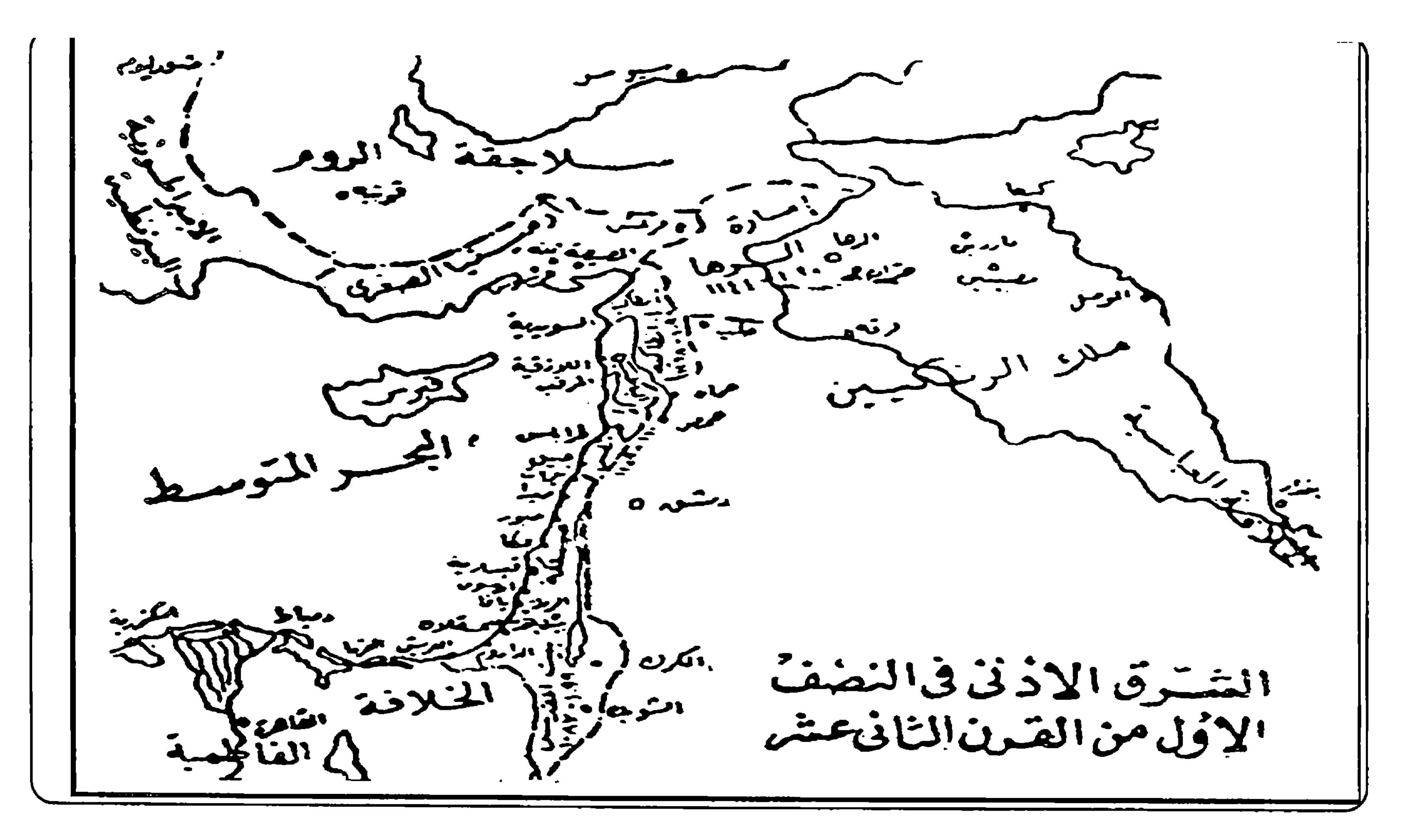
(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(5) Guillaume de Tyr, p. 434 & Foucher de Chartres p. 446.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٥ هـ.
ابن العديم : زبدة حلب ج٢ ص ١٩٩ .


الشرق الأدنى في النصف الأول من القرن الثاني عشر
سلاجقة الروم
قونية
البحر المتوسط
الخلافة الفاطمية
الرها
ماردين
الموصل
دمشق

دون إراقة دماء [1]. أما فى الجزيرة فقد ظلت كفة الصليبيين راجحة فى تلك الفترة، حتى وقع جوسلين دى كورتناى أمير الرها فى قبضة بلك غازى بن بهرام الأرتقى صاحب خرتبرت فى ١٣ سبتمبر سنة ١١٢٢، مما أساء فجأة إلى موقف الصليبيين [2]. وإذا كان بلدوين الثانى قد قام بالوصاية على أنطاكية بعد مقتل أميرها منذ ثلاث سنوات، فإن ملك بيت المقدس لم يجد بدا من القيام بالوصاية أيضا علي الرها عند أسر جوسلين سنة ١١٢٢.

أما إمارة الأراتقة فقد تمزقت بعد وفاة عاهلها إيلغازى فى أوائل نوفمبر سنة ١١٢٢، فأخذ ابنه شمس الدولة سليمان ميافارقين – أى الجزء الشمالى من ديار بكر، وأخذ ابنه الثانى تمرتاش ماردين والجزء الجنوبى من ديار بكر. أما بلك بن بهرام الأرتقى – وهو ابن أخ إيلغازى – فقد احتفظ بمنطقة خرتبرت فى الشمال وأضاف إليها حران فى الجنوب، في حين آلت حلب إلى بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وهو ابن اخ آخر للأمير ايلغازى [3].

وقد حاول الملك بلدوين الثانى أن يستفيد من تفكك دولة الأراتقة، فخف إلى شمال الشام حيث غزا إقليم بزاعة الى الشمال الشرقى من حلب، وهاجم بالس إلى الجنوب الشرقى من حلب على الفرات، واستولى على البيرة شرقى حلب، وبذلك أصبحت حلب شبه محاصرة تماماً بممتلكات الصليبيين وقواتهم [4]. ولما وجد بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب أن الصليبيين ، قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق ... ولم يكن له بالفرنج قوة وخافهم؛

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٩٩.
ويلاحظ أنه علي الرغم من تفوق إيلغازي في حروبه ضد الصليبيين ، إلا أنه كان لا يصبر طويلا علي حروبهم، وإنما يتعجل في الصلح والعودة. ويعلل ابن الأثير ذلك بأن جيوش إيلغازي كانت مؤلفة من التركمان المرتزقة الذين يبغون الغنيمة السريعة فيحضر أحدهم ومعه جراب دقيق، وشاه ، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود، فإذا طال مقامهم تفرقوا، ولم يكن له (ايلغازي) من الأموال ما يفرقها فيهم.
(الكامل ؛ حوادث ٥١٤).

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٠٦ Matthieu d'Edesse, p. 131
ويروي ابن الأثير أن المسلمين عندما أسروا جوسلين وضعوه في جلد جمل وخيط عليه وطلب منه أن يسلم الرها فرفض وعرض الأموال الطائلة لفداء نفسه. ولكن المسلمين رفضوا اطلاق سراحة وحملوه إلي قلعة خرتبرت ومعه ابن خالته (كليام) وجماعة من فرسانه المشهورين. (الكامل ، حوادث سنة ٥١٥) وكليام هذا هو Galeran وقد كتبه ابن العديم (قلران).

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب: ج٢ ص ٢٠٩ وبلك بفتح الباء وسكون اللام.

(4) Setton : op. cit., I, 418.

فكر فى مهادنتهم، وطلب الصلح من بلدوين الثانى في أبريل سنة ١١٢٣ مقابل رد الآثارب - إلي الجنوب الغربي من حلب - إلي إمارة أنطاكية، «واستمرت الموادعة علي هذا واستقامت أحوال الأعمال من الجانبين(١)» ، وبذلك يكون بلدوين الثاني ملك بيت المقدس قد نجح فى أقل من أربع سنوات فى إعادة حدود إمارة أنطاكية إلى ما كانت عليه سنة ١١١٨ .

وقوع بلدوين الثانى فى الأسر :

ثم كان أن قام بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بمحاولة لفك أسر جوسلين دى كورتناى الذى كان لايزال حبيس بلك الأرتقى فى خرتبرت (٢). ولكن شاءت الظروف أن يقع الملك بلدوين الثانى نفسه أسيرا فى ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ أثناء قيامه بتلك العملية، إذ انقض عليه بلك فجأة عند موضع اسمه أورش بالقرب من قنطرة سنجة، فكسره وقتل معظم عسكره، وساقه أسيرا إلى قلعة خرتبرت ليأتنس به جوسلين فى وحدته (٣). ومن الواضح أن أسر الملك بلدوين الثانى جاء صدمة كبرى للصليبيين بالشام، وإن كانت الأمور فى مملكته استمرت علي وضعها الطبيعى بعد أن اختير إيستاش جرنيه Eustache Garnier - صاحب قيسارية وصيدا - للوصاية على مملكة بيت المقدس، والبطرق برنارد دى فالنس للوصاية على أنطاكية. وعند وفاة إيستاش فى يونية ١١٢٣ ، حل محله فى الوصاية وليم دى بور (٤) .

أما بلك فيكفيه فخراً عندئذ أنه كان يمسك فى إحدى قبضتيه ملك بيت المقدس وفى الأخرى أمير الرها، الأمر الذى جعله يشعر بالزهو والذى دفعه إلى التفكير فى توحيد ملك الأراتقة من جديد. وكان أن استولى بلك علي حران ثم أسرع إلى مهاجمة حلب لإنتزاعها من ابن عمه سليمان، ونجح فى تحقيق ذلك فى ٢٦ يونيو سنة ١١٢٣ (٥) . ومن ذلك المركز الجديد أخذ بلك يهاجم أنطاكية،

---

(١) ابن القلانسي : ذيل التاريخ دمشق ص ٢٠٩ ، ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٧ هـ.
ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢١٠ .

(٢) يذكر ابن الأثير أن الغرض من خروج الملك بلدوين لم يكن إطلاق سراح جوسلين من الأسر، وإنما الحد من نفوذ بلك بن بهرام بن ارتق الذي حاصر قلعة كركر قرب خرتبرت، فأسرع إليه بلدوين خوفاً أن يقوي بملكها.
الكامل ، حوادث سنة ٥١٧ هـ & Matthieu d'Eéesse, p. 133

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢١١ .

(4) Matthieu d'Edesse, p. 133 & Foucher de Chartres, p. 450.

(٥) يذكر ابن الأثير أن سبب شروع بلك بن بهرام في الاستيلاء علي حلب هو استياؤه من صاحبها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار، لأنه سلم قلعة الأثارب إلي الفرنج فعظم ذلك عليه، وعلم عجزه عن حفظ بلاد فقوي طمعه في ملكها.
(الكامل، حوادث سنة ٥١٧ هـ) .

فاستولى على البارة غربى معرة النعمان، ثم اتجه لحصار كفر طاب عندما سمع فى ٧ أغسطس أن بلدوين الثانى وجوسلين دى كورتناى قد استوليا على حصن خرتبرت بمساعدة المسيحيين فى تل باشر (١).

ذلك أن جوسلين بالذات كان محبوبا من الأرمن، لا لزواجه من أميرة أرمينية فحسب، وإنما لأنه أحسن إليهم وأكرم معاملتهم ولم يفعل بهم مثلما فعل سفله بلدوين الثانى من اضطهاد وتنكيل. وكانت خرتبرت نفسها تقع فى منطقة أرمينية، مما جعل الأرمن يدبرون مؤامرة للاستيلاء على الحصن وإطلاق سراحه (٢). وفى الوقت الذى أخذت الخطة تسير بنجاح إذا بالأمير بلك يعود إلى خرتبرت فجأة، ولكن بعد أن كان جوسلين قد استطاع الفرار، وبذلك لم يبق سوى الملك بلدوين الثانى الذى وقع فى أسر غريمه من جديد (سبتمبر سنة ١١٢٣) (٣).

وكان المفروض أن يعمل جوسلين علي جمع الجيوش لإطلاق سراح بلدوين، لاسيما وأن بقية الأسرى فى خرتبرت كانوا قد حلفوه على أنه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلا وقت القربان، إلى أن يجمع الجموع الفرنجية ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلصهم. ولكن بلك احتاط للأمر، فنقل الملك بلدوين وبقية الأسرى من خرتبرت إلى قلعة حران ليكونوا بعيدا عن منال الصليبيين (٤).

أما جوسلين كورتناي، فإن أسره ثم فراره، جعله يتطرف فى الانتقام من المسلمين، فخرج من تل باشر على رأس رجاله صوب حلب، واستمر طوال الطريق ينهب ويدمر ويحرق ما يصادفه من قرى المسلمين وضياعهم، حتى قبورهم لم تسلم من عبثه (٥). وهكذا استمر جوسلين دى كورتناى يحمل عبء محاربة المسلمين فى شمال الشام بوجه عام وإقليم حلب بوجه خاص، طوال المدة التى قضاها بلدوين الثانى فى الأسر. وقد اضطر بلك إلى العودة إلى حلب فى أوائل سنة ١١٢٤، حيث عقد تحالفاً مع طغتكين أتابك دمشق.

ثم كان أن شغل بلك بعد ذلك بأمر منبج، فقبض على صاحبها حسان البعلبكى وحصرها، وعندئذ سار الفرنج إليه ليرحلوه عنها لئلا يقوى بأخذها ؛

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢١٣.

(2) Runciman : op. cit., II, pp. 163 - 164.

(3) Foucher de Chartres, p. 457.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢١٣.

(٥) يروي ابن العديم أن جوسلين نبش الضريح الذي بمشهد الدكة فلم يجد فيه شيئاً فألقي فيه النار، (زبدة الحلب ج٢ ص ٢١٤).

ولكن بلك تغلب على الفرنج وطردهم. ثم عاد إلى منبج ليستأنف الحصار، وعندئذ أصابه سهم طائش قتله فجأة فى ٦ مايو سنة ١١٤٢ ، وكان أن خلفه فى حكم حلب ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق. ويصف ابن الأثير الأمير تمرتاش هذا بأنه كان رجلا يحب الدعة والرفاهية، فآثر أن يترك حلب ويقيم فى ماردين لأنه رأى الشام كثير الحروب مع الفرنج (١).

الفاطميون ومملكة بيت المقدس :

اختار الفاطميون أن ينتهزوا فرصة أسر الملك بلدوين الثانى لمعاودة الهجوم علي الصليبيين، وذلك بتحريض من طغتكين وآقسنقر البرسقي. وكان أن حشد الفاطميون فى مايو سنة ١١٢٣ حملة كبيرة فى عسقلان اتجهت لحصار يافا، فى الوقت الذى خرج الأسطول الفاطمى لمهاجمتها من ناحية البحر(٢). وكانت الحامية الصليبية فى يافا صغيرة، فاشترك نساء الصليبيين مع رجالهم فى الدفاع عنها. وفى الوقت الذى أوشكت يافا على الاستسلام، إذا بنجدة صليبية تأتى لإنقاذها، مما جعل القوات الفاطمية تنسحب إلى يبنا، على الطريق بين يافا وعسقلان (٣). وفى المعركة التى دارت فى ٢٩ مايو سنة ١١٢٣ عند يبنا بين الفاطميين والصليبيين هزم الفاطميون وولوا الأدبار، واقتفى أثرهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم (٤).

وفى تلك الأثناء ساء موقف مدينة صور بسبب تعرضها لهجمات الصليبيين بين حين وآخر، فى الوقت الذى كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن إرسال قوة برية كبيرة تحميها من الأخطار. وقد سبق أن ذكرنا كيف اتجه أهالى صور نحو طغتكين أتابك دمشق، الذى أرسل إليهم سنة ١١١٢ أحد رجاله – واسمه سيف الدولة مسعود – ومعه من يعتمد عليه من العسكر ، وقدر كاف من المال والعتاد والميرة (٥) . ولم يكن معنى ذلك خروج صور من قبضة الفاطميين، إذ ظل الدعاء

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.
أما ابن العديم فقد وصف حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بأنه لما ملك حلب ألهاه الصبي واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال ، وضعف أمر المسلمين بذلك زبدة الحلب، ج٢ ص ٢٢٠

(2) Setton : op. cit., I, p. 421.
(3) Foucher de Chartres, pp. 450 - 451.
(4) Stevenson : op. cit., p. 114.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٢
& Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 599

للخليفة الفاطمى فى المساجد، كما استمرت السكة تضرب باسمه فى صور، وكل ما هنالك هو أن الوزير الأفضل قبل مساعدة طغتكين على ذلك الوجه لإنقاذها من السقوط فى يد الصليبيين (١).

ويبدو أن موافقة الوزير الأفضل الفاطمى على السماح لقوة من قبل طغتكين وهو الأتابك السنى - باحتلال صور، أثار غلاة الشيعة فى مصر، مما أدى إلى مقتل الأفضل فى أحد شوارع القاهرة فى ٢١ ديسمبر سنة ١١٢١ بيد بعض الباطنية. ويقال إن الباطنية كانوا يكرهون الأفضل لأسباب منها تضييقه علي إمامهم، وإن كان يغلب علي الظن أن الخليفة الفاطمى الآمر كانت له يد فى مقتل الأفضل للتخلص من سطوته من ناحية، وطمعاً فى ثروته من ناحية أخرى (٢).

ويذكر ابن القلانسى أن أهل صور شكوا عندئذ للخليفة الآمر الفاطمى من سوء سيرة مسعود « وما يعتمده مع الرعية من الأضرار لهم والمخالفة للعادة » ولذلك أرسل الخليفة الفاطمى الآمر أسطولا إلى صور سنة ١١٢٢ لعزل الحاكم الدمشقى مسعود، فقبض عليه وأحضره إلى القاهرة حيث «أكرم وأنزل في دار وأطلع له ما يحتاج إليه »(٣). وقد انتقد المؤرخ أبو المحاسن الفاطميين فى ذلك التصرف، لأنه حرم صور من الرجل القوى الذى « فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة ». أما الصليبيون فقد ارتاحوا لخروج مسعود وشددوا هجماتهم علي صور، فأرسل واليها إلى مصر يخبر الخليفة الفاطمى أنه لا قبل له بالدفاع عن صور لقلة النجدة والميرة، فرد عليه الخليفة الآمر قائلا : قد رددنا أمرها إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها فكان هذا الرد اعترافاً من الدولة الفاطمية بعجزها عن حماية صور وتنازلها عن تلك المهمة لطغتكين (٤).

---

(١) وأجروا علي الرسم في إقامة الدعوة والسكة علي ما كانت عليه لصاحب مصر، ولم يغير لهم رسم (ابن القلانسي : ص ١٨٢).

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٥ هـ.
ويروي ابن الأثير أنه لما توفي الأفضل نقل من أمواله مالا يعلمه الا الله، وبقي الخليفة في داره نحو أربعين يوما والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهارا ....

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢ . ويبدو أن شكوي أهل صور من مسعود كانت إما لأسباب مذهبية وإما لتضييقه عليهم لمتطلبات الدفاع والحرب وفيما عدا ذلك فان مسعود كان شهما ، شجاعا، عارفا بالحرب ومكايدها (ابن الأثير - الكامل - سنة ٥١٨هـ).

(٤) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٨٢ - ١٨٣.

ومهما يكن من أمر، فإن تلك الأوضاع أتاحت فرصة طيبة للصليبيين ليستغلوا الموقف السيىء الذى أمست فيه صور من ناحية، والشقاق بين دمشق والقاهرة من ناحية أخرى فتحرك طمعهم فيها وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها. وفى الوقت الذى أخذ طغتكين يعزز حامية صور ويرتب بها من الجند وغيرهم ما ظن أن فيه الكفاية (١)، بدأ الصليبيون - بمساعدة الأسطول البندقى - يوجهون جهودهم ضد تلك المدينة بالذات.

البنادقة فى الشرق : سقوط صور

وكان ذلك عقب موقعة البلاط التى قتل فيها روجر الأنطاكى سنة ١١١٩ عندما أرسل الملك بلدوين الثانى إلى البندقية طالبا المعونة ضد المسلمين، أو على وجه التحديد ضد الفاطميين، الذين كانوا يسيطرون على شواطىء الشام. وقد أيد البابا طلب ملك بيت المقدس، وحث البندقية على المساهمة فى مساعدة الصليبيين، مما جعل دوج البندقية يعد حملة كبيرة من ثلثمائة سفينة تحمل خسمة عشر ألف جنديا للرحيل إلى الشام. هذا وإن كان الاعداد النهائى لتلك الحملة لم يتم إلا بعد مرور ثلاث سنوات، أى فى صيف سنة ١١٢٢ (٢).

ولكن سوء حظ الصليبيين شاء أن تشتعل نار الحرب بين البندقية والإمبراطورية البيزنطية عندئذ، مما جعل البنادقة يوجهون حملتهم الصليبية ضد البيزنطيين، فهاجموا جزيرة كورفو وقضوا فى حصارها ستة أشهر، فى الوقت الذى أخذ الصليبيون في السام ينتظرون وصول النجدة الموعودة (٣). وأخيراً وقع الملك بلدوين الثانى فى الأسر - فى ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ - فأرسل الصليبيون إشارة عاجلة إلى البنادقة يخبرونهم بالكارثة التي حلت بهم، ويرجون سرعة المعونة. وعندئذ رفع البنادقة حصارهم عن كورفو سنة ١١٢٣ وأقلعت عمارتهم إلى عكا لتقديم المساعدة إلي الصليبيين، في وقت كان هؤلاء أحوج ما يكونون إلي المساعدة بعد مقتل أمير أنطاكية، وأسر أمير الرها وملك بيت المقدس. وكان أول ما فعله البنادقة وهم فى طريقهم إلي الشام إرسال جزء من أسطولهم إلى عسقلان حيث استطاعوا تدمير الأسطول الفاطمى هناك، وبعد ذلك أغار البنادقة علي

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨١ هـ.

(2) Heyd : op. cit., I, pp. 142 - 143.

(3) Brehier : op. cit., p. 322.

الشاطيء الجنوبى لفلسطين حتي العريش (مايو ١١٢٣)، وفي طريق عودتهم إلى عكا أسروا أسطولا تجاريا إسلاميا من عشرسفن محملة بالبضائع [١].

ولاشك فى أن تدمير الأسطول الفاطمي فى فلسطين أعطى الصليبيين حرية العمل ضد المعاقل والموانى الفاطمية القليلة التى مازالت باقية للمسلمين علي الشاطيء، وأهمها صور وعسقلان. وهنا انقسم الصليبيون في الرأى حول النقطة التى يبدأون مها : صور أم عسقلان، إذ أيد أمراء الجليل مهاجمة صور، فى حين رأى أمراء بيت المقدس البدء بعسقلان، حتى انتصر الرأى الأول نظراً لأهمية صور الحربية والتجارية [٢]. وقبل أن يبدأ البنادقة فى مهاجمة صور كان عليهم أن يعرفوا ثمن المساعدة التى يقدمونها للصليبيين، فعقدوا اتفاقية مع وليم دى بورز Guillaume de Bures الوصى على مملكة بيت المقدس فى أوائل سنة ١١٢٤، حققت لهم أكبر قدر من الإمتيازات مقابل المساعدة الحربية التى سيقدمونها لمملكة بيت المقدس[٣]. من ذلك حق البنادقة فى الحصول على أحياء كاملة فى كافة مدن مملكة بيت المقدس - وبخاصة عكا - يقيمون فيها مؤسساتهم المتباينة اللازمة لإقامتهم ومباشرة نشاطهم التجاري، كالفنادق والمخابز والطواحين والحمامات ... بحيث تكون جميع هذه المؤسسات والمرافق معفاة من الضرائب والمكوس تماماً [٤] كذلك اشترط البنادقة حقهم فى استخدام موازينهم ومقاييسهم ومكاييلهم الخاصة، سواء فى المعاملات فيما بينهم وبين بعض أو فيما بينهم وبين بقية رعايا مملكة بيت المقدس. هذا مع إعفائهم من كافة الضرائب الجمركية وغير الجمركية بحيث يكون التجار البنادقة بعكا أحرارا تماماً فى كافة شئون الاستيراد والتصدير. فاذا تم فتح صور وعسقلان بمساعدتهم، حصل البنادقة على ثلث كل مدينة منهما مع تمتعهم فى ذلك الحى بكافة الامتيازات الاقتصادية السابقة [٥].

هذا إلى البنادقة حرصوا على ألا يتعرضوا لمنافسة اقتصادية من جانب المدن والجمهوريات الآخرى فى غرب أوربا، فاشترطوا ألاتقوم مملكة بيت المقدس بتخفيض الضرائب المفروضة على بقية الجاليات والهيئات إلا بعد موافقة البندقية نفسها. ومع أن بطرق بيت المقدس - جرموند - أقسم للبنادقة على أن ملك بيت المقدس سيوافق على جميع هذه الشروط عند إطلاق سراحه، إلا أن بلدوين الثانى

(1) Foucher de Chartres, pp. 452 - 453.
(2) Guillaume de Tyr, pp. 559 - 579.
(3) Michaud : op. cit., II, p. 63.
(4) Ibid.
(5) Heyd : op. cit., I, pp. 143 - 144.

لم يوافق فيما بعد على الشرط الأخير الذى يجعل المملكة وتجارتها حكراً للبنادقة [1].

ولم يكد يتم عقد الاتفاقية السابقة بين البنادقة ومملكة بيت المقدس، حتى تعاونت جميع القوى الصليبية، علي حصار صور فى منتصف فبراير سنة ١١٢٤. وكان حكم صور - كما سبق أن أشرنا - قد انتقل أخيرا إلى طغتكين أتابك دمشق، فأمد طغتكين المدينة « بعسكر وسير إليهم ميرة ومالا فرقه فيهم وطابت نفوس أهل البلد [2] ». ولا ننسى بالإضافة إلي ذلك أن صور مدينة محصنة طبيعيا حتى وصفها ابن جبير فى عصر الحروب الصليبية بأنها « مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة، لاتلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة [3]. » ولكن يبدو أن كل ذلك لم يكف لمقاومة الهجوم العنيف الذى شنه الصليبيون علي المدينة من ناحيتى البر والبحر. وقد هبت القوى الإسلامية المجاورة للدفاع عن صور، أو لمحاولة الضغط علي الصليبيين لإجبارهم علي التخلي عنها [4]. ومن ذلك ما قامت به حامية عسقلان الفاطمية أثناء حصار صور - من محاولة الزحف على يت المقدس ومهاجمتها أكثر من مرة فى تلك الفترة. كذلك خرج طغتكين أتابك دمشق على رأس جيوشه إلى بانياس للذب عن صور، فعهد الصليبيون إلى بونز أمير طرابلس بالتصدى له [5].

ولكن جهود القوى الإسلامية المجاورة لم تفلح فى إنقاذ صور، في الوقت الذى قتل بلك الأرتقى صاحب حلب وديار بكر فى مايو سنة ١١٢٤، عندما كان يستعد للحضور على رأس جيش كبير لإنقاذ صور [6] وعندما أدرك طغتكين تعذر الاحتفاظ بصور « راسل الفرنج بالملاطفة والمداهنة والإرهاب والإرغاب، إلى أن تقررت الحال على تسليمها اليهم بحيث يؤمن كل من بها، ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية، بما يقدرون عليه من أموالهم ويريد من أراد الإقامة[7]،

---

(1) Foucher de Chartres, p. 460.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.
(٣) رحلة ابن حبير ص ٢٩٤.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢١٩.
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ & Foucher de Chartres, p. 460
(٦) ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢ ص ٢١٩.
(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١.

وهكذا اضطرت صور إلى الاستسلام فى أوائل يوليو سنة ١١٢٤ بعد أن أشرف أهلها علي الهلاك، واحترم الصليبيون شروط الأمان الذى منحوة لأهلها (١).

ومن الواضح أن سقوط صور فى أيدى الصليبيين جاء حدثا له أهميته فى تاريخ الحروب الصليبية. ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن ضياع صور سبب وهنا عظيما علي المسلمين. وفي الوقت نفسه أدى استيلاء الصليبيين علي صور إلى تدعيم مركزهم لأنها من أحسن البلاد وأمنعها(٢)، مما أدى إلي دعم مركز الصليبيين بالشام وإمدادهم بقاعدة بحرية من الطراز الأول من ناحية الموقع ذى الأهمية الفائقة فى حالتى الهجوم الدفاع جميعاً (٣). لذلك اهتم الصليبيون بتحصين صور وأعدوها ، مفزعا لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم ، علي قول ابن جبير (٤).

أما البنادقة فلم يهتموا بالحصول على مراكز لهم في المدن الداخلية، عدا مدينة القدس ذاتها، فى حين اهتموا بتركيز نشاطهم فى المدن الساحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيفا بعد ذلك (٥).

أما الملك بلدوين الثانى فقد ظل أسيرا فى قبضة بلك الذى نقله من قلعة حران إلى قلعة حلب (٦)، حتى إذا ما توفى بلك وآلت حلب إلى تمرتاش بن ايلغازي، وافق الأخير - بفضل وساطة أمير شيزر العربى أبو العساكر سلطان بن منقذ - على إطلاق سراح الملك بلدوين مقابل مائة ألف بيزانت - أى قرابة ثمانين ألف دينار - يدفع منها عشرين ألف دينا مقدما (٧). هذا علاوة عما تعهد به الملك بلدوين - بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية - من إعادة عزاز والأثارب وزردنا والجزر وكفر طاب، إلى إمارة حلب، كذلك تعهد الملك الصليبى بمساعدة

---

(١) ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.
أبو الفدا : المختصر، حوادث سنة ٥١٨ هـ.
ويصف أبو المحاسن عملية انسحاب المسلمين من صور فيقول : جاء الأتابك بعسكره فوقفت بازاء الفرنج، وركبت الفرنج ووقفوا بازائه وصارا صفين. وخرج أهل البلد يمرون بين الصفين ولم يعرض لهم أحد. (النجوم الزاهرة) ج١ ص ١٨٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥١٨ هـ.

(3) Grousset : Hist des Croisades I, p. 618.

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٩٤.

(5) Heyd : Hist de Commerce I, pp. 148 - 151.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢ ص ٢١٧.

(٧) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠.

تمرتاش فى إخضاع دبيس بن صدقة، وهو أمير عربى شيعى نزح إلى الجزيرة بعد أن طرده الخليفة المسترشد العباسى من حكم الحلة بالعراق (١).

وعلى أساس هذه الشروط تم الإفراج عن الملك بلدوين الثانى فى أواخر يونيه سنة ١١٢٤، أى في الوقت الذى كان وليم دى بورز الوصى علي مملكة بيت المقدس يغزو صور بمساعدة البنادقة. وكان من الطبيعى أن يتجه ملك بيت المقدس أولا صوب أنطاكية حيث أنكر عليه برنارد دى فالنس رد المدن والقلاع السابقة للمسلمين، لأن ملك بيت المقدس بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية كان ينبغى أن يراعي الأمانة وألا يفرط فى أملاك أنطاكية وأراضيها، أو يدفع جزءا من أملاك غيره ثمناً لحريته (٢). ولذلك أرسل الملك بلدوين الثانى رسالة إلى صاحب حلب – أورد نصها ابن العديم – يستعطفه فيها أن يتنازل عن الشرط الخاص بتسليم عزاز وغيرها من القلاع للمسلمين، ويعلمه أن بطرق أنطاكية معترض على ذلك الشرط (٣).

ولكن المفاوضات طالت بين الطرفين دون الوصول إلى نتيجة، فى الوقت الذى كان بلدوين الثانى يشفق على مصير الرهائن التى قدمها لأمير حلب ضماناً لتنفيذ شروط الاتفاقية السابقة. ومن هذه الرهائن ابنة الملك بلدوين نفسه وهى طفلة فى الخامسة من عمرها، وجوسلين الثانى ابن جوسيلن دي كورتناى أمير الرها، ومعهما عشرة من زهرة شباب الصليبيين (٤). وأخيرا لم يجد الملك بلدوين الثانى بدأ من الاصطدام بصاحب حلب، فحالف خصمه العربى الشيعى دبيس بن صدقه. ويروى ابن الأثير أن دبيس بن صدقة أطمع الصليبيين فى الاستيلاء على حلب «وقال لهم إن أهلها شيعة وهم يميلون إلي، لأجل المذهب، فمتى رأونى سلموا البلد إلي (٥)». وفي الوقت نفسه وجد الصليبيون فى دبيس خير قوة تمكنهم من الوقوف فى وجه صاحب حلب وإجباره علي إطلاق سراح من لديه من رهائن، فبذلوا له المال ووعدوه باعطائه ملك حلب (٦).

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢ ص ٢٢١.
(2) Matthihu d'Edesse, pp. 312 - 313 & Michel Le Syrien, pp. 212 - 225.
(٣) البطريرك الذي لا يمكن خلافه سألني عما بذلت وما الذي استقر، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها، أبي وأمرني بالدفع عنها وقال أن خطيئتك تلزمني، ولا أقدر علي خلافه؟.
ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٢٢.
(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار، ص١٠٣.
(٥) ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.
(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٢٣.

وهكذا لعب الصليبيون دورهم بمهارة فى تفرقة صفوف المسلمين، وضرب العرب بالأتراك، والشيعة بالسنة، لإضعافهم جميعاً. وفي أكتوبر سنة ١١٢٤ اشترك بلدوين الثاني وجوسلين دى كورتناى مع دبيس بن صدقة فى مهاجمة حلب وأعمالها [١]. وقد حرص بلدوين الثانى في تلك الحرب علي أن يؤلف جبهة إسلامية - تحت قيادته - ضد تمرتاش صاحب حلب التركي، فاشترك معه بنو مزيد، وسلطان شاه ابن الملك رضوان السلجوقى الذى عزله الأراتقة من ملكة فى حلب [٢].

ولم يكن تمرتاش فى حلب عندئذ، وإنما كان فى ماردين مترقباً وفاة أخيه سليمان حاكم ماردين ليرثه فى ملكه، في حين ترك حلب لنوابه وأعيان المدينة يقاومون الحصار. وعندما رأى أهل حلب عجز صاحبهم تمرتاش أرسلوا إلى آقسنقر البرسقى أتابك الموصل يستنجدونه ويسألونه المجيء اليهم ليسلموا البلد إليه [٣]. ، ويبدو أن آقسنقر - الذى عينه السلطان محمود أتابكا على الموصل وعهد اليه بجهاد الصليبيين - وجد فرصة طيبة فى تلك الاستغاثة لتحقيق رغبة السلطان الجديد فى استئناف حركة الجهاد ضد الصليبيين. لذلك أسرع آقسنقر البرسقى إلى تأليف حلف، فانضم إليه فى الرحبة طغتكين أتابك دمشق، وصمصام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص، واتجهوا جميعاً صوب حلب، فوصلوها فى أواخر يناير سنة ١١٢٥ [٤].

وكان ظهور تلك القوة الجديدة أمام حلب كافياً لإحباط مشروع بلدوين الثانى الخاص بالاستيلاء علي تلك المدينة، فانفض عنه حلفاؤه، وانسحب دبيس بن صدقة شرقاً، في حين عاد الملك نفسه إلى بيت المقدس فى أوائل أبريل سنة ١١٢٥ بعد غيبة قاربت العامين [٥]. أما آقسنقر البرسقي، فقد خرج إليه أهل حلب

---

(1) Setton : op. cit., I, pp. 423 - 424.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٢٤.
ويروي ابن العديم أن الصليبيين أتوا في تلك الغزوة مساويء كثيرة فنبشوا قبور موتي المسلمين وأخذوا توابيتهم إلي الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا إلي من كان من الموتي لم تنقطع أوصاله فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون. هذا نبيكم محمد وآخر يقول : هذا عليكم. وأخذوا مصحفا من المشاهد بظاهر حلب وقالوا يا مسلم أبصر كتابكم ... وثقبه الفرنجي بيده ....

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ - ٢١٢، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٢٨.

(5) Guillaume de Tyr, I, p. 557.

ولقوه وفرحوا به، فأقام عندهم بعض الوقت لإصلاح أحوال المدينة، ثم قفل راجعاً إلى الموصل بعد أن ترك فى حلب من يرعى شئونها، وبذلك جمع آقسنقر البرسقى بين ملكى الموصل وحلب، مما جعله خطراً كبيراً على الصليبيين في شمال العراق والشام (١).

على أن الملك بلدوين الثانى كان لايستطيع البقاء طويلا فى بيت المقدس، في الوقت الذى كان مسئولا - بحكم وصياته على أنطاكية - عن حمايتها من ضغط القوي الإسلامية المحيطة بها من ناحيتى الشمال والشمال الشرقي. هذا فضلا عن أزدياد نفوذ آقسنقر البرسقى - الذى جمع بين السيطرة علي حلب والموصل، وتمتع بتأييد السلطان محمود السلجوقي، واعترف له بالسيادة والزعامة كل من طغتكين أتابك دمشق وخيرخان بن قراجا صاحب حمص - مما جعل منه خطرا كبيرا علي الصليبيين فى شمال العراق والشام. وزاد من ذلك الخطر أن البرسقى واصل نشاطه فى بلاد الشام، فزار شيزر فى شهر مارس، حيث رحب به أميرها سلطان بن منقذ وسلمه رهائن الصليبيين، وعلي رأسهم ابنة ا لملك بلدوين الثاني وجوسلين الصغير ولى عهد الرها (٢). وهكذا بدا البرسقى فى صورة زعيم القوى الإسلامية فى بلاد الشام مما مكنه من مهاجمة إمارة أنطاكية، فحاصر كفر طاب واستولي عليها فى أوائل مايو سنه ١١٢٥ قبل وصول بلدوين الثاني. وبعد ذلك شرع فى حصار زردنا (٣).

وعندما استنجدت أنطاكية بالملك بلدوين الثاني، أسرع إليها، ومر فى طريقة بطرابلس حيث استصحب معه بونز أميرها ثم انضم إليهما جوسلين دى كورتناى أمير الرها. وفى تلك الأثناء كان البرسقى وطغتكين وخيرخان وبقية حلفاؤهم قد تركوا حصار زردنا واتجهوا إلي حصار عزاز - شمالى حلب على الطريق بين أنطاكية والرها (٤). وعند عزاز دارت المعركة بين الصليبيين بقيادة بلدوين الثانى والمسلمين بقيادة البرسقى (أواخر مايو وأوائل يونيه سنة ١١٢٥)، فانتصر الجانب الأول انتصارا كاملا «وكسر البرسقى كسرة عظيمة واستشهد جماعة من المسلمين من السوقة والعامة» (٥). وقد قدر المؤرخون الصليبيون عدد

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.
(2) Runciman : op. cit., II, p. 173.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٣١& Foucher de Chartres, p. 471
(4) Guillaume de Tyr, p. 580.
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٣١.

قتلى المسلمين بألفين، وقدرهم ابن الأثير بأكثر من ألف (١). أما بقية الجيش الأسلامى فقد ولى الأدبار، تاركين خلفهم عددا كبيرا من الأسرى وقدرا هائلا من الغنائم. وبعد ذلك دارت بين الفريقين مفاوضات قصيرة انتهت بتسليم ابنة بلدوين الثانى الصغيرة وابن الأمير جوسلين دى كورتناي، وغيرهما من الرهائن التى كانت فى حوزة سلطان بن منقذ أمير شيزر(٢). ثم عاد بلدوين الثانى إلى بيت المقدس بعد أن عقد هدنة مع البرسقى احتفظ فيها المسلمون بكفر طاب، فى حين رجع البرسقى إلى الموصل بعد أن ترك حامية فى حلب (٣).

على أن الملك بلدوين الثانى لم يهدأ عن حرب المسلمين، واختار تلك المرة أن يهاجم طغتكين، فقام بحملة على إمارة دمشق سنة ١١٢٦ . وقد استهدفت خطة بلدوين مهاجمة مدينة دمشق نفسها، فاتجه إلى حوران ومنها إلى وادى النقرة فوادى مرج الصفر فوادى العجم، حتى وصل فى منتصف يناير سنة ١١٢٦ إلى الأطراف الشمالية من إقليم شرخوب. وعند تل شقحب - إلى الجنوب الغربى من دمشق - دارت المعركة بين طغتكين وبلدوين الثانى فى ٢٥ يناير سنة ١١٢٦، وفيها هزم طغتكين وقتل عدد كبير من رجاله (٤). وعندما انصرف الصليبيون لمطاردة المسلمين، انقض التركمان على المعسكر الصليبى، وقد خلا من المدافعين عنه، فنهبوا خيامهم وأموالهم وجميع ما معهم (٥). أما بلدوين الثانى فقد طارد الدماشقة، ثم عاد إلى بيت المقدس حيث استنجد به أمير طرابلس لمعاونته فى حصار رفنية (٦).

ذلك أنه حدث فى مارس سنة ١١٢٦ أن هاجم بونز أمير طرابلس قلعة رفنية التى كانت - مثل حمص - تابعة لأتابك دمشق، وتتمتع بموقع هام بحكم إشرافها على أطراف وادى نهر العاصى فيما بين حماة وحمص. ولم يرض الصليبيون عن انتزاع المسلمين رفنية منهم سنة ١١٢٥، لذلك شيد الأمير بونز صاحب طرابلس فوق مرتفع علي مقربة منها قلعة بعرين، لشن إغارات دائمة على رفنية (٧). وعندما هدد بونز رفنية سنة ١١٢٦ وساعده بلدوين الثانى

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٩ هـ.

(2) Guillaume de Tyr, p. 580.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (Rec. Hist. or p. 566)

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.
وقد ذكر ابن الأثير أن هذه المعركة دارت عند قرية شقحبا.

(6) Stevenson : op. cit., p. 118.

(7) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 641.

«وضيقوا عليها» لجأ حاكم رفنية - شمس الخواص - إلى الاستنجاد بطغتكين أتابك دمشق، والبرسقى أتابك حلب والموصل. على أنّ رفنية لم تستطع المقاومة حتى تأتيها النجدة، فاستسلمت بعد حصار ثمانية عشر يوماً، واستولى عليها أمير طرابلس.، ليشن منها غارات مستمرة على منطقة حمص. هذا إلى أن استيلاء الصليبيين على رفنية أمن الطريق بين بيت المقدس وأنطاكية، كما أمن إمـارة طرابلس ذاتها (١).

وفى ذلك الوقت خرج البرسقى من الموصل إلى بلاد الشام عن طريق منبج، فأرسل ابنه عز الدين مسعود إلى حمص لإبعاد الصليبيين عنها، واتجه هو نفسه إلى إمارة أنطاكية حيث حاصر الأثارب واستولى على بعض أطرافها، مما جعل الملك بلدوين الثانى يسرع إليه لصده (٢). ويبدو أن موقف ملك بيت المقدس عندئذ كان حرجاً إلى حد كبير، لأنه فى الوقت الذى تعرضت إمارة أنطاكية لهجوم البرسقي، قام أسطول فاطمى بمهاجمة موانى فلسطين الصليبية. على أن خطر البرسقى كان أوضح وأشد قربا، ولذلك اتجه بلدوين لإبعاده أولا، واشترك معه جوسلين دى كورتناى أمير الرها. ويروى ابن العديم أن الملك بلدوين الثانى بعث إلى البرسقى يعرض عليه الصلح، ويقول له «إرحل عن هـذا الموضع ونتفق على ما كنا عليه فى العام الخالى ونعيد رفنية عليك» (٣). فوجد البرسقى أن هذا العرض مرضي، لاسيما وأنه كان يخشى أن يحل بالمسلمين مثلما حدث لهم عند عزاز، فانسحب وعدل عن حصار الأثارب. ولم تلبث أن تجددت الهدنة بين الطرفين، وعاد البرسقى من حيث أتى بعد أن قام ببعض غارات محلية فى مناطق سرمين ودانيث، ووصل الموصل يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ حيث قتل فى اليوم نفسه بيد أحد الباطنية (٤).

أما الأسطول الفاطمى الذى خرج من الاسكندرية ودمياط فقد اتجه إلى العريش فغزة وعسقلان، وأخذ يتسكع بعضا من الوقت أمام موانى يافا وقيسارية وعكا وصور وصيدا وبيروت، عله يجد فرصة لمباغتة الصليبيين،

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٣٢
Foucher de Chartres, p. 480

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٢٣.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٣٣.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٤.

(1) Guillaume de Tyr, pp. 587 - 588.

وأخـيرا عادت السفن الفاطمية إلى مصر بعد اشتباك قصير مع الصليبيين فى مي بيروت (١).

بوهيموند الثانى أمير أنطاكية :

لم يهمل تنكرد أو روجر الأنطاكى أو الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس حق بوهيموند الصغير - أو الثانى - ابن بوهيموند الكبير فى إمارة أنطاكية. وكل ما هناك هو أن بوهيموند الثانى كان صغيرا وقت وفاة أبيه، فظل فى كنف أمه فى إيطاليا حتى بلغ الثامنة عشر من عمره، وعندئذ خرج من أوترانتو على رأس أسطول من أربع وعشرين مركبا مليئا بالمقاتلين والخيل والزاد، واتجه إلى الشام لمباشرة حقه الشرعى فى حكم أنطاكية، فوصل ميناء السويدية فى أوائل أكتوبر سنة ١١٢٦ (٢). وكان أن استقبله الملك بلدوين الثانى فى أنطاكية استقبالا حارا ليسلمه إمارته، ثم ليعرض عليه الزواج من ابنته الثانية إليس، الأمر الذى تم فعلا فى سبتمبر سنة ١١٢٧ والذى ترتبت عليه تقوية الرابطة بين مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية فى عهدها الجديد (٣).

وسرعان ما أثبت بوهيموند الثانى أنه لا يقل تحمسا للهدف الصليبى وبلاء فى محاربة المسلمين عن أبيه، حتى لقد وصف أسامة بن منقذ مجيئه إلي الشرق بأنه بلية عظيمة على المسلمين (٤). ولم يلبث أن استرد بوهيموند الثانى كفر طاب التى سبق أن انتزعها آقسنقر أتابك الموصل وحلب سنة ١١٢٥ من إمارة أنطاكية. كذلك قام بوهيموند الثانى بعدة هجمات سنة ١١٢٩ على المسلمين، فاستولى منهم على حصن القدموس (٥).

وفى ذلك الوقت ساءت أحوال حلب بعد مقتل البرسقى فى نوفمبر سنة ١١٢٦. ويبدو أن حالة الفوضى التى غرقت فيها حلب فى تلك الفترة، أغرت جميع جيرانها الأبعدين والأقربين - من المسلمين والصليبيين سواء - على اهتبال تلك الفرصة للاستيلاء على المدينة. ومن ذلك أن جوسلين دى كورتناى أمير

---

(2) Foucher de Chartres, pp. 481 - 843.

(3) Foucher de Chartres, p. 485.

(٤) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار ص ١٢١، ويطلق أسامة علي بوهيموند الثاني اسم ابن ميمون، وعلي أبيه بوهيموند الأول اسم ميمون.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ.

الرها أسرع إلى حلب سنة ١١٢٧ ، فى الوقت الذى خف إليها أيضا بوهيموند الثانى أمير أنطاكية، مما أثار نوعاً من التنافس الشديد، بل العداء المكشوف بين الأميرين الصليبيين بسبب رغبة كل منهما فى الانفراد بالقنيصة وحدة [١].

والواقع أنه ربما كانت هناك عوامل أخرى مستترة سببت النفور بين الأميرين. ذلك أنه يبدو أن جوسلين دى كورتناى كان يأمل أن يفوز فى يوم ما بعرش مملكة بيت المقدس بحكم قرابته من بلدوين الثانى من ناحية، وبحكم السوابق التى جعلت كلا من بلدوين الأول وبلدوين الثانى يرتقى من أمير على الرها إلى ملك على بيت المقدس من ناحية أخري. ولكن زواج بوهيموند الثانى من ابنة الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس، جعلت من بوهيموند منافساً خطيراً لجوسلين فى مطامعه فى عرش بيت المقدس، وهذا هو بعض السر فى النفور بين الرجلين. ومهما يكن من أمر، فقد أسرع بلدوين الثانى إلى أنطاكية ونجح بمهارته فى تسوية النزاع بين بوهيموند الثانى وجوسلين قبل أن يتفاقم.

على أن الخطر الذى هدد بوهيموند الثانى وأودى بحياته جاء من ناحية الشمال، أى من ناحية دانشمند التركمان. ذلك أن الامير الأرمنى ثوروس الأول (١١٠٠ - ١١٢٩) استطاع أن يؤسس إمارة قوية فى قيليقية، وانتزع من البيزنطيين سيس وعين زارب (عين زربة) . ولكن وفاة ثوروس سنة ١١٢٩ ، ثم وفاة ابنه قسطنطين مسموماً بعد قليل، جعل تلك الإمارة الأرمينية تعانى كثيراً من المطامع الخارجية والمتاعب الداخلية [٢].. وقد جاء الخطر الكبير الذى واجهته تلك الإمارة من جانب الأمير إيلغازى بن الدانشمند - صاحب ملطية - من ناحية الشمال، والأمير بوهيموند الثانى - صاحب أنطاكية - من ناحية الجنوب. ولم يلبث أن تقابل هذان الخصمان - الأتراك والنورمان - فى سهل عين زربة، حيث دارت فى فبراير سنة ١١٣٠ معركة انتصر فيها الأتراك وقتل بوهيموند الثانى نفسه لعدم معرفة شخصيته. ويقال إن الأمير إيلغازى عندما عرف رأس بوهيموند أرسلها إلى الخليفة العباسى فى بغداد، ومعها هدايا كثيرة من الخيل والسلاح (فبراير سنة ١١٣٠) [٣].

ولاشك فى أن مقتل بوهيموند الثانى وهو فى شرخ شبابه، ولم يمض على قيامه فى حكم أنطاكية سوى ثلاث سنوات وثلاثة شهور، جاء كارثة كبيرة

(1) Grousset : Hist des Croisades I, p. 651.
(2) Lorga : l'Armenie Cilicienne, pp. 92 - 93.
(3) Michel Le Syrien, p. 227.

للصليبيين، لأنه كان يبشر بأمل عظيم ومستقبل زاهر فى مجال النشاط الصليبي. وهكذا عادت أنطاكية مرة أخرى تحت وصاية الملك بلدوين الثاني. وكان بوهيموند الثانى قد أنجب من زوجته إليس - إبنة الملك بلدوين الثانى - طفلة صغيرة هى الأميرة كونستانس. وهذه الأميرة الصغيرة صارت الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية، وذلك وفقاً للقانون الإقطاعى الغربي. لذلك حزنت إليس فى قرارة نفسها، وكان يهمها أن ترث الإمارة بعد زوجها لتذوق طعم السلطان (١).

ولم تحجم إليس فى سبيل تحقيق أطماعها عن التآمر مع المسلمين ضد المصالح الصليبية، فأرسلت فرساً مطهماً مع رسول يحمل رسالة سرية إلى زنكى - أتابك حلب - تطلب بمساعدته، مقابل تعهدها بالتبعية له (٢). وقد شاء حسن حظ الصليبيين ألا تصل هذه الرسالة وإنما وقعت فى يد الصليبيين وعلم بها الملك بلدوين الثانى الذى استشاط غضباً من حماقة ابنته، واتجه فورا صوب أنطاكية ليحقق بنفسه فى الأمور. وهنا تمادت إليس فى طيشها فأعلنت الثورة على أبيها، وأغلقت فى وجهه أبواب أنطاكية (٣). ولم يكن معقولا أن يوافق أعيان أنطاكية وأمراؤها على تلك التصرفات من جانب إليس، فثاروا ضدها وفتحوا للملك ومن معه - مثل جوسلين دى كورتناى وفولك الأنجوى - أبواب المدينة. وكان أن وضع بلدوين الثانى أنطاكية تحت وصايته إلى أن تكبر الأميرة كونستانس، فى حين أقطع ابنته إليس اللاذقية وجبلة لتعيش فى تلك الجهات الساحلية بعيدا عن أنطاكية وعن الاتراك في حلب (٤).

(1) Setton : op. cit., I, p. 431.
(2) Runciman : op. cit., II, p. 183.
(3) Stevenson : op. cit., p. 129.
(4) Cuillaume de Tyr, pp. 599 - 601. ابن العديم : بدة الحلب ج٢ ص ٢٤٧

الفصل الثالث

فولك الأنجوى ملك بيت المقدس

نهاية بلدوين الثانى :

كان على بلدوين الثانى أن يفكر فى مصير عرش مملكة بيت المقدس من بعده، حيث أنه لم يرزق من زوجته الأرمينية مورفا سوى أربع بنات، زوج إحداهن – إليس – للأمير بوهيموند الثانى صاحب أنطاكية سنة ١١٢٦، كما مر بنا. ويبدو أن بلدوين الثانى لم يفكر إطلاقاً فى أن يجعل من بوهيموند الثانى وريثاً له فى مملكة بيت المقدس. وإنما اختار أن يبعث سفارة من رجاله إلى فرنسا سنة ١١٢٨ لاختيار أحد الأمراء المعروفين بشجاعتهم ومقدرتهم، فرشح لويس السادس ملك فرنسا لتلك المهمة الأمير فولك الخامس الأنجوي، وهو من أقدر أمراء المملكة الفرنسية عندئذ. وكان أن حضر الأمير فولك إلى مملكة بيت المقدس فى ربيع سنة ١١٢٩، وبعد قليل تزوج من ميلزاند ابنة الملك بلدوين الثانى الكبري، ثم أقطع الملك زوج ابنته مدينتى صور وعكا. وهكذا أصبح فولك الأنجوى – بحكم زواجه من وريثة بلدوين الثانى – هو ملك بيت المقدس المقبل (١).

ثم إن بلدوين الثانى أراد أن يدرب خليفته فولك على محاربة المسلمين فصحبه عقب زواجه من ابنته سنة ١١٢٩ فى حملة لمهاجمة دمشق، التى كان حاكمها طغتكين قد توفى فى فبراير سنة ١١٢٨ تاركا المدينة فى حالة شديدة من الفوضي، بسبب ازدياد نفوذ الباطنية الذين قويت شوكتهم وتضاعفت مضرتهم(٢).

وأخيرا توفى بلدوين الثاني فى ٢١ أغسطس سنة ١١٣١ بعد أن حكم ثلاثة عشر عاما، تاركا خلفه فولك الأنجوى ليخلفه فى حكم بيت المقدس. وقد احتفل بتتويجه ملكا بكنيسة القيامة فى ١٤ سبتمبر سنة ١١٣١ (٣).

أحوال الامارات الصليبية عند قيام فولك فى الحكم :

ولم يكد الملك فولك يتولى حكم مملكة بيت المقدس، حتى توفى جوسلين دى كورتناى أمير الرها، تاركا فراغاً كبيرا فى المجال الصليبى فى شمال العراق

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 594.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠ – ١٢١، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٢٣هـ.

(3) Guillaume de Tyr pp. 601 - 602.

والشام. وقد ظل جوسلين يحارب المسلمين - رغم تقدم سنه - حتى آخر لحظة. من ذلك ما يرويه ابن العديم من أنه اشتبك سنة ١١٣١ - وهي السنة نفسها التى توفى فيها - فى حرب ضد الحلبيين شمالى مدينة حلب وقتل من المسلمين جماعة (١).

وكان جوسلين أثناء تلك العملية الحربية الأخيرة يفحص لغماً بثه الصليبيون تحت جدار أحد الحصون في تلك المنطقة، فانهار الحائط عليه وأخرجه أصحابه بصعوبة وقد تهشمت عظامه، فنقل إلى تل باشر فى حالة سيئة حيث باتت وفاته متوقعة بين لحظة وأخرى (٢).

وبينما جوسلين دى كورتناى يعانى آلام الموت البطيء، جاءت الأخبار بأن مسعود الأول سلطان قونية (١١١٦ - ١١٥٥) أخذ يحاصر قلعة كيسوم فى الشمال الغربى من إمارة الرها، جنوبى بهسني. وكانت كيسوم هذه تتمتع بأهمية خاصة عند الصليبيين، لا لموقعها الحربى الهام فحسب، بل أيضا بسبب أهميتها الدينية، بعد أن انتقل اليها كرسى بطرق اليعاقبة بأنطاكية (٣). لذلك خرج جوسلين دى كورتناى - وهو على شفا الموت - لقتال الأتراك، فحملوه إلى كيسوم. ولكنه وجد أن السلاجقة تركوا حصار القلعة وانصرفوا. ولم يلبث أن توفى جوسلين دى كورتناى بعد ذلك فى أواخر سنة ١١٣١ (٤).

وكان أن خلف جوسلين دى كورتناى - فى إمارة الرها - ابنه جوسلين الثاني، الذى كان جبانا لا يمتلك شيئا من عزيمة أبيه وحماسته وشجاعته. وسنرى أنه عندما رأى الرها معرضة لتهديد المسلمين المستمر، آثر أن يتركها ويقيم فى تل باشر لينعم بقسط من الهدوء، مما ترتب عليه ضياع الرها من قبضة الصليبيين. وهكذا مرت إمارة الرها بفترة عصيبة دون رجل قوى يذود عنها فى الوقت الذى جمع عماد الدين زنكى بين حكم الموصل وحلب، فاشتد أزر المسلمين «بتلك الأعمال وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن فى حساب. وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى ملك الجميع» (٥).

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢، ص ٢٤٧.

(2)Michel Le Syrien, p. 232.

(3) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 7.

(4) Guillaume de Tyr, p. 610.

(٥) بشير ابن الأثير في هذا النص إلي بداية انحلال أمر الصليبيين من ناحية ومولد الوحدة الإسلامية علي يد زنكي من ناحية أخري (الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ).

هذا عن الرها، أما أنطاكية فكانت أحوالها لا تقل خطورة فى الوقت الذى اعتلى فولك عرش بيت المقدس. ذلك أن إمارة أنطاكية ظلت بلا رائد عقب مقتل بوهيموند الثانى فى فبراير سنة ١١٣٠ لأن ابنته الوحيدة ووريثته - كونستانس - كانت طفلة صغيرة. ولم تتوقف أم هذه الطفلة - الأميرة إليس - عن تدبير المؤمرات للوصول إلى الحكم فى أنطاكية، بعد أن توفى والدها بلدوين الثانى الذى أحبط مؤامرتها الأولي(١). وفى تلك المرة لم تحاول إليس الإلتجاء إلى عماد الدين زنكي، وإنما استطاعت أن تكتسب بمهارتها وكياستها وهداياها ثلاثة من أمراء الصليبيين، هم وليم صاحب حصن صهيون على بعد عدة كيلو مترات من اللاذقية، وجوسلين الثانى أمير الرها، وبونز أمير طرابلس. وبمساعدة هؤلاء الثلاثة دبرت إليس مؤامرة سنة ١١٣٢ للعودة إلى إنطاكية والقبض علي زمام الأمور فيها. على أن فرسان أنطاكية أحسوا بالمؤامرة، وأدركوا أنه إذا نجحت إليس فى تحقيق أهدافها، فان ذلك يعنى القضاء المبرم على الإمارة، فأرسلوا إلى فولك ملك بيت المقدس يستنجدون به (٢).

وعندما أسرع الملك فولك لإحباط المؤامرة، لم يسمح له بونز أمير طرابلس بالمرور فى أراضيه، ولكن فولك نفذ إلى بيروت رغم ذلك، واختار أن يرجيء انتقامه من بونز إلى وقت آخر(٣). ومن بيروت ركب الملك فولك البحر إلى السويدية ومنها إلى أنطاكية، حيث رحب به فرسانها ونادوا به وصياً على الأميرة الصغيرة كونستانس بدلا من سلفة بلدوين الثاني. ويبدو أن تلك التطورات لم تعجب بونز، فتدخل بوصفه حاميا للأميرة إليس، وساعده بعض الأمراء الصليبيين فى القلاع المجاورة، حتى اتخذت الحركة شكل ثورة عامة ضد الملك فولك فى شمال الشام (٤). ولكن يبدو أن أولئك الأمراء الثائرين لم يعرفوا فولك حق المعرفة، وهو الفارس القوى الذى قضى عشرين سنة فى فرنسا، عرك فيها حياة الفروسية والإقطاع. لذلك لم يتردد فولك أمام تهديد بونز وحلفائه، ونازلهم حتى اضطر بونز إلى الفرار، تاركاً عدداً من فرسانه أسرى فى قبضة الملك فولك (٥). ومع ذلك فان

---

(1) Stevenson : op. cit., p. 131.
(2) Guillaume de Tyr, p. 611.
(3) Michaud : op. cit., II, p. 85.
(4) Stevenson : op. cit., p. 141.
(٥) أشار كل من ابن الأثير وابن العديم إلي تلك الأحداث الصليبية. فقال ابن الأثير : وفيها (سنة ٥٢٧ هـ) وقع الخلف في الشام بين الفرنج، فقاتل بعضهم بعضا، فلم تجر له بذلك عادة قبل هذه السنة، وقتل بينهم جماعة. أما ابن العديم فقال (وقع بين الفرنج في هذه السنة فتن، وقتل بعضهم بعضاً وقتل صاحب زردنا. (زبدة الحلب ج٢ ص ٢٥١).

الملك فولك لم يمانع فى العفو عن بونز ورفاقه بعد ان لقنهم درسا قاسيا فى وجوب احترام سلطة الملك من ناحية، ومراعاة الآداب والأصول الإقطاعية من ناحية أخرى (١).

وبعد أن أقام فولك عدة أيام فى أنطاكية نظم فيها أمورها بوصفه وصيا على الإمارة، وعهد بشئونها الإدارية إلى رينو ماسوير Renaud Masoier عاد إلى بيت المقدس.

فولك والدفاع عن الامارات الصليبية ضد المسلمين :

وقد رأى الأتراك التركمان أن يفيدوا من حوادث الشقاق السابقة بين الصليبيين، فأتت جموع كبيرة منهم من أرض الجزيرة وعبروا الفرات، وأغاروا على الأراضى الواقعة شرقى نهر العاصى من ممتلكات إمارة أنطاكية، واتخذوا مناطق معرة النعمان وكفر طاب قواعد لأعمالهم الحربية فى تلك الجهات (٢). على أن الصليبيين لم يلبثوا أن تناسوا خصوماتهم أمام ذلك الخطر (أبريل سنة ١١٣٣) وطردوا أولئك المغيرين، وانتهزوا فرصة تلك المطاردة ليستولوا أيضا على حصن قبة ابن ملاعب قرب حماة وخربوا الموضع (٣).

على أنه إذا كان التركمان قد اضطروا إلى الابتعاد عن إمارة أنطاكية، فانهم لم يلبثوا أن اتجهوا صوب إمارة طرابلس حيث اعتدوا على الأهالى واستولوا علي كثير من ممتلكاتهم. وعندئذ خرج بونز أمير طرابلس للدفاع عن إمارته، فاستدرجه التركمان حتى أوقعوا به الهزيمة وأحدثوا مذبحة كبيرة بين الصليبيين، فى حين اضطر بونز نفسه إلى الإلتجاء إلى قلعة بعرين - شرقى أنطرطوس - حيث حاصره التركمان (أكتوبر ١١٣٣) (٤).

وفى تلك الأثناء كان الصليبيون فى أنطاكية قد استنجدوا بالملك فولك الذى زحف على الفور صوب الشمال، فى الوقت الذى استطاع بونز الفرار من قلعة بعرين. ويذكر وليم الصورى أن التركمان سرعان ما جلوا عن بعرين عندما علموا باقتراب فولك، فى حين ذكر ابن الأثير وابن القلانسى أن التركمان لم يتراجعوا عن بعرين إلا بعد معركة حامية بينهم وبين الصليبيين (٥).

---

(1) Guillaume de Tyr, pp. 612 - 613.
(2) Setton : op. cit., I, p. 423.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢، ص ٢٥١.
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ.
(٥) وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين، فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير، وأشرف الفرنج علي الهزيمة ....
ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ.

وبعد أن أمن فولك إمارة طرابلس من خطر التركمان، اتجه صوب أنطاكية . وفى ذلك الوقت قصد سيف الملك بن عمرون-صاحب حصن القدموس السابق (١). - أنطاكية لمحالفة الصليبيين ضد حلب. وقد رحب فولك على الفور بتلك المحالفة، لاسيما وأن سوار -حاكم حلب من قبل زنكى كان يستعد للاشتراك مع التركمان للقيام بغارة على أنطاكية سنة ١١٢٣ . وكان أن دارت معركة بين الطرفين عند قنسرين جنوبى حلب، انتهت بانتصار فولك وهزيمة سوار والتركمان (٢)؛ وإن كانت بعض المصادر العربية لم تشر فى وضوح إلى تلك الهزيمة (٣) . وهكذا استطاع الصليبيون أن يحتفظوا بمكانتهم فى شمال الشام بفضل جهود الملك فولك، على الرغم من الإغارات التى دأب سوار على شنها على الممتلكات الصليبية مثل الجزر وحصن زردنا ومعرة النعمان ومعرة مصرين سنة ١١٣٤، أى بعد عودة فولك إلى بيت المقدس (٤).

وفى تلك الأثناء لم يهمل الصليبيون مملكة بيت المقدس ذاتها، التى كانت أمورها - أثناء غياب فولك فى الشمال - تسير سيرا طيباً بفضل توجيهات البطرق وليم دى مسين. من ذلك ما لجأ إليه الصليبيون من تأمين طريق الحجاج بين يافا وبيت المقدس، وحمايتهم من إغارات المسلمين الذين كثيرا ما كانوا يخرجون من عسقلان لتهديدهم. ولذلك شيد الصليبيون فى أواخر سنة ١١٣٢ وأوائل سنة ١١٣٣ حصن بيت نوبة فى منتصف الطريق بين اللد وبيت المقدس (٥). ثم أكمل الملك

---

(١) يذكر بن الأثير في حوادث سنة ٥٢٧ هـ أن الاسماعيلية في الشام إشتروا في تلك السنة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون، أما ابن العديم (ج٢ ص ٢٥١ - ٢٥٢) فيقول وثب قوم من أهل الجبل علي حصن القدموس، فأخذوه وسلموه إلي سيف الملك بن عمرون، فاشتراه ابو الفتح الداعي الباطني منه.

(2) Guillaume de Tyr, p. 616.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ - ٢٤١.
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧هـ، وقد ذكر ابن القلانسي عن تلك الواقعة فحمل الافرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة قتلوا فيها من المسلمين تقدير مائة فارس فيهم جماعة من المقدمين المشهورين المذكورين.
أما ابن الأثير فقد قال عن تلك الموقعة : فاقتتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة وانهزم المسلمون إلي حلب.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٥٤.
ويذكر ابن الاثير : (الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ) وفيها أغار الأمير سوار مقدم عسكر زنكي بحلب علي ولاية تل باشر فغنم الكثير، فخرج إليه الفرنج في جمع كثير فقاتلوه، فظفر بهم وأثر القتل فيهم.

(5) Guillaume de Tyr, I, p. 617.

فولك تلك التحصينات باقامة بيت جبرين (جبريل) سنة ١١٣٧ فى منتصف الطريق بين الخليل وعسقلان، وعهد بحماية تلك القلعة إلى الفرسان الاسبتارية (١).

متاعب الصليبيين الداخلية :

على أن الأمور لم تنتظم لفولك فى سهوله على طول الخط، إذ واجهته أثناء حكمه متاعب كثيرة، ومشاكل داخلية هددت بتصدع بناء الصليبيين بالشام. ومن هذه المتاعب ما ارتبط بالأطماع السياسية للأمراء، ومنها ما تعلق بالأمور الكنسية.

ومن ذلك الثورة التى قام بها هيو الثانى حاكم يافا ضد فولك ملك بيت المقدس سنة ١١٣٢ . وكان هيو الثانى هذا على علاقة بالملكة ميلزاند ابنة بلدوين الثانى وزوجة فولك – وهى العلاقة التى قواها أن هيو الثانى كان متزوجاً من أرملة تكبره بكثير فى السن، فى حين أن الملكة ميلزاند لم تبادل زوجها فولك الحب لأنه كان بدوره يكبرها بكثير فى السن. ولم تلبث أن انتشرت الشائعات بالعلاقة بين هيو الثانى أمير يافا وملكة بيت المقدس زوجة فولك، مما أثار غيرة الأخير وحقد الأول. وعندما ساء موقف هيو الثانى اضطر إلى الفرار للاحتماء بالفاطميين فى عسقلان (٢).

وقد استغل الفاطميون تلك الخيانة – وما نتج عنها من فرقة فى صفوف الصليبيين – وأغاروا على إقليم يافا حتى وصلوا الى مشارف أرسوف، فى الوقت الذى أسرع أتابك دمشق من جانبه إلى تهديد الممتلكات الصليبية واحتلال بانياس. ولكن الجيوش الصليبية أسرعت من بيت المقدس واحتلت يافا لحمايتها من الفاطميين. أما هيو الثانى فقد حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات ولكنه قبل رحيله تعرض لإعتداء من أحد فرسان بيت المقدس فأصيب إصابة خطيرة. ومهما يكن من أمر، فإن هيو الثانى لم يمت، وإنما أبحر إلى روجر الثانى ملك صقلية الذى منحه إمارة جارجانو فى الغرب، حيث مات بعد قليل (٣) . وأما ميلزاند ملكة بيت المقدس فقد غضبت غضباً شديداً لما حل بعشيقها هيو الثاني، وأخذت تتحين الفرص للانتقام، فى حين لم يجد فولك بداً من استرضاء زوجته الشابه بإعطائها

(1) King : The Knights Hospitallers, p. 34.
(2) Besant, Palmer : Jerusalem, pp. 291 - 292.
(3) Guillaume de Tyr, pp. 627 - 633.

مزيداً من السلطان والنفوذ [١]. ولم يلبث أن ظهر نفوذ الملكة واضحاً، ليس فقط فى شئون مملكة بيت المقدس، بل أيضا فى شئون أنطاكية.

ذلك أن المتاعب الداخلية التى واجهت الملك فولك فى تلك الفترة لم تنحصر داخل حدود مملكته فحسب، بل عمت أيضا بقية الإمارات الصليبية، وبخاصة إمارة أنطاكية التى قام فولك بالوصاية عليها وعلى صاحبتها القاصرة الأميرة كونستانس . ولم يلبث الملك فولك أن واجه فى أنطاكية المتاعب نفسها التى واجهها سلفة بلدوين الثاني، وهى متاعب مصدرها أطماع البطرق رادولف من جهة والأميرة إليس من جهة أخرى [٢]. وكان البطرق رادولف طموحاً، استطاع بذكائه أن يمكن لنفسه فى قلوب الأمراء والعامة فى أنطاكية وحاول أن يستقل بشئون كنيسته متجاهلا سلطة البابوية وحقوقها، فضلا عن أنه دأب على التدخل فى الشئون السياسية والحربية [٣].

أما الأميرة إليس فلم تتنازل فى منفاها باللاذقية عن رغبتها فى السيطرة على شئون أنطاكية وانتزاع حقوق ابنتها كونستانس، واستعانت فى تحقيق ذلك بأختها الملكة ميلزاند، زوجة فولك الشابة المدللة [٤]. وكان تأثير ميلزاند على زوجها قد اخذ يزداد وطأة ووضوحاً، فرضخ الملك لزوجته ووافق على عودة اليس إلى أنطاكية والقيام بتوزيع المناصب على فرسان الإمارة، مما جعل إليس - بالاشتراك مع البطرق رادولف - يمثلان السلطة الفعلية الحاكمة فى إمارة أنطاكية [٥].

وسرعان ما دب التنافس بين إليس والبطرق رادولف فى الوقت الذى كان زنكى والمسلمون يرقبون بعين الرضى ضعف إمارة أنطاكية وانحلال أمورها. ثم إن رادولف لم يلبث أن وقع فى خلاف مع رجال كنيسته، مما ترك إليس مطلقة اليد فى شئون الإمارة. وقد أحست إليس بكره الصليبيين لها بعد أن انكشفت علاقتها بزنكي، فحاولت أن تعتمد على تأييد المسيحيين المحليين ، وأرسلت فى نهاية سنة ١١٣٥ إلى الأمبراطور البيزنطى تعرض عليه زواج ابنتها كونستانس من ابن الامبراطور [٦]. وقد ارتاع أمراء أنطاكية ورجال كنيستها لذلك الاتجاه

(1) Runciman : op. cit., II, p. 193.
(2) Setton : op. cit., I, p. 436.
(3) Guillaume de Tyr I, pp. 619 - 620.
(4) Stevenson : op. cit., p. 135.
(5) Guillaume de Tyr, p. 636.
(6) Runciman : op. cit., II, pp. 98 - 90.

الذى سيجعل منهم تابعين للدولة البيزنطية وكنيستها الشرقية، فارسلوا فوراً إلى الملك فولك طالبين منه اختيار عريس مناسب للأميرة كونستانس، ليرعى شئون الإمارة ويحفظها من الفوضى الداخلية والأخطار الخارجية، فوقع اختيار الملك على ريموند ابن الأمير وليم التاسع أمير بواتية (١).

ومع إحاطة ذلك المشروع بالسرية التامة خوفاً من أن تفسده الأميرة إليس أو البطرق رادولف، فقد صادف العريس ريموند دى بواتيه صعوبات كبيرة فى طريقه، سواء فى صقلية أو فى أنطاكية، حتى تم تنفيذ الخطة سنة ١١٣٦ وأصبح ريموند أمير أنطاكية الجديد. وهكذا وجدت إليس نفسها وقد غلبت على أمرها فلم يسعها سوى الانسحاب الى اللاذقية حيث قضت حياتها فى شبه عزلة إلى أن ماتت بعد قليل (٢). أما إمارة أنطاكية فقد وجدت ضالتها أخيراً فى شخص ريموند، ذلك الأمير القوى الذى أجمع المؤرخون المسلمون والصليبيون على وصفه بقوة الإدارة والعزيمة (٣).

ولم يلبث أن صادف ريموند أمير أنطاكية الجديد منافسة حادة، بل عداء ظاهراً – من رادولف بطرق أنطاكية. وعندئذ نجح الأمير ريموند فى استمالة بعض رجال الدين فى أنطاكية إليه، فضلا عن بعض الأمراء ، وشكوا جميعاً إلى البابوية سوء تصرفات رادولف مما اضطر الأخير إلى السفر إلى روما للدفاع عن نفسه (٤). وعند عودة رادولف إلى أنطاكية، وجد أن أعداءه – من رجال الدين وغير رجال الدين – فى تزايد مستمر. ولم يلبث أن أدى تفاقم الموقف فى انطاكية بالبابا إلى إرسال مندوب للتحقيق، فعقد ذلك المندوب مجمعاً فى كنيسة القديس بطرس بأنطاكية فى ٣٠ نوفمبر سنه ١١٣٩ ، حضره جمع كبير من زعماء رجال الدين فى مختلف الإمارات الصليبية، وانتهى الأمر بعزل البطرق رادولف ثم وفاته مسموما سنة ١١٤٣ . وبعد قليل أختير أيمرى دى ليموج بطرقاً على أنطاكية محل رادولف (٥).

فولك والمشاكل الكنسية :

وبالاضافة إلى المشاكل الداخلية ذات الطابع السياسى التى واجهها الملك فولك أثناء حكمه، صادفته أيضا بعض مشاكل دينية ارتبطت بالكنيسة. وكانت مشكلة صور لا تزال تمثل أولى تلك المشاكل. ذلك أن استيلاء الصليبيين على

(1) Guillaume de Tyr I, p. 618.
(2) Idem : pp. 636 - 637.
(3) Grousset : Hist. des Croisades , II, p. 40.
(4) Setton : op. cit., p. 437.
(5) Guillaume de Tyr, I, pp. 678 - 686.

مدينة صور سنة ١١٢٤ أثار مشكلة حول تبعية كرسى صور، وهل يتبع هذا الكرسى بطرقية بيت المقدس أم أنطاكية. فوفقاً للنظام الكنسى البيزنطى فى القرن الحادى عشر، كانت صور مركزاً لرئيس أساقفة يتبعه أساقفة عكا وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وأنطرطوس. وكان هؤلاء جميعاً - وعلى رأسهم رئيس أساقفة صور - يتبعون بطرق أنطاكية لابطرق بيت المقدس (١). ولكن استيلاء جيوش مملكة بيت المقدس على صور، ووجود بطرق بيت المقدس على رأس تلك الجيوش التى انتزعت صور من المسلمين، جعل بطرق بيت المقدس يطمع فى أن يجعل صور خاضعة لاشرافه، لا لاشراف بطرق أنطاكية. أما رؤساء أساقفة صور أنفسهم فقد رفضوا أن يربطوا أنفسم بأحد الطرفين المتنازعين، على أساس أن البابا وحده هو الذى يمتلك حق الفصل فى النزاع، وبذلك ظل رؤساء أساقفة صور يتمتعون باستقلالهم دون أن يعترفوا بالتبعية لبطرق بيت المقدس أو لبطرق أنطاكية (٢).

ومن الواضح أن فولك وجد نفسه فى موقف حرج صعب إزاء تلك المشكلة بوصفه ملك بيت المقدس من ناحية والوصى على إمارة أنطاكية من ناحية أخري. وهكذا التزم فولك الحذر الشديد حتى لا يغضب أحد الجانبين، حتى استطاع البابا أنوسنت الثانى أن يحل المشكلة حلا موفقاً ارتاح له الجميع (٣).

ويرتبط بالجانب الكنسى فى سياسة فولك ذلك المجمع الكبير الذى عقد فى بيت المقدس فى أبريل سنة ١١٤٠. ذلك ان المندوب البابوى الذى حكم بعزل رادولف بطرق أنطاكية، اتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث عقد مجمعاً كبيراً حضره زعماء الكنيسةالكاثوليكية فى مختلف الإمارات الصليبية. وترجع أهمية ذلك المجمع إلى أن جريجورى الثالث - رئيس الكنيسة الأرمنية - اشترك فيه، مما أكسب المجمع أهمية سياسية خاصة. فكما أن ملكية بيت المقدس عملت على جمع شمل القوى الصليبية فى الشرق الأدنى تحت رايتها، فكذلك عملت الكنيسة الكاثوليكية فى الشام على توحيد المسيحيين الشرقيين تحت زعامتها (٤).

(1) Grousset : Hist des Croissades, II, pp. 24 - 25.
(2) Guillaume de Tyr, I, pp. 623 - 624.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 26.
(4) Guillaume de Tyr, I, p. 687.

الفصل الرابع

القوى الإسلامية فى الشام والعراق

أحوال سلاجقة فارس :

استطاع محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس (١١٠٥ - ١١١٧) أن ينقذ الدولة السلجوقية من الاستمرار فى طريق الانزلاق الذى ترددت فيه منذ عهد بركيارق ، وأن يقوم بنصيب وافر فى محاربة الصليبيين فى العراق والشام . حقيقة إن بعض المؤرخين العرب مثل ابن الأثير يأخذون عليه عدم خروجه بنفسه للجهاد ، وأنه كان يكتفى بإرسال أتابكة الموصل وهمذان إلى الشام لقتال الصليبيين. ولكننا يجب أن نقدر الظروف التى أحاطت بالسلطان محمد السلجوقي، وأنه كان لا يستطيع أن يترك أملاكه فى فارس والعراق ليتنازعها أمراؤه ، فضلا عن تربص العرب بالعراق ورغبتهم فى التحرر من سيطرة السلاجقة . ولا أدل على ذلك من ثورة بنى مزيد ، وهى القبيلة العربية التى كانت تنتشر فى العراق غربى دجلة فى المنطقة من البصرة حتى هيت [١]، إذ انتهز صدقة بن مزيد «١٠٨٦ - ١١٠٨» فرصة ضعف دولة السلاجقة للاستيلاء على المنطقة الواقعة حول الحلة ، بين دجلة والفرات . ولم يلبث صدقة أن «عظم شأنه وعلا قدره وامتنع جاهه واتسع ، واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم» وكان أن إتخذ لقب «سيف الدولة» ، وأخذ يعمل لإنشاء دولة فى العراق ، مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعاً ، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب أمير العرب [٢]. كذلك لم يتردد صدقة فى مساعدة محمد بن ملكشاه ضد أخيه السلطان بركيارق ، مما جعل محمد يكافئه بإعطائه واسط ويسمح له باحتلال البصرة . ولكن لم يكد محمد بن ملكشاه يتولى السلطنة حتى تنكر لصدقة وخشى عاقبة أطماعه ، لاسيما عندما رفض صدقة إطاعة أوامر السلطان والمسير ضد الصليبيين للجهاد ، بل أنه رفض الاجتماع بالسلطان . هذا إلى أن بنى مزيد كانوا جميعاً من الشيعة ، وصفهم أبو المحاسن بأن الجميع رافضة مما أثار حنق السلاجقة - وهم سنيون - عليهم [٣]. وكان أن انتهى الأمر بأن أرسل السلطان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ . وهيت بلدة علي الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار (ياقوت) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٥ ص ١٢٢ .

محمد شاه جيوشه ضد صدقة ، فأنزلت به الهزيمة ، وسقط صدقة قتيلا سنة ١١٠٨ ، وإن كان السلطان السلجوقى قد أكرم أرملة صدقة فأرسل لها أمانا واعتذر إليها من قتل زوجها وسمح لإبنها دبيس بأن يحل محل أبيه صدقة فى إمارته(١) .

أما فى الميدان الصليبى فقد فشل السلطان محمد السلجوقى فى حملاته وجهوده ضد الصليبيين . ومع ذلك فقد نجح فى بسط نفوذ السلطنة على الأمراء الأتراك فى منطقة الشرق الأدنى . وعند وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ خلفه ابنه محمود الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره ، فترك شئون الحكم فى أيدى وزرائه وعمه سنجر شرف الدين أنو شروان ، فى حين انغمس محمود نفسه فى اللهو . وفى ذلك العصر بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها ، وانعكس ذلك الضعف فى العلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية فى الشرق الأدنى (٢) . ذلك أن سنجر وجه كل جهوده نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الدولة ، ولم يعبأ بالشام وما كان يجرى فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين . وكذلك فعل الفرع السلجوقى فى الأناضول ، إذ شغلت سلطنة الروم بالمنازعات بين أمرائها بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين بنى دانشمند حينا والبيزنطيين أحياناً ، وتركوا إخوانهم فى الشام يواجهون الصليبيين وحدهم (٣) .

الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية :

أما الخلافة العباسية فكانت فى ذلك الوقت مجرد صورة شكلية ، دون أن يكون للخليفة العباسى أى ظل من السلطان والنفوذ . ولعل ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت هو الذى شجع دبيس بن صدقة على مهاجمة بغداد نفسها سنة ١١٢٠ . وكان دبيس – مثل أبيه صدقة – شيعياً ، فلم يحجم عن نهب المدينة وسلبها وأتى بها من النهب والقتل والفساد مالم يجر مثله ، بل إنه نصب مخيمه فى مواجهة قصر الخليفة العباسى المسترشد بالله ، الذى لم يجد وسيلة لدفع ذلك الخطر سوى الاستنجاد بالسلطان السلجوقى (٤) .

وهكذا ظل دبيس يهدد بغداد من مركزه – الحلة – حتى أمر السلطان محمود أحد رجاله – وهو آقسنقر البرسقى أتابك الموصل – بمحاربته . ولكن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .
وقد اتهم البعض صدقة بأنه اتبع مذهب الباطنية ، ولكن ابن الأثير ينفي عنه هذه التهمة ويقول إنما كان مذهبه التشيع لاغير.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, pp. 522 - 523 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

الهزيمة حلت بأتابك الموصل على الضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ (١). وقد أدى انتصار دبيس على البرسقى الى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسى يستغيث بالسلاجقة من جديد . وأخيراً حلت الهزيمة بالأمير دبيس عند المباركة بين بغداد والكوفة – فى ربيع سنة ١١٢٣ ، فنقل دبيس نشاطه إلى البصرة ثم إلى قلعة جعبر فى الشمال ، حيث التحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم فى أخذها ، (٢).

ولعل فى قصة دبيس بن صدقة ما يكفى لايضاح الوضع المؤسف الذى انحدرت إليه القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ، فى الوقت الذى كان الصليبيون يمكنون لأنفسهم فى بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض فى الخلافة العباسية عندئذ أن تتزعم القوى الإسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الإسلامية ، ولكن ظهر أنها كانت أضعف من أن تحمى نفسها من المسلمين أنفسهم. ولما أراد الخليفة العباسى المسترشد (١١١٨ – ١١٣٥) أن يكون له كيان سياسى مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بإنشاء جيش للخلافة خاص بها ، عارضه السلطان محمود السلجوقى ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير على بغداد . وكان أن خرج الخليفة ومعه أفراد أسرته إلى الضفة الغربية لنهر دجلة ومن ورائه أهل بغداد يبكون بكاء عظيما لم يشاهد مثله . وقد استطاع عماد الدين زنكى – حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقى – أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالى ، فى حين اضطر الخليفة إلى الخضوع فى نهاية الأمر واعتذر للسلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم (سنة ١١٢٧) (٣).

أما الخلافة الفاطمية – على الجبهة الغربية للصليبيين – فلم تكن أحسن حالا من الخلافة العباسية ، إذ جاء مقتل الوزير الأفضل فى ٥ ديسمبر سنة ١١٢١ بمثابة بداية النهاية فى تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك فى الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بما قام به الجمالى أو ابنه الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدبير أمورها (٤). وهكذا ضمن الصليبيون فى الشام قسطاً من الاستقرار فى أوائل القرن الثانى عشر أمام تدهور نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية

(١) المصدر السابق ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .
(٢) المصدر السابق ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .
(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتاكية ص ٢٩ – ٣٠ .
(4) Wiet : L'Egypte Arabe p. 268 .

فى الشرق من ناحية ، وانحلال الخلافة الفاطمية على تخومهم الغربية والجنوبية من ناحية أخري(١).

طائفة الاسماعيلية الباطنية :

وثمة طائفة لعبت دوراً خطيراً فى تاريخ الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية وأثرت عن طريق مباشر أو غير مباشر فى مجرى وأحداث تلك الحروب، مما يجعلها تتطلب منا عناية خاصة فى هذه الدراسة . ونقصد بهذا الفرقة الإسماعيلية ، الذين ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥ هـ = ٧٦٢ م) وقد نجح أتباع إسماعيل هذا فى إقامة الدولة الفاطمية ، ومن ثم ظلت هذه الدولة تتزعم الدعوة الإسماعيلية التى اشتد ساعدها بصفة خاصة فى مصر وفارس والشام .

ومن أهم المبادئ التى أقام عليها الإسماعيلية مذهبهم إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً ، وأن الشخص الذى يدرك كنه الباطن ويتبعه لايستحق العقاب . وقد أدى بهم هذا الرأى إلى تأويل أحكام الشريعة فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطناً مما جعل الناس يطلقون عليه اسم الباطنية (٢).

على أنه حدث عند وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٧٨ هـ (=١٠٩٤ م) أن تصدعت الدعوة الاسماعيلية ، فانشق أتباعها فى فارس والشام وانتموا إلى نزار بن المستنصر ، ومن ثم أطلق على هذا الفريق اسم النزارية (٣).

وكان أول دعاة النزارية ، أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذى قدمه الباطنية عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال . وبعد وفاته حل محله الحسن بن الصباح ، الذى وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم . وسرعان ما اشتد ساعد الحسن بن الصباح فى فارس ، وساعده على

---

(1) Grousset : Hist. des Croisares I, p. 530 .

(٢) وبعبارة أخري فإنهم قالوا بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلا . وأدي ذلك إلي القول بتأويل القرآن والشريعة وبعض الحديث . وفي ضوء الباطن حاولوا إثبات الاصل الإلهي للأمامة . أما الظاهر عندهم فهو الصورة التي تتمسك بأركان الإسلام وتتفق في بعض الجوانب مع مذهب أهل السنة . ويري بعض الباحثين المحدثين أن المذهب الإسماعيلي تأثر بالفلسفة الافلاطونية الحديثة إذ وجد فيها حلا للتوفيق بين فكرة التوحيد وظاهرة الاثنينية (الشهر ستاني : الملل والنحل ودائرة المعارف الإسلامية) .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٧ هـ ، ٤٩٤ هـ .
نسبت النزارية إلي نزار الذي حرمه الوزير الأفضل من الإمامة بعد وفاة أبيه الخليفة المستنصر الفاطمي وعين بدله آخاه الأصغر أحمد الذي لقب بالمستعلى . وكان أن تعصب فريق من الاسماعيلية – خارج مصر – لنزار واعتبروه الامام الحق – حيا كان أو ميتا . وهذا الفريق من النزارية الاسماعيلية هم الذين نزعوا إلي القوة والسيطرة والارهاب وممارسة القتل والاغتيال .

ذلك تفكك الدولة الإسلامية ، وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى . وقد لجأ الحسن بن الصباح فى نشر دعوته إلى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وأمراء القلاع فى بلاد فارس ، والثانى محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعة لتكون معاقل له ولأتباعه يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحماتها من السلاجقة . وكانت أهم هذه القلاع التى استولى عليها الحسن الصباح قلعة الموت فى طبرستان قرب قزوين ، وقلعة شاه ذر ، وقلعة أصبهان ، وقلعة طبس ، وقلعة قهستان ، وقلعة خالنجان على جبل أصبهان قرب أصفهان عاصمة السلاجقة عندئذ (١) .

وترجع أهمية الحسن بن الصباح فى التاريخ إلى براعته الفائقة فى التنظيم، إذ نظم جماعته تنظيماً محكماً أساسه مبدءان هما : السرية التامة والطاعة العمياء . ولما كان هدف الحسن تأسيس دولة كبيرة ثابتة ، فإنه قسم مراتب الدعوة النزارية إلى خمس:

١- مرتبة شيخ الجبل ، وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من رؤساء الدعوة الذين جمعوا فى قبضتهم بين شئون الدين والدنيا - أى الدعوة والدولة جميعاً - فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم فى فارس والشام وغيرهما من البلاد (٢) .

٢- مرتبة كبار الدعاة ، وكانوا ثلاثة كل منهم يشرف على نشر الدعوة الباطنية فى جزء من العالم الإسلامى ، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية النزارية فى آلموت .

٣- مرتبة الدعاة ، وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم ، يتبعون كبار الدعاة ويتلقون تعاليمهم فى قلعة آلموت ، ثم ينشرون الدعوة فى الأقاليم ويعطون العهود للمستجيبين لها (٣) .

٤- مرتبة الرفاق ، وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة ويصل الواحد منهم بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد امتحانات واختبارات طويلة (٤) .

٥- مرتبة الفداوية أو الفدائيين : وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداء رئيسهم ، وصاروا بمثابة الأداة الفعالة التى استخدمها الحسن بن الصباح وخلفاؤه فى الإرهاب وقتل خصومهم . ومن الواضح أنه روعى فى اختيار أولئك الفدائيين

---

١) ابن الاثير : الكامل - حوادث ٤٩٤ هـ ، ٥٠٠ هـ &
Setton : op. cit. I, pp. 108 - 109 .

(٢) طه أحمد شرف : دولة النزارية ص ٨٠ .

(3) Sykes History of Persia vol. 2, pp. 37 - 38 .

(4) Browne . Lit. Hist. of Persia, vol 2 p. 206 .

الجرأة التى هى أقرب إلى الرعونة والتهور والقوة البدنية الفائقة التى تمكنهم من تأدية المهام الخطيرة الموكولة إليهم ، بعد إجراء ما نسميه اليوم عملية «غسيل مخ» لهم (١).

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا أهم مراتب التنظيم الإسماعيلى بوصفهم الأداة العاملة التى قامت فعلا بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة فى عصر الحروب الصليبية . لذلك اهتم الحسن بن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلا يتناول الجانبين الروحى والبدنى ، يبدأ منذ الصبا ، فيدرب الصبيان المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة والرغبة فى التضحية (٢). وقد ذكر الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٤٥ - ١٣٢٤) أن شيخ الجبل أنشأ قرب قلعة الموت حديقة واسعة حرص على أن يوفر لها جميع صفات الجنة، من أنهار فيها خمر لذة للشاربين، ولبن لم يتغير طعمه، وعسل مصفي، وفواكه كثيرة من كل الثمرات، وفتيات حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون .. وغير ذلك من مختلف ألوان المغريات التى جاءت فى أوصاف الجنة (٣). وبعد أن يتسامر شيخ الجبل بعض الوقت مع الفتيةالفداوية الذين تم اختيارهم، يعطيهم مشروباً مخدراً - لعله من نبات الحشيش - مما جعل اسم «الحشيشية» يلصق بتلك الطائفة من فروع الإسماعيلية فى التاريخ (٤). فاذا ما فقدوا وعيهم حملوا إلى تلك الجنة، حتى إذا أفاقوا وتلفتوا حولهم حسبوا أنفسهم فى الجنة فعلا (٥). على أنهم لا يتركون فى جنتهم طويلا، إذ يخدرون مرة أخرى ليحملوا أثناء غيبوبتهم إلى دار شيخ الجبل بالخلود فى تلك الجنة إذا هم قتلوا فلانا من الأشخاص الذين يحددهم لهم، وبذلك يستثير فيهم الحماسة لتنفيذ تعاليمه، ويشعرون بالرغبة فى التضحية بكل شيء فى سبيل العودة إلى الجنة التى سبق أن رأوها وأحسوا بلذة الإقامة فيها (٦).

---

(1) Ivanow : An Islamic Ode in Praise of Fidawis, pp. 63 - 64 .

(2) Setton : op. cit., p. 108.

(3) Morco Polo : Travels, p. 50.

(٤) يؤكد بعض علماء اللغويات أن الفعل الإنجليزي to assissinate. بمعني يغتال أو يقتل، والاسم منه assassin بمعني سفاك أو قاتل، إنما هي اشتقاقات من كلمة الحشاشين ، وهم تلك الفئة من الفداوية الذين اشتهروا بالقتل والاغتيال في عصر الحروب الصليبية والذين أطلقت عليهم بعض المصادر العربية اسم الحشيشية لتناولهم الحشيش. وقد جاء في قاموس اكسفورد أن أصل هذا اللفظ الأوربي هو كلمتا حشائش وحشيشة العربيتان، ويدلل هؤلاء العلماء علي رأيهم بأن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه المعروف في اللغات الأوربية الا في عصر الحروب الصليبية.

(5) Michaud : op. cit., II, pp. 72 - 73.

(6) Marcopolo : Travels, pp. 49 - 53.

ومن الثابت أن نشاط الباطنية الإرهابى الهدام أخذ يمتد إلى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر. وينقسم الدور الذى قام به الباطنية فى عصر الحروب الصليبية إلى قسمين ؛ أولهما : مقاومة المذهب السنى والعمل على الفتك بزعمائه، وثانيهما : مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم. ولم يفرق الباطنية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين وغير المسلمين، وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً. وفى سبيل هذه المصلحة الخاصة لم يتحرج زعماؤهم من محالفة الصليبيين حينا أو مهادنة السنيين أحيانا. وهكذا أدى اتساع نشاط الباطنية فى بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد فعال إلى عوامل التفكك التى تعرضت لها تلك البلاد فى عصر الحروب الصليبية (١).

ذلك أنه حدث فى الوقت الذى كان المسلمون فى حالة دفاع ضد الصليبيين أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب الباطنية، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية فى جبهتهم، فى الوقت الذى تماسك الصليبيون وحرص أمراؤهم على شد أزر بعضهم بعضاً . وحسبنا ما فعله الباطنية في حصن شيزر سنة ١١٠٩ إذ ثار جماعة من الباطنية فيه على حين غفلة من أهله .. فملكوه وأخرجوا من كان فيه وانتزعوه من أصحابه بنى منقذ بعض الوقت (٢).

وكان الاغتيال هو السلاح الرهيب الذى استخدمه الباطنية فى تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم، بحيث يضيق بنا المقام عن حصر ضحاياهم فى عصر الحروب الصليبية بالذات، من الأمراء وغير الأمراء. ومن ضحايا الحسن بن الصباح كان الوزير السلجوقى نظام الملك الذى قتله الباطنية سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ ، فخسرت دولة السلاجقة بمقتله شخصية من أعظم الشخصيات التى ارتبط بها تاريخ السلاجقة، وأسف الناس عليه لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن، والعلم، وحب الخير، وحميد السياسة (٣).

وزاد من نفوذ الباطنية فى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر للميلاد، عطف رضوان ملك حلب عليهم وحمايته لهم. وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ أول زعماء الباطنية بالشام، وحصلا على مكانة كبيرة لدى رضوان فاستغل الباطنية تلك المكانة وأخذوا يباشرون أعمالهم الإرهابية ضد زعماء

(1) Setton : op. cit., I, pp. 109 - 110.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٧،
ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(٣) ابن القلانسى : ذيل دمشق ص ١٢١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٢٨ ترجمة ١٧٩ .

المسلمين والصليبيين جميعاً. وقد افتتح الباطنية نشاطهم فى بلاد الشام بقتل جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣ (١)، ثم قتلوا خلف بن ملاعب صاحب أفامية بعد ذلك بثلاث سنوات ، قتله قوم من الباطنية نفذهم إليه المعروف بأبى طاهر الصائغ العجمى من حلب (٢). ،

ويبدو أن بعض زعماء المسلمين وأمرائهم بالشام وجدوا فى الحشيشية أداة طيبة للتخلص من منافسيهم وخصومهم . من ذلك ما حاوله رضوان ملك حلب سنة ١١١١ من تحريض الباطنية على قتل طغتكين أتابك دمشق (٣). وما لجأ إليه طغتكين أتابك دمشق فعلا من استخدام بعض الباطنية فى قتل ضيفه مودود أتابك الموصل سنة ١١١٣ (٤). وعندما أحس الباطنية أنهم مكروهون فى حلب وأن موقفهم صار حرجاً بعد وفاة رضوان، حاولوا الاستيلاء على شيزر.

ولم يسكت سلاطين السلاجقة عن عبث الباطنية بمصالح البلاد وأرواح العباد. ولكن يبدو أن جهودهم لم تكلل بالنجاح التام، كما أنهم فشلوا فى الاستيلاء على قلعة الموت. ومن تلك المحاولات ما قام به السلطان محمد السلجوقي، فإنه لما علم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم (الباطنية) وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم، جعل قصدهم دأبه. وكان فى أيامه المقدم عليهم والقيم بأمرهم الحسن بن الصباح الرازى صاحب قلعة الموت فأمر السلطان بعض أمرائه بمهاجمته، ومازالوا يحاصرونه ويهاجمونه حتى وفاة السلطان (٥). ولكن الحسن الصباح ظل رابضا فى قلعة الموت فى خراسان، ومن ذلك المركز الحصين استمر يوجه تلك الشبكة الإرهابية الخطيرة حتى وفاته سنة ١١٢٤ . وطوال تلك السنوات استمر اسم الحسن الصباح يثير الرعب فى قلوب الناس فى الجهات المجاورة ،لكثرة غزاته عليهم، وقتله وأسره رجالهم وسبى نسائهم ، دون أن تستطيع الجيوش السلجوقية الوصول إليه والقضاء عليه (٦).

ثم إن نشاط الباطنية في الشرق الأدنى فى ذلك الدور لم يقتصر على بلاد فارس وإقليم حلب، وإنما امتد أيضا الى القاهرة ودمشق. ففى القاهرة نسمع من المصادر عن مقتل الوزير الأفضل بيد أحد الباطنية فى بعض طرق القاهرة سنة ١١٢١م أما فى دمشق فقد ازداد نفوذهم وانتقل إليها مركز نشاطهم بعد أن

(1) Lewis : The Sources for the Hist. of the Syrian Assassins, pp. 585 - 586.
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٦٠ .
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .
(٥) ابن الأثير : الكامل – حوادث ٥١١ هـ.
(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ.

توفيرضوان صاحب حلب سنة ١١٢٣ وتعرضوا لتنكيل ابنه الملك البارسلان الذى قتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ، وإسماعيل الداعي، والحكيم المنجم وغيرهم، مما جعل أتباعهم يتفرقون فى البلاد [١]. ولم يلبث أن وفد على الشام من فارس أحد دعاة الباطنية واسمه بهرام. فنزل على حلب ثم انتقل إلى دمشق حيث حظى برعاية طغتكين ، وأكرم لإتقاء شره وشره جمعاته وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية [٢]. ، وهكذا أخذ بهرام يواصل نشاطة، حتى استفحل أمره وعظم خطبه فى حلب والشام، وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزى واللباس، بحيث يطوف البلاد والمعاقل ولا يعرف أحد بشخصه [٣]. على أن بهرام خشى أهل دمشق وهم من السنة فما زال يسعى عند طغتكين حتى منحه بانياس سنة ١١٢٦. وسرعان ما غدت بانياس حصنا يأوى إليه ومعقلا يحتمى به ويعتمد عليه [٤]. ويعبر ابن الأثير عن استيلاء الباطنية على بانياس بأن ذلك جاء كارثة على البلاد إذ عظم خطبه (بهرام) وحلت المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، لاسيما أهل السنة، إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم (طغتكين) أولا ومن شر الإسماعيلية ثانياً، فلم يقدم أحد على إنكار هذه الحال وانتظروا بهم الدوائر ... [٥]. أما ابن القلانسى فيقول إن بهرام لم يكد ستولى على بانياس حتى اجتمع إليه أو باشه من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطغام الذين استغواهم بمحاله وأباطيله، واستمالهم بخدعه وأضاليله، فعظمت المصيبة بهم وجلت المحنة بظهور أمرهم، وضاقت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين [٦].

وهكذا لم يستطع الناس الاعتراض على أعمال الباطنية، نظراً لحماية طغتكين لهم من ناحية ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخري، إذ «شرعوا فى قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال، ويرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يفل حد شرهم متقدم ولا أمير ... [٧]»، وإذا كانت جهود السلطان محمد شاه السلجوقى فى فارس ضد الباطنية قد أسفرت عن محاصرة قلعتهم شاه ذر – المجاورة لأصفهان – وفتحها وقتل من فيها من الباطنية [٨]، فإن هذه الضربة التى حلت بالباطنية فى فارس لم تؤثر فى نشاطهم

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩.
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.
(٥) المصدر السابق.
(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥.
(٧) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ. ابن القلانسي ص ٢١٥.
(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١.

فى الشام، حيث استمروا يدعمون نفوذهم ويوسعون سلطانهم، ويضاعفون نشاطهم يوماً بعد يوم (١).

ذلك أن بهرام أخذ يبعث من بانياس الدعاة والفداوية إلى مختلف أنحاء الشام لنشر الدعوة الإسماعيلية من ناحية ولتنفيذ ما رآه من اغتيالات سياسية من ناحية أخري. وقد نجح بعض أولئك الأعوان بدورهم فى الاستيلاء علي حصون جديدة فى جبال الشام، مثل حصن القدموس (٢). وأخيراً أفاق طغتكين إلى خطر الباطنية وأخذ يفكر فى التخلص منهم، ولكنه توفى فى فبراير سنة ١١٢٨ قبل أن يتمكن من القيام بأى عمل ضدهم. وعند وفاة طغتكين خلفه ابنه تاج الملوك بورى فى حكم دمشق، فاحتفظ بأبى على طاهر بن سعد المزدقانى (المزدغاني) وزيراً له. وقد أفراط المزدقانى فى العطف علي الباطنية، وقرب مندوبهم فى دمشق – واسمه أبو الوفاء – الذى وصفه ابن الأثير بأن سلطته فى دمشق فاقمت سلطة تاج الملوك بورى نفسه وأن حكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك (٣).

ثم كان أن قتل بهرام أحد مقدمى وادى التيم – واسمه برق بن جندل – دون سبب، فأصر قومه على الأخذ بثأره. وفى الاشتباك الذى حدث بين الطرفين سنة ١١٢٨، حلت الهزيمة بالباطنية، وقتل منهم كثيرون، وقطع رأس بهرام، وبذلك ضعف شأن الباطنية وقلت عدتهم وانقصفت شوكتهم وانفلت شكتهم (٤) ؟ وقد خلف بهرام فى بانياس رفيقه إسماعيل العجمى الذى حظى هو الآخر بعطف الوزير أبى على طاهر المزدقانى فى دمشق ، فى المساعدة على مراده والمعاضدة على أغراضه (٥). ، واستمر الأمر على ذلك حتى وجد ذلك الوزير الفرصة مناسبة لتدبير مؤامرة مع الصليبيين، فعرض عليهم تسليمهم دمشق مقابل إعطائه – هو والباطنية – مدينة صور بدلها (٦). وكان أن أبرمت الاتفاقية،وحدد أحد أيام الجمعة والمسلمون فى المساجد لفتح أبواب دمشق للصليبيين (٧).

على أن المؤامرة انكشفت قبل موعد تنفيذها، فقتل بورى وزيره الخائن أبو على طاهر المزدقانى وأحرق جثته (٨). وبذلك حانت الفرصة سنة ١١٢٩

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥١ ، ٢١٥.
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ابن القلانسي ص ٢٢٢.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٢٢ – ٢٢٣.
(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٢٣ – هـ.
(٧) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنه ٥٢٣ هـ ابن القلانسي، ص ٢٢٣.
(٨) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧ ص ٧٩ – ٨٠ (تحقيق المؤلف)

للتخلص من الباطنية، ، ونادى (بوري) بقتل الباطنية فقتل منهم ستة ألف نفس. ، وهكذا استمر أهل دمشق يذبحون فيهم، فتعقبوهم وتتبعوهم في أماكنهم واستخرجوهم من مكانهم وأفنوهم جميعاً تقطيعاً بالسيوف وذبحاً بالخناجر. ولم تلبث أخبار ما حدث للباطنية فى دمشق أن وصلت إلى مسامع إخوانهم فى بانياس فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، واستنجد إسماعيل العجمى بالصليبيين وعرض عليهم تسليمهم بانياس ليحموه. وهكذا تسلل الباطنية من بانياس إلى البلدان المجاورة وهم فى غاية من الذلة ونهاية من القلة في حين مات إسماعيل العجمى بعد قليل ودفن فى بانياس [(١)].

وفى تلك الأثناء استمر نشاط الحشيشية الهدام فى منطقة الشرق الأدني، ولم يتوقف بقية عصر الحروب الصليبية. من ذلك أنخم قتلوا فى همذان قاضى القضاة زين الإسلام أبا سعد محمد بن نصر الهروى أحد أعلام أهل السنة أثناء عودته من خراسان إلى بغداد، ولم يجرؤ شخص على أن يتبعهم للخوف منهم[(٢)]. وفى ٢٦ نوفمبر سنه ١١٢٦ قتلوا البرسقى أتابك الموصل [(٣)]. وفى سنة ١١٢٧ قتلوا المعين وزير السلطان سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان. وكان ذلك الوزير قد فتك بجماعة منهم وحرض السلطان على النكاية فيهم وتطهير الأرض منهم[(٤)]. وفى سنة ١١٣٠ أرسل الباطنية من مركزهم فى الموت اثنين من الخراسانية لقتل تاج الملوك بورى أتابك دمشق والانتقام منه لما حل باخوانهم فى دمشق وبانياس. وقد تحايل هذان القاتلان على تنفيذ غرضهما حتى نجحا فى الاعتداء على بورى ولكن إصابته لم تكن قاتلة فبرأ وفشلت خطة الباطنية [(٥)]. وفى سنة ١١٣٥ نفى السلاجقة الخليفة المسترشد العباسى إلى أذربيجان حيث قتل بواسطة جماعة من الباطنية [(٦)]. وفى سنة ١١٤٠ استطاع الباطنية أن يمتلكوا حصن مصيات (مصياف) بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له [(٧)]. وفى سنة ١١٢٥ قتل بعض الباطنية ريموند الثانى أمير طرابلس. ويطول بنا الأمر لو حاولنا تسجيل كافة اغتيالات الباطنية ولكن يكفى أن نختتم هذه القائمة بالاشارة إلى أنهم حاولوا أكثر من مرة قتل صلاح الدين الأيوبى نفسه – كما سيلى فيما بعد – ولكن الله سلم.

وهكذا ظلت الباطنية مصدرا خطيراً للانحلال السياسى والاجتماعى فى

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (Rec, Hist Or p. 567)
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢، ص ٢٣٤ – ٢٣٥.
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦.
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠.
(٦) المصدر السابق، ص ٢٤٨ – ٢٤٩.
(٧) المصدر السابق، ص ٢٧٤.

بلاد الشام بالذات على عصر الحروب الصليبية (١).

حلب والموصل :

اختار السلطان محمود السلجوقى سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ آقسنقر البرسقى حاكم الموصل ليلى شحنكية بغداد، أى ينوب عنه فى بغداد لدى الخليفة العباسى المسترشد (٢) ثم عاد السلطان محمود سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ فأقطع البرسقى من جديد الموصل وأعمالها مع تكليفة بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين (٣). ولم يلبث البرسقى وهو بالموصل أن تلقى نداء من أعيان حلب لنجدتهم ضد الصليبيين، فرحب حاكم الموصل بتلك الفرصة التى أتاحت له السيطرة على حلب، لاسيما بعد أن وافق الحلبيون على تسلميه قلعة المدينة، فخف اليها – وصحبته طغتكين أتابك دمشق وصمام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص – ووصلوا جميعاً إلى حلب فى أواخر يناير سنة ١١٢٥ (٤). ووضع البرسقى يده على حلب.

وهكذا اجتمعت حلب والموصل فى قبضة حاكم مسلم واحد – هو البرسقى – مما يعتبر نواة لتوحيد المسلمين فى شمال العراق والشام، ثم تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة فيما بعد. ولاشك فى أن هذا الارتباط بين حلب والموصل كان أخطر ما يخشاه الصليبيون، نظراً لما يمكن أن ينجم عنه من قطع الصلة بين إمارة الرها من ناحية وبقية الإمارات الصليبية بالشام من ناحية أخري، فضلا عما فى تكتل القوى الإسلامية نفسها من معانى القوة التى لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت بسبب تفرق كلمة المسلمين وعدم وحدتهم (٥).

ثم إن هذه الخطوط التى اتخذها البرسقى زاد من خطرها أنه كان يتمع يعطف السلطان محمود السلجوقى لأنه كان ناصحاً له ملازماً له فى حروبه كلها (٦). وقد ظل البرسقى محتفظا بولائه للسلطان الذى عهد اليه بمهمة الجهاد، وبناء على ذلك فان البرسقى كان يمثل فى تصرفاته وجهوده السلطة السياسية الشرعية الكبرى فى الجبهة الشرقية من العالم الإسلامى ولم يكن باستطاعة قوة أخرى من القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة فى أطراف العراق أو بلاد الشام أن

---

(1) Setton : op. cit., I. pp. 109 - 110.

(٢) أطلق علي نائب سلطان السلاجقة أو ممثلة لدي الخليفة العباسي في بغداد لقب شحنة، وهو لقب فارسي. أما الوظيفة نفسها فأطلق عليها اسم شحنكية بغداد.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ٣٠ – ٣١.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

(5) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 631.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

تقف فى وجه البرسقى أو أن تنافسه فى مكانته وزعامته. وعلى هذا الأساس أخذ البرسقى يتصرف تجاه القوى الإسلامية المجاورة وتجاه الصليبيين فى بلاد الشام وشمال العراق، طوال سنتى ١١٢٥ ، ١١٢٦، حتى كان مقتله فى يوم الجمعة ثامن ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـ، أى ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ بأيدى الباطنية فى الموصل (١).

وقد خلف آقسنقر البرسقى فى حكم حلب والموصل ابنه عز الين مسعود. على أن مسعود لم يلبث أن وقع فى خلاف مع طغتكين أتابك دمشق، فدس له الأخير السم مما أدى إلى وفاته. وبذلك توفى مسعود فى العام التالى بالرحبة (٢). ولا شك فى أن هذه الأحداث أوقعت حلب بالذات فى حالة من الفوضى شديدة لاسيما وأن الحلبيين لم يرضوا عن قتلغ، وهو الذى عينه السلطان محمود سنة ١١٢٧ على حلب بعد وفاة عز الدين مسعود بن البرسقي. لذلك استنجد أهل حلب ببدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وهو الذى سبق له أن حكم حلب سنة ١١٢٢ – ١١٢٣، قبل أن يطرده بلك (٣).

ومن الواضح أن تلك التطورات كلها أضعفت من موقف المسلمين وقوت موقف الصليبيين، فتعرضت حلب بالذات لهجمات من جانب بوهيموند الثانى أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها (٤). بل إن الملك بلدوين الثانى – ملك بيت المقدس – هدد دمشق نفسها سنه ١١٢٩، كما سبق أن أشرنا (٥). وهكذا حتى ظهر على المسرح عماد الدين زنكي، فبدأت صفحة جديدة مهدت لتغيير ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين فى الشرق الأدني.

ظهور عماد الدين زنكى :

أما عماد الدين زنكى هذا، فكان أبوه قسيم الدولة آقسنقر الحاجب، قائدا فى جيش السلطان ملكشاه السلجوقي، ومن أعيان دولته، وأكابر أمرائه وأخص أوليائه، واعتمد عليه فى أموره كلها(٦). وقد كافأ ملكشاه قائده باعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢، ولكن آقسنقر لم يلبث أن قتل سنة ١٠٩٤، قتله تتش أخو ملكشاه، فنشأ زنكى بعد أبيه نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان، ودخل فى خدمة أتابكة الموصل :

---

(١) النويري : نهاية الارب ج ٢٧ ص ٢٦ (تحقيق المؤلف).
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنه ٥٢١ ، وابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٣.
(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ، ص ٧٧ (تحقيق المؤلف)
(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ.
Guillaume de Tyr, p. 590.
(٥) سبط بن الجوزي . مرآة الزمان (p. 567 - 568) &
ابن القلانسي : ص ٢١٢ – ٢١٣.
(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ص ١١ (مطبوع).

جاولى ثم البرسقي، حتى وصل إلى حكم البصرة، وعندئذ كلفه السلطان محمود السجوقى باخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦ (١).

وقد أظهر زنكى همة كبيرة وكفاية عالية فى تلك المهمة التى كلفه بها السلطان، فأنزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط وزحف على بغداد، وانتصر على الخليفة المسترشد الذى اضطر إلى الإذعان للسلطان فى يناير سنة ١١٢٧ (٢). وهكذا لفت زنكى الأنظار إليه بشجاعته ومقدرته، فولاه السلطان شحنكية العراق فى أبريل سنة ١١٢٧ ،وهو المنصب الذى جعل منه رقيباً على الخليفة (٣). وحوالى ذلك الوقت – أو بعده بقليل – توفى عز الدين مسعود بن البرسقى أتابك الموصل وحلب، فذهب وفد من أعيان الموصل إلى بلاط السلطان السلجوقى فى فارس طالبين تعيين حاكم جديد على مدينتهم، يستطيع الدفاع عنها ضد تهديد الصليبيين (٤).

وكان أن وقع اختيار السلطان على زنكى لما يعلمه من كفايته لما يليه، فعينه أتابكاً على الموصل سنه ١١٢٧ . وبعد أن نظم زنكى أمور الموصل، استولى على نصيبين من الأراتقة، ثم اتجه إلى حران التى كانت دائما تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم، بسبب تعرضها للهجمات المتكررة من الرها وسروج والبيرة، فاستولى عليها وفرح أهلها بذلك لأنهم اعتقدوا أن مدينتهم صارت فى يد أمينه (٥). ثم إن زنكى اختار ألا يبدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين إلا بعد أن يضع يده على حلب أولا وينظم أمور تلك البلاد. لذلك أسرع عقب استيلائه على نصيبين

---

(١) ولي المسترشد الخلافة العباسية سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨م ، وأراد أن يستغل المنازعات التي غرق فيها حكام السلاجقة عندئذ ليحرر الخلافة العباسية من سيطرتهم، الامر الذي جعل السلطان محمود السلجوقي يعهد إلي زنكي باخضاع حركة الخليفة سنة ١١٢٦ . ويقول ابن الأثير إن برنقش الزكوي شحنة بغداد هو الذي سار إلي السلطان، واستثاره علي الخليفة وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً علي منعه عن العراق.
(التاريخ الباهر ، ص ٢٨ – ٢٩).

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٣٠ – ٣١.

(٤) يروي ابن الأثير أن أهل الموصل عندما قابلوا الوزير شرف الدين بن خالد قالوا له : (قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها فاستولوا علي أكثرها. وقد أصبحت ولا يتهم من حدود ماردين إلي عريش مصر ماعدا البلاد الباقية بيد المسلمين. وقد كان البرسقي مع شجاعته، وتجربته وانقياد العساكر إليه يكف بعض عاديتهم وشرهم، فمذ قتل ازداد طمعهم، وهذا ولده صغير. ولابد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة يذب عنها ويحفظها ويحمي حوزتها ...) ابن الاثير الكامل سنة ٥٢١ وقد أورد ابن واصل أيضا نصا مشابها (مفرج الكروب ج١ ص ٣٤ – ٣٥).

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٣٧.

إلى عقد هدنة مع جوسلين أمير الرها (١).

وكانت حلب – كما سبق أن ذكرنا – قد وقعت فى حالة شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقي، فأصبحت ميداناً للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الأرتقي، وإبراهيم بن رضوان السلجوقي، فى الوقت الذى أراد كل من جوسلين الثانى أمير الرها وبوهيموند الثانى أمير أنطاكية أن يستفيدا من تلك الأوضاع للاستيلاء علي حلب (٢). ولكن وصول زنكى إلى حلب فى ذلك الوقت –سنه ١١٢٨ – فوت على جميع أولئك الطامعين أغراضهم، لأن زنكى كان يحمل تقليدا من السلطان بحكم حلب، وبهذه الصفة الشرعية استطاع أن يمكن لنفسه فى حلب بسهولة ؛ فدخلها فى ١٨ يونيه ١١٢٨، حيث استقبله أهل حلب استقبالا رائعا « وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعمله إلا الله سبحانه وتعالى ... ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد (زنكي) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه(٣). »

وهنا نلاحظ أن الظروف كلها كانت معدة عندئذ لأن يقوم زنكى مشروعه الضخم الخاص بتوحيد القوى الإسلامية فى العراق والشام، وذلك بعد وفاة طغتكين أتابك دمشق العتيد في فبراير ١١٢٨ (٥٢٢ هـ) ، وهو الرجل الذى حظى بنفوذ قوي، فاق نفوذ بقية الأمراء المسلمين ببلاد الشام. ولكى يتمكن زنكى من إتمام ذلك المشروع بدأ بخطوتين : الأولى الزواج من خاتون ابنة الملك رضوان بن تتش ملك حلب السلجوقى (٤) الأسبق، وذلك ليثبت مركزه فى حلب ويرث عن طريق تلك الزيجة حقوق بيت رضوان فى شمال الشام. والثانية ذهابه سنة ١١٢٩ إلى بلاط السلطان محمود السلجوقي، الذى « منحه التواقيع السلطانية بملك الغرب كله (٥) ، وبعد ذلك عاد زنكى إلى حلب فى عسكره عازما علي الجهاد(٦)ومعه « منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما (٧). »

وكانت ممتلكات المسلمين فى بلاد الشام مقسمة عندئذ بين ثلاث قوي، الأولى محورها بورى بن طغتكين أتابك دمشق، وكان يسيطر علي دمشق وحماة

---

(١) (وهادنه مدة يسيرة، وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد).
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢١ هـ.

(2) Stevenson : op. cit., p. 119.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٢٢ هـ التاريخ الباهر ص ٣٧ – ٣٨.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٤٠ (مطبوع).

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٤٣.

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب. ج١ ص ٤٠ (مطبوع).

فى الشمال وحوران فى الجنوب. والثانية محورها صمصام الدين خيرخان (قيرخان) ابن قراجا أمير حمص. والثالثة محورها سلطان بن منقذ، وهو الأمير العربى الذى سيطر على شيزر. ولم يستطع خيرخان بن قراجا أو سلطان بن منقذ مقاومة الأتابك زنكي، فأعلنا ولاءهما وخضوعهما له، وبذل كلم يبق أمام زنكى سوى تاج الملوك بورى أتابك دمشق (١).

والواقع إن بورى الذى تعرض لتهديد الصليبيين وغزوهم سنة ١١٢٩، كان يخشى خطراً دائماً من جانب بلدوين الثانى ملك بيت المقدس، ولذلك رحب بما عرضه عليه زنكى من محالفته ضد الصليبيين . على أن زنكى لم يلبث أن تنكر لذلك الحلف مع بوري، وانقض علي حماة واستولى عليها فى سبتمبر سنة ١١٣٠ ليبيعها مقابل مبلغ كبير من المال للأمير خيرخان (قيرخان) صاحب حمص (٢). ولم يكد خيرخان يدفع المبلغ المتفق عليه ويستولى علي حماه فى ٢٠ سبتمبر حتي غدر به زنكى فانقض عليه هو الآخر فجأة وحبسه بقلعة حلب. ثم اتجه ليستولى علي حمص ذاتها مثلما استولي علي حماة(٣). ولكن زنكى ظل يحاصر حمص ويهاجمها أربعين يوماً ، لم يظفر منها بطايل (٤). ، فعاد إلى حلب فى أواخر سنة ١١٣٠ . ولاشك فى أن فشل زنكى أمام حمص جاء ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين فى شمال الشام بضع سنوات.

على أنه يلاحظ أن زنكى لم يمض فى طريقه على الوجه السابق دون أن يصادف معارضة من الأمراء المحليين. وقد ظهرت تلك العقبات من جانب الأراتقة الذين حكموا حلب فى وقت من الأوقات. ذلك أنه عز علي الأراتقة أن يستأثر زنكى بحكم حلب وأن يزداد نفوذه فى شمال الشام والعراق بصورة تهدد مصالحهم، فجمع حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين، وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدين سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، وغيرهما من أمراء الأراتقة، فى ديار بكر قوة تبلغ عشرين ألفاً من التركمان ضد زنكي، ولكن الهزيمة حلت بهم عند مدينة سرجى فيما بين ماردين ونصيبين. ولاشك في أن هذا النصر ضمن لزنكى سيادته على شمال الشام وأطراف آسيا الصغرى (٥).

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ – ٢٢٨
ابن العديم : زبدة الحلب،ج٢ ، ص ٢٤٥ – ٢٤٦.
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣.
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٤٢. ويعيب ابن واصل علي زنكي غدره بصاحب حماه. ونقضه العهد معه، ويقول أن زنكي ارتكب بذلك أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٤٦.
(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ.
ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٣٥ – ٣٦

أما عن علاقة زنكى بإمارة أنطاكية الصليبية فى تلك الفترة فأهم ما فيها مؤامرة الأميرة إليس، وطلبها مساعدة زنكى للوصول إلى حكم أنطاكية [1] . وقد سبق أن رأينا كيف أسرع الملك بلدوين الثانى إلى أنطاكية وأحبط المؤامرة وبذلك حال دون إستفادة زنكى من اضطراب أحوال الصليبيين فى أنطاكية فى ذلك الوقت. هذا وإن كان زنكى قد استغل تلك الفرصة وهاجم بعض الحصون القريبة التابعة لإمارة أنطاكية، مثل الأثارب وحارم ومعرة مصرين. ويقول المؤرخ ابن العديم إن زنكى لم يستطع الاستيلاء علي حصن الأثارب إلا بعد خمس سنوات، أى سنة ٥٢٩ هـ = ١١٣٥م، فى حين ذكر ابن الأثير - وعنه أخذ ابن واصل - أن زنكى استولى على ذلك الحصن فعلا سنة ١١٣٠ ، وجعله دكا وبقى إلى الآن خراباً [2] . ،

انشقاق المسلمين

على أن زنكى لم يستطع أن يمضى قدما فى مشروعه الخاص بتوحيد قوى المسلمين بسبب الأحداث التى حدثت فى فارس والعراق، والتى أدى تدخل زنكى فيها إلى صرفه عن ميدان الشام.

ذلك أن وفاة السلطان محمود بن محمد السلجوقى سنة ١١٣١ أعقبها انقسام خطير فى دولة السلاجقة، إذ تعرض ابنه البكر داود - الذي ورثه فى السلطنة - لثورة أعمامة : عمه الأول سلجوق بن محمد صاحب فارس، وعمه الثانى مسعود ابن محمد صاحب أذربيجان، وعمه الثالث طغرل بن محمد صاحب قزوين [3] . ولم يلبث أن اشتد الصراع بين هؤلاء الأعمام الثلاثة، وبخاصة سلجوق شاه ومسعود. وفى إحدى حلقات النزاع، أيد الخليفة العباسى المسترشد سلجوق شاه، فاستنجد مسعود بعماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى سار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق، وبذلك دخل زنكى دائرة الصراع الدائر في العراق وفارس، مما صرفه مؤقتا عن الشام وفلسطين [4] .

---

(1) Stevenson : op. cit. p. 129.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٤٧ - ٢٥٩ .
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٤ هـ.
ابن واصل : مفرج الكروب. ج١ ص ٤٣ .
وقد نص ابن واصل علي أنه أخذ رأية عن ابن الأثير.

(٣) النويري : نهاية الأرب. ج ٢٧ ص ٣٠ وما بعدها (تحقيق المؤلف) .

(٤) ابو الفدا : المختصر في أخبار البشر، حوادث سنة ٥٢٧ هـ، ابن الأثير الكامل، ٥٢٦ ، ٥٢٧هـ.

وعندما زحف زنكى على بغداد لمنازلة الخليفة وسلجوق شاه، حلت به الهزيمة عند تكريت سنة ١١٣٢ (١). على أن زنكى لم يلبث أن عاد فى السنة نفسها لمهاجمة بغداد بعد أن حالفه ملك العرب دبيس بن صدقة، ولكن الهزيمة حلت بزنكى من جديد ، وقتل بينهم خلق كثير، فاضطر إلى الفرار نحو الموصل (٢).

ويبدو أن تلك الهزائم التى حلت بزنكى شجعت الخليفة المسترشد، فزحف على الموصل فى صيف سنة ١١٣٣ للاستيلاء عليها ثلاثين ألفا، وعندئذ اضطر زنكى إلى الرحيل عنها، وترك فيها بعض عسكره مع نائبه نصير الدين جقر (٣) وفى الوقت الذى كانت جيوش الخليفة تحاصر الموصل، لجأ أتابك دمشق إسماعيل ابن بورى إلى مهاجمة أملاك زنكى فى الشام، فحاصر حماة وملك البلد قهراً سنة ١١٣٣. وهكذا أخذ البناء الذى أقامه زنكى يتداعى لبنة بعد أخرى على أيدى المسلمين أنفسهم سواء في العراق أو الشام (٤).

ولاشك فى أن سوء موقف زنكى أتاح فرصة طيبة للصليبيين الذين شددوا هجماتهم على حلب، مما أدى إلى الهزيمة التى حلت بالأمير سوار – نائب زنكى فى حلب – فى موقعة قنسرين (١١٣٢ – ١١٣٣) (٥).

على أن مجرى الأمور أخذ يتحول فى صالح زنكى بعد قليل، إذ فشل الخليفة العباسى فى الإستيلاء على الموصل بعد حصار ثلاثة أشهر، فارتد إلى بغداد بعد أن ضاقت الأمور بالعسكر بسبب قلة الميرة والقوت (٦). هذا فى الوقت الذى اضطربت أحوال أتابكية دمشق بعد وفاة بوري سنة ١١٣٢ (٥٢٦ هـ) وقيام ابنه شمس الملوك أبو الفتح إسماعيل في الحكم ؛ وقد بدأ إسماعيل بن بورى حكمه بداية طيبة، فاسترد بانياس من الصليبيين، واسترد حصنى اللبوة والرأس من أخية شمس الدولة محمل صاحب بعلبك، كما هاجم بعلبك نفسها (٧). ولكنه لم يلبث أن تعسف وتجبر مع رعاياه، وأظهر «دناءة نفس» (٨)، فأمعن فى «ارتكاب القبائح

---

(١) كان حاكم تكريت عندئذ هو نجم الدين أيوب الكردي والد صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، ويقال إن نجم الدين حمي زنكي عندئذ وساعده على الفرار والعبور إلي الضفة الأخري لنهر دجلة (وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سببا للاتصال بعماد الدين، حتي ملك بنو أيوب البلاد). (أبو الفداء : المختصر ؛ ٥٢٧ هـ)

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ٤٧ وكذلك كتاب الكامل، حوادث ٥٢٧ هـ.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 55.

(٤) انظر الفصل الثالث من الباب التاسع.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ.

(٧) المصدر السابق.

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٥٧.

والمنكرات، وإيغاله فى اكتساب المآثر المحظورات الدالة على فساد التصور والعقل، وصداء الحسن، وظهور الجهل، وتبلد الفهم وحب الظلم [1]. ، وهكذا أصبح كل أحد فى دمشق يخشى على حياته من تصرفات إسماعيل بن بوري، ولم يسلم من ذلك أهل إسماعيل أنفسهم، إذ قتل أخاه سونج أشنع ، قتلة بالجوع فى بيت، وبالغ فى الأفعال القبيحة والظلم، ولم يقف عند حد [2]. ، وكان أن دبرت المؤامرات ضد إسماعيل من جميع من حوله، حتى بات يخشى على نفسه من أشد المقربين إليه، فأرسل إلى زنكى يستعين به، ويعرض عليه استلام دمشق ،ليمكنه من الانتقام من كل من يكره من المقدمين والأمراء والأعيان باهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم. ، ثم إن إسماعيل هدد زنكي بتسليم دمشق للصليبيين وقال له ،إن أهملت المجيء سلمت المدينة إلى الفرنج [3]. ،

وقد وجد زنكى فى ذلك العرض فرصته التى طالما تمناها لتوحيد الشام الإسلامية، فأسرع من الموصل لإستلام دمشق. على أنه في الوقت الذى أخذ زنكى يشق طريقه إلى دمشق، تبدلت الأحوال فجأة، إذ قتل إسماعيل بن بورى فى مؤامرة دبرتها أمه - صفوة الملك زمرد - فى أول فبراير سنة ١١٣٥، وتولى حكم دمشق أخوه شهاب الدين محمود بن بورى الذى التف حوله أهل دمشق ضد مطامع زنكى والصليبيين جميعاً. ولما راسل زنكى أهل دمشق ، لم يجيبوه إلى مطلوبه، وردوا عليه رداً خشناً يتضمن أن الكلمة قد اتفقت علي حفظ الدولة والذب عنها ، [4]. وهكذا فشلت جميع الجهود التى بذلها زنكى أمام دمشق لضم المدينة، وتزعم حركة المقاومة ضده أحد مماليك طغتكين واسمه معين الدين أنر، فاضطر زنكى إلى عقد الصلح مع الدماشقة فى منتصف مارس سنة ١١٣٥ والعودة إلى حلب، لاسيما بعد أن أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسي يأمره ، بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولى أمره والتدبير له ، وهكذا ظلت دمشق أمداً طويلا تمثل عقبة كؤوداً فى سبيل اتمام الجبهة الإسلامية ببلاد الشام نتيجة لسياسة حكامها المتقلبة [5].

على أن تحول مجري الأمور في العراق لم يلبث أن أدى إلى تعويض زنكى عما فاته فى دمشق. ذلك أن صحوة الخلافة العباسية على أيام المسترشد (١١١٨

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٥.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤١ - ٢٤٢.
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٥٧.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٥٧
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ - ٢٤٧.
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٨،
ابن الاثير ، الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.

- ١١٣٥) لم تدم طويلا، ولا سيما بعد أن هدأت الأمور في الدولة السلجوقية، ونجح السلطان مسعود بن محمد (١١٣٣ - ١١٥٢) فى التغلب على منافسيه والفوز بالسلطنة (١) . وقد حاول الخليفة المسترشد بالله منازلة السلطان الجديد ولكن الأمر انتهى بهزيمته ونفيه، ثم قتله بأيدى الباطنية فى نهاية أغسطس سنة ١١٣٥ ، حيث مثلوا بحثته تمثيلا شديداً (٢) . ولم يجد بعض خلفاء المسترشد، أعني الخليفة الراشد (١١٣٥ - ١١٣٦) والخليفة المقتفى (١١٣٦ - ١١٦٠) ، بدأ من الاستعانة بزنكى على خلاف السلطان مسعود ، مما قوى نفوذه فى شئون الخلافة العباسية ببغداد (٣) .

ولم يكد زنكى يطمئن إلى جبهة العراق، ويحصل على تأييد الخليفة المقتفى العباسي والسلطان مسعود السلجوقي، حتى انصرف إلى ميدان الشام من جديد (٤) . وكان أن بدأ زنكى فى ربيع ١١٣٥ بتوجيه هجماته ضد المراكز الصليبية شرقى نهر العاصي، ونجح فى تلك السنة فى الاستيلاء علي الأثارب وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب (٥) . ثم إن زنكى حرص على إعادة أهالى تلك المدن من المسلمين إلى بلادهم ورد إليهم أملاكهم ودورهم. وبعد ذلك قام زنكى باغارات متفرقة فى السنة نفسها على مناطق شيزر وحمص وقنسرين، حتى عاد إلى الموصل فى خريف سنة ١١٣٥ (٦) .

وبينما زنكى فى الموصل مشغولا مرة أخرى بالخلافات بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية (٧) ، إذا بنائبه في حلب - سيف الدين سوار - ينتهز فرصة الاضطراب الذى كانت تعاينه إمارة أنطاكية عندئذ ويغزو أراضيها فى

---

(١) النويري نهاية الأرب ، ج ٢٧ ص ٣٣ وما بعدها.
(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٠.
(٣) ابو الفداء المختصر، حوادث سنة ٥٣٠ هـ.
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٦٧ - ٧١ .
ويروي ابن واصل أنه عندما صلحت الأمور بين زنكي والخليفة المقتفي لأمر الله، أمر الأخير باقطاع عماد الدين زنكي بعض نواحي من أملاك الخليفة الخاصة، كما أمر بأن يزاد في القابه وهذه قاعدة لم يسمح لأحد بها من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب في خاص الخليفة (مفرج الكروب ج١ ص ٦٩ - ٧٠) .
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٥٩ .
وقد سبق أن أشرنا إلي أن ابن العديم هو الذي قال أن عماد الدين زنكي استولي علي الأثارب في تلك السنة في حين قال ابن الأثير - وأخذ عنه ابن واصل - إن زنكي استولي علي الاثارب قبل ذلك بخمس سنوات أي سنة ١١٣٠ .
(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣٠ هـ.
(٧) ابن العديم زبدة الحلب ج٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

أبريل سنة ١١٣٦ حتى وصل إلى اللاذقية (١). وتروى المصادر أن سوار أغار فى تلك الغزوة على مائة قرية صليبية، وعاد ومعه ما يزيد على سبعة آلاف أسير ما بين رجل وإمراة وصبى وصبية، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير ... (٢).

ولم يتعرض الصليبيون لهجمات الحلبيين وحدهم فى ذلك الدور، بل قام الدماشقة أيضا بحملة كبيرة على إمارة طرابلس سنة ١١٣٧ . وكانت دمشق قد تعرضت لبعض الفتن والاضطرابات، ظهرت خلالها شخصية أحد المماليك واسمه بزواش (بزواج)، الذى لم يلبث أن توصل الى منصب مقدم العسكر فى دمشق وجعل إليه الحل والعقد(٣). ويبدو أن هذا الأمير أراد أن يمكن لنفسه، ففكر فى القيام بحملة ضد الصليبيين تضفى عليه شيئاً من المهابة والأهمية، وشجعه على ذلك النجاح الذى أصابه سوار عندما غزا إمارة أنطاكية فى العام السابق (٤). لذلك غزا بزواش إمارة طرابلس واجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة ، ومن التركمان أيضا خلق كثير. وعلى مقربة من قلعة صنجيل، دارت المعركة بين الدماشقة وبونز أمير طرابلس، فقتل الأخير فى أواخر مارس سنة ١١٣٧ ، وأسر عدد كبير من أتباعه، فضلا عن الغنائم الوفيرة التي حصل عليها المسلمون (٥). وهكذا ساء موقف الصليبيين في أنطاكية وطرابلس فى الوقت الذى عاد زنكى سنة ١١٣٧ من العراق إلى الشام لاستئناف الجهاد (٦).

على أن زنكى آمن دائماً بأن قيام وحدة بين الإمارات الاسلامية فى الشام يجب ان يسبق أية خطوة عملية ضد الصليبيين. لذلك بدأ زنكى فى يونيه سنة ١١٣٧ بمحاولة جديدة ضد حمص، التى كان يحكمها معين الدين أنر نائباً عن البوريين فى دمشق. وفى ١١ يولية سنة ١١٣٧ علم زنكى أن الصليبيين أتوا لنجدة حمص، فاضطر إلى أن يترك حصارها واتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بعرين (بارين) (٧). وكانت الجيوش الصليبية قد تقدمت لصد زنكى عند بعرين بقيادة

---

(1) Stevenson : The Crusaders, p. 134.

وقد وصف هذا المؤرخ إغارة سوار علي إمارة أنطاكية بانها ليس لها نظير في عنفها في تاريخ تلك الإمارة منذ قيامها.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥ .

(٣) المصدران السابقان (ابن القلانسي ص ٢٥٣ - ٢٥٨).

(4) Stevenson : op. cit., p. 137.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣١ هـ.

Guillaume de Tyr, p. 640.

(6) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 99 &

ابن العديم زبدة الحلب ج٢ ص ٢٦١ .

(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

الملك فولك ملك بيت المقدس والأمير ريموند الثانى أمير طرابلس الجديد. ولم تلبث أن حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين، فقتل منهم أكثر من ألفين وأسر كثيرون، من بينهم ريموند الثانى صاحب طرابلس، وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسرهم ومحقهم قتلا وأسراً، وحصل لهم من الغنائم الشيء الكثير. أما الملك فولك فقد استطاع الفرار إلى قلعة بعرين حيث حاصره زنكى [١]. على أن فولك استطاع أن يرسل طلباً للنجدة السريعة إلى بطرق بيت المقدس وجوسلين الثانى أمير الرها وريموند دى بواتيه أمير أنطاكية [٢]. ويبدو أن زنكى عمل حساباً لتلك النجدة التى بدأت تشق طريقها صوب بعرين [٣]. فلم يمانع فى عقد صلح فى أغسطس سنة ١١٣٧ مع الصليبيين المحاصرين، ينص على أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح الملك وبقية الأسري، كما يستولى المسلمون على بعرين فضلا عن المراكز التى سبق أن استولى عليها زنكى سنة ١١٣٥ شرقى نهر العاصي، وهى زردنا ومعرة النعمان وكفر طاب [٤].

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣١ هـ.

(2) Guillaume de Tyr, pp. 644-645.

(٣) ذكر ابن واصل أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك في بعرين أرسلوا طالبين النجدة من الامبراطور البيزنطي، والغرب الأوربي فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين علي المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم المحامي عنها. وإن همة المسلمين مصروفة الى فتح بيت المقدس فحشدت النصرانية وجمعت وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية (ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٧٣).

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣١ هـ & Guillaume de Tyr. pp. 650 - 651

الفصل الخامس

الإمبراطورية البيزنطية والصليبيون فى الشام

الكسيوس كومنين وامارة أنطاكية :

سبق أن تعرضنا بالبحث للعداوة بين البيزنطيين والصليبيين، وهو ذلك الإتجاه الذي أخذ يشتد منذ وصول الصليبيين إلى أطراف الشام والعراق، ورفضهم التقيد بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطى بتسليمه كافة المدن والبلاد التى كانت فى وقت ما من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، قبل أن يستولى عليها المسلمون. وقد تركز جزء كبير من العداوة بين الطرفين فى العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية [1]. لأن مدينة أنطاكية بالذات كانت لها أهمية خاصة - دينية وحربية وسياسية - فى نظر الدولة البيزنطية، فضلا عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية فى الشام تطرفاً جهة الشمال، مما جعل الحدود مباشرة بينها وبين البيزنطيين فى قيليقية. فاذا أضفنا إلى ذلك كله الموقف المتشدد الذى وقفه بوهيموند الأول وتنكرد فى أنطاكية من الإمبراطور ألكسيوس كومنين، أدركنا السر فى اتساع شقة الخلاف حتي تحول إلى نزاع ظاهر مستحكم بين البيزنطيين من ناحية والنورمان فى أنطاكية من ناحية أخرى [2].

وقد اتخذ ذلك النزاع بين إمارة أنطاكية والبيزنطيين صوراً متعددة وميادين كثيرة سبق أن تعرضنا لها فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب، ولا بأس من أن نجملها هنا في إشارة عابرة سريعة تساعد على ربط حلقات ذلك النزاع بعضها ببعض. فمن ذلك مثلا الخلاف الذي قام بين الطرفين حول اللاذقية، تلك المدينة التى استولى عليها البيزنطيون سنة ١٠٩٩، والتى تتمتع بموقع هام يجعلها عظيمة المكانة لإمارة أنطاكية بالذات [3]. وإذا كان بوهيموند وحلفاؤه البيازنة لم يتمكنوا من الاستيلاء على اللاذقية عندما هاجموها سنة ١٠٩٩ بسبب تدخل

(1) Vasiliev : op. cit., II, pp. 408 - 409.
(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 219.
(3) Albert d'Aix, p. 500 & Raoul de Caen; p; 649.

ريموند دى تولوز، فان النورمان فى أنطاكية لم يهدءوا بعد ذلك إلا عندما استولوا على تلك المدينة سنة ١١٠٢، كما سبق أن شرحنا. وقد حاول الإمبراطور البيزنطى أن يرد على ذلك العدوان بارسال حملة إلي الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى لانتزاع طرسوس وأذنه والمصيصة من النورمان، ولكن الحملة فشلت فى تحقيق غرضها، بل إن جوسلين دى كورتناى صاحب الرها وتل باشر استطاع سنة ١١٠٣ الاستيلاء على مرعش من البيزنطيين (١).

وهكذا لم يستطع الامبراطور ألكسيوس كومنين سوى أن يتحين الفرصة المناسبة للانتقام من الصليبيين. ولم تلبث أن أتيحت هذه الفرصة عندما حلت بالصليبيين كارثة حران سنة ١١٠٤، فأرسل الإمبراطور أسطولا استطاع أن يسترد اللاذقية (٢)، ويستولى على بعض مراكز قرب الشاطيء فيما بين اللاذقية وانطرطوس. هذا فضلا عما قام به الأرمن فى قيليقية من طرد الصليبيين النورمان من طرسوس وأذنه والمصيصة، واستدعاء البيزنطيين ليحلوا محلهم (٣) ولم يستطع بوهيموند إزاء ذلك التهديد من جانب البيزنطيين والأرمن والسلاجقة جميعا سوى الرحيل إلى غرب أوروبا فى أوائل سنجة ١١٠٥، لاستحضار نجدة تمكن إمارته من الصمود فى وجه الأخطار المحدقة بها . وهناك فى الغرب لم يكتف بوهيموند باستثارة الرأى العام ضد الإمبراطور البيزنطى ودولته، وإظهارهما فى صورة القوة المعادية للصليبين، الممالئة للمسلمين، وإنما عبر بوهيموند عن شعوده العدائى ضد البيزنطيين عملياً، فقام بحملته علي الدولة البيزنطية سنة ١١٠٧، وهاجم مدينة دورازو، مما يعتبر مقدمة لما حدث بعد ذلك بأقل من قرن من اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية نفسها (٤).

وإذا كان بوهيموند قد فشل أمام البيزنطيين، واضطر إلى مصالحتهم كما سبق أن ذكرنا، فان تنكرد – خليفة بوهيموند فى أنطاكية – لم يرتبط بذلك الصلح، وإنما واصل سياسته العدوانية ضد الدولة البيزنطية، واستطاع أن يسترد اللاذقية من البيزنطيين سنة ١١٠٨ بمساعدة البيازنة (٥). ويهمنا من هذه الأحداث أن الإمبراطور البيزنطى فى صراعه ضد النورمان الصليبيين، لم يحجم عن الاستعانة بالاتراك السلاجقة، فاستنجد بسلطان قونية قلج أرسلان عندما هدد

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 323.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.

عن موقعة حران سنة ١١٠٤ انظر ما سبق الفصل الثالث من الباب السابع.

(3) Raoul de Caen, pp. 271 - 272.

(4) Setton : op. cit., l, pp. 391 - 392.

(5) Stevenson : op. cit., p. 82.

بوهيموند دورازو سنة ١١٠٧، وأرسل السلطان السلجوقى فرقة كبيرة من فرسانه لمساعدته، مما جعل الغرب الأوربى يميل إلى تصديق التهم الموجهة ضد الدولة البيزنطية، ويعتقد أن هذه الدولة ترتكب فعلا خيانة كبرى فى حق المسيحية والقضية الصليبية (١).

والواقع أن الغرب الأوربى لم يكن مبالغاً عندئذ فى سوء الظن بالامبراطورية البيزنطية، إذ تشهد المصادر المعاصرة على وجود ثمة اتصالات مريبة بين البيزنطيين والمسلمين، هدفها استثارة السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ضد الصليبيين بالشام. من ذلك ما يؤكده ابن الأثير مرة أخرى من مجيء سفارة من قبل الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين إلى السلطان محمد السلجوقى سنة ١١١١ تعرض عليه عقد تحالف بين الطرفين لمحاربة الصليبيين وطردهم من الشام (٢). ولعل فى هذه الشواهد ما يثبت تآمر البيزنطيين فعلا ضد الصليبيين فى الشام بوجه خاص، وأنهم كانوا يفضلون عودة الشام إلى أيدى السلاجقة المسلمين عن بقائها فى ايدى الصليبيين. ويبدو أن عداوة ألكسيوس كومنين للصليبيين عندئذ أنسته ما صادفته دولته من قبل على أيدى السلاجقة، مما جعله يستغيث بالغرب الأوربى ضد المسلمين حتي سنة ١٠٩٥ (٣).

الامبراطور حنا كومنين والاتراك :

وفى عهد الإمبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين (١١١٨ - ١١٤٣) دخلت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية من جهة وكل من الصليبيين والمسلمين من جهة أخرى دوراً جديداً. ذلك أن حنا كومنين - الذى تولى العرش بعد أبيه ألكسيوس كومنين مباشرة - كان محارباً قديراً، قضى معظم سنوات حكمه على رأس جيوشه لتحقيق الأهداف التي وضعها لنفسه، وهي إعادة الحدود الآسيوية للامبراطورية إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي، وطرد سلاجقة الروم من آسيا الصغرى واسترداد قيليقية من الارمن، فضلا عن اجبار الصليبيين فى أنطاكية على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية (٤).

وكان أن بدأ الإمبراطور حنا كومنين بمحاربة الأتراك فى الأناضول

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ. & Albert d'Aix, p. 651
ويقول ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٠ هـ : في هذه السنه كانت وحشة مستحكمة بين ملك الروم صاحب القسطنطينية وبين بيموند الفرنجي ... فأرسل ملك الروم إلى الملك قلج أرسلان صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك البلاد يستنجده، فأمده بجمع كثير من العسكر فقوي بهم ...

(٢) ابن الاثير : الكامل، حوادث ٥٠٤ هـ.

(3) Grousset : op. cit., I, p. 462.

(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 335.

للاستفادة من الشقاق الذى دب بين سلاجقة الروم وأمراء بنى دانشمند التركمان فى سيواس، وهو الشقاق الذى اتسعت فجوته عندما استولى سلاجقة الروم على مدينة ملطية التابعة لبنى دانشمند. على أن هذا الشقاق لم يمنع من اتحاد سلطان قونية السلجوقى مسعود مع الأمير التركمانى غازى بن دانشمند سنة ١١١٩ لمهاجمة حاكم طرابيزون البيزنطي. وكان ذلك فى السنة نفسها - ١١١٩ - عندما بدأ الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين هجومه علي سلاجقة الروم فى الأناضول. وبعد أن استرد منهم الإمبراطور بضعة مواقع، اضطر إلي العودة إلى البلقان [١].

والى جانب الخلاف بين سلاجقة قونية وبنى دانشمند، نشب خلاف داخلى بين أمراء السلاجقة داخل سلطنة قونية حوالى سنة ١١٢٦ عندما ثار عرب على أخيه السلطان مسعود، واضطر الأخير إلى الإلتجاء الى بلاط القسطنطينية حتى تمكن بمساعدة البيزنطيين من استرداد عرشه ؛ وعندئذ لجأ عرب بدوره إلى الأرمن فى قيليقية ثم إلى الامبراطور البيزنطى فى القسطنطينية [٢]. وهكذا أدى الشقاق الداخلى فى سلطنة سلاجقة الروم إلى إضعاف تلك السلطنة ووقوف الإمبراطورية البيزنطية من أمرائها موقف الحكم والمعين، فى حين ظل التركمان من بنى دانشمند فى كابادوقيا محتفظين بقوتهم ويمثلون خطراً على الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى [٣].

لذلك اختار الإمبراطور حنا كومنين أن يوجه فى تلك المرة جهوده ضد أولئك التركمان، فقاد حملة ضدهم علي شاطيء البحر الأسود للإستيلاء على مدينة قسطمونى سنة ١١٣٠ - ١١٣٢ [٤]. ولم يلبث بعض الأمراء المحليين أن اعترفوا بولائهم للإمبراطور البيزنطي، مثل ألب أرسلان أمير كنغرى وطغرل أمير أماسيا. ثم إن هذه لم تكن آخر حملات حنا كومنين ضد بنى دانشمند، إذ لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى عندما استولوا على قسطمونى فإستردها منهم سنة ١١٣٤، كما استولى على كنغرى [٥]. وبذلك يكون الامبراطور حنا كومنين قد استرد للامبراطورية البيزنطية الشاطيء الجنوبى للبحر الأسود إلى ما بعد طرابيزون شرقاً.

وكانت الخطوة التالية أمام حنا كومنين هى استرداد إقليم قيليقية فى الجنوب الشرقى لآسيا الصغرى من الأرمن، تمهيداً لاسترداد أنطاكية من الصليبيين. وقد

(1) Vasiliev : op. cit., ll, pp. 415 - 416.
(2) Michel Le Syrien, pp. 219 - 224.
(3) Grousset : op. cit., ll, p. 84.
(4) Brehier : op. cit., p. 323.
(5) Grousset : Hist. des Croisades ll, p. 85.

حشد الإمبراطور لذلك الغرض حملة كبيرة ضمت صفوة جنوده وفرسانه، سار على رأسها مخترقاً آسيا الصغرى حتى وصل إلى مرسين سنة ١١٣٧، ثم استولى في غير صعوبة على المدن الرئيسية الثلاث في سهول قيليقية، وهى طرسوس وأذنه والمصيصة. وبعد ذلك اتجه الإمبراطور نحو الشمال حيث استولى في يولية سنة ١١٣٧ على عين زربة بعد حصار عنيف، ثم على بعض الحصون الأخرى المجاورة مثل تل حمدون (١). أما الأمير الأرمنى ليون الأول (ابن لاوون) فقد استمر يقاوم البيزنطيين عدة أشهر حتى سقط أخيرا فى يد الإمبراطور البيزنطى سنة ١١٣٧، وأرسل وأسرته أسرى إلى القسطنطينية (٢). ولم يلبث أن استولى حنا كومنين بعد ذلك على الاسكندرونة وحصنها وعمر ميناءها، وبذلك دخل أراضى إمارة أنطاكية (٣).

حنا كومنين وأنطاكية :

كانت دولة الأرمن التى قامت فى قيليقية فى الربع الأول من القرن الثانى عشر بمثابة حاجز بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية. ولكن انهيار هذا الحاجز على يد الإمبراطور حنا كومنين، جعل الحدود مباشرة بين البيزنطيين والنورمان فى أنطاكية، وبالتالى فان الخطوة التالية أمام الامبراطور البيزنطى بعد استرداده قيليقية ووصوله إلى مشارف الشام، صارت المطالبة من جديد بأنطاكية (٤).

والواقع أن الامبراطور حنا كومنين كان قد حاول من قبل حل مشكلة أنطاكية حلا سليماً، فأرسل فى السنة التالية لإعتلائه عرش الإمبراطورية (سنة ١١١٩) مبعوثاً إلى روجر دى سالرنو أمير أنطاكية عندئذ، يقترح عليه زواج ابنة روجر من أمير من أسرة كومنين، على أمل أن يؤدى هذا الحل - ولو مع مضى الزمن - إلى عودة أنطاكية إلى حظيرة الإمبراطورية. ويبدو أن روجر كان لا يعارض هذا الرأي، ولكن حدث قبل أن يبت فيه برأى حاسم أن خر قتيلا فى موقعة البلاط سنة ١١١٩، ومن ثم قام بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بالوصاية على إمارته ليتخذ موقفا عدائيا حازما تجاه الدولة البيزنطية.

على أن فشل ذلك المشروع لم يمنع حنا كومنين من محاولة إعادة الكرة، وذلك حوالى سنة ١١٣٦ عقب وفاة بوهيموند الثانى أمير أنطاكية ومحاولة أرملته

(1) Chalandon : Comnenes, II, pp. 115 - 116.

(2) Iorga : L'Armenie Cilicienne, p. 94.

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣١ هـ.

(4) Setton : op. cit., p. 439.

أليس السيطرة على أنطاكية (١) . ذلك أن الأميرة أليس لم تكتف بطلب المساعدة من زنكى وإنما لجأت - كما سبق أن أشرنا - إلى الإمبراطور حنا كومنين فعرضت عليه زواج ابنه وولى عهده مانويل كومنين من ابنتها كونستانس، الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية (٢). وقد عقدت اتفاقية سرية فعلا بخصوص ذلك الشأن بين أليس وبلاط القسطنطينية، ولكن مجيء ريمون دى بواتيه وزواجه من الأميرة كونستانس سنة ١١٣٦، قطع الأمل نهائياً فى تنفيذها. وبذلك لم يبق أمام الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين سوى استخدام القوة لحل المسألة الأنطاكية، فخرج على رأس جيوشه فى يوليو سنة ١١٣٧ قاصداً أنطاكية (٣).

ولم يكن لدى ريموند دى بواتيه - أمير أنطاكية عندئذ - من القوة ما يمكنه من الصمود فى وجه الجيوش البيزنطية الضخمة، فأرسل يستنجد بفولك ملك بيت المقدس وبقية أمراء الصليبيين. ولكن شاء سوء حظ الصليبيين أن تتعرض إمارة طرابلس فى ذلك الوقت - كما سبق أن أشرنا - لهجوم زنكى مما جعل الملك فولك يتجه أولا لنجدة قلعة بعرين، على أن يذهب إلى أنطاكية بعد ذلك. ولم يدر فولك عندئذ أنه سيبتلى بالهزيمة وحصار المسلمين له فى بعرين. وكان أن انقلب الوضع فاستنجد الملك فولك بأمير أنطاكية ريموند دى بواتيه ليفك حصاره، وعندئذ أسرع ريموند إلى بعرين دون أن يبالى بالبيزنطيين الذين صاروا على مشارف مدينة أنطاكية نفسها (٤) . وعندما عاد ريموند دى بواتيه إلى أنطاكية فى أواخر أغسطس سنة ١١٣٧، كان حنا كومنين قد بدأ فعلا حصار المدينة وضيق على أهلها، ومع ذلك فقد استطاع ريموند دخول مدينته للدفاع عنها (٥).

وسرعان ما اكتشف حنا كومنين أن اقتحام أنطاكية والاستيلاء عليها بالقوة ليس بالمهمة السهلة. هذا فضلا عن أن الإمبراطور خشى تحطيم قوة الصليبيين فى الوقت الذى كان زنكى يعمل فى نشاط ضد الصليبيين والبيزنطيين جميعاً. لذلك لم تلبث أن تغلبت روح الاعتدال على ريموند وحنا جميعاً، فدخل الطرفان فى مفاوضات انتهت بعقد إتفاقية وافق فيها مندوبو ريموند على الاعتراف بسيادة الامبراطورية على أنطاكية، على أن يحكمها الصليبيون نيابة عن الإمبراطور (٦). وكان أن قدم ريموند دى بواتيه ولاءه وأعلن تبعيته للإمبراطور البيزنطي، وذلك

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثالث من الباب التاسع.

(2) Chalandon : Comnenes, II, p. 122.

(3) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 324.

(4) Guillaume de Tyr, p. 646.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣١ هـ.
ابن القلانسي، ص ٢٦٣.

(6) Vasiliev : op. cit., II, p. 416.

بعد موافقة الملك فولك الذى رأى هو الآخر أنه من الأفضل كسب ود البيزنطيين ومعونتهم ضد المسلمين، وبخاصة زنكى [١].

وبعد عقد الاتفاقية السابقة، أقسم ريموند يمين الولاء للإمبراطور، الذى لم يتشدد بدوره فى ضرورة دخول أنطاكية، واكتفى برفع العلم الإمبراطورى فوق قلعة المدينة [٢].

ولم يلبث أن أدى تفاهم الصليبيين والبيزنطيين بصدد أنطاكية سنة ١١٣٧ إلى تحالف الفريقين ضد المسلمين، فتم الاتفاق على تنفيذ مشروع حملة صليبية كبرى فى الربيع التالي، يشترك فيها البيزنطيون والفرنجة ضد المسلمين فى الشام. وقد تحددت أهداف تلك الحملة فى تحطيم قوة زنكى فى حلب، وإمارة بنى منقذ في شيزر، وانتزاع حمص من أتابكه دمشق، ثم إقامة إمارة صليبية جديدة من الأجزاء السابقة تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام، بما فيها حلب وشيزر وحماة وحمص. وكذلك تم الاتفاق على أن يكون ريموند دى بواتيه أميراً على تلك الإمارة الجديدة، ويترك إقليم أنطاكية للامبراطور البيزنطى [٣].

حنا كومنين ومحاربة المسلمين :

وفى فبراير من العام التالى – سنة ١١٣٨ – نفذت تعليمات الإمبراطور، فألقى القبض فى أنطاكية فجأة على جميع التجار والرعايا المسلمين الوافدين من حلب والمناطق المجاورة، حتى لا تتسرب أخبار الاستعدادات الصليبية [٤]. ثم كان أن وصل الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين إلى أنطاكية فى أواخر مارس سنة ١٣٣٨، حيث انضمت إليه القوات الصليبية التابعة لأنطاكية والرها، ثم زحف الجميع على حلب فى أبريل سنة ١١٣٨ وفي الطريق استولى المسيحيون على حصن بزاعة (بزاعا) بين حلب ومنبج [٥].

ولا شك فى أن الوقت الذى أضاعه المسيحيون فى الإستيلاء على بزاعة سبب لهم خسارة كبيرة، لأنه أفقد حركتهم عنصر المفاجأة والمباغتة، وأتاح للمسلمين – وزنكى بوجه خاص – فرصة طيبة للإستعداد، فتحرر الناس وتحفظوا وكاتبوا أتابك زنكى بذلك [٦]. وكان زنكى عندئذ على رأس جيشه عند حمص يعمل لطرد الدماشقة منها، وعندما علم بحملة الصليبيين أرسل بعض قواته تحت

(1) Setron : op. cit., I, p 439.
(2) Brehier : op. cit., p. 324.
(3) Guillaume de Tyr, I, p. 652.
(4) Runciman : op. cit., II, p. 215.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٦٥.
(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٦٤ – ٢٦٥.

قيادة الأمير سيف الدين سوار لتقوية حلب والدفاع عنها. وهكذا ضاعت على الإمبراطور البيزنطى فرصة أخذ حلب على غرة، فلم ينتبه إلى غلطته إلا بعد فوات الأوان. وأخيراً أدرك الإمبراطور أن سياسة التباطؤ أتاحت لحلب فرصة الحصول على إمدادات قوية من زنكي، وأنه لا فائدة بعد ذلك من حصارها، فانصرف عنها بعد أن أقام عليها ثلاثة أيام، واتجه إلى الأثارب التى هرب من بها من المسلمين بعد أن أشعلوا فيها النار، فاستولى عليها المسيحيون فى ٢١ أبريل سنة ١١٣٨ (١).

وبعد أن حبس الامبراطور أسرى بزاعة فى قلعة الأثارب، اتجه على رأس الجيوش المسيحية صوب معرة النعمان، ولكن دون أن يترك حامية كافية فى الأثارب، مما مكن بعض أسرى المسلمين من الفرار إلى حلب حيث أخبروا الأمير سوار نائب زنكى بضعف الحامية المسيحية فى الأثارب. وهكذا استطاع سوار أن يغير بدوره على الأثارب، ويطلق سراح بقية أسرى المسلمين فسر أهل حلب بهذه النوبة سروراً عظيما (٢).

أما الجيوش المسيحية فقد واصلت زحفها، فاستولت فى ٢٧ أبريل على كفر طاب التى كان زنكى قد أخذها من الصليبيين سنة ١١٢٥، ثم اتجه الإمبراطور حنا كومنين بعد ذلك على رأس الجيوش المسيحية المتحالفة إلى شيزر ، القلعة الإسلامية الكبرى التى تسيطر على أواسط حوض نهر العاصي. وقد أخذ المسيحيون يهاجمون شيزر فى عنف منذ ٢٩ أبريل سنة ١١٣٨، فاستنجد صاحبها - أبو العساكر سلطان على بن منقذ - بزنكي. وكان أن أتى زنكى مسرعاً لنجدة شيزر، فنصب معسكرة على ضفة نهر العاصى بينها وبين حماة (٣). ولم يشأ زنكى أن يغامر بشن هجوم عام على المسيحيين بسبب تفوقهم العددي. فاكتفى بالخروج كل يوم هو وعسكره ويسيرون إلى شيزر ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم (٤). وفى الوقت نفسه تبدو عبقرية زنكى فى تلك المرحلة فى أنه استغل مباديء علم النفس الحربى أتم استغلال، فعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين، وأخذ يرسل إلى الإمبراطور البيزنطى يقول :

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج١ ص ٧٨.
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ - ٢٦٦.
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٧٨.
وجدير بالذكر أن الروم في تلك الغزوة أمعنوا فى مطاردة المسلمين الفارين من وجوههم. من ذلك أنهم استخدموا الدخان في تدخين الكهوف لاجبار أولئك الذين فروا إليها واختبئوا فيها علي الظهور والخروج (ابن القلانسي ، ص ٢٦٥).
(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣٢ هـ.

« إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال، فأنزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فان ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم، وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها، وهنا يعترف النويرى أن زنكى لم تكن له بهم قوة، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه (١).

وفى تلك الأثناء أيضاً أرسل زنكى القاضى كمال الدين الشهرزورى إلى السلطان مسعود السلجوقي، فتقاعس السلطان فى أول الأمر، وأظهر قلة اهتمام. ولكن ثورة الأهالى فى بغداد ورغبتهم فى الجهاد، واستغاثتهم وقت الصلاة يوم الجمعة « وا إسلاماه .. وادين محمداه » أخافت السلطان فأمر باعداد حملة سريعة، كما تعهد الأمير الأرتقى داود بارسال حملة من الجزيرة من خمسين ألف من التركمان (٢).

وفى انتظار وصول تلك المساعدات، لجأ زنكى إلى العمل على تفرقة صفوف المسيحيين، وإثارة النفور بين البيزنطيين والصليبيين، فكان يرسل إلى ملك الروم، يوهمه أن فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام بخوفهم من ملك الروم ويقول لهم أن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعها، فاستشعر كل من صاحبه .. » (٣). وسرعان ما أفلحت سياسة زنكى وآتت أكلها، فلم يلبث أمير الرها وأنطاكية أن غيرا سياستهما وأحجما عن مشاركة الإمبراطور فى مهاجمة شيزر، ووقفت قواتهما من الجيوش البيزنطية المحاربة موقف المتفرج (٤).

ويلاحظ أن ريموند بالذات أخذ يعمل حساباً لنجاح خطة الصليبيين وما يترتب على ذلك النجاح من إعطائه حلب وشيزر تنفيذاً للاتفاقية بين الصليبيين والإمبراطور البيزنطي، مما يجعله فى موقع متطرف علي خط النار أمام المسلمين، بعيداً عن أنطاكية وموقعها، فى حين كره جوسلين الثانى أن يرى ريموند قريباً منه فى حلب (٥). وهكذا أدى عدم توافر حسن النية بين الصليبيين بعضهم وبعض من جهة وبينهم وبين البيزنطيين من جهة أخرى إلى فشل الحملة المشتركة، إذ قبل الإمبراطور حنا كومنين العروض التى عرضها عليه أبو العساكر

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٢٦ (تحقيق المؤلف).
ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٨١، وكذلك ابن الاثير : الكامل سنة ٥٣٢ هـ.
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣٢ هـ.
ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٧٩ – ٨٠.
(٣) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧ ص ١٣٦ (تحقيق المؤلف).
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ.

(4)Guillaume de Tyr, p. 644 - 645.
(5) Runciman : op. cit., II, p. 216.

سلطان صاحب شيزر، والتى تضمنت دفع مبلغ كبير من المال وجزية سنوية رمزاً للتبعية للأمبراطور البيزنطي، فضلا عن الهدايا والخيول والمنسوجات الثمينة (١). ولم ينته شهر مايو سنة ١١٣٨ إلا وكانت الجيوش البيزنطية قد انسحبت تماما من أمام شيزر متجهة إلى أنطاكية عن طريق فامية (٢).

تفكك الحلف الصليبى البيزنطى :

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى أن يغفر للصليبيين موقفهم منه أمام شيزر، فرد على ذلك الموقف رداً عملياً بأن دخل أنطاكية، ومن حوله جنوده، دخول السيد صاحب الحق الشرعى فى ملكية المدينة. ثم استدعى أمامه ريموند دى بواتيه وجوسلين الثانى ووبخهما على موقفهما وتقاعسهما عن الحرب، وطالبهما بتسليم قلعة أنطاكية (٣). وكان أن ساء موقف ريموند ووجد نفسه فى قبضة الإمبراطور البيزنطى الذى سيطرت جيوشه على المدينة. ولكن زميله جوسلين الثانى أمير الرها أنقذ الموقف، فاتصل سراً بفرسان أنطاكية، ومن بها وحولها من الفرنجة ، وآثار نفوسهم ضد البيزنطيين الأرثوذكس، وخوفهم من نوايا الإمبراطور البيزنطى واتجاهاته ضد الصليبيين (٤). ولم تلبث أن شبت ثورة عارمة فى أنطاكية ضد حنا كومنين ورجاله، فتجمع الناس فى الطرقات واعتدوا على الجيش البيزنطى الذى أخذ على غرة. ولم يستطع الإمبراطور عندئذ سوى أن يغلق على نفسه أبواب قصره ليحمى نفسه من غضب الجماهير الثائرة، فى الوقت الذى سمع بأن سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى غزوا قيليقية وأغاروا على أذنه – بايحاء من زنكى – الأمر الذى جعل الإمبراطور ينسحب من أنطاكية عائداً إلى القسطنطينية بعد أيام (٥).

ولا يخفى علينا أن تلك النهاية الفاشلة التى آل إليها أمر الحملة الصليبية – البيزنطية الفرنجية – سنة ١١٣٨، كان لها أثرها بالنسبة للموقف بين المسلمين والصليبيين فى الشام من ناحية وفى تقوية جبهة المسلمين من ناحية أخرى (٦). ذلك أن الخلاف الذى دب بين البيزنطيين والفرنجة أمام شيزر، وما تبع ذلك من انسحاب الصليبيين، جعل زنكى يشعر بأنه فى غير حاجة إلى المساعدة التى وعده بها سلطان السلاجقة. والمعروف أن عماد الدين زنكى كان – كما وصفه

(1) Setton : op. cit., I, p. 440.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣٢،
ابن القلانسي ، ص ٢٦٦ ، أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١١٣ – ١١٤ .

(3) Guillaume de Tyr, p. 658.

(4) Brehier : op. cit., p. 324.

(5) Guillaume de Tyr, pp. 662 - 665.

(6) Grousset : Hist. des Croisades, II, pp. 121 - 122.

ابن واصل - عنده من الدهاء والمكر شيء كثير (١) . فأدرك بسرعة أن مصالحه بالشام تتعارض ومجيء حملة كبرى من قبل السلطان السلجوقى يقوى بها نفوذ السلطان - على حساب زنكى نفسه بالشام. لذلك أرسل زنكى على الفور يلغى طلبه السابق ويعلن عدم حاجته إلى مساعدة السلطان، بسبب رحيل ملك الروم(٢) .

ولم يكد الصليبيون ينسحبون من إقليم شيزر حتى أرسل زنكى قواته فاستولت على كفر طاب (حوالى ٢١ مايو سنة ١١٣٨) وفى شهر سبتمبر من العام نفسه استولى زنكى على حصن بزاعة (٣) ، ثم على الأثارب فى أوائل شهر أكتوبر، وبذلك ضاعت جميع المكاسب التى حققتها الحملة البيزنطية الفرنجية (٤) .

تجدد العداء بين حنا كومنين والصليبيين :

على أن الإمبراطور حنا كومنين لم يلبث أن عاد إلى الشام عن طريق قيليقية، ومعه جيش كبير سنة ١١٤٢ ليستولى على أنطاكية استيلاء فعلياً . وعند وصوله فى أواخر سبتمبر إلى قلعة بغراس - وهى قلعة كانت بيد الداوية تسيطر على الطريق بين قيليقية وأنطاكية - أرسل انذاراً نهائيا الى ريموند بواتيه بتسليمه أنطاكية فوراً (٥). وكان هذا الانذار ضربة قاسية لأمير أنطاكية، لاسيما فى الوقت الذى لم تفتأ جيوش المسلمين تغير على إمارته (٦) . لذلك استشار ريموند فرسانه فى أنطاكية، فأجمعوا على رفض الإنذار وعدم تسليم أنطاكية للأمبراطور البيزنطى (٧) . وكان أن أقبل الشتاء ببرده، وصار الوقت غير مناسب للقيام بعمل حربى كبير، فاكتفى الإمبراطور بالإغارة على الأقاليم والقرى المجاورة لأنطاكية، ثم عاد ليقضى فترة الشتاء فى قيليقية قرب المصيصة.

وفى فترة الانتظار هذه، أخذ حنا كومنين يعيد النظر فى موقفه من الصليبيين وموقف الصليبيين منه، وانتهى تفكيره إلى أن حقوق الإمبراطورية البيزنطية فى بلاد الشام ثابتة لها سندها التاريخي، فضلا عن اعتراف الصليبيين أنفسهم بها فى المعاهدات والاتفاقات التى عقدوها مع الإمبراطورية سنة ١٠٩٧ ، ١١٠٨، ١١٣٧ ثم إن الإمبراطورية البيزنطية ليس لها الحق فى السيادة على أنطاكية وحدها، بل على بيت المقدس أيضا (٨) . لذلك فكر الإمبراطور فى إثبات

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ٩١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣٢ هـ.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٦٩ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٨٣ .
(5) Guillaume de Tyr, p. 689.
(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .
(7) Guillaume de Tyr, pp. 690 - 691.
(8) Vasiliev : op. cit., II, p. 416.

سيادته على بيت المقدس، فأرسل إلى الملك فولك مبعوثاً يخبره بأن الإمبراطور سيأتى على رأس جيوشه للحج (١). ولكن فولك رد على الإمبراطور البيزنطى رداً لبقاً أنكر فيه أى حق للإمبراطور البيزنطى فى بيت المقدس. وقال إن الأحوال الاقتصادية فى المملكة لا تسمح بايواء جيش الامبراطور الضخم، وأنه إذا كان هناك ضرورة لحج الإمبراطور فليأت على رأس عشرة آلاف فقط من رجاله (٢). ولم يعجب ذلك الرد الإمبراطور حنا كومنين، فأخذ يستعد للقيام بحملة كبيرة شاملة على الشام عندما توفى فجأة فى قيليقية فى ٨ أبريل سنة ١١٤٢، وبذلك تخلص الصليبيون بالشام من خطر جاثم (٣).

على أنه يلاحظ أن العداوة بين البيزنطيين والصليبيين لم تنته بوفاه حنا كومنين، وإنما استمرت طالما قامت للصليبيين قائمة فى الشام. من ذلك أن ريموند أمير أنطاكية أسرع إلى إرسال جيش إلى قيليقية عند سماعه بوفاة حنا كومنين، للاستيلاء على المراكز البيزنطية هناك. ولكن الإمبراطور البيزنطى الجديد - مانويل كومنين أرسل جيشاً وأسطولا لطرد الصليبيين من قيليقية. ثم هاجم أنطاكية نفسها وأنزل الهزيمة بريموند (٤).

وهكذا ساءت العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، مما حال دون اشتراك الطرفين فى عمل سريع ضد زنكي. هذا وإن كان سقوط الرها في يد زنكى سنة ١١٤٤، واستفحال قوة الأخير فى شمال الشام، جعل ريموند دى بواتيه يؤمن بأنه من المتعذر الاحتفاظ بأنطاكية فى وجه ذلك الخطر الجديد دون محالفة البيزنطيين ومساعدتهم. لذلك ذهب ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية إلى القسطنطينية سنة ١١٤٥، ليطلب مساعدة الإمبراطور البيزنطي، وهناك أعلن توبته وندمه عما بدر منه من قبل، وزار قبر الإمبراطور الراحل حنا كومنين ليترحم عليه ويشيد بمحاسنه ! وبعد أن أعلن ريموند ولاءه للامبراطورية البيزنطية وتبعيته للامبراطور القائم ما نويل كومنين، عفا مانويل عنه ووعد بمساعدته ضد زنكى (٥).

وليس معنى ذلك أن القلوب صفت وأن العلاقات غدت ودية بين البيزنطيين والصليبيين بالشام، وإنما استمر العداء بين الطرفين يختفى حيناً ويظهر أحياناً، حتى كان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى أوائل القرن الثالث عشر، كما سنرى فيما بعد.

---

(1) Guillaume de Tyr, pp. 691 - 692.
(2) Brehier : op. cit., ll, p. 325.
(3) Runciman, op. cit., ll, p. 224.
(4) Brehier : op. cit., p. 328.
(5) Michel Le Syrien lll, p. 367.

الباب العاشر

بداية النهاية

[أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين].

(التوبة : ١٠٩)

الفصل الأول

التحالف بين الصليبيين وحكام دمشق

زنكي وأتابكية دمشق :

ازادات أهمية عماد الدين زنكى فى نظر المسلمين بعد ثباته أمام البيزنطيين والصليبيين . وهو ذلك الثبات الذى ترتب عليه عودة الإمبراطور البيزنطى فاشلا إلى بلاده سنة ١١٣٨ . وحسبنا أن الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى والسلطان مسعود السلجوقى بادرا بارسال الخلع إلى زنكى فلبس خلعة الخليفة والسلطان وركب بهما بظاهر مدينة حمص يوم عرفة (١).

على أن زنكى ظل يعتقد أن توحيد قوى المسلمين فى الشام هى الخطوة الأولى التى يجب أن تسبق أيه محاولة للقضاء على الكيان الصليبى . لذلك لم تكد تنتهى الحملة ، الصليبية – البيزنطية الفرنجية – حتى أخذ زنكى يوجه جهوده نحو ضم الإمارات الإسلامية المجاورة ، وبخاصة أتابكية دمشق . وقد اتبع زنكى سياسة ماكرة ، فتقدم للزواج من صفوة الملك زمرد خاتون أرملة بورى أتابك دمشق السابق ووالدة شهاب الدين محمود الأتابك القائم بالحكم عندئذ ، واشترط زنكى أن يأخذ حمص لنفسه ، مقابل إتمام تلك الزيجة (٢) . وكان أن تم مشروع ذلك الزواج السياسى فى أوائل يونية سنة ١١٣٨ ؛ وحصل زنكى على حمص ، وعوض حاكمها معين الدين أنر باعطائه عدة حصون صغيرة ، مثل بعرين (بارين) واللكمة والحصن الشرقى .

ولم يلبث زنكى أن اقترب خطوة أخرى من تحقيق أطماعه فى دمشق ، بعد مقتل شهاب الدين محمود بن بورى أتابك دمشق فى أواخر يونية ١١٣٩ بأيدى بعض غلمانه . على أن معين الدين أنر تدخل فى تلك اللحظة ليفسد على زنكى أطماعه ، فقبض أنر على زمام الأمور فى دمشق ، وأعدم القتلة ، ثم أسرع باستدعاء جمال الدين محمد بن بورى أمير بعلبك ليحل محل أخيه القتيل . وكان أن حضر جمال الدين محمد بسرعة ففوض أمر دولته إلى معين الدين أنر ، وزاد

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ص ٨٣ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦٦ .
ابن العديم زبدة الحلب ج٢ ص ٢٦٩ .

فى علو مرتبته وزوجه بأمه (أرملة بورى الثانية) (١). ثم إن أنر لم يشأ أن يبتعد عن مسرح الأحداث فى دمشق ، فأناب عنه فى حكم بعلبك أحد رجاله – مثلما فعل عندما تولى حمص وبعرين – وظل هو فى دمشق يرقب الأحداث عن كثب . وهكذا أدت تلك التطورات إلى ازدياد نفوذ أنر ، حتى أصبح الحاكم الفعلى لدمشق ، مما جعل ابن الأثير بصفة بأنه صار هو الجملة والتفصيل (٢).

على أن الأمور لم تنتظم فى دمشق بسهولة ، إذ كان للأتابك الجديد جمال الدين محمد بن بورى أخ يدعى بهرام شاه ، عز عليه أن يتجاهله أنر بعد مقتل شهاب الدين محمود ، فلجأ إلى حلب ، ومنها إلى الموصل ، طالباً مساعدة زنكى . هذا فى الوقت الذى عز على زمرد خاتون – عروس زنكى – أن يقتل ولدها شهاب الدين ، ويحل محله فى دمشق ابن ضرتها التى تزوجت أنر ، فطلبت هى الأخرى من زنكى أن يتدخل « لطلب الثأر من غير تلوم ولا إغفال» (٣). أما زنكى فقد وجد فى كل ذلك فرصته السانحة للتدخل فى شئون دمشق ، فأتى من الموصل مسرعاً وفى نيته مهاجمة دمشق . ولكنه أدرك أن مهاجمتها ليست بالأمر الهين ، وهى المدينة التى أخلص أهلها لبيت بورى . وعندما علم زنكى بالاستعدادات التى أخذ أنر يجريها فى دمشق غير رأيه واتجه إلى بعلبك – التى كانت مقطعة لأنر – واستولى عليها فى ٢١ أكتوبر سنة ١١٣٩ (٤). ويلاحظ أن زنكى لم يحترم العهد الذى منحه لأهل قلعة بعلبك بعد أن أمنهم ، فعذبهم ، وأمر بصلبهم فصلبوا ، الأمر الذى أضر به ضرراً بالغاً . ذلك أن أهالى المدن الإسلامية القريبة أخذوا يتخوفون من زنكى فقاوموا أطماعه وسياسته . من ذلك مايرويه ابن واصل من أن أهل دمشق عندما سمعوا بما فعله زنكى بأهل بعلبك قالوا «لو ملكنا لفعل بنا كذلك ، فجدوا فى مقاومته (٥).»

وقبل أن يهاجم زنكى مدينة دمشق نفسها ، حاول أن يغرى الأتابك جمال الدين محمد بتسليم المدينة مقابل إعطائه حمص أو بعلبك ، ولكن محمد – ومن ورائه أنر – رفضا ذلك العرض ، مما جعل زنكى يستعد لمهاجمة دمشق . ولم يكد زنكى يحاصر المدينة حتى توفى جمال الدين محمد بن بورى فى ٢٩ مارس سنة

---

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج٢٥ ص٨٧ – ٨٨ (تحقيق المؤلف) .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ .
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٩ .
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ص ٢٧٢ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ .
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ص ٢٧٢ .
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ٨٦ .

١١٤٠ (١). وأمام هجمات زنكى التى اشتدت على دمشق ، وفى وسط النزاع بين الورثة حول الفوز بحكم دمشق ، برز أنر فى صورة الرجل الأول فى المدينة فارتفعت رتبته ونفذت أوامره فى الدولة في الوقت الذى اختير مجير الدين أبق - ابن جمال الدين محمد - أتابكاً على دمشق (٢).

التحالف بين دمشق والملك فولك :

وعندما اشتدت هجمات زنكى على دمشق ، لم يجد معين الدين أنر حرجا فى أن يستعين بمملكة بيت المقدس الصليبية ، فأرسل أسامة بن منقذ - ابن أخ عز الدين أبو العساكر سلطان على بن منقذ صاحب شيزر - مبعوثاً إلى الملك فولك (٣). ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يوفد فيها أنر أسامة بن منقذ إلى الصليبيين لإجراء مفاوضات تستهدف إنشاء تحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس ، فقد سبق أن أرسله لذلك الغرض سنة ١١٣٧ - ١١٣٨ ثم مرة أخرى فى أوائل سنة ١١٤٠ ، قبل وفاة الأتابك جمال الدين محمد ، لاستئناف المفاوضات التى بدأها فى المرة السابقة (٤).

ويروى ابن العديم وابن الأثير أن أنر لجأ - لكى يحصل على مساعدة الصليبيين - إلى تجسيم خطر زنكى عليهم وخوفهم من زنكى إن ملك دمشق . وأنه إن ملكها لايبقى لهم معه بالشام مقام (٥). وهنا أدرك الصليبيون أن زنكى الذى صار يمتلك فعلا الموصل وحلب وحماه وحمص وبعلبك ، لاينبغى بأى حال أن يمتلك دمشق ، وإلا فان تحقيق الوحدة الإسلامية فى بلاد الشام وشمال العراق ، سيكون معناه القذف بالصليبيين فى البحر . ولما كان فولك يعمل حساباً لنفقات الحرب ضد زنكى ، فان معين الدين أنر تعهد له بدفع عشرين ألف دينار شهرياً طيلة مدة الحملة ؛ هذا فضلا عن مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على بانياس التى أخذها المسلمون من الصليبيين سنة ١١٣٢(٦).

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٩ .
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٩ - ٢٧١ .
(3) Guillaume de Tyr. I. 668. &
وكذلك كتاب الإعتبار لأسامة بن منقذ ، ص ٨١ .
(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٩ ، ١٩٦ .
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ص ٢٧٣ .
وكذلك الكامل لابن الاثير ، حوادث ٥٣٤ هـ .
(6) Guillaume de Tyr. p. 668 - 669
ويقول ابن القلانسي عن تلك الإتفاقية : وقد كان تقرر الأمر مع الفرنج علي الاتفاق والاعتضاد والمؤازرة والاسعاد والامتزاج في دفعه (زنكي) والاختلاط في صده عن مراده ومنعه ووقعت المعاهدة علي ذلك بالإيمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه ، والتمسوا علي ذلك مالا معيناً يحمل إليهم ليكون عوناً لهم علي مايحاولونه وقوة ورهيناً تسكن بها نفوسهم ، وأجيبوا إلي ذلك، وحمل المال والرهائن من أقارب المقدمين ....(ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢).

وهكذا تمت الصفقة ، وعقد التحالف بين أتابكية دمشق الإسلامية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، وأخذ فولك يستعد لنجدة دمشق على عجل ، مما جعل زنكى يترك حصار دمشق وينصرف عنها فى أوائل مايو سنة ١١٤٠ (١). ولكن بقى بعد ذلك أن يساعد أنر الصليبيين فى الاستيلاء على بانياس ، حسب وعده لهم . وكان حاكم بانياس - إبراهيم بن طرغت - قد أعلن تبعيته لزنكى منذ أواخر سنة ١١٣٧ ؛ فخرج معين الدين أنر على رأس جيش دمشق لمساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على بانياس . وقاومت بانياس الحصار طويلا ، رغم مقتل حاكمها إبراهيم بن طرغت بواسطة النورمان الذين حضروا بقيادة ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية لمساعدة فولك ، فضلا عن أمير طرابلس الذى خف إلى بانياس أيضاً لمساعدة فولك . وأخيراً اضطرت بانياس إلى الإستسلام فى يونيه سنة ١١٤٠ ، فأحدث الصليبيون مذبحة شنيعة بين أهلها المسلمين رغم الأمان الذى أعطوه لهم قبل الإستسلام (٢).

ولم يلبث التحالف بين أنر وفولك أن ازداد قوة عندما قام أنر بزيارة ملك بيت المقدس فى بلاطه ، بناء على اقتراح أسامة بن منقذ . وقد تمت الزيارة فى جو مشبع بروح الود وحسن التفاهم وتبادل عبارات الإخلاص من الجانبين ، فضلا عن تبادل الهدايا . ولم يكتف أنر بمصاحبة أسامة بن منقذ فى زيارته لعكا ، بل زار معه كثيراً من المدن الصليبية الأخرى فضلا عن بيت المقدس ، مثل نابلس وحيفا وطبرية وسبسطية (سبصطية) ؛ حيث قوبل أنر بالحفاوة والترحيب فى جميع تلك البلاد (٣).

أما زنكى فقد ظل يرقب تحركات جيوش دمشق والصليبيين حتى افترقت عن بعضها عقب الاستيلاء عن بانياس ، وعندئذ أغار على حوران ثم انتقل إلى غوطة دمشق ، وقام ليلة ٢٢ يونية سنة ١١٤٠ بغارة على دمشق نفسها (٤). ويروى ابن واصل أن أهل دمشق خافوا «وارتج البلد» لرؤية عسكر زنكى ، ولكنه لم يستطع مواصلة هجومه على المدينة لغيبة أكثر عسكره وتفرقهم (٥). وفيما عدا

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ .

(2) Guillaume de Tyr. p. 671 - 675

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) وقد روي أسامه بن منقذ كثيراً من أخبار مشاهداته في المدن الصليبية وضمنها معلومات طريفة عن حياة الصليبيين وعاداتهم . (أنظر كتاب الاعتبار ص ١٣٥ - ١٣٩) .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٣ ،
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٤ هـ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ص ٨٩ .

ذلك لم تشهد الأشهر التالية سوى عدة حروب محلية بين زنكى وإمارة أنطاكية بوجه خاص [١] .

وهكذا يمكن القول بأن التحالف الذى تم بين الصليبيين وحكام دمشق سنة ١١٤٠ قد جمد الموقف فى بلاد الشام ، وشل حركة زنكى إلى مدى بعيد .

نهاية الملك فولك :

وفى طوال تلك الأثناء لم يكف فولك ملك بيت المقدس عن مواصلة نشاطه لرعاية مصالح الصليبيين وتحصين بلادهم والدفاع عن كيانهم . من ذلك أنه بنى قلعة صفد سنة ١١٤٠ جنوبى دمشق على جبل مرتفع . وقد صار لهذه القلعة شأن كبير فى الحرب الصليبية نظراً لموقعها الفذ الذى يشرف على الجزء الشمالى من إقليم الجليل ، وعلى الطريق بين دمشق وعكا ، ولذلك كانت تلك القلعة من آخر المعاقل الصليبية التى استطاع المسلمون الاستيلاء عليها فى القرن الثالث عشر [٢] .

وإذا كان الملك فولك قد استطاع - بالاستيلاء على بانياس وبناء قلعة صفد- أن يحمى إقليم الجليل من ناحية الشمال ، أى من ناحية دمشق ، فانه لم يلبث أن شرع فى إقامة عدة قلاع فى جنوب مملكته ليحميها من ناحية مصر . ومن أهم هذه القلاع يبنى (يبنا) على الطريق بين عسقلان من جهة واللد والرملة من جهة أخرى ؛ ثم قلعة تل الصافية بين بيت لحم وعسقلان ، وقلعة بيت جبرين جنوبى القلعة السابقة - وتشرف على الطريق بين غزة وعسقلان من ناحية والخليل من ناحية أخرى . وقد عهد فولك بهذه القلعة الأخيرة إلى الاسبتارية [٣] .

وفى الوقت الذى أبدى فولك هذا الاهتمام بالجبهة الجنوبية الغربية لمملكة بيت المقدس ، اهتم أيضاً بالجبهة الجنوبية الشرقية ، فحصن مواقع الصليبيين فى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، وحرص على أن يحتفظ بسيطرة الصليبيين على طرق القوافل بين مصر والشام وشبه الجزيرة العربية ، وشيد حصن الكرك سنة ١١٤٢ [٤] . ولاشك فى أن حصن الكرك هذا - بالاضافة إلى حصن الشوبك - مكنا الصليبيين من بسط سيطرتهم على المناطق وطرق التجارة والقوافل الواقعة جنوبى البحر الميت وشرقيه ، مما اضطر البدو الرحل فى تلك الجهات إلى

(١) ابن العديم (زبدة الحلب) ج٢ ص ٢٧٤ .
(2) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 138 .
(3) King : The Knights Hospitallers p. 34 .
(4) Stevenson : op. cit. p. 146.

الخضوع للصليبيين ودفع مقررات ثابته لهم [1].

وأخيرا توفى فولك ملك بيت المقدس فى عكا فى نوفمبر سنة ١١٤٣ ، بعد أن نهض بواجبه كاملا فى تدعيم مركز الصليبيين فى بلاد الشام وحمايتهم من الأخطار التى هددتهم ، سواء من جانب المسلمين أو البيزنطيين . وقد خلف فولك من زوجته مليزاند طفلين : بلدوين فى الثالثة عشر من عمره ، وعمورى فى السابعة ، فأعلن الأول ملكاً على بيت المقدس تحت وصاية أمه [2].

(1) Runciman : op. cit. II. p. 230 .
(2) Cesant, Palmer : Jerusalem, p. 296 .

الفصل الثاني

سقوط الرها

اضمحلال إمارة الرها :

إذا كان فولك ملك بيت المقدس قد اهتم اهتماماً خاصاً بتحصين الحدود الجنوبية للصليبيين فى الشام ، إلا أن الخطر الذى هدد الصليبيين عند منتصف القرن الثانى عشر زحف من الشمال لا من الجنوب . ففى الوقت الذى نجح ملوك بيت المقدس فى حماية دولتهم عن طريق محالفة الدماشقة ، فى حين كان الفاطميون لايشكلون خطراً جدياً على الصليبيين ؛ إذا بالصليبيين فى الرها وأنطاكية يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام زنكى أتابك الموصل وحلب . وإذا ذكرنا زنكى فإنما نعنى الرجل الذى أخذ نفوذه يتسع وخطره يزداد وضوحاً فى تلك المرحلة يوماً بعد آخر .

حقيقة إن جهود زنكى ضد الصليبيين قد تعثرت بسبب تحالف البيزنطيين مع الصليبيين ضد المسلمين بالشام ، ولكن هذا الحلف لم يلبث أن تصدع ، حتى تحول الموقف إلى عداء مكشوف بين البيزنطيين والصليبيين سنة ١١٤٣ ، مما أتاح الفرصة لزنكى كى يستأنف جهاده ضد الصليبيين من جديد (١) .

وقد ساعد زنكى على تحقيق أهدافه فى تلك المرة التنافس الشديد بين ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية وجوسلين الثانى أمير الرها ، وهو التنافس الذى لم يلبث أن انقلب إلى عداء مرير (٢) . وإذا كان أميرا أنطاكية والرها قد اضطرا إلى التعاون لدفع خطر المسلمين ، فإن ذلك التعاون إنما تم تحت ضغط ملوك بيت المقدس الأقوياء ، مثل بلدوين الثانى وفولك . ولكن وفاة الملك فولك وقيام صبى قاصر فى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، جعل أميرى أنطاكية والرها فى حل من أن يكشفا النقاب عن حقيقة شعورهما نحو بعضهما البعض ، دون أن يخافا سطوة ملك كبير .

وفى تلك الظروف بالذات ، نهض زنكى ليوجه ضربته ضد الرها ، تلك الإمارة التى أحاط بها المسلمون من كل ناحية والتى فصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية فى الشام . ولايخفى علينا أن الرها الصليبية كانت تشكل خطراً

(1) Setton : op. cit. I, p. 459 .
(2) Guillaume de Tyr, I, p. 709 .

كبيراً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب ، وبين بغداد وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى (1).

ثم إن هناك عامل واضح أدى إلى إضعاف إمارة الرها ومكن زنكى من الإستيلاء عليها فى نهاية الأمر ، هو أن أميرها جوسلين الثانى لم يشبه أباه فى شجاعته وقوة بلائه ضد المسلمين (2). هذا إلى أن أم جوسلين الثانى كانت أرمنية؛ فنشأ يميل إلى الأرمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقيين كالسريان ، ويفضلهم على المسيحيين الغربيين ؛ مما سبب قلقاً بين فرسانه الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الرها . فاذا أضفنا إلى ذلك أن جوسلين الثانى كان من ذلك النوع الذى يؤثر الراحة والعافية ، حتى أنه فى الوقت الذى هاجم زنكى الرها ، اختار أن يترك مدينته ليقيم فى تل باشر على الضفة الغربية للفرات ؛ استطعنا أن نكون فكرة عامة عن العوامل التى ساعدت على سقوط إمارة الرها فى قبضة زنكى (3).

زنكى يستولى على الرها :

وكان أن التمس زنكى عذراً لمهاجمة الرها فى أن جوسلين الثانى تحالف ضده مع بنى أرتق فى ديار بكر لذلك بدأ زنكى بمهاجمة الأراتقة ، وانتزع منهم عدة قلاع في ديار بكر (4). ويبدو أن اتجاه زنكى ضد الأراتقة أولا كان خدعة منه ليطمئن أهل الرها فيأخذهم على غرة . يؤيد ذلك ما ذكره النويرى من أن زنكى «اشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم ، فاطمأنوا ، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية» (5). وهكذا لم يكد زنكى يتجه إلى ديار بكر حتى اطمأن جوسلين الثانى أمير الرها ، واتجه إلى أملاكه غربى الفرات (تل باشر) ليقطع الاتصال بين زنكى وحلب . وفى الحال «جاءت عيون أتابك (زنكى) إليه وأخبرته الخبر ، فنادى فى العسكر بالرحيل ، وانقض فوراً على الرها (6).»

وقد بدأ حصار الرها فى 28 نوفمبر سنة ١١٤٤ ، فى الوقت الذى كان جوسلين الثانى متغيباً فى تل باشر . وعلى الرغم من استغاثة رئيس الأساقفة الكاثوليكى هيو الثانى ، إلا أن جوسلين الثانى قنع بالبقاء حيث هو واعتقد أن قوته

(1) Stevenson : op. cit. p. 153 .
(2) Cam. Med. History. Vol. 5. p. 307 .
(3) Grousset : Histoire des Croisades, I, p. 172 - 173 .
(4) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٣٩ (تحقيق المؤلف) .
(5) المصدر السابق ، ج ٢٧ ص ١٤٣ .
(6) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٩ هـ .

لا تسمح له بمنازلة زنكى ، فاكتفى بأن أرسل إلى أمير أنطاكية والوصية على مملكة بيت المقدس طالباً المساعدة ، ومع ذلك فان أحداً من هؤلاء لم يتحرك لإنقاذ الرها (١). وإذا كانت مليزاند الوصية على بيت المقدس قد أرسلت نجدة ، فإن تلك النجدة وصلت بعد فوات الأوان وسقوط الرها فى يد زنكى . على أنه يلاحظ أن أهل الرها من الأرمن والسريان لم يحاولوا خيانة الصليبيين فى تلك المرة ، وإنما أظهروا تضامناً قوياً مع الصليبيين الغربيين فى الدفاع عن أسوار المدينة وقلعتها (٢). ومع ذلك فان كل تلك الجهود لم تفلح فى إنقاذ الرها من هجوم زنكى ، فاستولى عليها فى ٢٣ ديسمبر سنة ١١٤٤ رغم «ما هى عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبيها » (٣) .

ويذكر المؤرخون أن زنكى عندما استولى على الرها أعجبه البلد ، ورأى أن ذلك البلد « لايحوز فى السياسة تخريب مثله (٤)». لذلك لم يتبع فى الرها السياسة نفسها التى سبق أن اتبعها فى كثير من المدن التى استولى عليها من قبل ، وبخاصة بعلبك التى ذبح حاميتها الدمشقية بعد أن منحها الأمان . وإنما لجأ زنكى فى الرها إلى سياسة حكيمة ليضمن بقاء المدينة فى قبضته ، فلم تكد تنتهى موجة الاضطراب الأولى التى أعقبت تدفق المسلمين داخل المدينة ، حتى أمر زنكى رجاله بالكف عن العدوان والقتل ، وشمل أهل الرها من المسيحيين المحليين بحمايته ، فلم يمكن أحداً من جنوده من الاعتداء عليهم « وأمر عساكره برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره (٥). » .

وهنا يبدو أن زنكى لجأ إلى سياسة بعيدة النظر – هى السياسة نفسها التى اتبعها صلاح الدين فيما بعد – أعنى تشجيع المسيحيين المحليين من السريان والأرمن وغيرهم ، وإحاطتهم بعطفه ورعايته ، والسماح لمن غادر منهم المدينة تحت تأثير الاضطهاد الذى تعرضوا له من الصليبيين الكاثوليك بالعودة إلى مدينتهم ، وبذلك أوجد لنفسه دعامة محلية تؤيده ويستند إليها فى حكم الرها (٦). وقد اتضحت أركان هذه السياسة وتأكدت عندما استسلمت قلعة الرها – التى ظلت تقاوم حتى ٢٥ ديسمبر سنة ١١٤٤ – إذ عفا زنكى عن رجالها من السريان

(1) Stevenson : op. cit. p. 149 .
(2) Nerses Shnorhali : Elegie Sur la Prise d'Edesse (Doc. Arm; I. p. 247 - 255) .
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ ،
ابن الأثير ، حوادث سنة ٥٣٩ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٩٤ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٩ هـ .
(6) Michel Le Syrien . III, pp. 262 - 268 .

والأرمن والأرثوذكس ، ولم ينتقم إلا من الصليبيين الكاثوليك (١) . كذلك احتفظ زنكى للأرمن والسريان بكنائسهم ، فى حين دمر بعض كنائس الصليبيين الكاثوليك (٢) . وهكذا لم يلبث أن اطمأن أهل الرها الأصليين على مصيرهم وعاد البلد إلى حالة الأول ، واكتفى زنكى بأن ترك فيها حامية صغيرة للدفاع عنها (٣) . وبعبارة أخرى فقد عادت الرها إلى ما كانت عليه قبل استيلاء الصليبيين عليها فى نهاية القرن الحادى عشر ؛ مدينة مسيحية الطابع معظم سكانها من المسيحيين الشرقيين - الأرمن والسريان - وتدين بالتبعية للأتراك (٤) .

ولم يكن من الصعب على زنكى بعد سقوط الرها أن يستولى على بقية المعاقل الصليبية شرقى الفرات ، فاستولى على سروج فى يناير سنة ١١٤٥ ، بحيث لم يتبق لجوسلين الثانى فى تلك الجهة غير البيرة ، وهو حصن حصين مطل على الفرات ، ويقع على الضفة الشرقية للنهر(٥) . وقد شرع زنكى فى محاصرة البيرة فعلا عندما علم بمقتل نائبه في الموصل ، فاضطر إلى رفع الحصار والذهاب إلى الموصل لإقرار الأمور فيها . أما الحامية الصليبية فى البيرة ، فقد رأت سنة ١١٤٥ أنه من الأسلم أن تضع القلعة تحت حماية حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى أمير ماردين ، وإبنه نجم الدين (٦) .

وهكذا لم يتبق لجوسلين الثانى من حطام إمارته سوى تل باشر ، وسميساط ومرعش ، ودلوك ، وعينتاب ، وعزاز ، والراوندان .

نهـــاية زنكـــى :

والواقع أنه كان من الممكن أن يستأنف زنكى حروبه ضد الصليبيين غربى الفرات، لولا ما حدث فى الموصل من محاولة لعزله عن حكمها (٧) . وعندما سمع زنكى بمقتل نائبه نصير الدين جقر، ترك حصار البيرة - بعد أن كان أشرف

---

(1) L'Anonyme Syriaque, p. 282 .
(2) Runciman : op. cit. II. p. 237 .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٩ هـ .
(4) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 190 .
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ جـ ١ ص ٩٤ & ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٧٠ .
(٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٧٠ - ٧١ .
(٧) قام بهذه المحاولة ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان ألب أرسلان عندئذ بالموصل وعماد الدين أتابكا له بالموصل، وإن كانت السلطة الفعلية بيد عماد الدين زنكي. وقد حسن البعض لالب أرسلان قتل نصير الدين جقر نائب عماد الدين بالموصل ليستأثر بالسلطة كلها دون عماد الدين زنكي.
(ابن واصل : مفرج الكروب. ج١ ص ٩٥) .

على أخذها – وأسرع إلى الموصل ليمكن لنفسه فيها (١).

وعلى الرغم مما كـان يجـرى فى جـوف العـالم الإسـلامى عندئذ من إنقسامات وحزازات سببها الخلاف بين أمراء السلاجقة بعضهم وبعضهم، ورغبة الخلافة العباسية فى إستعادة سلطتها الزمنية التى سلبها إيها سلاطين السلاجقة، إلا أن أحوال الصليبيين أنفسهم، سواء فى مملكة بيت المقدس حيث كان بلدوين الثالث لايزال قـاصراً تحت وصاية أمـه، أو فى أنطاكـية حـيث كـان ريموند دى بواتيـه أضعف من أن يقوم بعمل جدى ضد المسلمين ؛ هذه الأحوال حـالت دون اتخاذ إجراء فعال من جانب الصليبيين رداً على سقوط الرها. ولعل الصليبيين بالشرق الأدنى عندئذ لم يدركوا مـغزى استـيلاء المسلمين على الرها، ولم يدروا أن هذه الخطوة في نظر التاريخ جاءت بالنسبة للمسلمين فتح الفتوح وبالنسبة للصليبيين الخطوة الأولى فى هدم البناء الذى شيده الفرنج بالشرق (٢).

وكل ما هنالك هو أن الصليبيين بالشام اكتفوا ببعض الإجراءات السياسية للحد من خطر زنكى عليهم، فبالإضافة إلى محـالفة الدماشقة، لجئوا أيضا إلى محالفة الأراتقة فى الشمال، أى فى ماردين. وكان للأراتقة مصلحة فعلية فى الحد من نفوذ زنكى بعد أن صار خطراً يهددهم فى الشمال. وازدادت قوة هذا التحالف بين الأراتقة والصليبيين عندما سلم الصليبيون البيرة للأراتقة عقب جلاء زنكى عنهـا. ومـهمـا يكن من أمـر فان استـيلاء صـاحب مـاردين – من بنـى أرتق على البيرة – جعل ملكية هذه القلعة الهامة تنتقل من الصليبيين إلي المسلمين، وبذلك لم يبق شيء مما هو شرقى الفرات بيد الفرنج (٣).

على أن زنكى لم يكد يفرغ من إخماد فتنة الموصل حتى أعد حملة كبيرة وزودها بآلات الحصار برسم محـاربة الصليبيين ؛ وإن كان يبـدو – كمـا لاحظ المؤرخ ابن العديم نفسـه – أن زنكى كـان ينوى مـهـاجمـة دمشق لا الصليبـيين. وقبل أن تتضح نية زنكى من تلك الحملة الجديدة، علم بتـآمر الأرمن فى الرها وأنهم أستدعوا جوسلين الثانى بنية « الإيقاع بمن فيها من المسلمين » والتخلص من الحامية الصغيرة التى تركها زنكى فى المدينة. لذلك أسرع زنكى إلى الرها وأعـدم المتـآمـرين . وفى تلك المرة اضطر زنكى إلى طرد جـزء من سكان الرها

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣٩ هـ.

(2) Gam. Med. Hist, vol. 5, p. 307.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ١ ص ٩٦.
ويقول ان واصل عندما انصرف عماد الدين زنكي عن البيرة، خاف من فيها من الفرنج أن يعود إليهم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً فكاتبوا صاحب ماردين وسلموها إليه.

الأرمن، وأحل محلهم ثلثمائة أسرة من اليهود، لأن هؤلاء كانو ألد أعداء المسيحيين عموماً [١].

ثم كان أن اختار زنكى بعد ذلك أن يقوم باخضاع قلعة جعبر علي الفرات بين بالس والرقة، وكانت هذه الإمارة العربية الصغيرة تابعة لبنى عقيل (العقيليين) [٢]، ولكن وضعها صار محشوراً داخل أملاك زنكى الجديدة، الأمر الذى دفعه إلى الاستيلاء عليها قبل أن يقوم بحملته على دمشق. ولكن زنكى طالت مدة حصره لقلعة جعبر ولم يتيسر له فتحها ؛ ومع ذلك فقد استمر زنكى مرابطاً أمامها، حتى قتله فجأة أحد خصيانه – ويدعى يرنقش (بيرنقش) – فى منتصف سبتمبر سنة ١١٤٦.

ولاشك فى أن خسارة المسلمين جاءت فادحة بقتل زنكي، حتى لقد صاح أهل قلعة جعبر أنفسهم فى القاتل ، لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله [٣]. ولم يلبث أن تبدد الجيش الكبير الذى جمعه زنكي، فرجع الحلبيون إلى حلب ومعهم نور الدين محمود بن زنكى وبصحبته شيركوه [٤] ؛ فى حين عادت قوات الموصل من حيث أتت ومعها سيف الدنى غازى الإبن الثانى لزنكي، وبصحبته الوزير جمال الدين محمد الأصفهاني [٥].

نور الدين محمود والرها :

ولم يصادف أبناء زنكى صعوبة فى الاحتفاظ بملك أبيهم بفضل معونة إثنين من رجال زنكى الأوفياء، هما جمال الدين محمد الأصفهاني، رئيس ديوان زنكي، وصلاح الدين محمد الياغيسيانى أمير حاجب. وبفضل معونة صلاح

---

(١) ابن العديم : زيدة الحلب ج٢ ص ٢٨١.
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢.
Michel Le Syrien, p. p. 267 - 268.

(٢) كان صاحب جعبر عندما هاجمها زنكي هو شهاب الدولة مالك بن علي بن سالم.
(أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠٦ – ترجمة أستاذنا المرحوم زكي محمد حسن).

(٣) ابن العديم : زيدة الحلب ج٢، ص ٢٨٢.
ويروي ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤) أن ير نقش هذا كان من أصل فرنجي ؛ وذكر ابن العديم (زبدة الحلب، ٢ ص ٢٨١) أن زنكي كان يهدده في النهار، فخاف منه، فقتله في الليل في فراشه.

(٤) كان شيركوه هذا أخا أيوب الذي سبق أن أنقذ حياة زنكي سنة ١١٣٢، كما سبق أن أشرنا

(٥) ذكر النويري أن عماد الدين زنكي خلف من الأولاد :(١) سيف الدين غازي وهو أكبر اولاده (٢) نور الدين محمود وهو الملك العادل. (٣) قطب الدين مودود وهو أبو الملوك بالموصل. (٤) نصرة الدين أمير ميران. فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والاناث ، ونور الدين من الذكور، وبقي في عقب قطب الدين.
(نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٤٨)(تحقيق المؤلف).

الدين محمد الياغيسيانى نجح نور الدين محمود – ابن زنكى البكر – فى تثبيت قدمه في حلب، فى حين تمكن أخوه سيف الدين غازى من تثبيت قدمه فى الموصل بفضل مساعدة ورعاية جمال الدين محمد الأصفهانى (١). وبذلك انقسمت دولة عماد الدين زنكى بين ولديه، نور الدين محمود وسيف الدين غازي، وكان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين هو نهر الخابور (٢).

على أن وفاة زنكى وتقسيم ملكه بين ولديه أتاح فرصة طيبة لأعداء الدولة الزنكية من المسلمين والمسيحيين سواء (٣). ففى الجنوب أسرع معين الدين أنر إلي إرسال قوة من دمشق احتلت بعلبك، وأخضعت حكام حمص وحماه. وفى الشرق استرد الأراتقة المدن التى سبق أن سلبهم إياها زنكى فى ديار بكر. وفى الوسط – أى فى شمال الشام – قام ريموند أمير أنطاكية بحملة على حلب حتي وصل إلي أسوار المدينة. أما جوسلين الثانى الذى كان ما زال قابعاً فى تل باشر، فقد أتاحت له كل هذه الظروف فرصة طيبة ليعمل علي استرداد الرها (٤). ولعل جوسلين الثانى كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين زنكى لأن أخذ الرها من الصليبيين كان أهم ما قام به زنكى فى حياته، وهو العمل الرئيسى الذى أضفى عليه وعلي دولته أهمية خاصة فى التاريخ، فكان معنى نجاح الصليبيين في إسترداد الرها أن أبناء زنكى سيفقدون المجد الذى حققه والدهم (٥).

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن زنكى تسامح مع أهل الرها من المسيحيين المحليين – السريان والأرمن – وتركهم يحيون حياتهم العادية فى المدينة، فى حين اكتفى بوضع حامية صغيرة فى قلعة الرها لحراستها. وهنا نلاحظ أن شعور السريان تجاه زنكى وحكم السلاجقة اختلف عن شور الأرمن. فبينما تحمس السريان لحكم السلاجقة ورأوه أفضل من حكم الأرمن ثم الصليبيين، إذا بالارمن يتحينون الفرص للتخلص من حكم السلاجقة والعودة بالمدينه إلي حكم الصليبيين. وربما كان من العوامل التى قربت جوسلين الثانى إلى نفوس الأرمن في الرها أن أمه كانت أرمنية، وبالتالى فقد كان ذلك الأمير – فى نظرهم – نصف أرمنى (٦).

ولم يلبث أن تم الاتصال سراً بين الأرمن في الرها وجوسلين الثاني، الذى نجح فى الإستيلاء علي الرها – ومعه بلدوين حاكم مرعش – فى أواخر أكتوبر

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٤ – ٨٥.

(2) Stevenson : op. p. cit 154.

(٣) يصف ابن الأثير موقف دولة زنكي بقوله كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلهم يقصدها ويريد أخذها، (الكامل، حوادث سنة ٥٤١ هـ).

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨.

(5) Runciman : op. cit., II, p. p. 239 - 240.

(6) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 198.

سنة ١١٤٦[١]. على أن جوسلين الثانى لم يستطع الاستيلاء على قلعة الرها التى احتمت بها الحامية السلجوقية، فامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين [٢]، مما جعله يسارع بطلب النجدة من أميرى أنطاكية وطرابلس والوصية على عرش بيت المقدس. ولكن نور الدين محمود - ابن عماد الدين زنكى - كان أسرع حركة من الصليبيين، فلم يكد يعلم باستيلاء جوسلين الثانى على الرها، حتى خف علي رأس جيش كبير وحاصر المدينة [٣]. وهكذا وجد جوسلين الثانى نفسه ومعه أعوانه من الصليبيين والأرمن - وقد وقعوا بين شقى الرحي، فالسلاجقة داخل الرها محتمين بقلعتها، ونور الدين محمود يحاصر المدينة من الخارج.

ومن الواضح أن أقصى ما كان يستطيع جوسلين الثانى أن يفعله فى ذلك الموقف هو محاولة الخروج سالماً من المدينة. وكان أن نجح جوسلين الثانى وفرسانه فى الهروب [٤] ؛ ولو أن العملية لم تتم فى سهولة لأن فرسان السلاجقة لاحقوهم وقتلوا ثلاثة أرباعهم. وكان من جملة القتلى بلدوين حاكم مرعش فى حين أصيب جوسلين الثانى بجرح فى رقبته، واستطاع فى صعوبة بالغة الفرار إلى سميساط [٥]. أما أهل الرها من المسيحيين فقد لاقوا جزاء غدرهم، ولم ينفعهم جوسلين الثانى الذى لاذ بالفرار وتركهم يأخذون درساً قاسياً على أيدى قوات نور الدين. ولم يفرق السلاجقة في تلك المرة بين الصليبيين والمسيحيين المحليين، أو بين السريان والأرمن، وإنما أعملوا السيف في الرجال وساقوا النساء والأطفال أسرى إلى حلب[٦]،وبذلك «خلت(الرها)من أهلها ولم يبق منهم بها إلا القليل [٧]».

وهكذا انتهت محاولة جوسلين الثانى لاسترداد الرها بكارثة حلت بالصليبيين والأرمن والسريان جميعاً، وفاقت فى وقعها كارثة سقوط الرها لأول

---

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 728 - 729.

(٢) ابن الأثير : لاكامل، حوادث سنة ٥٤١ هـ.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٦.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١١.

(٥) يلاحظ أن الرها كانت تقع في منطقة نفوذ سيف الدين غازي ابن الأتابك زنكي، لأن سيف الدين امتلك الموصل وما يتبعها من أملاك أبيه شرقي الفرات. والواقع ان سيف الدين لم يتقاعس عن إنقاذ الرها عندما علم باستيلاء جوسلين الثاني عليها. ولكن عساكزه وصلت بعد أن كان أخوه نور الدين قد استولي عليها فعلا. وعندما وجد سيف الدين غازي أن أخاه نور الدين محمود صاحب حلب استولي علي الرها فعلا، تركها له ولم يعارضه فيها. (ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ١١١.)

(6) Michel Le Syrien III, p.p. 270.
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ & Guillaume de Tyr, I, p.p. 731 - 732
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤١ هـ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧ ، ص ١٥٢ (تحقيق المؤلف).

(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٧.

مـرة فى يد زنكى سنة ١١٤٤ . حـقـاً إن الـعـالم المسـيـحى تـأثر لضـيـاع الرها سنة ١١٤٤ ، ولكن رد الفـعل الذى أحـدثه اسـتـيـلاء المسلمين عليـها للمـرة الثـانيـة سنة ١١٤٦ كـان أشـد وأقوى بكثـيـر، نظراً لما حل بمخـتلف الطوائف المسـيـحـيـة فى ا لمدينة من قتل وتشريد، مما أثار شعور الغرب الأوروبى وأدى إلى الدعوة للحملة الصليبية الثانية [1] .

أما نور الدين مـحمود، فلم يعد يقنع باسترداد الرها، وإنما جرفه تيار الجـهاد إلى توجـيه هجـماته من حلب ضـد إمـارة أنطاكـيـة . وهكذا بـدأ نور الدين مـحـمـود كفاحه بدايـة طيبة تبشر بالأمل فى استمــــرار سياسة أبيه ، فنجح فى سنة ١١٤٧ - ١١٤٨ فى الاستيلاء علي عـــدة قلاع، مثل بـسرفوث وأرتـاح والأثارب وكفر لاثا [2] .

وهكذا إذا كـان الصـليـبـيـون قد ظنوا أنهم ارتاحـوا من كـابوس ثقـيل بوفـاة زنكي، وأن ابنه نور الدين لا يمتلك من الخبرة والكفاية ما يجعله خطراً عليـهم فان ظنهم سرعـان مـا خـاب، إذ لم تمض على مـقتل زنكى أشـهر قليلة حـتى أثبت لـهم ابنه نور الدين أن هذا الشبل من ذاك الأسد [3] .

(1) Setton : op. cit., l, p. 400.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث ٥٤٢ هـ.

(3) Runciman : op. cit ll, p.p. 2 240 - 241.

الفصل الثالث

تصدع الحلف بين دمشق والصليبيين

سياسة معين الدين أنر :

أثبتت الأحداث التى أعقبت وفاة عماد الدين زنكي أن سياسة ابنه نور الدين محمود استهدفت محاربة الصليبيين – وبخاصة فى أنطاكية – وفى الوقت نفسه استمالة القوى الإسلامية المتعددة فى شمال العراق وفى الشام واكتساب ودها وصداقتها (١) . وهكذا اختص نور الدين إمارة أنطاكية بهجماته سنة ١١٤٧ – ١١٤٨ ، حتى سلبها معظم أملاكها تقريباً شرقى نهر العاصى ، كما سبق أن ذكرنا. وفى الوقت نفسه حرص نور الدين على استرضاء أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فأظهر له الاحترام « وترجل له وقبل الأرض بين يديه »؛ وذلك كله حرصاً على وحدة الصف ، وحتى «تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا (٢) » .

ولم يكتف نور الدين محمود بذلك ، بل حاول استمالة حكام دمشق إلى جانبه وكسب ودهم ، وبدأت السفارات تتردد بين حلب ودمشق بغية تهدئة النفوس ولم الشمل ، حتى انتهى الامر باتفاقية صلح بين نور الدين ومعين الدين أنر ، عقدت فى دمشق فى مارس سنة ١١٤٧ (٣) .

وكان المفروض أن يفيق الصليبيون ويأخذوا حذرهم من سياسة نور الدين ، لاسيما بعد أن أخذ يسعى لدعم الإتفاقية السابقة مع دمشق عن طريق الزواج من ابنة أنر (٤) . ولكن قيام ملك قاصر تحت وصاية امرأة على عرش مملكة بيت المقدس ، لم تتح لهم فرصة لتقدير خطر التقارب بين نور الدين محمود ودمشق ، فى الوقت الذى أخذ نور الدين ينهض ليجمع كلمة المسلمين على الجهاد ؛ مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين فى بلاد الشام (٥) .

وكان معين الدين أنر – شيخ دمشق العتيد وصاحب السلطة العليا فيها– لايزال يباشر توجيه سياسة تلك الأتابكية باسم الأتابك مجير الدين أبق ، الذى كان

---

(1) Setton : op. cit, I. p. 513 - 514

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١١١ – ١١٢ ،
النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٠

(3) Stevenson op. cit. p. 157 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٨ – ٢٨٩

(5) Grousset : Hist. des Groisades . II p.p. 209 - 210 .

لايزال صغيراً . وعلى الرغم من الصلح بين نور الدين والدماشقة ، فقد ظل أنر محافظاً على حسن العلاقة مع الصليبيين ، كما أبقى على التحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس ، لأن هذا التحالف فى نظره كان بمثابة حجر الزاوية فى حفظ ميزان القوى فى بلاد الشام أمام ازدياد نفوذ الدولة الزنكية فى حلب . ولم يكن يخفى على أنر أن دمشق ما فتئت دائماً موضع أطماع زنكى ثم ابنه نور الدين ، ولذلك تمسك أنر باخلاصه لبلدوين الثالث الصغير وأمه مليزاند الوصية عليه ، وحرص على أن يستمر معهما بالروح نفسها التى بدأ بها تحالفه مع الملك فولك (١) .

والواقع إن سياسة معين الدين أنر فى تلك الفترة تدل على دهاء واضح وتسترعى منا انتباهاً خاصاً . ذلك أنه فى الوقت الذى استرد أنر مدينة بعلبك بعد مقتل زنكى (٢) - كما سبق أن أشرنا - اكتفى بذلك ولم يشأ أن يغامر بارسال حملة للاستيلاء على حمص وحماه ، وانما فضل أن يتصل سراً بحكام هاتين المدينتين من قبل الزنكيين ، ويعقد معهما إتفاقيات تجعلهما يعترفان بالسيادة لدمشق (٣) . على أن الذى يسترعى الانتباه فى كل ذلك هو أن معين الدين أنر أخذ ينفذ سياسته الخاصة باسترداد متعلقات دمشق دون أن يستثير نور الدين ، بل على العكس تم زواج ابنته من نور الدين واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة، وبذلك وجد نور الدين نفسه بعد تلك الزيجة لايستطيع أدبياً التوسع جهة الجنوب (٤) . هذا كله فى الوقت الذى حرص أنر على الاحتفاظ بتحالفه مع مملكة بيت المقدس . وهكذا استهدفت سياسة أنر فى تلك الفترة إنشاء علاقات ودية مع جميع القوى المجاورة فى بلاد الشام ، سواء من المسلمين أو الصليبيين(٥).

مسألة حوران

على أن التحالف بين دمشق وبيت المقدس لم يدم طويلا ، وسرعان ما تفككت عراه بسبب جهل حكام بيت المقدس بمنعطفات السياسة وموقفهم من مسألة حوران موقفاً معادياً لمعين الدين أنر . والمعروف ان حوران وتوابعها كانت تابعة لدمشق فى الوقت الذى أراد ألتونتاش - حاكم صرخد وبصرى - أن يستقل ،

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 716 .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص١٢٤؛
ابن القلانسي ؛ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٣) يذكر أبو شامة (المصدر السابق ، ص ١٢٥) أن معين الدين أنر أرسل إلى الوالي بحمص وتقررت بينه وبينه مهادنة وموادعة يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال . ووقعت المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماة ، وتقرر بينهما مثل ذلك .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ هـ .

(5) Grousset : op. cit. II, p. 211 .

فذهب إلى بيت المقدس سنة ١١٤٧ يطلب معونة الصليبيين . وكان العرض الذى تقدم به ألتونتاش للصليبيين سخياً ، يتضمن استيلائهم على صرخد وبصرى مقابل معونتهم له فى الاستقلال بحوران (١). وسرعان ما قبل بارونات بيت المقدس هذا العرض واستعدوا لإرسال جيش إلى طبرية لتنفيذ الخطة المتفق عليها (٢) .

وعندما علم معين الدين أنر بذلك ، حاول أن يذكر المسئولين فى بيت المقدس بالحلف المعقود بين الطرفين ، ويحذرهم من أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى محالفة نور الدين ، مما يوقعهم فى خطر جسيم . ولكن الصليبيين لم يفقهوا حقيقة الموقف وأصموا آذانهم عن ذلك التحذير (٣) .

وكان أن زحف الصليبيون وعلى رأسهم بلدوين الثالث – الذى بلغ السادسة عشر من عمره – من طبرية إلى حوران فى مايو سنة ١١٤٧ . ولم يقف أنر مكتوف الأيدى أمام ذلك التحدى من جانب الصليبيين ، وإنما خرج على رأس جيش كبير من سلاجقة دمشق لسد طريق بصرى وصرخد فى وجوههم ، فضلا عن أنه أرسل يستنجد بنور الدين الذى أسرع من حلب لنجدته ومعه جيشه . وفى الوقت الذى وصل الصليبيون إلى بصرى ، كان معين الدين أنر قد اجتمع بنور الدين عند صرخد ، ومن هناك أسرعا أولا للاستيلاء على بصرى قبل أن يستولى عليها الصليبيون ، وبعد أن تم لهما ذلك استسلمت لهما صرخد (٤) .

وهكذا لم يستطع الصليبيون تحقيق أى هدف من أهداف حملتهم الفاشلة ، وبقى عليهم أن ينسحبوا من بصرى إلى طبرية تحت تهديد جيوش نور الدين ومعين الدين أنر(٥) . وفى وسط تلك المحنة ، أخذ الصليبيون يترحمون على التحالف مع أنر ويبدون الندامة على خيانتهم له ، فأرسلوا مبعوثاً إليه يطلبون منه مجرد السماح لهم بالعودة سالمين إلى فلسطين . ومع ذلك فان الصليبيين لم يتمكنوا من العودة إلى بيت المقدس إلا بعد أن تحملوا كثيراً من المصاعب والمتاعب (٦) . ويبدو أن معين الدين أنر كان لايرغب عندئذ فى توسيع الفجوة مع الصليبيين ؛ وكذلك فإن الصليبيين لم يرغبوا فى إثارة شقاق مع دمشق . وفى الوقت الذى صار من الممكن أن تعود المياه إلى مجاريها بين دمشق وبيت المقدس، إذا بالحملة الصليبية الثانية تصل إلى الشرق لتثير فى نفوس الصليبيين

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٢٩ – ١٣٠ .

(2) Stevenson : op, cit. p. 158 .

(3) Guillaume de Tyr p.p. 710 - 718 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩ ،
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ، ص ١٢٩ – ١٣٠

(5) Guillaume de Tyr I. p. 723 - 724 .

(6) Stevenson : op, cit. p. 158 .

النزعة التعسفية ، وتجعلهم يفرطون فى الاعتداد بأنفسهم والابتعاد عن روح التسامح والوئام مع جيرانهم المسلمين [١] .

مكانة نور الدين :

أما نور الدين محمود فقد ساعدت تلك الأحداث على إظهار كفايته فى نظر المسلمين وخطره على الصليبيين . وكان نور الدين محمود قد بلغ عندئذ التاسعة والعشرين من عمره ، ولكنه أظهر من العقل وبعد النظر والكفاية كما لو كان فى الخمسين ، حتى قال عنه النويرى أنه «ضبط ناموس الملك إلى غاية لامزيد عليها» [٢] هذا إلى أنه لم يتصف بما اتصف به أبوه زنكى من قسوة وغلظة فى بعض المواقف . وقد وجد إلى جانبه بطانة من الأوفياء الذين أخلصوا له النصح والعمل . حقيقة إن نور الدين محمود كان أقل من أبيه فى موارده المالية لأنه لم ينعم بحكم الموصل والجزيرة مثل أبيه ، ولكن نور الدين الذى حرم من أموال الجزيرة ومواردها استراح أيضاً من مشاكلها ومتاعبها ، وترك أخاه سيف الدين غازى ينعم بموارد الموصل وفى الوقت نفسه يقاسى كثيراً من عديد المشاكل من جانب الأراتقة والخلافة العباسية ، فضلا عن سلطنة السلاجقة .

وهكذا ركز نور الدين محمود معظم نشاطه فى ذلك الدور فى ميدان الشام . وربما كان من العوامل الأساسية التى ساعدت نور الدين محمود فى ذلك الوقت عدم حدوث منازعات خطيرة بين أبناء زنكى حول تركة أبيهم ، واستعداد الإخوة لمساعدة بعضهم بعضاً ضد ما واجههم من خطر مشترك ، فقنع نور الدين محمود بحلب ، وقنع سيف الدين غازى بالموصل ، أما أخوهما الثالث نصرة الدين محمد فقد حكم حران تابعاً لأخيه نور الدين ، فى حين كان الأخ الرابع قطب الدين لايزال فى رعاية أخيه غازى بالموصل [٣] .

---

(1) Grousset : op. cit, Tome II, p. 225 .

(٢) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٧ ، ص ١٦٨ .

(3) Runciman : op. cit. II, p. 243 - 244 .

والأخ الثالث كما ذكره ابن القلانسي هو نصرة الدين أمير ميران أو أمير أميران (ذيل تاريخ ، دمشق ، ص ٣٣٨) إنظر أيضا
ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٧٦ ، ابن الموصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٣٠ وكذلك زلمباور : معجم الأنساب ، ص ٣٤٣ .

الفصل الرابع

الحملة الصليبية الثانية

مقدمة الحملة :

كان لسقوط الرها في يد المسلمين رد فعل عنيف في الغرب الأوروبي، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ المسيحية فحسب، بل لأنها كانت أيضا أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق، فجاء سقوطها إيذاناً بترنح البناء الصليبي الكبير الذي نجحت الحملة الصليبية الأولى في أقامته بالشرق. لذلك أدرك الغرب الأوروبي أنه إن لم يسرع إلى ترميم ذلك البناء ومساندته، فإنه لن يلبث أن ينهار بأكمله (١).

ويبدو أن فكرة الحملة الصليبية الثانية نبتت في بلاط لويس السابع ملك فرنسا سنة ١١٤٥، وهو الملك المعروف بورعه وتقواه، ثم تأكدت هذه الفكرة في مجمع فزلاي Vezelay في آخر مارس سنه ١١٤٦، واستجاب لها إمبراطور الغرب كونراد الثالث في ديسمبر من العام نفسه (٢). وهكذا إكتسبت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ طابعاً مختلفاً في أساسه عن الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦، فبينما اتخذت الحملة الأولى في أواخر القرن الحادي عشر طابعا جماهيريا ضخماً إذ تالفت من جموع مختلفة من المسيحيين الغربيين الذين انتموا إلى أجناس وطبقات ودول متعددة، إذا بالحملة الصليبية الثانية قرب منتصف القرن الثاني عشر تتألف من جيشين نظاميين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين في الغرب الأوروبي، ويقودهما أكبر عاهلين في العالم الكاثوليكي ؛ وهما كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا (٣).

وقد أراد روجر الثاني ملك صقلية أن يجنب لويس السابع أخطار الطريق البري عبر آسيا الصغرى، فعرض عليه أن يقدم له ولجيوشه السفن اللازمة لنقلة إلى الشام مباشرة، فضلا عن استعداده لتزويد الصليبيين بالمؤن والزاد أثناء رحلتهم البحرية (٤). ولكن ذلك العرض من جانب ملك صقلية النورماني كان لا يمكن أن يأتي لوجه الله والكنيسة، لاسيما وأن أطماع النورمان كانت معروفة جيداً

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 307.
(2) Setton : op. cit. I, p. 467 - 469.
(3) Cam. Med. Hist, vol. 5, ps. 307 , 353.
(4) Fletcher : The Making of Western Europe, p. 157.

فى الغرب والشرق جميعاً ، فقوبل عرضه بالرفض. والحقيقة أن روجر الثانى كان يطالب بحقه الوراثى فى إمارةأنطاكية، مما أوقعه فى عداء شخصى مع ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية الذى ربطته بالعائلة المالكة فى فرنسا روابط عائلية وثيقة، أهمها أن ريموند نفسه كان عم ملكة فرنسا إليانور، التى كان فى النية أن تصحب لويس السابع فى حملته الصليبية (١).

وفى الوقت نفسه فان كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا لا يمكن أن يقبل وضع يده فى أيدى النورمان، حتى ولو كان ذلك من أجل التعاون فى خدمة الحركة الصليبية، نظراً لما ساد العصر الذى اشتد فيه النزاع بين البابوية والإمبراطورية المقدسة، من عداء بين الإمبراطورية المقدسة من ناحية - والنورمان من ناحية أخرى (٢). ولذلك تمسك كونراد الثالث أيضا بالطريق البرى إلى الشام، وتم الاتفاق على أن يسبق كونراد وجيشه ثم يلحق بهم الفرنسيون إلى القسطنطينية ، حتى لا يؤدى مسير الجيشين معاً الى صعوبة فى التموين (٣).

وعند وصول الجيوش الصليبية الى حدود الدولة البيزنطية فى صيف سنة ١١٤٧ تكررت نفس المشاهد التى حدثت من قبل ذلك بنصف قرن عند زحف الحملة الصليبية الأولى الى الشرق، وذلك من ناحية عدوان الصليبيين على أهالى البلاد التى مروا بها . ومهما يكن من أمر، فقد وصل الصليبيون الى القسطنطينية، فى سبتمبر - أكتوبر سنة ١١٤٧ ، وكان كل جيش من الجيشين الألمانى والفرنسى يتألف من حوالى سبعين ألف رجل، مما أثار مشاكل جديدة بين الصليبيين والبيزنطيين، مثلما حدث بالضبط سنة ١٠٩٧ (٤).

وفى تلك المرة أيضا أعلن الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين استعداده للسماح للصليبيين بعبور أراضيه، وإمدادهم بالزاد، بشرط تعهدهم بالولاء له من جهة، وتسليمه ما يستولون عليه من مواقع فى آسيا من جهة أخرى (٥). ولكن المشكلة سنة ١١٤٧ بدت فى أن زعماء الحملة الثانية كانوا من كبار ملوك الغرب الأوروبى وليسوا مجرد آمراء محليين كما كان الحال فى الحملة الصليبية الأولى. وكيف كان منتظراً من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا أن

---

(1) Cam. Med. Hist. vol 5, p. 374 - 375.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور. أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٣٨٢ - ٣٩٣.

(3) Runciman : op. cit : II, p. 259.

(4) Vasiliev : op. cit. II, p. 419 - 420.

(5) Ostrogorsky : op. cit. p. 339.

يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا أتباعاً للامبراطور البيزنطى ؟ (١).

أما الإمبراطور البيزنطى فكان متخوفاً من حدوث تطورات فى مشكلة أنطاكية، لاسيما بعد أن أعلن أميرها ريموند دى بواتيه توبته فى القسطنطينية سنة ١١٤٥ وتعهد بالولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطى، كما مر بنا. فهل يظل ريموند على موقفه الجديد من الإمبراطورية البيزنطية بعد وصول الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق ؟ لاشك فى أن هذا الأمر كان مشكوكاً فيه، لاسيما وأن أحد زعماء الحملة الصليبية الثانية وهو لويس السابع ربطته بريموند روابط عائلية قوية جعلت من الممكن أن يعتمد عليه ريموند فى تأييده ضد البيزنطيين (٢).

وكان الإمبراطور مانويل كومنين قد شن حرباً على سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى (١١٤٤ - ١١٤٦) واستطاع أن ينزل الهزيمة بجيوش مسعود بن قلج أرسلان سلطان قونية ويحرق ويدمر بعض مدنه، ولكن الإمبراطور عاد بعد ذلك إلى عاصمته دون أن يعقد صلحاً مع السلاجقة (٣). ولم يلبث أن وصل الصليبيون الألمان بعد قليل إلى أسوار القسطنطينية،وساءت العلاقات بينهم وبين البيزنطيين، فأسرع الإمبراطور البيزنطى إلى عقد صلح مع مسعود سلطان قونية الذى أوشك الصليبيون أن يسلكوا أراضيه إلى الشام (٤).

ومن الواضح أن هذه الخطوة الخطيرة التى إتخذها الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين كان لها أسوأ الأثر بالنسبة للحملة الصليبية الثانية. ولعلنا نذكر أن السبب الرئيسى فى نجاح الحملة الصليبية الأولى ووصولها الى بلاد الشام كان التحالف بين زعمائها والبيزنطيين، وهو التحالف الذى مكن الصليبيين سنة ١٠٩٧ من شق طريقهم وسط جموع السلاجقة بأسيا الصغرى. ولو كان البيزنطيون الذين استطاعوا سنة ١١٤٦ التوغل فى بلاد سلاجقة الروم حتى وصلوا الى قونيه نفسها، قد شاركوا الصليبيين فى العالم التالى - سنة ١١٤٧ - فى محاربة السلاجقة أو حتى اسهموا فى مساعدتهم بتقديم مرشد وأدلاء كافين لهم (٥)، لأمكن القضاء على تلك العقبة التى ظلت تعترض الطريق البرى للجيوش الصليبية الوافدة من الغرب، ولنجت الحملة الصليبية الثانية من المصير الفاشل الذى تعرضت له، ولتخلصت الدولة البيزنطية نفسها من خصم عنيد ظل رابضاً على قلبها فى آسيا الصغرى، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث نتيجة لاشتراطات إمبراطور الشرق

(1) Grousset : op. cit, Tome ll, p. 226.
(2) Ostrogorsky : , op. cit., p 338 - 339.
(3) Ghalandon : Comnenes, ll, p. 249 - 256.
(4) Runciman : op. cit, ll. p. 266.
(5) Archer : The Crusades, p. 212.

مانويل كومنين، وتمنع إمبراطور الغرب كونراد الثالث (١).

فشل حملة الألمان في آسيا الصغري :

ثم كان أن عبر كونراد الثالث البوسفور إلى آسيا الصغرى على رأس قواته وشرع فى الزحف شرقاً. وبدلا من أن يتخذ الإمبراطور الألمانى طريق الشاطىء الجنوبى لاسيا الصغرى ليحتمي بالقلاع والمدن البيزنطية العديدة الواقعة على ذلك الشاطىء، اختار أن يشق طريقه فى جوف البلاد مخترقاً أراضى السلاجقة، ولم يتبع الطريق الساحلى سوى قسم من الجيش الألمانى يبلغ الخمس (٢).

وفى منتصف أكتوبر سنة ١١٤٧ غادر الإمبراطور كونراد نيقية فى طريقه الى قونيه، عندما دب النزاع بين الألمان ودليلهم البيزنطى، فتركهم الدليل وتخلى عنهم فى ٢٥ أكتوبر ، مما عرض الصليبيين الألمان لأسوأ النتائج (٣). ذلك أنه لم يكد الألمان يقتربون من أسكي شهر حتى دهمهم السلاجقة فى ٢٦ أكتوبر سنة ١١٤٧ وأعملوا فيهم قتلا وأسراً، فاضطر كونراد إلى التراجع فى صعوبة بالغة نحو نيقة، مع من بقى من فلول جيشه، فى حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم (٤).

وهكذا عاد الإمبراطور كونراد الثالث إلى نيقية فى أوائل نوفمبر وهو فى حال يرثى له من الإنهاك والذلة، ليلتقى فى تلك المدينة بلويس السابع ملك فرنسا (٥).

وصول لويس السابع إلي الشام :

أما لويس السابع ملك فرنسا فقد وصل أمام أسوار القسطنطينية فى ٤ أكتوبر سنة ١١٤٧ ، حيث صدمه نبأ الصلح المنفرد الذى عقده الإمبراطور البيزنطى مع سلاجقة قونية ، والذى اعتبره بمثابة خيانة عظمى فى حق الفكرة الصليبية بوجه عام وفى حق الحملة الصليبية الثانية على وجه الخصوص (٦). ،لم تكن العلاقات بين لويس السابع ومانويل كومنين فى تلك المرحلة أفضل مما كانت عليه بين كونراد الثالث ومانويل كومنين ، بل لقد زاد الموقف سوءاً أن الإمبراطور البيزنطى لم يكد يعلم بعبور لويس السابع وجنوده البسفور إلى شاطئ آسيا الصغرى ، حتى

(1) Grousset : op. cit, Tome II, p. 233 - 234.
(2) Setton : op. cit. I, p. 495.
(3) Guillaume de Tyr p. 739 - 741.
(4) Guillaume de Tyr, I, p. 745 &
Michel Le Syrien.. p. 276.
(5) Michel Le Syrien. p. 276.
(6) Michaud : Hist. des Croisades, II, p. 158 .

اطمأن على عاصمته ، فأمر بوقف إمداد الصليبيين بما لزمهم من تموين ، إلا إذا أقسم له جميع الأمراء الفرنسيين المشتركين فى الحملة يمين الولاء والتبعية عما يفتحونه من أراض آسيويه [1]. وكان أن أذعن الملك لويس السابع لتلك الرغبة ، وتم للإمبراطور البيزنطى ما أراد أواخر شهر أكتوبر ، وما هى إلا بضعة أيام حتى وصلت حملة لويس السابع إلى نيقية لتفاجئ بالكارثة التى حلت بالألمان وإمبراطورهم كونراد الثالث [2].

ولم يشأ لويس السابع أن يعرض نفسه وجنوده للمصير السئ الذى تعرض له كونراد الثالث ، فاختار أن يسلك الطريق الجنوبى المحاذى لساحل البحر المتوسط ، بعيداً عن جوف سلطنة الروم السلاجقة . لذلك اتجه لويس السابع – ومعه كونراد وفلول جيشه – إلى أزمير ومنها إلى إفسوس (نوفمبر ١١٤٧) . وفى إفسوس أحس كونراد الثالث بحرج موقفه وضعف مكانته بعد أن فقد معظم جيشه وتسببت هزيمته أمام السلاجقة فى تلطيخ كرامته . ويقال إنه أصيب بمرض مفاجئ جعله يترك جانب الفرنسيين ويعود مع جنوده الألمان إلى القسطنطينية [3]. وقد مضى الإمبراطور الألمانى بضعة أشهر فى القسطنطينية ، حظى فيها بعطف مانويل كومنين ، حتى كان شهر مارس ١١٤٨ ، وعندئذ اتجه كونراد الثالث ومعه جنوده إلى فلسطين على سفن بيزنطية [4].

وفى تلك الأثناء واصل لويس السابع وجنده تقدمهم من إفسوس صوب أنطاليا دون أن يصطدموا بالسلاجقة اصطداما مباشرا خطيراً . وكانت أنطاليا مدينة حصينة تتبع الإمبراطورية البيزنطية ، وتقع على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، ولذلك أدى وصول الصليبيين إليها فى يناير سنة ١١٤٨ إلى إتاحة فرصة طيبة لهم للراحة والاستجمام ، وإن استمروا يتعرضون لهجمات السلاجقة بين فينة وأخرى [5]. وبوصول لويس السابع ورجاله إلى أنطاليا أصبح أمامهم طريقان للوصول إلى الشام ، إما طريق البحر إلى السويدية وأنطاكية ، وإما طريق البر بحذاء الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى إلى قيليقية وأنطاكية ، وقد انتصر الطريق الأول نظراً لبعد طريق البحر عن خطر السلاجقة . وإن كانت الصعوبة فى ذلك الطريق قد تبلورت فى كيفية الحصول على السفن اللازمة لنقل الصليبيين إلى شاطئ الشام [6]. وهنا أظهر البيزنطيون عداءهم مرة أخرى ، فامتنعوا عن

(1) Ostrogorsky : op. cit p. 339 & Brehier : op. cit. p. 330 .
(2) Chalandon : Comnenes. II. p. 301 - 304 .
(3) Fletcher : op. cit. p. 381 .
(4) Guillaume de Tyr, I, 744 - 747 .
(5) Setton : op. cit. I. p. 499 .
(6) Runciman : op. cit; II, p. 272 - 273 .

تقديم السفن اللازمة للصليبيين ، بل إنهم حرصوا على إثارة المتاعب والعقبات فى وجه الصليبيين ، مما أثار نقمة الغرب الأوروبى على الأباطرة البيزنطيين ، ودولتهم ، وهى النقمة التى عبرت عن نفسها تعبيراً عملياً فيما بعد فى الحملة الصليبية الرابعة (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت السفن التى اجتمعت فى أنطاليا لنقل الصليبيين غير كافية ، فركب لويس السابع وحاشيته وبعض فرسانه ، وأبحروا إلى ميناء السويدية ليصلوا إليه فى ١٩ مارس سنة ١١٤٨ . أما بقية رجال الحملة فقد ظلوا فى أنطاليا يقاسون الأمرين من سوء معاملة البيزنطيين وهجمات السلاجقة حتى تم نقلهم على دفعات إلى الشام (٢) .

لويس السابع في أنطاكية :

قوبل لويس السابع وزوجته إليانور فى أنطاكية بالتهليل والفرح العظيم ، إذ رأى ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية وعم الملكة أليانور فى تلك الحملة أداة طيبة تمكنه من استرداد أراضية المفقودة شرقى نهر العاصى ، والقضاء على قوة نور الدين فى حلب (٣) . والواقع إن ريموند كان محقاً فى تفكيره إلى حد بعيد ، لأن الحملة الصليبية الثانية إنما أتت إلى الشام للقضاء على قوة الزنكيين فى شمال العراق والشام ، وبالتالى تأمين الأوضاع الخاصة بامارتى الرها وإنطاكية ، وهما الإمارتان اللتان تعرضتا أكثر من غيرهما لضربات الزنكيين بحكم تطرفهما جهة الشمال (٤) .

ولم يكن ريموند دى بواتيه وحده هو الذى حاول أن يستغل الحملة الصليبية الجديدة لصالحه ، بل رأى كل واحد من الأمراء الصليبيين فى الشرق فى حملة لويس السابع فرصة يمكنه استغلالها لتحقيق مصالحه الخاصة . فجوسلين الثانى اعتقد أن سقوط الرها هو المحرك الأول لتلك الحملة . وعلى ذلك يجب أن يتجه الصليبيون أولا نحو الرها لاستردادها من المسلمين . وريموند الثانى أمير طرابلس أراد أن يستغل الرابطة التى تربطه بالملك الفرنسى عن طريق أمه الفرنسية لتسخير الحملة فى استرداد قلعة بعرين من المسلمين . وفى أبريل سنة ١١٤٨ وصل إلى أنطاكية بطرق بيت المقدس نفسه موفداً من قبل الملك ليحث لويس السابع على الاتجاه فوراً نحو مدينة المسيح ، وليعلمه أن الإمبراطور الغربى كونراد

(1) Grousset : op. cit; Tome II, 243 - 244 .
(2) Michaud : op. cit. p. 170 - 171 .
(3) Guillaume de Tyr, I, p. 752 .
(٤) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٥٢ .

الثالث وصل فعلا إلى بيت المقدس [1] . وهكذا وجد لويس السابع نفسه فجأة وسط تيارات متعارضة ، يحاول كل منها جذبه فى ناحية معينة ، فأدرك أن أسلم الطرق هو طريق بيت المقدس [2] .

وبعبارة أخرى فان لويس السابع ورجاله نسوا عند وصولهم إلى أنطاكية الهدف الأساسى لحملتهم ؛ فلم يوافقوا ريموند على رأيه الخاص بالاتجاه أولا ضد حلب والاستيلاء عليها لطعن الدولة النورية في قلبها ، وآثروا الاتجاه جنوباً صوب بيت المقدس. وقد برر لويس السابع وأيه هذا بأنه إنما قبل أن يحمل الصليب ويأتى إلى الأراضى المقدسة للحج وزيارة بيت المقدس والدفاع عن تلك المدينة ، لا لغزو حلب [3]

والواقع أنه من الصعب تفسير ذلك الموقف الغريب الذى اختاره لويس السابع ، فقد يكون سببه إعراض الملك الفرنسى عن تلبية رغبة عم زوجته ، نظراً لما كان هناك من نفور بين إليانور وزوجها لويس السابع [4]. وقد يكون السبب هو تخوف لويس السابع من الزج بنفسه وبجيوشه فى مغامرة لايضمن نتائجها ضد نور الدين . ومهما يكن من أمر فقد أخذ لويس السابع زوجته - عنوة - واتجه صوب بيت المقدس دون أن يستأذن ريموند أمير أنطاكية فى السفر [5] .

الحملة الصليبية الثانية ودمشق :

وقد وصل لويس السابع إلى بيت المقدس ليجد الإمبراطور الألمانى كونراد الثالث فى إنتظاره فى منتصف أبريل سنة ١١٤٨ . وسرعان ما اتضح أن أمراء أنطاكية والرها وطرابلس لم يكونوا وحدهم هم الذين طمعوا فى إستغلال حملة لويس السابع فى تحقيق مكاسب خاصة ، بل إن مملكة بيت المقدس نفسها طمعت فى أن تستغل تلك القوة الجديدة فى الاستيلاء على دمشق ذاتها [6] .

---

(1) Guillaume de Tyr. I, p. p. 722 - 756 .
(2) Runciman op. cit, II, p. 279 .
(3) Guillaume de Tyr p. 752 .

(٤) سعيد عاشور . أوربا العصور الوسطي جـ ١ ص ٢٥٣ .

(٥) تشير المصادر إلي أن الفترة التي قضاها لويس السابع في أنطاكية صحبتها إشاعات عديدة عن وجود علاقات سرية بين الملكة إليانور زوجه لويس السابع وريموند دي بواتيه أمير أنطاكية ، حتي شوهد الاثنان في خلوة أكثر من مرة . ويقال إنه عندما خشي لويس السابع علي سمعته وعرضه ، قرر السفر فجأة ، فامتنعت زوجته وأعلنت أنها تطلب الطلاق من زوجها . ولكن لويس السابع أخذها بالقوة من قصر عمها ، وساقها أمامه إلي بيت المقدس . أنظر .

Runciman op. cit, II, p. 279 .
(6) Setton : op. cit, i, p. 505 .

وهكذا انحرفت الحملة الصليبية الثانية عن هدفها الأساسى الذى أتت من أجله إلى الشرق ، وهو القضاء على الزنكيين واسترداد شمال الشام واستعادة الرها ، وجنحت نحو مساعدة مملكة بيت المقدس التى كانت فى حقيقة أمرها أقل الوحدات الصليبية فى الشرق تعرضاً لضغط المسلمين عندئذ (١). ومن هذا كله يتضح مدى التغيير الذى طرأ على أوضاع الصليبيين ببلاد الشام ومثلهم ومبادئهم، فبعد أن كان ملوك بيت المقدس السابقون – مثل بلدوين الأول ، وبلدوين الثانى ، وفولك الأنجوى – يضحون بإنفسهم وبمصالحهم ويتحملون الأخطار فى سبيل نجدة الرها أو أنطاكية أو طرابلس ، إذا بمملكة بيت المقدس فى عهد ملكها القاصر بلدوين الثالث وأمه الوصية مليزاند تسعى لحرمان الإمارات الصليبية فى الشمال من حق مشروع فى المساعدة والنجدة ، لتستغل حملة صليبية فى تحقيق مكاسب إضافية لنفسها (٢).

ومهما يكن من أمر ، فقد استقبل لويس السابع فى بيت المقدس استقبالا حافلا . وفى ٢٤ يونية سنة ١١٤٨ عقد مجلس صليبى كبير فى عكا حضره لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا والملك القاصر بلدوين الثالث ومعه أمراء مملكة بيت المقدس ، فضلا عن عدد آخر كبير من كبار رجال الدين والأمراء الصليبيين فى الشرق والغرب (٣). على إنه يلاحظ على ذلك المؤتمر أنه لم يضم أعضاء يمثلون أنطاكية والرها وطرابلس ، وهى الإمارات الصليبية الثلاث التى كانت مهددة تهديداً مباشراً بخطر نور الدين ، والتى رأى أمراؤها أنه من العبث تبديد قواهم من أجل تحقيق مطامع ثانوية لمملكة بيت المقدس (٤). وقد ترتب على ذلك أن تناسى المؤتمرون خطر نور الدين والزنكيين ، واتجهوا – تحت تأثير أمراء بيت المقدس – إلى مهاجمة معين الدين أنر، الحليف الوحيد للصليبيين بين أمراء المسلمين بالشام (٥).

ولم تلبث أن تجمعت الجيوش الصليبية لمهاجمة دمشق فى أوائل يولية سنة ١١٤٨ ؛ وكان اجتماعها عند طبرية ومنها زحف الصليبيون عن طريق بانياس

---

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, p.p. 46 - 47 .

(2) Stevenson : op. cit. p. 159 .

(3) Guillaume de Tyr, I, p.p. 758 - 759 .

(٤) وقد يكون سبب إحجام أمير طرابلس بالذات عن مشاركة بقية الصليبيين في غزو دمشق هو اتهامه بدس السم لألفونس جوردان أمير تولوز الذي وفد مع لويس السابع ملك فرنسا ، والذي كان صاحب الحق الشرعي في حكم طرابلس بوصفه ابن ريموند دي تولوز مؤسس إمارة طرابلس . أنظر

(Runciman : op. cit, II. p. 280) .

(5) Grousset : op. cit Tome II. p. 255 .

إلى الغوطة (١). وعندما بدأ الصليبيون بمهاجمة الغوطة فى ٢٤ يولية سنة ١١٤٨ احتلوا بعض المراكز والقرى الأمامية خارج سور دمشق ، مثل المزة والربوة ، فى حين جمع المسلمون جمعهم واشترك الزهاد والفقهاء فى القتال (٢)، « واجتمع عليهم من الأعمال والأجناد والأتراك وأحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير ، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد ....» (٣). وقد أخذ المسلمون يهاجمون الصليبيين فى الجهة الغربية للمدينة ، وهى الجهة التى أسماها المؤرخون المسلمون الميدان الأخضر(٤). مما جعل كونراد ولويس وبلدوين يفكرون فى سحب قواتهم إلى الجهة الشرقية الخالية من الأشجار ، حتى لايجد المسلمون ستاراً يحتمون خلفه أثناء مهاجمتهم المعسكر الصليبى . ولكن تلك الخطوة التى تمت فى ٢٧ يوليو لم تكن موفقة لأن الموضع الجديد كان بعيداً عن مياه الشرب مما عرض الصليبيين لمتاعب جمة (٥).

وفى تلك الأثناء أخذت قوات معين الدين أنر تتزايد تزايداً مستمراً ، لأنه عندما تأكد من أن الصليبيين قصدوا دمشق فعلا - وهو آخر ما كان يتوقعه - بادر بارسال الرسل إلى نوابه فى المدن والقلاع التابعة لدمشق ، فضلا عن نور الدين محمود فى حلب ، يطلب منهم النجدة . وهكذا تدفقت النجدات على دمشق من الأبواب الشمالية ، مما جعل الصليبيين يتحولون من الهجوم إلى الدفاع «وأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار»(٦).

وزاد الطين بلة انقسام الصليبيين على أنفسهم، وهم فى ذلك الموقف الحرج أمام دمشق، إذ بدت البغضاء من بعضهم بسبب التنافس حول مصير الغنيمة، وذلك قبل أن يتمكنوا من الفوز بالغنيمة ذاتها. فبينما طمع أمراء بيت المقدس فى أن تصبح دمشق عند الاستيلاء عليها تابعة للمملكة، إذا ببعض الأمراء - يؤيدهم لويس السابع نفسه - يطمعون فى الفوز بدمشق ليقيموا فيها إمارة صليبية جديدة مستقلة (٧). وهكذا دب الشقاق بين الأمراء الصليبيين بعضهم وبعض كما ظهر الخلاف واضحاً بين الصليبيين الجدد الوافدين صحبة ملك فرنسا وإمبراطور

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٣٤ .
(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٩٤ - ٩٥ .
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٣٤ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١٢ .
النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ص ١٥٠ (تحقيق المؤلف)
(5) Guillaume de Tyr. I, p.p. 766 .
(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١٣٦ .
(6) Runciman. op. cit; II, p. 238.

المانيا، والصليبيين القدامى فى الشام [١]؛ حتى اتهم بعض المؤرخين الصليبيين أمراء بيت المقدس بأنهم حصلوا على رشاوى سخية من معين الدين للتضليل بالصليبيين وإفساد الحملة [٢]. وقوى هذا الاتهام أن أمراء بيت المقدس كانوا هم الذين أشاروا على الصليبيين بالجلاء عن الغوطة الغربية، حيث الماء متوفر والهجوم أيسر، وحثوهم على الانتقال إلى الجانب الشرقى من دمشق بعيداً عن الماء، وحيث الهجوم أصعب وأشد تعرضا للخطورة [٣].

انسحاب الصليبيين وفشل الحملة :

وفى تلك الأثناء وصلت استغاثة أنر إلى الزنكيين : سيف الدين غازى أتابك الموصل، ونور الدين محمود أتابك حلب، فانتهزا الفرصة وزحفا مباشرة على دمشق. على أنه كان لابد للأميرين الزنكيين من أن يفكروا فى الثمن قبل محاربة الصليبيين، لذلك توقفا فى حمص وأرسل غازى إلى معين الدين أنر يشترط عليه «أن يكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فان انهزمت دخلت أنا وعسكرى إلى البلد واحتمينا به، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه [٤]. »

وكان أنر يعرف جيداً نية الأخوين ابنى عماد الدين زنكى، ويدرك أنه إذا احتلت جنودهما قلعة دمشق مرة فلن يتركوها للأبد. لذلك تجاهل أنر الرد على غازى وأخيه ، وماطله لينظر ما يكون من الفرنج ، وفى الوقت نفسه أرسل معين الدين أنر رسالة عاجلة إلى الصليبيين يهددهم بأن «ملك الشرق قد حضر فان رحلتم وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ تندمون» [٥]. كذلك شرح أنر للصليبيين مدى الخطر الذى سيحيق بهم لو استولى سيف الدين غازى على دمشق لأنه فى تلك الحالة «لن يبقى لكم معه مقام بالشام [٦]. » ثم إن معين الدين أنر عرض على أمراء بيت المقدس إعطائهم حصن بانياس مقابل الجلاء عن دمشق وهو عرض مغرى [٧].

---

(1) Cam. Med Hist, vol. 5, p. 307.
(2) Michel Le Syrien, p 206.
(3) Grousset : op. cit. Tome II, p.p. 263 - 264.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ٨٩.
الكامل، حوادث سنة ٥٤٣ هـ.
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ١١٣.
ويلاحظ أن ابن واصل يذكر أن معين الدين أنر أرسل رسالته هذه إلي (الفرنج الغرباء). وفي ذلك تفرقة واضحة بين الصليبيين الجدد الوافدين، والصليبيين القدامي المستقرين علي أرض الشام (ابو شامه، ص ١٣٨).
(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٣ هـ.
(٧) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧ ، ص ١٥٠.

ولم يلبث أن أخذ الصليبيون يعملون حسابا لاقتراب القوات الإسلامية المتحدة من جهة الشمال (١)، فأدركوا أخيراً أن حملتهم لم تتجه وجهتها الصحيحة وأن حلب لا دمشق كانت أولى بجهود الصليبيين. وعندما وجد الصليبيون أنفسهم مهددين بين لحظة وآخرى بانقضاض قوات الزنكيين - غازى ونور الدين - عليهم، فى الوقت الذى ساء وضعهم فى مركزهم الجديد شرقى دمشق بسبب نقص الأقوات وعدم توافر ماء ، قرر لويس السابع وكونراد الثالث - فى نهاية يوليو - الانسحاب ورفع الحصار عن دمشق، ولما يمضى على وصولهم إليها سوى بضعة أيام (٢).

وكان الوقت صيفاً والحرارة قاسية عندما أخذ المسلمون يطاردون الصليبيين أثناء انسحابهم، فضاق الصليبيون ذرعاً بمرارة الفشل وحرارة الجو وقلة الماء، وأخذ المحاربون الوافدون من الغرب يتبادلون مع بارونات التهم مملكة بيت المقدس. ولم يلبث الإمبراطور كونراد الثالث أن أبحر من عكا عائداً إلى أوروبا فى ٨ سبتمبر سنة ١١٤٨، فى حين بقى لويس السابع ستة أشهر أخرى، ولم يغادر فلسطين إلى أوروبا إلا فى سنة ١١٤٩، بعد أن استولى الصليبيون فى مملكة بيت المقدس على بانياس حسب وعد أنرلهم (٣).

نتائج الحملة الصليبية الثانية :

أتت الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق لتثبيت دعائم الإمارات الصليبية واسترداد الرها والحد من ضغط المسلمين الذى تزايد على يد زنكى وولديه. ولكن فشل هذه الحملة أمام دمشق، وعجزها عن تحقيق هدف واحد من أهدافها، أدى إلى عكس النتائج التى رمت اليها، فانحطت هيبة الصليبيين ومكانتهم بالشام وازداد نفوذ المسلمين وارتفعت روحهم المعنوية (٤).

ذلك أن أمراء المسلمين فى آسيا الصغرى والشام والعراق، ظلوا منذ سنة ١٠٩٩ فى خوف دائم من وصول حملة صليبية جديدة من الغرب تنكل بهم وتستولى على حلب ودمشق، مثلما استولت الحملة الأولى على الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس. فلما وصلت الحملة الصليبية الثانية إلى الشام وتعرضت للخيبة والفشل، اتضح للمسلمين أنهم كانوا يخشون أوهاماً كاذبة (٥) وأن الصليبيين

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٩.

(2)Stevenson : op. cit. p. 160.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١١٣.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٠.
أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ ق ص ١٤٢ - ١٤٣.

(5) stevenson : op. cit. p. 164.

أضعف من أن يقوموا بجهد جدى ضد المسلمين. وعندئذ تشجعت القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وبدأت تغير على ما جاورها من أملاك الصليبيين وتسترد ما سبق أن فقده المسلمون (١) . لذلك لا عجب إذا قرر بعض المؤرخين أن فشل الحملة الصليبية الثانية يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية وفى تاريخ الصليبيين فى الشرق الأدنى (٢) .

وكانت أولى الإمارات الصليبية تعرضا لهجمات المسلمين عقب فشل الحملة الصليبية الثانية، هى إمارة أنطاكية التى طالما نادى أميرها ريموند دى بواتيه بأن تتجه الحملة الصليبية الثانية ضد حلب بالذات. ويبدو أن عدم استجابة الصليبيين لدعوته جعل ريموند يبدأ بالعدوان على حلب لتنفيذ ما خشى لويس السابع القيام به، فلم يكد يتم انسحاب الصليبيين من الشام، حتى جمع ريموند رجاله عند بحيرة العمق، استعداداً للانقضاض على حلب (٣). وقد اعتمد ريموند دى بواتيه عندئذ على مساعدة الباطنية الذين أضمروا كرهاً دفيناً لنور الدين محمود (٤) .

ولكن حدث قبل أن ينفذ ريموند مشروعه ضد حلب، أن بادره نور الدين محمود بالانقضاض عليه، فدارت المعركة بين الطرفين سنة ١١٤٩ عند مكان يعرف باسم يغرى – إلى الشمال الشرقى من بحيرة العمق – وفى تلك الموقعة كسر الصليبيون كسرة قبيحة ؛ وقتل المسلمون عدداً كبيراً من فرسانهم وزعمائهم، وأرسل نور الدين من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين غازى وإلى الخليفة ببغداد وإلى مسعود وغيرهم (٥) .

ازدياد نفوذ نور الدين بالشام :

وزاد من نفوذ نور الدين وسلطانه بالشام نجاحة فى الاستيلاء على حمص سنة ١١٤٩ . ذلك أن سيف الدين غازى أتابك الموصل توفى فى نوفمبر من السنة السابقة، فقام نزاع قصير بين أخويه نور الدين أتابك حلب وقطب الدين الذى آلت إليه الموصل. وقد دار ذلك النزاع حول سنجار، حتى انتهى الأمر بأن أخذ قطب

(1) Grousset; op. cit. Tome II, p. 271.
(2) Runciman : op. cit. II, p. 291.

(٣) النويري نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٤ .
(٤) يروي أبو شامة أن نور الدين أمر بابطال بعض شعائر الشيعة في حلب، ومنعهم من التظاهر بسب الصحابة (وأنكر ذلك إنكار شديداً، وساعده علي ذلك جماعة من أهل السنة بحلب فعظم ذلك الأمر علي الإسماعيلية وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا...) .
(كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٤٧) .
(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٣ هـ. وفي النويري (نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٤) يغرا بالألف، وهي بلدة قريبة من دربساك.

الدين سنجار مقابل تنازله لنور الدين عن حمص. وهكذا خطا نور الدين خطوة جديدة نحو توحيد بلاد الشام تحت سيادته [١].

ولم يكد نور الدين يفرغ من حل مشكلة الموصل ويستولى على حمص، حتى أخذ يوجه جهودة من جديد ضد إمارة أنطاكية، فاغار فى صيف سنة ١١٤٩ على الإقاليم المحيط بقلعة حارم على الضفة الشرقية لنهر العاصي. ويذكر ابن القلانسى أن نور الدين طلب عندئذ المعونة من معين الدين أنر فأمده بقوة من فرسانة [٢]؛ وعندئذ ترك نور الدين حارم مكتفياً بتدمير ما حولها من ضياع وأخذ يحاصر قلعة إنب على الضفة الشرقية لنهر العاصى أيضا قرب معرة النعمان. وعندما علم ريموند دى بواتيه صاحب أنطاكية بمحاصرة نور الدين لقلعة إنب، خرج على رأس قوة من رجاله لصد نور الدين[٣]. وعندئذ ارتكب ريموند الغلطة نفسها التى وقع فيها روجر دى سالرنو من قبل، مما أوقعة فى المصير نفسه [٤].

ذلك أن ريموند لم ينتظر اجتماع كل فرسانه، وإنما تسرع فى الخروج لملاقاة نور الدين وليس معه سوى أربعمائة من الفرسان وألف من المشاة، فى حين بلغت قوة نور الدين ستة آلاف من الفرسان سوى «الأتباع والسواد» [٥]. وكان أن أحاط نور الدين بريموند ورجاله قرب إنب فى ٢٩ يونيه سنة ١١٤٩ وأبادهم أولا عن آخر، وكان من جملة القتلى ريموند أمير أنطاكية نفسه ورينو صاحب كيسوم ومرعش، فضلا عن على بن وفا زعيم الباطنية الذى كان مرافقاً للصليبيين [٦]. ويصور لنا المؤرخون مدى فرح المسلمين بمقتل ريموند الذى «كان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم» [٧]؛ فقطع رأسه فى الحال وحملت إلى نور الدين «فوصل حامله بأحسن صلة» [٨]. ويضيف المؤرخ وليم الصورى أن نور الدين أرسل رأس ريموند وذراعه الأيمن إلى الخليفة العباسى فى بغداد فى

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٩٦.
(٢) ابن القلانسي : ديل تاريخ ص ٣٠٤.
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ص ١٤٩ - ١٥٠.
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١.
(4) Grousset : op. cit. Tome II, p. 274 - 275.
(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ١ ق١ ص ١٥٠.
(6) Michel le Syrien, p 289.
(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢١.
(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥ ،
أبو شامة : كتاب الرضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٠.

صندوق من الفضة [1]. ولم يلبث المسلمون أن أقاموا الأفراح فى كل مكان ابتهاجاً بمقتل ريموند ورينو، ونظمت القصائد للتغنى بذلك النصر المبين [2].

ولم يضع نور الدين فرصة النصر تلك المرة، وإنما أوغل فى إمارة أنطاكية يدمر وينتقم من الصليبيين حتى وصل إلى السويدية، ميناء أنطاكية. بل يذكرابن القلانسى أنه هدد أنطاكية نفسها، فوقع أهلها فى حيرة شديدة وخيم عليهم الرعب حتى أنهم عرضوا على نور الدين كل ما يمتلكون من أموال ومتاع ليترك مدينتهم. وعندئذ ترك نور الدين فرقة من جيشه أمام أنطاكية لتبقى على حصارها ،والإقامة عليها والمنع لمن يصل إليها ، وانصرف هو إلى فامية [3].

ويبدو أن نور الدين أدرك أن حصار مدينة كبرى مثل أنطاكية والاستيلاء عليها يتطلب منه وقتاً طويلا وجهداً كبيراً ؛ فى الوقت الذى ستسرع قوات بيت المقدس وطرابلس لنجدتها. لذلك آثر نور الدين أن يستغل فرصة الاضطراب الذى ساد إمارة أنطاكية عقب مقتل ريموند أميرها ليستولى على ما تبقى لتلك الإمارة من معاقل قوية شرقى نهر العاصى. وفعلا بدأ نور الدين بحصار حارم فى يوليو سنة ١١٤٩، ولكن الصليبيين صالحوه على نصف أعمال حارم[4] لذلك إنصرف نور الدين إلى أفامية واستطاع الاستيلاء عليها فى أواخر الشهر نفسه [5]. وبذلك نجح نور الدين فى الاستيلاء على جميع ممتلكات إمارة أنطاكية شرقى نهر العاصى، مما جعله يقنع بما حققه من مكاسب فى تلك المرحلة فاستدعى قواته التى تركها أمام مدينة أنطاكية.

أما أنطاكية عندئذ فقد غدت تحت حكم كونستانس أرملة ريموند، التى

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 774.

(٢) ومن ذلك القصيدة التي نظمها القيسراني وذكرها النويري وابن الأثير :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب ... وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متي خطبت ... تعثرت خلفها الأشعار والخطب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة ... فؤاد رومية الكبري لها يجب

(ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٤ هـ.)
النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥.
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٠.

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٥٥.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٩.
وقد وصف ابن الأثير حصن أفامية بأنه حصن منيع علي تل مرتفع من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون علي مدينة حماة وشيزر وينهبونها.
(التاريخ الباهر، ص ١٠٠)

حكمت الإمارة باسم ولدها الطفل بوهيموند الثالث [١] . ولم يكن فى استطاعة كونستانس – وهى امرأة شابة فى الثانية والعشرين من عمرها – أن تنهض بجميع شئون الحكم والدفاع عن الإمارة، فقام بطرق أنطاكية إيمرى Aymeri بدور كبير فعال فى شئون الحكم والدفاع فى تلك المرحلة [٢] . كذلك أسرع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس إلى أنطاكية عقب الكارثة التى حلت بها، فأدى حضوره إلى تهدئة مخاوف الاهالى ورفع روحهم المعنوية [٣] .

خاتمة إمارة الرها :

وفى الوقت الذى أصاب الحملة الصليبية الثانية ما أصابها من فشل وخيبة أمل، كان جوسلين الثانى لا يزال مقيما فى قاعدته تل باشر، يشرف على بقية البلاد التابعة لإمارته، وهى سميساط وقلعة الروم ودلوك والرواندان وقورس ؛ ثم مرعش وعزاز من ناحية الشمال أى على حدود إمارة أنطاكية [٤] .

ومن الواضح أنه لم يبق للصليبيين – بعد مقتل ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية – رجل يتولى الدفاع عن مصالحهم فى الأطراف الشمالية من العراق والشام سوى جوسلين الثانى، ولكن جوسلين لم يكن الرجل الذى يستطيع النهوض بذلك العبء نظراً لما عرف عنه من حب الترف والدعة [٥] . وبدلا من أن يقوم جوسلين باسترداد ممتلكات الصليبيين – وعلى رأسها مدينة الرها ذاتها – أخذ يوجه إغاراته نحو نهب الأديرة المسيحية المتطرفة، كما فعل سنة ١١٤٨ عندما أغار على أحد الأديرة الواقعة عن أطراف نهر الفرات [٦] . وكان مفروضاً أن

---

(1) Guillaume de Tyr, p 774.
(2) Runciman : op. cit. II, p. 328.
(3) Guillaume de Tyr, p. 775.
(4) Grousset : op. cit Tome II, p 284.
(٥) أجمعت المصادر الغربية – المعاصرة وغير المعاصرة – علي وصف جوسلين الثانى بالخمول وضعف الهمة، فى حين وصفه المؤرخون المسلمون بأنه أشد الفرنجة شجاعة وأقواهم بأساً وأصحهم رأيا، وأعظمهم مكيدة.
(ابن واصل : مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٣).
كذلك وصفه النويري بأنه فارس الفرنج وطاغيتهم ؛ صاحب رأي وشجاعة ، (النويري : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٥٦).
ونحن لا نجد تفسيراً لهذا التناقض بين أحكام المؤرخين الصليبيين والمسلمين علي جوسلين سوي أن الفريق الأول حكم عليه في ضوء ما صحب حكمه من ضياع الرها وكثير من أملاكها. وفي الوقت نفسه قد يكون سبب مبالغة المسلمين في امتداح قوته وشجاعته هي الرغبة في ابراز أهمية الانتصارات التي أحرزها المسلمون عليه.
(6) Michel Le Syrien, p. 283 - 287.

يسرع جوسلين الثانى لنجدة إمارة أنطاكية، عقب مقتل أميرها سنة ١١٤٩ ولكنه لم يفعل ذلك، بل على العكس أسرع ليفوز بشىء من حطام إمارة أنطاكية، ويرث أميرها القتيل فى بعض ممتلكاته. وفعلا زحف جوسلين على مرعش ودخلها، ولكنه لم يلبث أن انسحب منها عندما علم باقتراب مسعود سلطان سلاجقة الروم (١).

وهكذا أتيحت فرصة طيبة للأتراك - من سلاجقة وتركمان - لاقتسام حطام إمارتى الرها وأنطاكية، فانتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم (١١١٦ - ١١٥٥) فرصة النصر الذى حققه نور الدين محمود على أنطاكية ليستولى على مرعش فى سبتمبر ١١٤٩، بل لقد حاصر مسعود تل باشر نفسها ولكنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها بعد قليل(٢).

ولم يلبث قرا أرسلان الأرتقى - صاحب خرتبرت وحصن كيفا - أن تقدم للحصول على نصيبه من الغنيمة، فأخذ يهاجم الأجزاء الشمالية من إمارة الرها حتى نجح فى الاستيلاء على كركر - شمالى سميساط - وحصن منصور(٣) أما جوسلين الثانى نفسه فقد وقع فى قبضة التركمان (٤ مايو سنة ١١٥٠) فسلموه لنور الدين الذى سجنه فى حلب، حيث ظل تسع سنوات معتقلا حتى توفى سنة ١١٥٩. وقد أبدى المورخون المسلمون فرحهم بأسره؛ واعتبروا أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين، قاسى القلب، وأصيب النصرانية كافة بأسره(٤).

ومن الواضح أن أسر جوسلين الثانى ترك ما تبقى من حطام إمارة الرها دون مدافع أو زائد، فقام مسعود سلطان سلاجقة الروم بغزو كيسوم (كسيون) فى صيف ١١٥٠، واستولى بعد ذلك على بهسنى ورعبان (مرزبان)، ثم اتجه بعد ذلك لحصار تل باشر نفسها. وفى الوقت الذى كان مسعود يحاصر تل باشر استطاع حليفه وزوج ابنته نور الدين محمود أن يستولى على قلعة عزاز التى كانت تابعة لإمارة أنطاكية وتقع إلى الشمال الشرقى من مدينة أنطاكية ذاتها (٥).

(1) Runciman : op. cit. ll, p. 327.
(2) Gregoire Le Pretre (Doc. Ar. l), p. 162.
(3) Michel Le Syrien; lll, p. 294 - 295.
(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (lll p. 122) & إبن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٦ هـ.
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠. أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٨١.

وعندما رأى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن الإمارتين الصليبيتين فى الشمال – الرها وأنطاكية – وصلتا إلى تلك الدرجة المهولة من التدهور – بعد أسر أمير الأولى ومقتل أمير الثانية – أسرع إلى الشمال لتدارك الموقف هناك. وفى الوقت الذى كان بلدوين الثالث فى أنطاكية، تقدم الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين بعرض إلى بيتريس Beatrice – زوجة جوسلين الثانى والوصية على إمارة الرها – لشراء كل ما تبقى من حطام تلك الإمارة، أى تل باشر وسميساط وقلعة الروم والبيرة ودلوك وعينتاب والراوندان، فضلا عن حقوقها فى الأماكن الأخرى التى كانت تابعة لإمارة الرها واستولى عليها المسلمون [١]. وعندما تلقت بيتريس هذا العرض أرسلت فوراً الى الملك بلدوين الثالث – الذى كان فى أنطاكية – تخبره به وتسأله رأيه.

وقد صادف ذلك العرض البيزنطى معارضة من بعض أعوان بلدوين الثالث، ولكن رسل الإمبراطور البيزنطى أقنعوا ملك بيت المقدس أن استيلاء البيزنطيين على تلك البلاد عن طريق الشراء أفضل من ضياعها نتيجة لاستيلاء المسلمين عليها بلا ثمن[٢]. لذلك وافق بلدوين الثالث على العرض وصرح للأميرة بيتريس باتمام صفقة البيع للإمبراطور البيزنطى، فتمت الصفقة فعلا سنة ١١٥٠، وكلما استولى البيزنطيون على مدينة انسحب منها فرسانها وسكانها من الصليبيين[٣].

ولكن إذا كان الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين قد فرح بالاستيلاء على تل باشر ودلوك وعينتاب والراوندان، وظن أن هذه المراكز ستمكنه من استرداد النفوذ البيزنطى القديم فى تلك الأطراف الشرقية، إلا أن فرحته لم تدم طويلا. وسرعان ما اتضح للامبراطور أن مشترياته الجديدة ثقيلة العبء وتحتاج إلى جهد كبير للإحتفاظ بها وحمايتها لبعدها عن قلب الإمبراطورية من ناحية وتطرفها وسط أراضى المسلمين وبلادهم من ناحية أخرى. هذا فى الوقت الذى كانت الإمبراطورية البيزنطية تعانى تهديداً مستمراً من جانب النورمان فى صقلية، مما جعلها عاجزة عن توجيه جهودها صوب أطراف العراق لحماية مشترياتها الجديدة [٤].

ولم يلبث أن تم تحالف بين نور الدين محمود صاحب حلب ومسعود سلطان سلاجقة الروم وتمرتاش الأرتقى صاحب ماردين، بشأن اقتسام تلك الممتلكات

(1) Guillaume de Tyr, p. 786.
(2) Setton : op. cit. l, p. 534.
(3) Runciman : op. cit, ll. p. 334.
(4) Grousset : op. cit. ll, p. 306.

البيزنطية الجديدة سنة ١١٥١[1] . وهكذا تم تقسيم الغنيمة قبل أن يمضى عام واحد على شراء الإمبراطور البيزنطى لتلك الصفقة الخاسرة، فاستولى مسعود على عينتاب ودلوك واستولى تمرتاش الأرتقى على سميساط والبيرة، واستولى نور الدين على الراوندان ثم على تل باشر التى استسلمت فى يوليو سنة ١١٥١[2] .

وبذلك تبخرت إمارة الرها الصليبية وذهبت مع الريح، مما يعتبر بداية النهاية بالنسبة للبناء الصليبى بالشام.

(1) Richard : op. cit. p. 47.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ &

Michel Le Syrien, III, p. 297.

الفصل الخامس

عصر بلدوين الثالث

بلدوين الثالث ملك بيت المقدس :

أجمع المؤرخون الصليبيون على دماثة خلق بلدوين الثالث وكرمه واحترامه للكنيسة ورجالها. ثم إن بلدوين الثالث امتاز بصفة ميزته عن ملوك بيت المقدس السابقين، وكانت لها أهميتها فى نظر معاصرية من الصليبيين، هى أنه أول ملك من ملوك بيت المقدس يولد على أرض المملكة الصليبية نفسها، ولذا فهو يمثل فى شخصه الإبن الحقيقى البكر لمملكة بيت المقدس الصليبية. هذا كله بالاضافة إلي ثقافته الواسعة، إذ جمع بين آداب الفروسية الغربية وقواعدها ، وبين معرفة القانون وأصول المعاملات، الأمر الذى جعل منه ملكاً صليبياً نموذجياً فى القرن الثانى عشر (١).

وقد شاءت الظروف أن يتعرض الصليبيون فى الفترة التى كان بلدوين الثالث قاصراً تحت وصاية أمه مليزاند، لكثير من المصائب والخسائر، مثل سقوط الرها وفشل الحملة الصليبية الثانية، وتصدع الحلف بين بيت المقدس ودمشق، ومقتل ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية، وأسر جوسلين الثاني، وضياع جميع الأراضى الصليبية التى كانت تابعة لإمارة أنطاكية شرقى العاصي، ثم استيلاء المسلمين على بقية أنقاض إمارة الرها بأكملها (٢). لذلك كله كانت التركة التى ورثها بلدوين الثالث مثقلة بالهموم والمتاعب، إذ كان عليه أن يعمل - وهو لا يزال شاباً صغيراً فى التاسعة عشر من عمره - لحماية ما تبقى للصليبيين فى شمال الشام، وأن يحمى انسحاب الصليبيين من تل باشر وعين تاب بعد تسليم تلك المراكز للبيزنطيين، وفى الوقت نفسه كان عليه أن يحل المشاكل العديدة الداخلية فى بيت المقدس، وهى مشاكل تخلفت عن فترة طويلة من وصاية استبدت أثناءها أمه مليزاند بالأمور (٣).

ثم كان أن بلغ بلدوين الثالث الثانية والعشرين من عمره ، ومع ذلك لم توافق أمه على أن تتنازل له عن سلطة الحكم ، حتى اضطرت تحت ضغط الرأى

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 705 - 706.
(2) Setton : op. cit. p. 532 - 535.
(3) Grousset : op. cit. II; 313.

العام إلى الموافقة على تتويجه ، وحدد لذلك يوم الأحد ٣٠ مارس سنة ١١٥٢ . ويبدو أن الملكة الأم عز عليها أن تتخلى عن سلطانها الذى مارسته فى السنوات السابقة فاتفقت مع بطرق بيت المقدس على أن يعاد تتويجها هى الأخرى مع ولدها، إشارة إلى مقاسمتها له النفوذ والسلطان، بل إن بعض أشياع مليزاند وضعوا مشروعاً لتقسيم المملكة بين بلدوين الثالث وأمه، فتأخذ مليزاند بيت المقدس ونابلس ومتعلقاتهما، وتترك لولدها - الملك الشرعى - الأطراف الساحلية مثل صور وعكا وملحقاتهما (١). ولكن بلدوين الثالث رفض ذلك الحل، وصمم على أن تكون مملكة بيت المقدس وحدة واحدة، لا يحكمها غيره. ولذلك أجل الموعد الذى حدد لتتويجه، حتى إذ ما مضت بضعة أيام دخل خلسة كنيسة القيامة فجأة، وطلب من البطرق تتويجه بمفرده. وقد استاءت مليزاند لذلك التصرف من جانب ولدها، مما أدى إلى غضب أشياعها ثم إلى قيام حرب أهلية فى المملكة سنة ١١٥٢ وقف فيها الملك والأمراء فى جانب ، والملكة والبطرق فوشيه (فلشر) ومناسيس Manasses كند اسطبل المملكة فى جانب آخر، وانتهت تلك الحرب بانتصار بلدوين الثالث وعقد صلح بينه وبين أمه (٢).

بلدوين الثالث وإمارة طرابلس :

ولم يكد بلدوين الثالث يفرغ من إقرار الأمور الداخلية فى مملكة بيت المقدس، حتى أخذ يعمل للنهوض بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه بوصفه ملكاً على الصليبيين، ألا وهى إنقاذ إمارتى طرابلس وأنطاكية من الفوضى الداخلية والأخطار الخارجية (٣).

وكانت أولى المشاكل الداخلية فى طرابلس النزاع بين ريموند الثانى وزوجته هوديرن Hodierne، الإبنة الثالثة لبلدوين الثانى ملك بيت المقدس وأخت الملكة الأم مليزاند. وقد بلغت العلاقة الزوجية درجة من السوء فى أوائل سنة ١١٥٢ استوجبت تدخل بلدوين الثالث وأمه مليزاند - بحكم الصلة العائلية - لفض النزاع بين أمير طرابلس وزوجته (٤). وكان أن سافر ملك بيت المقدس وأمه إلى طرابلس، ولكن نصائحهما لم تجد مع ريموند الثاني، وعندئذ صحبت مليزاند أختها هوديرن لتقيم معها فى نابلس، فى حين ظل بلدوين الثالث بعض الوقت فى طرابلس، حيث ترددت بعض الإشاعات بأن نور الدين يستعد للإغارة عليها. ولم تكد الأميرتان تبتعدان كثيراً عن طرابلس، حتى قتل ريموند الثانى بأيدى جماعة

(1) Besant : Jerusalem, p. 300.
(2) Guillaume de Tyr I, p. 782 - 783.
(3) Setton : op. cit I, p. 535.
(4) Guillaume de Tyr. p. 789 - 790.

من الإسماعيلية الباطنية. وعلى الرغم من أن هودين عادت بسرعة لتذرف الدمع على زوجها القتيل، إلا أن ذلك لم يعفها من بعض الاتهامات والشكوك في تآمرها على قتل زوجها.

وقد ترك ريموند الثانى إبناً صغيراً – هو ريموند الثالث – فى الحادية عشر من عمره، فقام بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بتنظيم شئون الوصاية على الطفل الصغير. وكان من الطبيعى أن تسند هذه الوصاية إلى هودين[1].

وفى ذلك الوقت أسرع نور الدين إلى استغلال فرصة الخلافات والفوضى التى سادت طرابلس قبل مقتل أميرها وبعد مقتله، فأغار على أنطرطوس واحتلها فترة من الزمن ولكنه اضطر إلى إخلائها، وعندئذ منحها الملك بلدوين الثالث للداوية للدفاع عنها[2].

بلدوين الثالث وإمارة أنطاكية :

وبينما بلدوين الثالث ملك بيت المقدس يعالج مشاكل إمارة طرابلس كان عليه أيضا ألا يغض البصر عن أنطاكية ومشاكلها. ويبدو أن مشاكل أنطاكية كانت أخطر بكثير من مشاكل طرابلس. لأن الإمارة الأولى كانت بحكم موقعها أكثر تعرضا من الثانية لهجمات نور الدين والبيزنطيين جميعاً، فى حين أدى قرب طرابلس من بيت المقدس إلى تمكين الملك بلدوين الثالث من الأشراف عليها ومساعدتها وقت اللزوم[3].

ولم يجد بلدوين الثالث حلا لمشكلة أنطاكية سوى البحث عن عريس جديد للأميرة كونستانس – أرملة ريموند دى بواتيه والوصية على الوريث الشرعى للإمارة وهو بوهيموند الثالث الصغير – وبهذه الوسيلة يصبح فى أنطاكية رجل يعول عليه فى رعاية شئون الإمارة والدفاع عنها. ولكن الأرملة الشابة التى ذاقت طعم السلطان رفضت مبدأ الزواج حتى لا يسلبها أحد سلطتها، وحرصت على أن تظل قابضة علي زمام الأمور فى إمارتها [4]. ويقول المؤرخ وليم الصورى إن اصرار الأميرة كونستانس على رفض مبدأ الزواج ، إنما مرجعه تحريض أيمرى (عموري) دى ليموج بطرق أنطاكية لها، حتى يظل هو الآخر متمتعاً بسلطانه

(1) Idem, p. 791 - 792.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٨،
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢١٥ – ٢١٦.

(3) Grousset : op. cit. Tome I I, p. 324.

(4) Setton : op. cit. I, p. 790.

الواسع تحت وصايتها (١).

ولم يلبث الإمبراطور البيزنطى أن وجد فى أحوال أنطاكية بعد مقتل أميرها ريموند دى بواتيه فرصة للاستيلاء على الامارة عن طريق المصاهرة بعد أن فشل عن طريق القوة. وكان أن وضع الإمبراطور مانويل كومنين مشروعاً لتزويج كونستانس - أرملة ريموند - من حنا روجر، أخى زوجة الإمبراطور(٢). وفعلا حضر حنا روجر إلى أنطاكية ولكنه فشل فى أن يغزو قلب الأرملة الشابة.

وأخيراً حدثت المعجزة، إذ فتحت كونستانس باب قلبها على مصراعيه لفارس فرنسى شاب وصل إلى الشام فى أعقاب الملك لويس السابع وحملته الصليبية، ثم تخلف فى فلسطين بعد فشل الحملة الثانية وعودة رجالها إلى الغرب. أما هذا الفارس فهو رينو دى شاتيون - الذى عرفه العرب باسم أرناط - وهو صاحب الدور المشهور، مع صلاح الدين، كما سيلى فيما بعد. وكان أن وافق الملك بلدوين الثالث - بعد إلحاح شديد من العاشقين - على مشروع الزواج الذى تم فعلا فى أوائل سنة ١١٥٣(٣). وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على محارب قوى وفارس صليبى قام بدور بارز فى محاربة المسلمين ببلاد الشام، ولكنه كان للأسف مغامراً خطيراً، اتصف فى كثير من تصرفاته بالبطش والتهور وعدم مراعاة العهود، والجهل بأحكام السياسة وأصولها، مما سبب متاعب لا حد لها للصليبيين بالشام (٤).

ولم تلبث أن ظهرت خشونة رينو وتطرفه فى مسلكه مع أيمرى (عموري) دى ليموج بطرق أنطاكية. ذلك أن رينو - أرناط - لم يكد يعلم بأن البطرق كان يحرض الأميرة كونستانس علي عدم الزواج منه - حفاظا على نفوذ البطرق - حتى أنزل به أقسى ألوان العذاب الذى بلغ حد الضرب وإلقائه وهو عريان تماماً فى نار الشمس المحرقة (٥). وعندما علم بلدوين الثالث بتلك التصرفات الوحشية، أرسل إنذاراً إلى أرناط يأمره بالإفراج عن البطرق المحبوس وإعادته إلى كرسيه فوراً. ولكن البطرق أيمرى لم يستطع البقاء فى أنطاكية إلى جانب ذلك الطاغية

(1) Guillaume de Tyr; p 790.
(2) Chalandon : Comnenes, p. 197.
(3) Guillaume de Tyr, l, p. 802.
وقد ذكر وليم الصوري أن الزواج تم فعلا بطريقة سرية بين كونستانس ورينو قبل موافقة الملك.
(4) Grousset : op. cit. Tome I I, p. 329.
(5) Guillaume de Tyr p. 316.

القاسي، فنزح إلى بيت المقدس حيث قضى بقية حياته إلى أن مات [١].

ثم إن أرناط لم يلبث أن زج بنفسه فى النزاع القائم فى قيليقية بين الأرمن والبيزنطيين، بدلا من أن يوجه جهوده نحو استرداد حارم وغيرها من أملاك إمارة أنطاكية التى استولى عليها نور الدين شرقى العاصي. وكانت جيوش الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين قد عجزت سنة ١١٥١ عن إخضاع الأرمن الذين سيطروا على مدن قيليقية الكبري، مثل سيس وعين زربة وأذنة وطرسوس. وعندما استعان الإمبراطور مانويل كومنى بمسعود سلطان سلاجقة الروم، فشل السلاجقة أيضا سنة ١١٥٤ في إخضاع الأرمن، وعندئذ لم يجد الإمبراطور البنيزنطى أمامه سوى إمارة أنطاكية [٢]. وكان أرناط يهمه أن يحصل على موافقة الإمبراطور البيزنطى علي وضعه فى أنطاكية وزواجه من أميرتها، لأن أنطاكية كانت – من وجهة النظر البيزنطية على الأقل – تابعة للقسطنطينية ولو تبعية إسمية. لذلك استعان أرناط بالدواية، ودخل حرباً قصيرة ضد الأرمن سنة ١١٥٥ حتى طردهم من إقليم إسكندرونة التى استولى عليه الداوية. وأخيراً انتهت تلك الحرب باستيلاء فرسان الداوية على قلعة بغراس ، وبالصلح بين الطرفين [٣].

وتتضح أخلاق أرناط ومدى انتهاكه للعهود والمواثيق فى أنه لم يكد يعقد الصلح مع الأرمن حتى حالفهم ضد الإمبراطورية البيزنطية. فاشترك مع خصمه السابق ثوروس الأرمنى فى القيام بحملة ضد الممتلكات البيزنطية، فى أطراف آسيا الصغرى [٤]، كما أرسل أرناط بضع سفن إلى جزيرة قبرص أغارت عليها ونهبتها وعادت محملة بالغنائم [٥]. وقد أفاضت المصادر فيما فعله أرناط بأهل قبرص من قتل وتخريب، حتى أنه جدع أنوف رجال الكنيسة وقطع آذانهم وألسنتهم إمعاناً فى التشفى والانتقام .. وأثارت هذه الأعمال إستنكار المسيحيين بوجه عام وحنق الإمبراطور البيزنطى بوجه خاص[٦].

بلدوين الثالث والمسلمون :

كان الاتجاه الطبيعى لتوسع الصليبيين فى الربع الأول من القرن الثاني عشر هو الشمال الشرقي، حيث لم توجد قوة إسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع . ولكن ظهور قوة الزنكيين فى شمال العراق والشام ،

(1) Schlumberger : Renaud de Chatillon, p. 42.
(2) Gregoire Le Prètre (Doc. Arm 1,0 p.p. 169 - 171.
(3) Michel Le Syrien, 1 1 l, p. 314.
(4) lorga : L'Armenie Cilicienne, p. 98.
(5) Guillaume de Tyr p. 835.

(٦) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٢٢.

جعلت حركة التوسع الصليبى تتخذ منذ منتصف ذلك القرن إتجاهاً آخر ، هو الإتجاه الجنوبى الغربى ، أى على حساب مصر والفاطميين (١) .

على أن غزو مصر- وهى السياسة التى اتخذت طابعاً عملياً واسع النطاق على يدى عمورى الأول فيما بعد - كان لابد له من التمهيد بالاستيلاء على عسقلان ، وهى القاعدة الوحيدة التى بقيت للفاطميين فى فلسطين . وهذا ماقام به الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بعد أن تم تتويجه وأخذ يفكر فى القيام بعمل حربى هام يضفى عليه وعلى حكمه هالة من الأهمية فى نظر معاصريه (٢) .

وقد مهد بلدوين الثالث لغزو عسقلان بعدة ترتيبات حربية وسياسية . ففى الجانب الحربى بدأ فى أواخر سنة ١١٤٩ وأوائل سنة ١١٥٠ باعادة تحصين غزة؛ فهدم أسوارها القديمة وبنى لها سوراً جديداً ، كما شيد بها قلعة قوية عهد بحراستها إلى الداوية (٣) . وفى الجانب السياسى كان لابد لبلدوين الثالث أن يشرع فى مهاجمة عسقلان لكى يؤمن مملكة بيت المقدس ويمكنها من مواجهة أى خطر من جانب دمشق . والواقع أن تجديد الحلف مع دمشق لم يكن أمراً صعباً ، رغم الحماقة الكبرى التى ارتكبتها الحملة الصليبية الثانية . ذلك أن الصلح الذى عقد بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس فى أوائل يونية سنة ١١٤٩ أعقبته مباشرة محاولات مهد لها معين الدين أنر قبل وفاته (ت ٢٨ أغسطس ١١٤٩) لمحالفة بيت المقدس ضد نور الدين (٤) .

ولم يلبث نور الدين أن هاجم مدينة دمشق فى مايو سنة ١١٥١ ، بعد أو

---

(1) Michaud : op. cit. 11, p. 217 .
(2) Setton : op. cit. 1. p. 536.
(3) Gullaume de Tyr, p. 778. &

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٨

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ومابعدها .

ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ .

ويقول ابن القلانسي إن الدماشقة «عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من المسلمين ، فى حين ذكر أبو شامة إن حكام دمشق «راسلوا الإفرنج بخبره (نور الدين) وقرروا معهم الأتحاد عليه»

وجه إنذاراً شديداً إلى أتابكها مجير الدين أبق [1] ولكن الصليبيين بزعامة بلدوين الثالث خفوا بسرعة لنجدة حلفائهم ، مما جعل نور الدين يتخلى عن حصار دمشق فى أوائل يونية سنة ١١٥١ [2] . ثم كان أن أعاد نور الدين الكرة ضد دمشق فى يولية من العام نفسه ، ولكن محاولته انتهت تلك المرة أيضاً إلى لاشيء ، فأكتفى بالصلح مع أرباب دمشق ، ثم انصرف بعد أن «وقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرضى به» [3] . ولعل هذه الأحداث وغيرها مثل اشتراك الدماشقة مع الصليبيين (١١٥٠ - ١١٥١) فى الحد من نفوذ نور الدين فى أقليم حوران ، قوت صلات التحالف بين الطرفين ، ومكنت بلدوين الثالث ملك بيت المقدس من أن يوجه جهوده ضد الفاطميين فى عسقلان وهو آمن من جانب أتابكة دمشق[4] .

والواقع أن الخلافة الفاطمية كانت تحتضر فعلا عند منتصف القرن الثانى عشر ؛ بعد أن انتزع الوزراء كل ما للخليفة الفاطمى من سلطان . وعندما يئس الخلفاء من وزرائهم ، عين الخليفة الفاطمى الحافظ (١١٣١ - ١١٤٩) ابنه وزيراً له ، ولكن الإبن تآمر هو الآخر على أبيه «واستبد بالأمر دونه وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادر كثيراً» ، مما جعل الأب يدس السم لإبنه ليتخلص منه (سنة ١١٣٥) [5] . ولم يلبث أن توفى الخليفة الحافظ سنة ١١٤٩ ليخلفه ابنه الظافر (١١٤٩ - ١١٥٤) ، الذى استبد بالسلطان فى عهد الوزير العادل ابن السلار

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ ،
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ١ ص ٢٣٩ .
وقد ورد فى الرسالة التى أرسلها نور الدين إلى مجير الدين أبق . «إنني ماقصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعاني إلي هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان ، بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، لايسعنى مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار علي نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ولايحل لي القعود عنه والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالهم والذب عنها والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتى ...»
وقد جاء فى الرد على هذه الرسالة (ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا) .

(2) Stevenson : op. cit. p. 166.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٣١٦ .

(4) Grousset : op. cit. Tome 11. p.p. 342 - 351 .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

،حتى قتل ذلك الوزير سنة ١١٥٣ (١) . وهكذا ظلت الدولة الفاطمية تعيش أيامها الأخيرة فى جو مشبع بالمؤامرات ، لايتورع الأب فيه أن يقتل ابنه وصار الخلفاء «اسم لا معنى» ؛ على قول المؤرخ ابن الأثير (٢) . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يتأهبون لغزو عسقلان .

ويبدو أن الفاطميين أحسوا بالاستعدادات التى قام بها عندئذ بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، بدليل ما لجأ إليه الوزير الفاطمى ابن السلار من إرسال أسامة ابن منقذ فى سفارة إلى نور الدين سنة ١١٥٠ للحصول على مساعدته بمشاغلة الفرنج حتى يتمكن الفاطميون من هدم القلعة التى بناها الصليبيون أخيرا فى غزة، ومن الدفاع عن عسقلان (٣) . وعندما تمت المقابلة بين نور الدين وأسامة عند بصرى فى إبريل سنة ١١٥٠ ، اعتذر نور الدين عن تقديم المساعدات المطلوبة ، وقال لأسامة «أهل دمشق أعداء ، والأفرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما» (٤) .

وهكذا ساعدت جميع العوامل بلدون الثالث ، فشرع فى حصار عسقلان فى أواخر يناير سنة ١١٥٣ ، منتهزاً فرصة الاضطرابات الداخلية فى مصر «واشتغالهم (الفاطميون) عن عسقلان» (٥) . وقد استمر الحصار بضعة أشهر ، حاولت حكومة القاهرة خلالها أن تمد أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر ؛ فأرسلت أسطولاً كبيراً من سبعين سفينة محملة بالسلاح والمؤن ؛ ونجح ذلك الأسطول فى اختراق الحصار الذى فرضته الأساطيل الصليبية على عسقلان من ناحية البحر (٦) . وكان وصول هذه النجدة إلى حاملة عسقلان حافزاً لها على مواصلة المقاومة فى صبر وشجاعة . ولكن الحصار طال وازداد هجوم الصليبيين عنفاً ، فلم تجد حامية عسقلان بداً من طلب الأمان ، ودخل الصليبيون المدينة فى ١٩ أغسطس سنة ١١٥٣ ليحولوا جامعها الكبير إلى كنيسة باسم القديس بولس . ومع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٤ هـ .
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ .
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ ، ٣٢٠ وقد قال ابن السلار لأسامة بن منقذ «تأخذ معك مالا وتمضى إليه (نور الدين) لينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا ، لنخرج من ها هنا ونخرب غزة» .
(أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٠)
(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٤٨ هـ .
(6) Guillaume de Tyr, p. 801.

ذلك فقد امتدح ابن القلانسى سلوك الصليبيين تجاه أهل عسقلان إذ سمحوا لهم بالخروج سالمين ، «فخرج منها من أمكنه الخروج فى البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها » (١) .

وباستيلاءالصليبيين على عسقلان ، يكونوا قد أتموا بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفسلطين بأجمعه من إسكندرونه فى الشمال حتى غزة فى الجنوب، الأمر الذى حرم المسلمين من قاعدة بحرية طالما استغلوها فى مهاجمة الممتلكات الصليبية فى فلسطين . على أننا لانميل إلى المبالغة فى أهمية استيلاء الصليبيين على عسقلان بالنسبة للموقف بينهم وبين المسلمين .حقيقة أن سقوط عسقلان كان أخر نصر حربى كبير أحزره ملوك بيت المقدس ، وحقيقة أن عسقلان ظلت أمداً طويلاً قاعدة تخرج منها الجيوش الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة من جنوب فلسطين . ولكننا يجب أن نتذكر أن الدولة الفاطمية فى الوقت الذى فقدت عسقلان لم تعد مصدر خطر كبير أو صغير على الصليبيين ، وأنها أمست عندئذ فى حال من الضعف والانحلال حال بينها وبين القيام بأى عمل حربى ضد الصليبيين (٢).

دمشق تحت الحماية الصليبية :

على أن هجوم بلدوين الثالث على عسقلان واستيلائه عليها لم يتم دون أية محاولة إيجابية لإنقاذ المدينة من جانب القوى الإسلامية بالشام . ومن ذلك أن نور الدين أتابك حلب ومجير الدين أتابك دمشق حاولا أن يتناسيا ما بينهما من خصومات واتفقا فى أبريل سنة ١١٥٣ «للتعاضد على الجهاد» (٣) . ولكنهما بعد أن هاجما مدينة بانياس فى ١٦ مايو ، دب بينهما الشقاق ، واصطدم الفريقان فى معركة كبيرة ، افترق بعدها العاهلان «من غير سبب ولا موجب » ، فاتجه نور الدين إلى حمص وعاد مجير الدين إلى دمشق (٤) .

والواقع أن البيت البورى فى دمشق تعرض للانحلال السريع والتدهور الشديد بعد وفاة معين الدين أنر سنة ١١٤٩ . ذلك أن مجير الدين أبق كان ضعيفاً، منحلاً قاسياً ، ضيق الأفق . وسرعان ما انكشف ذلك الجانب المظلم من شخصيته

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ص ٢٢٥ .
ابن القلانسي : ص ٣٢١.

(2) Runciman. op. cit. 11, p. 340.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ص ٢٢٤ .
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٠ – ٣٢١ .

(1) Grousset : op. cit. Tome 11, p. 362.

عندما باشر الحكم بنفسه عقب وفاة أنر (١١٥٠ - ١١٥٤) [١] . ولا شك فى أن دمشق كانت أحوج ما تكون عندئذ إلى شخصية قوية تحميها من أطماع نور الدين في الشمال والصليبيين فى الجنوب ، ولكن ضعف مجير الدين جعله يتغاضى عن الأخطار التى هددته من جانب الصليبيين ، ولم يعد يبالى إلا بحماية نفسه من أطماع نور الدين .

ويؤكد المؤرخ ابن الأثير أن الصليبيين أصبحوا بعد الاستيلاء على عسقلان على جانب كبير من البأس «فقوى الفرنج بملكها حتى طمعوا فى دمشق واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارات على أعماله » [٢] . وهكذا انحدر موقف دمشق إلى أن دخلت تحت حماية الصليبيين فعلا ، فصار الدماشقة يدفعون ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم ، وصار رسل الصليبيين يترددون على دمشق فعلا لجمع الضريبة المفروضة على أهلها من المسلمين [٣] .

---

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ .

(٣) «وجعل الفرنج علي أهل المدينة قطيعة كل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلي دمشق ويجبيها من أهل البلد» .
ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٢٦ .

الباب الحادى عشر

الجبهة الإسلامية المتحدة

" واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا،
واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم
أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة
من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين
الله لكم آياته لعلكم تهتدون".

(آل عمران : ١٠٣)

الفصل الأول

وحدة المسلمين في بلاد الشام

استيلاء نور الدين محمود علي دمشق :

تتعرض حركات الوحدة وجمع الصف فى تاريخ مختلف الأمم والشعوب لبعض العقبات والمصاعب التى تثيرها دائماً حفنة من أصحاب المصالح الفردية يعز عليهم التضحية بأطماعهم الخاصة فى سبيل الصالح العام لأمتهم، ولا يتحرجون فى سبيل تلك الأطماع من محالفة عدو أو أعداء يهددون كيان أمتهم ويتخذون من ذلك الانشقاق أداة لتحقيق مكاسب غير مشروعة على حساب أبناء الأمة الواحدة.

وقد تعرضت الأمة الاسلامية بوجه عام والعربية بوجه خاص لهذا الداء فى العصور الوسطى بل الحديثة، ولكن التجارب أثبتت دائما أن الشعوب لا يمكن أن يطول صبرها على الحكام الذين يحاولون الانحراف بها إلى طريق الخيانة، وإذا نجحت حفنة من أولئك الحكام الذين أعمتهم الأحقاد الشخصية عن رؤية الخطر الجاثم الذى يهدد أمتهم التى أراد لها الله عز وجل أن تكون خير أمة أخرجت للناس. فان نجاحهم فى الحكم يظل مؤقتا يعتمد على أساليب الضغط والإرهاب والاستعانة بالانتهازيين والمتسلقين، حتى تقول الشعوب كلمتها، وتثور لكرامتها وكرامة تاريخها الأصيل، وعندئذ تتلاشى فقاقيع الخيانة، ويقف الجميع صفاً واحداً أمام أعدائهم وأعداء الله كأنهم بنيان مرصوص.

وكان هذا هو موقف دمشق وحكامها الخونة من أبناء البيت البورى عند منتصف القرن الثانى عشر. ولكن إذا كانت دمشق قد وقعت عندئذ تحت حماية الصليبيين، وإذا كان الخضوع لتلك الحماية أفضل - فى نظر مجير الدين أبق وأعوانه من الانفصاليين ذوى المطامع الشخصية - من الاتحاد مع نور الدين محمود، فان سائر أهل دمشق - وهم الذين عرفوا دائماً بنخوتهم وصدق عقيدتهم- كانوا لا يمكن أن يرضوا عن ذلك الوضع. ذلك أن خضوع مجير الدين أبق للصليبيين أساء إلى شعور أهل دمشق وكرامتهم إساءة بالغة، حتى فقدوا كل إحترام للبيت البورى وقلت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق. وفى وسط تلك الأزمة لم

يجد أهل دمشق رجلا يلتفون حوله سوى الرئيس مؤيد الدين بن الصوفى، ولكن أبق قبض عليه وسجنه فى قلعة المدينة، مما أثار حالة من الغليان فى دمشق.

هكذا أتيحت الفرصة لنور الدين محمود، الذى أدرك أن دمشق لن تؤخذ بالقوة فعدل إلى أعمال الحيلة (١). ولم يلبث نجم الدين أيوب – نائب نور الدين فى بعلبك – أن استغل ذلك الشعور الذى ساد أهل دمشق، فأرسل بعض رسله خفية إلى تلك المدينة لمساعدة أهلها ضد مجير الدين الخائن. وكان ذلك فى الوقت الذى ساءت الحالة الاقتصادية فى المدينة فقلت المؤن والأقوات فى دمشق، مما سبب ضيقاً كبيراً واستياء بالغاً من مجير الدين وسياسته. وكان أن أدرك نور الدين محمود أن الأحوال فى دمشق باتت مهيأة لتنفيذ مشروعه الكبير الخاص بالجبهة الإسلامية المتحدة، ولكنه ظل يؤمن دائماً – من واقع تجاربه السابقة – بأن دمشق لن تؤخذ بالعنف وإلا تدخل الصليبيون للقيام بدور حماة حكامها الخونة (٢).

وقد أخذ نور الدين يستخدم أساليب السياسة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق إليه (٣) . ثم بدأ نور الدين يبعث برسائله الودية بين حين وآخر إلى أتابك دمشق مجير الدين، يخبره فيها أنه تلقى عروضاً عديدة من بعض أمراء دمشق طالبين مساعدتهم ضده، ولكنه أبى فعل ذلك، حرصاً على الثقة المتبادلة بين الطرفين (٤). وعن طريق تلك النغمة، استطاع نور الدين أن يوسع شقة الخلاف بين أبق وأمرائه، إذ إزداد تشككه فيهم وتنكيله بهم حتى فقد ثقة العامة والخاصة من أهل دمشق. ولم يبق مخلصاً لأبق سوى عطاء بن حفاظ السلمى الخادم، وهو رجل عرف بالمكر والجرأة، كما كان شهماً شجاعاً فأدرك نور الدين أنه من المتعذر عليه تنفيذ سياسته مع وجود ذلك

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٩ هـ. &
التاريخ الباهر ص ١٠٧.

(٢) فعلم (نور الدين) إنه إن رام ملكه (ملك دمشق) بالقوة والحصار تعذر عليه، لأن صاحبه (أبق) كان متي رأي شيئا من ذلك راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم، وكان أبغض الأشياء إلي الفرنج أن يملك نور الدين دمشق .
ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٠٧ ، ابو شامة : كتاب الروضتين جـ١ ق ١ ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٠٧ .

(٤) يروي ابن واصل أن نور الدين كان يكتب في بعض الأحيان إلي مجير الدين أبق يقول له: إن فلاناً من الأمراء قد كاتبني في تسليم البلد إلي، فيبعد مجير الدين ذلك الأمير ويأخذ إقطاعه، وفعل ذلك مراراً حتي أبعد مجير الدين عنه اكثر الأمراء وصفوة أعوانه.
(ابن واصل : مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٢٦).

الرجل، وأنه لا يتمكن معه مما يريد (١). لذلك سعى نور الدين للإيقاع بعطاء السلمى عند أبق الذى لم يحجم عن قتله (٢)، وبذلك خسر أخلص أعوانه. ويقال إن آخر ما نطق به عطاء السلمى هو قوله لأبق : إن الحيلة قد تمت عليك .. (٣). وكان ذلك فى الوقت الذى منع نور الدين تموين دمشق من ناحية الشمال، مما أوقع المدينة فى حالة خطيرة من الجوع والفوضى والشعور بالاستياء من ذلك الحاكم المتشكك البغيض، « فخلا من البلد الخلق الكثير ولقوا من البؤس والشدة والضعف ما أوجب موت جماعة وافرة فى الطرقات، وانقطعت الميرة من كل الجهات (٤)».

وعندما تأكد نور الدين من نجاح خطته، ومن أن الأمور داخل دمشق باتت مهيأة لتنفيذ الحلقة الأخيرة من تلك الخطة، لجأ إلى استمالة حرس المدينة وبعض رجالها «وأحداث البلد وزناطرته». وكذلك لجأ نور الدين إلى إرسال أسد الدين شيركوه فى سفارة إلى دمشق، ولكن أبق لاحظ على تلك السفارة أنها جاءت مصحوبة بمظاهرة عسكرية ضخمة خلاف ما جرى عليه الوضع فى السفارات الدبلوماسية، لذلك رفض مقابلة السفير بل رفض مجرد السماح له بدخول المدينة. وكان أن اعتبر نور الدين ذلك التصرف إهانة له، فزحف فوراً على دمشق فى ١٨ أبريل سنة ١١٥٤ (٥).

أما أبق فلم يجد قوة أمامه يستعين بها لدفع نور الدين سوى الصليبيين، فأرسل إليهم يستصرخهم لنجدته وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن هم رحلوا نور الدين عنه (٦). وفى الوقت الذى تلكأ الصليبيون فى إنقاذ أبق، كان نور الدين - عن طريق أعوانه من حرس دمشق وأهلها - قد دخل المدينة فى ٢٥ أبريل عن طريق الباب الشرقى. ولم يستطع مجير الدين أبق المقاومة طويلا فاحتمى بقلعة دمشق بضع ساعات إلى أن أستسلم، وعندئذ أطلق نور الدين سراحه وأقطعه حمص وأعمالها. وبعد بضعة أسابيع أشيع أن أبق يتآمر ضد نور الدين وأنه راسل

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١، ص ١٢٦ - ١٢٧.
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧.
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٥ - ٣٢٦.
(5) Runciman : op. cit., II, p. 341 &
وقد ذكر ابن القلانسي (ص ٣٢٧) أن أسد الدين شيركوه رسول نور الدين وصل إلي ظاهر دمشق وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقع الاستيحاش منه وإهمال الخروج اليه وتلقيه. انظر ايضا : ابو شامة ، كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠.
(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٩ هـ . & التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ .

أهل دمشق ليسلموا إليه فعزله نور الدين عن حمص وعرض عليه بالس على الفرات، ولكنه رفضها وآثر الانسحاب إلى بغداد حيث توفى هناك (١).

أما أهل دمشق فسرعان ما أحسوا بالفارق الكبير بين حكم نور الدين وحكم مجير الدين أبق، إذ لم يكد نور الدين يستقر فى دمشق حتى عمل مع أهله مكرمة عظيمة وأظهر فيهم عدلا عاماً. كذلك أسرع نور الدين إلى توفير المؤن، وألغى المكوس المفروضة على الخضروات والغلال، ومنع جنوده من النهب والسلب، مما جعل الدماشقة يركنون إليه ويطمئنون إلى حكمه (٢).

وهكذا صفت الممالك بالشام لنور الدين على قول ابن واصل (٣)، «وألقى الاسلام بدمشق جرانه وثبت أوتاده » على قول ابن الأثير (٤)، إشارة منه إلى أن دمشق فى عهد البيت البورى كانت من الناحية الواقعية تحت حماية الصليبيين ونفوذهم. ومن الواضح أن استيلاء نور الدين على دمشق كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية، نظراً لما ترتب على هذه الخطوة من وحدة بلاد الشام الإسلامية، تحت زعامة نور الدين. فمن الرها شمالا حتى حوران جنوباً امتدت دولة إسلامية واحدة مركزها مدينة دمشق على نهر بردى . وبعبارة أخرى فان استيلاء نور الدين على دمشق حقق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام، فاذا كان الصليبيون باستيلائهم على عسقلان قد ضمنوا لأنفسهم السيطرة على جميع ساحل بلاد الشام من الأسكندرونة حتى غزة، فان استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردى فى قبضة قوة إسلامية واحدة لا انقسام فى صفوفها ولا فرقة بين أعضائها. وإذا كان الصليبيون فى الشمال قد نجحوا فى الاستيلاء على قلعة حارم على الضفة الشرقية لنهر العاصى، فان ضياع هذه القلعة من قبضة المسلمين لا يعادل بأى حال الأهمية الحربية والمعنوية لاستيلاء نور الدين على دمشق (٥).

ثم إنه لا يخفى علينا أن استيلاء نور الدين على دمشق جاء خطوة كبرى

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٨ ،
ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٤٩ هـ.
(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨-٣٢٩ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٢٨ .
(٤) ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٥٤٩ هـ،
التاريخ الباهر، ص ١٠٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتيت ج ١ ق ١ ص ٢٤١ .
(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٥١ هـ،
التاريخ الباهر، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

نحو تحقيق الجبهة الإسلامية المتحدة فى الشرق الأدنى، وهى الجبهة التى امتدت من الفرات الى النيل والتى كان قيامها بمثابة ضربة مميتة للصليبيين. فحتى ذلك الوقت كان المسلمون فى الشرق الأدنى منقسمين الى وحدتين منفصلتين، وحدة فى الجنوب - أى فى مصر - ووحدة فى الشمال - أى فى شمال الشام والعراق. وقد استطاع الصليبيون بفضل موقف حكام دمشق الانفصاليين توجيه الضربات لكل وحدة من هاتين الوحدتين على انفراد، دون أن تتمكن الوحدة الأخرى من دفع خطر الصليبيين المشترك. ومصداق ذلك ما يقوله النويرى من أن نور الدين لم يستطع مهاجمة الصليبيين عندما غزوا عسقلان فى العام السابق لأن دمشق تحول بينه وبينهم [1] كذلك ذكر ابن واصل ما نصه « وكان نور الدين لما نازل العدو (الصليبيون) عسقلان يتأسف، إذ لا يمكنه الوصول إليهم ودفعهم عنها، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم ... [2]» .

الحرب بين نور الدين والصليبيين حول بانياس :

ولم تلبث أن نشبت حرب طويلة بين نور الدين والصليبيين سببها خيانة الصليبيين وعدم مراعاتهم للعهد،فى الوقت الذى امتازت سياسة المسلمين دائماً - طوال نضالهم ضد الصليبيين - بالحرص على الوفاء بالعهد واحترام الكلمة والتمسك بمبادىء الشرف والأخلاق [3].

ذلك أن جماعة من رعاة التركمان، حصلوا على إذن من بلدوين الثالث برعى ماشيتهم وخيولهم وجمالهم فى منطقة الأردن حول بانياس. ويبدو أن الخيول الكثيرة التى امتلكها أولئك الرعاة أثارت مطامع بلدوين الثالث، فنسى الأمان الذى أعطاه لأصحابها وفكر فى سلبهم إياها متجرداً مع أبسط مبادىء الأخلاق التى حرص عليها المسلمون دائماً فى معاملاتهم مع الصليبيين [4]. وكان أن هاجم الصليبيون أولئك الرعاة المسلمين فى فبراير سنة ١١٥٧ وأعملوا فيهم السيف، فقتل منهم من قتل وأسر من أسر، وتحقق للصليبيين ما أرادوا من أسلاب «واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا غانمين آثمين» [5].

---

(١) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٦٠ (تحقيق المؤلف).
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ص ١٢٦.
(3) Grousset : op. cit., II, p. 368.
(4) Guillaume de Tyr, p.p. 837 & ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٧ - ٣٣٩
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٧.

على أنه إذا كان الصليبيون قد نجحوا فى تحقيق بعض المكاسب المادية فانهم فعلوا ذلك على حساب سمعتهم الأدبية، وعلى حساب التضحيات التى كان عليهم أن يتحملوها فى حرب طويلة شنها عليهم نور الدين نتيجة لغدرهم. ذلك أنه «إذا جاز للمسلمين أن يصبروا على قيام دولة المشركين، فانهم كانوا لا يطيقون قيام دولة من اللصوص فى أراضيهم » وذلك على حد تعبير أحد المؤرخين الأوربيين المحدثين (١) ولم يكد نور الدين يسمع بما فعله الصليبيون حتى خرج لمحاصرة بانياس فى مايو سنة ١١٥٧ بعد أن أمر أسد الدين شيركوه بأن يسبقه على رأس قوة استطلاعية ليوهم الصليبيين بأن الجيش الإسلامى المهاجم محدود الإمكانيات لا يتعدى تلك القوة الصغيرة. ثم كان أن انقض المسلمون على الصليبيين فتحكمت من رؤوسهم ورقابهم مرهفات السيوف، على قول ابن القلانسى، ولم يستطع الفرار منهم سوى القليل، حتى صاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير (٢)، فى حين لاذ بلدوين الثالث نفسه بالفرار إلى صفد. ولم يلبث ذلك النصر أن قوى عزيمة المسلمين وفت فى عضد الصليبيين، فاشتد الحصار على بانياس، « ووثب المسلمون على خصومهم كالليوث إلى فرائسها » حتى سقطت فى أيدى المسلمين فى ٢١ مايو سنة ١١٥٧ (٣).

على أن الموقف لم ينته بالنسبة لبانياس عند ذلك الحد، إذ سرعان ما تمكن الصليبيون بزعامة بلدوين الثالث من استرداد بانياس حوالى منتصف الشهر التالى (يونيو) فانسحب منها المسلمون بعد أن دمروها وأحرقوها. وهكذا ظلت بانياس كالكرة تتلاقفها أيدى الصليبيين حينا والمسلمين أحياناً طوال سنوات عديدة.

خطورة موقف نور الدين :

ولم يبث أن ساء موقف نور الدين عندما أخذ سلاجقة الروم بزعامة السلطان قلج أرسلان الثانى يهددون إقليم حلب فى صيف ١١٥٧، فى الوقت الذي حدثت هزة أرضية سببت كثيراً من الأضرار فى بعض المدن الإسلامية، مثل حماة وشيزر وكفر طاب ومعرة النعمان وأفامية وحمص (٤). وفى تلك الظروف

---

(١) باركر : الحروب الصليبية ص ٨٩.
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٩،
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٦٩.
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٠ - ٣٤١،
أبو شامة كتاب الروضتين ج١ ق ١ ص ٢٧٠.
(٤) وقد أثر هذا الزلزال تأثيراً بالغاً في تلك البلدان أزعج أهلها وأقلقهم وقال بعض الشعراء المعاصرين فيه : =

القاسية اجتمعت كلمة الملك بلدوين الثالث وأمير أنطاكية أرناط (رينو دى شاتيون) وأمير طرابلس ريموند الثالث على مهاجمة نور الدين. وكان أن جمع نور الدين قواته عند أنب استعداداً لمواجهة الصليبيين، عندما دهمه مرض خطير أشرف بسببه على الموت فى أكتوبر سنة ١١٥٧ ، حتى أنه أوصى لأخيه نصرة الدين محمد بحلب ولقائدة أسد الدين شيركوه بدمشق نائباً عن نصرة الدين محمد، فى حين حمل نور الدين نفسه فى المحفة إلى قلعة حلب وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة (١).

ولم تكد تنتشر هذه الأخبار حتى هلل الصليبيون فرحاً لاعتقادهم أن خصمهم اللدود نور الدين قد مات فعلاً، وأن الوحدة الإسلامية لن تلبث أن تنفصم عراها (٢). ولم يكتف ملك بيت المقدس بجمع أميرى أنطاكية وطرابلس بل حرص أيضا على أن يحشد جميع القوى المسيحية المجاورة للإنتقام، فاستدعى ثوروس الثانى Thoros II أمير قيليقية الأرمنى الذى حضر على رأس جيش كبير إلى أنطاكية للمشاركة فى عملية نحر الدولة النورية. وكان أن اتجه الصليبيون نحو شيزر فاستولوا عليها فى أكتوبر سنة ١١٥٧ (٣). وقد رغب بلدوين الثالث فى إعطاء شيزر للأمير تيرى الألزاسى Thierry d' Alsace كونت فلاندرز الذى كان قد وصل إلى الشام منذ أمد قريب، على أن يكون تيرى تابعاً فى حكمه شيزر

= روعتنا زلازل حادثات بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة أهلكت أهلها بسوء القضاء
وبلاداً كثيرة وحصوناً وثغوراً موثقات البناء

هذا، ويستفاد مما ذكره المؤرخون أن ذلك الزلزال أحدث أيضا كثيراً من الأضرار ببعض المدن الصليبية مثل أنطاكية وطرابلس.(أنظر ابن القلانسي : ص ٣٤٣ - ٣٤٤، ابن الأثير : الكامل سنة ٥٥٢ هـ).

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٧٤، ابن القلانسي، ص ٣٤٩.

(2) Cuillaume de Tyr, p. 848.

(٣) ذكر ابن الأثير أن حصن شيزر هذا قريب من حماة وأنه يقع علي جبل عال منيع وقد ظل آل منقذ يتوارثونه حتي ولي حكمه سلطان بن علي فشرد أبناء أخيه مرشد بن علي سنة ١١٣٦ (٥٣١ هـ) وطردهم من شيزر ؛ فتفرقوا وقصد أكثرهم نور الدين وشكوا إليه ما لقوه من عمهم ؛ ولكنه لم يستطع الأخذ بثأرهم لانشغاله بأمر الصليبيين، وعند وفاة سلطان بن علي بلغ نور الدين أن أولاده راسلوا الصليبيين فاشتد حنقه عليهم. وكان ذلك في الوقت الذي استولي الصليبيون علي شيزر سنة ١١٥٧ م.
(ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٥٢ هـ، أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

لملك بيت المقدس. ولكن هذا الرأى لم يعجب أرناط الذى قال إن بنى منقذ فى شيزر كانوا يدفعون الجزية رمزاً للتبعية لإمارة أنطاكية، وبناء على ذلك يجب أن يكون كونت فلاندرز فى شيرز تابعاً له (١) . وقد إنتهت المشكلة بأن ترك الصليبيون شيزر واتجهوا إلى فامية (أفامية) لاحتلال أنقاضها، ثم حاصروا حصن حارم واستولوا عليه فى فبراير سنة ١١٥٨ (٢) . ولاشك فى أن استيلاء الصليبيين على حارم ثبت أقدامهم من جديد شرقى نهر العاصى، فأخذوا من ذلك المكان الحصين يواصلون إعتداءاتهم على القرى والضياع المجاورة ، وتزايد طمعهم فى شن الغارات فى الأعمال الشامية وإطلاق الأيدى فى العبث والفساد فى معاقلها وضياعها(٣)».

وبعد أن عاد بلدوين الثالث إلى بيت المقدس لفض بعض المشاكل الداخلية استأنف فى مارس سنة ١١٥٨ إغاراته على إقليم دمشق فى منطقة حوران وداريا. وفى تلك الأثناء كان نور الدين قد شفى من مرضه، فانتقل إلى دمشق فى أوائل أبريل سنة ١١٥٨ حيث ابتهج الناس بشفائه ، واستبشر العالم بمقدمه وابتهجوا وبالغوا فى شكر الله تعالى على سلامته وعافيته (٤)». وفى الحال أمر نور الدين قائده شيركوه بالإغارة على منطقة صيدا (مايو ١١٥٨) حيث قتل كثيراً من الصليبيين وعادوا بالأسرى والغنائم (٥). وبعد ذلك اصطحب نور الدين قائده شيركوه فى مهاجمة إقليم الجليل جنوبى بانياس. وفى الموقعة التى دارت بين نور الدين وبلدوين الثالث قرب مصب نهر الأردن فى بحيرة طبرية، انتصر الصليبيون فى منتصف يوليو سنة ١١٥٨ واستطاعوا أن يأخذوا إقليم السواد من المسلمين(٦).

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 850 - 851.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٠.

(٣) المصدر السابق، أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ ق ١ ص ٢٨٧.

(٤) ابن القلانسي ، ص ٣٥١.

(٥) ابن شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٠٠.

(٦) المصدر السابق.

الفصل الثانى

عـودة البيزنطيين إلى الشـام

تجديد التحالف بين البيزنطيين والصليبيين :

أدرك الملك بلدوين الثالث أن الصليبيين لم يستطيعوا الإفادة على الوجه الأكمل من الفرصة التى أتاحها لهم مرض نور الدين وزلزال الشام الكبير سنة ١١٥٧ ، ووجد أنه لابد من قوة خارجية تسند الصليبيين وتشد أزرهم ضد نور الدين الذى استولى على شيزر وأخذ يعد نفسه ودولته من جديد لاستئناف الجهاد[١]. وفى الوقت نفسه كان بلدوين الثالث مستاء من سلوك أرناط (رينو دى شاتيون) أمير أنطاكية ، فرأى فى البيزنطيين قوة كبرى تساعد الصليبيين ضد المسلمين من ناحية وتؤدب أرناط من ناحية أخرى ، لاسيما وأن الإمبراطورية البيزنطية لم تنس الإغارة التى قام بها أرناط على قبرص سنة ١١٥٦ [٢].

وكانت الخطة التى وضعها بلدوين الثالث لاسترضاء الامبراطور البيزنطى والحصول على مساعدته هى مصاهرة الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية . ولهذا الغرض أرسل سفارة عظيمة إلى العاصمة البيزنطية فى صيف سنة ١١٥٧ لطلب يد الأميرة تيودورا ، ابنة أخ الإمبراطور . وكان أن تمت الصفقة ، على أن تكون هدية الزواج التى يقدمها بلدوين الثالث لعروسه مدينة عكا وملحقاتها . ووصلت العروس إلى عكا فى سبتمبر ١١٥٨ ومنها انتقلت إلى بيت المقدس مباشرة حيث تم الزواج [٣]. ومن المحتمل أن يكون الحديث قد تطرق أثناء عملية الخطوبة إلى المساعدة التى يمكن أن يقدمها الإمبراطور مانويل كومنين للصليبيين ، كما يظن أن يكون الإمبراطور قد وعد فعلا بمساعدة الصليبيين حربياً ضد نور الدين [٤].

---

(1) Setton : op. cit., p. 542.

(2) Runciman : op. cit., II, p. 349 .

(3) Guillaume de Tyr, p. 858 .

وتشير المصادر إلي أن بلدوين الثالث كان وقتئذ في السابعة والعشرين من عمره في حين كانت عروسه البيزنطية في الثالثة عشر من عمرها فقط ، ومع هذا فقد كانت مكتملة الأنوثة والبناء .

(4) Cregoire Le Prètre, p. 186 .

مانويل كومنين في قيليقية :

ومن الواضح أن الإمبراطور مانويل كومنين وجد فى تلك المصاهرة الجديدة فرصة طيبة للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الإمبراطورية فى قيليقية أولا ثم فى أنطاكية بعد ذلك . وكان أرناط أمير أنطاكية قد حالف ثوروس أمير قيليقية الأرمنى ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية جميعاً ، فى الوقت الذى اتخذ الإمبراطور مانويل كومنين من سلاجقة الروم حاجزاً يحول دون تضخم نفوذ ذلك الأمير الأرمنى (ثوروس)(١). لذلك لم تكد الأميرة تيودورا تغادر القسطنطينية إلى بيت المقدس فى صيف سنة ١١٥٨ ، حتى خرج الإمبراطور البيزنطى على رأس جيش كبير لغزو قيليقية واستردادها من الأرمن ومعاقبة أرناط فى أنطاكية (٢) .

وكان أن عبر مانويل كومنين آسيا الصغرى من شمالها الغربى إلى جنوبها الشرقى حتى وصل قيليقية فى أكتوبر سنة ١١٥٨ ، ففر ثوروس الثانى من وجهه ، واحتل الإمبراطور مدن قيليقية وقلاعها الكبرى ، وإن كان قد عامل أهلها معاملة طيبة (٣) . وقد اتخذ الإمبراطور البيزنطى مقامه فى المصيصة ، ومنها أرسل إلى أرناط فى أنطاكية يستدعيه لمحاسبته على ما فعله بقبرص .. وعندما وجد أرناط نفسه أمام الإمبراطور البيزنطى الذى يرابط على حدود إمارته بجيشه العظيم ، استنجد بملك بيت المقدس بلدوين الثالث ، ونسى أن بلدوين الثالث نفسه كان لايقل استياء منه عن الإمبراطور البيزنطى(٤) .

وهكذا رفض ملك بيت المقدس أن يشفع لأرناط عند الإمبراطور البيزنطى، فذهب أمير أنطاكية وحيداً للمثول بين يدى الإمبراطور فى المصيصة . وتصف المصادر كيف دخل أرناط على الإمبراطور عارى الرأس حافى القدمين لينحنى ، وهو يمسك سيفه من طرفه ليتناوله الإمبراطور من مقبضه (٥) ، وكان ذلك في حضور الوفود العديدة التى قدمت إلى المصيصة لتحية الإمبراطور(٦) . وأخيرا عفا الإمبراطور عن أرناط بثلاثة شروط : أولها اعترافه بسيادة الإمبراطورية

(1) Stevenson : op. cit. p. 180 .
(2) Vasiliev : op. cit., vol. 2, p. 426 .
(3) Grégoire Le Prètre p. 187 .
(4) Guillaume de Tyr, p. 860 .
(5) Ostrogorsky : op. cit., p. 343 .

(٦) وقد ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أنه كان بين هذه الوفود وفد من قبل نور الدين محمود ، وآخر من قبل الخليفة العباسي (p. 860).

البيزنطية على أنطاكية وتعهده بتسليمها فوراً متى طلب منه الإمبراطور ذلك ، ثم تقديم فرقة من محاربى أنطاكية للعمل فى الجيش الإمبراطورى ، وأخيراً عزل بطرق أنطاكية الكاثوليكى وإحلال آخر أرثوذكسى بدلا منه . وبعد أن تعهد أرناط بهذه الشروط سمح له بالعودة إلى أنطاكية (١).

ولم يلبث الملك بلدوين الثالث أن ذهب هو الآخر إلى المصيصة ليجرى مباحثات سرية مع الإمبراطور البيزنطى ، وهى المباحثات التى تم فيها الاتفاق على الحلف بين الطرفين ، وعلى المساعدة التى يقدمها الإمبراطور مانويل كومنين للصليبيين . على أنه لايوجد نص صريح فى الوثائق المعاصرة يثبت أن بلدوين الثالث إعترف فى تلك المقابلة بسيادة الإمبراطور البيزنطى على الصليبيين بالشام (٢). وكذلك قبل الإمبراطور شفاعة ملك بيت المقدس فى ثوروس الثانى أمير قيليقية (أرمينية الصغرى) ، وعفا عنه بشرط أن يظل تابعاً للإمبراطورية .

مانويل كومنين فى الشام :

وبعد ذلك اتجه الإمبراطور مانويل كومنين لزيارة أنطاكية فى أبريل سنة ١١٥٩ ، فدخل المدينة فى موكب فخم حافل ، ممتطياً فرسه ، وإلى جانبه أرناط ماشياً ممسكاً بلجام فرس الإمبراطور البيزنطى . وخلف الإمبراطور كان الملك بلدوين على فرسه ، ولكن بدون تاج على رأسه أو سلاح بيده . وهكذا قضى الإمبراطور مانويل كومنين ثمانية أيام فى أنطاكية وسط مظاهر التبجيل والاحترام، وأعلامه الإمبراطورية ترفرف على أسوار المدينة (٣). ولاشك فى أن الإمبراطور إنما قصد بتلك المظاهرة إظهار عظمته وعظمة إمبراطوريته من ناحية، ثم تأكيد سيادته على أنطاكية من ناحية أخرى(٤).

وكان أن تم الاتفاق بين الإمبراطور مانويل كومنين من جهة والملك بلدوين الثالث وأرناط من جهة أخرى على القيام بحملة كبرى ضد المسلمين ، على أن تكون وجهة هذه الحملة مدينة حلب مباشرة ، حتى يتجنب الإمبراطور الخطأ الذى وقع فيه أبوه سنة ١١٣٨(٥). وفعلا بدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرك ، مما

(1) Chalandon : Comenes II, p. 445 .
(2) Grousset : op. cit., II. p. 307 .
(3) Vasiliev : op. cit., II, p. 427 .
(4) Guillaume de Tyr, I, p. 860 - 864 .
(5) Gregoire Le Pretre. p. 189 - 190 .

أثار مخاوف نور الدين ، فأرسل إلى «ولاة الأعمال والمعاقل باعلامهم ما حدث من الروم ويبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم [١]».

على أن نور الدين لم يقدر أن الحشود البيزنطية الصليبية ستتجه تلك المرة إلى حلب ، فخرج على رأس قواته إلى حوض العاصى لحماية حمص وحماة وشيزر ، ظناً منه أن تلك النواحى ستكون موضع هجوم الصليبيين كما حدث سنة ١١٣٨ [٢].

ولكن يبدو – كما قال جيرارد أسقف اللاذقية عندئذ – أن الإمبراطور البيزنطى كان لايقصد بمجيئه إلى الشام حرب المسلمين بقصد ما أراد إظهار عظمته واستعراض عضلاته أمام الصليبيين . ومصداق ذلك أن الإمبراطور لم يكد يتحرك على رأس الجيوش الصليبية من أنطاكية حتى وصلته سفارة من نور الدين للدخول فى مفاوضات حقناً للدماء . وقد عرض نور الدين على الإمبراطور استعداده لعقد هدنة ، وإطلاق سراح جميع من لديه من أسرى الصليبيين ، وكان عددهم يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف [٣]. وهنا وافق الإمبراطور على العرض الذى تقدم به نور الدين ، وأمر بإيقاف الحملة فى الحال (نهاية مايو سنة ١١٥٩) [٤].

ويبدو أن الإمبراطور مانويل كومنين ظن أن نور الدين يمكن أن يكون حليفاً طيباً للامبراطورية البيزنطية فى حروبها ضد سلاجقة الروم ، فضلا عن أن تجارب الإمبراطورية البيزنطية مع الصليبيين علمت أباطرة القسطنطينية أن الصليبيين عدو خطير للإمبراطورية ، وأنهم لايتجهون إليها إلا فى أوقات الحاجة والشدة [٥].

ولم يلبث أن عاد الإمبراطور مانويل كومنين إلى القسطنطينية مباشرة ليقوم سنة ١١٦٠ – ١١٦١ بحملة ضد السلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وهى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل التاريخ دمشق ص ٣٥٤ ،
أبو شامة : كتب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٠٤ .
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٦ .
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٠٨ ، ومن جملة هؤلاء الأسري كان برترام الذي أسر عند العريمة قبل ذلك بنحو عشر سنوات ، وقائد فرسان الداوية الذي أسر في معركة الحولة قبل ذلك بنحو عامين (Stevenson. op. cit., p. 181) .
(4) Stevenson : op. cit., p. 181 .
(5) Runciman : op. cit., II, p. 355 .

الحملة التى أنزل فيها الهزيمة بقلج أرسلان الثانى سلطان السلاجقة . وهنا نلاحظ أن نور الدين اشترك فى مهاجمة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، مما أثار الظن بأن الاتفاقية السابقة – بينه وبين الإمبراطور البيزنطى – تضمنت نصاً سرياً يقضى بتحالف الطرفين ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى . هذا وإن كانت المصادر العربية والصليبية لم تشر إطلاقاً إلى مثل هذا الاتفاق [1]. ولم يلبث قلج أرسلان أن زار بنفسه القسطنطينية سنة ١١٦٢ حيث قدم ولاءه للإمبراطور البيزنطى وأعلن تبعيته له ، وذلك قبل أن ينقضى قرن على موقعة مانزكرت [2].

خاتمة بلدوين الثالث :

وهكذا باءت بالفشل فكرة التحالف بين الإمبراطورية البيزنطية والصليبيين بالشام للقيام بعمل حاسم مشترك ضد نور الدين محمود . ولم يبق إلا أن يعتمد الصليبيون على أنفسهم ، وعلى ما عساه يأتيهم من مساعدات من غرب أوروبا ، للاحتفاظ بوضعهم فى بلاد الشام أمام التهديد المستمر من جانب نور الدين .

وكان أن انتهز الملك بلدوين الثالث فرصة تغيب نور الدين محمود فى آسيا الصغرى لمحاربة السلاجقة ، وقام سنة ١١٦٠ باغارات على منطقتى حوران ودمشق [3]. وفى تلك الأثناء سمع الملك بلدوين بأمر أرناط الذى جره طمعه ورغبته فى السلب إلى الإغارة على مناطق المراعى فى الجزيرة ، ولكنه وقع عند عودته – ومعه أسلابه من الأغنام والمواشى والخيول – فى أسر مجد الدين أبى بكر بن الداية نائب نور الدين فى حلب (نوفمبر ١١٦٠) [4]. وقد ظل أرناط أسيراً فى حلب ستة عشر عاما (١١٦٠ – ١١٧٦) دون أن يظهر ملك بيت المقدس ، أو حتى أهل أنطاكية أنفسهم أسفاً على أسره أو يقوموا بمحاولة لإطلاق سراحه . وبذلك غدت إمارة أنطاكية مرة أخرى دون رجل قوى يدافع عنها ، حيث أن بوهيموند الثالث – ابن كونستانس من زوجها الأول والوريث الشرعى للإمارة – كان لايزال فى السادسة عشر من عمره [5].

وقد رغبت الأميرة كونستانس فى أن تسيطر على زمام الأمور بنفسها مرة أخرى ، ولكن بلدوين الثالث أسرع إلى أنطاكية حيث قرر المحافظة على حقوق

---

(1) Grousset : op. cit., p. 420 - 421 & أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ ق١ ، ص ٣٠٨

(2) Gregoire Le Pretre, p. 193 - 194. & ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٦٠ هـ

(3) Guillaume de Tyr, p. 866 .

(4) Idem, p. 868 - 869 & ويلاحظ أن مجد الدين هذا كان أخاً في الرضاعة لنور الدين

(5) Setton : op. cit., I, p. 546 - 547 .

بوهيموند الثالث الشرعية فى الحكم ، على أن يساعده فى شئون الحكم - إلى أن يبلغ سن الرشد - البطرق أيمرى . ويبدو أن هذا الحل لم يعجب كونستانس فاستنجدت بالإمبراطور البيزنطى[1]. ولم يلبث الإمبراطور البيزنطى الذى توفيت زوجته سنة ١١٥٩ - أن تزوج من الأميرة مارى ابنة كونستانس الأنطاكية فى ديسمبر سنة ١١٦١ ، وبذلك انتصرت كونستانس وتمكنت من تثبيت سلطانها فى أنطاكية [2] .

أما الملك بلدوين الثالث فقد اتجه بعد ذلك صوب بيت المقدس ، ولكنه مرض فى الطريق وتوفى فى بيروت فى فبراير سنة ١١٦٢ . ولم يترك بلدوين الثالث وريثاً يرثه فى ملك بيت المقدس سوى أخاه عمورى حاكم يافا وعسقلان الذى لم يلبث أن توج ملكاً فى كنيسة القيامة باسم عمورى الأول [3] .

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 874 .
(2) Chalandon : Commenes, II, p. 523 .
(3) Besant & Palmer : Jerusalem, p. 332 .

الفصل الثالث

مصر بين نور الدين وعمورى الأول

الملك عمورى الأول وسياسته :

توج عمورى الأول ملكاً على بيت المقدس فى ١٨ فبراير سنة ١١٦٢ ، أى بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث بثمانية أيام . وكان عمورى قد تزوج قبل ذلك بأربع سنوات من آجنى دى كورتناى ابنة جوسلين الثانى أمير الرها السابق ؛ ولكنه عاد فطلقها بعد أن أنجب منها طفلين هما بلدوين (الرابع) والأميرة سبيل [١] .

وعلى الرغم من أن عمورى لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره عند اعتلائه عرش مملكة بيت المقدس ، إلا أنه امتاز بالمهارة السياسية الفائقة ، والقدرة على انتقاء خيرة الوسائل لتنفيذ أغراضه ، فضلا عن حيويته ونشاطه وشجاعته . ولعل هذا كله مما دفع المؤرخين المسلمين أنفسهم إلى امتداح شجاعته ودهائه [٢] . ومع ذلك فان عمورى الأول لم يحظ بالشعبية الكافية ، ولم يتمتع بمحبة الناس مثل أخيه بلدوين الثالث ، وربما كان مرجع ذلك تباعده ومغالاته فى الصمت ، فاذا تكلم فأنه كان لايحسن مجاملة محدثيه من الناس [٣] .

ومهما يكن من أمر ، فان عمورى الأول تولى عرش بيت المقدس ليتجه بالحروب الصليبية وجهة جديدة ، أعنى فى الاتجاه الجنوبى الغربى داخل الأراضى المصرية [٤] . ذلك أن قيام الدولة النورية فى الشام ، ونجاح هذه الدولة فى تحقيق الوحدة بين حلب وحماه وحمص ودمشق ، أغلق الباب أمام الصليبيين أمام أى توسع فى الاتجاه الشمالى الشرقى ، فلم يبق أمامهم سوى مصر فى الجنوب الغربى . وكانت مصر عندئذ تبدو غنيمة سهلة نتيجة لانحلال الخلافة الفاطمية واختلال أحوال البلاد الداخلية [٥] .

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 882 - 884 .

(٢) ولم يكن للفرنج منذ ظهروا بالشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ١ ق٢ ص ٣٩٠ (تحقيق محمد حلمي أحمد) .

(3) Grousset : op. cit., II, p. 438 - 442 .

(4) Grousset : L'Empire du Levant. p. 231 .

(5) Schlumberger; Campagnes du Roi Amaury I, 19 .

الدولة الفاطمية فى أواخر أيامها :

أما مظاهر الانحلال الذى كانت تعانيه الخلافة الفاطمية فكثيرة ، ومتعددة، أهمها عدم استقرار الحكم ، حتى صار من الأمور الشائعة أن يموت الخليفة أو الوزير مقتولا . من ذلك أن الخليفة الظافر مات مقتولا سنة ١١٤٥ بسبب شذوذه الخلقى فاستبد بالسلطة الوزير طلائع بن رزيك – وهو من أصل أرمنى – طوال سبع سنوات (١١٥٤ – ١١٦١) (١) . وعندما توفى الخليفة الفائز – ابن الظافر – وهو فى الحادية عشر من عمره سنة ١١٦٠ ، أقام ابن رزيك فى الخلافة الخليفة العاضد الذى كان (مراهقاً قارب البلوغ) ، فزوجه الوزير طلائع ابنته ، مما مكنه من إحكام سيطرته على الخليفة (٢) .

وهكذا استمر طلائع بن رزيك يلهو بالخلفاء الصغار الذين صاروا أداة طيعة فى يده . ويتضح ذلك من العبارة التى قالها عندما هلل أهل القاهرة للخليفة الجديد إذ قال (كأنى بهؤلاد الجهلة وهم يقولون مامات الأول حتى استخلف هذا وما علموا أننى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم)(٣) . وأخيرا أحس الخليفة العاضد والأمراء بثقل ذلك الكابوس ، فدبروا مؤامرة لقتل ابن رزيك ، وتمت المؤامرة بنجاح فى سبتمبر سنة ١١٦١(٤) .

وقد خلف ابن رزيك ابنه العادل الذى لقب بمجد الإسلام ، ولكنه لم يظل فى الوزارة سوى خمسة أشهر ، قتله بعدها شاور حاكم الصعيد ، وتولى بدله الوزارة فى يناير سنة ١١٦٣ . على أن شاور عامل العاضد بأفعال قبيحة وأساء السيرة فى الرعية ، وأخذ أمر مصر فى وزارته فى إدبار . ولذلك خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر الذى استطاع أن ينتصر على شاور ويطرده من مصر سنة ١١٦٣(٥) . ولم يلبث ضرغام أن بغى بدوره وارتكب كثيراً من المظالم وأعمال الإضطهاد وقتل كثيراً من الأمراء المصـــريين لتخلو له البلاد من منازع (٦) . وسرعان ماعم الاستياء والخوف الناس جميعاً فى مصر ، وكان ذلك فى الوقت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ٣٤٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ &
Wiet : L'Egypte Arabe p. 289 .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٦ .
(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٨ هـ &
أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ ص ٣٣٢ . ويلاحظ أن لفظ (المصريين) استخدم بمعني (الفاطميين)

الذى أخذ عمورى الأول ملك بيت المقدس يفكر جدياً فى غزو مصر .

وقد ذكر بعض المؤرخين الصليبيين - مثل وليم الصورى وميخائيل السريانى - أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس كان قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠ منتهزاً فرصة الفوضى التى عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز. ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائه وستين ألف دينار (١) . وقد تحجج الملك عمورى الأول بعدم وفاء الحكومة الفاطمية بوعدها ليغزو الدلتا فى سبتمبر سنة ١١٦٣ حتي وصل إلى بلبيس وحاصرها. ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وسيحان المياه فى الأراضى ليجبر عمورى الأول على الانسحاب إلى فلسطين (٢) .

ولكن إذا كان عمورى الأول قد عاد إلى فلسطين فاشلاً، فان تلك الحملة الإستطلاعية كانت لها فائدة كبرى بالنسبة له وللصليبيين. ويكفى أنها أطلعتهم على مدى ضعف مصر وعظيم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها، مما جعل عمورى الأول يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر (٣) . ومن ناحية أخرى فان جرأة عمورى فى مهاجمة مصر أثارت مخاوف نور الدين الذى لجأ إلى القيام بعدة حملات قوية فى الشام سنة ١١٦٢ - أى عقب وفاة بلدوين الثالث مباشرة - لتحويل نظر الصليبيين عن مصر من جهة والاستفادة من الموقف الناتج داخل بيت المقدس عن وفاة ملك وقيام آخر من جهة أخرى (٤) . وقد بدأ نور الدين غزواته فى تلك المرحلة بمهاجمة حارم، فحاصرها وجد فى قتالها ولكنها امتنعت لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجاعتهم ومقاتليهم (٥). وكان أن ترك نور الدين إمارة أنطاكية ليهاجم إمارة طرابلس فى العالم التالى (١١٦٣) . ولكنه لم يكد يشرع فى مهاجمة حصن الأكراد، حتى اجتمعت القوات الصليبية المتباينة ضدة، فأنزلوا به ورجاله الهزيمة واضطر نور الدين إلى الفرار إلى حمص (٦) .

وفى تلك الأثناء كان شاور قد لجأ إلى نور الدين محمود فى الشام، وأخذ يستنجد به وأطمعه في الديار المصرية وقال له «أكون نائبك بها، وأقنع بما تعين

(1) Michel Le Syrien, III, p. 317 &
Guillaume de Tyr p. 890.
(2) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury P. 38 - 48.
(3) Setton : op. cit, I, p. 550 - 551.
(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ، ص ٣٣٩ وما بعدها.
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٣٤ .
(٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ - ١١٧ .

لى من الضياع والباقى لك [1]، كذلك تعهد شاور لنور الدين - إذا ساعده الأخير فى العودة إلى الوزارة بمصر - أن يدفع له ثلث دخل البلاد ويتصرف على أمره ونهيه وإختياره [2].

ولكن نور الدين تردد كثيراً فى أرسال حملة الى مصر خوفاً من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء فى الشام. وأخيراً استخار نور الدين القرآن، وأرسل حملة مع شاور الى مصر سنة ١١٦٤ بقيادة أسد الدين شيركوه، وصحب شركوه فى تلك الغزوة ابن أخيه صلاح الدين وكان في السابعة والعشرين من عمره. وعندئذ استنجد ضرغام بالصليبيين، وتعهد لعمورى - مقابل مساعدته - أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين [3]. على أن مهارة القائد الكردى شيركوه وإسراعه فى قطع الصحراء - رغم كبر سنه - جعلته يكسب قصب السبق، فوصل الدلتا قبل الصليبيين، وانتصر عند تل بسطا على جيش أرسله ضرغام، بحيث لم يكد يحل أول مايو سنة ١١٦٤ إلا وكان شيركوه - وبصحبته شاور - قد وصلا إلى أسوار القاهرة. ولم يلبث أن تخلى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة [4].

وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن شاور بأنه كان خبيثاً سفاكاً للدماء ، فأساء معاملة الناس، ونسى وعوده المعسولة لنور الدين، بل سرعان ما ظهرت منه إمارات الغدر بأسد الدين شيركوه ؛ فرفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه وطلب منه الخروج من مصر [5]. ولكن شيركوه رد على موقف شاور باحتلال بلبيس والشرقية، مما جعل شاور يفعل فعل سلفه ضرغام فاستنجد بالصليبيين، وأرسل يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر [6].

ولم يلبث أن عاد عمورى الأول على رأس جيش كبير إلى مصر مرة أخرى لاسيما بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال [7]. وعندما وصل مَلك بيت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٦.
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ، ص ٣٣٢.
(3) Wiet : L'Egypte Arabe p. 264.
(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢، ص ٣٣٣.
(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٤٧.
(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٥٩ هـ.
(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ، ص ٣٣٥،
ابن واصل : مفرج الكروب، جـ ١ ص ١٣٩
Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury ; p. 58.

المقدس إلى فاقوس، لم يشأ شيركوه أن يتجه نحو القاهرة، وإنما اختار أن يقوى مركزه في بلبيس حيث حصل على مساعدات من عرب كنانة. وكان ذلك فى الوقت الذى حضر شاور من القاهرة على رأس جيشه واشترك مع عمورى فى حصار شيركوه فى بلبيس، حتي تم الاتفاق أخيراً على أن يغادر شيركوه وعمورى الأول مصر، وتم ذلك فى أواخر سنة ١١٦٤، بعد أن تعهد شاور بأن يدفع لشيركوه ثلاثين ألف ديناراً أخرى (١). وربما كان عمورى الأول أكثر تلهفاً على تلك الاتفاقية، حيث أن هجمات نور الدين اشتدت على الصليبيين فى غيابه مما تطلب عودته إلى بلاد الشام على وجه السرعة (٢).

نور الدين وإمارة أنطاكية :

والواقع أن نور الدين كان لا يمكن أن تفوته فرصة تغيب عمورى الأول فى الميدان المصرى وخلو الشام من الفرنج دون أن يهاجم الصليبيين فى غياب الملك لينتقم من الكسرة التى حلت به قرب حصن الأكراد سنة ١١٦٣(٣). وكان أن اختار نور الدين أن يهاجم إمارة أنطاكية، أو حصن حارم علي وجه التحديد. ولم يكن نور الدين وحده تلك المرة، وإنما اشترك معه فى الجهاد الأمير فخر الدين قرا أرسلان الأرتقى صاحب حصن كيفا فى ديار بكر، ونجم الدين ألبى صاحب ماردين، فضلا عن الأخ الثالث لنور الدين وهو قطب الدين مودود أتابك الموصل (٤).

أما الصليبيون فلم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام تهديد نور الدين وحلفائه، وإنما جمعوا شملهم - فى غياب عمورى الأول - لمواجهة نور الدين. وهكذا اشترك مع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية ، ريموند الثالث أمير طرابلس، وحاكم قيليقية البيزنطي، وثوروس الثانى الأمير الأرمني. وسارت قوات ذلك الحلف المسيحى الكبير صوب حارم، وعندئذ ترك نور الدين حصارها واتجه صوب أرتاح (٥). ويبدو أن نور الدين استهدف من تلك الحركة استدارج الصليبيين، حتى اقترب

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٥٩ هـ أبو شامة، ج ١ ص ٣٣٦.
(2) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 458.
ويوضح ابن الأثير الأسباب التي جعلت عموري الأول يقبل الصلح عندئذ بسرعة فيقول : فبينما هم (الصليبيون) كذلك، أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم، وملك نور الدين الحصن ومسيره إلي بانياس، فحينئذ سقط في أيدهم ولات حين مناص، فأراد الفرنج العودة إلي بلادهم ليحفظوها، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها .. (التاريخ الباهر، ص ١٢٢).
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ، ص ٣٣٩ (تحقيق محمد حلمى أحمد).
(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٢٣ - ١٢٤.
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ، ص ١٤٤ (تحقيق جمال الدين الشيال).

الفريقان من بعضهما، فدارت بينهما معركة حامية في ١١ أغسطس سنة ١١٦٤. وفى تلك الموقعة كانت مصيبة الصليبيين فادحة، إذ قتل منهم بضعة آلاف، وأسر المسلمون ما لا يحد. وعلى رأس أسرى الصليبيين الذين سيقوا إلى حلب كان جميع أمراء الصليبيين الذين اشتركوا فى المعركة، باستثناء الأمير الأرمنى ثوروس الثاني، فأسر بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس -وكان شيطان الفرنج وأشدهم شكيمة علي المسلمين -وجوسلين الثالث دى كورتناي، وهيو الثامن لوزجنان، فضلا عن حاكم قيليقية البيزنطى الذى تشير اليه المصادر العربية بعبارة الدوك مقدم الروم (١).

وفى تلك المرة لم يضع نور الدين الوقت عقب انتصاره، وإنما استولى على حارم فى ١٢ أغسطس سنة ١١٦٤، وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى أنطاكية، لولا حرصه على عدم استثارة عداء الإمبراطور البيزنطى الذى كانت أنطاكية تحت حمايته (٢). لذلك اتجه نور الدين نحو بانياس التابعة لمملكة بيت المقدس، واستولي عليها فى أكتوبر سنة ١١٦٤، وملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا (٣).

أما الملك عمورى الأول فقد عاد من مصر فى أوائل نوفمبر سنة ١١٦٤ ليجد الموقف فى بلاد الشام جد خطير بالنسبة للصليبيين، وذلك بعد أن استولى نور الدين علي حارم من إمارة أنطاكية، وبانياس من مملكة بيت المقدس، وكلا الموقعين له أهميته الاستراتيجية. هذا بالإضافة إلى ما كان من أسر أميرى أنطاكية وطرابلس وزملائهما. وإذا كان عمورى الأول قد نجح فى حمل نور الدين على إطلاق سراح بوهيموند الثالث، فانه يغلب على الظن أن نور الدين لم يقبل ذلك إلا تحت تأثير الخوف من تدخل الإمبراطور البيزنطى الذى كان متزوجاً من الأميرة مارى الأنطاكية أخت بوهيموند الثالث (٤).

ولم يكد يتم اطلاق سراح بوهيموند الثالث فى صيف سنة ١١٦٥، حتي قصد القسطنطينية لزيارة أخته الإمبراطورة وزوجها الإمبراطور. وفى تلك الزيارة

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ ق ٢، ص ٣٤٠ - ٣٤٢.
ابن الأثير : الكامل، سنة ٥٥٩ هـ.

(٢) يروي ابن الاثير أن أصحاب نور الدين أشاروا عليه بمهاجمة أنطاكية ليملكها ؛ لكنه رفض، وقال : إذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلي صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجاورة بيموند (بوهيمند) أحب إلي من جوار ملك الروم.
(التاريخ الباهر ص ١٢٥).

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣١، الكامل - حوادث سنة ٥٥٩ هـ.

(4) Grousset : Hist des Croisades,II, p. 469 - 470.

رضى بوهيموند الثالث أن يعين بطرقاً أرثوذكسياً على أنطاكية، الأمر الذى أغضب رجال الدين الكاثوليك فيها وأحدث فتنة داخلية، وحالة من القلق، طوال الفترة التى شغل البطرق الأرثوذكسى أثناس الثانى كرسى أنطاكية (١١٦٥ – ١١٧١) (١). وفى تلك الفترة دأب بوهيموند الثالث على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بالدفاع عن إمارته، فأعطى هيئة الفرسان الاسبتارية مجموعة من القلاع فى إمارته للدفاع عنها (٢).

أما نور الدين، فقد قنع مؤقتاً بالاستيلاء علي حارم وبانياس. وفيما عدا استيلائه (١١٦٥ – ١١٦٦) على بعض مواقع صغيرةمثل شقيف تيرون وحصن المنيطرة – على الطريق بين جبيل وبعلبك (٣).، لم يقم بأى جهد آخر جديد، حتى بدأت مسألة مصر تستوعب فكره وجهده من جديد.

تجدد التنافس بين نور الدين والصليبيين حول مصر سنة ١١٦٧ :

خرج نور الدين والصليبيون جميعاً من تجربتهم العملية على أرض مصر، بفكرة واضحة عن مدى ثروة البلاد وضعفها الشديد، حتى بدا لهم أن الاستيلاء عليها يمثل الهناء دون عناء، لولا تربص كل طرف للآخر ورغبة كل جانب فى أن ينفرد بالغنيمة دون خصمه.

ويذكر أبو المحاسن أن شيركوه غادر مصر وهو فى غاية من القهر (٤). كما يذكر ابن الأثير أن شيركوه لم يستطع عقب عودته إلى بلاد الشام أن ينسى مصر، فظل ، بعد عودته منها لا يزال يتحدث بها وبقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير(٥)، ولو ترك الأمر لشيركوه لعاد إلى مصر سنة ١١٦٥ أوسنة ١١٦٦ ، ولكن يبدو أن نور الدين محمود خشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر فى هاتين السنتين خوفاً من تشتيت جهوده وتقسيم قواته، فى الوقت الذى كان الموقف فى بلاد الشام يستدعى شيئاً من اليقظة والانتباه (٦).

ومن ناحية نور الدين يلاحظ أن الطمع فى ثروة مصر أو الخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حربياً ومادياً لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمامه بأمر مصر. وإنما كان هناك – بالاضافة إلى ما سبق – دافع آخر مذهبى له أهميته فى توحيد

(1) Michel Le Syrien; p. 332 - 333.

(2) King : The Knights Hospitallers in The Holy Land, p. 93.

(٣) إبن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦١ هـ.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ة ج٥ ص ٣٤٨.

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ.

(6) Schlumberger : Campagnes du Roi Amury, p. 101 - 102.

الجبهة الإسلامية. ذلك أن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت فى نظره مصدراً من مصادر الفرقة فى العالم الإسلامي، لأن قيامها فى القاهرة كان كفيلا ببقاء المذهب الشيعى حياً - على الأقل فى مصر - فى حين ساد المذهب السنى بلاد الشام ومعظم بلاد العراق. ويحتمل أن تكون قد دارت مباحثات واتصالات قوية بين نور الدين وقائده شيركوه من ناحية والخليفة العباسى من ناحية أخري، وذلك قبل أن يعهد نور الدين إلى شيركوه بمهمة غزو مصر (١).

وثمة أسباب أخرى ذكرها المؤرخ أبو المحاسن جلعت نورالدين يرسل شيركوه للمرة الثانيه إلى مصر، أهمها أن الخليفة العاضد الفاطمى عندما رأى استبداد شاور، وأنه غلب عليه، أرسل إلى نور الدين يستنجده، ويعلمه أن شاور قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم. هذا إلى أنه كان فى قلب نور الدين من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج (٢).

وكان أن غادرت الحملة النورية الثانية دمشق فى يناير سنة ١١٦٧ فى طريقها إلى مصر تحت قيادة شيركوه، ويصحبته أيضا ابن أخيه صلاح الدين (٣). وعندما أدرك شيركوه الدلتا عمل حساباً لاستنجاد شاور بالصليبيين، فوجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة، واختار أن يعبر النيل عند أطفيح الى الجيزة حيث عسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل (٤).

وقد صح ما توقعه شيركوه، إذ استنجد شاور بعمورى الأول ملك بيت المقدس، الذى أسرع فى نهاية سنة ١١٦٧ ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة. ويبدو أن ظروف الصليبيين فى بلاد الشام كانت تستدعى بقاء عمورى عندئذ، ولكنه اضطر إلى قبول دعوة شاور طمعاً فى ملك مصر، وخوفاً من أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم (الصليبيين) فى بلادهم مقام معه ومع نور الدين.، وهكذا خرج الصليبيون إلى مصر، الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، وفق تعبير ابن الأثير (٥)، فساروا فى الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترقوا الصحراء إلى بلبيس، حيث خف شاور للقاء حلفائه وقادهم إلى حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل، فى حين كان شيركوه لا يزال مرابطاً على الضفة الغربية (٦).

(1) Grousset : Hist des Croisades II, p. 478 - 479.

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٨.

(٣) يشير ابن شداد إلي أن صلاح الدين خرج إلي مصر تلك المرة علي كراهية منه ؛ وأن نور الدين الزمه بذلك. (النوادر السلطانية ص ٦٥).

(4) Wiet : op. cit, p. 295 & أبو شامة : كتاب الروضتين ١ ص ١٤٢

(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ.

(٦) المصدر السابق

وقد أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين تضمن لهم أجرهم قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائه ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر، على أن يدفع نصف هذا المبلغ فوراً (١). وكان أن رحب الصليبيون بتلك الاتفاقية التى تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية. ولدعم الاتفاقية وإعطائها صبغة رسمية، أرسل عمورى الأول سفارة إلى الخلفية الفاطمي، زارته فى قصره الفخم حيث تم ابرام الاتفاق فى صورته النهائية، وعاد رسل الصليبيين ولا حديث لهم إلا عظمة البلاط الفاطمى (٢).

وعندما استعد الفاطميون والصليبيون لمهاجمة شيركوه، وجدوا أنه لابد لهم من عبور النيل إلى الضفة الغربية، فأخذوا يعبرون إلى جزيرة الروضة، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه، فاتجه إلى الصعيد حيث لحق به عمورى الأول وشاور (٣). وقرب الأشمونين في المنيا دارت معركة البابين فى مارس سنة ١١٦٧ واشترك فيها صلاح الدين (٤). وقد هزم الصليبيون فى تلك المعركة وان كان انتصار شيركوه غير حاسم « وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس يهزم عسكر مصر وفرنج الساحل ». أما عمورى فقد قفل راجعاً ومعه بقية جيشه، حيث عسكر قرب الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل (٥).

وكان من المحتمل أن ينجح شيركوه فى امتلاك القاهرة فى الحال لو ساق خلفهم (٦). ولكنه آثر أن يتجه شمالا على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية، فى الوقت الذى ظل الصليبيون قابعين أمام الفسطاط. وإذا كان عسف شاور وجوره لم يمكنا أهل القاهرة من التعبير عن استيائهم لتحالف حكامهم مع الصليبيين، فانه كان من الصعب أن يقبل أهل الاسكندرية ذلك الوضع، فضلا عن أن بعدهم عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبى عن طريق البحر، جعلهم أكثر إحساساً بالخطر وأكثر حرية فى التعبير عن شعورهم. لذلك لم يكد شيركوه يقترب من الاسكندرية حتى تلقاه أهلها طائعين وفتحوا له أبواب مدينتهم بغير قتال. على أنه يبدو أن شيركوه خشى أن يحصره الصليبيون وجميع قواته داخل الاسكندرية

(1) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury ; p. 116.
(2) Guillaume de Tyr, p. 909 - 913
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٦٤.
(٤) عن تفاصيل موقعة البابين وأسباب هزيمة الصليبيين فيها، أنظر ابن الاثير : التاريخ الباهر، ص ١٣٢ - ١٣٣، ابن واصل : مفرج الكروب، ص ١٥٠ وكذلك حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١١٤.
(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ، التاريخ الباهر ؛ ص ١٣٣.
(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٩.

وقال أنا لا يمكننى أن أحصر نفسي ، فترك ابن اخيه صلاح الدين نائباً عنه فى الاسكندرية، واتجه هو على رأس الجزء الاكبر من قواته عائداً إلى صعيد فاستولى عليه وأقام يجمع أمواله (١).

وفى الوقت الذى أوغل شيركوه فى الصعيد حتى قوص وحاصرها، ساء موقف صلاح الدين وأهل الاسكندرية بعد أن أسرع عمورى لحصار صلاح الدين وليس معه إلا ألف جندى داخل المدينة (٢). وكان أن اشتد الحصار وقل الطعام داخل الإسكندرية، ومع ذلك فقد صبر أهلها على ذلك (٣). وعندما رأى صلاح الدين إصرار الصليبيين على حصار الإسكندرية وخشى عاقبة ذلك الحصار أرسل إلى عمه يطلب النجدة العاجلة، فاضطر شيركوه إلى العودة شمالا فى أواخر يونيو سنة ١١٦٧ . وفى الطريق أدرك شيركوه صعوبة الاستيلاء على مصر، فأرسل إلى الصليبيين يطلب عقد الصلح، وتم الاتفاق – مثل المرة السابقة – على تبادل الأسري، وعلى أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد (٤).

تدهور موقف الصليبيين بالشام :

والواقع إن الذى شجع عمورى الأول على قبول عرض شيركوه فى سرعة، تلك الأخبار التى أخذت تترى عليه باستمرار عن سوء الموقف فى الشام، بعد أن اشترك نور الدين مع أخيه قطب الدين أتابك الموصل فى القيام بغارة عنيفة علي إمارة طرابلس سنة ١١٦٧ . ذلك أن نور الدين استغل سوء الأوضاع فى إمارة طرابلس – التى كان أميرها ريموند الثالث لا يزال أسيراً – فأغار علي الجهات المحيطة بحصن الأكراد، ثم اتجه لحصار عرقة إلى الشمال الشرقى من طرابلس(٥). ويذكر ابن الأثير أن نور الدين فتح فى تلك الغزوة قلعتى العريمة وصافيثا(٦). وبعد أن عاد نور الدين إلى حمص خرج مرة أخرى لمهاجمة مملكة بيت المقدس من جهة الشمال الشرقي، فخرب قلعة هونين ثم اتجه لمهاجمة بيروت (٧).

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٠.
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٩.

(٢) وقد حفظ صلاح الدين لأهل الاسكندرية جميلهم وحسن إستقبالهم له وصبرهم علي الحصار الذي فرضه عليهم الصليبيون ، فلما ملك مصر بعد ذلك أحسن إليهم.
(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٣٤٩).

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٦ ،
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٠ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٧٤.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ١ ق ٢، ص ٣٧٤ – ٣٧٥.

ولعل هذه الأخبار كان فيها الكفاية لتجعل عمورى الأول يتعجل العودة إلى الشام بعد أن عقد الصلح مع شيركوه . وفى أوائل سبتمبر سنة ١١٦٧ وصل شيركوه إلى دمشق فى حين تأخر عمورى الأول فى مصر بضعة أسابيع لأنه مر بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية . وكانت أهم مظاهر تلك الحماية دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين، وبقاء قوة من الفرسان تحمى أبواب القاهرة، فضلا عن إقامة مندوب عن الملك الصليبى (شحنة) في القاهرة، يشارك فى شئون الحكم (١).

والواقع إن عمورى كان لا يمكنه تحقيق أطماعه فى مصر إلا بعد أن يطمئن على مصير الصليبيين بالشام. وكانت المشكلة الكبرى أمام عمورى والصليبيين هى قلة الموارد البشرية بعد أن قتل وأسر كثير من الصليبيين بالشام وتناقصت أعداد الحجاج والوافدين من الغرب. ولم يجد عمورى فى تلك الظروف معيناً سوى منظمات الفرسان، فأخذ يتوسع منذ سنة ١١٦٧ فى منحهم كثيراً من القلاع والمدن للدفاع عنها. وهكذا سيطر الداوية علي انطرطوس ومعظم الأجزاء الشمالية من إمارة طرابلس، في حين عهد إلى الاسبتارية بحماية البقاع وحصن الأكراد (٢). أما فى مملكة بيت المقدس ذاتها فقد أعطى الداوية صفد فى الشمال بالاضافة إلى غزة التى كانت بأيديهم فى الجنوب، فى حين أخذ الاسبتارية قلعة كوكب. وسرعان ما حذا بوهيموند الثالث أمير أنطاكية حذو ملك بيت المقدس، فتوسع فى أعطاء الداوية كثيراً من المناطق حول بغراس فى حين منح الاسبتارية أجزاء واسعة فى جنوب الإمارة. وهكذا أخذ فرسان الداوية والاسبتارية يبدون عندئذ فى صورة القوة الكبرى التى نهضت بعبء حراسة الأراضى والممتلكات الصليبية ببلاد الشام (٣).

على أنه إذا كان عمورى الأول قد غادر مصر مضطراً سنة ١١٦٧ ، فليس معنى ذلك أنه عدل عن فكرة الاستيلاء على مصر. ويذكر أبو المحاسن أن الصليبيين عندما حضروا إلى مصر فى المرات السابقة اطلعوا على عوراتها

(١) وأما الفرنج فانهم قد استقر بينهم وبين المصريين أن يكون بالقاهرة شحنة، ويكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع نور الدين من إنفاذ العسكر إليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.
(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٩،
ابن الأثير : التاريخ الباهر، ١٣٤).

(2) King : The Knights Hositallers, p. 93.

(3) Runciman : op. cit II, p. 376 - 377.

وطمعوا فيها (١)، ولم يعد فى وسعهم أن يتخلوا عن فكرة الاسيلاء على تلك البلاد طمعاً فى ثروتها وحماية لكيانهم فى الشام. ولكن عمورى أدرك أنه فى حاجة إلى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى الاستيلاء على مصر، وبذلك فكر من جديد فى تقوية الرابطة مع الإمبراطورية البيزنطية. ولم يحجم - مثلما فعل بوهيموند الثالث أمير أنطاكية من قبل - عن الزواج سنة ١١٦٧ من الأميرة مارى كومنين قريبة الإمبراطور (٢). وهكذا تعاقبت ملكتان بيزنطيتان على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، هما تيودورا كومنين زوجة بلدوين الثالث، ومارى كومنين زوجة عمورى الأول (٣).

والواقع أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية، وتنافس نور الدين وعمورى الأول حول الفوز بوادى النيل. ولم يلبث الإمبراطور البيزنطى أن أرسل معبوثين سنة ١١٦٨ إلى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك، فتقوم القوات البيزنطية الصليبية بفتح مصر (٤)، على أن يكون الثمن الذى يتقاضاه الإمبراطور لقاء مساعدة الصليبيين هو إعطاؤه جزء من مصر، فضلا عن أنطاكية (٥). وقد وافق عمورى الأول على تلك الشروط، وأرسل مبعوثاً - هو المؤرخ الشهير وليم الصوري- إلى القسطنطينية، حيث تم عقد اتفاقية بين الطرفين فى سبتمبر ١١٦٨ تنص على تقسيم مصر بين البيزنطيين والصليبيين (٦).

انتصار الوحدة :

على أن الإتفاقية السابقة بين البيزنطيين والصليبيين لم تنفذ، إذ لم يشأ الملك عمورى الأول أن ينتظر فراغ الإمبراطور من مشاغله فى البلقان، وانفرد - دون شركائه البيزنطيين - بالهجوم على مصر. وقد يبدو لأول وهله أن السبب فى ذلك التحول إنما يرجع إلى عدم رغبة عمورى فى أن يشاركه البيزنطيون فى إقتسام مصر، فأراد أن ينفرد بالصيد وحده، ولكن الواقع هو أن عمورى الأول وجد نفسه مضطراً إلى الإسراع فى العمل نتيجة لانقلاب سياسة شاور ضد الصليبيين (٧). ويروى ابن الاثير وابن واصل أن جماعة من الفاطميين من أعداء شاور « كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصرة، عداوة منهم لشاور» .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٥٠.

(2) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 344.

(3) Grousset : Hist des Croisades, II, p. 504.

(4) Guillaume de Tyr p. 954.

(5) Schulmberger : Campagnes du Roi Amaury I. p. 185.

(6) Guillaume de Tyr. p. 955 - 957.

(7) Chalandon : Comnenes,II, p. 547 - 538.

حقيقة إن شاور كان هو البادىء دائماً بطلب مساعدة الصليبيين ؛ ولكنه أخذ يتخوف عندما وجد أن هذه المساعدة تحولت إلى حماية. هذا إلى أن الضريبة السنوية التي فرضها عمررى الأول على شاور – وهى مائة ألف دينار – أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية، فى الوقت الذى ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها. ثم إن وجود مندوب عن الصليبيين – أو شحنة – (١) فى القاهرة يشارك فى شئون الحكم، ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة، كل ذلك أزعج الفكر الإسلامى (٢). وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شارو أساءوا معاملة أهل البلاد ، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى ... (٣)،. وهكذا لم يجد شاور مفراً – أمام شعور الإستياء العام فى القاهرة – من أن يقلب سياسته رأساً على عقب، فاتصل بنور الدين طالباً المساعدة للتخلص من الحماية الصليبية (٤).

وبعد أن فرغ نور الدين من بعض المشاكل التى نشبت فى أواخر سنة ١١٦٧ وأوائل سنة ١١٦٨ مع بعض الأمراء المسلمين في العراق والشام، بدأ يوجه جهوده من جديد تجاه المسألة المصرية (٥). وفى ذلك الوقت بلغ الصليبيين أن شاور أرسل ابنه – الكامل شجاع – إلى نور الدين ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته مما ترتب عليه عقد اتفاقية بين الطرفين. كذلك حاول شاور تأكيد هذه الرابطة الجديدة عن طريق المصاهرة، فيتزوج الكامل شجاع من أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين من إبنة شاور (٦).

على أنه يبدو أن تدخل عمورى مرة أخرى فى شئون مصر لم يكن مرجعه تبدل سياسة شاور فحسب، وانما تعرض ملك بيت المقدس لضغط من جانب فرسانه وأمرائه الذين وجدوا فى مصر لقمة سائغة، فظلوا يدفعون ملكهم للإستيلاء عليها. ويروى ابن الأثير أن رجال الحامية الصليبية فى مصر أرسلوا إلى عمورى يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من الموانع وهونوا أمرها عليه، ولكن عمورى

---

(١) الشحنة هو نائب السلطان في البلد، ومن يقوم مقامه في ضبطها وتصريف شئونها.
(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧.
(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ.
(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٧ – ١٣٨. ويذكر ابن الأثير أن الخليفة العاضد الفاطمي أرسل إلي نور الدين محمود يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج
(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٢ هـ.
(٦) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠،
ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٢ هـ ،
ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٥٢.

تردد كثيراً قبل القيام بتلك الخطورة، إذ أدرك أنه لن يتعرض لمقاومة الحكام بل لمقاومة الأهالى أنفسهم، وأن المسألة ليست مسألة شاور والخليفة إنما هى مقاومة شعب بأسره. لذلك قال عمورى لأصحابه أنه لو أقدم على تلك الخطوة فان صاحب مصر وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها .... ولعله مما يشرف مصر وتاريخها أن عمورى والصليبيين عملوا حساباً لعامة أهل مصر وفلاحيها، في الوقت الذى كانوا يعلمون جيداً مدى انحلال حكام مصر وضعفهم (١).

ولم يلبث أن دب الخلاف بين الصليبيين سنة ١١٦٨ حول السياسة الواجب اتباعها تجاه المسألة المصرية، فرأى الملك عمورى الأول الاكتفاء بسياسة الحماية التى يتبعها الصليبيون، فى حين نادى كثير من أمراء الصليبيين بأنه لابد من غزو مصر وإخضاعها للصليبيين وقالوا إن مصر لا مانع لها ولا حافظ (٢). وكان أن انتصر الرأى الأخير، فأعد عمورى جيشاً كبيراً أسهم فيه فرسان الاسبتارية مساهمة فعالة (٣).

وفى أواخر أكتوبر ١١٦٨ غادر عمورى الأول عسقلان متجهاً نحو دلتا النيل لغزو مصر للمرة الرابعة، فوصل بلبيس فى أول نوفمبر سنة ١١٦٨. ولكن عمورى لاحظ تغييراً فى موقف المصريين منه عندئذ، بدليل أن بلبيس أغلقت أبوابها فى وجهه تلك المرة. وعندما طلب عمورى من طى بن شاور الذى كان بالمدينة أن يسمح له ولجنده من الصليبيين أن يعسكروا داخل بلبيس أجابه طى «على أسنة الرماح ... أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها ؟ «فرد عليه عمورى، نعم هى جبنة والقاهرة زبدة ... (٤)». وكان أن اضطر عمورى إلى محاصرة بلبيس ومهاجمتها للاستيلاء عليها عنوة فى ٤ نوفمبر سنة ١١٦٨. وعند دخول الصليبيين بلبيس ارتكبوا حماقة كبري، إذ نهبوها وسبوا أهلها و قتل (عموري) من أهلها خلقاً عظيماً وخرب أكثرها وأحرق جل دورها مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس الناس (٥).

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٣٧.
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج١ ق ٢، ص ٣٩٠
(3) King : op. cit, p. 94.
(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٣١.
(5) Guillaume de Tyr p. 951 &
ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة في سرعة، (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٩٠).

ولم يلبث أن اقترب عمورى الأول من القاهرة فى ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ حيث عسكر عند بركة الحبش جنوبى الفسطاط. وهنا يذكر ابن الأثير أن أهل القاهرة عزموا على المقاومة حتى لا يتعرضون للمصير السيء الذى تعرض له أهل بلبيس، كما يؤكد أنه لو كان الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس لملكوا مصر والقاهرة (١).

أما شاور فقد أحس فى ذلك الوقت بحرج موقفه واستياء الناس منه فأشعل النار فى الفسطاط وأحرقها أولا عن آخر، بعد أن أنذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم ، وعندئذ نقل عمورى معسكره أمام القاهرة قرب باب البرقية (٢). ولكن القاهرة التى امتلأت باللاجئين من الفسطاط عزمت على المقاومة، فى الوقت الذى وصل الأسطول الصليبى إلى بحيرة المنزلة وتنيس. ولكنه لم يستطع التقدم فى النيل جنوباً صوب القاهرة، بسبب العقبات التى وضعها المصريون فى مجرى النيل (٣). وهكذا أخذ عمورى يتراجع عن القاهرة بعد أن أعطاه شاور مائه ألف دينا ر(٤)، فاتجه إلى سرياقوس عن طريق المطرية ، وهناك سمع بأن شيركوه اقترب من مصـــر على رأس جـــيش كبير، فأمر عمورى الأسطول الصليبى بالعودة إلي عكا (٥).

وكان الخليفة الفاطمى عندما رأى الخطر المحيط ببلاده قد أرسل إلى نور الدين يعرض عليه ثلث بلاد مصر إذا هو أنقذه من الصليبيين (٦). والواقع أن نور الدين محمود كان لا يمكن أن يترك الصليبيين يحتلون مصر، فلم يكد يسمع بعودة عمورى والصليبيين إلى مصر إلا وأسرع بتجهيز العساكر خوفاً علي مصر كذلك يروى أبو شامة أن نور الدين أخذ يتخوف عندئذ من تردد الصليبيين على مصر. بين حين وآخر، وأدرك أن شاور يلعب بهم تارة وبالإفرنج أخري. ولذلك قر رأيه على أن يتخذ موقفاً حاسماً من المسألة المصرية (٧).

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٣٣.

(3) Guillaume de Tyr. p. 953.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤،
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٥٠.

(5) Schlumberger : Campagnes du Roi Amauri, p. 208 - 209.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ.

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٣٩٧، ٤٣٥.

وقد صحب صلاح الدين عمه شيركوه فى تلك الحملة الجديدة على مصر، وإن كانت المصادر تشير أيضا إلى تمنعه وعدم رغبته في الخروج حتى أجبره نور الدين على ذلك وقال له ، لابد من خروجك ، وعندئذ لم يستطع صلاح الدين مخالفة مخدومه نور الدين[١] . وفى الوقت الذى اقتربت جيوش نور الدين من حدود مصر الشرقية، اتخذ عمورى خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس إلى بلبيس – حيث ترك هناك قوة تحمي الطريق المؤدى إلى القاهرة – ثم التقدم نحو فاقوس لمباغتة قوات شيركوه وهى قادمة متعبة من الصحراء الشرقية ، والقضاء عليها قبل أن تتمكن من الاتحاد مع القوات المصرية (ديسمبر سنة ١١٦٨)[٢] ولكن هذ الخطة التى وضعها عمورى الأول انهارت من أساسها عندما علم أن شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة، وأنه أدرك عاصمة مصر فعلا حيث التف حوله الأهالى بوصفه المدافع عنهم وعن الإسلام ؛ فى حين لم يستطع شاور نفسه – الذى كان الدعامة التى اعتمد عليها عمورى فى المرتين السابقتين – أن يفعل شيئاً. وهكذا لم يبق أمام عمورى الأول سوى أن يسحب حاميته التى تركها فى

---

(١) تحرص المصادر العربية علي أظهار صلاح الدين في صورة المتمنع عن المجيء إلي مصر صحبة عمه شيركوه في الحملتين السابقتين وفي الحملة الثالثة بوجه خاص. من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن صلاح الدين قال لعمه : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها مالا أنساه أبداً. (الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ) .

كذلك يروي أبو المحاسن أن نور الدين قال لصلاح الدين : أخرج مع عمك أسد الدين، فامتنع وقال يا مولاي يكفي ما لقيناه من شدائد في تلك المرة. فأجبره نور الدين علي الخروج. (النجوم ج ٥ ص ٣٥٠) .

أما ابن شداد فيروي عن صلاح الدين أنه قال بنفسه : كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة، وما خرجت مع عمي باختياري. (ص ٦٧) .

وفي رأينا أن المؤرخين قصدوا من تلك الإشارات ايضاح أهمية الدور الذي يلعبه القدر والنصيب المكتوب ؛ وكيف أن نور الدين ألح علي صلاح الدين في الحضور إلي مصر دون أن يدري أن صلاح الدين هذا سيكون منافسه في المستقبل وأنه سيستغل ثروة مصر للوقوف في وجهه وأنه سيرثه في دولته. كذلك كيف أتي صلاح الدين الي مصر كارهاً دون أن يدري أنه علي موعد مع القدر، وأن نجمه لن يلبث أن يتألق في تلك البلاد. ويؤكد القاضي ابن شداد هذا المعني الأخير عندما يعقب علي تمنع صلاح الدين عن الحضور إلي مصر، بالآية الكريمة : وعسي أن تكرهوا شيئاً وهوخير لكم.

(النوادر السلطانية، ص ٦٧) .

(2) Guillaume de Tyr. p. 955.

بلبيس وينسحب ومعه رجاله فوراً (يناير ١١٦٩) «عائدين إلى بلادهم بخفى حنين، خائبين مما أملوا»(١).

أما شيركوه، فقد فرح به أهل مصر واستقبل استقبال البطل المخلص عند وصوله إلى القاهرة. وقد عسكرت قواته عند أرض اللوق على باب القاهرة، فاستدعاه الخليفة العاضد الفاطمى إلى القصر، وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور، وأخذ أرباب الدولة يترددون إلى خدمته فى كل يوم (٢). وكان من الطبيعى أن يحقد شاور على شيركوه، وبخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد لشيركوه وميله إليه، فأرسل شاور مرة أخرى إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويقول لهم «يكون مجيئكم فى دمياط فى البحر والبر(٣)»، بل إن شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم إليها، ولما عارضه ابنه الكامل فى ذلك رد شاور على إبنه قائلا «لئن لم نفعل هذا لنقتلن كلنا».

وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أمول البلاد لشيركوه، فلما أرسل الأخير يطلب منه الوفاء بوعده أخذ يماطل فى انتظار وصول الصليبيين لنجدته. وأخيراً اجتمع أعيان الدولة بمصر عند شيركوه وقالوا له «شاور فساد العباد والبلاد وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الإسلام»، وطالبوا بقتله (٤).

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩؛ وقيل إن الخليفة العاضد الفاطمى شارك فى المؤامرة التي عصفت بشاور. وبعد ذلك دخل شيركوه وصلاح الدين القاهرة دخول الظافرين، حيث أباحوا للأهالى نهب قصر شاور (٥). أما شيركوه فلم يلبث أن توفى بمرض التخمة بعد شهرين (٢٣ مارس ١١٦٩)، وعندئذ خلفه صلاح الدين ليجنى ثمرة غرسه (٦).

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٩١، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٨، الكامل : حوادث ٥٦٤، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٠.

(٢) اختلفت الأقوال في أن الخليفة العاضد الفاطمي خلع علي شيركوه بخلعه الوزارة قبل مقتل شاور أو بعده .ويرجح أبو المحاسن الرأي الأخير. (النجوم الزاهرة ٥ ص ٣٥١).

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥١.

(٤) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥، ص ٣٥١.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ١٦٢ – ١٦٣.

(٦) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، التاريخ الباهر، ص ١٤١.

تم الجزء الأول من كتاب
الحركة الصليبية
ويليه الجزء الثاني